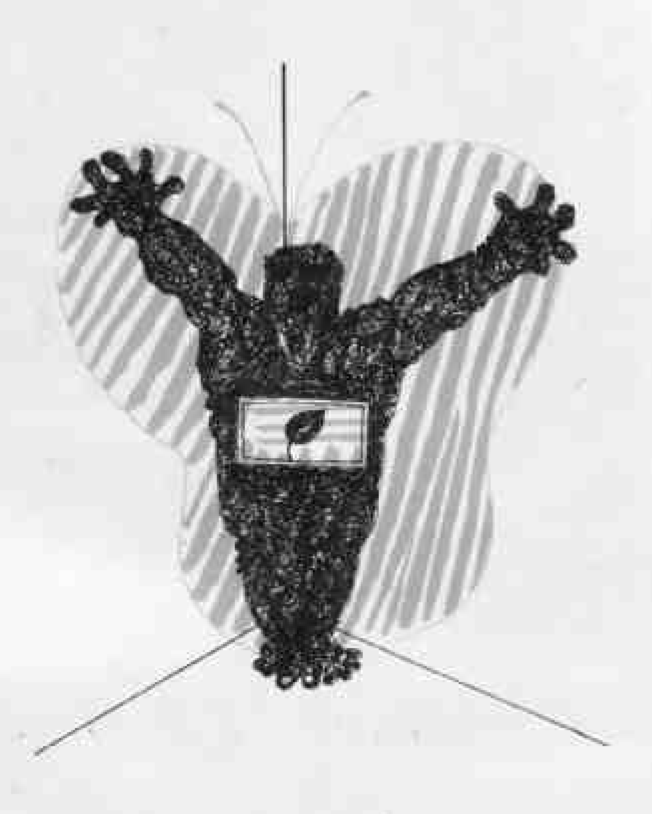
هنري شاريير

الفراشة





ترجمة: تيسير غراوي

• هذه الرواية هي الترجمة الكاملة للنص الفرنسي :
Henri Charrière : Papillon

• الطبعة العربية الأولى ١٩٨٢

دار التنوير للطباعة والنشر، ص . ب ٦٤٩٩ - ١١٣
بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللبان - بناية عساف .

• الناشر :
دار الثلث للتصميم والطباعة والنشر - ص . ب ٥٨٠٣ - ١١٣
بيروت - لبنان . هاتف ٣٤٥٥٧١ تلكس : دلتا ٢٠٦٣٩ .

• التنفيذ الفني : دار الثلث ش . م . م .

طريق العفن

كانت الضربة قاصمة إلى درجة أنني لم أصح منها إلا بعد ثلاثة عشر عاماً. والحقيقة أنها لم تكن ضربة عادية، فلقد تألب على تسديدها لي كثيرون.

نحن في السادس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣١، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً أخرجت من الزنزانة التي قضيت فيها عاماً. كنت قد حلقت ذقني وارتديت بذلة صنعتها يد ماهرة فأكسبتني مظهراً أنيقاً، وقميصاً أبيض بعقدة زرقاء كأنها اللمسة الأخيرة في هذه الطلعة البهية.

كان لي من العمر خمسة وعشرون عاماً ومع ذلك كنت أبدو في العشرين. كان رجال الشرطة قد تجمدوا قليلاً مدهوشين بمظهري، فعاملوني بأدب جم، بل نزعوا من يدي الأغلال. كنا نحن الستة، أنا وخمسة رجال من الشرطة جالسين على مقعدين طويلين في قاعة خالية، وفي الخارج كان الجو معتماً. ويقابلنا باب لابد أن يكون متصلاً بقاعة المحكمة لأننا في القصر العدلي في باريس.

سأكون بعد لحظات متهماً بجريمة قتل. جاء محاميّ الأستاذ ريمون هوبير لتحيتي وقال: ليس هناك أي دليل جاد ضدك، وأنا واثق من أننا سنخرج سالمين. وابتسمت من قوله (أننا) وكأنه هو أيضاً سيمثل أمام المحكمة كمتهم، وإذا ما صدر حكم من الأحكام فإنه سيناله هو أيضاً.

فتح الباب حاجب ودعانا للمرور. وانفتح مصراعان كبيران، فدخلت قاعة فسيحة محاطاً بأربعة من رجال الشرطة والمساعد إلى جانبهم.

ولكي يكيلوا لي الضربة، فقد اصطبغ كل شيء بلون الدم: السجاد، الستائر وأثواب القضاة الذين سيحكمون علي بعد قليل.

وصاح صائح: محكمة.

وظهر من باب على اليمين ستة رجال مرتديين: الرئيس وخمسة أعضاء وعلى رؤوسهم القلنسوات، توقف الرئيس عند كرسي في الوسط واحتل مساعدوه أماكنهم عن يمين وعن شمال.

وخيم على القاعة صمت ثقيل وظل الجميع وقوفاً وأنا معهم، ثم جلسوا بعد جلوس هيئة المحكمة.

كان الرئيس، ويدعى بيفان، ممتلىء الخدين وربعياً، وكان جهياً، ينظر إلي بعينيه دون أن يسمح لوجهه بالتعبير عن أي احساس، ولسوف يجر الجدل دون انحياز، وبوصفه رجل قضاء متمرس، حاول أن يفهم الجميع أنه غير قانع بإخلاص الشهود ورجال الشرطة، وأنه ليست له أية تبعة في تلك الضربة سوى أنه قدمها لي.

كان المدعي العام واسمه القاضي برابل، مرهوب الجانب يخشاه المحامون، وله صيت ذائع سيء بأنه الأول في إمداد المقصلة والسجون بالمحكومين، في فرنسا وفيما وراء البحر.

وبرابل هذا يمثل ملاحقة الجريمة باسم المجتمع وبيده الاتهام العام الرسمي الخالي من الإنسانية، إنه يمثل القانون وميزان العدالة، وهو الذي يحركه ويبذل قصارى جهده ليجعله راجحاً إلى جانبه. له عينا صقر، يحني عنقه وينظر إلي بحنق من أعلى عليائه، أولاً من علو منبره الذي يرفعه عني وبهيكله الضخم، إذ لا يقل عن ١٨٠ سم طولاً، مما زاده غطرسة، وهو لايفارق معطفه الأحمر، ولكنه يضع قلنسوته أمامه ويتكىء على يدين كبيرتين كالمخاط، وفي إصبعه خاتم ذهبي يدل على أنه متزوج، ويتألق في خنصره خاتم على شكل مسمار حصان.

انحنى علي قليلاً ليكون أكثر اهبة وكأنه يقول لي: «إذا كنت تظن أيها المتهم أنك تستطيع الإفلات مني فأنت على ضلال ووهم، فإن يدي هاتين سوف تمزقك مخالبها المتأصلة في نفسي، وما كنت مرهوباً في صفوف المحامين ولا معلوماً في القضاء مدعياً عاماً خطراً إلا لأنني لا أدع فريستي تفلت من يدي. ولا أبالي إن كنت مجرماً أم بريئاً، وكل ما يهمني أن أستغل كل ما هو ضدك، من مثل سيرتك الغجرية في مونتمارتر والشهادات الصادرة عن الشرطة وتصريحات رجال الشرطة. وبهذه التفاهات المفرقة التي جمعها قاضي التحقيق سأجعلك إنساناً مكروهاً جداً الأمر الذي سيحمل المحققين على إقصائك من المجتمع».

هكذا خيل إلي بوضوح وكأنني أسمعه يتكلم حقاً، هذا إن لم أكن في حلم إذ كنت منفعلاً جداً من أكل البشر هذا.

«انصرف أيها المتهم ولكن لاتحاول أن تدافع عن نفسك لأنني سأقودك إلى طريق العفن. وآمل أن لاتثق بالمحققين ولاتتوهم. فهؤلاء الرجال الاثنا عشر لايفقهون شيئاً من هذه الحياة. انظر إليهم وهم مصطفون أمامك تر اثنتي عشرة قطعة جبن أحضروا إلى

باريس من مقاطعة قصية اشتهر أهلها بالخداع والمراوغة،، إنهم من صغار البرجوازيين والمتقاعدين والتجار، ولاحاجة بي من وصفهم لك ألا تستطيع أن تفهمهم وقد بلغت خمساً وعشرين سنة عشتها في مونتمارتر؟ إن بيغال والساحة البيضاء في نظرهم أمر رهيب كالجحيم، وكذلك فإنهم ينظرون إلى رواد الليل على أنهم أعداء المجتمع، وهم جميعاً مغرورون بأن يكونوا محلفين في محكمة السين، زد على ذلك، وأؤكد لك أن هؤلاء البرجوازيين الصغار متألمون مما هم فيه من ضنك، وأنت شاب وسيم ولايعجزني أن أعريك أمامهم كأنك دون جوان ليالي مونتمارتر وهكذا سأجعل من هؤلاء المحققين أعداء لك منذ البداية وأنت الآن في أحسن هندام، وكان ينبغي أن تأتي بملابس رثة، وقد ارتكبت خطأ فادحاً في التكتيك لأنهم سوف يحسدونك على ملابسك. فهم يلبسون على الطريقة السامرية، ويحلمون في ارتداء ملابس يخيطها لهم الخياط».

الساعة الآن العاشرة، وها نحن أولاء مستعدون لافتتاح الجلسة وأمامي ستة قضاة ومدع عام سوف يضع كل مقدرته الميكافيلية وذكاءه كله في سبيل إقناع المحلفين بأنني مجرم أولاً، وبأن القرار الواجب اتخاذه هو السجن المؤبد أو الإعدام بالمقصلة ثانياً.

سيحكمون علي بتهمة قتل أحد المدعوين من الوسط المونمارتري، وليس هناك أي دليل، ولكن «الدبوك»(*) سوف يثبتون بأنني مجرم ببراهين مزيفة، وسوف يقولون بأن لديهم معلومات سرية لاتدع مجالاً للشك وتحت أيديهم شاهد مهيأ سلفاً ويدعى بولان وهو أسطوانة حقيقية مسجلة على رصيف الصالة ٣٦ وسوف يكون التمثيلية المجدية في إثبات الاتهام. وعندما أصر على إنكاري له يسألني الرئيس بتجرد تام: تقول إن الشاهد كاذب ولكن لماذا يكذب؟

سيدي الرئيس! إذا كنت أمضي الليالي ساهراً مؤرقاً منذ توقيفي وحتى الآن، فليس السبب في ذلك تبكيت الضمير في مقتل رولان لوبوتي إذ لست بالقاتل. ولكن الذي أبحث عنه، هو معرفة السبب الذي يجبر هذا الشاهد على التحامل علي بغير حدود، وكلما تهالكت التهمة وضعفت جاء بعنصر جديد يقويها. ولقد توصلت أيها الرئيس إلى القناعة بأن رجال الشرطة قد ضبطوا هذا الشاهد في جرم ما، وأنهم لقاء ذلك ساوموه على أن يشهد ضدي، ووعدوه بإطلاق سراحه عندما يصدر حكمك علي.

ولم يخب ظني، فهذا الشاهد الماثل الآن أمام المحكمة على أنه رجل شريف وغير محكوم بجرم سابق، قد ألقي عليه القبض فيما بعد بتهمة تعاطي المخدرات والمتاجرة بها. حاول الأستاذ هوبير الدفاع عني، ولكنه لم يكن على مستوى المدعي العام غير أن الأستاذ بوك توصل بسخطه أن يوجد بعض العقبات في وجه المدعي العام وللأسف لم يدم ذلك طويلاً فقد أطاحت به براعة برادل في هذا الصراع، فضلاً عن خداعه للمحققين الذين

(*) يقصد بهم المحققين. المترجم.

انفتحت أوداجهم غروراً بسبب معاملتهم على قدم المساواة معه، ويكرهم مساعدين لتلك الشخصية المؤثرة.

وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً، انتهت لعبة الشطرنج وقيل للمحامي الذي يدافع عني: شاهك مات. وأدانتني المحكمة وأنا بريء..! وهكذا لفظ المجتمع الفرنسي المتمثل

في شخص المدعي العام برانديل، شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وقد قدم لي الرئيس بفنان هذا الطبق الدسم بصوت لايتميز بأي طابع.

قف أيها المتهم. فنهضت وقد ران الصمت على القاعة وانقطعت الأنفاس وتسارع خفقان قلبي قليلاً، وكان المحلفون ينظرون إلي ويخفضون رؤوسهم خجلاً.

أيها المتهم! لما كان المحلفون قد أجابوا بنعم على جميع الأسئلة، عدا سؤال واحد، وهو المتعلق بالعمد والتصميم، فقد حكمنا عليك بالأشغال الشاقة المؤبدة، فهل لديك ما تقول؟ فلم أحرك ساكناً، وكنت طبيعياً، ولكني شددت قبضتي قليلاً على قضيب القفص الذي كنت أستند إليه، وقلت: نعم يا سيدي الرئيس، لدي أن أقول إني بريء، وإني ضحية مؤامرة بوليسية.

ومن إحدى الزوايا تراءى إلى سمعي همس من سيدات أنيقات مدعوات، كن جالسات خلف المحكمة. ودون أن أرفع صوتي قلت لهن: اسكتن أنتن أيتها السيدات ذوات اللآلئ، لقد جئتن هنا للاستمتاع بانفعالات وضيعة. لقد انتهت اللعبة، جريمة قتل وجد لها رجال شرطتكن ورجال العدل، حلاً، ولحسن الحظ. لذا فأنتن راضيات بذلك.

صاح الرئيس: يا حراس قودوا المحكوم.

وقبل أن أغيب عن الأنظار سمعت صوتاً يناديني لاتهتم يا زوجي. سوف ألقاك هناك هذه زوجتي النبيلة الجريئة نينيت التي جاءت تعبر لي عن حبها. فصفق لها رجال الطبقة الوسطى من الحاضرين في القاعة. إنهم على بينة من أمر هذه الجريمة.

ولدى عودتنا إلى الغرفة الصغيرة حيث كنا قبل المحاكمة، وضع رجال الشرطة القيد في يدي وربطني أحدهم بسلسلة قصيرة فجعل يدي اليمنى بيده اليسرى. كنا صامتين تكسرت الصمت أن طلبت من أحدهم لفافة تبغ، فأعطاني المساعد واحدة وأشعلها لي، وفي كل مرة أرفع فيها يدي أو أضعها في جيبي كان الشرطي يرفع يده أو يخفضها تبعاً لحركتي. دخنت تقريباً ثلاثة أرباع السيجارة واقفاً، ولم ينبس أحد بكلمة. وأنا الذي قلت للمساعد وأنا أنظر إليه: إلى الطريق.

وبعد أن نزلنا سلماً محفوراً باثني عشر رجلاً من الدرك، بلغت ساحة القصر الداخلية وكانت تنتظرنا هناك عربة السجن، ولم تكن من نوع الزنزانة. فجلسنا داخلها على مقعدين طويلين وكنا عشرة. قال المساعد: إلى سجن التوقيف.

سجن التوقيف

عندما بلغنا نهاية قصر ماري انطوانيت سلمني رجال الدرك إلى رئيس الحرس الذي وقع صك الاستلام وانصرفوا ساكتين، غير أن المساعد شد بقوة على يدي المكبلتين بالحديد، سألني رئيس الحرس:

– كم حكموا عليك؟

– مؤبداً

– غير صحيح! ونظر إلى رجال الدرك وفهم أنها الحقيقة.

وهذا السجان البالغ من العمر خمسين عاماً والذي رأى الكثير الكثير وعرف حكايتي جيداً، قال هذا القول: آه.. الأنذال. إنهم مجانين.

ثم إنه أطلق يدي من القيد بهدوء وتلطف بمرافقتي بنفسه إلى زنزانة مفروشة معدة خصيصاً للمحكوم عليهم بالإعدام أو الأشغال الشاقة أو للمجانين والخطرين، وأغلق الباب دونه وهو يقول: تشجع، وسوف تأتيك حوائجك والطعام من زنزانتك الأولى. تشجع.

– شكراً لك، وثق جيداً أني شجاع، وأرجو أن يبقى التأييد في حلوقهم.

وبعد دقائق طرق الباب فقلت: من؟ فأجابني صوت:

لا أحد سواي، أنا الذي أحل الطاقة.

– ثلثا، ماذا فيها؟

– أشغال شاقة مؤبدة. تحت المراقبة الدقيقة.

فكرت وقلت في نفسي: إنهم حقاً مجانين. هل يظنون أن الصدمة الدافعة التي نزلت برأسي يمكن أن تهزني وتقودني إلى الانتحار؟ إني شجاع وسوف أظل شجاعاً، سوف أقارع الجميع وسأبدأ غداً بالتحرك.

وفي الصباح تساءلت وأنا أحتسي القهوة، هل أستأنف الحكم؟ لماذا؟ هل تكون لي فرصة أفضل أمام محكمة أخرى؟ وكم يستغرق ذلك من الوقت الضائع؟ سنة وربما سنة ونصف السنة ولماذا؟ ليحكموا علي بعشرين عاماً بدلاً من التأبيد؟

وما دمت قد عزمت على الفرار فالوقت لايهم. وأعادني التذكر إلى قولة أحد المحكومين الذي سأل رئيس المحكمة قائلاً: «سيدي كم تدوم الأشغال الشاقة المؤبدة في فرنسا؟»

أمضيت أموراً في الزنزانة، ثم بعثت برسالة إلى زوجتي أعزيها وبرسالة أخرى إلى إحدى شقيقاتي التي تواجه الجميع وحدها من أجلي.

انتهى الأمر وأُسدل الستار، وكنوز قرباي يتجرعون مرارة الأسى أكثر مني وأبي المسكين هناك في أقصى الولاية يلقى عناء حمل صليب ثقيل. ارتعشت أوصالي، ولكني بريء، أنا بريء. ولكن من أجل من؟ نعم من أجل من؟ قلت لنفسي: لاتشغل بترداد البراءة، فإنهم سوف يسخرون منك.

أن ينال المرء حكماً مؤبداً مع الأشغال من أجل أمر تافه، ثم يدعي بعد ذلك أنه غير مذنب، فالأمر سيبدو مضحكاً، لذا فالصمت أجدى.

قبل صدور الحكم، وحينما كنت في سجن التوقيف، لم أفكر كم يكون السجن المؤبد ثقيلاً ولم أكن قد شغلت نفسي من قبل بمعرفة ما عسى أن يكون طريق العفن.

حسناً. إن أول ما ينبغي عمله هو الاحتكاك ببعض المحكومين الذين يحسن اتخاذهم رفاق الهروب في المستقبل. اخترت واحداً مرسيلياً واسمه ديغا، وسوف أراه بالتأكيد عند الحلاق. فإنه سيذهب كل يوم ليحلق ذقنه، وسوف أطلب الذهاب إلى هناك. وبالفعل عندما وصلت رأيته ووجهه نحو الجدار. رأيته يسحب خفية إلى ما وراء الشخص الذي يليه حتى يتأخر دوره أكبر قدر ممكن. ثم أخليت مكاني إلى جانبه مباشرة بإزاحة رجل آخر وتم ذلك على وجه السرعة.

ـ كيف حالك ياديغا؟

ـ جيد ويا بابي، أنا محكوم بخمسة عشر عاماً وأنت؟ بلغني أن تمنك كان غالياً.

ـ أجل ـ مؤبد.

ـ هل تنوي الفرار؟

ـ لا. ما يجب عمله هو الأكل الجيد، والرياضة البدنية. كن قوياً ياديغا ولسوف تحتاج إلى عضلات قوية. هل لديك مال؟

ـ نعم. عندي عشرة آلاف فرنك بالعملة الاسترلينية. وأنت؟

ـ لاشيء.

ـ نصيحتي لك أن تتزود بالمال حالاً.

ـ هل محاميك هوبير؟ إنه أبله، لن يستحصل لك على الأنبوبة. أبلغ زوجتك أن تذهب بالأنبوبة وفيها المال إلى دانته وتودعه عند دومينيك الغبي وأنا كفيل بوصوله إليك.

ـ صه. إن الحارس ينظر إلينا.

ـ إذن نستطيع الثرثرة.

ـ أوه لاشيء خطير، قال لي إنه مريض.

ـ ماذا به؟ سوء هضم في الجلسات.

وانفجر الحارس الضخم ضاحكاً.

هذه هي الحياة. ها أنذا في طريق العفن. يضحكون عالياً وهم يتندرون بحق في الخامسة والعشرين حكم عليه بالسجن مدى الحياة.

وحصلت على الأنبوبة وهي مصنوعة من الألمنيوم وقد صقلت بإعتناء وتفتح بفكها

من الوسط بالضبط. لها طرف مذكر وطرف مؤنث وتحتوي على خمسة آلاف وخمسمائة فرنك بأوراق جديدة، وعندما سلمت إلي قبلت طرفها. وهذه الأنبوبة لايزيد طولها على ستة سنتمترات وبضخامة الإبهام. نعم قبلتها قبل أن أضعها في الشرج، وتنفست عميقاً لتصعد في الكولون، إنها خزينتي. وبوسعهم أن يعروني تماماً وأن يحلوا ما بين ساقي وأن يجعلوني أسعل وأن يثنوني أو يطووني طياً، عبثاً يحاولون معرفة ما إذا كان معي شيء، لقد صعدت عالياً في المعى. الخليطة فقد صارت جزءاً مني. إنها حياتي، إنها حريتي إنها طريق الثأر[1]. إنني أفكر في الانتقام، ولا أفكر في سوى ذلك. كان الظلام قد أرخى سدوله في الخارج. إنني وحدي في الزنزانة والمصباح الكبير في السقف يتيح للحارس أن يراني من ثقب الباب. والضوء الشديد يكاد يبهرني. فوضعت على عيني منديلاً مطوياً فالنور يكاد يخطف بصري. أنا ممدد الآن على فراش فوق سرير حديدي، ولاتوجد وسادة، أستعيد تفاصيل هذه الدعوى الرهيبة كاملة وأفهم تتمة هذه الحكاية الطويلة بعمق. ولأفهم الأسس التي ساعدتني على الثبات في كفاحي يجب أن أكون أكثر إطالة وسأروي كل ما وقع لي وما رأيت في أيامي الأولى حيث دفنت حياً.

كيف التصرف عندما أصبح طليقاً؟ وبما أن الأنبوبة قد غدت في حوزتي فلا أشك لحظة في أن هروبي قد بات أكيداً.

أولاً سأعود إلى باريس في أسرع ما يمكن. وسوف أقتل أول من أقتل، ذلك الشاهد المزيف بولان، ثم أقتل الشرطيين اللذين تولّيا التحقيق، ولكن اثنين لايكفيان بل يجب أن أقتلهم جميعاً أو على الأقل أقتل أكبر عدد منهم. وحالما أكون طليقاً سأسلك سبيل العودة إلى باريس وسوف أضع عبوة كبيرة من المتفجرات في صندوق. لا أعلم بالضبط ١٠، ١٥، ٢٠ كيلو. وسوف أقدر كم يلزمني من المتفجرات ليكون عدد الضحايا كبيراً. الديناميت؟ لا. لم لا تكون المتفجرات مصنوعة من النيترو غليسرين؟ حسناً. لابأس سوف أستشير في ذلك من كان أعلم مني في هذا الشأن. أمّا رجال الشرطة فليطمئنوا إلى حسابهم ولسوف أكرمهم.

أنا مازلت مغمض العينين، والمنديل يضغط على جفني. أتخيل بوضوح الصندوق الذي لايوحي منظره بالأذى بينما هو مشحون بالمتفجرات، والمنبه منظم بدقة يحرك المفجر في اللحظة الحاسمة، ويجب أن يكون الانفجار في الساعة العاشرة صباحاً في ساحة الشرطة القضائية ٣٦ رصيف الصاغة في الطابق الأول. في تلك الساعة يتواجد هناك ما لايقل عن مئة وخمسين شرطياً ليأخذوا الأوامر ويستمعوا إلى التقرير. كم درجة ينبغي أن تصعد. حذار من الخطأ. يجب توقيت الزمن بالدقة اللازمة لكي يحمل الصندوق من الشارع إلى المكان المعد له في نفس اللحظة التي يجب أن يفجر فيها. ولكن من يحمل الصندوق؟

(١) سوف يرد ذكر الأنبوبة كثيراً. المترجم.

حسناً سأكون آخر من يصل، سأصل في سيارة عامة إلى باب الشرطة القضائية وسأقول لاثنين من الحراس بصوت متسلط: احملا هذا الصندوق إلى قاعة الإخبار والشهادات وأنا على الركبا، وقولا للمفوض دوبون إن المفتش الأول دوبوا أرسل هذا، وسأصل على الفور. ولكن هل يطيعان؟ وإذا اتفق أن وقعت من بين كل هؤلاء الحمقى على اثنين من الأذكياء في هذه المجموعة؟ إذن حبطت الخطة وكبا الجواد. علي أن أجد شيئاً آخر. فتشت وبحثت ولم أجد في ذهني ولم أصل إلى وسيلة مضمونة مئة بالمئة.

نهضت لأشرب قليلاً من الماء وشعرت بالصداع من شدة التفكير، ثم عدت إلى الاستلقاء دون عصابة على عيني وكانت الدقائق تمر بطيئة. وهذا النور... هذا النور يا إلهنا الطيب، يا إلهنا الطيب! يلك التدبيل وأعده. والماء البارد أنعشني، ويتقل الماء الصفو المتدبل بجفني أكثر من ذي قبل. سوف استخدم هذه الطريقة بعد الآن. فهذه الساعات الطويلة التي كنت أخطط فيها للانتقام في المستقبل كانت عصيبة إلى درجة كنت فيها أتحرك وكأن الخطة قيد التنفيذ.

كل ليلة وفي قسم من النهار كنت أسرح في باريس كما لو أن أوهامي غدت واقعاً. بكل تأكيد سأهرب وأعود إلى باريس. وواضح أن أول عمل أقوم به هو إجراء الحساب مع بولان أولاً ويأتي بعده دور الدجاجات رجال الشرطة ثم المحلفين. هل تستمر حياتهم هادئة؟ لابد أنهم عادوا أدراجهم إلى أماكنهم. هؤلاء المتداعون المتعمون بشعور الرضى والارتياح لأنهم أنهوا مهمتهم بنجاح، تهز أعطافهم غروراً وإحساساً بالأهمية أمام جيرانهم ومعارفهم ومواطنيهم الذين ينتظرونهم شعث الشعور ليلتهموا الحساء. حسناً. وهؤلاء المحلفون ماذا أفعل بهم؟ لاشيء. إنهم أغبياء، مساكين لم يكونوا قد أعدوا للقضاء، فالدركي المتقاعد يتصرف كالدركي، والجمركي يتصرف كالجمركي، وبائع الحليب كأي فحام. إنهم خضعوا لمشيئة المدعي العام الذي لم يجد مشقة في وضعهم في جيبه. فليسوا حقاً مسؤولين. هكذا تقرر كل شيء، ونظم وقضي فيه، فلن أخل بهم أذى.

قلت لنفسي وأنا أكتب هذه الأفكار كلها والتي سيطرت علي منذ سنوات عدة والتي عاودتني بغزارة ووضوح عجيب: إلى أي مدى يمكن أن يؤثر الصمت المطبق والعزلة التامة المفروضة على رجل في مقتبل العمر، محصور في زنزانة وماذا يمكن أن تثير الحياة العنيفة قبل التحول إلى الجنون؟ يحلق حيث يطيب له التحليق: في بيته، عند أمه وأبيه في مراحل حياته المختلفة وبخاصة في (قصور أسبانيا) التي يبدعها خياله الخصب، يبدعها بشكل حيوي بعيد عن التصديق، وبهذا الانفصام القطيع يصل إلى الظن بأنه يعيش بكل ما كان يحلم به. ستة وثلاثون عاماً مرت، ومع ذلك فإن قلمي يسيل بدون عناء ليرسم ما فكرت فيه حقاً في تلك الفترة من حياتي.

لا. لن أخل بالمحلفين أي أذى. أما المدعي العام فهو الذي يجب أن أزيله من الوجود. له عندي وصفة جاهزة، وصفها ألكسندر دوماس في رواية مونت كريستو تماماً كما حصل مع الشخص الذي وضع في كهف وترك يقضي جوعاً.

هذا القاضي مسؤول. هذا الصقر المتزيي بالأحمر جدير بأن أعد له أشنع ما يمكن من الانتقام. وهكذا بعد بولان ورجال الشرطة سأهتم بوجه خاص بهذا الوحش الكاسر.

سوف أكتري دارة (فيلا). ويجب أن يكون فيها قبو عميق بجدران سميكة وباب ثقيل جداً وإذا لم يكن الباب سميكاً بالقدر الكافي سددته بحشو بالألواح. وبعد أن استأجر الدارة سوف أحاصره وأختطفه، بعد أن أكون قد ثبت في الجدار حلقات لأقيده بها في الحال، وعند ذلك يكون لي أنا الحساب اللذيذ وأنا في مواجهته، وسوف أحدق فيه بدقة تحت أجفاني المغمضة. أجل سأنظر إليه بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها إلي في المحكمة. المشهد جلي وواضح إلى درجة أحس فيها بحرارة أنفاسه في وجهي لأنني قريب جداً وجهاً لوجه وتكاد تتلامس.

وتلتمع عيناه كعيني الباز وهما مغروزتان بفعل الضياء الشديد الذي أسلطه عليه وكأنه صادر عن منار فيتفصد عرقاً، وتسيل حبات العرق كبيرة على وجهه المحتقن بالدماء. أسمع استلتي وأصغي إلى إجاباته وأعيش هذه اللحظة بعمقها.

أيها القذر! هل تذكرني؟ هذا أنا بابيون الذي دفعت به وأنت مبتهج إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. هل تعتقد بأن هذا يساوي تلك السنوات التي قضيتها في تثقيف نفسك ثقافة عالية؟ وما أمضيت من الليالي ساهراً على القوانين الرومانية وغيرها؟ وما تعلمت من اللغة اللاتينية واليونانية؟ وما كرست من سني شبابك لتصبح خطيباً عظيماً؟ ما هدفك؟ أيها اللئيم! هل أبدعت قوانين اجتماعية خيرة وجديدة؟ هل أقنعت الجماهير بأن السلام هو أفضل الأشياء في العالم؟ هل تصببت فلسفة من دين باهر؟ أو بكل سماحة، هل أثرت في الآخرين بسمو إخلاقك الخاص ليكونوا أفضل أو ليتوقفوا عن الشر؟ قل لي هل استخدمت علمك في إنقاذ الرجال أم في إغراقهم؟ لم تفعل ذلك البتة ولا شيء من ذلك.

حافز واحد كان يحركك. هو أن تصعد وتصعد، أن تصعد سلم حرفتك القذرة المتعس. المجد عندك أن تزود السجون بالرجال، وأن تمد بهم الجلادين والمقاصل باستمرار. لو كان دبلر ممن يعترفون بالجميل ولو قليلاً لوجب عليه في نهاية كل سنة أن يبعث إليك بصندوق من الشمبانيا الفاخرة أليس بفضلك أيها الخنزير زاد عدد من قطع رؤوسهم هذا العام خمسة أو ستة على أية حال أنا الذي أمسك بك هنا مقيداً إلى الجدار بقوة، وأرى ثانية ابتسامتك. نعم أرى ابتسامة الظفر التي ارتسمت على وجهك حين لفظ القاضي حكمه علي استناداً إلى تحقيقاتك.

ويتراءى لي أن هذا قد حصل بالأمس فقط. ومع ذلك كان هذا منذ سنوات، منذ كم سنة؟ منذ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟

ولكن ما الذي جرى لي؟ تحسس نفسك يا بابيون أنت قوي، لماذا عشر سنوات ولماذا عشرون؟ أنت شاب في ريعان الصبا، وفي أحشائك ٥٦٠٠ فرنك. أقسمت معاهداً نفسي أن لايطول الأمر أكثر من عامين.

ستغدو أبله يا بابيون! فهذه الزنزانة وهذا الصمت سيوديان بك إلى الجنون.

لم يبق عندي سجائر. أشعلت آخرها أمس. سأتمشى، ولست في حاجة إلى أن أغمض عيني ولا أن أضع المنديل عليهماالرؤية ما سوف يجري، لذا نهضت. طول الزنزانة أربعة أمتار، أي خمس خطوات من الباب إلى الجدار. بدأت السير وقد تشابكت يداي خلف ظهري وعدت أدراجي.

حسناً. فكما قلت لك، أراك بجلاء ثم وأرى ابتسامتك الظافرة، وسوف أحولها إلى ابتسامة صفراء، ولكن حالك أحسن من حالي إذ لم يكن باستطاعتي أن أصرخ، أما أنت فتستطيع ذلك. اصرخ، اصرخ كما تشاء وبأشد ما تستطيع. ماذا أفعل بك؟وصفة دوماس؟ أأتركك تموت جوعاً؟ لا. هذا لا يكفي. لوأنْ أفقأ عينيك. لا تزال تبدو منتصراً، لأنني لو فقأت عينيك فإنك تريح فرصة عدم مشاهدتي، ومن ناحية أخرى سأحرم نفسي من الاستمتاع برؤية ما ينعكس على حدقتيك. أجل سأترك لك عينيك. أرغب في أن أقطع لسانك الرهيب اللاذع كالسكين بل هو أكثر من سكين، إنه كموس الحلاقة. هذا اللسان الفاجر الذي لاكته في حرفتك المجيدة. نفس اللسان يقطر حلاوة للزوجة والغلمان والعشيقة ألست تعشق؟ أو بالأحرى لمعشوق أنت؟ نعم. وأنت لا يمكن إلا أن تكون مفعولاً بك. بكل تأكيد يجب أن أقطع لسانك لأنه المنفذ لأفكارك ويعرف كيف يحركه. أقنعت هيئة المحكمة بالإجابة بنعم على أسئلتك. وبفضل هذا اللسان صورت رجال الشرطة قديسين، كرسوا أنفسهم للحق، وبفضاعة شاهد جعلت التاريخ يقف على رجليه. وبفضل هذا اللسان أيضاً جعلت المحلفين الاثني عشر ينظرون إلي وكأنني أخطر رجل في باريس. ولولا هذا اللسان المدرب الماكر القادر على الإقناع المتمرس بتشويه الناس والوقائع والأشياء، لكنت حتى الآن جالساً في المقهى الكبير على الساحة البيضاء، وليس ثمة ما يحركني من هناك. طبيعي أن أنتزعه ولكن بأية آلة؟

مشيت ومشيت حتى ضقت ذرعاً، ولكنني القيله أمام وجهي، وانطفأ الضوء فجأة وبدأت خيوط الفجر تدخل إلى غرفتي من النافذة. كيف؟ هل نحن في الصباح؟ بعد أن أمضيت الليل أحلم في الانتقام، ما أسعدها من ساعات قضيتها هذه الليلة الطويلة وما كان أقصرها. أرهفت السمع وأنا على السرير، فالصمت مطلق إلا من صوت (تيك) من حين لآخر على بابي. هذا هو الحارس الذي كان يرتدي خفاً حتى لا يثير الضجة، والذي جاء يرفع مغلاق الثقب الصغير ويلصق عينه عليه ليراني دون أن أراه.

فالآلة التي تهمها الجمهورية الفرنسية هي الآن في مرحلتها الثانية، فهي تعمل

بصورة تدعو إلى الإعجاب، ففي المرحلة الأولى أزاحت رجلاً كان يمكن أن يسبب لها الضجر والمتاعب، ولكن هذا لا يكفي، فلا ينبغي لهذا الرجل أن يموت بسرعة، ولا ينبغي أن يفلت منها بالانتحار. فهي تحتاج إليه، إذ ما فائدة إدارة السجون التأديبية، إذا لم يكن هناك سجناء؟ وستحسن أن تراقبه وترسله إلى السجن ليكون السبب في رزق موظفين آخرين.

والعودة إلى الضرير أضحكتني. لا تشغل بالك، أيها الحارس، ولا داعي لذلك، فأنا لن أهرب منك، وعلى الأقل ليس بهذه الطريقة تخشى علي من الانتحار ولا أطلب سوى شيء واحد هو الاستمرار في الحياة بصحة جيدة قدر الإمكان وأن أسرع إلى غويان الفرنسية حيث والحمد لله سترتكبون حماقة بإرسالي إليها واعلم يا حارس السجن الذي يحدث صوت (تيك) في كل لحظة أن زملاءك ليسوا من خدم الكاهن في القداس. أنت والد طيب بالنسبة إلى الحراس هناك. أعرف ذلك منذ زمن طويل فنابليون عندما أوجد سجن الميناء، سألوه من تتخذ من الحراس على هؤلاء المجرمين؟ قال: اتخذ حراساً أكثر إجراماً منهم. وبالتالي أدركت أن مؤسس سجن الميناء لم يكذب.

كلاك، كلاك وانفتحت كوة في وسط بابي عشرون سنتمتراً وكذلك عرضها، وقدموا لي القهوة وكرة من الخبز وزنها سبع مئة وخمسون غراماً، وبما أنني محكوم فليس لي الحق بالمطعم، ولكن أستطيع بالشراء الحصول دائماً على علبة السجائر وبعض الزاد من دكان متواضع؛ خلال بضعة أيام لن أحصل على شيء، فسجن التوقيف هو المدخل إلى الانفرادي.

أدخن لاكي سترايك بلذة، وثمن العلبة منه ٦,٦٠ فرنكات وقد اشتريت منه علبتين، وأنا أنفق من مدخراتي لأنها ستؤخذ مني لتسديد نفقات الدعوى. أبلغني ديغا على ورقة مدسوسة في الخبز أن أذهب إلى مكان التنظيف والتعقيم. وفي علبة الكبريت ثلاث قملات، فأخرجت الأعواد فوجدت القملات سمينة وأعرف ماذا يعني هذا. سأطلع المراقب عليها، وهكذا فإنه سيرسلني في الغداة مع كل حوائجي بما في ذلك الفراش إلى قاعة التبخير لقتل الجراثيم فقط لا قتلنا نحن بكل تأكيد. وفعلاً في اليوم التالي وجدت ديغا هناك ولا مراقب في قاعة البخار ونحن وحدنا.

شكراً لك يا ديغا، بفضلك حصلت على الأنبوبة.
— ألا تضايقك؟
— لا.
— في كل مرة تذهب فيها إلى المرحاض، اغسلهاجيداً قبل إعادتها.
— نعم. إنها محكمة الإغلاق، على ما أعتقد، لأن الأوراق المطوية فيها كطيات

الأكورديون، بحالة جيدة. هذا وقد مضى على حلي لها سبعة أيام.
ـ إذن الحال على ما يرام.
ـ ماذا تنوي أن تفعل يا ديغا.
ـ سأتظاهر بالجنون لأني لا أنوي ولا أريد الذهاب إلى سجن الميناء وربما أمضيت في فرنسا ثمانية أعوام أو عشرة، ولي علاقات قد تمكنني من الحصول على عفو عن خمس سنوات على الأقل.
ـ ما سنك؟
ـ اثنان وأربعون عاماً.
ـ أنت مجنون. لو أنك أمضيت عشر سنوات من أصل خمس عشرة سنة فسوف تخرج هرماً. هل تخشى الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقة؟
ـ أجل. أخاف من سجن الميناء ولا أخجل من الاعتراف لك بذلك. الوضع في غويان رهيب، ففي كل عام ينقص عدد السجناء بنسبة ثمانين بالمئة، فوج يتبعه فوج، وكل فوج يتراوح عدده بين ألف وثماني مئة، وألفي رجل. فإن لم يصبك الجذام أصابتك الحمى الصفراء أو الزحار الذي لا يمهل، أو السل، أو الحمى المستعصية أو الملاريا وإذا نجوت من هذا كله فإن فرصاً عديدة ستتاح لقتلك من أجل الحصول على ما تملك، أو أن تموت في جحر من الجحور.

صدقني يا بابيون لا أقول لك هذا لتيأس ولكني عرفت العديد من المحكومين الذين عادوا إلى فرنسا بعد أن أمضوا فترة قصيرة تتراوح بين خمس سنوات وسبع فأنا أعرف الحقيقة التي لا ريب فيها. إنهم أشلاء بشرية حقيقية. يمضون في المستشفى تسعة أشهر في العام ويقولون إن الهروب أمر مستحيل، كما يعتقد كثير من الناس.

ـ أصدقك يا ديغا، ولكني أثق بنفسي ولن يطيب مسعاي. ثق بذلك تماماً. فأنا بحار أعرف البحر، ويمكنك أن تطمئن إلى أني سأسرع في الهروب. وأنت هل تتصور نفسك تقضي عشر سنوات في الانفرادي؟ حتى ولو أنهم خفضوا لك خمس سنوات، وهذا غير مضمون، هل تعتقد أنك قادر على احتمالها قبل أن يصيبك الجنون بسبب العزلة التامة؟

أما أنا في الساعة الراهنة، في هذه الزنزانة، دون كتب ودون خروج ودون التكلم مع أحد فإني أضرب الأربع والعشرين ساعة يومياً بستين دقيقة بل بست مئة، ومع ذلك ستبقى بعيداً عن الحقيقة.
ـ هذا ممكن. إنما أنت شاب وأنا لي من العمر اثنان وأربعون.
ـ اسمع يا ديغا. قل لي بصراحة. ما أخشى ما تخشاه؟ ألست تخشى السجناء الآخرين؟

ـ بصراحة يا بابي! نعم. فكل الناس يعلمون أني مليونير. لذا فإن احتمال قتلي لمجرد الظن بأني أحمل خمسين ألفاً أو مئة ألف فرنك ليس ببعيد.
ـ اسمع. هل تريد أن نتفق؟ فلا تصل أنت إلى الجنون وأظل أنا ماضياً إلى جانبك نتكاتف معاً؟ أنا قوي وسريع الحركة وتعلمت المصارعة منذ صغري وأحسن استخدام السكين جيداً. إذن فمن جهة المحكومين الآخرين كن مطمئناً. سيحترموننا ويحترموننا ويخشوننا. أما في الهروب فلسنا في حاجة إلى أحد. عندك مال وعندي مال، وأحسن استخدام البوصلة وقيادة مركب، فماذا تريد فوق ذلك؟

نظر في عيني ثم تعانقنا واتفقنا. وبعد لحظات انفتح الباب فذهب في جهته مع أمتعته، وكذلك ذهبت أنا في جهتي ولم نكن متباعدين وصرنا نتقابل من حين إلى آخر عند الحلاق، أو عند الطبيب، أو في الكنيسة يوم الأحد.

كان ديغا قد وقع بتهمة تزوير العملة، من قبل الدفاع الوطني، وكان أحد المزورين قد صنعها بطريقة مبتكرة جداً. كان يمسح عن الورقة النقدية الرقم ٥٠٠ فرنك بطريقة متكاملة ويعيد طباعتها بالرقم مئة ألف. وبما أن الورقة هي ذاتها، فإن المصارف والتجار كانوا يقبلونها بكل ثقة ودام ذلك عدة سنوات حتى ضاقت بالدائرة المالية المذاهب. إلى أن أتى يوم أوقف فيه رجل يدعى بريوله، بالجرم المشهود، وكان ديغا، في البار الذي يملكه، آمناً مطمئناً، حيث يلتقي كل ليلة كبار أشرار المسافرين في العالم وكأنهم على موعد علني.

كان في العام ١٩٢٩ مليونيراً. جاءته إلى البار في إحدى الليالي، سيدة جميلة صبية ترتدي أحسن الثياب وسألت عن ديغا.

ـ أنا هو. ماذا تودين؟ تفضلي إلى الغرفة المجاورة.
ـ أنا زوجة بريوله. هو الآن في سجن باريس، لأنه باع عملة مزيفة اتهمت به في غرفة استقبال الصحة، وأعطاني عنوان المشرب (البار) وطلب مني أن أطلب منك مبلغ عشرين ألف فرنك لأدفعها للمحامي.

وعندها، لم يجد أحد كبار الأشرار في فرنسا وهو ديغا، أمام خطر امرأة تعلم دوره في أعمال التزوير، إلا جواباً واحداً، ما كان ينبغي أن يجيبه «لا أعرف زوجك مطلقاً، وإذا كنت في حاجة إلى المال، فما عليك إلا أن تسلمي نفسك للرجال، فسوف تكسبين فوق حاجتك وخاصة أن لك مثل هذا الجمال».

وهرعت المسكينة مغتاظة والدمع ملء عينيها، ثم ذهبت إلى زوجها تروي له ما حصل؛ وفي اليوم التالي سرد بريوله للقاضي ــ وقد استفزه الحنق ــ كل ما لديه من معلومات، متهماً ديغا بشدة بأنه الرجل الممول للأوراق النقدية المزيفة.

فخضع ديغا لمراقبة وملاحقة مجموعة من ألفاً رجال الشرطة في فرنسا، وبعد شهر كان ديغا والمزور والطابع وأحد عشر من مساعديهم في قبضة العدالة في ساعة واحدة، وفي أماكن متعددة. وأودعوا السجن، ومثلوا أمام محكمة السين، وقد دامت المحاكمة أربعة عشر يوماً، وقد دافع عن كل منهم محامٍ عظيم ويرويه مصرّ على أقواله وكانت النتيجة أنه من أجل عشرين ألف فرنك وكلمة نابية حمقاء أن تحطم ديغا وكأنه زاد عشر سنوات عمراً، وحكم عليه بخمس عشرة بالأشغال الشاقة. هذا هو الرجل الذي عقدت معه اتفاقاً على الموت والحياة.

حضر الأستاذ ريمون هوبير المحامي ليراني. لم يكن حاد الذكاء ولكنني لم أوجه إليه أية كلمة عتاب.

واحد، اثنان، ثلاثة، نصف دورة. وهكذا كنت أذرع أرض الزنزانة جيئة وذهاباً من النافذة إلى الباب ولعدة ساعات. أدخن وأحس بالثقة والاتزان وبالقدرة على احتمال أي شيء. وقد عاهدت نفسي أن لا أفكر في الوقت الحاضر بالانتقام.

المدعي العام، لندعه عند النقطة التي تركته فيها مربوطاً بحلقات الجدار في مواجهتي، عزمت أن أحزم أمراً في طريقة قتله.

وفجأة انطلقت صرخة يائسة حادة محزنة جداً، وصلت إلي عبر الباب كأنها صرخات رجل يعذب مع أننا لسنا في شرطة العدل هنا. وما من وسيلة لمعرفة ما يجري، وقد قلت هذه الصرخات في الليل كيالي.

لا غرو في أن هذه الصرخات شديدة حتى اخترقت باب المطبق. ربما كانت صرخات مجنون. ومن السهل تخمين ذلك في هذه الزنزانات حيث لا شيء يصل إليك. كنت أخاطب نفسي بصوت مرتفع: وأنت ماذا يهمك؟ فكر في نفسك، لا شيء غير نفسك وغير شريكك الجديد ديغا. كنت أهبط وأعلو وقد وجهت ضربة من يدي إلى صدري وأنت قاسٍ جداً، إذن كل شيء على ما يرام، فعضلات ذراعي تعمل بشكل جيد، وساقاي؟ هنيئاً لها لأنني أمشي منذ أكثر من ست عشرة ساعة دون أن أتعب.

اخترع الصينيون قطرة الماء التي تنزل على رأسك، والفرنسيون هم الذين اخترعوا الصمت، لقد طرحوا كل وسيلة للتسلية، لا كتب، ولا ورق، ولا قلم، والشبّاك ذو القضبان الضخمة، مسدود بألواح فيها بعض الثقوب التي تسمح بمرور قليل من بقع الضوء كأنها نفذت من غربال.

كنت كثير الانفعال بتلك الصرخة التي تمزق القلب. أدور كالوحش في القفص حقاً. عندي الاحساس بأني منبوذ من الجميع، ووجدت نفسي مدفوناً حياً، أجل أنا وحيد، وكل ما حصل لن يكون سوى صرخة.

فتح الباب، ودخل خوري عجوز، ولست الآن وحدي فعندي خوري هنا أمامي.

– مساء الخير يا ولدي. اعذرني لتأخري بالقدوم إليك لأنه كنت في إجازة. كيف حالك؟

دخل الخوري العجوز الطيب دون تكلف وجلس ببساطة على فراشي الحقير.

– من أين أنت؟

– من أرديش.

– أبواك؟

– ماتت أمي عندما كنت في الحادية عشرة وأبي أحبني كثيراً.

– ماذا كان يشتغل؟

– مدرساً.

– هل هو على قيد الحياة؟

– أجل.

– لماذا تتكلم عنه في الماضي ما دام حياً؟

– لأنه إذا كان حياً فأنا ميت.

– أوه! لا تقل هذا. ماذا فعلت؟

وفي لمح البرق فكرت بأنه من السخف أن أدعي البراءة فأجيب بسرعة:

– قال رجال الشرطة بأني قتلت رجلاً، وإن هم قالوا ذلك، فيجب أن يكون هذا صحيحاً.

– هل كان المقتول تاجراً؟

– لا. كان قواداً.

– أمن أجل عملية لصوصية حكموا عليك بالأشغال الشاقة المؤبدة؟ لا أفهم هل هو اغتيال؟

– لا. قتل من غير عمد.

– غير معقول يا ولدي المسكين ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك. هل تصلي معي؟

– يا سيدي الخوري! ما تلقيت تعليماً دينياً لذا فأنا لا أعرف كيف أصلي.

– لا بأس يا ولدي، سأصلي من أجلك. إنما الطيب يحب أولاده جميعاً من تعمّد منهم أم لم يتعمد. سوف تكرر كل قول أقوله. هل تريد؟

عيناه تفيضان بالعذوبة، ووجهه الكبير يطفح بالطيبة المشرقة، فأحسست بالخجل من الرفض. فلما ركع ركعت مثله: «أبانا الذي في السماء...» ودعا وصلى ثم لم أتمالك عن البكاء. والأب الطيب الذي رأى دمعي، تناول عن وجهي دمعة كبيرة وحملها إلى شفتيه وشربها وقال:

ـ «دموعك يا بني بالنسبة إلي مكافأة كبرى من الرب أرسلها لي عن طريقك. شكراً» ثم قبلني في جبيني وهو ينهض. نحن الآن على السرير من جديد جنباً إلى جنب.
ـ منذ متى لم تذرف دموعك؟
ـ من أربعة عشر عاماً؟
ـ أربعة عشر عاماً؟ لماذا؟
ـ يوم وفاة أمي.
ـ أخذ يدي في يده وقال: اصفح عن الذين تسببوا لك في الألم.
وسرعان ما سحبت يدي من يده وبقوة واحدة كنت في وسط الزنزانة بصورة لا شعورية.

ـ آه. لا. إلا هذا. لن أصفح أبداً. وهل تريد يا أبت أن أسر لك بشيء؟ في كل يوم وليلة وفي كل ساعة ودقيقة، أمضي وقتي في تدبير: متى وكيف وبأية طريقة أستطيع قتل الأشخاص الذين قادوني إلى هنا.
ـ أنت تقول هذا يا بني وتؤمن به. أنت شاب في ريعان الصبا. ففي عمرك المقبل سوف تعدل عن المعاقبة والانتقام.
وها أنذا بعد أربع وثلاثين سنة أفكر مثله.
وأعاد القول ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟
ـ هل تسديني لي خدمة؟
ـ ما هي؟
ـ أن تذهب إلى الزنزانة ٣٧ وتقول لديغا، أن يطلب عن طريق محاميه، نقله إلى مركز (كان) وأن تخبره بأنني طلبت اليوم ذلك. يجب أن نرحل بسرعة من سجن التوقيف إلى أحد المراكز، حيث يتم تأليف الأفواج الذاهبة إلى غويان إذ لو فاتنا المركب الأول لوجب أن ننتظر سنتين أخريين في السجن الانفرادي قبل أن يأتي مركب آخر. وبعد أن تراه يا سيدي الخوري يجب أن تعود إلى هنا.
ـ وبأية حجة أعود؟
ـ بحجة أنك نسيت كتاب فروض الدين مثلاً، أنا بانتظار الجواب.

ـ ولم أنت مستعجل في الذهاب إلى هذا الشيء الرهيب الذي يسمونه سجن الميناء.

نظرت إلى هذا الخوري الرسول الحقيقي من عند الله وأنا واثق من أنه لن يخونني. وقلت: لأتمكن من الهروب بأسرع ما يمكن يا أبت.
ـ إن الله سيكون في عونك، أنا واثق من ذلك، وسوف تبدأ حياة جديدة. لدي إحساس بهذا، تشي، عيناك عن إنسان طيب وقلب نبيل. سأذهب إلى الرقم ٣٧. وانتظر مني الجواب.

ولم يلبث أن عاد. لقد وافق ديغا. وترك الخوري كتابه حتى اليوم التالي. أي شعاع شمس أضاء اليوم زنزانتي؟ وبه كل شيء. كان مضاء بفضل هذا الرجل إذا كان الإله موجوداً فلماذا يسمح بوجود كائنات بشرية على الأرض، متفاوتة جداً: النائب العام، الشرطة، بولان، ثم الخوري، خوري سجن التوقيف. إن زيارته أحسنت إلي وخدمتني كثيراً.

الجواب عن الطلبات لم تطل كثيراً. فبعد أسبوع تواجد سبعة رجال في الساعة الرابعة صباحاً مصطفين في ممر السجن، والحراس كانوا حاضرين على أتم استعداد.

خلعنا ملابسنا بطء، وتعرينا، وكان الطقس بارداً، وكان جسمي مثل لحم الدجاج، وقيل لنا: «اتركوا حوائجكم أمامكم واستديروا نصف دورة وسيروا خطوة إلى الخلف».

ووجد كل واحد منا نفسه أمام صرة. وصدر أمر بارتداء الملابس. قميصي الحريري الذي كنت ألبسه حل مكانه قميص واسع مصنوع من كتان خام قاس، واستبدلت بذلتي الجميلة سترة وبنطالاً من الصوف الخشن، واختفى حذائي فوضعت قدمي في قبقاب.

إلى ذلك اليوم كان لنا مظهر الرجل العادي. نظرت إلى الآخرين فكان منظرهم يثير الاشمئزاز. لقد انتهت شخصية كل واحد منا وفي دقيقتين تحولنا إلى نزلاء سجن الميناء.
ـ إلى اليمين، إلى الاصطفاف، إلى الأمام سر.

وصلنا إلى الساحة محفوفين بعشرين حارساً، وأدخلونا مترافقين إلى خزائن ضيقة في عربة القطار. كنا في طريقنا إلى بوليو وهو اسم المركز في (كان).

السجن المركزي في كان

ما كدنا نصل حتى أدخلنا إلى مكتب المدير الذي كان يتربع على أثاث ملكي، على منصة ارتفاعها متر.

ـ احترسوا فإن المدير سيحدثكم.
ـ أيها المحكومون! أنتم هنا بصفة وديعة، ريثما يتم ترحيلكم إلى سجن الميناء. هذا منزل قوة والصمت إجباري في كل لحظة. لاتتوقعوا زيارة ولا رسالة من أحد. هناك وسيلتان لخدمتكم، إحداهما تودي بكم إلى سجن الميناء، هذا إذا سلكتم سلوكاً

حسناً، والأخرى تؤدي بكم إلى القبر، في حال سوء السلوك. والشيء عندنا هو ما يلي: أقل هفوة تصدر من أحدكم سوف يكون عقابها ستين يوماً في حبس مظلم لا تحصلون فيه على غير الخبز والماء. لم يستطع أحد أن يقاوم عقوبتين متتاليتين فيه. تحيّ للمستمع الطيب.

ثم توجه بالخطاب إلى بيبرو المجنون الآتي من اسبانيا وقال له:

– ماذا كانت مهنتك في الحياة العامة؟

– مصارع ثيران، يا سيدي المدير.

فصاح وقد أثاره الجواب إلى درجة الجنون:

– أبعدوا عني هذا الرجل.

وفي أقل من دقيقتين كان أربعة أو خمسة من الحراس ينهالون ضرباً على رأس مصارع الثيران هذا، ثم حل بعيداً منا على عجل سمعناه يصرخ ويشتم. ويقول: خمسة مقابل واحد؟ ومعهم أيضاً مقامع؟ يا للأنذال!

ثم علت صيحة حيوان جريح مشرف على الموت ثم تلاشى كل شيء، ما عدا احتكاك شيء يجر على الأرض.

إذا لم تفهم شيئاً بعد هذا المشهد فلن تفهم شيئاً. كان ديغا بجانبي فلمس بعقالي بطرف إصبعه وفهمت قصده، وكأنه يقول لي: انتبه جيداً إذا أردت الوصول حياً إلى سجن المياه.

بعد عشر دقائق ألقي كل واحد منا نفسه في زنزانة في المعسكر التأديبي في المركز، ما عدا بيبرو المجنون الذي أنزل إلى سجن معتم رهيب تحت الأرض وشاء الحظ أن يكون ديغا في زنزانة مجاورة لي.

منذ قليل عرضنا على رجل أحمر الشعر عملاق طوله متر وتسعون سنتمتراً أو يزيد. وهو أعور ويحمل بيده اليمنى سوطاً من عصب الثور. إنه السيد هنا. إنه سجين، ولكنه موظف في التعذيب بأوامر الحراس، إنه الرعب والغول للمحكومين ويستفيد منه الحراس في جلد وضرب الرجال دون أن ينالهم التعب، هذا من جهة، وفي حال الوفاة فلا يحملون تبعة ذلك أمام الإدارة. عرفت قصة هذا الوحش البشري فيما بعد عندما قمت بدورة تمريض قصيرة. هنيئاً لمدير المركز بحسن اختياره جلاده.

كان هذا الرجل عاملاً في مقلع للحجارة وقد عزم في أحد الأيام الجميلة على الانتحار، حيث كان يعيش في مدينته الصغيرة في الشمال، كما عزم في الوقت نفسه على قتل زوجته، مستخدماً في ذلك اصبعاً ضخمة من الديناميت، وكانا يقطنان في الدور الثاني من بناء مؤلف من خمسة أدوار. كانت امرأته نائمة حين أشعل فتيله وأحرق فتيل

الديناميت الذي كان يمسكه بيده اليسرى، وكان الانفجار عنيفاً والحصيلة كما يلي: تمزقت زوجته إرباً إرباً وجمعت أشلاؤها بالملعقة، وانهار جزء من البناء وقتل ثلاثة أطفال تحت الأنقاض، وكذلك قتلت امرأة عجوز عمرها سبعون عاماً، وتفاوتت جراح الآخرين في الخطر. أما هو فقد خسر قسماً من يده اليسرى فلم يبق له منها سوى الخنصر ونصف الإبهام، كذلك أصيبت عينه اليسرى وأذنه اليسرى كما أصيب بكسر في رأسه ترك ثغرة في مؤخرة الجمجمة.

ومنذ أن حكم عليه وهو هنا سيد المحكومين في زنزانات هذا المركز، ونصف المجنون هذا يستطيع أن يتحكم في رقاب التعساء الذين يقعون تحت يديه، كما يحلو له...

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة. وتبدأ حركة المجيء والذهاب ولا تنتهي، من الجدار إلى باب الزنزانة. وقد حرم علينا الاستلقاء أثناء النهار.

يصحو الجميع منذ الساعة الخامسة صباحاً على صوت صفارة حادة. وينهض الواحد منا فيرتب سريره ويغتسل، ثم يمشي أو يجلس أمام منضدة صغيرة مثبتة بالجدار.

وثالثة الأثافي في هذا النظام أن السرير يرتفع مطوياً نحو الجدار، ويبقى معلقاً، وبهذه الطريقة لا يستطيع السجين أن يتمدد وفي وسعهم مراقبته بصورة أفضل.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، وأستمر في السير أربع عشرة ساعة. وللوصول إلى آلية هذه الحركة الدائبة، ينبغي التدرب على خفض الرأس، واليدان خلف الظهر، والمشي لا ريث ولا عجل. وينبغي أن تكون الخطوات متساويات المسافة، ثم الدور آلياً إلى طرف الزنزانة على القدم اليسرى، وإلى الطرف الآخر على القدم اليمنى. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. الزنزانات هنا أحسن إضاءة مما كانت عليه في سجن التوقيف. نسمع من الخارج ضجيج المعسكر التأديبي، كما يأتينا صخب بعضهم من الريف وخاصة في الليل إذ يصل إلى سمعنا صفير العمال أو غناؤهم وهم في طريق عودتهم إلى منازلهم مغتبطين بعد أن شربوا كأساً من عصير التفاح. تلقيت هدية عيد الميلاد من شق كان في الألواح التي تسد النافذة فرأيت الريف مكللاً بالثلج الناصع البياض. والقمر الفضي يلقي ضوءه على بعض الأشجار الساطقة القائمة، حتى لكأن المشهد بطاقة بريدية نموذجية لعيد الميلاد. تحركت الريح فهزت الأشجار فنفضت عنها معطفها الأبيض فبرزت فروعها عارية.

عيد الميلاد لكل الناس، وهو عيد ولو في ركن صغير من السجن. إن الإدارة تكرمت بالسماح للسجناء بشراء قطعتين من الشوكولا. أقول قطعتين لا قرصين من الشوكولا. وهاتان القطعتان كانتا لنا عشاء العيد للعام ١٩٣١.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. لقد حولني قمع العدالة إلى رقاص ساعة، فالذهاب

والإياب في الزنزانة هما كل عالمي. لا شيء البتة يسمح به في الزنزانة. ولا يحق للسجين أن يشتغل بأي شيء، ولو أنهم فاجؤوني وأنا أنظر من خلال الشق الخشبي في النافذة لأنزلوا بي عقاباً صارماً. وفي الواقع ألم يكونوا على حق؟ إذ ما أنا في نظرهم سوى ميت حي. فبأي حق أسمح لنفسي بالاستمتاع بمنظر الطبيعة؟

رأيت فراشة تطير، لونها أزرق صافٍ فيه خط أسود. وهذه نحلة تطير غير بعيدة عنها وكلتاهما قرب النافذة. عمّ تبحث هاتان الحشرتان في هذا المكان؟ فكأنهما جئتا بشمس الشتاء. هذا إن لم تكونا مقرورتين(١) وترغبان في دخول السجن. فراشة في الشتاء؟ إنه العبث. كيف لم تمت؟ وهذه النحلة لماذا تركت خليتها؟ إن الاقتراب من هنا عمل طائش.

ومن حسن طالعهما أن السيد ليس له جناحان وإلا لما عاشتا طويلاً.

لو بيارة هذا ساحتي فظيع، وبالحدس تكهنت أن شيئاً ما سيحدث بيننا. ومن سوء الحظ أن إحساسي لم يخطئ.

وفي اليوم التالي من زيارة هاتين الحشرتين الساحرتين تمارضت. إذ نفد صبري، وكنت أختنق من الوحدة، واشتقت إلى سماع أي صوت، إلى رؤية أي وجه ولو كان قبيحاً.

عروني في الممر عرياً تاماً في هذا البرد القارس، ووجهي نحو الجدار على بعد أربع أصابع فقط منه. كنت قبل الأخير بين المصطفين الثمانية أنتظر دوري ليكشف علي الطبيب. كنت أريد أن أرى الناس وتنحنحت. فأجابني السيد وأنا أهمس بضع كلمات في أذن جولو الملقب بالرجل ذي المطرقة، وكانت ردة الفعل عند هذا الوحش الأحمر عنيفة فسدد إلي لكمة خلف رأسي طوتني نصفين. ولما كنت لم أره وهو يوجه اللكمة، اندفعت نحو الجدار فاصطدم وجهي به وجرى الدم غزيراً. وبعد أن نهضت من كبوتي ترنحت وحاولت أن أتحقق مما حصل لي، وكنت نويت الحركة احتجاج، وهذا ما كان يتوقعه هذا الرجل الضخم فركلني برجله في بطني، ورمى بي إلى الأرض كرة أخرى وجعل يجلدني بسوطه المصنوع من عصب الثور.

لم يحتمل جولو هذا المشهد فوثب عليه، ثم ساد هرج ومرج، وثار شغب فظيع، وكان جولو مغلوباً وواقعاً تحت، ووقف الحفراء يشاهدون المعركة ببرود، واشتغل الجميع عني بعد إذ نهضت. بغتة رأيت الطبيب منحنياً على الأريكة محاولاً أن يرى من قاعة الانتظار ما يجري في الممر. وكان غطاء القدر عنده يتراقص بفعل ضغط البخار، وهذا القدر فوق موقد يعمل على الفحم يدفئ غرفة الطبيب، وبالتأكيد كان البخار يلطف الهواء.

(١) مخدرتان بالبرد الشديد

وفي الحال وبرشاقة قطة سريعة، أمسكت بالقدر وعلى الرغم من إحساسي بالحرق لم أفلته، وألقيت بهذا الماء الغالي في وجه السيد الذي لم يرني لانشغاله بجولو. وانطلقت من حنجرته صرخة راعبة وتدحرج على الأرض. وكان يرتدي ثلاثة قمصان صوفية شرع يخلعها الواحد بعد الآخر في صعوبة بالغة. ولما وصل إلى الثالث كان جلده قد انسلخ معه. وكان عنق المايوه ضيقاً، وبعد الجهود التي بذلها للخروج منه، التصق بجلد صدره وبقسم من جلد عنقه ووجهه، وكذلك احترقت عينه السليمة الوحيدة فصار أعمى. وأخيراً استوى قائماً بشكله القبيح ولحمه الطري الدامي. فاستغل ذلك جولو فسدد له ركلة برجله في صميم خصيتيه، فانهار المصلاق وأخذ يتقيأ ويسيل لعابه، فقد نال حسابه، ونحن لم نضيع شيئاً في الانتظار. لم يكن الحارسان اللذان شهدا هذا المشهد على كفاءة كافية لمجابهتنا، فأطلقا إشارة الإنذار طالبين إمداداً، فوصل العديد منهم من كل حدب وأمطرونا بضربات المقامع، وأخذت نصيبي من هذه الضربات السريعة الأمر الذي أفقدني الإحساس. ثم ألقيت نفسي عارياً في سجن مظلم يغور تحت الأرض بمقدار دورين (طابقين) والماء يغمر أرض هذا السجن، واستعدت شعوري بالتدريج، وتلمست بيدي جسمي المرضوض، ووجدت في رأسي ما يزيد على اثني عشرة حدبة. كم كانت الساعة لست أدري. لا ليل هنا ولا نهار ولا نور. سمعت صوت ضربات آتية من بعيد: بان. بان. بان وكأنها رموز لاسلكية. وكان لزاماً علي أن أطرق على الجدار مرتين إن أردت الإتصال. ولكن بأي شيء أطرق؟ وأنا لا أميز شيئاً في العتمة. لا شيء يمكن أن يطبقني قبضة يدي؟ مستحيل لأنها منهوكتان. اقتربت من الجهة التي افترضت أن أجد عندها الباب، فاصطدمت بالقضبان دون أن أراها. وبالتحسس والتلمس عرفت أن الباب على بعد متر مني، يفصلني عنه شبك يلامس أصابعي، وذلك بغية إبعاد أي شخص عن متناول السجين الخطر لأنه في قفص. ويمكن التحدث معه ورشه بالماء، وإلقاء الطعام له، وإهانته، دون خوف من خطره. ولكن الشيء الجميل في هذا أيضاً أن أحداً لا يستطيع أن يضربه دون أن يعرض نفسه للخطر، لأن ذلك يقتضي فتح باب القفص.

الدقات تتكرر من وقت إلى آخر. ترى من يستطيع أن يناديني لأنه يخاطر بذلك. وطئت قدمي شيئاً صلباً فأمسكت به إذا هي ملعقة خشبية تناولتها وتهيأت للرد عليه. ألصقت أذني بالجدار فسمعت: بان. بان. بان. بان. بان. فأجبت: بان. بان. وهاتان الطرقتان تعنيان للمنادي: استمر فأنا معك. وبدأ النقر الرامز إلى الحروف الأبجدية التي تقول:

– بابي كيف حالك؟ هل أوذيت كثيراً؟ كسر ذراعي. كان هذا جولو، وتحادثنا مدة ساعتين غير آبهين بإمكانية ضبطنا متلبسين، بل كنا مندفعين نتبادل العبارات. قلت له:

– ليس في جسمي كسور إنما رأسي مليء بالحدبات، وكذلك ليس هناك جروح. وأخبرني بأنه رآهم وهم يتراوحون جراً من قدمي، وعند كل درجة كان رأسي يرتطم

بالدرجة التالية. أما هو فلم يفقد الوعي. ويعتقد أن حروق ترويبارد كانت شديدة وأن الصوف ساعد على ذلك، وجروحه كانت عميقة. وبثلاث نقرات سريعة ومتكررة فهمت بأنه يقول بأن هناك ضجة، فتوقفت. وبالفعل، بعد لحظات وإذا بصوت يصيح: إلى الوراء أيها القذر. تراجع إلى آخر الزنزانة. ثم قف وقفة استعداد وبلا حركة. (إنه السيد الجديد الذي يتكلم) اسمي باتون(قضيب) وأنا جدير بهذا الاسم. وأضاء الحجر الذي أنا فيه مصباح بحري كبير وظهر جسمي العاري.

— إليك ما تلبسه. ولا تتحرك من مكانك. وهناك الماء والخبز (٥٠٠غراماً من الخبز ولتر ماء) لا تتناول كل شيء دفعة واحدة. لأنك لن تنال شيئاً قبل مضي أربع وعشرين ساعة. ثم صرخ كالوحش ورفع المصباح نحو وجهه فرأيته يبتسم من غير خبث، ووضع إصبعه على فمه، وأشار بأصبع أخرى إلى ما تركه لي من الحوائج، إذ كان في الممر حارس، وأراد أن يفهمني بأنه ليس عدواً. وفي الواقع وجدت في قطعة الخبز قطعة كبيرة من اللحم المسلوق، وفي جيب البنطال ثروة: علبة سجائر وقداحة من فتيل الصوفان. هذه الهدايا تساوي الملايين هنا، وقميصان بدلاً من واحد، وسروال صوفي طويل إلى الكعبين.

وسوف أذكر باتون هذا. إنه جاء يشكر لي أني أزحت من دربه ترويبارد. لقد كان قبل حادث الحرق مساعداً للسيد. أما الآن وبفضلي أنا فقد غدا السيد الأكبر، وما بالقليل هذا اللقب. وبالإجمال إنه مدين لي بالترقي، وأدلى باعترافه بالجميل.

وبما أن تحديد مكان صدور الإشارات اللاسلكية يستلزم صبراً طويلاً فلا يستطيع أحد أن يقوم بهذه المهمة سوى السيد. والحراس الخاملون كانوا مطمئنين إلى باتون على حين كنت أتحدث مع جولو بالرموز البرقية في بحبوحة وسعة طيلة النهار. ومنه علمت أن الرحيل إلى سجن المياه بات وشيكاً في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر.

بعد يومين أخرجنا من الحجر وكل واحد منا محاط بحارسين، وساقونا إلى مكتب المدير. وقد كان في مواجهة الباب وخلف المنصة ثلاثة أشخاص هم قوام هيئة المحكمة وقام المدير بمهمة رئيسها، كما مثل المعاونين مساعد المدير ورئيس المراقبين.

— ها أنتما إذن يا الشهمان! ماذا عندكما من القول؟

كان جولو شاحباً وعيناه منتفختين وربما كان مصاباً بحمى، ويده مكسورة منذ ثلاثة أيام ولا بد أنه يعاني منها أشد المعاناة.

أجاب جولو بهدوء: يدي مكسورة.

— نعم أنت الذي شئت أن تكون مكسورة، حتى تتعلم كيف تهاجم الناس. سيراك الطبيب عندما يحضر وآمل أن يكون ذلك خلال أسبوع. وهذا الانتظار نوع من

الصحة فربما تضعف الألم، ولا أظنك تتوقع أن استدعي الطبيب من أجل رجل على شاكلتك. انتظر إذن حتى يتاح لطبيب المركز الحضور وسوف يعنى بك. وهذا لا يمنع أن آمركما بالبقاء في السرداب حتى إشعار آخر.

نظر جولو إليّ وكأنه يقول: وهذا الرجل ذو الهندام الحسن يتصرف بحياة الكائنات البشرية بمثل هذه السهولة. وأدرت أنا وجهي نحو المدير ونظرت إليه، فحسب أني أريد الكلام فقال لي: ألا يرضيك هذا القرار؟ ماذا لديك من القول؟ فأجبت:

— أبداً يا سيدي المدير. إنما أشعر برغبة في أن أبصق عليك، ولكنني لن أفعل خشية أن يتسخ لعابي.

فأصابه الذهول، واحتقن وجهه بالدم، ولم يستوعب حقيقة ما جرى لفكر. ولكن رئيس الحرس صاح بالمراقبين: اعتقلوه، واعتنوا به جيداً، وأتمنى أن أراه خلال ساعة يطلب الصفح زاحفاً. وسوف أؤدبه وأجعله ينظف حذائي بلسانه من أعلاه ومن أسفله. وإني أعهد به إليكم لتضربوه ضرباً مبرحاً. اثنان من الحراس فتلا ذراعي الأيمن، وآخران فتلا ذراعي الأيسر، وطرحوني أرضاً، ورفعوا يدي على ارتفاع كتفي وكبلوني بقيد له سلاسل، فعقدوا السبابة اليسرى بالإبهام الأيمن ورفعني رئيس الحرس كالحيوان من شعري. لا داعي لسرد ما فعلوا بي، ويكفي القول بأنهم جعلوا يدي مكبلتين خلف ظهري أحد عشر يوماً. إني مدين بحياتي لباتون لأنه كان في كل يوم، يلقي إلي في سجني المعتم بذلك المعتاد، ولكنني لا أقوى على تناوله وأنا مقيد، بل ما كنت أستطيع الوصول إليه حتى ولو دفعت الخبز رأسي نحو الشباك لأتناوله بأسناني. ولكن باتون كان يلقي لي منه قطعاً بحجم اللقمة بمقدار وافٍ يمسك على رمقي. كنت اجمع قطع الخبز بقدمي على شكل كومة صغيرة ثم انبطح على الأرض وأمضغها جيداً حتى لا أضيع شيئاً.

وفي اليوم الثاني عشر فكوا وثاقي، وكان الفولاذ مغروساً في لحمي والحديد في بعض المواضع مغطى باللحم المتورم. وقد أصاب رئيس الحرس خوف بقدر ما أصابني من الإغماء من شدة الألم. ولما عدت إلى الصواب أخذوني إلى المستوصف حيث نظفوني بماء الأوكسجين، وطلب الممرض أن أحقن بإبرة مضادة للكزاز. كانت ذراعاي متخشبتين ولا أستطيع إعادتها إلى حالتها الطبيعية وبعد التدليك بالزيت والكافور لمدة نصف ساعة تمكنت من خفضها على طول جسمي. نزلت إلى السرداب ثانية وحين رأى رئيس الحرس قطع الخبز الإحدى عشرة قال لي: ستكون لك وليمة! والغريب أنك لست على درجة من النحول بعد أحد عشر يوماً من الصوم.

— عندي الكثير من الماء يا حضرة الرقيب.

— آه، هذا هو. لقد فهمت. والآن كل كثيراً لتستعيد صحتك ثم انصرف.

يا للأحمق! يقول هذا وهو مقتنع بأني لم أذق طعاماً منذ أحد عشر يوماً وبأنني إذا

التهمت كل شيء دفعة واحدة فسوف أموت من التخمة. وفي المساء جاءني بالوت بتبغ وورق. فدخنت ودخنت ونفثت الدخان من ثقب في جهاز التدفئة المركزية المعطل دوماً، وطبيعي أن تكون له على الأقل هذه الفائدة.

وبعد قليل ناديت جولو، وكان يعتقد أنني لم آكل منذ أحد عشر يوماً وينصحني بالاعتدال والتمهل إذا أكلت. وخشيت أن أصارحه بالحقيقة خوفاً من قدر يستطيع فك رموز مخاطباتنا البرقية، فيعرف السر أثناء مروره.

أما هو فلا تزال ذراعه في الجبس، ويتمتع بروح طيبة. وهنأني على الثبات والجرأة.

في رأيه إن القافلة باتت على وشك الرحيل إذ قال له المرضى بأن اللقاحات المعدة لتلقيح المحكومين قبل رحيلهم قد وصلت.

لم يكن جولو حكيماً حين سألني عن الأشربة إذا كنت محتفظاً بها حتى الآن.

ــ نعم التقيتها ولكن كابدت حتى احتفظت بهذه الثروة مكابدة لا توصف. عندي في الشرج قروح دامية.

بعد ثلاثة أسابيع خرجنا من السراديب. ماذا جرى؟ أخذنا حماماً منعشاً بالماء الساخن والصابون، وأحسست بعودة الروح.

كان جولو يضحك كالطفل، وكان بييرو المجنون يشع حبور الحياة في وجهه وبوجودنا في السراديب ما كنا ندري شيئاً مما حصل. ولم يشأ الحلاق أن يجيب عن سؤالي المقتضب الذي همست به بطرف شفتي «ماذا جرى؟» فرد علي رجل مجهول قذر الوجه:

ــ في ظني أنه تم العفو عمن كانوا في السراديب وربما خافوا من مفتش قادم. المهم أنكم أحياء.

وانقلونا إلى السجون الانفرادية العادية وعند الظهر كان أمامي حساء حار بعد ثلاثة وأربعين يوماً، وقد وجدت فيه قطعة خشبية كتب عليها: «الرحيل بعد ثمانية أيام والتلقيح غداً». من أرسل لي هذا؟ لم أدرِ؟ أنا على يقين من أن سجيناً تلطف بإعلامنا وهو يعلم بأن واحداً منا يكفي لإذاعة الخبر بين الجميع، وبالتأكيد أن الرسالة وصلتني بمحض المصادفة. أسرعت إلى الاتصال بجولو لإعلامه... «حوّله». وكنت أسمع طيلة الليل الاتصالات. أما أنا فقد توقفت حالما بعثت برسالتي.

أنا مرتاح جداً في سريري، ولا أريد شيئاً يضجرني ويعيدني إلى السرداب.

على طريق سجن الميناء

سان مارتن دوره

في المساء أرسل لي بالوت ثلاث سجائر وورقة مكتوباً عليها: «اعلم أنك ترحل حاملاً مني أطيب الذكرى: أنا سيد ولكنني أحاول التخفيف عن العاقلين قدر المستطاع.

أخذت هذه المهمة على عاتقي، لأنه لي من الأولاد تسعة، وأنا متلهف للحصول على العفو، سأحاول أن أنال العفو من غير أن ألحق الأذى بأحد. وداعاً، وأتمنى لك حظاً سعيداً والقافلة تسير بعد غد».

وبالفعل جمعونا في الغداة زمراً، كل زمرة تتألف من ثلاثين رجلاً، في ممر المعسكر التأديبي، وحضر ممرضون من (كان) وأجروا لقاحات ضد الأمراض الاستوائية ثلاثة لقاحات لكل واحد، وليتران حليباً. ديغا بالقرب مني شارد الذهن. ولم نكترث بالتزام الصمت لأننا نعلم أنه لا يمكن إعادتنا إلى السرداب بعد أن تم تلقيحنا. كنا نثرثر بصوت منخفض وعلى مسمع من الحراس الذين لا يجرؤون على الاعتراض بسبب وجود ممرضي المدينة. قال ديغا: هل عندهم من عربات السجن الإفرادية ما يكفي لنقلنا جميعاً دفعة واحدة؟

ــ لا أظن ذلك.

ــ سان مارتن دوره بعيدة، وإذا نقلوا منا كل يوم ستين رجلاً، فإن عملية النقل ستدوم عشرة أيام، لأن عددنا يبلغ ست مئة.

ــ المهم أننا لقحنا. وهذا يعني أن أسماءنا على القائمة وسنكون في وقت قريب في سجن الأشغال الشاقة. تشجع يا ديغا بدأت المرحلة الثانية. اتكل علي كما اتكل عليك. فرأيت الرضى بادياً في عينيه اللامعتين. فوضع يده على ذراعي وقال: على الحياة والموت. إن الحوادث الجديرة بالذكر في القافلة قليلة. وأكثر ما كان يزعجنا، الإحساس بالاختناق

داخل «الغزالة» الإفرادية. وكان الحراس يحرمون علينا الهواء حتى حين فتحت الأبواب قليلاً لدى وصولنا إلى لا روشيل. اثنان من رفاقنا وجدا ميتين اختناقاً.

المتسكعون تجمعوا على الرصيف، لأن سان مارتن دوره جزيرة. وكان لزاماً أن يأخذوا لنا مركباً لاجتياز المضيق وقد شهدنا الكشف على شيطانين مسكينين، ومن واجب الدرك تسليمنا في القلعة أحياء أو أمواتاً، لذا حملوا معنا الجثتين على المركب. ولم يدم العبور طويلاً، وتمكنا من استنشاق هواء البحر الطيب. قلت لديغا: بدأنا نشم رائحة الهروب فابتسم، وكذلك افتر ثغر جولو عن ابتسامة وقال: أجل إنها رائحة الهروب. أنا سأرجع إلى هناك حيث هربت منذ خمسة أعوام، ثم أوقعت نفسي كالأبله حين كنت ذاهباً إلى اللقيف (١) لأحطمه فأوقعني. كان ذلك منذ عشر سنوات. لنبق متلازمين، ففي سان مارتن توضع احتياطاً في زمر، تتألف كل زمرة من عشرة أشخاص.

لقد أخطأ جولو. فحين وصلنا نودي عليه باسمه مع اثنين آخرين وعزلوا كانوا ثلاثة فارين من سجن الميناء، وأعيد القبض عليهم وبوضعنا في الزنزانة زمراً عشرية بدأت حياة الترقب. ولنا حق الكلام والتدخين والغذاء الجيد وليست هذه الفترة خطرة إلا على «الأنبوبة» إذ يستدعونك فجأة ودون أن تعرف السبب، ويعرونك تعرية كاملة، ويفتشونك بدقة بدءاً من زوايا الجسم وحتى أخمص القدم، ثم يأتي دور الأمتعة، وأخيراً تؤمر بارتداء ملابسك وتعود من حيث أتيت. من الزنزانة إلى المطعم إلى الساحة كنا نقضي الساعات في المشي مترادفين رتلاً. واحد، اثنان. واحد، اثنان. كنا نمشي رتلاً مؤلفاً من مئة وخمسين رهيناً مثل ذيل (القناقي) الطويل، والقباقيب تقرقع. السكوت مطلق وإجباري. وبعد أن ينفرط العقد، نجلس على الأرض في مجموعات تتشكل حسب الطبقات الاجتماعية أولاً رجال العصابات الحقيقيون الذين لا يهتمون كثيراً بالأصل: الكورسيكيون، المرسيليون، التولوزيون، البروتانيون، الباريسيون، الخ. ويوجد أردشي واحد، هو أنا. وتكريماً لأرديش يجب القول بأنه لا يوجد في هذه القافلة المؤلفة من ألف وتسع مئة رجل سوى اثنين من أرديش: حارس حقول قتل زوجته، وأنا. وهذا ناجم عن أن الأرديشيين رجال شجعان. أما بقية المجموعات فتتألف بأي شكل، لأن الذين يأتون إلى سجن الميناء أكثر من يغادرونه. أيام الترقب تسمى أيام الملاحظة والمراقبة، وفي الواقع كنا مراقبين من كل الزوايا.

بعد ظهر أحد الأيام كنت جالساً في الشمس عندما اقترب مني رجل يضع على عينيه نظارات، وكان قصيراً ونحيلاً. حاولت أن أعرف من أي إقليم هو، فلم يكن ذلك سهلاً بسبب لباسنا الموحد.

---

(١) اللقيف هو الذي يأكل ويشرب مع اللصوص ويحفظ متاعهم ولايسرق معهم. المترجم.

ـ هل أنت بابيون؟ وكانت له نبرة كورسيكية واضحة جداً.

ـ نعم. ماذا تبغي مني؟

قال: اتبعني إلى المراحيض، وانصرف.

ـ قال لي ديغا إنه كورسيكي، فهو حتماً من لصوص الجبال. ولكن ما عساه يريد منك؟

ـ سأعرف ذلك.

اتجهت نحو المراحيض في وسط الباحة، وهناك تظاهرت بالتبول. وكان الرجل إلى جانبي في الوضع ذاته. قال ودون أن ينظر إلي: أنا صهر باسكال ماترا. وقد أوصاني في غرفة الانتظار أن التجيء إليك عند الضرورة والحاجة.

ـ آه نعم. باسكال. إنه صديقي. فماذا تريد؟

ـ لا أستطيع حمل الأنبوبة فأنا مصاب بالزحار. ولا أعرف أحداً أعهد بها إليه. وأخشى أن يسرقوها مني أو يعثر عليها الحراس أرجوك يا بابيون احملها لبضعة أيام فقط.

وأطلعني على أنبوبته وهي أكبر من أنبوبتي، وخفت أن يكون قد نصب لي شركاً، أو أنه طلب ذلك ليعرف إذا كنت أحمل واحدة فإن قلت له: لا أستطيع حمل اثنتين، عرف. فسألته ببرودة: كم بداخلها؟

ـ خمسة وعشرون ألف فرنك.

فأخذت الأنبوبة نظيفة جداً وأدخلتها أمامه، وأنا أتساءل هل يستطيع رجل أن يحمل اثنتين؟ لست أدري.

نهضت وارتديت بنطالي. كل شيء على ما يرام ولست متضايقاً. قال لي قبل أن ينصرف: اسمي إيناس كالكاني. شكراً لك بابيون. رجعت إلى مقربة من ديغا وقصصت عليه على انفراد ما حدث.

ـ أليس ثقيلاً؟

ـ لا.

ـ إذن لن نتكلم عنه أبداً.

ـ بحثنا عن عائدين من السجن إذ كنا متعطشين للمعلومات. كيف الوضع هناك؟ كيف يعاملون السجناء؟ ما العمل للبقاء مثلي، متى؟ الخ. وشاءت الظروف أن نعثر على شخص فضولي، إنه شيء عجاب. إنه من كورسيكا ولكنه ولد في سجن الميناء. كان أبوه مراقباً هناك. وكان يعيش مع أمه في جزر السلام. ولد في جزيرة رويال إحدى ثلاث جزر. والأخريان هما سان جوزيف وجزيرة الشيطان.

ويا لسخرية القدر عاد إلى هناك لا بصفة ابن المراقب بل بصفة سجين، حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة اثني عشر عاماً، بسبب سرقة مع استخدام الكسر.

إنه فتى في التاسعة عشرة، طلق المحيا ذو عينين صافيتين. أدركنا أنا وديغا في الحال

أنه متقلب وليس لديه سوى نظرة عابرة من الوسط هناك. وعلى كل حال من الممكن استنباط بعض المعلومات المفيدة حول ما ينتظرنا. فقد حدثنا عن الحياة في الجزر حيث عاش أربعة عشر عاماً. أعلمنا مثلاً أن مريبه في الجزر كان سجيناً مشهوراً تورط في عملية مبارزة بالسكين. وأسدى لنا نصائح شتى: منها مثلاً، أنه من أجل الهروب ينبغي أن يكون الانطلاق من الأرض العظمى لا من الجزر لأن هذا مستحيل ثانياً أن لا يكون السجين مسجلاً في زمرة الخطرين، لأنه بهذه الملاحظة، ما أن يصل إلى سان لوران، وهو مرفأ الوصول، حتى يحجر عليه في الجزر لمدة محددة أو مدى الحياة، حسب درجة الملاحظة. والمحجور عليهم في الجزر بصورة عامة، تقل نسبتهم عن خمسة في المئة، بالنسبة لمجموعة المنقولين إلى هناك. والآخرون يبقون في الأرض العظمى. وحسب رواية ديغا، الجزر سليمة صحياً أما الأرض العظمى فهي موبوءة وتقص السجين شيئاً فشيئاً بكل أنواع الأمراض ووسائل الموت أو القتل.

وأملنا أن لا يحجر علينا في الجزر. غير أنني كنت أحس بشجى في حلقي: ما العمل لو صنفوني من الخطرين؟ بسبب الأشغال الشاقة المؤبدة وحادثة ترويبارو، وحادثة المدير. ما أجملني (يا حلاوة).

وفي أحد الأيام راجت دعوة إلى الاتجاه إلى المستوصفات بأية حجة. لأن الضعفاء جداً والمرضى جداً، والذين لا يطيقون السفر يدس لهم السم في الطعام. ويبدو أنها قصة ملفقة، لا أساس لها من الصحة، وأكد لنا أحد الباريسيين واسمه فرنسيس لا بأس: أن هذا كلام فارغ. وقد كان هناك فعلاً رجل مسموم، ولكن أخاه وهو موظف في المستوصف شرح له ملابسات الحادثة. هذا الشخص المتحمس كان مختصاً بالصناديق الحديدية. ويحكى أنه سطا على السفارة الألمانية في جنيف أو في لوزان أثناء الحرب العالمية لحساب الاستخبارات الفرنسية، وحصل على وثائق هامة جداً، فصار عميلاً فرنسياً. ولذا أخرجته الشرطة من السجن حيث كان عليه أن يمضي عقوبة مدتها خمس سنوات. ومنذ عام ١٩٢٠كان يعيش مطمئناً بعد عملية أو عمليتين في السنة. وكلما وقع في مأزق ذهب إلى المكتب الثاني مستغلاً خدماته، والمكتب بدوره يتدخل لتخليصه. إلا أنه في هذه المرة، لم تنجح محاولته فقد نال عقوبة لمدة عشرين سنة. وهذا هو الآن ينتحب معنا، والمارض لئلا يرافق القافلة ودخل المستوصف. ولكن حبة من السيانور أنهت القضية، حسب رواية شقيقه، واستراحت الصناديق الحديدية والمكتب الثاني.

هذه الباحة تعج بالأخبار الصحيح منها والملفق، وعلى كل حال كنا نسمعها لتزجية الوقت.

وكنت كلما ذهبت إلى المراحيض في الباحة أو داخل السجن كان ديغا يرافقني حرصاً على الأنبوبتين فيقف أمامي أثناء ذلك ويحميني من أنظار الفضوليين. أنبوبة واحدة بحد ذاتها قصة فما بالك بالتين كنت أحملها؟ وخاصة أن صحة كالكالي تزداد سوءاً.

بالأمس جرت محاولة لاغتيال كلوزيو عند الحلاق، وأصيب بطعنتين قريبتين من القلب، ونجا من الموت بأعجوبة. وعرفت حكايته عن طريق أحد أصدقائه، وإنها لقصة غريبة. هذه الجريمة كانت تصفية لحساب وقد مات فاعلها بعد ست سنوات من هذه الحادثة في كايين على إثر تناول سكاربونات البوتاس كانت مدسوسة مع العدس، مات وهو يعاني من آلام مبرحة. والممرض الذي ساعد الطبيب في تشريح الجثة، أحضر لنا قطعة من أمعائه طولها عشرة سنتمترات وكان فيها سبعة عشر ثقباً. وبعد شهرين وجد القاتل مختنقاً في سرير مرضه، ولم يعرف غريمه.

ها قد مضى علينا في سان مارتن دوره اثنا عشر يوماً، والمعتقل يغص بالسجناء، والعسس يصعدون المراقب المحيط ليل نهار.

حدثت ضوضاء عند الحمامات الرشاشة (الدوش) بين أخوين كانا يختصمان مثل كلبين. وضع أحدهما في زنزانتنا ويدعى أندره بايار، وقال لنا إنه لا يمكن أن يعاقبوه، لأن لدى الحراس أوامر بعدم جمع الأخوين مهما كانت الأسباب، وعندما عرفنا السبب بطل العجب: كان أندره قد قتل امرأة ثرية، وخبأ أخوه إميل المال المسروق.

وألقي القبض على أميل بتهمة سرقة وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات وفي أحد الأيام، وبين جماعة من السجناء، هجم على أخيه الذي لم يرسل له مالاً ليشتري سجائر، فتخلى عن الطلبة وهدده قائلاً سوف ترى. وصرح بأن أندره هو الذي قتل المرأة، وهو أي أميل خبأ المال، لهذا فإنه عندما يخرج من السجن لن يعطيه شيئاً. وعجل أحد السجناء إلى المدير ليروي له ما سمع. ولم يطل الأمر حتى أوقف أندره وحكم على الأخوين بالإعدام، وفي المركز الصحي كانا في زنزانتين متجاورتين. وتقدم كل منهما بالتماس العفو. وأجيب أميل إلى طلبه بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ورفضوا طلب أندره. وبدافع إنساني أبقوا أميل في معسكر المحكوم عليهم بالإعدام. وكان الأخوان يقومان بنزهاتهما جنباً إلى جنب والسلاسل في أقدامهما. وفي اليوم السادس والأربعين، فتح باب أندره في الساعة الرابعة والنصف وكان المدير وكاتب المحكمة والمدعي العام الذي طالب برأسه، حاضرين إنها ساعة تنفيذ الحكم بالإعدام. وفي اللحظة التي تقدم فيها المدير للكلام وصل المحامي مهرولاً يتبعه رجل آخر يحمل بيده ورقة سلمها للمدعي العام، وانسحب الجميع إلى الممر. وكان حلق أندره جافاً حتى غص بريقه. مستحيل، لا يمكن إيقاف تنفيذ حار. ومع ذلك فقد حصل، ولم يتم هذا إلا في اليوم التالي بعد ساعات من القلق والاستجوابات، وعلم من المحامي، أنه في ليلة التنفيذ اغتيل رئيس الجمهورية دومر، ولكنه لم يمت لساعته، وقضى المحامي ليلة يترصد أمام باب المستشفى، بعد أن أخبر وزير العدل بأن الرئيس لو مات قبل التنفيذ بساعة (من الساعة الرابعة والنصف إلى الساعة الخامسة) فسوف يطلب إيقاف التنفيذ لشغور منصب الرئيس. مات دومر في الدقيقة الثانية بعد الساعة الرابعة. فما بين إعلام الديوان، والإسراع إلى السيارة

وصل المحامي متأخراً ويتبعه حامل الأمر بالتأجيل. تأخر ثلاث دقائق عن فتح باب زنزانة أندريه. وأنزلت عقوبة الإعدام الى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة لكلا الأخوين.

وفي الواقع في يوم انتخاب الرئيس الجديد ذهب المحامي إلى قصر فرساي. ومنذ أن تم انتخاب البير لوبران تقدم المحامي بالتماس العفو. ولم يسبق أن رفض رئيس جديد طلباً قدم إليه. وتابع أندريه يقول: وقد وقّع لوبران على الموافقة وهاأنذا سجين حي معافى بينكم في الطريق إلى غويانا.

نظرت إلى هذا الناجي من المقصلة وقلت في نفسي: على الرغم من كل ما كابدت فإنه لا يوازي العذاب الذي ذاقه هذا الرجل.

ومع ذلك لم نقم بيننا ألفة قط فمجرد التفكير بأنه قتل العجوز المسكينة من أجل مالها أحس بالاشمئزاز. وفوق هذا كله كانت له الفرص كلها. وفيما بعد قتل أخاه في جزيرة سان جوزيف وقد رآه عدد من السجناء: كان أميل واقفاً على صخرة يصطاد السمك بالشص ولم يكن يفكر إلا في صيده وجلبة الأمواج الصاخبة طغت على كل صوت آخر تقدم أندريه من أخيه من الخلف وبيده قصبة من الخيزران طولها ثلاثة أمتار فدفعه دفعة واحدة في الظهر أفقدته توازنه. ولما كان الموضع مرتعاً لأسماك القرش فإنه قدم لها وجبة اليوم.

وفي المساء نودي عليه وبسبب غيابه عد مفقوداً في محاولة للفرار ولم يعد أحد يذكره، وحين كان بعض السجناء يقومون بجمع الأصداف في أعلى الجزيرة رأوا ذلك المشهد. وطبيعي أن جميع الرجال علموا بذلك ما عدا الجنود. ولم يكترث أندريه قط.

ربع المخبر عنه ولحسن سلوكه وفي سان لوران حظي دومارين بحسن الرعاية وكانت له زنزانة صغيرة خاصة. وحدث له مع أحد السجناء حادثة إذ دعاه إلى زنزانته لأمر شنيع فقتله بطعنة سكين، ولم يعاقب بحجة الدفاع عن النفس. ومنذ أن قضى على السجين وهو يعامل معاملة حسنة لأنه حسن السلوك!!!

سان مارتن دوره تغص بالمساجين ويمكن فرزهم إلى فريقين: ست مئة ألف سجين وتسع مئة منفي. فسجين الميناء يجب أن يكون قد ارتكب شيئاً خطراً أو على الأقل أن يكون متهماً بجريمة، والعقوبة الدنيا هي سبع سنوات مع الأشغال الشاقة تتدرج حتى المؤبد والمخفف عنه حكم الإعدام. والمنفيون لهم شأن آخر. ويكون الرجل منفياً إذا صدرت بحقه ثلاثة أحكام إلى سبعة. صحيح أنهم لصوص لا يرجى صلاحهم، وواضح أن من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه، ومع ذلك فمن العار على شعب متحضر أن تكون لديه عقوبة لاحقة هي النفي. فهناك لصوص صغار غير ماهرين، غالباً ما يقعون في يد العدالة في سهولة، فيحشرون مع المنفيين، ويتساوون من حيث النتيجة مع المحكوم عليهم بالمؤبد، وهم في حياتهم اللصوصية كلها لم يسرقوا أكثر من عشرة آلاف فرنك. وفي هذا

أعظم تفريغ لمعنى الحضارة الفرنسية. ليس من حق الشعب أن يتقم في صورة سريعة أو أن يخلع الأشخاص الذين أساؤوا إلى المجتمع، فهؤلاء الأشخاص أولى بالعناية بدلاً من معاقبتهم بصورة لا إنسانية.

سبعة عشر يوماً مرت بنا، ونحن في سان مارتن دوره، وعرفنا اسم المركب الذي سيقلنا إلى سجن الميناء وهو «لامارتينيير» وسيكون على متنه سجون وثماني مئة وألف محكوم. وفي هذا الصباح تواجد ثماني مئة محكوم في فناء القلعة منذ ساعة تقريباً ونحن واقفون في صفوف عشرية تملأ الساحة المستطيلة. انفتح الباب وظهر للعيان رجال يرتدون ملابس مغايرة لملابس الحراس الذين نعرفهم. يلبسون لباساً عسكرياً جيداً بلون سماوي ولكنه يختلف أيضاً عن لباس الدرك والجنود. يتمنطقون بزنار عريض يتدلى منه غمد المسدس وتبرز منه قبضة السلاح، وهم يعدون ثمانين رجلاً تقريباً، لوحت الشمس وجوههم، من مختلف الأعمار، ما بين خمسة وثلاثين إلى خمسين عاماً. والكهول منهم أكثر رقة من الشباب الذين انتفخت صدورهم كبراً بأهميتهم. وكان في صحبة رئيسهم المدير وضابط برتبة عقيد، وثلاثة أو أربعة أطباء يؤدون خدمة العلم من المستعمرات ويرتدون ملابس بيضاء.

أمسك العقيد بيده بوقاً وقربه من فمه، وتوقعنا أن نسمع إيعازاً للتهيؤ والاستعداد. لا شيء من هذا. إنما صاح: انتبهوا جميعاً. منذ هذه اللحظة تنتقلون إلى مهمة وتبعة سلطات وزير العدل تمثل إدارة السجون الإصلاحية في غويان الفرنسية والتي مركزها الإداري في مدينة كايين. أيها السيد القائد بارو، أسلمك ستة عشر سجيناً وثماني مئة، الموجودين هنا، وهذه لائحة بأسمائهم. تفضل وتثبت من أنهم جميعاً حاضرون. وبدأ التفقد فوراً: فلان – حاضر – فلان – حاضر واستمر ذلك ساعتين وكل شيء في نظام. وشهدنا بعد ذلك التوقيع بين الإدارتين على منضدة صغيرة أحضرت لهذه الغاية. القائد بارو يحمل على كتفه من الشارات بقدر ما يحمله العقيد، ولكن بلون ذهبي لا بلون فضي، كما هي عند الدرك. أخذ القائد دوره في الكلام فقال: أيها المبعدون، وهي الكلمة التي تعنيكم بما بعد الآن فنقول: المبعد فلان وسيكون كل منكم مقصوداً بذلك.

أنتم منذ الآن خاضعون لقوانين سجن الميناء والعقوبات ومجالسه المحلية التي تتخذ عند المقتضى القرارات اللازمة بحقكم. ومن حق هذه المجالس المستقلة استقلالاً إدارياً، أن تصدر مختلف الأحكام من الحكم العادي إلى الحكم بالإعدام، ولا شك أن هذه العقوبات التأديبية من سجن وأشغال، وإفراد، يتم تنفيذها في مختلف الأماكن التابعة للإدارة. ورجال الشرطة الذين ترونهم أمامكم يسمون بالمراقبين، وحين تتوجهون إلى أحدهم بالخطاب تقولون له: سيدي المراقب. بعد تناول الحساء يأخذ كل منكم كيساً بحرياً مع ملابس السجن، ولكن كل شيء على بصيرة، ليس لكم من متاع غيرها. ستبحرون غداً

على متن المارتينيز، مسافرمعاً ولا تيأسوا من الرحلة، ستكونون هناك في سجن المياه في حال أفضل من أي سجن في فرنسا. سيكون في مقدوركم التكلم واللعب والغناء والتدخين. وليس عليكم أن تخافوا من سوء المعاملة، إذا سلكتم السلوك الحسن، واطلب منكم الحريث إلى حين الوصول إلى سجن المياه للنظر في خلافاتكم الشخصية، فالنظام أثناء الرحلة قاس، وآمل أن تفهموه، ومن كان منكم مريضاً ولا يقوى على السفر، فليذهب إلى المستوصف ليكشف عليه الأطباء المرافقون للقافلة، وأتمنى لكم رحلة موفقة. . وهكذا انتهت المراسيم.

ـ ما رأيك يا ديغا؟

ـ يا عزيزي بابيون! أرى أنني كنت على حق، حينما قلت لك إن الخطر الأكبر هو من المحكومين أنفسهم، فهذه العبارة التي قالها «تريثوا حتى تصل إلى سجن المياه للنظر في خلافاتكم» لها دلالات كثيرة. ترى كم سيقع من حوادث القتل والاعتداء؟

ـ لا تأبه لهذا وثق بي.

بحثت عن فرنسيس لا باس وقلت له:

ـ ألا يزال أخوك مريضاً؟

ـ أجل. إنه من جماعة النفي وليس من المحكومين بالأشغال الشاقة

ـ تعجل الاتصال به، واطلب منه مبضعاً وإذا كان يرغب في أن تدفع له أعطني علماً بالمبلغ الذي يريده، وسوف أدفع ما يجب دفعه. وبعد ساعتين كان في حوزتي مبضع ذو مقبض فولاذي متين. ولا عيب فيه غير أنه كبير، ولكنه سلاح رهيب.

جلست قريباً جداً من مراحيض الباحة وأرسلت إلى كالكاني أطلبه لأرد له أنبوبته، ويبدو أن العثور عليه صعب، في وسط هذه الجموع الغفيرة المائجة التي تملأ الباحة، بحوالي مئة رجل. ولم يرَ أحد جوليو ولا غيتو ولاسورتيهي منذ وصولنا إلى اليوم.

من حسنات الحياة المشتركة أن المرء يعيش، يتكلم، وينتمي إلى مجتمع جديد إذا صح أن نسميه مجتمعاً. هناك الكثير للكلام عنه، وللسماع عنه، والقيام به، وليس هناك متسع للتفكير به. وبالنظر إلى الماضي ما أسرع ما يتبدد ويتراجع إلى المرتبة الثانية من حياتنا اليومية. كنت أظن أنني حالما أكون في حبس الأشغال الشاقة، سأنسى من أنا ولماذا جئت أسقط هنا وكيف؟ وذلك لكي أنصرف عن التفكير إلا في شيء واحد وهو الهروب.

ولقد خدعت نفسي لأن أعظم الأمور شأناً وأعلاها منزلة هو المحافظة على حياتنا. أين هم رجال الشرطة والقضاة، والمحلفون؟ أين أبي وزوجتي، وأصدقائي؟ إنهم هناك أحياء، ولكل واحد منهم مكانة في قلبي، وكأنهم اليوم ليست لهم هذه الأهمية كما كانوا عليه من قبل وذلك بسبب حمى التفكير بالرحيل وبالقفز إلى عالم المجهول والصداقات والمعارف المختلفة.

والحقيقة هي أن هذا ليس سوى انطباع سالج، فعندما أريد ذلك أحقق ما أريد، ففي اللحظة التي تفتح فيها ذاكرتي فإنهم جميعاً لديها حاضرون. ها هوذا كالكاني، قد أحضروه لي. إنه على الرغم من نظارته القوية لا يكاد يرى، ويبدو عليه العافية. اقترب مني ودون أن يتفوه بكلمة شد على يدي فبادرته بالقول:

ـ أريد أن أرد لك أنبوبتك فأنت الآن على أحسن حال وتستطيع حملها والحفاظ عليها، وإنها لمسؤولية كبيرة على عاتقي خلال الرحلة، ثم ما يدرينا، هل يكون أحدنا إلى جانب الآخر أو هل يرى أحدنا الآخر؟ إذاً يستحسن أن تستردها.

نظر إلي كالكاني نظرة حزينة

ـ هيا إلى المراحيض لأسلمها لك.

ـ لا. لا أريدها احتفظ بها لنفسك هدية مني.

ـ لم تقول ذلك؟

ـ لا أريد أن يقتلني أحد من أجلها، وأوثر أن أبقى حياً بدون مال على أن أموت بسببها. إني أمنحك إياها. وبعد هذا لا داعي لأن تجازف بحياتك من أجل مالي، وإذا جازفت فعلى الأقل أنك تجازف في سبيل مالك أنت.

ـ أنت خائف؟ هل هددك أحد؟ فيا من أحد يرتاب بأنك تحمل شيئاً.

ـ هناك ثلاثة من العرب يقتفون أثري باستمرار، لهذا السبب لم آت لرؤيتك لئلا أثير الظنون بأنني على علاقة معك. كلما ذهبت إلى المراحيض في الليل أو في النهار أرى واحد منهم فيجلس بالقرب مني قربه جهاراً وعلانية. دون أن أظهر التعمد، بأنني لا أحمل شيئاً ومع ذلك لم يكفوا عن مراقبتي. ويعتقدون بأن أنبوبتي مع رجل آخر ولا يعرفون من هو، ويتبعون خطاي ليعرفوا في أي وقت تعود الأنبوبة إلى حوزتي.

نظرت إلى كالكاني ولاحظت أنه فعلاً منخلع الفؤاد، مضطهد، فقلت له:

ـ أي مكان من الفناء يراقبونه؟

ـ ناحية المطبخ وغرفة الغسيل

ـ حسناً ابق هناك، وأنا آت على أثرك. لا. تعال معي. فتوجهت معه نحو هؤلاء العرب. نزعت المشط من تحت قلنسوتي، وأخفيت حده داخل الكم الأيمن، والكم في يدي ولما وصلت إلى هناك وجدتهم أربعة. ثلاثة من العرب وواحد كورسيكيا يدعى جيرالدو، وكان منعزلاً عن الآخرين وهو المحرض لهم، ولا بد أنه يعرف أن كالكاني صهر باسكال ماترا، وأنه لا يمكن أن يكون بغير أنبوبة.

ـ كيف الحال يا موكران

ـ جيد يا بابيون، وأنت كيف حالك.

ـ لست على ما يرام وقد جئت لأراك، وأقول لك بأن كالكاني صديقي فإن أصابه مكروه، فأنت أول من أحاسب يا جيرالدو.

انتصب مركران جيرانديو قائماً وهو طويل مثلي (١٧٤) سم تقريباً، عريض المنكبين، فانتفض وثار وهمّ بالقيام بحركة لصد الحركة، فأخرجت الشرط اللامع الجديد، وأمسكت به ملء يدي، وقلت له:

ـ إذا تحركت فسوف أقتلك كي أقتل كلباً.

هزّته رؤيتي مسلحاً وفي مكان لا يقطع فيه التفتيش، وأدهشه موقفي، وطول السلاح، فقال:

ـ جهضت للمناقشة لا للقتال.

كنت أعلم أنه كاذب، ولكن من مصلحتي أن أترك له باب النجاة مفتوحاً أمام أصدقائه، وجعلت له مخرجاً حيلاً.

ـ حسناً. ما دمت قد جهضت للمناقشة . . .

ـ ما كنت أدري أن كالكالي صديقك وكنت أظنه من الطبقة الدنيا. ويجب أن تدرك أنه في حالة الإفلاس لا بد من إيجاد شيء لإعداد الهروب.

ـ حسناً. هذا طبيعي. ويحق لك يا مكران أن تكافح من أجل حياتك.

أما هذا فعنده حصانة، فاصرف نظرك إلى مكان آخر. مد لي يده فصافحته أف. لقد أحسنت التخلص. وفي الحقيقة، لو قتلت هذا الرجل لما تمكنت من السفر غداً. وتنبهت فيما بعد إلى جسامة الخطأ الذي وقعت فيه. عاد معي كالكالي، فقلت له:

ـ لا تحدث أحداً بما جرى، فلا أريد أن يوسعني الأب ديغا سباً وشتماً. حاولت إقناع كالكالي باسترجاع أنبوبته فوعد بذلك في اليوم التالي أي قبل الرحيل، وكان حريصاً على أن لا أسافر ومعي أنبوبتان.

في تلك الليلة كنا في الزنزانة أحد عشر رجلاً وكلهم واجمون، ذلك أنهم يفكرون كثيراً أو قليلاً بأن هذا اليوم هو اليوم الأخير الذي نقضيه على أرض فرنسا. وكل واحد فينا يشده الحنين إلى الوطن ويؤلمه أن يغادر فرنسا إلى الأبد إلى أرض مجهولة هي قدرنا وإلى نظام مجهول.

جلس ديغا إلى جانبي صامتاً، قرب الباب الشبكي الذي يطل على الممر فيتسرب إلينا الهواء أكثر من أي مكان آخر. إنني أشعر بالضياع. فالأنباء عما ينتظرنا متضاربة جداً. أالفرج لم الحزن أم اليأس؟

الرجال في هذه الزنزانة كلهم من المنتمين إلى العصابات ما عدا الكورسيكي الصغير الذي ولد في السجن فهو في الحقيقة ليس من هذا الوسط إنهم في حالة من الغموض وعدم التبلور. وخلال هذه اللحظة أخرسهم وكان دخان السجائر يخرج من الزنزانة كالسحابة ويعبرها هواء الممر، وإذا أراد أحدهم أن يتجنب وخز الدخان في عينيه كان عليه أن ينخفض إلى ما تحت سحب الدخان. ولم نستطع نوماً ما عدا أندره بايار الذي نام نومة البغية.

مر شريط حياتي أمامي سريعاً: طفولتي التي درجت في أسرة يغمرها الحب والأدب والنبل. أزهار الحقول وخرير السواقي وطعم الجوز، والصيد، والخوخ الذي كان يمنحنا إياه بستاننا بوفرة، وعطر الزهيرة الخجول التي كانت تنبت في الربيع أمام باب دارنا. تذكرت داخل الدار وخارجها والأقرباء، لقد مر هذا كله أمام عيني كما يعرض الفلم. هذا الفلم الناطق الذي يسمعني صوت أمي السكتة التي أحبتني حباً جماً، وصوت أبي الرؤوف، ونباح كلبة الصيد كلارا التي كانت لوالدي والتي كنت ألعب معها في الحديقة. وأترابي من بنين وبنات رفاق اللعب في أسعد لحظات حياتي. هذا الفلم الذي أشهده دون سابق تصميم، هذا الفانوس السحري الذي أضاءه مناخة اللاشعور عند إرادتي، ملأ ليلتي هذه بانفعال عذب، ليلة الترقب للقفزة نحو عالم المجهول، عالم المستقبل. إنها ساعة إجراء الحسابات: عمري ستة وعشرون عاماً، صحتي جيدة جداً، وفي أحشائي ست مئة وخمسة آلاف فرنك هي ملكي، وخمسة وعشرون ألفاً لكالكالي. وديغا إلى جانبي معه عشرة آلاف. أعتقد أنني أستطيع الاعتماد على أربعين ألف فرنك. فإذا كان كالكالي عاجزاً عن حماية مبلغه هنا فسيبقى كذلك فوق المركب، وفي غويان، وهو من ناحيته يعلم ذلك، ولهذا لم يأت لاسترجاع ماله إذن أستطيع الاعتماد على هذا المبلغ دون أن أفارق كالكالي بطبيعة الحال، ويجب أن يستفيد منه فالمال ماله وليس لي منه شيء وسوف استخدمه لخيره وصالحه، وسوف أستفيد منه أيضاً بصورة مباشرة. أربعون ألف فرنك مبلغ كبير، أستطيع أن أشتري به شركاء سواء من السجناء الذين يقضون عقوبتهم أو الذين يطلق سراحهم أو المراقبين. فالحسابات إيجابية النتائج. وحال وصولي يجب أن أهرب بصحبة ديغا وكالكالي. هذا هو الموضوع الوحيد الذي ينبغي أن يستقطب مشاعري وأفكاري. تلمست الشرط فأحسست بالرضى عندما شعرت ببرودة مقبضه الفولاذي، وامتلاك سلاح رهيب كهذا يبعث على الثقة. ولقد عرفت قدرته في حادثة العرب.

اصطف السجناء حوالي الساعة الثالثة صباحاً أمام شبك الزنزانة واحد عشر كيساً بحرياً من القماش السميك الثري، وعلى كل كيس بطاقة، أستطيع أن أرى واحدة من وراء الشبك، قرأت: بيير. العمر ثلاثون سنة ـ الطول: ثلاثة وستون ومئة سنتمتر. القياس: اثنان وأربعون ـ الحذاء: أربعون ـ السجل ـ ×.

بيير هذا، هو بيير المجنون من بوردو حكم عليه في باريس لمدة عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة من أجل جريمة قتل. إنه فتى طيب مستقيم وصادق أعرفه جيداً. أطلعتني هذه البطاقة على مدى تنظيم الإدارة التي تدير سجن الميناء. وهنا أفضل مما عليه الحال في القلعة، حيث يجربون الأمتعة على السجين تجريباً. هنا كل شيء مدون، وكل واحد يحصل على أمتعة مفصلة على جسده. ومن طرف الشبك المحاذي لمقطع الكيس رأيت أن لون اللباس أبيض مخطط بخطوط طولانية حمراء ولابس هذا اللباس لا يخفى عن الأنظار

وبمحض إرادتي كنت أبحث في ذهني عما يرسمه هذا الذهن من صور للمحكمة والقضاة والمحلفين والمدعي العام... الخ فلا يطاوعني ولا أستطيع أن أحصل منه إلا على الصور الواقعية. وأدركت أنه لكي أعيش المشاهد التي عشتها حية في سجن التوقيف أو بوليو فلا مناص من العزلة التامة، وأحسست إذ أدركت هذا، بشيء من السلوان، وفهمت أن الحياة الجماعية التي تنتظرني ستفرز لي حاجات أخرى، وردود فعل أخرى، وخططاً أخرى.

اقترب بيير المجنون من الشبك وقال:

ــ كيف الحال بابي؟

ــ وأنت؟

ــ لابأس. لقد كنت أحلم دوماً بالسفر إلى امريكا، وبما أنني مقامر لم أستطع توفير نفقات السفر، ولكن رجال الشرطة فكروا في أن يقدموا لي هذه الرحلة مجاناً. حسناً، ليس لدينا ما نقوله غير هذا أليس كذلك يا بابي؟

كان يتكلم على سجيته دون تبجح ولا مباهاة وتحس إحساساً صادقاً بثقته بنفسه وهذه الرحلة المجانية التي قدمها له رجال الشرطة ليذهب إلى امريكا لها فوائدها.

ــ أنا أفضل الذهاب إلى سجن المنفى على البقاء خمسة عشرة سنة في سجن افرادي في فرنسا.

ــ يبقى أن تعرف النتيجة النهائية يا بيير، ألا تعتقد ذلك؟

ــ الإصابة بالجنون في الزنزانة، أو الموت في بؤس فيزيولوجي في سجن تحت الأرض من سجون فرنسا هو أسوأ من الموت بالجذام أو بالحمى الصفراء هناك. هذا رأيي.

ــ وكذلك هو رأيي.

ــ انظر هذه البطاقة إنها بطاقتك.

انحنى فنظر إليها مدققاً ليقرأها فتهجاها ثم قال:

ــ إنني متشوق لارتداء هذه الملابس، أشتهي أن افتح هذا الكيس وان البس. لن يقولوا لي شيئاً لأن هذه الأمتعة أعدت لي.

ــ دعها وشأنها. تريث. ليس الآن أوان المتاعب فأنا بحاجة إلى الهدوء.

فأطاع وانسحب مبتعداً عن الشبك.

نظر إلي لويس ديغا وقال:

ــ يا صغيري! هذه ليلتنا الأخيرة وغداً نبتعد عن وطننا الجميل.

ــ وطننا الجميل جداً ليس فيه عدالة جميلة يا ديغا. يمكن أن نتعرف على بلاد أخرى أقل جمالاً من بلدنا، ولكن وسائلهم في معاملة من أخطؤوا أكثر إنسانية. لا أعتقد أنني أحسنت القول، ولكن المستقبل سوف يكشف إن كنت على حق. وخيم الصمت من جديد.

الرحيل الى سجن المنفى

في الساعة السادسة أعلن الاستعداد على ظهر السفينة، جاء بعض السجناء يقدمون لنا القهوة ثم وصل أربعة من المراقبين في ملابسهم البيض الناصعة، والأزرار ذهبية اللون. وكان لأحدهم شارات ذهبية على شكل ٧ على الكم الأيسر ولا شيء على كتفه.

ــ أيها المبعدون! اخرجوا مثنى مثنى في الممر، وليحضر كل منكم الكيس الذي يخصه فالاسم مكتوب على البطاقة. خذوا أكياسكم وتراجعوا نحو الجدار مقابل الممر، والكيس أمامكم.

استغرقت عملية الاصطفاف ووضع الأكياس أمامنا عشرين دقيقة.

ــ انزعوا ملابسكم واحزموها بالسترة من أكمامها حسناً جداً. أنت هناك! اجمع الصرر وضعها في الزنزانة. البسوا أولاً السروال، ثم النسيج الخلدي المسروق، ثم البنطال المخطط السميك، ثم السترة، ثم الجوارب، ثم الحذاء. هل ارتديتم جميعاً؟

ــ نعم يا سيدي المراقب.

ــ حسناً. اتركوا المدرعة [١] خارج الكيس لوقت المطر لتحميكم من البرد. اتبعوني مثنى مثنى.

سار ذو الشارات في المقدمة واثنان على الجانب، والرابع في المؤخرة. كانت وحدتنا الصغيرة تتوجه نحو الساحة. وفي أقل من ساعتين كان ثماني مئة من السجناء مصطفين. ونودي على أربعين رجلاً وكنا في جملتهم مع لويس ديغا وثلاثي الفارين جولو وكالكاني وسانتيني. واصطف هؤلاء الأربعون عشراً عشراً، وعلى رأس كل وحدة مراقب لا قيود ولا أغلال. وفي الأمام على بعد ثلاثة أمتار منا يمشي عشرة من رجال الدرك القهقرى ووجوههم نحونا والبنادق القصيرة بأيديهم.

فتح رتاج القلعة وبدأت الوحدة بالسير وكلما تقدمنا في خروجنا انضم إلينا عدد من رجال الدرك مسلحين بالبنادق أو الرشيشات وجمهرة محدودة من الفضوليين يبعدهم رجال الدرك عنا، وقد جاؤوا ليشهدوا رحيلنا إلى سجن المنفى. وأثناء المسيرة سمعنا صفيراً خفيفاً صادراً من نافذة احد المنازل، رفعت رأسي فرأيت زوجتي نينيت وصديقي أنطوان، وعلى نافذة أخرى كانت زوجة ديغا وصديقه أنطوان جيل. وقد رآهم ديغا أيضاً. كنا نمشي وأبصارنا شاخصة نحو النافذة بقدر ما سمح به الوقت. وهذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها زوجتي وصديقي الذي مات فيما بعد في حادث انفجار في مرسيليا.

---

(١) المدرعة أو المدرعة: لباس من الصوف: كنزة أو بوليور. المترجم.

الصمت مطبق ولا ينبس أحد ببنت شفة، فلا سجين ولا مراقب ولا دركي ولا أحد من الجمهور عكر هذه اللحظة المؤثرة فعلاً حيث يدرك الناس كلهم أن هؤلاء الثماني مئة وألف الرجل سيختفون من الحياة إلى الأبد.

صعدنا على ظهر السفينة، ونحن الأربعين الأوائل توجهنا إلى قاع السفينة، إلى قفص عاط بقضبان حديدية كبيرة، ورأيت لوحة مثبتة كتب عليها:

قاعة رقم ١ أربعون رجلاً، فئة خاصة جداً، حذر واحتياط.

أعطي كل واحد منا سرير أرجوحي ملفوف، وتوجد حلقات كثيرة لتعليق الأسرّة الأرجوحية.

فوجئت بأحدهم يعانقني، إنه جولو. إنه يعرف هذا كله حق المعرفة، لقد سبق له مثل هذا الموقف منذ عشر سنوات. قال:

ـ أسرع. تعال من هنا وعلق كيسك في الحلقة التي سوف تعلق عليها سريرك الأرجوحي. فهذا المكان قريب من كوّتين مغلقتين، ولكن عندما يبحر سوف تفتحان فنستنشق الهواء دوماً فهنا خير مكان. عرّفت جولو بديغا. وبينا هما يتحدثان تقدم رجل فاعترضه جولو بذراعه وقال له:

ـ لا تأت من هنا أبداً إذا أردت الوصول حياً إلى السجن هل فهمت؟

ـ نعم.

ـ هل عرفت السبب؟

ـ نعم.

ـ إذن إنصرف.

وانصرف الرجل وسر ديغا بمظهر القوة هذا ولم يخف سعادته إذ قال:

ـ معكما أستطيع النوم هادئاً.

فأجابه جولو.

ـ أنت هنا أكثر أمنا مما لو كنت في دارة (فيلا) على الشاطيء وبها نافذة مفتوحة.

استغرقت الرحلة ثمانية عشر يوماً وحدث فيها حادث واحد:

في إحدى الليالي، صحا النائمون على صرخة مدوية، ووجد شخص مقتول بمدية مغروسة بين كتفيه وقد نقلت من تحت السرير وطولها عشرون سنتمتراً. المدية سلاح رهيب.

وعلى الفور حضر خمسة وعشرون أو ثلاثون مراقباً وقد شهروا علينا مسدساتهم وبندقياتهم وصاحوا بنا:

ـ تعروا جميعاً وبدون تأخير.

وخلعنا ملابسنا وأدركت أن هناك حملة تفتيش، فوضعت الشرط تحت قدمي الأيمن العاري متكئاً على ساقي الأيسر بصورة أشد لأن ثقله يحرجني ولكن قدمي تغطي

الشرط. مر أربعة من المراقبين وبدؤوا بالتنقيب والبحث في الأحذية والملابس، وقبل أن يدخلوا تركوا أسلحتهم وأغلقوا إغلاق الباب على أنفسهم وهناك في الخارج من يراقبنا وسلاحهم مسدد نحونا باستمرار. وقال أحد رؤسائهم: من يتحرك يقتل. وعثروا أثناء التفتيش على ثلاث مدى وسمارين كبيرين مشحوذين وفتاحة سدادات، وأنبوبة ذهبية، وأخرج ستة رجال إلى السطح وهم عراة. ثم وصل رئيس القافلة المقدم بارو ويصحبه ضابطان من المستعمرات وقائد السفينة. وبعد أن خرج المراقبون عدنا إلى ارتداء ملابسنا دون انتظار الأوامر، والتقطت مشرطي. انسحب المراقبون إلى آخر السفينة وكان بارو في الوسط والآخرون قرب السلم يقابلهم الرجال الستة العراة وهم على خط مستقيم وفي حالة تأهب. قال المراقب الذي اشترك في التفتيش مشيراً إلى السكين وإلى صاحبها: هذه لهذا.

ـ صحيح، إنها لي.

قال بارو: حسناً. سيكمل رحلته في زنزانة فوق الآلات. وهكذا كان كل رجل يتعرف على أداته: صاحب المسامير على مساميره وصاحب فتاحة القوارير على فتاحته.. الخ.

وأخذ كل واحد منهم يصعد السلم وهو لا يزال عارياً، ويرافقه اثنان من الحرس. وبقي على الأرض سكين وأنبوبة ذهبية لرجل واحد. إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، ذو بنية قوية، ولا يقل طوله عن ثمانين ومئة سنتمتر. جسم ضليع وعينان زرقاوان. قال الحارس وهو يمد الأنبوبة الذهبية:

ـ هذه لك، أليس كذلك؟

ـ نعم إنها لي.

قال المقدم بارو وماذا تحتوي؟

ـ ثلاث مئة ليرة انجليزية ومئتي دولار وماستين وزن كل واحدة منها خمس قراريط.

ـ حسناً سنرى.

وفتح الأنبوبة وبما أن الجنود يتحلقون حول المقدم، فإن أحداً لم ير شيئاً ولكن سمع صوته وهو يقول: صح، ما اسمك؟

ـ سيلفيدنا رومنو

ـ أنت إيطالي؟

ـ نعم ياسيدي.

ـ لن نعاقبك على احتفاظك الأنبوبة وإنما من أجل هذه المدية.

ـ عفواً سيدي هذه المدية ليست لي.

قال الحارس: لا تقل هذا لأني وجدتها في حذائك.

ـ أكرر بأن السكين ليست لي.

ـ إذن أنا كذاب.

ـ لا. وإذا أخطأت.
قال المقدم: ولمن تكون إذن؟ وإذا لم تكن لك فإنها لأحدهم.
ـ إنها ليست لي وهذا كل شيء.
ـ إذا كنت لا تريد أن نحبسك في حبس فوق مراجل السفينة التي سوف تشويك شياً أفقل لي هذه المدية؟
ـ لا أدري
ـ أيعثر في حذائك على سكين ولا تعرف لمن هي؟ أتحقلني هزواً؟ فإما إنها لك، وإما أنك تعرف من وضعها. أجب.
ـ ليست لي وليس علي أن أقول لمن هي، ومتى كنت لشرطتكم جاسوساً؟
أم تراني أحد حراس السجن احتياطاً؟
ـ أيها المراقب ضع الأغلال في يدي هذا الرجل. وسوف تدفع غالياً ثمن هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الانضباط.
وأخذ المقدمان يتحدثان فيما بينهما. ووجه قائد السفينة أمراً لمعلم آخر كان صاعداً إلى أعلى السلم.

وبعد لحظات جاء بحار بروتاني حباه الله بسطة في الجسم، يحمل بيده دلواً خشبياً مملوءاً حتى نهاية البحر، وحبلاً بضخامة الرسغ ربط الرجل إلى آخر درجة في السلم على ركبتيه، وطفق البحار يغطس الحبل في ماء الدلو ويهال به ضرباً على مؤخرة الشيطان المسكين وعلى كليتيه وظهره بعده ولم تصدر من بين شفتيه آنة واحدة حتى سال الدم من جسمه.

وفي صمت القبور هذا انطلقت صيحة احتجاج من قفصنا:
ـ يا عصابة الأنزال، أيها القتلة، أيها القذرون القاسدون وكلنا أمعن بالتهديد بإطلاق النار ازدحنا زمجرة. وفجأة صاح المقدم: علي بالبخار.
وأدار بعض البحارة دواليب وانطلقت نفاثات البخار التي هبت علينا بقوة، إلى درجة أننا انبطحنا جميعاً في أقل من دقيقتين، لأن البخار كان موجهاً على ارتفاع الصدر، وهيمن علينا خوف جماعي، ولم يجرؤ المحترقون على الشكوى، ولم يدم هذا غير دقيقة واحدة، ولكنه أرعب الجميع.

آمل أن تكونوا قد فهمتم أيها الرؤوس اليابسة، ولأقل حادثة سأطلق عليكم البخار مفهوم؟ انهضوا.
ثلاثة رجال فقط احترقوا فعلاً فأرسلوا إلى المصح، وأعيد المجلود إلينا، وقد توفي بعد ست سنوات.

خلال هذه الأيام الثمانية عشر من الرحيل، اتسع وقتنا لجمع المعلومات، لو حاولنا أن تكون لدينا فكرة عن سجن الميناء، فما من شيء كان يجري وفق تخمينانا، ومع ذلك

فعل جوليو المستحيل لتزويدنا بالأخبار. علمنا مثلاً بأن سان لوران قرية تبعد عن البحر عشرين كيلومتراً، على نهر يدعى ماروني، وقد وضح جوليو قائلاً:
ـ في هذه القرية سجن الإصلاحية التابع لمركز السجن البحري. وفي هذا المركز يجري الاقتراع لفرزنا إلى فئات. فالمبعدون يلحقون مباشرة إلى إصلاحية تسمى سان جان وهي تبعد مئة وخمسين كيلومتراً والسجناء يصنفون على الفور في ثلاث زمر:
أولاً، الخطرون جداً وسوف ينادى بأسمائهم ساعة وصولهم، ويوضعون في زنزانات المعسكر التأديبي بانتظار نقلهم إلى جزر سالو ويحتجزون فيها إلى وقت محدد أو مدى الحياة. تقع هذه الجزر على بعد خمس مئة كيلو متر من سان لوران ومئة كيلومتر من كايين، وتدعى الكبرى رويال والثانية سان جوزيف وصغرى الثلاثة جزيرة الشيطان، والرجال في هذه الجزيرة سجناء سياسيون.

ثانياً. الخطرون في الزمرة الثانية ويبقون في معسكر سان لوران حيث يقومون بأعمال البستنة والزراعة، وإذا اقتضى الأمر أرسلوا إلى معسكرات قاسية جداً مثل معسكر فورسه، شارفن، كاسكارد السيرك الأحمر، وأخيراً الكيلومتر الثاني والأربعون المدعو بمعسكر الموت.

ثالثاً.زمرة الأسوياء، وهم يستخدمون في الإدارة والمطابخ وتنظيف القرية وفي مختلف الأعمال، كالنجارة والحدادة والصبغ، والكهرباء والتنجيد والخياطة.. الخ.

إذن الساعة الحاسمة هي ساعة الوصول. فإذا نادونا وقادونا بأسمائنا إلى الزنزانة، فمعنى ذلك أننا احتجزنا في الجزر وقضي على كل أمل في الهروب. وتبقى لدينا فرصة، واحدة، وهي إحداث جرح في الركبة أو البطن لننقل إلى المستشفى ومنه نهرب. يجب أن نتجنب الذهاب إلى الجزر بأي ثمن. وهناك فرصة أخرى إذا كان المركب الذي سوف ينقل المحتجزين غير مهيأ للقيام بالرحلة فلا مناص من إخراج النقود لرشوة الممرض لكي يحقننا بإبرة من روح التربانتين في المفصل ويدخل شعرة معفونة في البول فيحدث الالتهاب، أو أنه يشقنا الكبريت، ثم تقول للطبيب إن الحرارة بلغت الأربعين، وخلال هذه الأيام من الانتظار يجب الذهاب إلى المستشفى مهما كلف الأمر. وإذا لم يناد علينا وتركنا مع الآخرين في بزاكات المعسكر وحينئذ سيكون لدينا متسع من الوقت للتحرك. وفي هذه الحالة ينبغي أن نبحث عن موظف في داخل المعسكر، بل يجب رشوة المحاسب ليؤمن لنا في القرية مكان نزاع المجاري أو الكناس أو أي عمل في مشترة أحد المتعهدين المدنيين وبالخروج من الإصلاحية والعودة مساء سوف تتاح لنا فرصة الاتصال مع المحكومين المحررين الذين يعيشون في القرية، أو مع الصينيين لكي يعدوا لنا الهروب. قيل لنا: تجنبوا المعسكرات حول القرية فكل من يدخلها تخطفه الموت في سرعة. وهناك معسكرات لم يعش فيها رجل أكثر من ثلاثة أشهر. وفي الغابة يفرض على السجين أن يقطع متراً مكعباً من الخشب في اليوم. كل هذه المعلومات الثمينة جمعها لنا جوليو خلال

الرحلة. وبالنسبة إليه فإنه يستعد للذهاب إلى السرداب لأنه عائد من هروب وهو يحمل في أنبوبته سكيناً أو بالأحرى موسى صغيرة وعند الوصول سوف يجرحها ويشق بها ركبته، وأثناء نزوله من المركب سيرمي بنفسه عن السلم على مشهد من الجميع، ويظن أنه سينقل مباشرة إلى المستشفى وهذا ما حصل بالفعل.

سان لوران دو ماروني

استبدل المراقبون ملابسهم لإجراء التبادل، عادوا إلى ملابسهم البيض ووضعوا على رؤوسهم قلنسوات من نوع جديد خاص بالمستعمرات بدلاً من عمراتهم السابقة. قال جولو: لقد وصلنا. وصار الجو خانقاً لشدة الحر بعد إغلاق الكوى التي من خلالها رأينا الغابة فنحن إذن في ماروني، والماء موحل. هذه الغابة العذراء خضراء ومزهدة، والطيور تحلق مذعورة من صوت صفارة السفينة التي تجري في بطء شديد مما يسمح برؤية تفاصيل الأشياء بيسر وراحة، ورؤية هذه النباتات الخضر القاتمة الكثيفة والنائية جداً. رأينا المنازل الخشبية وسطوحها المصنوعة من صفائح التوتياء. النساء والرجال السود أمام منازلهم ينظرون إلى المركب في صورة. وقد اعتادوا رؤيته وهو يفرغ شحنته البشرية، لهذا لم تبدر عنهم أية إشارة تحية أثناء مروره. ثلاث صفرات وضجيج مروحة السفينة أنبأتنا بالوصول ثم سكن هدير الآلات حتى لتكاد تسمع طنين الذبابة، لا حس ولا كلام. جولو معه موساه مفتوحة، شق بها البنطال من ناحية الركبة ومزق أطراف الخياطة، وعليه أن لا يجرح ركبته إلا عند الجر حتى لا يقطر دمه على الأرض من مسافة أطول.

فتح المراقبون باب القفص واصطففنا ثلاث ثلاث وكنا في الصف الرابع. كان جولو بيني وبين ديغا، ثم صعدنا الجسر وكانت الساعة الثانية من بعد الظهر، وشمس لاهبة تلهب جمجمتي الحليقة وعيني. وبعد اصطفافنا على الجسر توجهنا نحو المعبر، ولدى اهتزاز العمود الناشيء عن دخول أوائل القادمين على المعبر، وضعت كيس جولو على كتفه بينما راح هو يشد جلد ركبته ويغرز فيه موساه فأحدث بضربة واحدة جرحاً طوله بين سبعة وثمانية سنتيمترات وسلمني الموسى، وأمسك كيسه وفي اللحظة التي سلك فيها المعبر رمى بنفسه وتدحرج إلى أسفل. فرفعوه ولما رأوه جريحاً أحضروا له نقالة. وسار السيناريو وفق الخطة المرسومة وذهب يحمله رجلان على النقالة.

كانت هناك جمهرة من الناس مختلفة ألوان ملابسهم تنظر إلينا بفضول. سود وسمر،

هنود وصينيون، وحثالة من البيض (هؤلاء البيض ربما كانوا من السجناء المحررين) كانوا يتفحصون كل من وضع قدمه على اليابسة، وقد اصطف بعضهم خلف بعض. ومن الطرف الآخر مراقبون ومدنيون في هندام حسن وغلمان ونساء قمصان شموزهن قصة صيفية. وكلهم يضعون على رؤوسهم قبعات المستعمرة. وهم أيضاً ينظرون إلى القادمين الجدد. وعندما بلغ عددنا المئتين اجتازت القافلة مشياً مسافة عشر دقائق تقريباً حتى وصلنا إلى باب عال ذي ألواح من السنديان، كتب عليه «إصلاحية سان لوران دوماروني» الاستيعاب: ثلاثة آلاف شخص. انفتح الباب ودخلنا عشراً عشراً.

إلى الأمام سر: واحد، اثنان، ـــ واحد، اثنان.

وقد شهد وصولنا العديد من السجناء الذين تعلقوا بالنوافذ أو الحجارة الكبيرة ليملؤوا أعينهم بمنظرنا.

وحين وصلنا إلى وسط الفناء نودي علينا أن قفوا. ضعوا أكياسكم أمامكم، وأنتم الآخرون وزعوا عليهم القبعات، وأعطي كل منا قبعة من القش، وما كان أحوجنا إليها، إذ سقط ثلاثة منا بتأثير ضربة الشمس.

أخذنا أنا وديغا نتبادل النظرات، لأن جندياً ذا شارة على كمه أمسك بلائحة بيده، وتذكرنا ما قاله لنا جولو. نادى على غيني، وقيل له: من هنا، وأحاط به مراقبان، وذهب سوزيني كذلك وجيرازول.

ــ جول بنيار؟

ــ جول بنيار (وهو جولو) مجروح وقد نقل إلى المستشفى.

ــ حسناً هؤلاء هم المحتجزون في الحزر. ثم أضاف:

ــ انتبهوا. من يسمع اسمه فليخرج من الصف مصطحباً كيسه على كتفه، وليذهب للاصطفاف أمام البراكة الصفراء ذات الرقم ــ ١ ــ.

ــ فلان ؟ حاضر.. الخ

تواجدنا أنا وديغا، وكاربيه مع المصطفين الآخرين أمام البراكة، وفتح بابها فدخلنا قاعة مستطيلة، يبلغ طولها عشرين متراً تقريباً. وفي وسطها ممر عرضه متران. وعن اليمين وعن الشمال حاجز حديدي يمتد من أول القائمة حتى آخرها، وأسرة من القماش مشدودة بين الحاجز والجدار، ولكل سرير غطاء.

يختار كل واحد المكان الذي يعجبه. ديغا وبيرو المجنون وسانتوري وغرانده وأنا أخذنا أمكنتنا متجاورين. وتشكلت على الفور جماعتنا. توجهت نحو آخر القاعة فرأيت زنانات الاستحمام (الدوش) على اليمين، والمراحيض على اليسار وليس فيها ماء جار. تسلقنا قضبان النوافذ وشاهدنا عملية التوزيع على القادمين الآخرين. كنا أنا وبيرو وديغا في غاية الإبتهاج لأننا لم نحتجز ولأننا في براكة واحدة، وإلا كنا في زنزانة كما أوضح لنا جولو. الجميع محبورون وبعد أن انتهى كل شيء في حوالي الساعة الخامسة قال لنا

غرانلده: إنه لشيء غريب في هذه القافلة لم يناد على عجوز واحد. وهذا لعمري أفضل.

غرانلده هذا، هو الذي سرق الصندوق الحديدي من معامل الكهرباء وقد أضحكت هذه العملية فرنسا كلها.

على خط الاستواء، الليل والنهار يأتيان بغير شفق ولا سحر. يولج من أحدهما إلى الآخر فجأة طوال السنة، وفي الساعة ذاتها. يحلّ الظلام في الساعة السادسة والنصف مساء. وفي تلك الساعة يحضر سجينان عجوزان ومعهما مصباحان يعملان على النفط فيعلقانها في السقف فيصدر عنها ضوء خافت، وهكذا يبقى ثلاثة أرباع المهجع في غيهب دامس وفي الساعة التاسعة يستسلم الجميع للنوم. يكاد الحر يقتلنا، ولا نحس نسمة، فتعرينا إلا من السروال. استلقيت بين ديغا وبيرو وثرثرنا ثم نمنا وفي صباح الغد، كان الليل لا يزال مرخياً سدوله عندما دق النفير. فنهضنا واغتسلنا وارتدينا الملابس. قدموا لنا قهوة وخبزاً مضاعفاً وقد ثبت إلى الجدار رف خشبي لنضع عليه الخبز والصحن وباقي حوائجنا ودخل علينا في الساعة التاسعة مراقبان وسجين شاب في ملابس بيض غير مخططة. الجنديان من كورسيكا ويتكلمان اللغة الكورسيكية مع مواطنيهم من السجناء، وفي هذه الأثناء كان الممرض يتجول في المهجع وعندما اقترب مني قال لي:

– كيف الحال بابي هل عرفتني؟

– لا

– أنا سيرا الجزائري تعرفت عليك عند دانتي في باريس.

– آه نعم لقد تذكرتك الآن. إنك أبعدت عام تسعة وعشرين وتسع مئة وألف أي منذ عشر سنوات وهلا تزال هنا؟

– نعم . لايمكن الذهاب في مثل هذه السرعة. أنصحك بأن تتمارض. ومن هذا؟

– هذا صديقي ديغا.

– وانت أيضاً سوف أسجل اسمك في عداد المرضى. أنت يا بابيون مصاب بالزحار، وأنت أيها الكهل مصاب بأزمات الربو. سأراكما في العيادة في الساعة الحادية عشرة، وفي معكما حديث.

ثم تابع طريقه ونادى بصوت مرتفع: من فيكم مريض؟

ثم توجه نحو من رفعوا أصابعهم وسجل أسماءهم، ثم مرّ ثانية ولكنه هذه المرة في صحبة مراقب أسمر عجوز فقال:

– أقدم لك يابابيون رئيسي، إنه المراقب الممرض بارتلوني. يا سيد بارتلوني هذان صديقاي اللذان حدثتك عنهما.

– حسناً يا سيرا سنرتب الأمور في العيادة، اتكل علي.

وفي الحادية عشرة جاؤوا لاستدعائنا، وكنا تسعة مرضى، واجتزنا المعسكر سيراً على

الأقدام بين البراكات، ووصلنا إلى براكة جديدة وهي الوحيدة المصبوغة بالأبيض، وعليها صليب أحمر، فدخلنا إلى قاعة الانتظار حيث تواجد ستون شخصاً تقريباً.

كان في كل ركن من أركان القاعة مراقبان، وظهر سيرا بقميصه الأبيض الناصع كقمصان الأطباء. فقال: أنت، وأنت، ادخلا فدخلنا حجرة عرفنا الثر إنها حجرة الطبيب، وكان يتحدث إلى ثلاثة من الكهول باللغة الإسبانية عرفت منهم الأول وهلة الأسباني فرناندز الذي قتل ثلاثة من الارجنتينيين، في مقهى مدريد بباريس. وبعد أن تبادلا الحديث ادخله سيرا إلى مرحاض يطل على القاعة، ثم سار نحونا

– دعني أقدمك يابابيون فأنا سعيد بأن أسدي خدمة لك ولصديقك أبو دعني اتكلم.. كلاكما عجوز عليه أنت بابيون مدى الحياة وصديقك لمدة خمس سنوات. هل معكما مال؟

– نعم

– اذن ليعطي كل منكما خمس مئة فرنك وغداً تنقلون إلى المستشفى أنت بسبب الزحار، وأنت يا ديغا اقرع الباب ليلاً، والأفضل من ذلك أن ينادي أحدكم الحارس ويعلمه بأن ديغا يختنق وعلي الباقي. بابيون لا أسألك إلا شيئاً واحداً إذا تبرمت من شيء أعلمني حتى أسرع إلى تلبيتك.

مقابل مئة فرنك أسبوعياً يمكن الاحتفاظ بنا في المستشفى شهراً. دخل فرناندز إلى دورة المياه وأعطى سيرا خمس مئة فرنك على مشهد منا، ثم دخلت أنا وقدمت له بعد خروجي ألفاً وخمس مئة فرنك، فرفض خمس المئة وقال لي: هذا المبلغ هو للحارس ولا ابتغي لنفسي شيئاً، فنحن أصدقاء أليس كذلك؟ وفي اليوم التالي كنا أنا وديغا وفرناندز في زنزانة واسعة في المستشفى، وكان ديغا قد لحق بنا في منتصف الليل. وممرض هذه القاعة رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، واسمه شاتال، وعنده كل المعلومات عنا من سيرا، فحين يحضر الطبيب سيقدم له نتيجة فحص للبراز ترتفع فيه نسبة الجراثيم ارتفاعاً عالياً، وبالنسبة لديغا فقد أشعل له قليلاً من الكبريت قبل الزيارة بعشر دقائق ونشقه غاز الكبريت بواسطة منشفة كانت على رأسه، وفرناندز تورم خده من جراء حقنه تحت الجلد داخل الوجنة وانتفخت إلى أكبر مدى ممكن خلال ساعة من الزمن، وكان هذا الممرض ذا ضمير حي إلى درجة أن الورم قد بلغ العين وأغمض جفنيها. الزنزانة في الطابق الأول من بناء فيه حوالي سبعين مريضاً ومعظمهم يشكون من الزحار.

سألت الممرض عن جولو فقال: إنه في البناء المقابل، وهل ترغب في أن أبلغه شيئاً؟

– نعم. قل له: إن بابيون وديغا هناك وإننا ننتظر من النافذة.

كان الممرض يستطيع الدخول إلى القاعة والخروج منها متى شاء، وما عليه إلا أن يقرع الباب فيفتحه عربي وهو سجين مكلف حمل المفاتيح وهو بهذا يساعد المراقبين.

على يمين الباب ويساره يجلس ثلاثة من الراقبين، والبنادق القصيرة على ركبهم. وقضبان النوافذ هي خطوط سكة حديدية، وتساءلت كيف يمكن قطعها. جلست الى النافذة. بيني وبين البناء الذي فيه جولو حديقة زاخرة بالأزهار الجميلة. ظهر جولو على الشباك، وبيده لوح حجري أسود كتب عليه بالطباشير: «برافو».

وبعد ساعة أحضر لي الممرض رسالة من جولو قال فيها: «أحاول الانتقال إلى قاعتكم، وإذا لم أفلح حاولوا أنتم الحضور إلى قاعتي. إن في قاعتكم أعداء لكم. إذن أنتم محتجزون؟ صبراً لسوف تتمكن منهم. إن الحادث الذي جرى لنا في محطة الكهرباء حيث شاركنا الألم ربط أحدنا بالآخر رباطاً وثيقاً».

كان جولو اختصاصياً بمطرقة الخشب، لذا لقب بالرجل ذي المطرقة.. كان قد وصل في سيارة أمام دكان بائع مجوهرات في وضح النهار، في الوقت الذي كانت فيه المجوهرات في المقدمة مكتوبة في علبها. وكان يقود السيارة رجل آخر. توقفت السيارة، والمحرك لا يزال يعمل، فنزل مسرعاً مجهزاً بمطرقة خشبية ضخمة، فحطم الواجهةبضربة قوية، وتناول أكثر عدد تمكن من علب المجوهرات، وعاد إلى السيارة التي انطلقت مسرعة. وبعد أن نجح في ليون وأنجه وتور والهافر، هاجم محلاً كبيراً للمجوهرات في باريس في الساعة الثالثة بعد الظهر مستولياً على مليون مجوهرة تقريباً. ولم يرو لي لماذا وكيف انكشفت هويته. حكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً. وهرب بعد أربع سنوات، وقبض عليه ثانية وهو في طريق عودته إلى باريس، إذ كان يبحث عن الذي أخفى عنده المسروقات ليقتله لأنه لم يسلم لأخته المبلغ الذي كان مديناً به إليه. رآه هذا الرجل المؤتمن على المال في الشارع الذي يسكن فيه، فأخبر رجال الشرطة بوجوده، فتم القبض عليه وأعيد معنا إلى السجن.

مضى على وجودنا في المستشفى أسبوعان، وبالأمس أعطيت شاتال مئتي فرنك وهذا هو الثمن لبقائنا كلينا في المستشفى. ولكي نكتسب اعتباراً، وزعنا التبغ على من ليس عنده. عقد أحد المحكومين بالأشغال الشاقة صداقة مع ديغا، واسمه كاروزا، وهو من مرسيليا وصار مستشاراً له. وكان يقول له مراراً وتكراراً إذا كنت مليئاً من المال، فإن أهل هذه القرية يعرفون ذلك (عن طريق الصحف التي تأتي من فرنسا وفيها ذكر عمليات السطو الكبيرة) وبالتالي يفضل عدم الهروب، لأن السجناء الذين أطلق سراحهم يتربصون بالفارين ويقتلونهم ليسلبوهم أموالهم. وقد أخبرني ديغا بحواره مع العجوز كاروزا. عبثاً حاولت إقناعه بأن هذا العجوز لا يصلح لشيء، وقد مضى عليه في السجن عشرون عاماً، فضرب بكلامي عرض الحائط، وقد جهدت كثيراً لكي يلتزم بعهدي له.

أرسلت بطاقة صغيرة إلى سييرا، أطلب منه فيها أن يرسل لي كلكاتي، ولم يطل الأمر ففي الغداة كان كالكاتي في المستشفى، في قاعة لا قضبان لها. ما العمل لإعادة الأنبوبة له؟ أحطت شاتال علماً، بأني أرغب التكلم معه لأمر ضروري، وأوهمته بأن المسألة تتعلق

بالفرار. ووعدني بإحضاره لمدة خمس دقائق عند الساعة الثانية عشرة بالضبط، أي ساعة تبديل الحرس، وذلك بأن يرفعه لي من الشرفة ليكلمني من النافذة، وكل ذلك دون مقابل. لقد وافى كالكاتي إلى النافذة ظهراً، وعلى الفور وضعت أنبوبته في كفه فوقف أمامي يبكي. وبعد يومين أرسل لي مجلة مع خمس ورقات من فئة ألف فرنك وكلمة واحدة: شكراً.

رأى شاتال، الذي أحضر لي المجلة، المبلغ ولم يفاتحني به، وأردت أن أمنحه شيئاً فرفض فقلت له:

ــ نحن نرغب في الهروب فهل تشاركنا؟

ــ لا يا بابي، أنا مرتبط بجهة أخرى، ولا أرغب في محاولة فرار قبل مضي خمسة أشهر أي إلى حين إطلاق سراح شريكي وسوف يكون الفرار معداً إعداداً أفضل وأوثق.

وبما أنك من المحتجزين فأنا أقدر سبب استعجالك. ولكن الهروب من هنا مع وجود هذه القضبان الحديدية أمر عسير جداً، ولا تتوقع مني عوناً، فأنا لا أود المجازفة بمكاني. إنني أنتظر هنا خروج صديقي بصبر وأناة.

ــ جيد جداً يا شاتال، فالصراحة في هذه الحياة واجبة. ولن أخاطبك بعد الآن في شيء أبداً.

قال: ــ ومع ذلك سأحمل لك البطاقات وأقوم بمهمات.

ــ شكراً شاتال.

سمعنا هذه الليلة طلقات رشيش، ثم علمنا في اليوم التالي أن رجل المطرقة قد هرب. أعانه الله. لقد كان صديقاً طيباً. ويبدو أن الفرصة سنحت له فاستغلها. هنيئاً له. وبعد خمسة عشر عاماً أي في سنة ١٩٤٨ كنت في هاييتي حيث ذهبت بصحبة مليونير فنزويلي ووقعت عقداً مع رئيس الكازينو لأكون مديراً للميسر. وفي احدى الليالي وبينما كنت خارجاً من أحد الملاهي، حيث شربنا الشمبانيا كانت معنا في جملة الفتيات فتاة سوداء كالليل، غير أنها متقنة كأية فتاة فرنسية عريقة قالت لي: جدتي الكافتة تعيش مع كهل فرنسي. إنه هارب من كايين وهو معها منذ عشرين عاماً. إنه ثمل دوماً واسمه جول المطرقة. وفي الحال صحوت من سكري وقلت:

ــ يا صغيرتي اصحبيني إلى جدتك الآن. وفي السيارة تكلمت السوداء مع السائق بلغة أهل هاييتي فسلك بنا مسالك عديدة وفي الطريق مررنا بمحلة متألقة. طلبت من السائق أن يتوقف فنزلت ودخلت ثم اشتريت زجاجتين من الشمبانيا وزجاجتين من الروم من الصناعة المحلية. ثم استأنفنا السير حتى وصلنا إلى شاطىء البحر أمام بيت أنيق أبيض مسقوف بالقرميد وماء البحر يكاد يصل إلى السلم. قرعت الفتاة الباب فخرجت امرأة سوداء طويلة اشتعل رأسها شيباً، ترتدي

ثوباً ضافياً يبلغ كعبيها. وتحدثت الرآتان بلغتهما، ثم قالت لي المرأة المسنة: تفضل، الدار دارك. دخلت قاعة نظيفة يضيئها مصباح وتكثر فيها الأسماك والعصافير.

– هل تود رؤية جولو؟ انتظر سيحضر.

جول، جول، هناك من يريد مقابلتك.

جاء رجل حافٍ، يرتدي منامة مخططة ذكرتني بملابس السجن وقد بدا عليه الهرم. قال:

– حسناً بول دوبنج (كرة الثلج)، منذا الذي جاء يطلبني في مثل هذه الساعة؟ بابيون؟ مستحيل.

وأقبل يضمني بين ذراعيه وقال:

– قربي الصباح يا بول دوبنج لأرى وجه صديقي. أجل هو أنت. أنت حقاً، فأهلاً بك. فالمسكن والمبلغ الصغير الذي أملكه وحفيدة زوجتي كلها لك. ما عليك إلا أن تأمر.

شربنا الشمبانيا والروم وبين الفينة والفينة كان جولو يغني: فهربناهم أخيراً أترى؟ لا شيء يعدل المغامرة. لقد مررت بكولومبيا وبناما فكوستاريكا وجامايكا، وها أنذا هنا منذ عشرين عاماً، وأنا سعيد مع «كرة الثلج» هذه. وهي خير ما يمكن أن يتمناه رجل من النساء. متى ترحل؟ أتبقى هنا طويلاً؟

– لا أسبوعاً فقط.

– ماذا جئت تفعل هنا؟

– لأتعهد الميسر في الكلازينو بعقد مع مديره مباشرة.

– أخي لو تبقى طول حياتك بالقرب مني في هذا البلد الأسود، وإذا تعاقدت مع المدير فاحذره، فإنه سيسعى لقتلك إذا رآك موفقاً في عملك.

– شكراً لك على هذه النصيحة.

– أما أنت يا كرة الثلج فأعدي حفلك الديني «ليس للسالحين» أريده حفلاً خاصاً بصديقي. وفي فرصة أخرى سأحدثك يا بابيون عن هذا الحفل الديني المسمى فودو «ليس للسالحين».

إذن جولو هرب. وأنا وديغا وفرنالدز لا نزال نترقب. ومن وقت إلى آخر أمعن النظر في قضبان النوافذ دون أن أثير انتباه أحد. إنها فعلاً خطوط سكك حديدية ولا حيلة لنا فيها. بقي أن ندرس الفرار من الباب. هناك ثلاثة من الخفر المسلحين يحرسونه ليل نهار، وشددت الحراسة بعد أن فر جولو. والدوريات تتابع عن كثب، والطبيب غدا أقل وداداً.

لا يأتي شاتال أكثر من مرتين في اليوم، إما لحقن الإبر أو قياس الحرارة. ومر أسبوع آخر، ودفعت مئتي فرنك مجدداً. وديغا يخوض كل حديث إلا حديث الهروب. رأى بالأمس

مبضعي فقال: أما زلت تحتفظ به؟ لماذا؟ فأجبته في اقتضاب: لحماية نفسي ولحمايتك عند الضرورة.

– لم يكن فرنالدز إسبانياً، بل أرجنتينياً، وهو كرجل لا عيب فيه وهو مغامر حقيقي، ولكنه تأثر أيضاً بما يروجه العجوز كاروورا، وقد سمعته يوماً يقول لديغا: يبدو أن الجزر صحية جداً على نقيض الحال هنا وليس الطقس فيها حاراً. أما هنا فالإصابة بالزحار ممكنة جداً ويكفي أن تذهب إلى المراحيض لتنتقل إليك الجراثيم. ففي كل يوم يموت في هذه القاعة رجل أو رجلان من أصل سبعين رجلاً وذلك بسبب هذا المرض. والظاهرة الغريبة التي تجدر ملاحظتها هي أنهم يموتون جميعاً عند انحسار الجزر البحري بعد الظهر أو في المساء ولم يمت أحد منهم في الصباح. لماذا؟ سر من أسرار الطبيعة.

دخلت هذه الليلة في حوار مع ديغا، قلت له: إن حامل الفانوس العربي يدخل أحياناً في الليل إلى القاعة بغير تحفظ، ويكشف الأغطية عن وجوه بعض المرضى. وبمقدورنا أن نضربه ونرتدي ملابسه (نحن جميعاً في القميص والخف ليس أكثر) وبعد هذا نخرج فنباغت أحد الجنود وننتزع منه بندقيته ونشهرها في وجوههم ثم ندخلهم الزنزانة ونوصد عليهم الباب، ثم نقفز عن جدار المستشفى من جهة ماروني ونلقي بأنفسنا في الماء، ثم نترك أنفسنا يدفعنا التيار جانحاً بنا وبعد هذا يخلق الله ما لا تعلمون. وبما أننا نملك المال فباستطاعتنا أن نشتري مركباً ومواد غذائية ونبحر. فرفض صديقاي هذه الخطة بل انتقداها. وأحسست أن اندفاعهما قد خمد، وخاب ظني، والأيام تمر والليالي تكر.

نحن هنا منذ ثلاثة أسابيع إلا يومين ولم يبق سوى عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً في أقصى حد لمحاولة الهروب.

إن هذا اليوم لا أنساه، يوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٣. دخل القاعة جوان كلوزيو الرجل الذي حاولوا قتله في سان مارتن عند الحلاق. عيناه مغمضتان وملتهبتان بالبثور وهو شبه أعمى. وكان شاتال مرة يهم بالخروج فلحقت به. وفي سرعة قال لي: نقل المحجوزون إلى الجزر منذ أكثر من أسبوعين، أما هو فقد نسوه. ومنذ ثلاثة أيام أخبر عنه أحد الحارسين، فوضع في عينيه حبة خروع، فعيناه الملتهبتان أوصلتاه إلى المستشفى. وقد كان شديد الحماسة للهروب وقال إنه مستعد أن يفعل أي شيء حتى القتل إذا اقتضى الأمر في سبيل الفرار. يملك ثلاثة آلاف فرنك. وحين تغسل عيناه بالماء الفاتر يستطيع الرؤية بوضوح. أطلعته على خطتي في الهروب فاستحسنها ولكنه تابع يقول: لا بد، لكي نفاجئ المراقبين، من خروج اثنين منا أو ثلاثة إن أمكن، ونستطيع أن نفك أرجل السرير ويحمل كل منا رجل السرير بيده ويهوي بها على رأس حارس. وفي رأيه: إذا كانت بيدنا بندقية فإنهم يستعدون أن نطلق النار، ويوسعهم طلب النجدة من الآخرين، من الجناح التالي من حيث هرب جولو، وهو على بعد عشرين متراً أو دون ذلك.

الهروب الأول – الفرار من المستشفى

لاقيت هذا المساء ديغا وبعده فرنانديز. وصرح ديغا بأنه لا يثق بنجاح خطتي، وأنه سيدفع مبلغاً كبيراً ليتخلص من الحجْر. لذا طلب مني أن أكتب لسيرا أسأله إن كان هذا ممكناً. وفي اليوم نفسه أحضر شاتال البطاقة والجواب التالي: لا تدفعوا شيئاً لأحد للتخلص من الحجر، إنه أمر يأتي من فرنسا ولا يستطيع أحد رفعه حتى ولا مدير الإصلاحية نفسه وإذا كنتم متبرمين من وجودكم في المستشفى فبمكنكم الخروج غداة رحيل السفينة وماناه إلى الجزر.

بقينا في معسكر الزنزانات ثمانية أيام بانتظار نقلنا إلى الجزر. وربما كان الهروب من هنا أفضل من الهروب من المستشفى. وفي البطاقة ذاتها كتب لي سيرا يقول: إذا شئت أرسلت لك سجيناً مطلق السراح، ليتحدث معك وليهيء لك مركباً خلف المستشفى. إنه تولوني اسمه جيزو وهو الذي دبر فرار الدكتور بوغرات منذ عامين.

ولكي أراه، كان علي أن أذهب للتصوير الشعاعي في جناح خاص بهذا الغرض. ويقع هذا الجناح في نطاق المستشفى. وقد وصل إليه الطلقاء في ذلك اليوم بأوامر مزيفة. وأوصاني بأن أنزع الأنبوبة قبل الذهاب إلى الأشعة ففعلت، لأن الطبيب سيكتشفه إذا نظر إلى ما دون الصدر. فأجبته بأن يرسل جيزو إلى الأشعة وأن يتفق مع شاتال لييسر إرسالي أيضاً إلى هناك. وأخبرني سيرا بأن اللقاء سيتم بعد غد في الساعة التاسعة مساء.

في اليوم الثاني طلب ديغا الخروج من المستشفى وكذلك فرنانديز بعد أن أبحرت وماناه صباحاً، وهما يأملان الهروب من زنزانات المعسكر، وتمنيت لهما التوفيق. أما أنا فلم أغير خطتي.

رأيت جيزو. إنه كان محكوماً وأفرج عنه، جاف كالسردين. وجهه أسمر وعليه أثر لجرحين كبيرين عميقين، وعينه تلمع باستمرار عندما ينظر إليك. ما أقبح وجهه وما أبشع نظرته، إنه لا يوحي بالثقة، والمستقبل سوف يكشف صدق ظني. دخلنا في صلب الموضوع في سرعة.

– يمكن أن أعد لك مركباً يتسع لأربعة أشخاص أو خمسة على الأكثر مع برميل من الماء، والأغذية، والقهوة، والتبغ، ثلاثة مجاديف، وأكياس طحين فارغة، وإبرة وخيطان لتصليح الشراع، وقلع لمقدم المركب، بوصلة وفأس وسكين وخمس ليترات تافيا (روم غوياني) وكل ذلك مقابل ألفين وخمس مئة فرنك. وسيدخل القمر المحاق بعد ثلاثة أيام. ومنذ الآن وحتى أربعة أيام، إذا قبلت وجدتني بانتظارك في المركب كل ليلة من الساعة الحادية عشرة وحتى الثالثة صباحاً. وخلال ثمانية أيام وبعد الربع الأول من القمر لن أنتظرك. وسيكون المركب تماماً الزاوية نحو أسفل الجدار بالضبط. وتحرك متلمساً الجدار لأنك لن تستطيع رؤية المركب حتى ولو كنت على بعد مترين منه. لم أكن واثقاً منه ومع ذلك قلت له: نعم.

فقال – وأين المال؟ قلت: سأبعث به مع سيرا وافترقنا دون مصافحة، ودون باعث على الارتياح.

ذهب شاتال في الساعة الثالثة إلى المعسكر يحمل المبلغ إلى سيرا وقلت في نفسي: إنني أقامر بهذا المبلغ، وهو من عطاء كلكاني، إنها لمغامرة حقاً، والمهم أن لا يشرب المبلغ مع (التافيا). استطار لب كلوزيو فرحاً بالفكرة، فهو واثق من نفسه ومني ومن نجاح الخطة. شيء واحد كان يزعجه وهو أن العربي حامل المفاتيح لا يدخل القاعة إلا في ساعة متأخرة من الليل. وهناك مشكلة ثانية: من الرجل الثالث الذي نختاره لنطرح عليه الفكرة؟ يوجد كورسيكي من مدينة نيس يدعى بياني. هو في السجن البحري منذ عام ١٩٢٩. وهو في هذه القاعة تحت الرقابة المشددة لأنه قتل شخصاً، ولما يصدر بحقه حكم حتى الآن. أنا وكلوزيو كنا نناقش إمكانية مفاتحته في هذا الموضوع وتحديد الزمن لذلك. وبينما نحن نتحدث بصوت خفيض تقدم منا شاب مراهق في الثامنة عشرة من عمره. جميل جمال المرأة، ويدعى ماتوريت، حكم عليه بالإعدام لقتله سائق تكسي، ثم خفف الحكم إلى سبعة عشر عاماً نظراً لحداثة سنه. وكان معه شريك في السادسة عشرة من عمره.

وبدلاً من أن يتراشقا التهم أمام هيئة المحكمة، كان كل منهما ينسب المسؤولية لنفسه، مع أن السائق لم يصب بسوى رصاصة واحدة. وهذا الموقف أكسبهما عطف جميع السجناء.

تقدم منا ماتوريت الرقيق رقة الأنثى، وبصوت نسائي طلب منا ناراً فأعطيته. وأهديته فوق ذلك أربع سجائر وعلبة أعواد ثقاب فشكرني بابتسامة جذابة، وتركته يعود، وعلى حين

مرة قال كلوزيو: دعني أقل لك نحوناه. هذا الماعز سيدخل إلى القاعة بقدر ما نريد وفي الساعة التي نشاء. لقد صار مضموناً في جيبنا.

ـ كيف؟

ـ الأمر يسير. سيكلم ماتوريت الصغير في أن يغري الماعز ويجعله عاشقاً له. أنت تعلم أن العرب يحبون الفتيان. من الآن وحتى ساعة القبانة للدخول ليلاً للإيقاع بالصبي ليس ببعيد. وعليه أن يلجأ إلى أساليب الاستدراج كافة يقول له بأنه خائف من أن يراه أحد، وذلك ليختار له الأوقات التي تناسبنا.

ـ دعني أتصرف.

ذهبت إلى ماتوريت فاستقبلني بابتسامة مشرقة، وهو يحسب أنه استثارني بابتسامته الأولى. وبادرت إلى القول:

ـ أنت مخطئ... اذهب إلى المراحيض.

فذهب وهناك قلت له:

ـ إذا كررت كلمة مما سأقوله لك، فقد حكمت على نفسك بالموت هل تريد أن تفعل كذا وكذا من أجل المال؟ كم تريد لتسدي لنا خدمة؟ أم أنك تفضل الهروب معنا؟

ـ حسناً أوثر الهروب معكم. هذا وعد. هذا وعد. هذا وعد. وتصافحنا. ذهب لينام، وأنا كذلك بعد أن أوثر بضع كلمات مع كلوزيو.

في الساعة الثالثة مساء جلس ماتوريت إلى النافذة فاستدعى العربي فجاء وحده وجرى الحديث بينهما بصوت منخفض.

وفي العاشرة نام ماتوريت وكنا نحن واحدى عينينا مفتحة. دخل العربي إلى القاعة، وقام بجولتين وخلال ذلك وجد رجلاً ميتاً، فقرع الباب ولم يمض وقت طويل حتى دخل رجلان ومعهما محفة، فحملا الميت. وكان في ذلك خدمة لنا إذ شجعه على القيام بجولات في أية ساعة من الليل، وبعدما ما ارتبط ماتوريت معه بموعد في اليوم التالي وفي الساعة الحادية عشرة. وفي الوقت المحدد وصل حامل المفاتيح ومر أمام سرير الصغير وشده من قدمه ليوقظه ثم توجه نحوالمراحيض وتبعه ماتوريت. وبعد ربع ساعة خرج حامل المفاتيح متجهاً نحو الباب وخرج في اللحظة ذاتها ماتوريت ونام دون أن يكلمنا. وباختصار كان اليوم التالي مماثلاً ولكن في الساعة الثانية عشرة. وهي الساعة التي حددها له الصبي.

وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣. كانت رجلان من أرجل السرير معدتين للخلع، لاستخدامهما موضع العصا. كنت انتظر كلمة من سيرا. وصل شالال

الممرض بدون ورقة وقال لي فقط: كلفني سيرا أن أبلغك بأن جيزو ينتظرك في الوقت المحدد وتمنى لك حظاً سعيداً.

في الساعة الثامنة مساء قال ماتوريت للعربي:

ـ تعال بعد منتصف الليل، فقد نستطيع اللقاء معاً مدة أطول في مثل تلك الساعة، وقبل الرجل هذه الدعوة.

وفي منتصف الليل بالضبط، كنا على أتم استعداد. دخل العربي في الساعة الثانية عشرة والربع، واتجه رأساً إلى سرير ماتوريت وشده من قدميه وتابع سيره نحو المراحيض، دخل ماتوريت معه. اقتلعت رجل السرير فأحدثت ضجة خفيفة لدى وقوعها، ولم يحصل مثل هذا مع كلوزيو. وكان علي أن أقف خلف باب المراحيض، وكلوزيو يمشي نحوه ليلفت انتباهه، وبعد انتظار عشرين دقيقة جرى كل شيء في سرعة فائقة. فلدى خروج العربي من المراحيض بوغت برؤية كلوزيو، فقال له: ماذا تفعل هنا؟ مالي أراك منتصباً وسط القاعة في هذه الساعة؟ اذهب إلى النوم. ولم يلبث أن تلقى الضربة على أم رأسه، فسقط دونما ضجة وأسرعت إلى ارتداء ملابسه ولبست جلبابه، ثم جررته إلى قرب السرير وأتبعته بضربة أخرى على قذاله قبل إدخاله كلياً تحت السرير. فقد نال حسابه.

لم يتحرك أحد من الرجال الثمانين النائمين في المهجع. أسرعت نحو الباب وخلفي كلوزيو وماتوريت، وكلاهما في القميص وحسب. قرعت الباب ففتحه الحارس. فشهرت الحديدة في وجهه. تلك، نزلت الضربة برأسه. والحارس الجالس مواجهاً له سقطت منه البندقية، فقد كان نائماً بالتأكيد، وقبل أن يتحرك بادرته بضربة. هذان الحارسان لم يصرخا بل ظلا متجمعين على نفسيهما فوق كرسيهما، أما الذي ضربه كلوزيو فقد صاح متأوهاً ثم انهار، وامتد على طوله كالخشبة، فالتقطنا أنفاسنا، فهذه الصيحة قد بلغت كل الأسماع، في تصورنا، وفي الحقيقة كانت قوية ومع ذلك فإن أحداً لم يتحرك. لم ندخلهم إلى القاعة بل ذهبنا حاملين معنا ثلاث بندقيات. كلوزيو في المقدمة والغلام في الوسط وأنا في الخلف. نزلنا على ضوء ضعيف. ترك كلوزيو رجل السرير واحتفظت بها في اليد اليسرى، وفي اليمنى بندقية. لا شيء في الأسفل. والليل حولنا حالك السواد وعلينا أن نمعن النظر لنرى الجدار المحاذي للنهر، فعلينا السير وجعلت من نفسي السلم القصير، فصعد كلوزيو وفرج ساقيه وسحب ماتوريت، وبعدهما صعدت. وانزلقنا في الظلام من الجهة الأخرى من الجدار، فوقع كلوزيو في حفرة وتأذى من هذه الوقعة في رجله. أما أنا وماتوريت فقد وصلنا سالمين، نهضنا وكنا تركنا البندقيات قبل الوثوب وعندما حاول كلوزيو النهوض لم يستطع وقال إن رجله انكسرت. تركت ماتوريت عند كلوزيو وركضت باتجاه الزاوية ويدي تحتك بالجدار. وكان الظلام دامساً، ولدى وصولي إلى طرف الحائط لم أستطع أن أتبين شيئاً وصارت يدي تلامس الفراغ، وارتطم وجهي بشيء، وسمعت من ناحية النهر صوتاً يقول هذا أنت؟

ـ نعم. أأنت جيزو؟

ـ نعم.

فاشتعل عود لنصف ثانية فقط فعينت موضعه ونزلت في الماء ووصلت إليه، وكان معه شخص آخر.

ـ اصعد أولاً. من هذا؟

ـ بابيون.

ـ حسناً.

ـ جيزو! يجب الرجوع قليلاً إلى الخلف. لقد كسر صديقي ساقه وهو يرمي بنفسه من أعلى الجدار.

ـ إذن خذ هذا المجداف.

ـ وتوغلت المجاديف الثلاثة في الماء. وسرعان ما قطع المركب الخفيف مئة المتر التي تفصلنا عن المكان الذي نقدر أننا فيه، لأننا لا نرى شيئاً ونادينا كلوزيو. فقال جيزو: بربك لا تتكلم. وأنت يا ماتوريت، أدر دولاب[*] القداحة حتى يتطاير الشرر منها قليلاً. صفر كلوزيو صفرة من بين أسنانه. وهذا الصفير لا يحدث ضجة ولكنه مسموع وكأنه نحيح الأفعى، كان يصفر دون انقطاع ليقودنا إليه. نزل أنفله وأخذ كلوزيو بين ذراعيه ووضعه في المركب، وصعد ماتوريت ثم أنفله. كنا خمسة، وارتفاع الماء قريب من حافة المركب بمقدار اصبعين. قال جيزو:

ـ لا تقوموا بأية حركة قبل أن تنذروني بها. بابيون كف عن التجديف وضع المجداف بين ركبتيك. اقلع يا أنفله.

وسرى المركب مسرعاً في الدجى بعون التيار. وبعد أن ابتعدنا مسافة كيلومتر عن الإصلاحية المعتمة إلا قليلاً بسبب مولدها الكهربائي الضعيف، أصبحنا في وسط النهر وكدنا نطير من السرعة الجنونية التي يقودنا بها التيار. رفع أنفله مجدافه، ومجداف جيزو على فخذه يحافظ به على توازن المركب. فهو لا يدفعه بل يوجهه فقط. قال جيزو:

ـ في مقدورنا الآن أن نتكلم وندخن فكل شيء على ما يرام في اعتقادي. هل أنت واثق من أنك لم تقتل أحداً؟

قال أنفله ـ اسم الله. لقد خدعتني يا جيزو. لقد قلت لي إنها رحلة بدون متاعب فإذا بها رحلة هروب محتجزين.

ـ أجل إنهم من المحجوز عليهم، ولو لمنا إعلامك بهذا، ولا لما أقدمت على مساعدتي وأنا بحاجة إلى رجل. لا تغضب ولا تغتم. فلنا الفضل التبعة وحدي.

ـ صدقت يا جيزو. من أجل مئة فرنك أعطيتني إياها، لا أريد المقامرة برأسي إن كانت هناك جريمة قتل، أو بحكم مؤبد إن كان هناك جريح. قلت لأنفله:

ـ سأقدم لك ألف فرنك هدية مني.

ـ حسناً. هذا إنصاف، وشكراً لك. ونكاد نموت جوعاً في القرية، والخلاص أسوأ من السجن، فعلى الأقل نؤون في السجن بالطعام والثياب.

قال جيزو لكلوزيو: لعلك لا تعاني من ألم عض؟

ـ لا بأس. ولكن ما تفعل بساقي المكسورة بابيون؟

ـ سوف نرى. أين وجهتنا يا جيزو؟

ـ سأخبئكم في خليج صغير يقع على بعد ثلاثين كيلو متراً من الشاطئ، الذي نصل إليه، وهناك تمكثون ثمانية أيام ريثما تمضي حدة مطاردة الجنود لكم، وملاحقة صيادي الرجال. ويجب أن تتظاهروا بأنكم خرجتم لتوكم من ماروني ودخلتم البحر. صيادو الرجال يتعقبون في مراكب لا محرك لها، وهم خطرون، فإشعال النار، والسعال، والكلام شؤم عليكم إن كانوا غير بعيدين عن مرمى السمع. أما مراكب الجنود فذات محركات وتستطيع الدخول إلى الخليج.

أقبل جنح الليل، والساعة تقارب الرابعة صباحاً. عثرنا على الشارة التي يعرفها جيزو وحده، بعد بحث طويل، فدخلنا بين أشجار غابة. وبعد مرورنا انتصب خلفنا كالستار الكثيف مجدداً ويجب أن يكون المرء ساحراً ليعرف إنما كان الماء كافياً لحمل مركب.

دخلنا وتوغلنا في الغابة أكثر من ساعة ونحن نباعد بين الأغصان التي تعترض سبيلنا. وفجأة وجدنا أنفسنا في مكان يشبه القناة فتوقفنا، وكان الجرف أخضر معشوشباً نظيفاً، والأشجار باسقة والنور لا ينفذ من بين أوراقها رغم أن الساعة قد بلغت السادسة. وتحت هذه القبة المهيبة، كنا نسمع أصوات ألوف الحيوانات التي نجهلها.

قال جيزو. هنا عليكم أن تنتظروا ثمانية أيام. وسوف آتي إليكم بعد سبعة أيام لأحضر لكم الطعام. ثم أخرج من بين النباتات الكثيفة زورقاً صغيراً طوله حوالي مترين، وفي داخله مجدافان وبهذا الزورق سيعود مع الله إلى سان لوران.

والآن لنلتفت إلى كلوزيو المستلقي على الضفة ولا يزال في القميص وساقاه عاريتان، قطعنا بالفأس أخشاباً جافة وصنعنا منها ألواحاً، وأخذ أنفله يشد على رجل كلوزيو الذي يتصبب عرقاً، وفي لحظة من اللحظات قال: توقف، في هذا الوضع تخف الآلام. فالعظم إذن في

مكانه، ووضعت رجله بين لوحين خشبيين ربطا بحبل من القنب جديد، وحملناه في المركب، واستراح كلوزيو. كان جيزو قد اشترى أربعة بنطالات، وأربعة قمصان وأربع دراعات. ارتدى ماتوريت وكلوزيو ملابسهما وبقيت أنا بملابس العربي حامل المفاتيح وشربنا الروم وهذه هي الزجاجة الثانية التي تفرغ منذ رحيلنا والشراب باعث للحرارة، والبعوض يلسعنا دون انقطاع، عصرنا كيس تبغ في قرعة، ودهنا خلاصة النيكوتين على الوجوه والأيدي والأرجل. صارت الدراعات لا تطاق فقد اشتدت حرارتنا في هذه الرطوبة.

قال أنطه: أنا ذاهب. أين ألف الفرنك التي وعدت بها؟

انتحيت جانباً ورجعت بغير إبطاء، ومعي ورقة الألف جديدة. قال جيزو: إلى الملتقى. لا تتحركوا من هنا قبل ثمانية أيام، وسآتي في اليوم السابع وتبحرون في اليوم الثامن. اصنعوا الشراع والقلع. رتبوا كل شيء في المركب وأصلحوا سكانه وإذا مرت عشرة أيام ولم نرجع فهذا يعني أننا أوقفنا في القرية وإن الهجوم على الحارس قد زاد العملية سوءاً ولا بد أن يكون قد أثار ضجة، وخاصة أن كلوزيو، كما أخبرنا، لم يترك البندقية في أسفل الجدار بل ألقى بها من فوقه قريباً من النهر، وهو لا يستطيع الجزم بأنها قد وقعت في النهر. قال جيزو: إن هذا أمر مستحسن، فإذا لم يعثروا عليها اعتقد القناصة بأنكم مسلحون. وبما أنهم أشد الناس خطراً عليكم فليس، والحالة هذه، أن تخشوا شيئاً. وما داموا يتسلحون بالمسدسات والسيوف الخشبية، ويتوهمون بأنكم تملكون بندقية فلن يخاطروا بمهاجمتكم. إلى اللقاء.. إلى اللقاء.

في حال انكشاف أمرنا يجب علينا أن نهجر المركب ونمشي في اتجاه معاكس لمجرى النهر حتى نصل إلى الغابة وبالاستعانة بالبوصلة، نتجه دوماً نحو الشمال، وسوف تكون لنا فرص عديدة للالتجاء بعد مسيرة يومين أو ثلاثة، معسكر الموت السلس شارفان وهناك ينبغي أن ندفع لأحدهم مالاً كي يخبر جيزو بالمكان الذي نحن فيه.

لقد رحل الرجلان وبعد دقائق غاب زورقهما عن الأنظار فلم نعد نرى شيئاً ولا نسمع شيئاً.

غمر ضوء النهار الغابة بصورة غريبة حتى كأننا تحت قناطر تتلقى الشمس من أعلى ولا تسمح بمرور أشعتها إلى الأرض، وبدأ الحر يشتد، وألفينا أنفسنا وحدنا، وضحكنا لأول وهلة بقهقهات كأصوات العجلات. والمنغص الوحيد هو ساق كلوزيو، وقد قال: ما دامت رجلي محاطة بألواح خشبية، فلا بأس عليها. أوقدنا ناراً، وسحقنا القهوة، وشربنا قهوة محلاة بسكر غير مكرر، وما كان أطيبها.

لقد بددنا الكثير من نشاطنا منذ الليلة البارحة، فلم نقدر على تفقد أمتعتنا أو تفتيش المركب، وأرجأنا هذا لإشعار آخر، فنحن أحرار، أحرار، أحرار. ولم يمض علينا في السجن أكثر من سبعة وثلاثين يوماً، وإذا نجحنا في الهروب فإن الحكم المؤبد لم يكن طويلاً: إنها

سيدي كم تطول الأشغال الشاقة المؤبدة في فرنسا؟» وانفجرت ضاحكاً، وكذلك ضحك ماتوريت الذي كان محكوماً بالسجن المؤبد. أما كلوزيو فقد قال: لا تعجلوا الفرح بالنصر، فلا تزال كولومبيا بعيدة عنا، وهذا الزورق المصنوع من شجرة مجوفة أضعف من أن يكون صالحاً لامتطاء ثبج[1] الموج. ولم أرد على كلامه لأني بصريح العبارة، كنت حتى اللحظة الأخيرة أعتقد أن هذا الزورق معد لنقلنا إلى مكان نجد فيه مركباً حقيقياً يمخر بنا البحر. ولما اكتشفت سوء تقديري لم أجرؤ على الكلام لئلا أثبط عزيمة صديقي. هذا ومن جهة أخرى بما أن جيزو كان يرى هذا طبيعياً، لم أشأ أن أظهر بمظهر الجاهل بالمراكب المستخدمة في الهروب.

أمضينا اليوم الأول بالحديث والتعرف على هذه الأرض المجهولة. أنواع من القردة والسناجب تتواثب فوق رؤوسنا. ثم ورد قطيع من الخنازير البرية الصغيرة لتشرب وتغتسل وقد يبلغ عددها الألفين، دخلت في الخليج ساعة وهي تقتلع فروع الأشجار المتدلية. ثم خرج تمساح ولا أدري من أين خرج وأمسك بإحدى قوائم خنزير، فصرخ كالضائع، وعندئذ هاجمت جموع الخنازير التمساح وارتمت عليه تحاول عضه في مفصل فكه الكبير وبكل ضربة من ذيله كان يترنح خنزير على اليمين وعلى الشمال وأصيب أحدها في رأسه فطفا على صفحة الماء، وبطنه نحو الهواء. وفي الحال التهمته الخنازير الأخرى، وامتزج ماء الخليج بالدماء، ودام المشهد عشرين دقيقة، واختفى التمساح في الماء ولم نعد نراه.

نمنا تلك الليلة نوماً هادئاً، وفي الصباح شربنا القهوة، نزعت عني دراعتي لأغتسل وقد وجدت في المركب صابونة من صنع مرسيليا، وحلق لنا ماتوريت حلاقة بالمشرط أما هو فلم تنبت لحيته بعد. وعندما تناولت دراعتي الصوفية لأرتديها رأيت عليها عنكبوتاً ضخماً متعلقاً بها ثم سقط، له وبر طويل أسود بنفسجي ولا يقل وزنه عن نصف كيلو، فسحقته في اشمئزاز.

لقد أخرجنا كل شيء من المركب حتى برميل الماء، وقد غدا لونه مائلاً إلى البنفسجي ويخيل لي أن جيزو أكثر من وضع البرمنغنات في داخله ليحفظه، والكبريت في زجاجات محكمة السد، والمسحقة، والبوصلة المدرسية التي تشير إلى الجهات الأربع فقط وليس لها درجات، وطول الصاري متران ونصف المتر وقد خطنا أكياس الطحين من أطرافها على شكل شبه منحرف بحبل وذلك لندعم الشراع، وقد صنعت قلعاً[2] يساعد على رفع مقدم السفينة. وعندما وضعت الصاري لفت نظري أن قعر المركب ليس متيناً، والثقب الذي يوضع فيه الصاري بالٍ ومتآكل وحين وضعت المفك لتثبيت رزات الأبواب التي تدعم سكان السفينة، انغرز كما ينغرز في الزبدة، فالمركب مصاب بالتلف. وهكذا قادنا جيزو إلى الهلاك فأطلعت الآخرين على جلية الأمر رغماً عني، إذ لا يحق لي أن أخفي عنهما ذلك. ما العمل؟ وعندما يعود جيزو سنرغمه على إيجاد مركب آخر أكثر أمناً، لذا سنجرده من سلاحه، وأنا مسلح

(١) ثبج الموج: وسطه وأعلاه.

(٢) القلع: شراع صغير مثلث الشكل.

بالمدية والفأس، سأذهب معه لإحضار مركب آخر من القرية، وإنها لمخاطرة كبيرة، ولكنها أقل خطراً من ركوب البحر في هذا التابوت. وبالنسبة للغذاء فعندنا منه قارورة زيت وعلب من الطحين وربما نستطيع أن نذهب بعيداً. رأينا هذا الصباح مشهداً غريباً: رأينا قردة ذات وجوه رمادية مع قردة ذات وجوه سوداء كثيفة الشعر، وكلا الفريقين في عراك. وقد أصيب ماتوريت أثناء المشاجرة بضربة من فرع شجرة نزل برأسه وخلق في رأسه حدبة بحجم الجوزة.

مضت خمسة أيام وأربع ليال ونحن لا نزال هنا، وفي هذه الليلة نزل المطر مدراراً، فالتجأنا إلى ظل أوراق أشجار موز بري، والماء يسيل على ظاهر تلك الأوراق فحمينا من البلل ما علا أقدامنا. وفي الصباح وأثناء تناولنا القهوة فكرت في جيزو، يا له من مجرم، إذ استغل عدم خبرتنا ليترك لنا هذا المركب المتداعي ويدفع بثلاثة رجال إلى موت محقق لكي يكسب خمس مئة فرنك أو ألفاً. وتساءلت: لو أني أجبرته على تزويدي بمركب آخر، ألا أقتله بعد هذا؟ أهاج علينا الضجر أصوات نوع من العصافير (أبو زريق) وكانت حادة وثاقبة. فطلبت من ماتوريت أن يأخذ السيف الخشبي ويذهب مستطلعاً، فعاد بعد خمس دقائق وأشار لي: أن اتبعني. فتبعته حتى وصلنا إلى مكان يبعد مئة وخمسين متراً عن موضع الزورق فرأيت دُرّاجاً عجيباً معلقاً في الهواء، ويبلغ حجمه ضعف حجم الديك، وقد وقع في فخ وتعلق من رجله على الشجرة. وبضربة من السيف الخشبي قطعت رأسه لأتخلص من هذا الصوت الشنيع. وزنته فقدرت وزنه بخمسة كيلوغرامات. له ظفر كظفر الديك، وقررنا أكله. ولكن بعد شيء من التأمل قلنا: إن أحداً قد وضع الشرك، ولا بد أن تكون هناك أشراك أخرى، هيا نستكشف، رجعنا وتلفتنا في كل مكان فوجدنا شيئاً غريباً، إنه حاجز، ارتفاعه ثلاثون سنتمتراً مصنوع من ورق الشجر وعريشة متشابكة، على بعد عشرة أمتار من الخليج، وممتد موازياً للماء. وكان هنالك فخ له سلك من النحاس الأصفر، معلق من أحد طرفيه بغصن شجرة متشعب تحجبه أعواد من الخشب، وللحال فكرت بأن الحيوان يصطدم بالحاجز ويماشيه باحثاً عن منفذ، وحين يعثر على الباب يقع في سلك الفخ ويهز الغصن ويجد الحيوان نفسه معلقاً في الهواء إلى أن يأتي صاحب الأشراك ويأخذه. إن هذا الاكتشاف قد أقلق بالنا، والحاجز ليس قديماً وتبدو عليه العناية، فنحن إذن في خطر أن يفتضح أمرنا. ولا ينبغي أن لا نشعل النار نهاراً، أما في الليل فلن يأتي الصياد، وعزمنا على القيام بجولة استكشافية للمراقبة صوب الأدغال.

المركب محجوب تحت الأغصان، وكذلك الأدوات محجوبة في الغابة. أكلنا تلك الليلة الدراج أو الديك والله أعلم. وتنشطنا بالمرق، وكان اللحم المسلوق لذيذاً، وأكل كل منا صحنين. أنا الحارس اليوم وحتى الساعة العاشرة، ولكن شغلتني جماعة من النمل الكبير الحجم، الأسود اللون. وكل نملة تحمل قطعة من ورق النبات إلى موضع للنمل كبير، وقد أسيت الحراسة، ويبلغ طول النملة الواحدة سنتمتراً ونصف وأرجلها عالية، تحمل قطعة من الورق، تبعتها حتى وصلت إلى النبات التي تقشره، فرأيت تنظيماً رائعاً. فهناك القاطعات، ولا

عمل لها سوى تخطيم قطع الورق في سرعة مذهلة: تقص ورقة ضخمة من نوع ورق الموز، وتجعلها قطعاً متساوية. وتلك عمارة فائقة لا يصدقها العقل، وترمي بهذه القصاصات إلى الأرض وفي الأسفل يوجد صف من النمل من الفصيلة ذاتها ولكن تختلف قليلاً. لها على جانب فكها خط رمادي. تصطف هذه النمال على شكل نصف دائرة تراقب النمال الحمّالة.

الحمّالات يصلن عن اليمين في صف واحد، ويذهبن عن اليسار إلى مملكة وتتزود في سرعة قبل أن تعود إلى الانتظام، وأثناء الاستعجال قد تحدث إعاقة للسير، وعندها تتدخل شرطة النمل، وتدفع بالنملات إلى المكان الذي يجب أن تكون فيه. ولم أستطع أن أفهم الذنب الخطير الذي ارتكبته عاملة، حتى أخرجت من الصف واجتمع عليها نملتان من الشرطة فقصت الأولى رأس العاملة، والثانية قطعت الجسد من ارتفاع الصدر، وأوقفت الشرطيتان عاملتين فوضعتا ما في فمهما، ثم شرعتا بالحفر بأرجلها ودفنتا أجزاء النملة المقتولة ثم أهالتا عليها التراب.

جزيرة الحمام

كنت في حالة استغراق تام أتأمل هذا العالم الصغير، وأتبع جنونه لأرى إذا كانت المراقبة مستمرة حتى الوصول إلى مملكة النمل، وإذا فاجأنا بصوت يقول لي:

ـ لا تتحرك وإلا فأنت ميت. التفتّ نحوي.

رأيت رجلاً عاري الصدر، يرتدي بنطالاً قصيراً (من الكاكي) ينتعل حذاء من الجلد الأحمر، وبيده بندقية ذات فوهتين، متوسط الطول بدين، لفحت الشمس بشرته، وهو أصلع، عيناه وأنفه يغطيها قناع من الوشم الأزرق، وفي وسط جبينه وشم آخر.

ـ هل أنت مسلح؟
ـ لا
ـ ما عددكم؟
ـ ثلاثة.
ـ خذني إليهم
ـ لا أستطيع لأن أحدهم يملك بندقية ولا أحب لك أن تقتل قبل معرفة غرضك.
ـ حسناً. لا تتحرك وتكلم بهدوء.

ـ هل أنتم الفارون الثلاثة من المستشفى؟
ـ نعم.
ـ من هو بابيون؟
ـ أنا.
ـ حسناً. تستطيع القول بأنك بحروبك هذا، قد أحدثت ضجة في القرية. وقد أوقفوا نصف المجرمين الذين أطلق سراحهم وهم الآن في مركز الشرطة.

دنا مني وقد خفض فوهة البندقية نحو الأرض، ومد لي يده وقال: أنا بروتون ذو القناع. هل سمعت شيئاً عني؟
ـ لا. ولكنني أرى أنك لست قناصاً.
ـ أنت على حق. أنا هنا أضع أشراكاً لاصطياد الدراج. ولا بد أن النمر قد اختطف أحدها، إن لم تكونوا أنتم.
ـ لا. نحن من أخذه.
ـ هل تريد قهوة؟

وكان في كيس يحمله خلف ظهره ترمس، فقدم لي قهوة وشرب. قلت له: تعال لترى أصدقائي، ولتجلس معنا.

ضحك من الكذبة التي قلتها عن البندقية وقال: لن يأتيكم قناص للبحث عنكم، لأن الجميع يعلمون أنكم تملكون بندقية، ثم سرد لي أنه في الغويان منذ عشرين سنة، وقد أطلق سراحه منذ خمس سنوات فقط، وعمره الآن خمس وأربعون سنة، وأنه بسبب الحماقة التي ارتكبها بوشم وجهه لم تعد الحياة في فرنسا تروق له. وهو يعشق هذه الغابة، فمنها فقط مورد رزقه: من جلد أفعى، أو جلد نمر، أو مجموعة من الفراشات، وخاصة صيد الدراج وهو حي والذي نحن أكلناه، وقال إن ثمنه يساوي مئتين أو مئتين وخمسين فرنكاً. وعرضت عليه الثمن فلم يقبل. ثم روى لنا ما يلي:

هذا الطائر المتوحش هو ديك الغابة. وهو بطبيعة الحال لم ير ديكاً ولا دجاجة ولا إنساناً. أصطاد الواحدوآخذه إلى القرية وأبيعه لأصحاب المداجن، وهو مطلوب جداً. ودون أن تقص له جناحيه ودون أن تفعل أي شيء آخر، تضعه عند هبوط الليل في المدجنة، فتجده في الصباح، عند فتح الباب منتصباً هناك وكأنه يعد الدجاجات والديوك التي تخرج فيتبعها، ويأكل مما تأكل ويجيل بصره في كل صوب وناحية، في الأسفل وفي الأعلى والعياض المجاورة، إنه مثل كلب الحراسة بالضبط ولا نظير له. وفي المساء يقف عند الباب، ولا أحد يفهم كيف يعرف أن دجاجة أو دجاجتين قد نقصتا فيذهب لإحضارهما، وهو يدخل الدجاجات والديوك بنقرة من منقاره ليعلمها كيف تتواجد في الوقت المحدد، ويقتل الجرذان والأفاعي والعناكب وكثيرات الأرجل، وما أن يلوح في الجو

طير جارح حتى يدفع بالجميع إلى الاختفاء بين الأعشاب ويبقى وحده في مواجهته. وإلى جانب ذلك فإنه لا يغادر المدجنة أبداً. هذا هو الطائر العجيب الذي أكلناه كأي ديك عادي.

وأخبرنا بروتون كذلك بأن جيزو والقلة وثلاثين من ذوي السوابق قد أوقفوا في مركز شرطة سان لوران لمعرفة إذا كان أحدهم يطوف حول المكان الذي خرجنا منه. والعربي قد أودع في سجن إفرادي بتهمة الاشتراك في الجرم، ولم تترك الضربتان اللتان نزلتا برأسه أي جرح، على حين أن الحارسين الآخرين ظهرت على رأس كل منهما حدبتان خفيفتان. وأردف بروتون: أما أنا فيا اعتزالي هم، لأن الجميع يعلمون بأنني لا أمارس إعداد الهروب لأحد، إن جيزو قذر ونذل.

وعندما حدثته عن الزورق أحب أن يراه وما كان يفعل حتى صاح: إنه يقودكم إلى الهلاك إذ لا يمكن لهذا الزورق بأية حال أن يعوم أكثر من ساعة في البحر، ومع أول موجة قوية يصادفها سوف ينشطر شطرين، إياكم أن تركبوه، فركوبه انتحار مؤكد.

ـ إذن ما العمل؟
ـ هل معك مال؟
ـ نعم.
ـ سأقول لك ما يجب أن تفعله. وخير من هذا، سوف أساعدك فأنت جدير بالمساعدة، وسوف أبذل لك ولرفيقيك العون من غير مقابل، إلى أن يتم لكم الظفر. إياكم أن تقربوا القرية لأي سبب ومهما كلف الأمر. ولكي تحصلوا على مركب جيد عليكم أن تقصدوا جزيرة الحمام. ففي هذه الجزيرة ستلتقون بمئتي أبرص تقريباً وليس عندهم مراقبون، ولا يؤم الجزيرة إنسان سليم، حتى الطبيب. وفي الساعة الثامنة من كل يوم يأتي مركب حاملاً المؤونة لمدة أربع وعشرين ساعة. يسلم ممرض المستشفى صندوقاً من الأدوية لاثنين من المرضى المصابين بالجذام أيضاً وهما اللذان يعتنيان بالمرضى. لا ينزل في هذه الجزيرة أحد، لا حارس ولا قناص ولا خوري. ويعيش البرص في أكواخ من القش صغيرة ابتنوها بأنفسهم. لهم قاعة مشتركة يجتمعون فيها. ويربون الدجاج والبط لتحسين مائدتهم المألوفة، ولايستطيعون رسمياً بيع أي شيء خارج الجزيرة، ويتعاملون بصورة غير مشروعة مع سان لوران وسان جان، ومع الصينيين في مستعمرة غويان الهولاندية. وكلهم قتلة خطرون وقلما يقتل بعضهم بعضاً، وإنما يرتكبون جرائم مختلفة حين يخرجون من الجزيرة مخالفين بذلك قانون حظر الخروج عليهم، ثم يعودون لإخفاء أعمالهم المنكرة. وللقيام بهذه الرحلات يمتلكون عدداً من المراكب المسروقة من القرية. والحراس يطلقون النار على كل زورق يدخل الجزيرة أو يخرج منها. وعلما فإن البرص يحملون الزورق بالحجارة، وعند الإبحار يجرونه وهم تحت الماء ثم يفرغونه من الحجارة فيعود عائماً على السطح. في الجزيرة كل شيء، ومن كل عرق، ومن كل بقعة من بقاع فرنسا.

والفلاحة إن مركبك يضعك في ماروني فقط وبشرط أن لا يكون حملاً فوق طاقته. أما ركوب البحر فيحتاج الى مركب آخر، وأحسن المراكب ما كان في جزيرة الحمام.

ـ ما العمل إذن؟

ـ أنا أرافقك في النهر فقط، إلى أن تصبح الجزيرة على مرمى البصر، وقد لا تعثر عليها، وقد تقع في خطأ. والجزيرة على بعد مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً من المصب، فيجب حينئذ الرجوع إلى الوراء. إنها تبعد عن سان لوران بمقدار خمسين كيلو متراً، سأضعك في أقرب موضع ممكن. وسأجتاز أنا النهر مع زورقي الذي سنقطره. وعليك أن تتصرف في الجزيرة.

ـ لم لا تأتي معنا إلى الجزيرة.

ـ يا صاحبي، وضعت يوماً قدمي على طرف الجزيرة، واتفق أن وصل مركب الإدارة رسمياً، وكان ذلك في رابعة النهار، ومع ذلك لقيت من العنت ما كفاني. اعذرني يا بابي. لن أطأ هذه الجزيرة على الإطلاق، ثم إني سأكون عاجزاً عن ضبط اندفاعي حين أكون قريباً منهم. سينالكم من وجودي أذى، أكثر مما يصيبكم من الخير.

ـ متى نرحل؟

ـ عندما يخيم الظلام.

ـ كم الساعة يا برتون؟

ـ الساعة الثالثة.

ـ سأنام قليلاً.

ـ لا. يجب أن ترتب أمورك على الزورق.

ـ ولكن سأذهب في الزورق فارغاً، ثم أعود لإحضار كلوزيو الذي يبقى هنا لحراسة أمتعتنا.

ـ مستحيل، فإنك لن تستطيع العثور على المكان ثانية حتى في النهار وفي النهار لا ينبغي لك أن تجري في النهر بأية حال، لأن الرصاص سينهال عليك بلا توقف. فالنهر خطر.

مالت الشمس نحو المغيب. ذهب برتون لإحضار زورقه. ربطه خلف زورقنا. جلس كلوزيو بالقرب من برتون الذي حل المجداف، وماتوريت في الوسط وأنا في المقدمة. خرجنا من الخليج بصعوبة وعندما بلغنا النهر كان الليل على وشك الهبوط. كان قرص الشمس كبيراً مصطبغاً باللون الأحمر، يلهب الأفق من جهة البحر بشواظ من نار. ألف نار تعج في النار تصارع بعضها بعضاً لتكون أشد وطأة وأكثر حمرة وأعظم اصفراراً، وأشد برقشة في الأماكن التي تمتزج فيها الألوان. كنا نرى مصب هذا النهر العظيم على بعد عشرين كيلو متراً، بوضوح، وهو يتسارع متلألئاً بالنبر فوق لجين ماء البحر. قال برتون: هذه نهاية الجزر وبعد ساعة تحسون بالمد، وستفيد منه في الخروج إلى ماروني،

وهكذا سيدفعنا في سرعة إلى الجزيرة بدون جهد.

وفجأة أظلمت الدنيا. قال برتون: إلى الأمام جذفوا بقوة لنحتل مكاناً في وسط النهر، لا تدخنوا.

وغاصت المجاذيف في الماء وسرنا مع التيار مسرعين، شوت، شوت، شوت كنت مع برتون في توازن ندفع المجداف في وقت معاً، وماتوريت يبذل طاقته، وكلما تقدمنا نحو الوسط شعرنا بالمد الذي يدفعنا، وانزلقنا في سرعة. وكنا نشعر بالتغيير كل نصف ساعة، والمد يزيد من قوته، ويسرع في جرنا معه، وأصبحنا على مقربة من الجزيرة بعد ست ساعات، فاتجهنا نحوها على خط مستقيم.

قال برتون بصوت منخفض: إنها بقعة كبيرة في وسط النهر، جانحة قليلاً نحو اليمين، إنها هناك. لم يكن الظلام حالكاً، إنما تعذرت الرؤية بسبب الضباب اللامس لسطح النهر. اقتربنا حتى تبينت لنا مقاطع الصخور، فركب برتون زورقه وفصله عن زورقنا. وبكل بساطة قال: أتمنى لكم حظاً سعيداً.

ـ شكراً

ـ لا شكر على واجب

ولما لم يبق برتون موجهاً لزورقنا فإنه اندفع مستقيماً نحو الجزيرة، وحاولت تعديله بتحويره فلم أفلح، فسرنا مع التيار، حتى وصلنا إلى نباتات تتدلى فوق الماء، وكان الزورق مندفعاً بقوة، رغم أنني كنت أكبحه بمجدافي، ولو أننا صادفنا صخوراً بدلاً من الأشجار والأغصان لتحطم الزورق وضاع كل شيء: الغذاء، والأدوات، الخ. نزل ماتوريت في الماء وسحب الزورق فانزلق إلى مكان تظلله أشجار كثيفة، وسحب، ثم سحب، ثم ربطنا الزورق فشربنا جرعة من الروم، وصعدت وحدي إلى الضفة تاركاً صديقي في الزورق. مشيت والبوصلة في يدي، وكسرت عدداً من الأغصان تاركاً في أماكن متعددة قصاصات من كيس الطحين، كنت أعددتها قبل ذلك. رأيتهم خلفاً، وثلاثة أكواخ من القش، فتقدمت وأنا حائر، كيف أقدم نفسي لهم، فقررت أن أدعهم يكتشفونني. أشعلت سيجارة ولما أضاء عود الثقاب، أسرع نحوي كلب صغير نابحاً محاولاً أن يقفز علي، وأن يعضني من ساقي، وتساءلت ألا يكون مصاباً بالبرص؟ يا لي من أحمق، الكلاب لا تصاب بهذا المرض.

ـ من هناك؟ هذا أنت يا ماوسيل؟

ـ لا. رجل هارب.

ـ ماذا جئت تفعل هنا؟ تسرقنا؟ أتظن لنا مالاً؟

ـ لا أنا بحاجة إلى مساعدة

ـ مجانية أم مأجورة؟

ـ صه يا شويت.

وإذا أربعة أشباح تخرج من الأكواخ.

تقدم أيها الصديق أراهن على أنك أنت الرجل صاحب البندقية. فإن كانت معك ضعها على الأرض، ولا تخش شيئاً.

تقدمت فإذا أنا بالقرب منهم ولا زال الوقت ليلاً ولم أتبين ملامحهم ومددت يدي في غباوة، ولكن أحداً منهم لم يمسها. وقد فهمت متأخراً. إن هذه الحركة غير متفق عليها هنا، ولم يريدوا لي العدوى. قال شويت: لندخل إلى الكوخ، وكان معناه بسراج زيت موضوع على منضدة. قيل لي اجلس فجلست على كرسي من القش لا مسند له، أوقد شويت ثلاثة سرج زيتية، ووضع واحداً على المنضدة فالتي بالضبط، والدخان المتصاعد من قبيل هذا السراج الذي يشتعل بالزيت النباتي ذو رائحة تبعث على التقزز. كنت أنا جالساً، وهم الخمسة واقفون، لا أرى وجوههم، ووجهي واضح القسمات لأني على مستوى السراج، وهذا ما قصدوه. وقال صاحب الصوت الذي أمر شويت بالصمت: اذهب يا لاتكي إلى المنزل العام لنعرف إذا كانوا يريدونه هناك، وعد إلينا بالجواب سريعاً، وبخاصة إذا كان توسان راضياً.

ـ ليس في مقدورنا هنا أن نقدم لك شيئاً لتشرب يا صديقي إلا إذا أردت البيض نيئاً. ووضع أمامي سلة من البيض مترعة.

ـ لا. شكراً.

جلس أحدهم على يميني، وعندئذ رأيت أول وجه أبرص وكان فظيعاً. بذلت جهدي لأمنع نفسي من الالتفات عنه، أو لأمنع ظهور آثار الطباعي بهذا المشهد. فالأنف متآكل لحماً وعظماً وليس في الوجه سوى فتحة في الوسط قلت في نفسي: هذا خير من فتحتين. فتحة ولكنها كبيرة بمقدار حجم قرنكين. والشفة السفلى على اليمين متآكلة، كشفت عن ثلاثة أضراس طويلة صفراء ترى دخولها في عظم الفك العلوي حيث لا أسنان، ليس له سوى أذن واحدة. وضع يده على المنضدة وحولها ضماد، إنها اليد اليمنى ويمسك بين إصبعيه مما تبقى من يده اليسرى سيكاراً غليظاً وطويلاً. ربما صنعه بنفسه لأنه ملفوف من ورقة تبغ نصف ناضجة، مشربة باللون الأخضر، ليس له أجفان إلا على العين اليسرى، والعين اليمنى لا جفن عليها وفيها قرح عميق يمتد إلى أعلى حتى يضيع بين شعر رمادي كثيف، قال بصوت مبحوح:

سنساعدك يا هذا، وأنت تحتاج إلى زمن طويل لتصبح مثلي وهذا ما لا أريده لك.

شكراً

ـ اسمي جان الشجاع، أنا من الضواحي. عندما أتي بي إلى السجن كنت أجمل وأقوى وأوفر صحة منك. وبعد عشر سنوات انظر كيف أصبحت.

ـ الا يعتنون بك؟

ـ بلى. أنا في تحسن منذ بدأت باستعمال الحقن من زيت الشوماجرا. انظر.. ثم أدار رأسه وأراني الجانب الأيسر وبدأ هذا الجانب يجف.

فأحسست بقلبي يعتصر إشفاقاً عليه. وحركت يدي لألمس وجهه تعبيراً عن التعاطف معه، فمال إلى الوراء، وقال لي: شكراً لهذه الرغبة ولكن لا تلمس مريضاً، ولا تأكل ولا تشرب من قصعته.

لم أر وجهاً فيما رأيت إلا وجه أبرص استطاع الثبات أمام نظري. على عتبة الباب، بدا ظل رجل قصير الطول قليلاً من القزم، قال:

ـ أين الرجل؟ توسان والآخرون يرغبون في رؤيته خذوه إلى المركز.

نهض جان الشجاع وقال اتبعني. ومشينا جميعاً في الظلام، أربعة أو خمسة في المقدمة، أنا وجان بجانبي وآخرون في الخلف، وبعد دقائق ثلاث وصلنا إلى ساحة ينيرها نور آت من القمر ضئيل. هذه الساحة هي القمة المسطحة للجزيرة، وفي الوسط منزل ينبعث من نافذته ضوء، وأمام الباب حوالي عشرون رجلاً بانتظاري. فاتجهنا نحوهم ولما وصلنا تفرقوا ليتركوا لنا مجالاً للمرور. قاعة مستطيلة طولها عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار تقريباً، فيها ما يشبه المدفأة يوقد فيها الحطب، محاطة بأربعة حجارة كبيرة ذات ارتفاع واحد. والقاعة مضاءة بمصباحين كبيرين وقودهما النفط. جلس على الكرسي رجل أبيض الوجه، لا يمكن تحديد عمره، وجلس خلفه خمسة أو ستة رجال.

ـ أنا توسان الكورسيكي، ولا بد أنك بابيون؟

ـ نعم.

ـ تسري أخبار السجن بنفس السرعة التي تتحرك بها. أين وضعت البندقية؟

ـ ألقينا بها في النهر.

ـ في أي مكان؟

ـ مقابل جدار المستشفى، وبالضبط عند المكان الذي قفزنا منه

ـ إذن من الممكن استردادها

ـ افترض ذلك لأن الماء في هذا المكان ضحل

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ اضطررنا إلى النزول في الماء لنحمل صديقنا الجريح إلى الزورق.

ـ ما به؟

ـ كسرت ساقه

ـ ماذا فعلت من أجله؟

ـ وضعت له أغصانا مشطورة من وسطها شطرين، وجعلت لساقه منها ما يشبه الغل.

– هل يكابد الآلام؟
– أجل.
– أين هو الآن؟
– في الزورق.
– قلت إنك جئت باحثاً عن معونة فما تلك المعونة؟
– أريد مركباً.
– تريد أن نعطيك مركباً؟
– وعندي المال لأدفع الثمن.
– حسناً سأبيعك مركبي وهو متين وجديد، سرقته الأسبوع الفائت من آليا. إنه ليس مركباً بل هو عابر للأطلسي. إنما ينقص شيء وهو الحيزوم[1]. وفي مدى ساعتين سنجهز المركب بواحد. وفيه كل ما ينبغي: السكان مع حاجزه والصاري من الخشب والحديد وطوله أربعة أمتار، وشراع جديد جداً مصنوع من الكتان. كم تدفع لي؟
– قل لي الثمن الذي تريده. فأنا لا أعرف قيمة الأشياء هنا
– ثلاثة آلاف فرنك، إذا استطعت ذلك فإن لم تستطع فما عليك إلا أن تحضر لي البندقية الليلة القادمة ونجري التبادل.
– لا. إني أوثر الدفع.
– لا بأس. صفقة معقولة. لابوس! قدم له القهوة.
لابوس هو هذا الرجل القصير الذي جاء يدعوني. توجه نحو رف مثبت في الجدار فوق المدفأة، فأخذ صحناً لامعاً جديداً ونظيفاً وصب فيه القهوة من قارورة، ووضعه على النار، وبعد قليل سحب الصحن ووضع القهوة في أقداح موضوعة قرب الحجارة. مال توسان ودار بالقهوة على الرجال الجالسين خلفه. وقدم لي لابوس الصحن وقال لي: اشرب ولا تخف لأن هذا الصحن مخصص بالمسافرين لم يشرب منه أي مريض. فتناولته وشربت القهوة ثم وضعته فوق ركبتي. وخلال ذلك رأيت في الصحن إصبعاً ملتصقة وبينما كنت أتثبت مما ترى عيني سمعت لابوس يقول: ها قد فقدت إصبعاً أخرى يا للشيطان أين وقعت؟ قلت له: إنها هنا، وأشرت إليه أن ينظر في الصحن فنزعها وألقى بها في النار وقال:

– بإمكانك أن تشرب لأني مصاب بالبرص الجاف وسوف تتقطع أوصالي قطعة قطعة ولكني لا أعدي أحداً. ثم فاحت رائحة لحم محترق وقلت في نفسي: هذه رائحة الأصبع المحترق. قال توسان:
– أنت مضطر للبقاء هنا سحابة النهار حتى يحين وقت المد. وعليك أن تذهب لإعلام صاحبيك. أحضر الجريح إلى كوخ من الأكواخ، واجمع كل ما

(1) حيزوم السفينة خشبة ثابتة من طرف السفينة إلى طرفها الآخر وهو بمثابة العمود الفقري لها

في الزورق ودعه يجري. لا يستطيع أحد أن يساعدك ولعلك تفهم السبب. فانطلقت جرياً إلى صاحبي وحملنا كلوزيو إلى كوخ وبعد نصف ساعة أفرغ الزورق إفراغاً تاماً منظماً وبكل عناية. طلب لابوس أن نقدم له الزورق مع المجداف هدية فأعطيته إياهما، وهو يريد أن يقوده إلى مكان يعرفه. ومرت الليلة سريعاً، وقد نمنا نحن الثلاثة في الكوخ على أغطية جديدة أرسلها توسان. وصلتنا مغلفة بورق تغليف جيد ومتين. رويت لكلوزيو وماتوريت، ونحن ممددون على الأغطية، تفاصيل ما جرى منذ وصولي إلى الجزيرة، والصفقة المعقودة مع توسان. تفوه كلوزيو بكلمة حمقاء دون أن يفكر بها: إذن الهروب يكلف خمس مئة وستة آلاف فرنك، وأنا أعطيك نصفها، أي ثلاثة الآلاف التي أملكها.
– لسنا هنا في صدد حسابات أرمنية. فأنا أدفع ما دام معي مال، وبعد ذلك سنرى.

لم يدخل أحد علينا من المرضى. طلع النهار ووصل توسان وقال:
– صباح الخير، يمكنكم الخروج مطمئنين، لا يمكن لأحد هنا أن يزعجكم، هناك شخص تسلق شجرة النارجيل – جوز الهند – في أعلى الجزيرة، يترصد مراكب الحراسة في البحر، فلم يبد منها مركب. وما دامت هناك راية بيضاء تعوم فهذا معناه لا شيء تحت البصر، وإن رأى شيئاً نزل ليعلمنا. في وسعكم أن تقطفوا الثمر بأنفسكم وتأكلوه إن شئتم ذلك، فقلت له:
– شكراً، والحيزوم يا توسان؟
– سنقوم بصنعه من خشب باب المستوصف، إنه من الخشب الثقيل ويلزمنا لوحان فقط، وكنا ليلاً أخرجنا المركب في الليل متهربين الظلام. تعال انظر إليه.

فتبعنا. حقاً إنه مركب بديع طوله خمسة أمتار، جديد كل الجدة وفيه مقعدان خشبيان. أحدهما مثقوب بثقب يسمح ببروز الصاري، وهو ثقيل، وقد وجدنا أنا وماتوريت مشقة في تكويره. الشراع والحبال جديدة، وعلى جوانبه حلقات ليعلق عليها الحمولة كما في ذلك برميل الماء. وشرعنا في العمل، وعند الظهر كان الحيزوم مثبتاً في السفينة من الخلف إلى الأمام بقوة بمسامير لولبية. تحلق بنا البرص ينظرون إلينا ونحن نعمل ويودون أن يتفوهوا بكلمة، ولوسان يرشدنا إلى طريقة العمل، ونحن ننفذ. لم أر قروحاً في وجه توسان الذي يبدو سوياً، ولكنه عندما يتكلم يلاحظ أن جانباً واحداً من وجهه يتحرك هو الجانب الأيسر وقد قال لي إنه مصاب بالبرص الجاف. صدره وذراعه الأيمن مشلولان ويتوقع شلل ساقه اليمنى. عينه اليمنى جامدة وكأنها من زجاج، ولكنه يرى بها دون أن يستطيع تحريكها.

لن أذكر اسم واحد من المصابين، إذ قد يجهل من أحبوهم أو عرفوهم الحالة الرهيبة التي وصلوا إليها، وكيف كانت تتقطع أوصالهم وهم أحياء. كنت أخاطب توسان وأنا أعمل، ولم يتكلم أحد سواه، إلا مرة واحدة حينما ذهبت لإحضار بعض القصلات

التي انتزعوها من أثاث المستوصف، قال لي أحدهم: لا تأخذها، دعها هنا، لقد شقيت في انتزاعها، وقد سال عليها شيء من دمي فمسحته. فقام أبرص وسكب (الروم) عليها وأشعل النار مرتين ثم قال: الآن تستطيع استعمالها.

قال توسان أثناء العمل لواحد من البرص:

ـ أنت سبق لك أن ذهبت مراراً، اشرح لبابيون ما ينبغي عمله، لأن أحداً من هؤلاء الثلاثة لم يسبق له أن هرب. وفي الحال بدأ يشرح: في وقت مبكر من هذا المساء يحين موعد الجزر وهو يبدأ في الساعة الثالثة. وفي الساعة السادسة ستجد أمامك تياراً قوياً يقودك في أقل من ثلاث ساعات مسافة مئة كيلو متر من موضع الخروج. ويجب أن تتوقف في الساعة التاسعة، وتنتظر ست ساعات وعندئذ يبدأ موعد المد. والمركب مربوط بشجرة ربطاً وثيقاً، وتكون الساعة حينئذ الثالثة صباحاً. لا تعجل الرحيل في تلك الساعة، لأن التيار لا يتراجع بهذه السرعة. ضع نفسك وسط النهر في الساعة الرابعة والنصف صباحاً، ويبقى لديك ساعة ونصف الساعة قبل طلوع النهار تستطيع أثناء ذلك أن تسير خمسين كيلو متراً، هذه الفترة هي الفرصة الذهبية إذ ينبغي أن تدخل البحر في الساعة السادسة أي ساعة الإصباح. وعندها لن يستطيع الخفراء أن يلحقوا بك إذا رأوك. لأن المد يكون قد بدأ وهم عند سد الخروج، ولن يتمكنوا منك، لأنك تكون قد جاوزت السد.

هذا الكيلو متر الذي عليك أن تجتازه عندما يرونك، هو حياتك.

ـ وماذا عندك في الزورق؟ فهنا لا يوجد سوى شراع واحد

ـ شراع وقلع.

ـ هذا المركب ثقيل يتحمل قلعين أحدهما في المقدمة أسفل الصاري والآخر متفتح وخارج من المقدمة ليدفعها. انشر الأشرعة مستقيمة فوق أمواج البحر وهي عظيمة عند المصب. اجعل رفيقيك ينامان في قاع المركب حفظاً على توازنه، وأمسك أنت بقبضة السكان جيداً ولا تربط حبل الشراع بساقك، بل مرره من الحلقة المعدة لهذا الغرض في المركب، ثم لفه لفة واحدة حول معصمك، فإن اجتمعت قوة الريح إلى حركة انتقال موجة كبيرة، ووجدت أنك تواجه خطر السقوط في البحر أثناء التقاذف، فما عليك إلا أن ترخي كل شيء في الحال، فترى أن المركب استعاد توازنه. وبعد أن يتم ذلك لا تتوقف، بل دع المركب يعوم واخرج عوماً نحو الأمام في صميم الريح مع القلعين الخلفي والأمامي. وفي المياه الزرقاء، فقط يتسع لك الوقت لإنزال الشراع ثم استئناف السير بعد رفعه. هل تعرف الطريق؟

ـ لا. أعرف فقط أن فنزويلا وكولومبيا تقعان في الشمال الشرقي.

ـ صح. ولكن حذار من الاتجاه نحو الساحل، فهناك غويان الهولاندية التي تسلم الفارين، وكذلك غويان الانكليزية. أما ترينيداد فلن تسلمك إنما تجبرك على الرجوع بعد خمسة عشر يوماً. وفنزويلا تسلمك بعد أن تستخدمك في رصف الطرق مدة سنة أو

سنتين. كنت أصغي بكل جوارحي، لقد ذكر أنه كان يذهب بين حين وآخر، وبما أنه مصاب بالبرص فقد كانوا يردونه على الفور. واعترف بأنه لم يذهب أبعد من غويان الانكليزية (جورج تاون). والبرص ظاهر باد عليه، إلا في قدميه اللتين فقدتا أصابعهما كلها، فهو حافي القدمين. طلب مني توسان إعادة النصائح التي سمعتها ففعلت دون خطأ. قال جان الشجاع في هذه اللحظة: كم يحتاج من الوقت ليكون في عرض البحر؟ فسبقت إلى القول:

ـ أسير ثلاثة أيام شمالاً، شمال شرق، ومع الانحراف سأكون شمال ـ شمال، وفي اليوم الرابع سأتجه شمال غرب، وهذا يؤدي إلى الغرب بالضبط. قال الأبرص: برافو. أنا في المرة الأخيرة لم أسر في اتجاه الشمال الشرقي سوى يومين. وهكذا وقعت في غويان الانكليزية. ثلاثة أيام باتجاه الشمال تنتهي إلى شمال ترينيداد أو باربادوس. ودفعة واحدة تتخطى فنزويلا.

قال جان الشجاع: توسان بكم بعت مركبك؟

ـ بثلاثة آلاف. هل غلوت في الثمن؟

ـ لا. قلت هذا لمجرد العلم لا أكثر. هل تستطيع الدفع يا بابيون؟

ـ نعم.

ـ هل يبقى لديك مال؟

ـ لا هذا كل ما أملك، ثلاثة آلاف بالضبط في حوزة صديقي كلوزيو.

قال جان: توسان أود أن أبيعك مسدسي لتساعدهم، فبكم تشتريه؟

ـ بألف فرنك. وأنا أيضاً أريد مساعدتهم.

قال ماتوريت وهو ينظر إلى جان الشجاع: شكراً لكم جميعاً.

وشكر هم كلوزيو، أما أنا فقد شعرت بالخجل لأني كذبت وقلت: لا يمكن أن أقبل هذا منك إذ لا مبرر لهذا. فنظر إلي وقال: أجل هناك مبرر. ثلاثة آلاف مبلغ كبير علماً بأن توسان يخسر بهذا الثمن القليل، فهو يعطيك مركباً شهيراً. إذن ليس هناك مسوغ أن لا أفعل ما فعلت من أجلكم. وكان الموقف مؤثراً حقاً. وضع شوريت قبعته على الأرض، وها هم أولاء البرص يلقون بالنقود في داخلها، وتقاطروا من كل مكان ليضعوا أي شيء، وأحسست بالخزي يجتاح كياني، ولم يبق بالإمكان أن أعترف بوجود المال معي. ما العمل يا إلهي، لقد قابلوا غدري بنبل جم: «أرجوكم لا تبذلوا هذا البذل الكثير».

قال رجل زنجي أسود مشوه، ليس لكفيه أصابع:

إن المال لا ينفعنا في عيش. اقبله ولا تخجل، فهو لا يفيدنا إلا في الميسر أو تقبيل النساء البرص اللاتي يأتين من حين لآخر من ألبينا.

ولقد وجدت في هذا القول بعض العزاء، وحال دون البوح بحقيقة ما عندي من المال. ثم أعدوا لنا مئتي بيضة مشوية، ووضعوها في صندوق عليه علامة الصليب الأحمر، فهذا هو

الصندوق الذي نلفوه اليوم وفيه الدواء اليومي. وأحضروا كذلك سطحاتين جيتين، لا يقل وزن الواحدة منها عن ثلاثين كيلو غراماً، وأوراق تبغ، وقارورتين عتيقتين بأعواد الثقاب، وكيساً يحوي خمسين كيلوغراماً من الرز، وكيسين من فحم الخشب، وموقد كاز وهو من المتوصف، وكمية من البنزين. كانت هذه المجموعة البائسة متعاطفة معنا ويريدون المساعدة في إنجاح خطتنا، وكأنها تخصهم. جر الزورق إلى قرب المكان الذي وصلنا إليه، وعدوا المال الذي جمع في القبعة فبلغ ثماني مئة فرنك، وكان علي أن أدفع لتوسان فوقه ألفاً ومئتي فرنك ليس غير.

أعطاني كلوزيو أنبوبه ففتحتها أمام الجميع فكان فيها ورقة من فئة الألف وأربع ورقات من فئة خمس مئة فرنك، فقدمت لتوسان ألفاً ومئتين، فرد لي ثلاث مئة فرنك ثم قال خذ هذا المسدس هدية مني، لقد جازفت كثيراً، ولاينبغي في اللحظة الأخيرة أن تخطىء فإن له صوتاً مدوياً، وآمل أن لا تستخدمه.

لم أدر كيف اشكر له أولاً، وللآخرين ثانياً. والممرض أيضاً أعد لنا صندوقاً ضمنه قطناً وكحولاً وأسبريناً وضماداً وصبغة يود، ومقصاً، ولاصقاً. وأحضر أحد المرضى خشبتين مصقولتين وضمادين جديدين بغلافهما، وذلك لتغيير ما كان على ساق كلوزيو. وفي حوالي الساعة الخامسة أمطرت السماء. قال جان: واتتك الفرصة ولا خوف من أن يراكم أحد يوسعكم الرحيل واختتام نصف ساعة من الوقت. وهكذا تكونون على مقربة من المصب للانطلاق في الرابعة والنصف صباحاً قلت له: كيف يمكنني معرفة الساعة؟

ـ المد في صعوده والجزر في انحساره ينبئانك بذلك.

وضعنا المركب في الماء وهو ليس كالزورق، إنه يقفز فوق الماء أربعين سنتمتراً تقريباً وهو محمل بالمواد وبنا نحن الثلاثة.

الصاري ملتف به الشراع ومدد، فنحن لسنا بحاجة إليه إلا عند الخروج. وضعنا الدفة ومقبضها وعصا الأمان وأكثر من وسادة للجلوس. ورتبنا في قاع المركب عشاً من الأغطية. لم يشأ كلوزيو أن يغير ضماده، إنه عند قدمي على وبين برميل الماء، وجلس ماتوريت في الصدر. وللحال أحسست بشعور الطمأنينة بخلاف ما كنت عليه في الزورق.

لا يزال المطر ينهمر، وعلي أن أنزل إلى وسط النهر قليلاً إلى اليسار من جهة الساحل الهولاندي. قال جان الشجاع: وداعاً، أسرعوا. وقال توسان: أرجو لكم التوفيق. ودفع المركب بقدمه دفعة قوية.

ـ شكراً لك توسان، وشكراً لك يا جان، وألف شكر للجميع. وفي سرعة توارينا عن الأنظار على أكتاف الجزر الذي تحرك منذ ساعتين ونصف الساعة في سرعة مذهلة. ولا يزال المطر يهطل والرؤية متعذرة حتى على بعد عشرة أمتار منا. كان ماتوريت

في المقدمة منحنياً مطلقاً، خشية أن نصطدم بصخور جزيرتين صغيرتين كانت في طريقنا على المساء. كانت شجرة ضخمة تلاشها في النهر في سرعة أبطأ من سرعتنا لحسن الحظ، وقد كانت تسبب لنا الضيق والضجر بفروعها. ولم يدم ذلك طويلاً وتخلصنا منها وتابعنا السير في سرعة ثلاثين كيلو متر. كنا ندخن ونشرب الروم وقد أعطانا المرضى ست زجاجات مقششة.

والأمر الغريب، أن واحداً منا لم يتكلم عن القروح المقيحة التي شاهدنا على عدد من المصابين بالجذام. وكان حديثنا يدور حول محور واحد: عن سلامة طويتهم وعن كرمهم واستقامتهم، وعن حسن طالعنا بلقاء بروتون ذي القناع الذي أرشدنا إلى جزيرة الحمام.

ولا يزال المطر يهطل، وازداد غزارة وتبللت حتى العظام، ولكن هذه الذراعات الصوفية الممتازة تحفظ الحرارة على ما فيها من بلل شديد. ولم أشعر بالبرد ما عدا يدي التي أمسكت بها مقبض الدفة، فقد يبست تحت المطر.

وفي هذه اللحظة قال ماتوريت: نحن ننحدر في سرعة تزيد على أربعين كيلو متراً في الساعة. كم مضى من الوقت على انطلاقنا في تقديركم؟

قال كلوزيو: سأخبرك، انتظر قليلاً. ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة
ـ أنت مجنون؟ كيف قدرت ذلك؟
ـ كنت أعد منذ بدء الرحلة ثلاث مئة ثانية، وفي كل مرة كنت أقطع حزازة من ورق المقوى وأصبح عندي الآن تسعة وثلاثون حزازة وكل واحدة تساوي خمس دقائق فيكون الناتج ثلاث ساعات وربع الساعة، وإذا لم أكن مخطئاً، فلن نستطيع النزول مع الجزر بل سنصعد مع المد الجديد ونعود أدراجنا، وذلك في فترة تتراوح بين خمس عشرة وعشرين دقيقة.

دفعت بمقبض الدفة منحرفاً نحو اليمين ومقترباً من الضفة، إلى جانب غويان الهولاندية وقبل ملامسة الغابة، توقف التيار. فلم ننزل مع التيار ولم نصعد، ولا يزال المطر منسكباً. امتنعنا عن التدخين والكلام والهمس. تناولت المجداف ورفعته، وبدأت بالتجديف بنفسي ووضعت مقبض السكان تحت فخذي الأيمن ولامسنا الأرض بهدوء تمسكنا بالأغصان وأثلنا بها، ونحن الآن في العتمة الناجمة عن كثافة النباتات. النهر رمادي اللون مغطى بالضباب، ومن المستحيل على المرء أن يعرف موضع البحر، أو موضع مصب النهر، لولا المد والجزر.

سوف يستمر المد ست ساعات، يضاف إليها ساعة ونصف بانتظار الجزر. وسوف أستطيع النوم ست ساعات على الرغم مما أنا فيه من هيجان. يجب أن أنام، فإذا ما خرجنا إلى البحر فمتى أستطيع نوماً؟ تمددت بين البراميل والصاري. مد ماتوريت بين المقعد والبرميل غطاءه يكون لي سقفاً وملاذاً، ثم نمت نوماً عميقاً. لا شيء يزعجني أو يعكر علي منامي الثقيل لا حلم ولا مطر، ولا ضجة سيئة. نمت طويلاً إلى أن جاء ماتوريت يوقظني: بابا! نظن أن الوقت قد حان أو أوشك. والجزر قد بدأ منذ زمن، والمركب اتجه نحو البحر والتيار يجري تحت أصابعي مسرعاً. وانقطع المطر، والقمر في ربعه الأول يسمح لنا برؤية واضحة لمسافة مئة متر، والنهر يحمل الأعشاب والأخشاب، بأشكال سود، نظرت باحثاً عن خط الفصل بين النهر والبحر، فنحن لا نحس حركة الريح. ترى هل هناك ريح من وسط النهر؟ هل هي شديدة؟ خرجنا من تحت مظلة الغابة. المركب مشدود إلى غصن كبير بحبل معقود به. وحين نظرت إلى السماء قدرت موضع الساحل، نهاية النهر وبداية البحر.

فقد نزلنا إلى أبعد مما كنا نظن، وكان لدي إحساس بأننا لا نبعد عن المصب أكثر من عشرة كيلومترات. تناولنا جرعة من الروم طيبة، وانشرحت أصحابي في نصب الصاري فوافقوا، فرفعناه إذا هو مثبت جيداً في قاعدته وفي الثقب الذي يمر منه في المقعد. رفعت الشراع وهو ملفوف لم ينشر. القلعان الخلفي والأمامي جاهزان، سيرفعهما ماتوريت عندما أرى أن الوقت قد حان. ولكني بعمل الشراع، ما علينا إلا أن نرخي الحبل المثبت في الصاري، وأنا من مكاني أبدأ العمل. ماتوريت في الأمام مع مجدافه وأنا في الخلف مع مجدافي ويجب أن تنفصل عن الضفة بقوة وسرعة حين يكف التيار عن صحتنا.

استعداد. إلى الأمام. بفضله تعالى..

وأعاد كلوزيو: بفضله تعالى. وقال ماتوريت: ألقي بين يديك وأتعشاء، ودخلنا الماء متعاونين، ندفع الماء بالمجاديف، وأنا أغرز المجداف وأسحبه، وكذلك ماتوريت وانفصلنا بيسر، ولم نكد نبتعد عشرين متراً عن الضفة حتى نزلنا مئة متر مع التيار، وبغتة تحرك الهواء ودفعنا نحو وسط النهر. ماتوريت! ارفع القلعين مدعومين جيداً. ولم تلبث الريح أن ملأتهما، فثب المركب كالحصان ومرق مروق السهم وفجأة أضاء النهر بصخب وضجيج، وأصبحنا ننزل في سهولة، وصل مسافة كيلومترين الساحل الفرنسي على اليمين، والهولاندي على بعد كيلو متر واحد على اليسار وصرنا نرى بوضوح الحراف البيض وأعني بها ذرا الأمواج.

قال كلوزيو: باسم الله، لقد أخطأنا الوقت. هل تظن الخروج ممكن؟

– لا أدري.

– تأمل. ما أعلى ارتفاع الموج! هل سيبدأ الجزر؟

– مستحيل. أنا أرى أشياء تنحدر.

قال ماتوريت: لن يكون الخروج في إمكاننا ولن نصل في الوقت المحدد.

– اخرس، والزم مكانك بالقرب من القلوع، وأنت يا كلوزيو اسكت أيضاً. بان – إن. بان. إن والنار تطلق علينا. والطلق الثاني حددت موقعه. لم يصدر عن الحراس. إنه أتٍ من عوياد الهولاندية. رفعت الشراع فانفتح بقوة حتى كاد يرفعني ويجرني من معصمي، ومال المركب خمساً وأربعين درجة، وأخذت من الريح قدر المستطاع ولم يكن ذلك صعباً إذ لم تكن الريح شديدة. بان – إن، بان – إند، بان إن. ثم انتهى كل شيء وفقدونا إلى الشاطئ الفرنسي أقرب، ولهذا توقف إطلاق النار. وسرنا في سرعة تبعث على الدوار بريح كاسرة. والقيت نفسي في وسط المصب وفي دقائق معدودات كدت ألامس الشاطئ الفرنسي ورأيت بوضوح رجالاً يركضون نحو الشاطئ. حولت المركب عن الشاطئ، بأكثر ما يمكن من الهدوء، وأنا أشد حبل الشراع بكل ما أوتيت من قوة. وغيّر القلعان الاتجاه تلقائياً فدار المركب ثلاثة أرباع الدورة، فأرخيت الشراع، فخرجنا من المصب، والريح تدفعنا من خلف. أف. لقد سارت الأمور سيراً حسناً، وبعد عشر دقائق صادفنا أول موجة وكادت تعرقل مسيرتنا فعلوناها في يسر، وكان صوت المركب فوق ماء النهر شويت، شويت قد تحول إلى ثاك – إي – تاك، تاك – إي – تاك، وكنا نعلو هذه الأمواج رغم ارتفاعها بنفس السهولة التي يقفز بها صبي في لعبة الحروف، تاك – إي – تاك. والمركب يصعد ويهبط مع الموج دون أن يهتز أو يدور، ولا شيء سوى صوت اصطدام هيكل المركب بالبحر عندما ينحدر مع الموج. صاح كلوزيو بملء رئتيه: هوراء، هوراء، لقد خرجنا. وتتويجاً لانتصارنا هذا على العوامل بعث لنا ربنا الكريم إشراقة شمس رائعة. تلاحقت الأمواج على الإيقاع ذاته، وكلما توغلنا في البحر قل ارتفاعها. وكان الماء قذراً موحلاً وترى من الشمال أسود، وبعد قليل صار أزرق صافياً. ولم أبق في حاجة إلى البوصلة، فالشمس على كتفي الأيمن، وكنت أزجي المركب إلى الأمام في صميم الريح، وقد انحرف قليلاً لأنني تركت الحبل فانطوى الشراع نصف طية، بدلاً من أن يكون مشدوداً. وبدأت المغامرة الكبرى. نهض كلوزيو راغباً في الخروج. أخرج رأسه ثم جسده، ليمعن النظر، وأقبل ماتوريت يساعده على الاعتدال، وجلس في مواجهتي وقد أسند ظهره إلى البرميل ولف لفافة من التبغ وأشعلها، ثم قدمها لي، وأخذنا ثلاثتنا بالتدخين.

قال كلوزيو: هاتوا الشراب لنشرب نخب خروجنا هذا. وصب ماتوريت الصهباء في ثلاثة أقداح من المعدن وتجرعنا. ماتوريت جالس على يساري، ينظر بعضنا إلى بعض،

فالوجوه مشرقة بالبشر والحبور، وربما كان وجهي كذلك. وعندئذ قال لي كلوزيو:

– أين تذهب بنا أيها القبطان؟

– إلى كولومبيا إن شاء الله.

– إن الله سوف يشاء ذلك. باسم الله.

وتقت الشمس ولم نجد مشقة في تجفيف أنفسنا، تحول قميص المستشفى إلى برنس على الطريقة العربية، تركناه مبللاً على رؤوسنا لنبقى ندية، ولتحمينا من ضربة الشمس. المياه زرقاء، ويبلغ ارتفاع الموج ثلاثة أمتار، وهي مديدة مما يتيح لنا سفراً مريحاً. والريح مواتية، فنبتعد مسرعين عن الساحل ومن حين إلى آخر أراه يتضاءل في الأفق، وبقدر ما كنا نبتعد عن هذه الكتلة الخضراء كانت تبوح لنا بأسرار وشاحها المزركش وبينما كنت مشغولاً بالنظر إلى خلفي مرت موجة ذكرتني بالانضباط وبمسؤوليتي عن حياتي وحياة الآخرين. قال ماتوريت: سأطبخ لكم رزاً. وقال كلوزيو أنا أمسك بالموقد، وأنت أمسك بالقدر.

زجاجة البنزين موضوعة في المقدمة بعيدة عن النار. ما أطيب رائحة الرز بالدسم. أكلناه حاراً، وممزوجاً بالسردين، وتلا ذلك فنجان من القهوة.

– ما رأيك في جرعة من الروم؟

رفضت أن أشرب لأن الطقس حار، ومن جهة أخرى لم أكن من المدمنين. كلوزيو يصنع لي لفافة كل دقيقة، ويشعلها لي، والوجبة الأولى على المركب كانت حسنة. وقدرنا أن تكون الساعة العاشرة صباحاً بحسب ميل الشمس. لا يزال أمامنا خمس ساعات فقط، ومع هذا نحس بأن الماء تحتنا عميق جداً، وتناقص ارتفاع الموج كثيراً وكنا نقطعه دون أن يرتطم المركب بسطح الماء. وقد أدخلت في حسابي أنني لا أحتاج للبوصلة نهاراً. ومن وقت لآخر كنت أضع الشمس متناسبة مع البوصلة وأقود بموجب ذلك، فهذا سهل. انعكاس الشمس أتعب عيني. وندمت على عدم اقتناء نظارات سود. وعلى حين غرة قال كلوزيو:

– ما كان أسعدني بلقائك في المستشفى.

– لست وحدك، فأنا أيضاً سعيد بقدومك، فكرت بديغا وفرناندز لو أننا أطاعانا لكانا معنا الآن.

– كان أمامك عوائق لاستدراج العربي إلى المهجع في الوضع الملائم والوقت المناسب.

– أجل ولكن ماتوريت قدم لنا خدمة كبرى، وأهنئ نفسي بإحضاره معنا لأنه جريء وحاذق.

قال ماتوريت: أشكر لكما معاً ثقتكما بي، رغم حداثة سني، ووضعي ولن أدخر وسعاً لأكون سامياً.

– وفرانسوا سيرا كم تاقت نفسي لأن يكون معنا وكذلك كالكاني.

– كم تتبدل الأمور يا بابيون. غير معقول. لو كان جيزو رجلاً مستقيماً وأعطانا مركباً صالحاً لكان بوسعنا أن ننتظرهم. هو يجيء لهم سبيل الهرب ونحن نصحبهم معنا. إهيبيرفونك ويعلمون جيداً أنك لم تأت بهم لأن هذا مستحيل.

– وبهذه المناسبة يا ماتوريت، كيف اتفق وجودك في هذه القاعة مع وجود مراقبة على درجة عالية في المستشفى؟

– ما كنت أدري أنني من المحجور عليهم، ذهبت للعيادة لوجود ألم في حلقي وللنزهة أيضاً، ولما رآني الطبيب قال لي: أرى في ملفك أنك محجور عليك في الجزيرة لماذا؟ قلت: لا أعلم يا دكتور وما معنى محجور علي؟

– حسناً. لا شيء. اذهب إلى المستشفى، وهكذا وجدت نفسي هناك، وهذا كل شيء.

قال كلوزيو: أراد أن يسدي لك خدمة.

– ترى ما الدافع لعمله هذا؟ ولا بد أنه يقول لنفسه: إن هذا الذي حبه لم يكن غبياً إلى هذا الحد ما دام قد استطاع الفرار، رغم أن وجهه يشبه أطفال القداس.

ثم أخذنا نتداول حماقات. قلت: وما يدريكم أننا سنقابل جولو الرجل ذا المطرقة. إنه سيظل بعيداً بحيث سيبقى في الغابة.

قال كلوزيو: أنا قبل ذهابي تركت له كلمة على الوسادة وضعنا ولم نترك عنواناً، فضحكنا كثيراً.

أبحرنا خمسة أيام بدون حوادث، ففي النهار كانت الشمس في مسارها شرق غرب، تغنيني عن البوصلة التي استعملها ليلاً فقط.

وفي اليوم السادس طلعت تحيينا شمس مشرقة، وهدأ البحر فجأة، وبعض الأسماك كانت تقفز في الهواء قريباً منا. كنت منهوكاً من التعب في تلك الليلة، وكان ماتوريت يغمس قطعة قماش في ماء البحر ويمسح بها وجهي ليمنع عني من النعاس ومع ذلك استسلمت إلى سبات عميق، فعمد كلوزيو إلى إحراقي بنار السيجارة، وبما أن البحر ساكن عزمت على النوم، فأنزلا الشراع وأخذ القلعين وأبقيا على القلع الخلفي، وكنت أنا في القاع مرتمياً كالميت، يحميني الشراع الوارف فوقي من أشعة الشمس. استيقظت على هز ماتوريت وهو يقول لي: الساعة الآن الثانية عشرة أو الواحدة. أيقظتك لأن الهواء بدأ يشتد، وفي الناحية التي تأتي منها الريح سواد يسد الأفق. فنهضت وأخذت مكاني والقلع الذي رفعناه دفع المركب في بحر مصقول، وفي الغرب خلفي خيام السواد، والهواء يزداد

بروقة، والقلعان كالهيان تحت المركب على الشد. أحكمت ربط الشراع بالصاري وقلت اثبتوا جيداً فالعاصفة مقبلة علينا.

وبدأت قطرات كبيرة تنهال علينا، والسواد يقترب منا في سرعة فائقة، فوصل إلينا في أقل من ربع ساعة، واجتاحنا ريح عاصفة قوية، وبفعل ساحر تشكلت الأمواج في سرعة لا تصدق، وعلاها الزبد، واحتجبت الشمس كلياً، وانهمر المطر من أفواه القرب، وامتنعت علينا الرؤية، والأمواج أثناء ارتطامها بالمركب ترسل إلى وجهي رذاذاً يصفعه صفعاً. إنها العاصفة، أول عاصفة أراها، بكل ما في الطبيعة الغاضبة من دوي: من قصف الرعد والبرق والمطر والأمواج والريح المعولة التي تزمجر من حولنا، وصار المركب كالقشة في نزوله وفي صعوده، على ارتفاع مرعب وانخفاض عميق حتى خيل إلينا أننا لن نخرج أبداً. ورغم هذا الغوص الذي يفوق الخيال، فإن المركب يعود إلى الصعود ليمتطي متن موجة جديدة وهكذا دواليك. أمسكت بمقبض الدفة بكلتا يدي، وفكرت في أنه يجب أن تقاوم موجة آتية من العمق إلى أعلى. وفي اللحظة التي كنت أستعد لتفاديها تدفق الماء إلى المركب وغمره إلى عمق خمسة وسبعين سنتمتراً، وبالفعل وعن غير قصد مني دخلت في موجة. وفي هذا خطر شديد. ومال المركب حتى أوشك أن ينقلب. ومع هذا الميل الشديد أفرغ أكثر ما فيه من الماء.

صاح كلوزيو: برافو. لولاك ملمًا بالملاحة، فسرعان ما أفرغت المركب. قلت: نعم. أرأيته؟

لو عرف أنني بغفلة خرقي، أوشكنا ننقلب بالمركب. وعزمت على أن لا أصارع في اتجاه معاكس للموج، ولم أعد أهتم باتجاه معين، ولكن بالمحافظة قدر المستطاع على التوازن. ركبت الأمواج ونزلت معها طوعاً إلى أسفل ثم صعدت مع البحر وأدركت على الفور، أن اكتشافي هذا مهم جداً، وهكذا تحاشيت الكثير من الأخطار.

أقلعت السماء، وبقيت الريح مولولة، وصار في مقدوري الآن أن أرى ما حولي والرؤية أمامي حسنة، وخلفي سواد ونحن وسط هذين الطرفين.

وانتهى كل شيء حوالي الساعة الخامسة، وعادت الشمس إلى إشراقتها، والريح عادية، والموج أقل ارتفاعاً، فنصبت الشراع واستأنفنا السير مسرورين من أنفسنا. أفرغ صديقاي ما تبقى من الماء بعض الأوعية، وأخرجا الأغطية ونشراها على الصاري، فجفت سريعاً بحركة الريح.

أكلنا الرز والطحين والزيت والقهوة مضاعفاً، ثم احتسينا الروم. مالت الشمس نحو المغيب منيرة سطح البحر الأزرق بكل ما فيها من لهب. فكان منظراً عجيباً لا ينسى: السماء زرقاء مشوبة بسمرة وقد غاصت الشمس إلى نصفها في البحر، وأرسلت أشعتها الصفراء بعضها إلى السماء وإلى غيومها البيض، وبعضها إلى البحر، والأمواج الصاعدة

زرقاء عند قاعدتها ثم تميل إلى الاخضرار، وعلى رؤوسهن تيجان حمر أو وردية أو صفر تبعاً للشعاع الذي يصافحها. انتابني شعور بالأمان، تخالطه نشوة مبهمة ومع هذا الأمن إحساس بالثقة بالنفس. لقد أحسنت التخلص. واستفدت من هذه العاصفة العابرة، وتعلمت وحدي كيف أتصرف في مثل هذه الحالات وسوف أدلج في صفاء تام.

– أي كلوزيو! أرأيت هذه الحركة في تفريغ المركب؟

– لو لم تفعل ذلك يا صديقي ولاقتنا موجة أخرى لانتكسنا في الماء. أنت بطل.

قال ماتوريت: هل تعلمت هذا في البحرية؟

– أجل. أرأيت كيف تنفع دروس البحرية الحربية بعض النفع؟

لقد انحرفنا كثيراً. وبالاعتماد على الريح والأمواج الشمالة سنحدد مقدار انحرافنا خلال أربع ساعات.

سأسير شمال غرب لتعديل الانحراف. حل المساء فجأة منذ أن غابت الشمس في البحر مرسلة آخر شرارتها البنفسجية. أبحرنا ستة أيام أخر من غير متاعب إلا من قطرات من المطر العاصف تصيبنا والتي لم تدم مرة أكثر من ثلاث ساعات ولم تبلغ العاصفة السابقة في خطرها.

كانت الساعة العاشرة صباحاً. ولا نحس بنسمة هواء، وقد سيطر الهدوء. نمت ما يقرب من أربع ساعات، ثم أفقت وشفتاي تحترقان وقد تقشر جلدهما وكذلك أنفي، ويدي لا بشرة لها، وقد أصاب كلوزيو وماتوريت ما أصابني. مسحنا على وجوهنا بالزيت مرتين ولم يكن هذا كافياً، جففتنا شمس خط الاستواء. والساعة الآن الثانية – تقديراً – حسب ميل الشمس وانتهزنا فرصة هدوء البحر لنتيح بإحداث ظل بالشراع. وحامت بعض الأسماك حول المركب من الناحية التي كان كلوزيو يغسل فيها الأواني. تناولت السيف الخشبي وقلت لماتوريت: ألق بشيء من الرز وكان هذا الرز قد فسد بعد البلل وتخمر، فتجمع السمك حول نقطة الرز، ولامس سطح الماء وكان رأس إحداهن يخرج من الماء، فعاجلتها بضربة حاسمة جعلت بطنها مرفوعاً نحو الهواء، وكانت تزن عشرة كيلو غرامات فطبخناها بعد تنظيفها بالماء المالح وأكلناها في المساء مع الطحين.

ها قد مضى على دخولنا البحر أحد عشر يوماً، ولم نر خلالها سوى مركب واحد من بعيد في الأفق. وقلت في نفسي: أيها الشيطان أين نحن؟ في عرض البحر، هذا ثابت وأكيد ولكن في أي وضع بالنسبة إلى ترينيداد، أو أية جزيرة انكليزية أخرى. ... وبالفعل شاهدنا أمامنا وعلى خط مستقيم نقطة سوداء بدأت تتعاظم شيئاً فشيئاً. هل هذا مركب أم زورق لخدمة البواخر؟ لقد أعطانا الظن إنه لم يتجه نحونا. إنها سفينة. لقد ميزناها الآن جيداً. إنها تقترب لا ريب في ذلك ولكن منحرفة عنا. فلبست لم علينا في طريقها. ونظراً لسكون الريح فإن أشرعتنا تتدلى أسيانة حزينة، والمركب لم

يزنا بالتأكيد. ثم بوقتنا بدوي الصافرة، ثم ثلاث طلقات نارية، ثم بدأت السفينة تتجه نحونا. قال كلوزيو: والأمل أن لا تقترب منا أكثر مما ينبغي. قلت: لا خطر علينا منها، فسطح البحر ساكن كسطح الزيت.

إنها حاملة نفط، وبمقدار ما تقترب نميز أناساً على سطحها، وواضح أنهم كانوا يتساءلون ماذا يفعل هؤلاء الرجال هنا في عرض البحر في مركب كقشرة الجوزة. اقتربوا منا في تؤدة، وميزنا الآن ضباط الباخرة ورجالاً آخرين من الطاقم، ورأينا رجالاً في قمصان ملونة، إنهم مسافرون. أمسافرون على ناقلة نفط؟ هذا نادر الحدوث. اقتربوا أكثر.

قال لنا القبطان باللغة الانكليزية:

ـ من أين أنتم قادمون؟

ـ من غويان الانكليزية.

قالت سيدة: أتتكلمون الفرنسية؟

ـ أجل يا سيدتي.

ـ ماذا تفعلون وسط البحر؟

ـ نذهب حيث يشاء الله.

تكلمت السيدة مع القبطان ثم قالت:

ـ إن القبطان يدعوكم للصعود على الباخرة وسوف يرفع لكم زورقكم.

ـ قولي له: إننا نشكر له، فنحن مرتاحون في زورقنا.

ـ لماذا لا تريدون المساعدة؟

ـ لأننا فارون، ولا نريد المتاعب في وجهتكم.

ـ أين تذهبون؟

ـ إلى المارتينيك أو أبعد أيضاً. أين نحن؟

ـ في عرض البحر.

ـ أي طريق يؤدي إلى الأنتيل؟

ـ هل تعرفون قراءة خريطة انجليزية؟

ـ نعم.

وبعد قليل، أنزلوا لنا بحبل خريطة انجليزية وعلب سجائر، وفخذاً مشوياً.

ـ أنظر في الخريطة.

ـ يجب أن اتجه غرباً وقليلاً نحو الجنوب حتى نصل إلى الأنتيل الانجليزية هل هذا صحيح؟

ـ نعم

ـ كم ميلاً تقدر المسافة بالتقريب؟

قال القبطان: ستكونون هناك خلال يومين.

ـ إلى اللقاء، ولكم الشكر جميعاً.

وذهبت الناقلة بهدوء وكانت تلامسنا. فابتعدت خوفاً من دوران مروحتها. وفي تلك اللحظة رمى لي أحد البحارة قبعته البحرية، فوقعت وسط مركبنا، فلبستها. وكان عليها شريط أصفر ذهبي ومرساة. وبعد يومين، وصلنا الى ترينيداد دون متاعب.

ترينيداد.

أنذرتنا الطيور بقرب اليابسة قبل أن نراها بوقت طويل. وكانت الساعة السابعة والنصف صباحاً عندما أقبلت تطوف حولنا.

ـ وصلنا يا رجالنا! وصلنا في المرحلة الأولى من الهروب وهي المرحلة الصعبة، نحو الحرية. ولقد فاض البشر على وجوهنا بانفعال طفولي. وكانت وجوهنا مطلية بدهن التارجيل الذي أعددنا إياه من قابلناهم في البحر، لتخفيف الحروق.

وساقتنا ريح ناعمة بسرعة معقولة، فوق بحر قليل الاضطراب. وحوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر شاهدنا تفاصيل جزيرة طويلة، تقد على ساحلها بيوت بيضاء، وعلى قمتها أشجار التارجيل، ولا نزال عاجزين عن تمييزها إن كانت جزيرة أم شبه جزيرة وكذلك إن كانت هذه المنازل مسكونة أم لا. وأمامنا مسافة ساعة لنتمكن من رؤية الناس الذين يتراكضون على الشاطىء الذي توجهنا نحوه. وفي أقل من عشرين دقيقة رأينا جمهرة مبرقشة متجمعة. لقد خرج أهل القرية كلهم لاستقبالنا. وعرفنا فيما بعد أن اسم القرية: سان فيرناندو، وعلى بعد ثلاث مئة متر من الساحل ألقيت بالمرساة فتشبثت في سهولة، وفعلت هذا لأرى ردة الفعل عند هؤلاء الناس من جهة، ولكي أحمي مركبي من المرجان، إن وجد، من جهة أخرى. طوينا الأشرعة وانتظرنا. ولم يحتم أن اتجه نحونا زورق صغير فيه زنجيان، وبصحبتهما رجل أبيض، وفوق رأسه قبعة رجال المستعمرة. قال الأبيض بلغة فرنسية صافية:

ـ مرحباً بكل في ترينيداد، وافتر ثغر الزنوج عن أسنان بيض.

ـ شكراً لكم على هذا الترحيب. هل الشاطىء رملي أم مرجاني؟

ـ إنه رملي وبوسعكم بلوغ الشاطىء دون خطر.

سحبنا المرساة ودفعتنا الأمواج برفق إلى الشاطىء، وما كدنا نصل حتى خاض عشرة رجال في الماء، وجروا المركب إلى اليابسة. كانوا ينظرون إلينا ويلمسوننا بحركة تدليل.

النساء الزنجيات يلاقيننا بحركة بالأيدي. وكلهم يريدوننا ضيوفاً عندهم. هذا ما ترجمه لي الأبيض، قبض مالوريت على حفنة من الرمل وأدناها من فمه ليقبلها، وبعدنا من الغليان، اصطحب الرجل الأبيض كلوزيو إلى داره القريبة جداً من الشاطئ، بعد أن وصفت له حالته، وقال: بالإمكان ترك كل شيء حتى غد ولا تمتد يد أحد إليه.

الجميع يناديني: يا قبطان، وضحكت من هذه العمومية. وكانوا يقولون لي بالانجليزية ما معناه: قبطان عظيم! يقوم برحلة على ظهر مركب صغير. وطلبنا منهم دفع المركب بعيداً وقطره بمركب آخر كبير مركون على الشاطئ. وبعد هبوط الليل، لحقت بالانكليزي إلى بيته. وهو مسكن ذو طابق واحد تعثر عليه على كل أرض انجليزية. بقمع درجات خشبية، وباب له ستار معدني. دخلت خلف الانجليزي ومالوريت يتبعني. وحين دخلت رأيت كلوزيو جالساً بغطرسة على أريكة، ورجله المكسورة ممددة على كرسي وتحف به امرأة وفتاة.

قال السيد: هذه زوجتي ، وهذه ابنتي، وعندي ولد يدرس في بريطانيا.
وقالت السيدة بلغة فرنسية: أهلاً وسهلاً بكم في هذا المنزل.
وقالت الفتاة وهي تجر مقعدين من الخيزران: تفضلا بالجلوس.
– شكراً لكما. لا تزعجا نفسيكما من أجلنا
– لماذا؟ نحن نعلم من أين أنتم. كونوا مطمئنين، وأكرر القول: أهلاً بكم في منزلنا فهذا السيد محام ويدعى ماستر بوين، ومكتبه في العاصمة، وتبعد أربعين كيلو متراً من بورت أوف سبين عاصمة ترينيداد. قدموا لنا شاياً مع الحليب، وكعك توست، وزبدة ومربى. وهذه أول سهرة لنا كرجال أحرار، لن أنساها أبداً. لم يسألنا أحد عن الماضي، إلا كانت الأسئلة فضولية عابرة، ليس وراءها غرض كشف الأسرار: كم يوماً قضينا في البحر؟ وكيف كانت الرحلة؟ وهل تألم كلوزيو كثيراً؟ وهل نرغب في إشعار الشرطة غداً أو نريد انتظار يوم آخر قبل إعلامهم. هل آباؤنا أحياء؟ هل لنا زوجات أو أولاد؟ وهل نرغب في الكتابة إليهم؟ فهم مستعدون لإيداع رسائلنا في البريد.

ماذا أقول؟ لقد كان استقبالاً منقطع النظير سواء من الشعب أم من هذه الأسرة التي منحت ثلاثة هاربين عناية لا توصف.

استشار مستر بوين طبيباً من أجل كلوزيو فطلب إحضاره إلى العيادة غداً ليجري له تصويراً شعاعياً ويتوقف ما ينبغي عمله على نتيجة الصورة.

اتصل ماستر بوين هاتفياً بعميد جيش السلام في سان أوف سبين. وأفاد هذا بأنه سيعد لنا غرفة في فندق الجيش نأتي إليها متى شئنا، ونحتفظ بمركبنا إذا كان في حالة جيدة، لأننا في حاجة إليه عند الإياب. وسأل إذا كنا مبعدين أم سجناء، وقد بدا على المحامي السرور عندما علم أننا سجناء.

قالت لي الفتاة: هل ترغب في الاستحمام والحلاقة؟ لا ترفض، فإن هذا لن يسبب لنا مضايقات وسوف تجد في الحمام أمتعة، آمل أن تناسبك.

دخلت الحمام واستحممت وحلقت، وخرجت مشط الشعر، مرتدياً بنطالاً رمادياً، وقميصاً أبيض، وحذاء وتنس، وجوربان أبيضان.

قرع الباب هندي، وكان يتأبط علبة فأعطاها لمالوريت قائلاً له بأن الطبيب قد لاحظ بأن قامتي قريبة لقامته قليلاً أو كثيراً، ولست في حاجة إلى أمتعة. أما بالنسبة إليه –أي إلى مالوريت القصير– فليس عند المحامي من هو بطوله. ثم انحنى أمامنا، على طريقة المسلمين، وانصرف.

ما عساني أقول في هذه القلوب الطيبة؟ لقد اختلجت في فؤادي مشاعر يعجز عنها الوصف. أوى كلوزيو إلى فراشه مبكراً، وبقينا نحن الخمسة نتبادل الآراء في مختلف الموضوعات. وأكثر ما كان يحير هاتين السيدتين الساحرتين هو كيف كنا نفكر في وسيلة للحياة من جديد. ولا شيء عن الماضي، بل عن الحاضر والمستقبل.

كان ماستر بوين يبدي أسفه لأن ترينيداد لا تقبل بإقامة الفارين على أرض الجزيرة، وقد وضح لي بأنه كان قد طالب بنيل هذا الإجراء في حق البعض مراراً، غير انهم لم يستجيبوا مرة واحدة. كانت الفتاة تتكلم بلغة فرنسية صافية جداً، كأبيها، لا لكنة فيها ولا خطأ في اللفظ. إنها شقراء ويكسو النمش جسمها، يتراوح عمرها بين السابعة عشرة والعشرين سنة، قالت:

– أنتم شباب والحياة في انتظاركم، لا أعرف ماذا اقترفتم حتى حكم عليكم، ولا أريد ان أعرف، ولكن ما تحليتم به من شجاعة، في إلقائكم بأنفسكم في البحر على ظهر مركب صغير كهذا، لتقوموا بأطول وأخطر رحلة، لدليل على أنكم على أتم استعداد لتفعلوا أي شيء ومهما غلا الثمن لكي تتحرروا. وهذا جدير بالتقدير والإعجاب.

نمنا حتى الساعة الثامنة، وحين صحونا، وجدنا المائدة جاهزة. وقالت لنا المرأتان:
– إن المستر بوين قد ذهب إلى بورت أوف سبين ولن يعود إلا بعد الظهر حاملاً*
معه المعلومات الضرورية لتتصرفوا بما فيه صلاح أمركم.
هذا الرجل الذي غادر منزله تاركاً فيه ثلاثة من المجرمين، قد أعطانا درساً لا مثيل له. يريد بذلك أن يقول: أنتم رجال أسوياء. ولكم أن تحكموا على ثقتي بكم، وما يمضي على معرفتي بكم أكثر من اثنتي عشرة ساعة. تركتكم وحدكم في بيتي، مع زوجتي وابنتي.

وهذا الأسلوب الصامت في مخاطبتنا يتابع القول: رأيت فيكم بعد حواري معكم أنتم الثلاثة أنكم جديرون بالثقة إلى درجة لا أرتاب فيها، لكم لن تسيئوا التصرف في بيتي لا من حيث القول، ولا التلميح ولا العمل. تركتكم في مسكني كما لو كنتم أصدقاء

قدامى. هذه البادرة تركت في نفوسنا أبلغ الأثر. لست بذلك المفكر الذي يستطيع، أيها القارىء ـ إذا قدر أن يكون لهذا الكتاب قراء ـ أن يصور لك بحمية كافية، وقريحة جبارة هذا التأثر وهذا الانطباع العظيم في احترام أنفسنا وإعادة الاعتبار إن لم يكن في بناء حياة جديدة ـ فهذه العمودية الخيالية، وحمام النقاء والطهارة، وهذا الارتفاع بكياني فوق الوحل الذي أوقعتني فيه المحكمة، وهذه الطريقة في وضعي بمواجهة مسؤولية حقيقية، كل هذه الأمور جعلت مني، ومن أبسر السبل، رجلاً آخر، غير هذا المجرم المعقد الذي يسمع صرير القيود وهو حر، ويعتقد في كل لحظة أن أحداً يراقبه، وأن كل ما رآه وعاناه، وكل الذي كابده، وكل السنوات التي خلقت منه رجلاً خالع العذار فاسداً، خطراً في كل آن، الطراز الإجرامي ظاهرياً، والرهيب في ثورته، كل هذا قد امحى بعضا سحرية. فشكراً لك يا أستاذ بوين محامي صاحبة الجلالة. شكراً لك لأنك خلقت مني رجلاً في أقصر زمن.

الفتاة الشقراء ذات العيون الزرق زرقة البحر، والتي تحوطنا بالعناية، تجلس معي تحت أشجار النارجيل في دار والدها. والأزهار الحمر والصفر والبنفسجية، تكسب هذه الحديقة لمسة شاعرية، وهي ضرورية في هذه اللحظة.

قالت: يا سيد هنري (منذ كم من الزمن لم أسمع كلمة سيد)، فكيا أخبرك والدي إن سوء الفهم الخاطىء عند السلطات الانجليزية، تحول مع الأسف، دون بقائك هنا. ولكنها منحتك خمسة عشر يوماً لحسب تستريح فيها ثم تستأنف رحلتك في البحر سأذهب غداً لأرى مركبك إذا كان خفيفاً ومجهزاً جيداً لهذه الرحلة الطويلة التي تنتظرك. ولنا وطيد الأمل أن تصل إلى بلد أكثر إكراماً للضيف وأوفر تفهماً له. كل الجزر البريطانية تتبع الأسلوب نفسه في المعاملة. وإني أطلب منك إذا صادفت في رحلتك المقبلة عذاباً أليماً، أن لاتتمنى مثله للشعب الذي يسكن هذه الجزر، فإنه غير مسؤول عن هذه النظرة إلى الأمور. إنها أوامر صادرة عن أشخاص لايعرفونكم. عنواني والذي هو ١٠٦ شارع الملكة، بورت أوف سبين، ترينيداد. وأطلب منك أن تكتب إلينا ـ وأرجو أن توفق لهذا ـ بضع كلمات لنعرف مصيرك.

كنت منفعلاً، فعييت جواباً. ثم دنت السيدة بوين منا. إنها امرأة جميلة في حوالي الأربعين من عمرها، بيضاء ذات شعر كستنائي، وعينين خضراوين، ترتدي ثوباً أبيض وبسيطاً جداً، وعليه عقدة بيضاء، وتنتعل حذاء أخضر صافياً. قالت:

ـ لن يحضر زوجي قبل الساعة الخامسة. إنه مشغول بالحصول على ترخيص من أجل ذهابك إلى العاصمة بسيارته بدون خفير من الشرطة، وكذلك فهو يريد أن يجنبك المبيت في مركز الشرطة في الليلة الأولى. صديقك الجريح سيذهب مباشرة إلى عيادة طبيب صديق، وأنتما الاثنان تذهبان بعد ذلك إلى فندق «جيش السلام».

جاء ماتوريت لينضم إلينا في الحديقة وكان قد ذهب ليرى المركب الذي تكفله الفضوليون، ووجد كل شيء على حاله لم يمس، وقد عثر هؤلاء الفضوليون على رصاصة داخلة تحت السكان فطلب أحدهم أن ينتزعها لتكون له ذكرى. فقال له ماتوريت: كابتن. كابتن. أي يجب استشارة القبطان. ثم قال لي: لماذا لا تطلق سراح السلحفاتين؟

قالت الفتاة: أعندكم سلاحف؟ هيا بنا نراها.

فذهبنا، وفي الطريق التقيت ببنية صغيرة فاتنة، فأخذت بيدي دون مصافحة. وقال الجميع باللغة الانجليزية ما معناه: نبارك سعيد.

أخرجت السلحفاتين وقلت: ما تفعل بهما؟ نلقي بهما في البحر، أم تريدينهما في حديقتكم؟

ـ إن ماء الحوض الداخلي من ماء البحر. سنضعهما في هذا الحوض؛ وهكذا ستبقيان من ذكراكم.

ـ ليكن ما شئت.

وزعت على الناس كل ما في المركب، ما عدا البوصلة والنبع والبرميل والسكين والسيف الخشبي والفأس والأغطية، والمسدس الذي أخفيته بين طياتها ولم يره أحد.

وصل ماستر بوين وقال: يا سادة! كل شيء على ما تحب وتشتهي. سنضع أولاً الجريح في العيادة، ثم نذهب إلى الفندق. وضعنا كلوزيو في المقعد الخلفي للسيارة، وبينما كنت أقدم شكري للفتاة، أقبلت السيدة وبيدها حقيبة وقالت: تفضلوا بقبول بعض الأشياء من زوجي نقدمها لكم من صميم القلب. ماذا تقول في هذا اللطف الإنساني كله.

ـ نشكرك شكراً لا حدود له.

ركبنا السيارة، ومقودها إلى اليمين، ووصلنا إلى العيادة في الساعة السادسة إلا ربعاً. اسم هذا المستوصف سان جورج، صعد الممرضون حاملين كلوزيو على محفة إلى غرفة فيها هندي جالس في سريره. أقبل الطبيب وصافح بوين ثم صافحنا، وهو لا يعرف اللغة الفرنسية، ولكنه أفهمنا أن كلوزيو سيلقى العناية اللازمة وأننا نستطيع زيارته في الوقت الذي نشاء، وقمنا بجولة في المدينة في سيارة بوين. وقد فتنا بمشاهدتها مقاهاة، وسياراتها ودراجاتها. الناس من كل عرق: الأبيض والأسود والأصفر، هنود وهندستانيون، يمشون جنباً إلى جنب على أرصفة هذه المدينة ذات الأحراج مدينة بورت أوف سبين. ولدى وصولنا إلى فندق جيش السلام رأينا أن طابقه الأرضي فقط من الحجر وأما سائر الطوابق (الأدوار) من الخشب. وهو واقع على ساحة حسنة الإضاءة. استقبلنا ضابط برتبة نقيب ومعه أركان حربه رجالاً ونساء. يتكلم الفرنسية قليلاً. والآخرون يخاطبوننا بالانجليزية التي لا نفهمها، ولكن وجوههم المستبشرة، وعيونهم المرحبة تنطق بالإيناس، ورافقونا إلى

حجرة في الطابق الثاني فيها ثلاثة أسرّة، والثالث معد لكلوزيو، مع حمام جذاب وصابون ومنشفة، تحت تصرفنا. وبعد أن أرشدونا إلى الغرفة قال الضابط: إذا رغبتم في الطعام فالعشاء مشترك وموعده الساعة السابعة أي بعد نصف ساعة.

– لا. لسنا جائعين.

– إذ شئتم القيام بجولة في المدينة فهاكم دولارين اثنين لتناول القهوة أو الشاي أو المرطبات، واحذروا الضياع. وحين تريدون العودة اسألوا عن طريقكم بهذه العبارة الانجليزية . . . ومعناها: رجاء، جيش السلام.

وبعد عشر دقائق كنا في الشارع. مشينا على الأرصفة واصطدمت أذرعنا بالناس وما من أحد ينظر إلينا، ولا أحد يلتفت إلينا، وتنفسنا بعمق، نتذوق بالتذاذ تام طعم الحرية، في خطواتنا هذه. وهذه الثقة المستمرة بتركنا أحراراً في مدينة كبيرة أدهشتنا، وزادت من ثقتنا بأنفسنا، بل قوت ضمائرنا، فلا يمكن أن نخون هذا الإيمان في داخلنا. أنا وماتوريت مشينا وئيداً وسط الجمهور وكنا في حاجة إلى أن نماشي أناساً آخرين، وأن نتغير، وإلى أن نتشبه بهم لنكون جزءاً منهم. فدخلنا مشرباً (بار) وطلبنا جعة، وكانت الانجليزية لغة التخاطب.

طلبنا كأسين من الجعة وهذا طبيعي جداً. ولكن على الرغم من هذا فقد بدا لنا طريفاً أن تقدم لنا امرأة هندية، في أنفها صدفة ذهبية، وتقول لنا بعد تقديم ما طلبناه نصف دولار يا سيدي. وهي تبتسم عن أسنان لؤلؤية، وعيناها سوداوان وعلى جانبيها تجعيدات خفيفة، وشعرها كشلال أسود يتساقط على كتفيها، وتفتح طرق ثوبها عن نحرها عند مجرى العقيد من النهدين فينمان عن جمال كبير.

هذه الأمور التي تبدو للناس جميعاً بدهية كانت في أعيننا كوهم ساحر. قلت لنفسي: أنظر بابيون، ليس حقيقة ما تراه ولا يمكن أن يكون حقيقة، أن تتحول بهذه السرعة من ميت حي، من محكوم عليه مدى الحياة إلى رجل حر . .

دفع ماتوريت الثمن وبقي معه نصف دولار. كانت الجعة منعشة ولذيذة مما دفعه إلى القول: هل لك في كأس أخرى؟

ورأيت أن لا نقدم على هذه الجولة الثانية من الشراب فقلت له:

– على رسلك. لم تمض ساعة على تحليقك في جو الحرية الحقيقية، ثم تريد أن تشرب حتى الثمالة.

– رجاء يا بابي. لا تبالغ كثيراً. فإذا شربنا كوبين من الجعة فلا زلنا بعيدين عن منزلة السكارى.

– قد تكون على حق، ولكن من اللباقة أن لا نرتمي في أحضان الملذات التي تجود

بها لحظتنا هذه بل يجب أن نتذوقها بالتدريج لا بطريقة جشعة، ثم إن هذا المال من جهة أخرى ليس لنا.

– أجل. إنك لعلى صواب. ينبغي أن نتعلم كيف نكون أحراراً بالقطّارة. فذلك أقرب إلى الحكمة. نزلنا إلى الشارع الكبير واترز ستريت. إنه الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ويبدون أن ندري وصلنا إلى المرفأ، ونحن مأخوذون برأى القطارات الكهربائية والحمير التي تجر العربات، والسيارات، وإعلانات السينما الوهاجة أو العلب الليلية. وكذلك عيون الزنجيات والهنديات الصغيرات وهن ينظرن إلينا متضاحكات.

أمامنا مراكب مضاءة، مراكب سياحية بأسماء أخاذة: بانامـا، لوس انجلوس، بوسطن كويبك، ومراكب حمولة: هامبورغ، امستردام، لندن، تترادف على طول رصيف الميناء متلاصقات، وهناك أيضاً مشارب وحانات ومطاعم تغص بالرجال والنساء يشربون أو يغنون أو يتخاصمون بأصوات عالية. وعلى حين غرة شعرت بحافز لا يقاوم، يغريني بالاختلاط بهذه الجمهرة التي ربما كانت شعبية ولكنها متعمة بالحياة.

في فناء أحد المشارب رأينا خلف الواجهات الزجاجية محارات وقنافذ بحرية وجرادا بحرياً[1] وسكاكين بحرية وبلحاً بحرياً وهناك معروضات من الفاكهة البحرية تغري المارين. والمناضد عليها أغطية ذات مربعات بيض وحمر، ومعظم العاملات يدعونك إلى الجلوس، إنهن بنات سمر ذوات ملامح ناعمة، خلاسيات ولكن لسن في مقاطيع الزنوج، ملابسهن من كل لون، واسعات الطوق، تكاشف عن الصدر، يغرينك بالاستمتاع بكل هذا. اقتربت من إحداهن وقلت بالانجليزية، وأنا أعرض عليها ورقة مالية من فئة ألف فرنك: هل تقبلون العملة الفرنسية هنا؟

– نعم سأبدلها لك.

فأخذت الورقة وغابت في القاعة المزدحمة بالناس ثم عادت وقالت: تعال. وأرشدتني إلى الصندوق حيث يقوم عليه رجل صيني فقال:

– أأنتم فرنسيون؟

– أجل.

– تريدون صرف ألف فرنك؟

– أجل.

– كلها بالدولارات؟

– أجل.

– جوازات السفر؟

– لا أحمل.

---

(1) جمبري، ربيان

ـ بطاقة بحارة؟

ـ ليس عندي

ـ أوراق هجرة؟

ـ لا توجد

ـ حسناً.

ثم خاطب المرأة بكلمتين، فنظرت في القاعة باحثة، ثم اتجهت نحو بحار له قبعة تشبه قبعتي، ذات شريط ذهبي ومرساة، وأتت به إلى الصندوق، فقال له الصيني: هويتك. وبكل برود كتب الصيني إيصالاً بصرف مبلغ ألف فرنك ووقع عليه، وأمسكت المرأة بذراعه وذهبت به بعيداً وهو لا يدري ما حصل. وقبضت أنا مئتين وخمسين دولاراً أمريكياً، منها خمسون من فئة الدولار أو الدولارين، فمنحت الفتاة دولاراً ثم خرجنا وجلسنا إلى إحدى الموائد والتهمنا من فواكه البحر، وشربنا خمرة صرفاً وكانت لذيذة.

الهروب الأول ـ تابع

ترينيداد

استعدت في ذاكرتي ليلة الحرية الأولى في هذه المدينة الانجليزية. كنا نذهب إلى كل مكان مكاري بالنور، والدفء ملء قلوبنا، نتلمس في كل أوبة روح هذه الجماعة السعيدة الضاحكة التي تفيض هناءة.

أحد البارات غاص بالبحارة وبهؤلاء الفتيات اللاتي ينتظرنهم لابتزازهم ولكن من غير ابتذال ولا غش، ولا يوازن بالنساء الفاجرات في باريس أو الهافر أو مرسيليا، إنهن شيء مغاير ومختلف عن تلك الوجوه المطلية بالمساحيق، المطبوعة بالرذيلة والتي ارتسم عليها العهر، وليس لهن تلك العيون المحمومة الماكرة. إنهن نساء جلودهن من كل لون: من الصبية السوداء الافريقية مروراً بذوات لون الشوكولا، والشعر الأملس، إلى الهندية أو الجاوية التي التقى أبواها في زراعة الكاكاو وقصب السكر، الى الهجينة من الصيني والهندية ذات الصدفة الذهبية في الأنف، إلى السمهرة بملامح رومانية ووجه نحاسي تضيئه عينان نجلاوان لامعتان وطفاوات[1] ونحر واسع مكشوف يكاد يقول: انظر إلى النهدين ما أكملهما. جميع هؤلاء الفتيات يزيّن رؤوسهن بأزهار مختلفة الألوان، يعرضن بالحب بغير انحطاط ولا تجارة، ولا يوحين بأنهن محترفات، فهن يستمتعن حقاً، ويحس المرء بأن المال ليس جوهرياً في حياتهن.

ذهبنا أنا وماتوريت نترنح من مشرب إلى مشرب كجحلين[2] يتهافتان على المصابيح ولدى إطلالتنا على ساحة صغيرة تغمرها الأضواء، رأيت ساعة كنيسة أو معبد، وكانت

---

(١) الوطفاء من كانت أهداب عينيها طويلة

(٢) الجحل نوع من الخنفساء

تشير إلى الثانية صباحاً. لنعد مسرعين، فلقد أسأنا التصرف. ولا بد للنقيب من أن تكون لديه فكرة سيئة عنا. لنسرع. أوقفت سيارة أوصلتنا ودفعنا مولارين ودخلنا الفندق في خجل. فاستقبلتنا في القاعة جندية شقراء شابة يتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين. ولم تبد عليها الدهشة ولا الغيظ من هذا التأخر بل كان استقبالها لطيفاً. وبعد أن تلفظت بكلمات قدرنا أنها للترحيب، أعطتنا مفتاح الغرفة وتمنت لنا ليلة سعيدة. وجدت في الحقيبة (بيجامة) وقبل أن نطفيء النور قال لي ماتوريت: إننا نشكر ربنا ما أجزل لنا من عطاء في وقت قصير. ما رأيك يا بابي؟

– اشكر له عني، ونعم ما قلت. إن ربك عظيم وكريم. ثم أطفأت المصباح. وأوينا إلى الفراش.

إن هذا النشور والعودة من القبر، والخروج من المقبرة حيث كنت مدفوناً، وكل هذه المباهج المتتالية، وحمام تلك الليلة التي ردت معه الروح في خضم أشياء أخرى، أثارتني جميعاً وحرمتني من النوم الكرى. وكانت صور هذه الأشياء والأحاسيس المتداخلة، تصل إلي، وأنا مطبق الأجفان، من خلال منظار سحري، وبغير ترتيب زمني. وتمر أمامي بدقة وتفصيل ولكن من غير ترابط: المحكمة، سجن التوقيف، ثم مرضى الجذام، ثم سان مارتن دوره، فتريبوبارد وجيزو، والعاصفة، ويمكن القول إن ما عشته منذ سنة يتزاحم للظهور في مجموعة ذكرياتي وكأنه رقصة أشباح نورانية في مكان مظلم.

عبثاً حاولت إبعاد هذه الصور فلم أفلح. والأنكى أن هذه الصور كانت مصحوبة بالأصوات: صراخ الخنازير، وصياح الدراج، وعويل الريح، وصخب الأمواج، ويلف ذلك كله صوت الربابة التي كان يعزف عليها الهنود منذ لحظات في مختلف البارات التي مررنا بها. وأخيراً استسلمت لسلطان النوم عند مطلع الفجر.

قرع ماستر بوين الباب حوالي الساعة العاشرة وهو يبتسم وقال:

– صباح الخير يا صديقي. الأزلت نائمين؟ لقد رجعتما متأخرين، وأرجو أن تكونوا قد لهوتم جيداً.

– صباح الخير. حقا لقد عدنا متأخرين. اعذرنا.

– لا.. ولو.. هذا أمر طبيعي بعد كل ما كابدتما. ومن حقكما أن تسعدا من الليلة الأولى بعد نيلكما حريتكما. أنا جئتكما لأرافقكما إلى مركز الشرطة ويجب أن تمثلا أمامها للتصريح رسمياً بأنكم دخلتم البلاد بصورة مشروعة، وبعد هذا الإجراء الشكلي سنذهب لزيارة صاحبكما، وقد أجريت له صورة شعاعية منذ الصباح الباكر وسوف نعرف النتيجة بعد قليل.

أسرعنا في ارتداء ملابسنا. ثم نزلنا إلى القاعة الأرضية حيث كان الضابط بانتظارنا ويرافقه بوين. قال الضابط بلغة فرنسية رديئة: صباح الخير يا أصدقائي.

– صباح الخير جميعاً. كيف حالكم؟

قالت لنا إحداهن وهي ذات رتبة في جيش السلام:

– هل وجدتما بورت أوف سبين لطيفة؟

– نعم يا سيدتي. ولقد سررنا بها كثيراً.

احتسينا فنجاناً من القهوة وتوجهنا إلى مركز الشرطة مشياً على الأقدام لأنه لا يبعد أكثر من مئتي متر تقريباً، وحيانا رجال الشرطة، ونظروا إلينا بدون فضول. دخلنا مكتباً مهيباً بعد أن مررنا بحارسين بالملابس الموحدة الكاكية. فنهض الضابط – وهو في الخمسين من عمره، ويرتدي قميصاً وربطة عنق من الكاكي وعليه شارات وأوسمة، وبنطالاً قصيراً، وخاطبنا باللغة الفرنسية فقال:

– صباح الخير، تفضلا، أود أن أحدثكما قليلاً قبل استقبالكما بصفة رسمية. ما العمر؟

– ست وعشرون، وتسع عشرة سنة.

– لم حكم عليكما؟

– بجرم عادي

– ما العقوبة؟

– أشغال شاقة مؤبدة

– إذن ليس جرمكما عادياً بل جريمة قتل.

– لا يا سيدي: أنا بسبب اعتداء

قال ماتوريت: أنا بسبب جريمة قتل، ولكن خفف الحكم لحداثة سني (سبع عشرة سنة)

– في السابعة عشرة، يعي المرء ما يفعل ولو كنت في بريطانيا لشنقوك. حسناً ولكن ليس للسلطات البريطانية أن تدين العدالة الفرنسية وإنما نقطة الخلاف بيننا هي إرسال المحكوم عليهم إلى غويان الفرنسية. نحن نعلم أن هذه العقوبة غير إنسانية ولا تليق بأمة متحضرة مثل فرنسا. ولكن لسوء الحظ لا يمكنكم البقاء في ترينيداد ولا في أية جزيرة انكليزية. فهذا مستحيل. لذا أطلب منكم أن تلعبوا اللعبة بشرف، ولا تبحثوا عن مناص كالمرض أو أية حجة أخرى لتأخير رحيلكم. وفي وسعكم أن تستريحوا بحرية تامة، في بورت أوف سبين من خمسة عشر يوماً إلى ثمانية عشر. ويبدو مركبكم جيداً، وسوف نأتي به إلى المرفأ هنا، وإذا كان هناك ما يجب إصلاحه، فإن نجاري البحرية الملكية يقومون به، وسوف نزودكم قبل الرحيل بكل الأغذية الضرورية وببوصلة وخريطة بحرية. وأرجو أن تستقبلكم بلاد أمريكا الجنوبية، ولا تذهبوا إلى فنزويلا فإنهم يجبرونكم على العمل في تعبيد الطرق إلى أن يتم تسليمكم إلى فرنسا.

بعد غلطة كبيرة لا ينبغي أن يضيع الرجل إلى الأبد. أنتم شباب أصحاء وتبدو

عليكم السرقة، وآمل إذن بعد الذي عانيتموه أن لاتقبلوا الظفر بكم وإلى الأبد، ولا شيء يشير إلى العكس سوى حادثة حضوركم إلى هنا. ويسعدني أن أكون أحد العوامل التي تساعدكم على أن تكونوا رجالاً صالحين وقادرين على حل التبعات، وأتمنى لكم التوفيق، وإذا اعترضتكم مشكلة فاليكم رقم الهاتف وسوف يرد أحدهم باللغة الفرنسية.

قرع الجرس، فدخل مفتش، فأعادنا إلى غرفة فيها عدد من رجال الشرطة، ومدنيون يطبعون على الآلة وتولى مدني أخذ تصريحاتنا.

– لم أتيتم إلى ترينيداد؟

– لنستريح.

– من أين قدمتم؟

– من غويان الفرنسية

– لقد ارتكبتم في هروبكم جناية سببت ضرراً فاحشاً أو موتاً للآخرين.

– لم نجرح أحداً جرحاً خطيراً.

– كيف عرفتم ذلك؟

– عرفناه قبل ذهابنا.

– أعماركم؟ وضعكم الجزائي بالنسبة لفرنسا؟ الخ.. أيها السادة تمنحكم إقامة مدتها تتراوح بين خمسة عشر يوماً وثمانية عشر لتستريحوا، أنتم أحرار حرية مطلقة خلال هذه الفترة، وإذا غادرتم الفندق أعلمونا. أنا الرقيب ويلي، وتجدون على بطاقتي هذه رقم الهاتف الرسمي ورقمي الخاص. وإذا حدث شيء أو احتجتم إلى عون اهتفوا لي مباشرة، ونحن نعلم أنكم موضع ثقتنا بكم. وأنا على يقين من أنكم ستكونون في عافية.

وبعد لحظات رافقنا ماستر بوين إلى المستشفى، وسر كلوزيو برؤيتنا ولم نحدثه بشيء عن ليلتنا البارحة في المدينة، واكتفينا بالقول بأنهم تركوا لنا الحرية في الذهاب إلى المكان الذي يحلو لنا. وكان ذلك مفاجأة له فقال: بدون رقابة؟

– نعم بدون رقابة.

– إنهم قوم ظرفاء هؤلاء العجول المشوية (الانكليز).

عاد بوين الذي كان قد خرج لمقابلة الطبيب، فحضر معه فسأل كلوزيو:

– من جبر الكسر قبل ربطه بالألواح الخشبية؟

قلت: أنا ورجل آخر غير موجود معنا الآن.

– لقد أحسنتما صنعاً، ولسنا بحاجة إلى كسر جديد في الساق. فشظية الساق المكسورة قد أحكم إلصاقها. ويقتصر عملنا الآن على وضع الجص والحديدة لكي تتمكن من المشي قليلاً. هل تؤثر البقاء هنا أو الذهاب مع صاحبيك؟

– أفضل الذهاب معهما.

– حسناً ستذهب غداً للالتحاق بهما.

فارقناكا ونحن نقدم شكرنا. انسحب ماستر بوين والدكتور. وقضينا فترة الضحى وجزءاً من الظهيرة مع صاحبنا، وكم كنا محبورين عندما اجتمع شملنا نحن الثلاثة في غرفتنا في الفندق والنافذة الواسعة مفتوحة، والمراوح تدور لترطب الجو، وهنا بعضنا بعضاً على ما انتعت به صحتنا من نضارة، والطلعة الحسنة التي كستنا إياها ملابسنا الجديدة، وعندما انشغل بنا الحديث عن الماضي قلت:

– دعونا ننسى الآن الماضي قدر المستطاع، ولننظر في حاضرنا ومستقبلنا. أين المسار؟ إلى كولومبيا؟ إلى بناما؟ كوستاريكا؟ يجب أن نستشير بوين عن البلد الذي يسعفنا الحظ أن نكون له أصدقاء.

اتصلت به هاتفياً في مكتبه فلم أجده، واتصلت به في منزله في سان فيرناندو فردت ابنته، وبعد تبادل بعض الكلمات قالت لي:

– يا سيد هنري. بالقرب من سوق السمك سيارات كبيرة عائدة إلى سان فرناندو، لم لا تأتون لقضاء فترة ما بعد الظهر عندنا؟ احضروا وأنا بانتظاركم.

ها نحن أولاً في طريقنا إلى سان فرناندو. وكان كلوزيو فاخراً في هندامه نصف العسكري بلون الثلج. عودتنا إلى هذا البيت الذي استقبلنا بكثير من الأنس والدعة، أهاجت فينا التأثر، وكأن هاتين السيدتين قد لمستا فينا هذا الشعور، فبادرتا إلى القول في وقت واحد:

– ها قد رجعتم إلى بيتكم، أيها الأصدقاء الأعزاء. اجلسوا واستريحوا.

واستغنتا عن ندائنا بكلمة سيد كلما توجهتا إلينا بالخطاب، وصارتا تناديان باسم كل منا هنري تناولي السكر، اندره (وهو اسم ماتوريت) هات كذا.

– يا سيدة ويا آنسة بوين نسأل الله أن يكافئكما على ما بذلتما من أجلنا، وأن يغمر روحكما الساميتين بسعادة سرمدية يعجز اللسان عن وصفها، لقاء ما منحتمانا من مسرات.

كنا نتناقش معهما وننشر الخريطة على المنضدة. المسافات طويلة: طول الطريق إلى أول مرفأ كولومبي وهو سانتا مارتا، ألفان وألف كيلومتر، وإلى بناما ألفان ومئة كيلو متر، وإلى كوستاريكا خمس مئة وألف كيلو متر.

وصل ماستر بوين، قال: اتصلت بجميع القنصليات وعندي خبر طيب وهو أنكم تستطيعون التوقف في كوراساو بضعة أيام للاستراحة. وبالنسبة إلى كولومبيا فليس عندهم شيء منظم عن موضوع الفارين، وأفاد القنصل أنه لم يسبق أن وصل هاربون عن طريق البحر إلى كولومبيا، ومثل ذلك في بناما وغيرها. قالت مرغريت ابنة بوين: أعرف لكم مكاناً آمناً ولكنه بعيد جداً لا يقل عن ثلاثة آلاف كيلو متر.

قال الأب: وأين هو؟
— في هوندوراس البريطانية، والحاكم فيها «عرّابه».

التفت إلى أصحابي وقلت: إنها من الممتلكات الانكليزية في الجنوب تتاخم جمهورية هوندوراس، ويحدها من الشمال المكسيك.

وهكذا قضينا الظهيرة، تساعدنا مرغريت وأمها في رسم خطة الرحيل، والمرحلة الأولى من ترينيداد إلى كوراساو ألف كيلو متر.

والمرحلة الثانية من كوراساو إلى إحدى الجزر الواقعة على طريقنا.
والمرحلة الثالثة هوندوراس البريطانية.

وبما أننا لا نعلم ماذا يمكن أن يحصل في البحر فإننا عزمنا على أن نحمل معنا صندوقاً خاصاً زيادة على ما سوف تقدمه لنا الشرطة من المؤونة. سيكون معنا على سبيل الاحتياط أطعمة محفوظة: لحوم، خضار، رب الفواكه، وأسماك.. الخ.. قالت لنا مرغريت: إن السوبر ماركت المسمى سلفاتوري سيقدم هذه المحفوظات على سبيل الهدية، وفي حالة رفضكم سنشتريها أنا وأمي.
— لا يا آنسة.
— اسكت يا هنري.
— مستحيل، فنحن نملك مالاً، وسوف نسيء إلى أنفسنا في استغلال طيبتكم عندما نكون قادرين على شراء هذه الأغذية بأنفسنا.

المركب في بورت أوف سبين على سطح الماء تحت حماية البحرية الحربية. اتفقنا على موعد اللقاء قبل الرحيل. كنا نخرج كل ليلة في الحادية عشرة على التقوى. كان كلوزيو يجلس على مقعد في أكثر الساحات حيوية. وكان كل واحد منا يأخذ دوره في الجلوس إلى جانبه بينما يتسكع الآخر في المدينة. مضت عشرة أيام على وجودنا هنا، وبدأ كلوزيو يمشي في لين ويسر بفضل الحديدة المثبتة تحت الجص، وقد تعلمنا الذهاب إلى المرفأ في القطار الكهربائي. وكنا نذهب أحياناً بعد الظهر، وفي مساء كل يوم. كان رجال الشرطة يؤدون لنا التحية، والجميع يعرفون من نحن، ومن أين أتينا وما كان لأحد منهم أن يلمح أو يعرض بأي شيء كان. وقد لاحظنا أن أصحاب البارات الذين يعرفوننا كانوا يتقاضون ثمن طعامنا وشرابنا بأسعار تقل عما يؤخذ من البحارة. وكذلك كانت تفعل الفتيات. والمألوف أنهن عندما يجلسن إلى المائدة مع البحارة أو الضباط أو السياح يشربن دون توقف ويسعين إلى حلبهم على البذل قدر المستطاع، وفي البارات التي يجري فيها الرقص كانت الواحدة منهن لا تراقص أحداً إلا بعد أن يقدم لها عدداً من كؤوس الراح مقدماً. فإنهن يتصرفن بشكل مغاير تماماً يجالسنا الفترة طويلة ولا يشربن إلا بعد إلحاح منا وإذا قبلن بذلك فلا يتناولن إلا الأقداح الصغيرة، بل يكتفين بالجعة، أو بشيء من الويسكي الحقيقي

مع الصودا، وكان هذا السلوك يبعث فينا الغبطة، لأنه وسيلة غير مباشرة للقول: إننا نعرفكم ونعرف وضعكم ولكن قلوبنا معكم.

أعيد صبغ المركب وزيد في ارتفاع حافاته مقدار عشرة سنتمترات، وأصبح الحيزوم أكثر صلابة وتوثيقاً، وضلوع المركب الداخلية لا ينقصها شيء فالمركب على أتم صورة، واستبدل الصاري بواحد آخر أخف وأطول، والقلعان المصنوعان من قماش أكياس الطحين استبدل بهما قماش جيد بلون التراب الأحمر، وقدم لي قبطان في البحرية بوصلة تعين جميع الجهات، وشرح لي كيف أستطيع بالاستعانة بالخريطة معرفة المكان الذي أنا فيه بصورة تقريبية. ولكي نصل إلى كوراساو حددنا الطريق باتجاه الغرب منحرفاً ربع انحراف نحو الشمال.

عرفني قبطان البارجة على ضابط بحري وهو المقدم في سفينة مدرسية اسمها «تاريونه» وقد طلب مني هذا المقدم أن أخرج بمركبي من المرفأ قليلاً إذا لم يكن لي في ذلك إزعاج، وذلك في الساعة الثامنة في صباح اليوم التالي. لم أفهم السبب ولكنني وعدته. وفي الغداة كنت في البحرية في الوقت المحدد مع ماتوريت.

صعد معنا في المركب أحد البحارة وخرجت من المرفأ بريح مواتية. وبعد ساعتين وبينما كنا مشغولين بتوجيه المركب في غدو ورواح، وصلت بارجة حربية اصطف على جسرها الضباط والعناصر، بلباسهم الأبيض، مروا بنا وصاحوا (هورا). عاروا دورة ورفعوا العلم وأنزلوه مرتين. هذه تحية رسمية لم أفهم مغزاها. دخلنا إلى البحرية حيث رست البارجة، ونحن أيضاً ربطنا البارجة. وأشار البحار الذي يرافقنا أن أتبعوني، فصعدنا ظهر البارجة حيث استقبلنا القدم من أعلى الجسر. ثم أطلقت صفارة منغمة طلقاتها احتفاء بمقدمنا. وبعد تقديمنا للضباط عرضنا على طلاب البحرية وضباط الصف الذين كانوا في وقفة استعداد، وخاطبهم المقدم بكلمات باللغة الانجليزية ثم انفرط عقدهم. شرح لي ضابط شاب ما كان يقوله المقدم للطلاب من أننا نستحق الإعجاب والتقدير، لأننا استطعنا بهذه الوسيلة البدائية التي سافرنا على متنها، أن نقوم برحلة طويلة، وبأننا سنقوم برحلة أطول وأخطر. فشكرنا هذا الضابط هذا الشرف العظيم الذي أولانا إياه. ثم أهدانا ثلاثة «مشمعات» بحرية، استفدنا منها فيما بعد، وهي ملابس غير قابلة لنفوذ الماء، لونها أسود وهي ذات قلنسوة ومغلاق (سحّاب) كبير.

جاء ماستر بوين قبل سفرنا بيومين ليرانا، وليطلب منا بناء على طلب مدير الشرطة، أن نصحب معنا ثلاثة من السجناء الذين قبض عليهم منذ أسبوع. حل هؤلاء في الجزيرة على حين عاد أصحابهم إلى فنزويلا، حسب إفاداتهم. ولم أكن مرتاحاً لهذا الطلب ولكن نبل معاملتهم حال دون رد طلبهم، إنما طلبت أن أراهم قبل أن أعطي الجواب. فجاءت سيارة من سيارات الشرطة لتقلني لمقابلة مدير الشرطة، وهناك الضابط

ذي الشارات، الذي استجوبنا لدى وصولنا وكان ويلي ترجماننا.

ـ كيف أحوالك؟

ـ شكراً. نتمنى أن تسدي لنا خدمة.

ـ إذا كانت ممكنة فعلى الرحب والسعة.

ـ في السجن ثلاثة فرنسيين مبعدين، أمضوا في الجزيرة ثلاثة أسابيع بصورة غير مشروعة ويدعون أن رفاقهم قد تخلوا عنهم ورحلوا. ونظن أنهم أغرقوا مركبهم، وكل واحد فيهم يدعي أنه لا يحسن قيادة مركب، ونعتقد أنها ذريعة لكي ننشئ لهم مركباً. ونحن نرغب في ترحيلهم. وإنه ليؤسفني أن أضطر إلى تسليمهم إلى مفوض أول مركب فرنسي يمر من هنا.

ـ يا سيادة المدير سأفعل المستحيل ولكنني أرغب في إجراء حوار معهم. ولا يخفى عليكم أنه من الخطر أن يرافقنا ثلاثة مجهولين.

ـ أقدر ذلك. يا ويلي. مر بإخراج الفرنسيين الثلاثة إلى الباحة.

أريد أن أراهم وحدي وقد طلبت من الرقيب أن ينسحب.

ـ هل أنتم سجناء مبعدون؟

ـ لا، نحن محكومون بالأشغال الشاقة.

ـ لم ادعيتم أنكم مبعدون؟

ـ حسبنا أنهم يُفضلون الرجل الذي يرتكب جنايات صغيرة على الذي يرتكب جريمة كبيرة ولقد شعرنا بالخطأ. وأنت من أنت؟

ـ أنا محكوم بالأشغال الشاقة.

ـ لا نعرفك.

ـ أنا من القافلة الأخيرة، وأنت؟

ـ من قافلة عام ١٩٢٩

قال الثالث: وأنا في السابعة والعشرين.

ـ لقد استدعاني المدير ليطلب مني أن آخذكم أنتم الثلاثة معي على مركبي، ونحن كذلك ثلاثة ويقول إذا لم أقبلكم فإنه يرى نفسه مضطراً لتسليمكم إلى أول مركب فرنسي يمر. وخاصة أنكم لا تحسنون قيادة مركب. ما رأيكم؟

ـ لأسباب تخصنا لا نريد الرجوع إلى البحر. ويمكن أن نتظاهر بالذهاب معكم، ستوصلنا إلى رأس الجزيرة وأنت تتابع رحلتك

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا يمكن أن أكافىء الجميل الذي أحاطوني به بمثل هذا العمل القذر.

ـ أظن أنه قبل الانكليز، يجب أن تفكر بالمحكومين.

ـ لماذا؟

ـ لأنك واحد منا.

ـ نعم، ولكن المحكومين يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً كبيراً. فربما كنت أختلف عنكم أكثر من اختلافي عن الانجليز. والمسألة نسبية كما ترون.

ـ إذن ستتركنا نقع في أيدي السلطات الفرنسية؟

ـ لا. ولكن لا أريد أيضاً أن تغادروا المركب قبل بلوغ كوراساو.

قال أحدهم: لا أملك الجرأة على أن أبدأ من جديد.

ـ اسمعوا. يجب أن تروا المركب أولاً، فربما كان المركب الذي سافرتم عليه رديئاً.

ـ قال الآخرون: لنجرب.

ـ حسناً. سأطلب من المدير السماح لكم بالذهاب لرؤيته

ذهبنا إلى المرفأ ومعنا العريف ويلي. وبدت عليهم الثقة عندما رأوا المركب.

الرحلة الجديدة

سافرنا بعد يومين والثلاثة المجهولون. وقد حضر لوداعنا أسرة بوين، واثنتا عشرة من فتيات البارات، ولا أدري كيف علمن برحيلنا، وقائد جيش السلام.

وجاءت إحداهن وقبلتني، فقالت مرغريت ضاحكة: هل خطبت بهذه السرعة؟ وليس الأمر جداً

ـ إلى اللقاء جميعاً ولا أقول وداعاً. واعلموا علم اليقين، أنكم حللتم من قلوبنا رحباً وتركتم أثراً لا يزول أبداً.

وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر رحلنا تجرنا قاطرة فأخرجتنا من المرفأ سريعاً. ودون أن أستبيح صبري كنت أنظر حتى آخر لحظة، إلى هذه المجموعة التي جاءت لتودعنا، وكانت تلوح بمناديل بيضاء كبيرة، وما كاد حبل القاطرة ينفصل عن مركبنا حتى انتفخت الأشرعة. وصفعنا الأمواج الأولى من الملايين من الموجات التي تنتظر أن نخترقها قبل بلوغ الهدف. في المركب سكينان، أحمل واحدة، ومع ماتوريت واحدة أخرى والفأس قريبة من كلوزيو وكذلك السيف الخشبي. ونحن واثقون أن الآخرين غير مسلحين. وقد وضعنا في

حسابنا أن يظل أحدنا يقظاً طوال الرحلة. وعند غروب الشمس رافقتنا سفينة المدرسة حوالي نصف ساعة ثم حيتنا وابتعدت عنا.

ـ ما اسمك؟

ـ لويلوند

ـ من أي قافلة؟

ـ من السابعة والعشرين

ـ العقوبة؟

ـ عشرون سنة

ـ وأنت؟

ـ كارفيريت، القافلة التاسعة والعشرون. خمس عشرة سنة. من بروتون.

ـ أنت من بروتون ولا تعرف كيف تقود مركباً؟

ـ لا.

ـ أنا أدعى دوفيل، وأنا من النجه، مؤبد، من أجل كلام أحمق قلته في المحكمة، ولولا ذلك لكان الحكم عشر سنوات على أبعد تقدير. القافلة التاسعة والعشرون.

ـ ما الكلام الذي قلته؟

ـ قتلت زوجتي بمكواة. وخلال المحاكمة سألني أحد المحققين، وما كنت أعرف سبب السؤال، لماذا استعملت المكواة لضربها؟ فقلت: ضربتها بالمكواة لأنها ذات تجاعيد قبيحة. فمن أجل هذه العبارة الحمقاء دفعت الثمن غالياً.

ـ من أين كانت مغادرتكم؟

ـ من معسكر للعمل في الأحراج يسمى كاسكاد، يبعد ثمانين كيلو متراً من سان لوران، ولم يكن ذلك صعباً لأننا كنا نتمتع بكثير من الحرية، واستفدنا نحن الخمسة من كل التسهيلات.

ـ كيف خمسة؟ وأين الآخرون؟.. وخيم الصمت.

قال كلوزيو: يا رجل! ليس هنا إلا الرجال. وبما أننا مجموعة فيجب أن نعرف. تكلم.

قال البروتوني: سأقول لكم كل شيء! في الحقيقة لقد ذهبنا خمسة، والآخران الغائبان قالا لنا بأنهما كانا من صيادي الساحل، ولم يدفعا شيئاً من أجل الهروب وقالا: إن العمل على ظهر المركب يساوي أكثر من المال. ثم تبين لنا في الطريق أن لا هذا ولا ذاك يعرف شيئاً من البحرية، ولقد أوشكنا على الغرق عشرين مرة، وسرنا بمحاذاة الساحل أولاً غويان الهولاندية ثم الانجليزية ثم ترينيداد. وبين جورج تاون وترينيداد قتلت الذي كان يدعي بأنه يستطيع أن يكون قائداً للهروب. وإنه ليستحق القتل، لأنه في سبيل الهروب مجاناً عمد إلى خداعنا جميعاً بقدرته البحرية. والآخر ظن أننا سنقتله وفي وقت كان

الطقس فيه رديئاً ألقى بنفسه في الماء طوعاً فتدبرنا أمرنا على قدر طاقتنا بعد أن ترك سكان المركب، فامتلأ بالماء أكثر من مرة وكادت صخرة تحطمنا فنجونا بأعجوبة. وهذا الكلام كلام رجل، وهو صحيح كله ودقيق.

قال الآخران: هذا صحيح وهذا ما جرى، وقد أجمعنا كلنا على قتله. ما تقول في ذلك يا بابيون؟

ـ لست مهيئاً لأكون قاضياً

فألح البروتوني وقال: ماذا تفعل لو كنت مكاننا؟

ـ يجب التفكير حتى أكون عادلاً. ويجب أن يعيش الإنسان تلك اللحظة وبغير ذلك لا تعرف الحقيقة.

ـ قال كلوزيو: لو كنت أنا لقتلته، لأنه كذب كذبة تكلف الجميع حياتهم.

ـ حسناً لنكف عن هذا الحديث. ولكنني أتصور أنكم لاقيتم من الرعب الشيء الكثير. ولا تزالون تعانون من آثاره. وإذا كنتم الآن في البحر فذلك لأنكم مكرهون. أليس هذا صحيحاً؟

أجابوا بصوت واحد: بلى.

ـ لا أريد هنا فزعاً مهما حصل وعلى كل منكم أن لا يظهر خوفه، ومن خاف فليسكت. هذا المركب جيد وقد أثبت ذلك ونحن الآن أكثر حمولة مما كان عليه من قبل وقد زاد ارتفاعه عشرة سنتمترات وهذا يعوض سعة الحمولة الزائدة.

دخنا وشربنا القهوة وكنا قد أكلنا جيداً قبل الرحيل. وكنا اتفقنا على الا نأكل قبل صباح الغد. نحن في التاسع من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٣. فمنذ اثنين وأربعين يوماً كانت بداية الفرار من القاعة الصفصحة، في مستشفى سان لوران، وقد خبرنا بذلك كلوزيو محاسب الشركة. صار عندي قبل الرحيل ثلاثة أشياء هامة: ساعة فولاذية اشتريتها من ترينيداد، وبوصلة حقيقية في علبتها القاصعة المعلقة، وهي دقيقة جداً بفروعاتها، ونظارات سود. وكان لكل من كلوزيو وماتوريت قبعة.

ثمانية أيام انطوت بدون حوادث، ما عدا عثورنا مرتين على مجموعة من الدلافين فأسالت منا عرقاً بارداً. مجموعة مؤلفة من ثمانية، أخذت تتلاعب بالمركب، تمر من تحته ثم تظهر من الأمام بالضبط وكان أكثر ما أثارنا هو اللعبة التالية: ثلاثة دلافين على شكل مثلث، أحدها في الأمام والآخران متوازيان في الخلف تهاجمنا من الأمام في سرعة جنونية، وفي اللحظة التي تصل فيها إلى المركب تغطس في الماء ثم تخرج من اليمين ومن اليسار، وكلما اشتدت الريح وامتلأ الشراع زادت سرعتنا وبالتالي تزيد الدلافين من سرعتها. وقد دام ذلك ساعات، وكان هذا يهددنا لأن خطأ صغيراً في حسابها يقلبنا رأساً على عقب.

الثلاثة الجدد لم يقولوا شيئاً، ولكن كان يجب أن ترى وجوههم المتفككة.

في منتصف الليلة الرابعة هبت عاصفة هوجاء، وكان حقاً شيئاً راعباً. والأسوأ من

ذلك أن الأمواج لم تكن تتلاحق في اتجاه واحد، بل كان بعضها يصدم بعضاً. بعضها عميق وبعضها سطحي. ولم نفهم كيف كان يحصل هذا، ولم يتفوه أحد بكلمة، سوى ما كنت أسمعه بين الفينة والفينة من كلوزيو: تابع يا صديقي، فهذه الموجة مثل سابقاتها، أو: احترس من موجة قادمة من الخلف وأحياناً أو نادراً ما كانت تأتي الأمواج من ثلاث جهات صاخبة تطفح بالزبد.

كنت أقدر سرعتها وأتبصر سلفاً زاوية الهجوم، ولكن خلافاً لكل منطق، وفجأة تأتيني موجة قائمة تماماً من أسفل المركب وتتكسر هذه الأمواج على كتفي، وبطبيعة الحال يدخل قسم كبير منها إلى المركب. والرجال الخمسة يغرفون الماء بما في أيديهم من الأواني دون توقف، وعلى الرغم من كل هذا لم يمتلىء المركب مرة إلى أكثر من ربعه وبهذا لم نتعرض قط لخطر الغوص إلى أسفل.

دام هذا العيد الغريب نصف الليل الثاني، أي ما يقرب من سبع ساعات والأمطار حجبت عنا الشمس حتى الساعة الثامنة.

سكنت العاصفة وأشرقت شمس جديدة منذ بداية النهار لامعة بكل ما فيها من لهب، فحييناها بفرحة غامرة، وأسرعنا إلى شرب القهوة قبل كل شيء. قهوة ساخنة ممزوجة بحليب نستله وأكلنا كعكة بحرية قاسية كالحديد تصبح لذيذة حال غمسها في القهوة.

إن الصراع مع العاصفة في الليل أوهن قواي، فلم يبق لي صبر ولا جلد. ورغم شدة الريح وارتفاع الأمواج الفوضوية، فقد طلبت إلى ماتوريت أن يحل مكاني ريثما أنام قليلاً. لم تمض دقائق عشر، حتى انخدع ماتوريت بالاتجاه، وامتلأ المركب بالماء إلى ثلاثة أرباعه. وسبح فيه كل شيء، من علب ومواقد وأغطية... أسرعت إلى السكان والماء يغمرني إلى بطني، وجئت في الوقت المناسب للإمساك وتفادي موجة متكسرة آتية من فوقنا، وبحركة من السكان وجهت مؤخرة المركب بقوة نحو الموجة، فلم تدخل فيه، ولكنها دفعتنا مسافة عشرة أمتار نحو الأمام. وبادرنا جميعاً إلى تفريغ المركب من الماء. والإناء الذي كان بيد ماتوريت يغرف خمسة عشر ليتراً دفعة واحدة. ولم يهتم أحد باستعادة شيء مهما كان ثمنه، ولم يكن لدينا جميعاً سوى فكرة ثابتة وحيدة هي الإفراغ، الإفراغ إفراغ ما أمكن من الماء في سرعة لأنه يجعل المركب ثقيلاً ويمنعه من مدافعة الموج، ولا بد من الاعتراف بأن المجهولين الثلاثة قد أبلوا بلاء حسناً. والبروتولي إذ رأى صندوقة تحمله المياه اتخذ قراره وحده وبدون تردد الاهتمام بسكون المركب، والتخلص من ميل الماء إذ دفعه خارج المركب دون جهد. وبعد ساعتين كان كل شيء جافاً، ولكننا خسرنا الأغطية وموقد النفط وكيس الفحم، والبنزين، وبرميل الماء، وهذا الأخير فقدناه بإرادتنا. وأردت تغيير بنطالي فألفيت أن حقيبتي هي أيضاً قد جرفتها المياه، وخسرنا كذلك مشعلان من ثلاثة. وجدنا في أسفل المركب زجاجتين من الروم. وأما التبغ فقد ضاع أو تبلل، واختفى الورق مع العلب المعدنية البيضاء. قلت:

ـ يا رجال. نأخذ أولاً جرعة من الروم ثم نفتح الصندوق الاحتياطي، لنرى على أي شيء يكون اعتمادنا. يوجد عصير فواكه يجب أن نشربه بالتقتير. ولدينا علب بسكويت وزبدة. افرغوا علبة واصنعوا منها قرنية. وسوف نضع علب المحفوظات (الكونسروة) في قعر المركب لنشعل النار من خشب الصندوق. ولقد نالنا جميعاً شيء من الخوف والآن قد زال الخطر. لا يقولن أحد إني ظمآن، ولا يقولن أحد إني جوعان أو أرغب في التدخين. اتفقنا؟

ـ نعم بابي اتفقنا.

كان الجميع الضباطين، وساقت لنا العناية الإلهية رياحاً أتاحت لنا صنع حساء من علبة لحم بقري وفي القصعة الملأى بهذا الحساء كنا نغمس كعك العسكر فجعلنا في بطوننا لزقة حارة وطيبة، وكافية حتى الغد. وصنعنا قليلاً جداً من الشاي الأخضر لكل واحد منا. وفي الصندوق الاحتياطي وجدنا صندوق سجائر فيه ثمانية وعشرون علبة، وكل علبة تحوي ثماني سجائر. قرر الخمسة الآخرون أن لي وحدي حق التدخين كي أظل يقظاً، وحتى لا يكون هناك حاسد. رفض كلوزيو أن يشعل لي السيجارة، بل اكتفى بأن يقدم لي النار. وبفضل هذا التفاهم لم يحصل بيننا أي حادث معكر.

أيام ستة مرت على مغادرتنا ولم أنم. وهذا المساء كان البحر كسطح الزيت. فنمت قرابة خمس ساعات وقبضتاي مغلقتان، واستيقظت الساعة العاشرة مساء. كل شيء هادىء وساكن. وقد أكلوا بدوني، ووجدت نوعاً من الطعام مصنوعاً من طحين الذرة صنعاً جيداً. وأكلت كذلك شيئاً من (النقانق) المدخنة، وكانت وجبة لذيذة. وكان الشاي بارداً تقريباً ولا بأس في ذلك، وأخيراً دخنت بانتظار أن تسعفنا الريح.

كانت السماء متلألئة بالنجوم ونجم الشمال يتألق ببريق أخاذ، ويرى الدب الأكبر والدب الأصغر بوضوح. لا سحابة في الجو، والبدر يتكبد السماء ذات النجوم.

البروتولي يرتعش من البرد، فقد أضاع معطفه فأعرته المشمع.

نحن في اليوم السابع. قلت: يا رجال! لسنا بعيدين عن كوراساو ويخيل لي أنني صعدت شمالاً أكثر مما ينبغي. سأتجه بعد الآن غرباً، ويجب أن لا نخطىء جزر الأنتيل الهولاندية، والمسألة غدت خطيرة، لأنه لم يبق عندنا ماء عذب للشرب، وضيعنا الأغذية ما عدا الاحتياطي.

قال البروتولي: نحن نثق بك بابيون. وردد الآخرون الكلام نفسه وبصوت واحد.
ـ شكراً.

وأعتقد أن ما قلته هو الأصوب. ولم تكن الريح مرضية تلك الليلة، إلا أنه في الساعة الرابعة هب نسيم أتاح لنا استئناف السير، وقد تزايد هذا النسيم صباحاً. ودام

ستاً وثلاثين ساعة بقوة دفع كافية، فجرى المركب شداً مع موجات خفيفة تلطم هيكل السفينة.

كوراساو

لاحت لنا طيور البحر، وكنا قبلاً سمعنا زقزقتها في أواخر الليل، ثم رأيناها تطوف حول المركب وقد وقف أحدها على الصاري، وهو يروح ويغدو ثم يحط من جديد واستمرت هذه الرياضة ثلاث ساعات إلى أن انجلى الليل بصبح متلألىء الشمس. لا شيء في الأفق يشير إلى اليابسة. يا للشيطان! فمن أين أتت هذه الطيور إذن؟ عبثاً كانت أعيننا تحاول البحث طيلة النهار وليس هناك أي دليل على وجود أرض. وسطع البدر في لحظة غياب الشمس، وهذا القمر الاستوائي مضيء جداً، حتى أن انعكاساته كانت تضايقني، وقد ذهبت الموجة الشهيرة إياها بنظاراتي السوداء، وبجميع عمراتنا. وحوالي الساعة الثامنة، رأينا في الأفق بعيداً وبعيداً جداً خطاً أسود وسط هذا الليل المقمر الذي غدا كالنهار في إشراقه.

قال أحدهم: هذه هي الأرض بالتأكيد.

ـ أجل إنها الأرض حقاً.

وباختصار كان الجميع على اتفاق. فكل واحد رأى الخط المظلم الذي لا بد أن يكون الأرض وظللت أحدق بقية الليل بهذا الظل الذي بدأ يتوضح شيئاً فشيئاً. لقد وصلنا بريح قوية خالية من السحب، وبموجة عالية وطويلة، إلى اليابسة بأقصى سرعة.

هذه الكتلة السوداء ليست مرتفعة فوق مستوى سطح الماء كثيراً، وليس ما يشير إلى الساحل أصخري هو أم رملي. وكان القمر قد مال إلى المغيب من الجهة المقابلة وشكل ظلاً يحول دون الرؤية الجلية، على الخط الملامس لسطح الماء سلسلة من الضوء الذي كان متصلاً ولم يلبث أن صار متقطعاً. اقتربت كثيراً إلى مسافة كيلو متر تقريباً، وألقيت بالمرساة.

الريح عالية والمركب يدور حول نفسه، وكلما مرت موجة رفعته عالياً فهو إذن في اضطراب، وأصبحنا في وضع غير مريح. وهذا طبيعي، لأن الأشرعة قد طويت. وكان بالإمكان أن ننتظر حتى الصبح على ما نحن فيه من مكروه، بشرط أن يكون الوضع آمناً. غير أن المرساة أقلعت؛ ولكني أستطيع توجيه المركب يجب أن يمشي وبغير ذلك لا يمكن السيطرة عليه. رفعنا القلعين. والشيء الغريب أن المرساة لم تكن تثبت بسرعة.

سحب رفاقي الحبل فإذا به من غير مرساة. لقد ضاعت ورغم ما بذلت من جهد فإن الأمواج قربتنا من الصخور. وبات الخطر محققاً. فعزمت على رفع الشراع والانطلاق بعنف نحوها. نجحت بحيث ألفينا أنفسنا بين صخرتين ولكن المركب تحطم، ولم يرتفع صوت بالصياح، وقلت لينج بنفسه من يستطيع النجاة، ومع هجوم الموجة التالية ألقينا بأنفسنا في لجتها بغية الوصول إلى تلك الأرض متدحرجين أو مهشمين، إنما على قيد الحياة. ولكن الذي أصاب كلوزيو كان أسوأ مما أصابنا بسبب رجله التي لا تزال في الجص، وتخضب وجهه وذراعه ويداه بالدم من جراء ما نالها من السلخ، ونحن الآخرين، أصبنا ببعض الرضوض في ركبنا وأيدينا وكعوبنا. وأنا دميت أذني نتيجة احتكاكها بالصخرة. فمهما حدث، فنحن جميعاً أحياء على الأرض الجافة في مأمن من الأمواج.

وعند انبلاج الصبح استعدت الشمع وعدت إلى المركب الذي بدأ يتفكك، وانتزعت البوصلة التي كانت مثبتة في المقعد الخلفي.

لم يكن على الأرض أحد، ولا في الضواحي. تأملنا ملياً فرأينا أضواء نابعة عن مجموعة من المصابيح لإرشاد الصيادين وعرفنا فيما بعد أن المكان خطر.

مشينا نحو الداخل فلم نجد إلا أشجار الصبار الضخمة وصبراً، حتى وصلنا إلى بئر وقد خارت قوانا، إذ كنا نتناوب حمل كلوزيو على أيدينا التي كنا نشبكها على شكل كرسي، وعثرنا حول البئر على هياكل عظمية لبعض الحمير والماعز، والبئر قد نضب ملؤها، وأجنحة الطاحون التي كانت سابقاً تتاح ماء البئر، تدور الآن على غير طائل. تقدمنا نحو بيت مفتح الأبواب وأخذنا نصيح: هولا، هولا! ولكن ما بالربع من أحد. وجدت على المدفأة كيساً من قماش مربوطاً بحبل صغير فتناولته وفتحته ففككت الحبل، وإذا هو مملوء بمسكوكات عملة هولاندية. إذن نحن في أرض هولاندية إما بونير وإما كوراساو وإما أروبا. أعدنا الكيس إلى مكانه دون أن نمس ما فيه، ثم شربنا كل بدوره بوساطة مغرفة. ولم يكن في البيت أحد، ولا في الأطراف إنسان عاودنا السير ببطء بسبب كلوزيو، وإذا بسيارة فورد قديمة تعترض طريقنا.

ـ هل أنتم فرنسيون؟

ـ أجل يا سيد.

ـ تفضلوا بالركوب في السيارة. جلس ثلاثة منا في صدر السيارة وقعد كلوزيو على ركبهم وجلست أنا وماتوريت إلى جانب السائق.

ـ هل غرقت سفينتكم؟

ـ نعم.

ـ وهل غرق منكم أحد؟

ـ لا.

ـ من أين مقدمكم؟
ـ من ترينيداد.
ـ وقبلاً؟
ـ من غويان الفرنسية.
ـ من سجناء الميناء أم من السجناء المبعدين؟
ـ من سجناء الميناء.
ـ أنا الدكتور نال صاحب هذه الأرض وهي شبه جزيرة ملاصقة لكوراساو، وتسمى جزيرة الحمير. فالحمير والماعز تعيش هنا على الصبار ذي الأشواك الطويلة والتي يدعوها الشعب هنا «آنسات كوراساو»

قلت: إن هذا لا يرضي آنسات كوراساو الحقيقيات.
فقرقر هذا الرجل ضاحكاً، وهو رجل بدين وطويل.
كانت سيارة الفورد تلهث وكأنها مصابة بالربو ولم تلبث أن توقفت من تلقاء نفسها.
فقلت وأنا أشير إلى قطيع من الحمير:
ـ إذا عجزت السيارة عن السير نستطيع جرها.
ـ عندي في الصندوق ما يشبه النير ولكن المهم في الأمر أن نتمكن من القبض على حمارين من هذه الحمير، وأن نضع لها النير، وليس ذلك سهلاً.

رفع الرجل الضخم غطاء المحرك، فوجد أن السلك الواصل إلى أحد «البواجي» قد انفصل بسبب ارتجاج السيارة، وقبل أن يرجع إلى السيارة دار حولها كمن يخاف شيئاً. استأنفنا سيرنا. وبعد أن مررنا بدروب حرية خرجنا من السيارة لنواجه حاجزاً يسد الطريق عند بيت صغير أبيض، وتكلم الدكتور باللغة الهولاندية مع رجل أسود نظيف الملابس، وكان هذا الأخير يردد مراراً يا. يا. يا ماستر. ثم التفت بعد ذلك إلينا وقال: لقد أمرت هذا الرجل أن يستبقيكم في صحبته وأن يعطيكم الماء إذا عطشتم ريثما أعود، تفضلوا بالنزول، فنزلنا وجلسنا على العشب تحت الظل، ثم ذهبت سيارة الفورد... توف، توف.. ولم تكد تبعد خمسين متراً حتى قال لنا الأسود بلهجة هولاندية كلمات انكليزية وفرنسية وهولاندية واسبانية، فهمنا منها أن سيده الدكتور (نال) ذهب لإحضار الشرطة لأنه خائف منا وطلب منه الانتباه لنفسه لأننا لصوص هاربون. وهذا الشيطان المجنون المسكين لا يدري ما يفعل لإرضائنا، فجهز لنا قهوة مصفاة أنعشتنا بعض الشيء في هذا الحر. انتظرنا أكثر من ساعة ثم وصلت سيارة شاحنة وفيها ستة من رجال الشرطة يرتدون ملابس على الطريقة الألمانية، ثم سيارة مكشوفة سائقها بملابس الشرطة وثلاثة رجال، وخلفهم الدكتور (نال).

نزلوا من السيارة وكان أصغرهم سناً حليق الرأس حتى درجة الصفر فخاطبنا قائلاً:

أنا رئيس الأمن في كوراساو، وعلى عاتقي مسؤولية اعتقالكم. هل اقترفتم جرماً منذ وصولكم إلى هنا؟ ومن منكم فعل ذلك؟
ـ سيدي. نحن محكومون هاربون أتينا من ترينيداد منذ ساعات فقط عند تحطم مركبنا على صخوركم وأنا رئيس هذه المجموعة الصغيرة وأستطيع أن أؤكد لكم أننا لم نرتكب أدنى هفوة.
التفت المفوض نحو الدكتور (نال) وخاطبه بالهولاندية، وبينما كانا يتناقشان وصل رجل على دراجة وصار يتكلم ويثرثر ويوجه خطابه إلى الدكتور أكثر مما يكلم المفوض.
ـ مسيو (نال) لم قلت لهذا الرجل إننا لصوص.
ـ لأن هذا الرجل الذي ترونه هناك أنبأني قبل أن ألقاكم، بأنه كان مختبئاً خلف صبارة ورآكم تدخلون داره وتخرجون منها، وهو مستخدم عندي، يعتني بقسم من الحمير.
ـ ألأننا دخلنا الدار أصبحنا لصوصاً؟ إنها حماقة ما تقول، لم نأخذ سوى الماء. هل ترى في هذا سرقة؟
ـ وصرة النقود؟
ـ الصرة؟ لقد فتحتها فعلاً، وانقطع خيطها أثناء الفتح، ولم أفعل شيئاً آخر سوى أني نظرت إلى نوع العملة لأعرف في أي بلد نحن، وأرجعت المال إلى الصرة بدقة وأمانة إلى المكان نفسه على رف المشكاة.

حدق بي المفوض ثم التفت فجأة نحو الرجل صاحب الدراجة وخاطبه بقسوة. وأراد الدكتور نال، الكلام فمنعه المفوض من التدخل بجفاء قاس.

وأركب المفوض الرجل إلى جانب سائق سيارته، وركب معه اثنان من الشرطة وانطلق.

دخل معنا الدكتور والرجل الذي يرافقه وقال: يجب أن أشرح لكم: إن هذا الرجل خبرني بأن الصرة قد اختفت. وقبل أن يأمر المفوض بتفتيشكم سأل ذلك الرجل وهو يقدر أنه كاذب. فإذا كنتم أبرياء فأنني شديد الأسف لما حصل ولكن ليس الذنب ذنبي.
وعادت السيارة بعد أقل من ربع ساعة، وقال المفوض: لم تقل سوى الحقيقة. وهذا الرجل كذاب وقح. وسوف يعاقب على أنه كاد أن يلحق بكم الأذى.

وفي هذه الأثناء ركب الرجل في الشاحنة وكذلك صعد رجالي الخمسة. ولما هممت بالصعود أمسك بي المفوض وقال: خذ مكانك في سيارتي إلى جانب السائق. وكانت السيارة تجري بنا مسرعة أمام الشاحنة حتى غابت عن أبصارنا، وسلكنا دروباً معبدة إلى أن دخلنا المدينة. وكانت منازلها مبنية على النمط الهولاندي، وكل ما فيها نظيف جداً، ومعظم الناس يركبون الدراجات. دخلنا مركز الشرطة ومررنا من مكتب فسيح يضم عدداً من ضباط الشرطة في لباسهم الأبيض، وكل واحد خلف منضدته، إلى غرفة أخرى مجهزة بمكيف للهواء، الجو فيها منعش.

يمشي رجل طويل أشقر قد يبلغ الأربعين من العمر، وتكلم بالهولاندية. وبعد أخذ ورد قال المفوض باللغة الفرنسية: أقدم لك المفوض الأول لشرطة كوراساو.

ـ سيدي المفوض! هذا الرجل فرنسي وهو رئيس مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص أوقفناهم.

ـ حسناً. مرحباً بكم في كوراساو بصفة لاجئين تحطمت سفينتهم. ما اسمك؟

ـ هنري.

ـ حسناً يا هنري، قد تكون مررت بفترة عصيبة في حادثة الصرة، ولكنها حادثة رفعت من شأنك، لأنها برهنت بلا ريب على أنك رجل شريف. سأوصي لك بغرفة حسنة الإضاءة وفراش صغير لتستريح. حالتك هذه تابعة للحاكم الذي يصدر بشأنها الأوامر. أنا بنفسي والمفوض سنتوسط إكراماً لك.

ومدّ لي يده مصافحاً وخرجنا. وفي الباحة قدم لي الدكتور نال اعتذاره ووعد بالتدخل من أجلنا. وبعد ساعتين كنا جميعاً محتجزين في غرفة رحبة مستطيلة تضم اثني عشر سريراً. ومنضدة خشبية، ومقاعد في الوسط.

طلبنا من الشرطي من خلال شبك النافذة أن يشتري لنا، مما معنا من دولارات ترينيداد، شيئاً من التبغ والورق وأعواد الثقاب، فلم يأخذ المال، ولم نفهم بماذا أجاب.

قال كلوزيو: هذا الأسود الأبنوسي، يبدو عليه الحزم والوقار. لم نحصل على التبغ فخبطت على الباب، فانفتح على الفور وظهر رجل قصير خلاسي بملابس رمادية من نمط السجناء ويحمل على صدره رقماً، لدفع الالتباس، فقال لنا:

ـ المال. من أجل السجائر.

ـ لا. نريد تبغاً وورقاً وأعواد ثقاب.

عاد بعد هنيهة يحمل ما طلبناه مضافاً إليه وعاء يتصاعد منه بخار الشوكولا أو الكاكاو. وشرب كل واحد منا مما جاء به هذا السجين.

وجيء في طلبي بعد الظهر. وعدت أدراجي إلى مكتب مفوض الشرطة الذي قال:

ـ إن الحاكم أصدر أوامره بتخلية سبيلكم في الباحة وحسب. قل لصحبك أن لا يحاولوا الفرار فإن العواقب وخيمة. وأنت بوصفك رئيساً لهم يمكنك الخروج إلى المدينة كل يوم مدة ساعتين من العاشرة إلى الثانية عشرة، وبعد الظهر من الساعة الثالثة إلى الخامسة. هل معك مال؟

ـ نعم. عملة انكليزية وفرنسية.

ـ سيرافقك شرطي مدني أثناء خروجك حيث تشاء.

ـ وما تفعلون بنا؟

ـ أظن أننا سنرحلكم واحداً بعد واحد على ناقلات بترول من مختلف الجنسيات. ونظراً لوجود أعظم مصافي النفط العالمية في كوراساو، والتي تعالج نفط فنزويلا، فإنه

يدخلها ويخرج منها من الناقلات ما يتراوح عدده بين العشرين والخمس والعشرين يومياً، من كل البلاد. هذا هو الحل الذي أتصوره لكم. لأنكم سوف تصلون إلى الدول، خالين من المشاكل.

ـ أي البلاد مثلاً؟ بناما، كوستاريكا، غواتيمالا، نيكاراغوا، المكسيك، كندا، كوبا، الولايات المتحدة، أو البلاد الخاضعة للعقوبة البريطاني؟

ـ مستحيل، وأوروبا كذلك مستحيلة. اطمئنوا، وثقوا بنا، ودعونا نعمل على مساعدتكم لتبدأوا رحلة نحو حياة جديدة.

ـ شكراً أيها المفوض.

وقصصت على رفاقي بأمانة ما سمعت. فقال كلوزيو، وهو أرذل من في العصابة:

ـ ما رأيك يا بابيون؟

ـ لا أدري. وأخشى أن تكون هناك خدعة لكي نبقى هادئين فلا نهرب.

ـ وأنا أخشى أن تكون على حق.

والبروتوني آمن بهذه الخطة العجيبة ـ وهو صاحب حادثة الكوكا ـ فقال:

ـ لم يبق لدينا مركب، إذن لا مغامرة. وهذه الخطة مؤكدة. يصل كل واحد منا إلى بلد ما على ظهر ناقلة كبيرة وندخل بصفة رسمية إلى ذلك البلد.

وشاطره الرجل الأصهب هذا الرأي.

ـ وأنت ماتوريت؟

هذا الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً، هذا الغلام الذي أصبح عرضاً ومصادفة سجيناً، هذا الصبي الرقيق في ملامحه رقة النساء، قال بصوته العذب:

ـ هل تصدقون أن رجال الشرطة هؤلاء، ذوي الرؤوس الربعة سيعطون لكل واحد منا بطاقة شخصية مزيفة أو مزيفة؟ أنا لا أظن ذلك. لنفترض في أسوأ الأحوال أنهم استطاعوا أن يغضوا النظر عنا لنمتطي ظهر ناقلة نفط بصورة غير مشروعة ساعة الإقلاع لا أكثر، فإنما يفعلون ذلك ليتخلصوا منا بدون متاعب. هذا رأيي ولا أصدق هذه الحكاية.

نادراً ما كنت أخرج في الصباح للشراء. ومضى الأسبوع الأول ولا جديد. وبدأت أعصابنا تتوتر. وفي أحد الأيام رأينا بعد الظهر ثلاثة من الرهبان يحيط بهم رجال الشرطة يزورون الزنزانات والمهاجع. توقفوا طويلاً عند زنزانة زنجي منهم باستعمال العنف. وقد افترضنا أنهم سيأتون إلى قاعتنا. فاستلقى كل منا في سريره. وبالفعل دخل الثلاثة ومعهم الدكتور نال ومفوض الشرطة وآخر من ذوي الشارات، بلباسه الأبيض مما يشير إلى أنه ضابط بحري.

قال المفوض باللغة الفرنسية:

ـ مولاي. ها هم أولاء الفرنسيون وقد كان سلوكهم مثالياً.

ـ أدعوكم يا أولادي لتجلسوا على المقاعد حول هذه المنضدة بحيث تكون في وضع أفضل للحديث.

فجلس الجميع، حتى من كانوا في صحبة الأسقف، وأتوا بكرسي كان أمام الباب الخارجي ووضعوه على رأس المنضدة، ليستطيع الأسقف رؤية الجميع.

ـ الفرنسيون كلهم تقريباً من الكاثوليك. من منكم غير كاثوليكي؟

لم يرفع أحد منا يده، وتذكرت الخوري في سجن التوقيف الذي عمدني تقريباً بأن أعتبر نفسي كاثوليكياً، وإني لكذلك.

ـ أصدقائي! إنني أنحدر من أصل فرنسي، وأدعى ايريته دوبرتين. كان أجدادي من البروتستانت الذين لجؤوا إلى هولندا، في الوقت الذي كانت فيه كاترين دوميديسيس تلاحقهم حتى الموت. أنا إذن فرنسي الأرومة، وأسقف كوراساو المدينة التي فيها من البروتستانت أكثر مما فيها من الكاثوليك، وحتى هؤلاء قلوبهم عامرة بالإيمان ويمارسون واجباتهم الدينية فما وضعكم؟

ـ ننتظر أن نحصل على ناقلة للنفط الواحد تلو الآخر.

ـ كم واحداً هجّر بهذه الطريقة؟

ـ حتى الآن لا أحد.

ـ هوم.. ما رأيك في هذا أيها المفوض؟ أجب بالفرنسية إذا سمحت، لأنك تجيدها.

ـ يا مولاي! ان الحاكم هو الذي تبنى هذه الفكرة مخلصاً، وذلك لمساعدة هؤلاء الرجال، وأقول بإخلاص إن أحداً من ضباط البواخر لم يقبل أن يحمل واحداً منهم وخاصة أن ليس معهم جوازات سفر.

ـ من هنا يجب أن نبدأ ألا يستطيع الحاكم أن يمنح لكل منا جوازاً استثنائياً؟

ـ لا أدري. إنه لم يحدثني بذلك قط.

ـ سأقيم بعد غد قداساً من أجلكم. هل ترغبون في الحضور إلى هنا غداً بعد الظهر لتدلوا باعترافاتكم؟ سأستمع شخصياً لاساعدكم لكي يغفر لكم ربكم خطاياكم. أرسلوهم لي في الساعة الثالثة إلى الكاتدرائية. هل هذا ممكن؟

ـ نعم

ـ أتمنى أن يأتوا في سيارة عامة أو في عربة خاصة.

قال الدكتور نال:

ـ سأصحبهم بنفسي يا مولاي.

ـ شكراً يا بني. وأنتم يا أولادي لا أعدكم بشيء إلا قولاً واحداً صحيحاً وهو أنني منذ هذه اللحظة، سأبذل أقصى جهد لما فيه نفعكم.

وعندما رأينا الدكتور نال يقبل خاتمه، ثم تلاه البروتون، لثمنا بشفاهنا الخاتم الأسقفي ورافقناه إلى سيارته الواقفة في الباحة.

وفي الغداة، كنا جميعاً على كرسي الاعتراف. وأنا كنت الأخير.

ـ هيا بني! ابدأ بالخطيئة الكبرى أولاً.

ـ يا أبانا. أنا لست معمداً ولكن خورياً في سجن فرنسا قال لي: إن كنت معمداً أم لا، فنحن جميعاً أبناء الرب الطيب.

ـ هذا حق. سنخرج من الاعتراف وتحدثني بكل شيء.

فرويت له حياتي بالتفصيل، وكان أمير الكنيسة هذا يصغي لي بصبر وانتباه وأناة دون أن يقاطعني. فأخذ يدي بين راحتيه، وغالباً ما كان ينظر إلى عيني، وإذا مررت بمواطن يصعب فيها الاعتراف يخفض بصره ليساعدني على الاعتراف.

كان هذا الراهب الذي طوى ستين عاماً من عمره. ذا عينين صافيتين، ووجه نقي، تعكس شيئاً طفولياً. ولا ريب في أن روحه الطاهرة النقية تحمل الطيبة اللامتناهية التي كانت تشع في قسمات وجهه ونظرته الصافية وتدخل إلى نفسي كأنها البلسم على الجرح وبكل رقة وعذوبة، وكفاي بين راحتيه كان يحدثني همساً: إن الرب يمنح أولاده الصبر على احتمال شقاوة البشرية. فمن اختاره ضحية لشرورها، خرج منها أقوى وأنبل من ذي قبل. ألا ترى يا بني؟ لو لم تكن قاسيت هذه المحن لما تساميت إلى هذه الدرجة، التي اقتربت فيها من الحقيقة الإلهية. وخير ما أقول: إن الناس، والأجهزة وتشابك هذه الآلة الرهيبة التي سحقتك والمخلوقات الشريرة في أعمالها والتي عذبتك بمختلف الوسائل، وألحقت بك أقدح الأضرار، إنها كلها في الوقت نفسه أسدت إليك أكبر خدمة يمكن أن تؤديها. فقد جعلوا منك كائناً جديداً سامياً إلى أعلى درجات السمو فإذا كنت اليوم تشعر بالشرف وسلامة الطوية، وحب الخير، والمروءة اللازمة لتخطي العقبات فأنت مدين لهم في ذلك. إن فكرة الانتقام ومعاقبة كل إنسان بمقدار إساءته إليك لا تستطيع أن تسعد مخلوقاً مثلك، يجب أن تكون منقذاً للرجال، لا أن تعيش للإساءة. حتى ولو كنت مؤمناً بأن هذا هو العدل. لقد كان الله كريماً معك وقد قال لك: ساعد نفسك أساعدك. وقد أعانك في كل شيء. بل أتاح لك أن تنقذ رجالاً آخرين وتقودهم إلى الحرية، ولا تعتقد أن الآثام التي ارتكبتها كبيرة إلى هذا الحد، فكثير من الرجال ذوي المراتب الاجتماعية العليا أوقعوا أنفسهم في ذنوب أخطر من ذنوبك. أما هم فيما جرى عليهم من قصاص العدالة البشرية لم يبلغوا ما بلغت من الارتقاء.

ـ شكراً لك يا أبي. لقد قدمت لي خيراً عظيماً لا أنساه مدى الحياة.. ثم قبلت يديه.

ـ ستعود يا بني لتواجه أخطاراً جديدة، وأود أن أعمدك قبل ذهابك فما رأيك؟

ـ يا أبانا دعني هكذا في الوقت الحاضر، فإن أبي لم ينشئني تنشئة دينية وله مع ذلك قلب كالذهب. وعقب وفاة والدتي، عرف كيف يعثر على كلمات الأم وحركاتها واهتماماتها ولو أني رضيت بالمعمودية لشعرت بأنني اقترفت ما يشبه الخيانة في حقه، دعني إلى الوقت

الذي أكون فيه حراً، وتكون لي هوية ثابتة، وطريقة في العيش السوي. وعندما أكتب له سأسأله إن كنت أستطيع أن أهجر فلسفته دون أن أسبب له ألماً وأقبل بالمعمودية.

— إني أفهمك يا بني، وأنا على يقين بأن الله معك، إني أباركك، وأتضرع إلى الله أن يحفظك.

قال الدكتور نال: ها هو الأسقف إيرنيه دوبروين يبرز في هذا الوعظ بأكمل مزاياه.

— بالتأكيد يا سيدي. والآن ماذا تنوي أن تفعل؟

— سأطلب من الحاكم أن يصدر أمره للجمرك بأن يتركوا لي الأفضلية في أول بيع للمراكب الصادرة من المهربين، وسوف تأتي معي لتبدي رأيك وتختار المناسب، وأما بالنسبة إلى الباقي كالغذاء والألبسة فأمرها يسير.

منذ أن وعظنا الأسقف والزوار يأتون دون انقطاع، وبخاصة في المساء حوالي الساعة السادسة. وهم يريدون التعرف علينا. يجلسون على المقاعد، وبيد كل واحد منهم شيء يضعه على سرير من الأسرة دون أن يقول أتيت بهذا. وحوالي الساعة الثانية من بعد الظهر تأتي أخوات صغيرات وتصحبهن الرئيسة. وهن يتكلمن اللغة الفرنسية بإتقان جيد. وسلالهم ملأى دوماً بكل ما لذ وطاب من صنع أيديهن. والراهبة الرئيسة شابة دون الأربعين من عمرها، وهي لا تبدي شعرها، فقد جمعته تحت قلنسوة بيضاء. وعيناها زرقاوان وحاجباها أشقران، من أسرة هولاندية ذات شأن (حسبما أفاد الدكتور نال). وقد كتبت إلى هولندا لإيجاد طريقة غير طريقة إعادتنا إلى السجن. وقضينا معاً وقتاً طيباً. ولقد استعادتني حكاية هروبنا تكراراً. وكانت تطلب مني أحياناً أن أرويها على الأخوات اللواتي يصحبنها ومن يتقن اللغة الفرنسية. وإذا نسيت، أو قفزت عن تفصيل من التفاصيل، فإنها تذكرني بلطف: هنري لا تستعجل، لقد تخطيت الدراج، أو: لماذا نسيت قصة النمل اليوم، فقصتها هامة جداً إذ بسببها أخذك البروتوني ذو القناع على حين غرة. كنت أقص كل هذا، لأنها لحظات عذبة جداً، وهي، على نقيض ما عشناه، كضوء سماوي يضيء بصورة وهمية، طريق العفن، طريق الزوال.

رأيت المركب. إنه مركب فاخر طوله ثمانية أمتار، ذو حيزوم جيد، وصار مرتفع، وأشرعة واسعة. إنه الشيء حقاً لمكافحة التهريب. فهو مجهز أحسن تجهيز، ولكنه مليء بالأختام الشمعية الجمركية. وفي المزاد العلني، جاء رجل وبدأ بستة آلاف فلورين، أي ما يعادل ألف دولار، وباختصار اشتريناه بستة آلاف فلورين وفلورين، وكان ذلك بعد أن همس الدكتور نال ببضع كلمات في أذن الرجل.

في خمسة أيام كان كل شيء حاضراً، فالمركب مطلي طلاء جديداً، ومتخم بالزاد المرتب في قاع السفينة التي لها نصف سطح، إنها فعلاً هدية تهدى لملك. وكان معنا ست حقائب لكل واحد منا حقيبة وفيها أمتعة جديدة، وأحذية وكل ما يلزم من ملابس وهذه الحقائب منضدة تحت قماش غير قابل لنفوذ الماء، وموضوعة على سطح السفينة.

سجن ريوهاشا

أقلعنا بزوغ الشمس، وقد جاء الدكتور والأخوات الصغيرات لوداعنا، وانفصلنا عن الرصيف في يسر. وساقتنا الريح فوراً، وكان الإبحار طبيعياً.

غربت الشمس قربها وتوقعنا يوماً صافياً. وقد لاحظت أن الشراع كثير على هذا المركب الخفيف، فوضعت في حسابي أن أكون حذراً. جرينا بأقصى سرعة. مركبنا أصيل في سرعته غير أنه غيور ومثير. أخليت جهة الغرب بالضبط. عزم الرجال الثلاثة الذين انضموا إلينا في ترينيداد، على النزول، وهم لا يرغبون في رحلة طويلة. وهم كما قالوا، واثقون بي، ولكنهم غير مطمئنين إلى الأحوال الجوية، وبالفعل، إن النشرات التي قرأناها في السجن، كانت تتوقع أحوالاً جوية سيئة وأعاصير، ولا بد من الإقرار بأنهم على حق. وقد تم الاتفاق بيننا على إنزالهم فوق شبه جزيرة معزولة وغير مأهولة تدعى الكاجيرا، ثم نرجع نحن الثلاثة قاصدين هندوراس البريطانية. كان الطقس رائعاً، والسماء تتلألأ بمصابيحها بعد نهار مصحٍ، والقمر في ربعه الأول وقد يسر لنا قليلاً طريق الرحلة، قصدنا الساحل الكولومبي على خط مستقيم. ألقينا بالمرساة وسبرت العمق شيئاً فشيئاً للتأكد من إمكانية الرسو. ولسوء الطالع كان الغور بعيداً، فوجب أن نقترب من ساحل صخري وفي هذا خطر كبير ونحن نحتاج إلى عمق لا يقل عن مئة وخمسين سنتمتراً. تصافحنا، ونزلوا وعلى رأس كل منهم حقيبة ثم تقدموا نحو اليابسة. وأتممنا العملية باهتمام وفي شيء من الكآبة، فقد كان هؤلاء الرفاق متحابين معنا، وعلى مستوى الظروف والأحوال. ونأسف لمغادرتهم المركب. وبينما كانوا يتجهون صوب الشاطئ، سكنت الريح دفعة واحدة. يا للمحنة. اللهم أن لا يكون أهل القرية قد كشفونا. اسم القرية «ريوهاشا» مدوّن على لوحة.

هذا أول مرسى فيه شرطة، ونأمل أن لا يكون كذلك. ويبدو أننا ابتعدنا عن النقطة المقصودة بسبب المنارة الصغيرة الموجودة على الرأس الذي مررنا به انتظرنا طويلاً وقد توارى الثلاثة عن الأنظار وهم يلوحون لنا بمنديل أبيض مودعين... نريد رياحاً لفكنا من هذه الأرض «الكولومبية» التي هي بالنسبة لنا علامة استفهام. وما يدرينا هل يعود هؤلاء الفارون الثلاثة أم لا. كلنا كنا نفضل الضمان في هندوراس البريطانية على المجهول في كولومبيا.

لم تتحرك الريح إلا في الساعة الثالثة من بعد الظهر وأمكن السفر. فرفعت الشراع على مداه، وجرى بنا المركب رهواً[1] ساعتين، وإذا تمريا[2] محمل بالرجال يتوجه نحونا وانطلقت

(١) سيراً ليناً سريعاً
(٢) مركب للمراقبة والحراسة

منه عبارات نارية في الهواء لإيقافنا، فتشددت ولم أطع، محاولاً الوصول إلى عرض البحر للخروج من المياه الإقليمية، فاستحال ذلك. فهذا المركب القوي تمكن منا بعد أقل من ساعة ونصف الساعة من المطاردة، عشرة من الرجال سددوا نحونا البنادق وأجبرونا على الرجوع.

هؤلاء الجنود أو رجال الشرطة يتميزون بوجوه خاصة، ويرتدون بنطالاً قذراً كان في الماضي أبيض، وقميصاً صوفياً لم يغسل قط، وهم حفاة، ما عدا رئيسهم فهو أحسن كسوة وأكثر نظافة. ولئن كانوا في ثياب رثة فإنهم مدججون بالسلاح.

فهم يحزمون أوساطهم بحزام مليء بالذخيرة، ويحملون بنادق حربية وعلاوة على ذلك يحملون خنجراً في غمده، ولكن مقبضه في متناول اليد، وهذا الذي ينادونه كومندان، له رأس خلاسي مجرم، ويحمل مسدساً كبيراً يتدلى أيضاً من نطاق محشو بالرصاص. ولما كانوا لا يتكلمون إلا الإسبانية، فلم نفهم شيئاً مما يقولون. فلا نظراتهم ولا حركاتهم ولا نغمات أصواتهم توحي بشيء من الود، فكل ما فيهم يوحي بالشحناء والعداوة.

وصلنا إلى ساحة سجن محاط بجدار صغير، وفيها عشرون سجيناً قذراً من ذوي اللحى. وهم بين قائم وقاعد. وبدت البغضاء على عيونهم، وبعضهم يقول: فاموس، فاموس. وكأني بهم يقولون هيا، هيا.

لقد شق علينا أن نرى كلوزيو يمشي وئيداً، والحديد والجص لا يزالان في ساقه وإن تحسنت مشيته عن ذي قبل. الكومندان تخلف عنا ثم أدركنا وبيده البوصلة والشمع، يأكل من أطباقنا وشوكولاتنا، فأدركنا في الحال أن ما عندنا سيغدو نهباً. ولم نخطئ. حبسنا في قاعة كريهة ذات شباك وحديد، والأرض خشبية، وعلى جانب منها نوع من الوسائد الخشبية بدلاً من الأسرة.

وبعد ذهاب رجال الشرطة وإغلاق الباب، سمعنا صوتاً ينادي: أيها الفرنسيون، أيها الفرنسيون! إنه أحد السجناء.

— ماذا تريد؟

— فرنسي. غير طيب، غير طيب.

— غير طيب، ماذا؟

— الشرطة

— الشرطة؟

— نعم. الشرطة غير طيبين.

قال هذا وانصرف.

حل الظلام وأضيئت القاعة بمصباح كهربائي ضعيف التوتر، نور ضئيل، وبدأ البعوض يئز في آذاننا ويحط على أنوفنا. ما أحلاها.. كم كلفنا غالياً إنزال أولئك الرجال. ما

العمل؟.. ما كنا ندري، وخاصة أن الريح قد استعصت علينا.

قال كلوزيو: إنك قد افتريت كثيراً.

— اسكت. ليس الآن وقت تبادل التهم، أو اتهام الآخرين. إنه وقت التكاتف أكثر من أي وقت مضى.

— معذرة يا بابيون. أنت على حق، إنها ليست غلطة أحد.

— إنه لمن الظلم بعد كفاحنا أن نصل في هروبنا إلى هذا المكان الذي لا يقل مرارة.

— لم يفتشنا أحد بعد، وأنبوبة المال في جيبي، ولي أتحمل وضعها في مكانها، وكلوزيو حذا حذوي، وقد أحسنا صنعاً في أننا تداركنا هذا، ومن جهة أخرى هذه حافظة النقود محكمة وليست بذات حجم، ويمكن أن تبقى معنا.

الساعة الآن — على نمة ساعتي — الثامنة مساء، وقد أحضروا لنا سكراً غير مصفى جيداً، فهو بلون الكستناء، قطعة بحجم جمع الكف لكل واحد منا، وما يشبه العلب من عجين الرز المطبوخ بالماء والملح، وقيل لنا: بيونس نوشس.

قال ماتوريت: ربما كان معناها تصبحون على خير.

وفي الغداة قدموا لنا في الساعة السابعة، في الساحة، قهوة فاخرة في إناء خشبي. مر الكومندان حوالي الساعة الثامنة فطلبت منه الذهاب إلى المركب لإحضار بعض حاجياتنا إما أنه لم يفهم، وإما أنه تظاهر بعدم الفهم. كلما أمعنت النظر إليه وجدت فيه وجه قاتل. يحمل في يده اليسرى قارورة في غلاف جلدي، يخرجها ويفتحها ويشرب جرعة ويمتص ثم يمد لي القارورة. ومقابل هذه اللفتة الودية الأولى، أخذتها وشربت. ولحسن الحظ لم أتجرع منها إلا قليلاً، إنها كالنار في مذاقها، كثيرة الكحول، لاهبة، بلعتها في سرعة وبدأت بالسعال، فقرقر هذا الهندي المهجن بالزنجي ضاحكاً. وفي الساعة العاشرة أقبل رجال مدنيون يرتدون كسوة بيضاء، وربطة عنق، وكانوا ستة أو سبعة، ودخلوا بناء يبدو أنه إدارة السجن. فأرسلوا في طلبنا، وكانوا جميعاً جالسين على كراسي نصف دائرية في قاعة تصدرتها لوحة كبيرة لضابط أبيض كثير الزخرفة، إنها صورة رئيس كولومبيا ألفونسو لوبيز.

أحد هؤلاء السادة أجلس كلوزيو وهو يحدثه بالفرنسية ونحن بقينا واقفين.

رجل الإدارة نحيل، له أنف كمنقار النسر، وعليه نظارات مبتورة، ولقد بدأ باستجوابي والترجمان لم يترجم شيئاً إنما قال:

— السيد الذي سيقوم باستجوابك هو قاضي مدينة ريوهاشا، والآخرون هم أصدقاؤه من الأعيان، وأنا الذي أقوم بالترجمة من هايتي، أشرف على أعمال الكهرباء في هذه الولاية، وأتصور أن من بين هؤلاء الرجال من يلم باللغة الفرنسية قليلاً ولو لم يقولوا ذلك، حتى القاضي نفسه.

وصبر القاضي على هذه المقدمة، وبدأ الاستجواب باللغة الاسبانية، وتداول الهايتي الأسئلة والإجابات

ـ أأنت فرنسي؟

ـ نعم.

ـ من أين أتيت؟

ـ من كوراساو

ـ وقبل ذلك؟

ـ ترينيداد

ـ وقبلا

ـ من المارتينيك.

ـ أنت تكذب. لأن قنصلنا أنذرنا منذ أكثر من أسبوع بمراقبة السواحل لأن ستة من الفارين من سجن الإصلاحية في فرنسا، وأنهم سيحاولون النزول عندنا.

ـ حسناً نحن فارون

ـ إذن من كايين؟

ـ نعم

ـ إذا كان بلد نبيل مثل فرنسا طردكم بعيداً وعاقبكم بقسوة، فذلكم أنكم خطرون جداً.

ـ ربما

ـ لصوص أم قتلة؟

ـ مجرمون

ـ سيان. إذن أنتم من الوجهاء أين الثلاثة الآخرون؟

ـ لم يغادروا كوراساو.

ـ تكذب أيضاً. أنزلتهم على بعد ستين كيلومتراً من هنا في بلد اسمه كاستيت ولحسن الحظ أوقفوا، وسيكونون هنا بعد بضع ساعات. هل سرقتم هذا المركب؟

ـ لا. قدمه أسقف كوراساو هدية لنا.

ـ حسناً. ستبقون هنا محتجزين إلى أن تتخذ الحكومة قراراً بشأنكم.

ونظراً لارتكابكم جريمة إنزال ثلاثة من رفاقكم على أرض كولومبية، وبالتالي لمحاولتكم الرجوع إلى عرض البحر، فقد حكمت عليك بالسجن ثلاثة أشهر بوصفك رئيساً، وعلى رفيقيك كل منهما بشهر واحد. اسلكوا سلوكاً حسناً، إن شئتم أن لا تعاقبوا جسدياً على أيدي رجال شرطة قساة. هل لديك ما تقول؟

ـ لا. إنما أريد أن نستعيد حوائجنا وأغذيتنا من على ظهر المركب.

ـ كل هذا مصادر من قبل رجال الجمرك، ما عدا قميصاً وبنطالاً وحذاء لكل منكم، والباقي مصادر، فلا تلحوا، ولا حيلة لكم مع القانون.

ثم انسحبنا إلى الساحة، وتجمع سجناء البلد البؤساء حول القاضي وصاحوا دكتور، دكتور فمر مخترقاً جمعهم وقد امتلأت نفسه صلفاً وكبرياء دون أن يجيب ودون أن يتوقف.

خرجوا من السجن وغابوا عن الأنظار.

وفي الساعة الواحدة وصل الثلاثة الآخرون في شاحنة، يحرسهم سبعة أو ثمانية رجال مسلحين، فترجلوا خجلانين مرتبكين ومعهم حقائبهم، فدخلنا القاعة في رفقتهم.

قال البروتوني: ما أفدح الخطأ الذي ارتكبناه، وجعلناكم تتورطون، ونرجو أن تصفح عنا يا بابيون. إن أردت قتل فافعل. ولن أدافع عن نفسي. لم نكن رجالاً.

فعلنا ذلك خشية البحر، ولكن بعد أن رأينا ما رأينا من كولومبيا وأهلها، بدت أخطار البحر أضحوكة بالنسبة لخطر الوقوع بين أيدي أمثال هؤلاء الرجال. هل وقعتم بسبب انعدام الرياح؟

ـ أجل يا بروتون. ليس لي أن أقتل أحداً، ارتكبنا الخطأ جميعاً، وما كان علي إلا أن أرفض إنزالكم. وما كان شيء من كل هذا قد حصل.

ـ أنت طيب جداً يا بابي.

ـ لا. أنا منصف وحسب.

ثم رويت لهم استجواب القاضي، وأخيراً ربما أطلق الحاكم سراحنا.

ـ يا ليت هذا يحصل. لنأمل، فالأمل سر الحياة. وفي رأيي أن سلطات هذا البلد نصف متحضرة، فهي لا تستطيع اتخاذ قرار لكل حالتنا هذه والقرار يجب أن يكون من سلطة أعلى من أجل بقائنا هنا أو إعادتنا إلى فرنسا، أو إرجاعنا إلى مركبنا لإبعادنا. والطامة الكبرى أن يكون القرار في أيدي هؤلاء الرجال، ونحن لم نرتكب أية جريمة على أرضهم، ولم نلحق الضرر بأحد.

انصرم الأسبوع الأول ونحن على ما نحن عليه، لم يتبدل شيء سوى حديث عن إمكانية نقلنا تحت حراسة مشددة إلى مدينة أكبر تبعد مئتي كيلومتر، واسمها سانتا مارتا. ولم تتغير سحنة رجال الشرطة القراصنة، ولم يتغير موقفهم منا.

بالأمس كاد أحدهم يطلق النار علي لأني أخذت صابونتي من المغسلة. لا زلنا في هذه الغرفة الفاسدة بما فيها من البعوض، ولكنها أنظف مما كانت عليه حين قدومنا لأن ماتوريت والبروتوني كانا يغسلانها كل يوم.

بدأ اليأس يتسرب، إلى نفسي وكدت أفقد الثقة بنفسي، هذا العرق الكولومبي، وهو الهجين من الهندي والزنجي، أو الخلاسي من الهنود والإسبان، الذين كانوا في غابر الأزمان أسياد هذا البلد، قد خيب ظني.

أعارني أحد السجناء الكولومبيين جريدة قديمة صادرة في سانتا مارتا، فرأيت على الصفحة الأولى صورنا نحن الستة وتحتها صورة ضابط الشرطة بقبعته الواسعة المصنوعة من القش، وبين شفتيه سيجار، ثم صورة تضم عشرة رجال من الشرطة مسلحين، ففهمت أن أمرنا قد غدا رواية وقد ضخم الدور الذي لعبه هؤلاء، وكأن كولومبيا بأسرها قد نجت من

خطر عظيم بتوقيفنا، ومع ذلك فإن صور المجرمين أقرب إلى القلب وأملأ للعين من صور رجال الشرطة، فعلى الأقل كان للمجرمين ملامح رجال أشراف أكثر مما كان لرجال الشرطة. فهؤلاء مع الأسف يكفي أن تنظر إلى فاتدعم حتى تفهم.

بدأت أتعلم بضع كلمات إسبانية: الهروب= فوغاوس، السجين= بريزو، قفل= ماتار، السلسلة= كادونا، القيد= اسبوزا، الرجل= أومبره، المرأة= موجير.

الهروب من ريوهاتشا

في ساحة السجن شخص، لا يفارق الحديد يديه، وقد اتخذته صديقاً. كنا ندخن السيجار نفسه. سيجار طويل دقيق وثقيل. المهم أن ندخن. فهمت منه أنه مهرب بين فنزويلا وجزيرة عرابة. وهو متهم بقتل خفر السواحل، وينتظر محاكمته. كان في بعض الأيام يبدو هادئاً، بصورة غريبة، على حين كان الآخرون عصبيين ومهتاجين. وتوصلت إلى الملاحظة التالية: إنه هادئ، عندما يزوره أحدهم وتمضغ أوراقاً يؤتاها. وفي أحد الأيام قدم لي واحدة، ففهمت على الفور، لأن لساني ورقة حلقي وشفتي فقدت الإحساس. فالأوراق أوراق الكوكا.

يبلغ هذا الرجل الخامسة والثلاثين من العمر. له ذراعان أشعران، وشعر صدره غزير أسود فاحم أجعد. حافي القدمين وتعلوهما قشرة سميكة، وكثيراً ما كان ينزع منها قطعاً بزجاجة أو بمسمار يغرزه فيها ولا يصل إلى اللحم، وهو مشهور بقوته.

قلت للمهرب ذات مساء: فوكا أنت وأناء وكنت قبلاً طلبت من الرجل الفايتي لدى زيارته لنا أن يحضر معجماً فرنسياً-إسبانياً، وفهم الرجل وأشار إلي بأنه هو أيضاً يتمنى الهروب، ولكن الأغلال تمنعه من الحركة، إنها أغلال أمريكية ذات فرضة لها شق من أجل المفتاح الذي هو بالتأكيد مفتاح مسطح. صنع البرونزي خطافاً صغيراً من سلك معدني مقاطع الطرف. وبعد عدة محاولات توصلت إلى فتح قيد صديقي الجديد حين أشاء. إنه في الليل وحده في سجن مظلم، قضبانه غليظة، أما القضبان عندنا فهي دقيقة، ويكفي أن نعرجها ونباعد ما بينها. ولا يبقى سوى قضيب واحد للنشر عند الطونيو – الكولومبي يدعى الطونيو – فكيف الوصول إلى منشار صغير

– بلاتا (مال)

– كوانتو (كم؟)
– سانت بيزو
– بالدولارات.
– عشرة
– وباختصار بعشرة دولارات أعطيتها له كان في حوزته منشاران للمعدن. وقد شرحت له بطريقة الرسم على أرض الساحة، أنه في كل مرة ينشر فيها قليلاً، يجب أن يمزج النشارة بشيء من عجينة الرز التي تقدم لنا، ويسد بها الشق جيداً. وفي اللحظة الأخيرة وقبل الدخول فتحت له قيداً واحداً. وإذا ما أرادوا التثبت منها فإنه يضغط عليها قليلاً فتغلق تلقائياً. أمضى ثلاثة أيام في نشر القضيب، وأعلمني أنه في أقل من دقيقة ينهي قطعه، وأنه يستطيع أن يطويه بيديه، وسوف يأتي للقائي. وأفهمني بأن السماء غالباً ما تمطر.
– بريميرا نوشه دي الوفيا (في أول ليلة تمطر فيها السماء) سآتي.

في تلك الليلة نزل المطر مدراراً ، وكان أصحابي على علم بما أخطط ، فلم يتبعني أحد منهم، وهم يظنون أن المنطقة التي سوف أذهب إليها بعيدة جداً.

أريد الذهاب إلى رأس شبه الجزيرة الكولومبية، على الحدود الفنزويلية، وقد كتب على الخارطة التي معنا بأن هذه الأرض تدعى كاجيرا. وهذه الأرض المتنازع عليها لا هي فنزويلية ولا كولومبية.

قال الكولومبي: ايزو اس لاتيرا دولوس انديوس «أي هذه الأرض للهنود» وليس فيها شرطة تابعة لفنزويلا أو كولومبيا. وبعض المهربين يمرون من هناك، والأمر لا يخلو من خطورة لأن الهنود لا يسمحون بدخول رجل متمدن إلى أراضيهم. وكلما توغلنا في الأرض كانوا أشد خطراً.

على الشاطئ، صيادون هنود الذين هم بوساطة هنود آخرين أكثر تحضراً يتاجرون مع قرية كاستيليت، وقرية أخرى.

الطونيو لا يرغب في الذهاب إلى هناك، لأنه هو وبعض أصحابه اشتبكوا في معركة مع الهنود، وقتلوا عدداً منهم إلا اضطروا إلى اللجوء إلى ساحل أرضهم على مركبهم المحمل بالبضائع المهربة.

تعهد الطونيو بمرافقتي إلى نقطة قريبة جداً من كاجيرا، على أن أتابع السير وحدي، وإنه لمن نافلة القول بأنه كد كثيراً ليفهمني لأنه كان يستعمل ألفاظاً غير موجودة في المعجم.

في تلك الليلة كان المطر غزيراً كالسيل وكنت قرب النافذة، وعندي خشبة سأجعلها نقطة ارتكاز لإبعاد القضبان بعضها عن بعض، وبتجربة قمنا بها منذ ليلتين وجدنا أنها تتباعد في سهولة.

ـ لينتو دأي مستعدة

ظهر وجه أنطونيو ملتصقاً بالقضبان، فهصرها وقد عاونه في ذلك ماتوريت والبروتولي فلم تتباعد فقط بل اجتثت من جذورها، فدفعوني بعد أن رفعوني ثم شعرت بضربات على مؤخرتي قبل أن أختفي. فأنا الآن في الساحة، وكان المطر المنهمر كالسيل يحدث ضجيجاً جهنمياً في سقوطه على السطوح المصنوعة من الحديد المصفح.

أخذ أنطونيو بيدي وجرى نحو الجدار، وكانت الوثبة لعبة لأن الجدار لا يرتفع أكثر من مترين، ومع ذلك جرحت يدي بإحدى قطع الزجاج الملصقة في أعلى الجدار. لا بأس هيا إلى الطريق.

هذا القدس أنطونيو تعرف على الطريق وسط هذه الأمطار التي تحول دون الرؤية إلى أبعد من ثلاثة أمتار، واستغل ذلك ليجتاز القرية بأكملها بعزم ثابت. ثم سلكنا طريقاً بين الغابة والساحل، وبعد فترة ضاء جنح الليل قليلاً، ودرنا وقمنا بجولة في الغابة وكانت لحسن الحظ قليلة الكثافة. ثم عدنا إلى الدرب. وبقينا جادين في السير تحت وابل الأمطار حتى انشق عمود الصبح. وكان أعطاني عند رحيلنا ورقة من أوراق الكوكا تمضغتها على نحو ما كان يفعل في السجن. طلع الصباح وأنا لا أحس تعباً. هل كان هذا تأثير الورقة؟ بكل تأكيد. ورغم طلوع النهار فقد ثابرنا على المشي، ومن حين لآخر كان ينبطح ويضع أذنه على الأرض الجارية بالمياه ثم نستأنف السير.

له طريقة عجيبة في المشي، فهو لا يمشي ولا يجري. إنه نوع من القفز الخفيف المتتابع المتوازن، ويؤرجح ذراعيه، وكأنه يجدف الهواء، ويظهر أنه سمع شيئاً فجرني إلى داخل الغابة، والمطر لا يزال يهطل. وبالفعل قد مرت أمامنا مدحلة حجرية يسحبها جرار تستعمل حتماً لبسط الطريق.

الساعة الآن العاشرة صباحاً، والسماء أقلعت والأرض ابتلعت ماءها، والشمس مشرقة. دخلنا الغابة، بعد أن سرنا مسافة كيلو متر على العشب لا على الدرب.

استلقينا تحت نبتة كثيفة جداً محاطة بنبات متشابك كثير الشوك. وظننت أننا أصبحنا في أمان ومع ذلك فإن أنطونيو لم يسمح لي بالتدخين ولا بالتكلم، بصوت منخفض. أنطونيو لم يكف عن ابتلاع عصارة الورق، ففعلت مثله ولكن باعتدال. أرني في جيبه أكثر من عشرين ورقة. عندما يبتسم في الظلال يكشف عن أسنان لامعة جميلة. ما أكثر البعوض هنا، فمضغ سيجاراً ثم لوث وجهه وكفيه بلعابه الملوث بالنيكوتين.

الساعة السابعة مساء، وقد أضاء القمر الطريق. وضع إصبعه عند الرقم ٩ وقال: إيلوفيا (مطر) ففهمت أن المطر سيهطل في الساعة التاسعة. وبالفعل أمطرت السماء في الساعة التاسعة والدقيقة العشرين عاودنا السير، وتعلمت منه القفز أثناء السير والتجديف

بالذراعين لأبقى على مستواه. سرنا سيراً حثيثاً ومع ذلك لم نركض ولم يكن ذلك صعباً. دخلنا في الغابة ثلاث مرات بسبب مرور سيارة ثم شاحنة ثم عربة يجرها حماران. وبفضل هذه الأوراق لم أشعر بالتعب، وطلع الفجر، وتوقف سقوط الأمطار في الساعة الثالثة، وعندئذ عدنا إلى المشي على العشب بتؤدة لمسافة كيلو متر، ثم التجأنا إلى الغابة نختبئ فيها. والزعيم في هذه الأوراق، أننا لا نستطيع نوماً، فلم يغمض لنا جفن منذ ارتحالنا. استحت حدقتا أنطونيو حتى لم يبق لها بؤبؤ. ولا بد أن عيني صارتا كعينيه.

الساعة التاسعة ليلاً والمطر ينهمر وكأنه ينتظر هذا الوقت انتظاراً. وعلمت فيما بعد أنه في خط الاستواء عندما تهطل الأمطار في الربع الأول من القمر في ساعة محددة، فإن هذا يتكرر كل يوم، وكذلك يتوقف في ساعة معينة. سمعنا هذه الليلة في بداية الشوط، صيحات، ثم رأينا أنواراً. قال أنطونيو: هذه كاستيت وبدون تردد أخذ هذا الشيطان بيدي ودخلنا الغابة. وبعد ساعتين من السير الشاق ألفينا أنفسنا على الطريق، نمشي ونقفز بقية الليل وجزءاً كبيراً من النهار، وقد جففت الشمس ثيابنا.

ثلاثة أيام انقضت ونحن مبتلون، ثلاثة أيام لم نأكل خلالها سوى قطعة من السكر غير النقي. هذا هو اليوم الأول الذي يبدو فيه أنطونيو واثقاً من أننا لن نقابل أشراراً. فهو يمشي في اطمئنان، ولم يعد يضع أذنه على الأرض. منذ ساعات ونحن نمشي فوق رمل ندي تنكبنا الطريق، ثم توقف أنطونيو ليفحص أثراً على الرمل، عرضه خمسون سنتمتراً يمتد من البحر حتى الرمل الجاف. فتبعنا الأثر، ووصلنا إلى مكان ازداد الأثر فيه عرضاً وبشكل دائري. غرز أنطونيو عصاه، وعندما سحبها وجد عليها سائلاً أصفر يشبه مح البيض. ساعدته في حفر حفرة بأيدينا، وبعد لأي، ظهر عدد من البيض يتراوح بين ثلاث مئة وأربع مئة. لا أستطيع تحديده. إنها بيوض سلاحف بحرية وليس لها قشور بل غشاء فقط. أخذنا منها ملء القميص، ورعا حمل أنطونيو ما يقارب مئة. خرجنا من الشاطئ، واخترقنا الطريق لندخل الغابة، وفي منأى عن أعين الرقباء جلسنا نأكل. وأشار أنطونيو أن لا آكل سوى الأصفر. كان يشق الجلد الذي يغلف البيضة بأسنانه ويترك السائل الأبيض يسيل ثم يرشف المحة. واحدة لي وواحدة له. تمددنا بعد أن شبعنا غاية الشبع، وقد اتخذنا من معطفنا وسادة. قال أنطونيو:

ـ غداً تتابع السير وحدك مدة يومين ولن يصادفك بعد الآن شرطي.

كان عهدنا بآخر محطة للحدود الساعة العاشرة مساء، عرفناها بنباح الكلاب وبمنزل مضاء تجنبنا هذا المركز بطريقة أشبه بالسحر اتبعها أنطونيو.

سرنا طيلة الليل دون حيطة أو حذر. ولم يكن الطريق عريضاً فهو إلى الممر أقرب، وهو خال من الأعشاب، ومع ذلك فهو مطروق، لا يزيد عرضه على خمسين سنتمتراً. ويمتد محاذياً للغابة ويشرف على الشاطئ، على ارتفاع مترين تقريباً. وكنا نرى في بعض

الأماكن آثار حدوات الخيول والحمير. جلس أنطونيو تحت فرع شجرة كبير، وأشار إلي بالجلوس، وكانت أشعة الشمس حادة، فنظرت إلى ساعتي فكانت الحادية عشرة، ولكن الشمس تشير الى الثانية عشرة. وضبطت ساعتي على ذلك. افرغ أنطونيو كيس أوراق الكوكا فوجد منها سبعاً فأعطاني أربعاً، واحتفظ لنفسه بثلاث. انسحبت قليلاً داخل الغابة، ثم رجعت وبيدي مئة وخمسون دولاراً من عملة ترينيداد، وستون فلورين، فقدمت له المبلغ. فنظر إلي مدهوشاً، ولمس الأوراق، ولم يدرك كيف كانت على هذه الحال من الجفاف والجدة، وهو لم يزل أخفقها بعد كل الذي أصابنا من المطر. فشكر لي. فكر ملياً وهو يتأمل المال الذي بين يديه، ثم أخذ ست أوراق من فئة خمس فلورينات، ورد لي الباقي ورفض المال رغم إلحاحي. وفي هذه الأثناء تغير في نفسه شيء. كنا اتفقنا على أن لا نفترق هنا، ويبدو الآن وكأنه يريد مصاحبتي يوماً آخر، فدار نصف دورة ليفهمني ذلك.

حسناً. ازدردنا بعض مع اليقين واشعلنا سيجاراً، بعد نصف ساعة من الجهد ونحن نقدح حجرين لإحداث شرارة تلهب هشيماً.

انطلقنا وسرنا ثلاث ساعات حين لاقينا رجلاً على جواد مقبلاً نحونا على استقامة واحدة. كانت على رأسه قبعة من القش واسعة، وينتعل حذاء عالياً قليلاً، ولا يلبس بنطالاً بل نوعاً من السراويل الجلدية، ويرتدي قميصاً أخضر وسترة أقل خضرة تشبه ملابس العسكر، وهو مسلح ببندقية قصيرة خفيفة وجميلة جداً، ومسدس كبير في الحزام.

ـ كازامبا، أنطونيو، هيجو ميو، (يا ولدي)

ومن بعيد جداً عرف انطونيو الفارس، ولم يقل لي شيئاً، ولكنه كان يعرف القادم فقد كان واضحاً. ترجل عن جواده. هذا الشهم النحاسي اللون ذو الأربعين عاماً، وتبادل معه ضربات على الأكتاف بدلاً من طريقة العناق. وقد رأيت هذه الطريقة متبعة في كل مكان.

ـ من هذا؟

ـ كومبانيرو دوفوغا (رفيقي في الهروب) إنه فرنسي.

ـ إلى أين تقصد؟

ـ إلى أقرب مكان من الصيادين الهنود

ـ يريد المرور من الأرض الهندية للدخول في فنزويلا، وهناك يبحث عن وسيلة للعودة إلى عرابة أو كوراساو.

ـ كاجيرا الهندية سيئة ولست مسلحاً. خذ.

وأعطاني خنجراً في غمده الجلدي وقبضته مصنوعة من قرن مصقول.

جلسنا على طرف الممر. نظرت فرأيت حذائي ممزقاً والدم يجري من قدمي. وتحدث

أنطونيو والفارسي حديثاً مستعجلاً ووجدا أن خطي باجتياز كاجيرا لا ترضيهما.

أشار إلي أنطونيو بامتطاء صهوة الجواد وحذائي مربوط على كتفي. بقيت حافياً ريثما تجف جروحي. فهمت هذا كله بالإشارة. ركب الفارس جواده وأعطاني أنطونيو يده، ودون أن أفهم شيئاً إذا بالجواد يعدو بي وأنا خلف صديق أنطونيو وساقاي مفرشختان. خب بنا الجواد خبأ الليل كله والنهار كله. وكنا نتوقف بين الفينة والفينة فيقدم لي زجاجة من الأنيسون فأرشف منها قليلاً.

وعندما طلع النهار توقف فأعطاني جبناً قاسياً وكعكتين وستاً من أوراق الكوكا، وأهداني كيساً من نوع خاص لا ينفذ إليه الماء، لأضع فيه هذه الأشياء. فعلقته في نطاقي، وأخيراً عصرني بين ذراعيه، وربت على كتفي كما فعل مع أنطونيو ثم جرى يسابق الريح.

الهنود

ثابرت على المشي حتى الساعة الواحدة من بعد الظهر، فما لاحت لي في الأفق غابة ولا شجر. كان البحر يتموج بلألاء فضي تحت أشعة شمس لاهبة. مشيت حافياً، ولا زال حذائي على كتفي الأيسر منذ أن كنت على ظهر الحصان. وفي اللحظة التي عزمت فيها على النوم، لاحت لي من بعد خمس أو ست شجرات أو صخور فحاولت تقدير المسافة: ربما كانت عشرة كيلومترات. تناولت نصف ورقة كبيرة وصرت أمضغها أثناء سيري بخطوات واسعة. وبعد ساعة ميزت هذه الأشياء فكانت أكواخاً سقفها من القش أو من أوراق النبات بلون كستناوي. ومن إحداها يتصاعد دخان. ثم رأيت أناساً ورأوني، وسمعت أصواتاً ورأيت إشارات تقوم بها جماعة باتجاه البحر، وحينئذ رأيت أربعة مراكب تقترب من الشاطئ، في سرعة، ونزل منها عشرة رجال تقريباً. تجمع الناس أمام الأكواخ وأخذوا ينظرون نحوي فرأيت رجالاً ونساء عراة إلا من أشياء تتدلى من أمام وتستر عوراتهم. خطوت نحوهم ببطء ثلاثة منهم كانوا يحملون الأمراس ويمسكون بالسهام بأيديهم.

لا إشارة ولا ترحيب ولا صداقة بل وسرعان ما انقض علي كلب كان ينبح كالمسعور، وعضني في أسفل الربلة[1] من ساقي وانتزع قطعة من بنطالي، ثم أعاد الكرة

(١) بطة الساق.

وهجم على فأصابه سهم صغير في مؤخرته، ولم أدر مصدره، فولى هارباً وهو يهر، ثم دخل أحد البيوت.

اقتربت وأنا أعرج إذ لم يكن مازحاً في عضته، وأصبحت على بعد عشرة أمتار من الجماعة. لم يتحرك أحد، ولم يتكلم أحد. والأطفال خلف أمهاتهم. أجسامهم عارية نحاسية اللون مفتولة العضلات بديعة. وللنساء أثداء ناهدة وجاملة كبيرة الحلمات، ورأيت واحدة فقط ذات ثديين كبيرين ومتهدلين. كان أحدهم نبيلاً جداً في هيئته. وتقاطيعه الدقيقة تنم عن عراقة أصله، ونبل محتده لا مراء في ذلك. اتجهت نحوه مباشرة ولم يكن معه قوس ولا سهم. طوله بقدر طولي. شعره مقصوص بطول شعر حاجبه أذناه يغطيهما شعر أسود آتٍ من الخلف حتى أعلى شحمة الأذنين. عيناه رماديتان بلون الحديد. ليس في صدره شعر، ولا في ذراعيه ولا ساقيه، فخذاه النحاسيتان مفتولتا العضلات، وساقاه متناسقتان ودقيقتان، وقدماه عاريتان. توقفت على بعد ثلاثة أمتار منه، وتقدم مني خطوتين ونظر في عيني، ودام هذا الفحص دقيقتين. وجهه الخالي من التجاعيد لم يتحرك، فكأنه تمثال نحاسي بعينين براقتين، حازمتين ثم ابتسم ولمس كتفي، وتبعه في ذلك الآخرون، فأخذوا يلمسونني بأيديهم. ثم أخذتني فتاة هندية من يدي وأدخلتني إلى ظل كوخ، وهناك كشفت بنطالي عن ساقي، والجميع من حولها قاعدون. مد لي أحدهم سيجاراً مشتعلاً فتناولته وبدأت بالتدخين. وهم أيضاً يدخنون نساء ورجالاً. مكان العضة لم يرقأ جراحه، وقد انقطع من لحمي قطعة، بحجم مئة الفلس. نزعت الفتاة الشعر وغسلت الجرح بماء البحر الذي كانت تأتي به فتاة هندية أخرى، وكانت تضغط عليه لتوقف النزف ولم تكتف بذلك بل راحت تحك الفجوات التي وسعتها بقطعة من الحديد مسنونة، وكنت أبذل جهداً لكي أثبت ولا أتحرك، لأن عيون القوم ترمقني، وجاءت فتاة أخرى لتساعدها فكانت تزاحمها بعنف، وإزاء هذه الحركة أغرق الجميع في الضحك، أدركت أنها تريد أن تفهم الأخرى بأني لها وحدها، وهذا ما سبب لها الضحك. ثم قصت ساقيّ البنطال إلى ما فوق الركبتين، وهيأت على حجر آنية بحرية أحضرت لها ووضعتها على الجرح، وضمدته بعصابة شقتها من بنطالي. وقد سرت بعملها هذا فأشارت إلى أن أنهض فنهضت، وتركت سترتي. ومن فتحة القميص شاهدت وشم فراشة كان في أسفل عنقي. نظرت ثم كشفت عن وشم آخر، ثم نزعت بيديها قميصي واهتم الجميع نساء ورجالاً بما في صدري من الوشم، إذ كان على اليمين وشم سجين من كالفي. وعلى اليسار رأس امرأة، وعلى المعدة رأس نمر، وعلى العمود الفقري وشم بحار مصلوب. وعلى عرض الظهر مما يلي الكليتين وشم صيد النمور، مع الصيادين وأشجار النخيل، والأفيال، والنمور. ولما رأى الرجال هذا الوشم أبعدوا النساء وأخذوا يتلمسون الوشم بدقة وأناة. وكل واحد يتأمل وشماً، وصاروا يبدون آراءهم بعد أن أبدى الرئيس رأيه.

ومنذ هذه اللحظة تبنتني العشيرة، وتبنتني النساء منذ اللحظة التي ابتسم فيها

الرئيس ولمس كتفي. دخلنا أكبر الأكواخ. وكنت في غاية العجب. الكوخ مستدير، ومبني من الطين الأحمر القرميدي، وله ثمانية أبواب، وفي الداخل تحمل الألواح الخشبية أسرة أرجوحية موشحة بألوان زاهية ومصنوعة من الصوف الصافي، وفي الوسط حجرة ملساء مستديرة وحولها حجارة مسطحة للجلوس عليها. وعلى الجدران علقت بندقيات ذات فوهتين، وسيف حربي، وقسي من مختلف المقاييس، ولفت نظري غلاف سلحفاة ضخمة يستطيع رجل أن ينام فيه. ومدفأة من الحجارة المصفوفة بعضها فوق بعض في أبدع ترتيب، وقد بدت متجانسة لا أثر فيها للاسمنت. وعلى المنضدة نصف قرعة في قاعها مقدار حفنتين أو ثلاث من اللؤلؤ. سقوني في إناء من خشب شراباً مصنوعاً من الفاكهة المخمرة، فهو لاذع حلو وطيب جداً. ثم أحضروا لي على ورقة موز، سمكة مشوية على الجمر وتزن كيلو غرامين. دعيت إلى الطعام، فأكلت بتمهل. وعندما انتهيت من هذه السمكة اللذيذة قامت المرأة تأخذني من يدي إلى الشاطئ، لأغسل يدي وفمي بماء البحر ثم عدنا. وبينما كنا جالسين على شكل دائري كانت الفتاة الهندية تضع يدها على فخذي، وكنا نحاول تبادل المعلومات عن أنفسنا بالإيماء والكلام.

نهض الرئيس فجأة ودخل إلى آخر الكوخ وعاد وبيده قطعة من الحجر الأبيض وبدأ يرسم على المنضدة: رسم أولاً هنوداً عراة وبيوتاً وبحراً، وعلى يمين القرية الهندية رسم بيوتاً ذات نوافذ ورجالاً ونساء بالملابس. الرجال يحملون بندقية أو عصا، ورسم على يسار القرية قرية أخرى رجالها يحملون البنادق، ويضعون على رؤوسهم القبعات ووجوههم قذرة ونساؤهم مستترات. ولما أمعنت النظر لاحظ أنه نسي شيئاً وهو الطريق من قريتهم إلى تلك القرية، ولشرح وضع هاتين القريتين بالنسبة إلى قريته، رسم من جهة فنزويلا على اليمين شمساً ممثلة بدائرة، وخطوطاً تصدر عن محيطها، ومن جهة القرية الكولومبية رسم شمساً يقطعها الأفق بخط متعرج. فلا مجال للخطأ: فالشمس تشرق من جهة وتغرب من جهة أخرى. نظر الرئيس الشاب إلى عمله بفخر، وأقبل الحاضرون كل بمفرده ينظر إلى الرسم. ولما آنس مني أني فهمت الذي أراده كله، أخذ قطعة الطباشير وغطى القريتين بخطوط وأمسك قريته. ففهمت بأنه يريد القول بأن أهل القريتين أشرار، ولا يريد أن تكون له بهما صلة، وأهل قريته وحدهم طيبون. ولمن يقول هذا الكلام؟!!

مسح المنضدة بقطعة صوفية مبللة، وحين جفت وضع بيدي قطعة الطباشير، فقد جاء دوري بالحديث عن نفسي بطريقة الرسم.

فصتي أعقد مما رسم. رسمت رجلاً مكبلاً، بين رجلين مسلحين ينظران إليه ثم رسمت الرجل نفسه وهو هارب والمسلحان يلاحقانه والبندقية مسددة نحوه، وكررت هذا الرسم ثلاث مرات، وفي كل مرة تبعد المسافة بينه وبينهما، وأخيراً توقف الرجلان، وأنا أتابع الركض نحو قريتهم التي رسمها، مع الهنود والكلب، يتقدمهم رئيسهم وقد بسط لي ذراعيه، ولم يكن ما رسمت على درجة من الضعف، إذ بعد حوار جرى بين الرجال فتح

الرئيس في ذراعيه كما في الرسم. إذن فهموا كل شيء. في الليلة ذاتها اقتادتني الهندية إلى كوخها حيث يعيش معها ست هنديات وستة هنود. وأقامت سريراً كالأرجوحة، مصنوعاً من الصوف المبرقش، وهو عريض يتسع لاثنين. استلقيت عليه باتجاه الطول. أما هي فقد استلقت على سرير آخر ولكن باتجاه معاكس، ففعلت مثلها، ثم جاءت تضطجع إلى جانبي، فلامست جسدي وأذني وعيني وشفتي بأصابعها الطويلة الدقيقة ولكنها خشنة ملأى بالجروح الملتئمة، أصابع صغيرة غير أنها ذات آلام وذلك من جراء الاحتكاك بالمرجان أثناء الغوص على اللؤلؤ. وعندما أخذت يدي أدهشتها طراوتها ورقتها وخلوها من الخشونة وبعد ساعة أمضيناها في السرير. نهضنا وتوجهنا إلى كوخ الرئيس، فعرضت على البندقيات لأتفحصها، وهي من عيار اثني عشر وستة عشر، من صنع سانت اتيين، ومعها ست علب من العيارات النارية.

كانت هذه الهندية متوسطة الطول، ولها عينان رماديتان بلون الحديد كعيني الرئيس، وجانب وجهها صاف جداً، وشعرها مجدول طويل يصل إلى وركها، ونهداها رائعا التكوين عاليان على شكل إجاصة، وحلمتاهما أشد سواداً من جلدها النحاسي. ولم تكن تعرف التقبيل بل تعض عضاً خفيفاً متكرراً فعلمتها التقبيل المتحضر.

إذا سرنا معاً كانت ترفض المشي إلى جانبي بل تمشي خلفي ولا حيلة في هذا.
أحد هذه الأكواخ كان خالياً في حالة سيئة. وبمساعدة نساء أخر رتبت سقفه بأوراق النارجيل (جوز الهند)، وصلحت الجدار بعجينة ترابية حمراء.

عند الهنود أنواع من الحديد القاطع: سكاكين، خناجر، سيوف، فؤوس، معازق، مذاري، ومصنوعات متفرقة من النحاس والألمنيوم، ومرشات ماء، وأفران، وبراميل حديدية وخشبية وأسرة أرجوحية من الصوف متسعة جداً، ومزخرفة ومضفورة الحواشي، وذات رسوم ملونة من الأحمر القاني إلى الأزرق الفيروزي، إلى الأصفر الكناري، إلى الأسود.

سوف يتم تجهيز المنزل قريباً، وشرعت الفتاة تحضر أشياء قدمها لها الهنود (حتى جلى الحمار) قدموا حجراً منصوباً فوق ثلاثي الأرجل لإيقاد النار، وسريراً أرجوحياً يتسع لأربعة، وأكواباً.. وقدوراً.. الخ.

كنا نتبادل المداعبات منذ خمسة عشر يوماً أي منذ وصولي، ولكنها كانت تقاوم بعنف، التمادي حتى النهاية، ولا أدري ما السبب؟ لأنها هي التي تثيرني وفي اللحظة السعيدة ترفض. وبدون أي نوع من المراسم ظللنا تحت سقف هذا الكوخ.

كان لمنزلنا الجديد ثلاثة أبواب أحدها في مركز الدائرة، والبابان الآخران متقابلان. وهذه الأبواب الثلاثة على دائرة البيت المستدير تشكل مثلثاً متساوي الساقين، ولهذه الأبواب استعمالاتها.

أنا أستعمل في دخولي وخروجي الباب الشمالي، وهي عليها أن تدخل وتخرج من الباب الجنوبي فلا ينبغي أن أدخل من بابها، ولا ينبغي لها الدخول من بابي، والباب الكبير لا يدخله أحدنا إلا مصحوباً بأصدقاء أو زائرين. وعندما أوينا إلى بيتنا صارت لي.

ولا أريد الدخول في التفاصيل فقد أصبحت لي حبيبة ملتهبة تلتف بي التفاف العريشة بالعود وبالخفية عن الجميع بغير استثناء، كنت أمشط شعرها وأجدله، وكانت تبدو على وجهها سعادة يعجز عنها الوصف. وفي الوقت نفسه كانت تخشى أن يفاجئنا أحد. لأنني فهمت أن الرجل لا يجوز له أن يمشط شعر زوجته ولا أن يملك بينها بحجر الخفاف ولا أن يقبلها بصورة ما في فمها. هكذا أنا ولالي (وهذا اسمها) في بيت. والذي أثار عجبي هو أنها لم تكن تستعمل الأواني المصنوعة من الحديد أو الألمنيوم وما كانت تشرب في كأس، بل تؤثر الأواني الفخارية المطبوخة والتي صنعوها بأيديهم. المرش يقع في الاستحمام. أما الاسترخاء فقد كان في البحر.

شهدت فتح الأصداف بحثاً عن اللؤلؤ، والنساء المتقدمات في السن يقمن بهذا العمل. ولكل امرأة تصطاد اللؤلؤ كيس، ويوزع المحصول على الشكل التالي: نصيب للرئيس، مثل المشاركة، ونصيب للصياد، ونصف النصيب للتي تفتح الأصداف ونصيب ونصف للتي تغوص، وإذا كانت الغواصة تسكن مع أسرتها فإنها تعطي لأقاربها نصيبها. ولم أفهم أيضاً لماذا يدخل العم أول من يدخل إلى بيت الراغبات في الزواج، ويأخذ بيد الفتاة، ويطوف بها حول الشاب، ويضع ذراع الرجل الأيمن حول خصر المرأة، والسبابة من الأمام تدخل في السرة، وإذا ما أنجز هذا، انصرف.

إذن حضرت فتح الأصداف، ولكنني لم أشهد الصيد، إذ لم أدع إلى ركوب الزورق. إنهم يصيدون بعيداً عن الشاطئ، مسافة خمس مئة متر تقريباً. وتعود لالي في بعض الأيام والخدوش تغطي ساقيها أو جنبيها بسبب المرجان، وقد يسيل دمها من هذه الخدوش وعندئذ تسحق أشنة بحرية وتدعكها على الجرح.

لم أكن أفعل شيئاً دون دعوة، بالإشارة، إلى فعله. وما كنت أدخل منزل الرئيس إذا لم يشدني أحدهم، أو هو نفسه، من يدي.

لالي يخامرها شك في أن ثلاثاً من أترابها، يستلقين على العشب، ويختلسن النظر أو يسترقن السمع، لما نفعل أو نقول، عندما نكون وحدنا في البيت.

رأيت بالأمس الرجل الهندي الذي يقوم بالاتصال بين القرية الهندية وأول نقطة حدود كولومبية، على بعد كيلو مترين من مركز الحدود، وتسمى هذه القرية لاقيلا، وكان لهذا حماران. ولا يعرف كلمة اسبانية واحدة فكيف إذن يجري التبادل؟

كتبت على ورقة، مستعيناً بالمعجم، الحاجات التالية: إبر خياطة، حبر صيني أزرق

وأحمر، خيطان، وذلك لأن الرئيس طلب مني مراراً أن أرسم له وشماً.

رجل الاتصال هذا، قصير ونحيل، في جذعه أثر لجرح رهيب يمتد من الأسفل إلى الكتف الأيمن وقد التأم هذا الجرح تاركاً ندبة ضخمة كالإصبع.

توضع اللآلئ في علبة سجائر، والعلبة مقسمة أقساماً وتفرز اللآلئ فيها بحسب حجومها. عندما ذهب الهندي، رافقته بترخيص من الرئيس الذي أعارني بندقية ذات فوهتين، وست طلقات نارية، وذلك ليضمن رجوعي، لأنه يعلم بأني لا أهرب ومعي أشياء ليست تخصني. لم يكن الحماران محملين، فركبت على أحدهما وركب الرجل على الحمار الآخر. سرنا طيلة النهار على نفس الطريق التي سلكتها في قدومي، إلى مسافة تقصر عن مركز الحدود بمقدار ثلاثة أو أربعة كيلو مترات. أدار الهندي ظهره نحو البحر، ثم توغل داخل الأرض وفي حوالي الساعة الخامسة وصلنا إلى حافة جدول حيث توجد منازل للهنود، فاقبلوا جميعاً ليروني، وتكلم أحدهم كلاماً طويلاً إلى أن حضر شخص ذو ملامح هندية: الأنف والعينان والشعر، ما عدا اللون، فقد كان أبيض بياضاً كامداً، وعيناه عزلوان بلون الأبنوس يرتدي بنطالاً من الكاكي. وهنا فهمت أن مرافقي الهندي لا يذهب إلى أبعد من هذا المكان.

قال لي الهندي الأبيض: هل أنت القاتل الذي هرب مع أنطونيو؟ إنه قريبي برباط الدم الممتزج.

ولكي يرتبط رجلان بهذا الرباط، يربطان ذراعيهما متلاصقين، ثم يجري كل منهما مديته على ذراع الآخر ويغرسها قليلاً، ثم يضرج ذراع صاحبه بدمه هو ثم يلعق كل منهما دم الآخر.

ــ ماذا تريد؟

ــ أريد إبراً وحبراً صينياً أزرق وأحمر ولا شيء آخر.

ــ سيصلك هذا خلال الربع الأول من القمر.

إنه يتكلم الإسبانية خيراً مني، ويعرف كيف ينشئ علاقات مع المتحضرين، وكيف يعظم التبادل مدافعاً عن مصالح عشيرته في حماسة. وقدم لي قبل أن نفترق عقداً مصنوعاً من قطع الفضة الكولومبية، فضة ناصعة البياض، وقال: هذا من أجل لالي ثم أردف: عد لأراك. ولكي يتأكد من عودتي أعطاني قوساً.

رجعت وحدي. وفي منتصف الطريق، التقيت بلالي وفي صحبتها إحدى أخواتها وهي صغيرة لا يزيد عمرها على ثلاثة عشر عاماً، أما لالي فتبلغ من العمر سبعة عشر عاماً. وما أن أدركتني حتى انقضت علي كالمجنونة، وأخذت تخدش صدري بأظافرها، فحجبت وجهي عنها، ثم أشبعتني نهشاً وعضاً في عنقي، وقد بذلت جهداً في الإمساك بها مستخدماً كل ما أملك من قوة. ثم سكنت فجأة. أركبت الصغيرة على الحمار، ومشيت

أنا ولالي خلفها متشابكين رأيت في الجو في عتمة الليل عينين براقتين فأطلقت النار عليهما دون أن أعرف أي شيء، هنا فسقطت شوحة. وحرصت لالي على أخذها فعلقتها بسرج الحمار.

وصلنا القرية سحراً، وكنت مرهقاً، وأردت أن استحم فتولت لالي غسلي، ثم اغتسلت هي وأختها، وعندما دخلنا جلسنا بانتظار غليان الماء لصنع شراب من الليمون والسكر وبعد أن بانت الصغيرة شرحت لي الكبرى بأنها ظنت أني أسعى للحصول على معلومات لكي أرحل عن القرية وظنت أيضاً بأنني غير سعيد معها، وربما تمححت أختها في اجتذابي.

استيقظت وأصابع لالي تداعب أجفاني. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، والصغيرة غائبة. ونظرت لالي إلي في حنان وحب بعينيها الواسعتين، وكانت سعيدة لأنها عرفت حبي لها، وأني لم أذهب راغباً عنها.

جلس أمام الباب، الهندي الذي اعتاد أن يقود زورق لالي. فهمت أنه بانتظارها، فابتسم لي وأغمض عينيه بإمالة مضحكة جميلة وكأنه يقول: أعلم أنها نائمة. جلست إلى جانبه، وتحدث عن أشياء لم أفهمها. إنه شاب ضليع، عريض المنكبين، جلي العضلات وكأنه أحد قدامى المصارعين. صار يتأمل وشمي بإمعان ويفحصه، ثم أشار إلي بأنه يرغب في الوشم فأومأت إليه برأسي أن نعم، وربما فهم مني أنني لا أعرف.

وصلت لالي، وجسمها مطلي بالزيت، وهي تعلم أني لا أحب هذا، وأفهمتني أن الماء في هذا الطقس الغائم بارد. هذه الحركات المضحكة حيث تخلط الجد بالهزل، كانت جميلة، وقد طلبت منها أن تكررها مراراً متظاهراً بأني لم أفهم. ولما أشرت إليها أن تعيد مطت شفتيها عابسة، وتقصد بذلك في وضوح: ألست غبي، أم أنا عاجزة عن التعبير عن سبب وضع الزيت؟

مر بنا الرئيس تصحبه هنديتان تحملان ضباً أخضر ضخماً قد تبلغ زنته خمسة كيلو غرامات. وهو يحمل قوساً وسهاماً، وكان قد اصطاده بسهم، ودعاني إلى الطعام بعد قليل.

كانت لالي تتكلم وهو يلامس كتفي ويشير إلى البحر، وكأنه يقول لي: باستطاعتك أن تذهب مع لالي إن شئت.

ذهبنا معاً نحن الثلاثة: لالي، ورفيقها في الصيد، وأنا. كان المركب صغيراً خفيفاً مصنوعاً من الخشب وقد وضع في الماء بسهولة، إذ ساروا في الماء حاملين الزورق على الأكتاف، وتوغلوا في البحر. والإبحار عملية غريبة. أولاً يصعد الهندي من الخلف وبيده مجداف كبير، ولالي تمسك بالزورق والماء يغمرها إلى صدرها، فتحفظ توازنه وتمنعه من العودة إلى الشط ركبت وجلست في الوسط. وفي اللحظة التي قفزت فيها لالي إلى سطح

الزورق كانت ضربة مجداف الهندي تدفعنا نحو البحر. وكانت الأمواج تأخذ شكلاً أسطوانياً وتزداد ارتفاعاً كلما تقدمنا في البحر. وصل بعد خمس أو ست مئة متر من الشاطئ، ممر ضيق وعميق، تتواجد عنده سفينتان للصيد. ربطت لالي ضفائرها برأسها بوساطة خمس شرائط جلدية حمراء، ثلاثة على خط عرض الرأس والثنتان على خط طوله. وكان بيدها سكين قوية. علقت لالي قضيباً حديدياً يزن خمسة عشر كيلو غراماً كان يستخدم كمرساة، أنزله الرجل إلى العمق. بقي المركب راسياً ولكنه غير هادئ، فهو يعلو ويهبط مع كل موجة. كانت لالي تنزل إلى العمق ثم تصعد خلال ثلاث ساعات، والعمق غير مرئي ولكن يمكن تقديره بالوقت الذي يستغرقه نزول لالي فهو على بعد خمسة عشر متراً أو ثمانية عشر. وفي كل مرة كانت تخرج محارات في الكيس، والهندي يفرغه في الزورق، وتتعلق لالي بحافة الزورق مدة خمس أو عشر دقائق لتستريح.

غيرنا المكان مرتين، وفي المرة الثانية كانت الحصيلة أكثر والمحارات أكبر. عدنا إلى اليابسة والموجة تدفعنا نحو الشاطئ، وكانت العجوز بانتظارنا، تركنا لها نقل المحار إلى الرمل، وساعدها الهندي في ذلك، وبعد الانتهاء منعت لالي العجوز من فتحها، وهي التي بدأت بهذا بطرف سكينها. فتحت ثلاثين محارة في سرعة قبل أن تجد لؤلؤة واحدة. وغني عن القول إنني التهمت منها ما لا يقل عن أربع وعشرين محارة. ولا بد أن الماء في قاع البحر بارد لأن لحمها بارد.

استخرجت لالي بهدوء لؤلؤة بحجم حبة الحمص المشوي (القضامة). ما أشد لمعانها، وهبتها الطبيعة هذا التدرج في التغير، لتكون ملء العين. تناولت لالي اللؤلؤة بين أصبعها فوضعتها في فمها، احتفظت بها برهة ثم اخرجتها لتضعها في فمي. وفهمت بسلسلة من حركات فكها أنها تريد مني أن أهرسها بين أضراسي ثم أبتلعها، ولم أستطع معصيتها أمام توسلاتها العذبة فسحقت اللؤلؤة بين أسناني وابتلعت حطامها. ثم فتحت أربعاً أو خمساً وأعطتنيها لأزدردها، طامعة في أن تنزل اللؤلؤ في أحشائي جيداً. أرقدتني على الأرض كطفلة وفتحت فمي لتتأكد من أنه لم يبق شيء بين أسناني. وأخيراً ذهبنا تاركين الآخرين بعملان. أنا هنا منذ شهر، ولا يمكن أن أخطئ، لأنني في كل يوم أسجل اليوم والتاريخ على ورقة.

وصلت الإبر مع الحبر الصيني الأحمر والأزرق والبنفسجي. واكتشفت عند الرئيس أمواساً للحلاقة لم تستعمل قط، فالهنود مرد. أحد هذه الأمواس يصلح لقص الشعر مدرجاً. وشمت الرئيس زاتو على ذراعه. رسمت له رجلاً هندياً، على رأسه ريش من كل الألوان، وكان مفتوناً بهذا وطلب مني أن لا أرسم وشماً لأحد قبل أن أنتهي من وشم صدره. يريد وشم رأس النمر كالذي في صدري، بأنيابه الكبيرة. ضحكت لأنني لا أحسن رسماً جميلاً كهذا.

كانت لالي قد نتفت شعر جسمي كله، فهي لا تكاد ترى شعرة حتى تبادر إلى

نزعها، وتدلك مكانها بأشنة البحر ممزوجة بالرماد. ولكن الشعر ينبت من جديد، وبشكل أقوى على ما بدا لي.

هذه (التعاونية) الهندية تسمى كاجيرا. يعيشون على الشاطئ، وفي السهل حتى أسفل الجبل، وفي الجبال تعيش جماعات أخرى حياة جماعية تسمى موتيلون.

الكاجيرو كانوا، كما أسلفت، على اتصال غير مباشر بالحضارة، عن طريق وسيط التبادل. فجماعة الشاطئ يصدرون اللؤلؤ والسلاحف الكبيرة الحية التي قد تزن إحداها مئة وخمسين كيلو غراماً تقريباً، ومع ذلك فهي لا تجاري في وزنها سلاحف أورينوتو أو ماروني التي يصل إلى أربع مئة كيلو غرام. وغلاف جسمها قد يصل إلى مترين طولاً وإلى أكثر من متر عرضاً إذا وضعت السلحفاة على ظهرها فلا تستطيع حراكاً. رأيت البعض منها تنقل بعد ثلاثة أسابيع من قلبها على ظهورها وقد تركت بغير طعام ولا شراب، ولم تمت.

أما الضب الأخضر الكبير، فهو لذيذ المأكل، ولحمه لذيذ وأبيض وطري، وكذلك البيوض التي تشوى في الرمل، ذات طعم شهي، غير أن شكله لا يفتح الشهية.

كلما عادت لالي من الصيد جاءت بنصيبها من اللؤلؤ فأعطتني إياه. وكنت أضعه في كأس من الخشب دون فرزها، يختلط أكبرها بأوسطها بأصغرها. ولكن لي على حدة لؤلؤتين ورديتين، وثلاثاً سوداً، وسبعاً رمادية بلون المعدن، رائعة الجمال وكلها موضوعة في علبة أعواد ثقاب. وعندي كذلك لؤلؤة ضخمة نادرة المثال على شكل الشمشة وبحجم الشمشة الحمراء أو البيضاء في بلدنا. هذه اللؤلؤة الفريدة من نوعها ذات ألوان ثلاثة متوضعة بعضها فوق بعض وبحسب الجو يطغى أحدها على اللونين الآخرين: الطبقة السوداء، أو الطبقة الفولاذية اللون الضاربة إلى السمرة، أو الطبقة الفضية ذات الانعكاس الوردي.

وبفضل اللآلئ أو السلاحف فإن القبيلة لا ينقصها شيء، بل إنها تملك أشياء لا تخدمهم في شيء، على حين أن آخرين قد ينتفعون بها، وهم يفتقرون إليها. مثال ذلك إنه لا توجد في العشيرة مرآة واحدة. وقد حصلت في مركب غارق، على خشبة مربعة طول ضلعها أربعون سنتمتراً، ومطلية من أحد وجهيها بالنيكل، فاستعضت بها عن المرآة لأرى وجهي عند الحلاقة.

سياستي بالنسبة إلى أصدقائي كانت سهلة، فما كنت أفعل شيئاً ينتقص من سلطة الرئيس ومعرفته وكذلك بالنسبة إلى عجوز هندي يعيش وحيداً على بعد أربعة كيلو مترات في داخل الأرض، محاطاً بالأفاعي ومعزتين واثني عشر خروفاً ونعجة. إنه الساحر عند مختلف قرى كاجيرا. هذا الموقف أزال عني حسد الحساد، وأبعد نظرة السوء، حتى أصبحت بعد شهرين محبوباً من الجميع بغير استثناء، وفاتني أن أقول إن الساحر كان يملك أيضاً عشرين دجاجة. فإذا علمنا أن ليس في القريتين اللتين أعرفهما، دجاج ولا غنم، ولا معز أدركنا أن اقتناء حيوانات أليفة يعد امتيازاً من الساحر.

ففي كل صباح كانت تذهب كل هندية بدورها إلى الساحر تحمل له في سلة على رأسها سمكاً وقواقع بحرية حديثة العهد. ويحملن له أيضاً كعكاً من طحين الذرة الصفراء مصنوعاً في صباح اليوم نفسه ومشوياً على حجارة محاطة بالنار. وأحياناً، وليس دائماً، كن يرجعن بشيء من البيض واللبن الرائب. وعندما رغب الساحر في أن أذهب لرؤيته أرسل لي ثلاث بيضات وسكيناً خشبية مصقولة، وقد صحبتني لالي إلى منتصف الطريق، ثم جلست تنتظرني تحت ظل أشجار الصبار الضخمة. وضعت السكين الخشبية في يدي وأشارت بذراعها إلى اتجاه السير.

يعيش العجوز الهندي في قذارة كريهة في خيمة مصنوعة من جلد البقر المشدود ووجهها المستور بالأوبار نحو الداخل. في الوسط ثلاثة أحجار، ونار يحس المرء أنها لا تنطفئ. وهو لا ينام في سرير أرجوحي ولكن فوق سرير مصنوع من الأغصان يعلو فوق الأرض بمقدار متر تقريباً. الخيمة واسعة بعض السعة، فوق مساحة تزيد على عشرين متراً مربعاً، وليس لها جدران باستثناء بعض الأغصان من الجهة التي تأتي منها الريح. رأيت أفعيين طول إحداهما ثلاثة أمتار، وبضخامة الذراع، وطول الثانية متر واحد، وعلى رأسها ما يشبه الرقم ٧ بلون أصفر.

لا أفهم كيف تستطيع أن تجد الحماية تحت هذه الخيمة، عنزات ودجاجات ونعجات، والحمار أيضاً.

تفحصني الهندي من كل النواحي، وسألني أن أخلع بنطالي القصير الذي قصته لالي. ولما تعريت كالدودة، أجلسني على حجر قريب من النار. ألقى على النار أوراقاً خضراً فأثارت دخاناً وفاحت منها رائحة النعناع، وكاد الدخان يخنقني، فلم أسعل واستمر هذا ما يقرب من عشر دقائق، وبعد هذا أحرق بنطالي، وأعطاني شيئين لستر العورة، أحدهما من جلد الخروف والآخر من جلد الحية، لين كالقفاز. وأدخل في ذراعي سواراً جلدياً مضفوراً من جلد الخروف والماعز والأفعى، عرضه عشرة سنتمترات ويثبت بقدٍّ من جلد الأفعى، ويشد أو يرخى حسب الرغبة.

كان في عقب الساحر الأيسر، قرح كبير، بحجم قطعة الفرنكين، يغطيه الذباب، ومن وقت إلى آخر يذبه، وحينما يحس بالضيق يذر الرماد على الدمل. وبعد أن احتضنني الساحر هممت بالإنصراف، فأعطاني سكيناً من خشب أصغر من السكين التي أرسلها لي وقد شرحت لي لالي بأنه في حال رغبتي في رؤيته يجب أن أرسل له السكين الصغيرة وإذا رضي بمقابلتي أرسل لي السكين الكبيرة. فارقت هذا الرجل العجوز جداً، وقد لفت نظري هذه التجعيدات الكثيرة في وجهه وعنقه. ولم يكن في فمه سوى خمس أسنان ثلاث من أسفل واثنتان من أعلى وأمام، وعيناه مشقوقتان على شكل اللوز ككل الهنود وأجفانه مثقلة بالغضون، فإذا أغمضهما بدت كرتان مستديرتان لا رمش لهما. وليس له حاجبان،

والشعر على كتفيه خشن وجعد وأسود ومقصوص إلى مستوى سطح الجلد تقريباً. ويضع عصابة مشرشرة تصل إلى شعر الحاجب شأن كل الهنود. انصرفت وأنا في غاية الضيق من تعرض مؤخرتي العارية للهواء، وأحسست بأنني غدوت مضحكاً. وغاية الأمر إنه الهروب ولا يجوز المزاح مع الهنود، والتصرف في حرية يعني الإزعاج. نظرت لالي إلى ورقة التين، فأغرقت في الضحك حتى بانت نواجذها التي لا تقل جمالاً عن اللؤلؤ الذي تصطاده. تفحصت السوار والقدّ المصنوع من جلد الحية، ولكي تعرف إذا كنت قد اجتزت امتحان الدخان تنشقت رائحتي، وبهذه المناسبة إن حاسة الشم عند الهنود قوية.

لقد تعودت هذه الحياة، ووجدت أنه لا ينبغي الاستمرار في العيش على هذا النحو زمناً طويلاً وإلا فقدت كل رغبة في الرحيل. كانت لالي تراقبني دون كلل، وكانت تتمنى لو أساهم في حياتهم المشتركة بنشاط أكبر. رأتني مثلاً أخرج لصيد السمك، وهي تعلم أنني أجيد التجذيف واستخدام الزورق الصغير الخفيف بمهارة. من هنا كانت أمنيتها أن أصبح رجل زورقها في الصيد، وليس ذلك بعسير، ولكن هذا لا يناسبني.

كانت لالي أحسن فتيات القرية غوصاً. فزورقها دوماً يأتي بأكبر كمية من المحارات وبأكبر اللآلىء حجماً، وذلك لأنها تغوص في أماكن أكثر عمقاً، بخلاف الأخريات. وأنا أعرف أيضاً أن الفتى الذي يقود زورقها هو شقيق الرئيس، فإن أنا ذهبت مع لالي أكن مخطئاً في حقه وهذا ما لا ينبغي أن أفعله.

عندما رأتني لالي سهمان مفكراً ذهبت من جديد لإحضار أختها التي أسرعت فرحة ودخلت البيت من بابي الخاص، وهذا أمر له مغزاه الكبير. لقد وصلنا معاً إلى الباب الكبير المواجه للبحر وافترقنا. دارت لالي نصف دورة ودخلت من بابها ودخلت زوراما الصغرى من بابي. لزوراما ثديان قد نهدا حديثاً، فهما بحجم ثمر المندرين. ولم يكن شعرها طويلاً، فهو مقصوص إلى مستوى الذقن، وعصابة جبينها ذات الخمل قد تتجاوز الحاجبين إلى الجفنين وفي كل مرة تدعوها أختها مثل هذه الدعوة كانتا تبادران إلى الإستحمام بعد أن تتجردا من ورقة التين وتعلقانها على السرير. وكانت تذهب من عندنا حزينة لأنني لم ألامسها.

جرح الرجل المرافق للالي في الصيد، في ركبته جرحاً عميقاً وواسعاً، فحمل إلى الساحر، فعاد وقد ثبت رجله بتراب الفخار الأبيض. فذهبت في ذلك الصباح إذن للصيد مع لالي. ونزلنا إلى الماء بالطريقة ذاتها المتبعة عند ذاك الرجل على أكمل وجه. وقد أخذتها إلى مكان أبعد من المعتاد، وكادت تطير فرحاً بوجودي معها على الزورق. وادهنت بالزيت قبل أن تغطس، وكان العمق أسود قاتماً. ففكرت أنه لا بد أن يكون الماء بارداً.

مرت بالقرب منا ثلاث زعانف سمكة من أسماك القرش، فلفت نظرها إليها، فلم تلق على ذلك أهمية.

الساعة الآن العاشرة صباحاً، والشمس ترسل أشعتها. غطست لالي والكيس حول ذراعها الأيسر والسكين في الشد المتصل بحزامها. فعلت ذلك دون أن تدفع الزورق بقدميها كما يفعل الرجل العادي، ثم توارت في خفة خرساء في عمق الماء المظلم. وربما كان الغوص الأول للسبر والارتياد فقط، بدليل أنها لم يكن في كيسها سوى القليل من المحار. لقد خطرت ببالي فكرة: توجد على ظهر الزورق بكرة ذات سيور جلدية. فربطت الكيس ربطة مضاعفة وأعدته إلى لالي، ثم تركت البكرة تدور أثناء نزولها، فكانت تجر معها الحبل الجلدي ويظهر أنها فهمت العملية. وبعد غوص طويل، صعدت بدون الكيس فتمسكت بالزورق لتستريح وأشارت إلى أن أسحب الكيس ففعلت. وفي لحظة معينة بقي الكيس عالقاً بالمرجان فغاصت وخلصته. وصل الكيس وهو مثقل، إلى نصفه فأفرغته في الزورق. وفي هذا الصباح غاصت لالي ثماني مرات على عمق خمسة عشر متراً وكاد الزورق يمتلئ وكان بينه وبين الامتلاء مقدار إصبعين. وحين أردت سحب المرساة كان الزورق على درجة من الثقل أشرفنا معها على الغرق. فاضطررت إلى فصل حبل المرساة وتعليقه بالمجداف الذي سيبقى عائماً إلى حين عودتنا، وبلغنا الشاطئ بدون حادثة. كانت العجوز والرجل الهندي بانتظارنا في المكان الذي تفتح فيه المحارات بعد كل رحلة صيد. وكان الرجل مسروراً باديء الأمر لأننا جمعنا هذا المقدار من الأصداف. فشرحت له لالي ما فعلت. إن ربط الكيس يخفف عنها التعب أثناء الصعود ويتيح لها حمل مقدار أكبر من المحار فصار يتأمل كيفية ربط الكيس باهتمام كبير، فكه في محاولة أولى ثم أعاد تركيبه، فنظر إلي فخوراً بنفسه. ولدى فتح المحارات وجدت العجوز ثلاث عشرة لؤلؤة. وما كان من عادة لالي أن تنتظر فتح المحار بل كانت تذهب إلى البيت تنتظر حصتها. أما هذه المرة فقد بقيت حتى آخر محارة. ابتلعت محتوى خمس وثلاثين محارة، وازدردت لالي خمساً أو ستاً. وزعت العجوز الحصص فاللآلئ متساوية الحجم تقريباً وهي بقدر حبة الحمص تقريباً. جعلت كومة من ثلاث لآلئ للرئيس، ومثلها لي، وخمساً للالي. أخذت حصتي ومددت يدي للهندي فرفض أن يأخذها، ولكنني فتحت يده ثم أطبقتها على اللآلئ فسكت. كانت زوجته وابنته تراقبان هذا المشهد عن كثب، ثم أقبلتا تضحكان وألقتا إليّ. هذا وقد ساعدت في حمل الصياد إلى كوخه. تردد صدى هذا المشهد ما يقارب الأسبوعين. وفي كل مرة كنت أعطي الصياد حصته. وبالأمس احتفظت لنفسي بواحدة من أصل ست. ولما وصلت إلى البيت أجبرت لالي على أكلها فجن جنونها من الفرح وراحت تغني من حين إلى آخر كنت أذهب للقاء الهندي الأبيض الذي طلب مني أن أناديه «زورييلو» وهذا الاسم معناه في اللغة الاسبانية: الثعلب الصغير. وأخبرني بأن الرئيس طلب منه الاستفسار مني عن سبب عدم رسم رأس النمر، فأفهمته بأنني لا أحسن الرسم. وبعد الاستعانة بالمعجم طلبت منه أن يحضر لي مرآة مستطيلة بمساحة صدري، وورقاً شفافاً وريشة دقيقة وزجاجة حبر، وورقاً فحمياً وإن لم يجد فقلماً شحمياً كبيراً. وكذلك طلبت منه أن يحضر لي أمتعة مع ثلاثة قمصان بلون كاكي وأن يحتفظ بها

عنده.

وعلمت منه أن رجال الشرطة سألوه عني وعن أنطونيو فأجابهم بأنني تجاوزت الجبل إلى فنزويلا وبأن أنطونيو قد لدغته حية فمات. وعلم منهم أيضاً أن الفرنسيين لا زالوا مرتهنين في السجن في سانتا مارتا.

في منزل زورييلو نفس الأشياء الموجودة في منزل الرئيس: مجموعة من الأواني الفخارية المزخرفة برسوم عزيزة على الهنود، نوع من السيراميك الغني بشكله ورسومه وألوانه، وتوجد أسرّة أرجوحية فاخرة من الصوف النقي، بعضها أبيض، وبعضها ملون وله بنود، وعنده جلود حيّات مدبوغة، وجلود ضبان[1] وجلود جواميس، وسلال مضفورة من عرائش بيض وأخرى من عرائش ملونة. وقال لي: إن هذه الأشياء جميعاً من صنع هنود هم من نفس العرق الذي تنتمي إليه عشيرتي، وهم يعيشون تحت الأخشاب في غابة تبعد مسيرة خمسة وعشرين يوماً عن هنا. ومن هذا المكان تأتي أوراق الكوكا، وقد أعطاني منها عشرين، لأمضغ واحدة منها حين تظلم الدنيا في عيني. وقبل أن يودعني طلبت منه بالإضافة إلى ما أوصيته به، أن يحضر لي بعض الصحف والمجلات الإسبانية، لأنني تعلمت الكثير من المعجم في غضون شهرين.

ليس عنده أخبار عن أنطونيو سوى أنه حصلت معركة جديدة بين المهربين وخفر السواحل أسفرت عن مقتل خمسة من الخفر وواحد من المهربين، ولم يقع المركب في الأسر. لم أعثر في القرية على نقطة واحدة من الكحول إلا هذا الشيء المتخمر من عصير الفواكه. ولما رأيت عنده زجاجة من الأنيسون طلبتها منه فأبى أن يعطينيها، وقال: إذا كنت تستطيع شربها هنا فافعل، أما أن تحملها معك فهذا أمر غير ممكن، وقد كان هذا الهندي حكيماً وعاقلاً.

فارقته وانصرفت على ظهر حمار أعارنيه، وهذا الحمار يعود في الغداة من تلقاء نفسه إلى الدار. حملت معي كيساً فيه سكاكر من كل الألوان، وكل حبة مغلفة بورقة دقيقة كما حملت ستين علبة سجائر.

كانت لالي تنتظرني على بعد ثلاثة كيلو مترات من القرية مع شقيقتها، ولم يحدث ما يكدر. ورضيت بأن نسير جنباً إلى جنب متشابكين. وكانت تتوقف بين وقت وآخر لتقبلني في فمي، على الطريقة الحديثة. ولدى وصولنا قصدت الرئيس لأقدم له السكاكر والدخان. جلسنا قدام الباب المواجه للبحر، وشربنا من الشراب المتخمر البارد المحفوظ في جرار. لالي على يميني تحيط فخذي بذراعيها، وأختها على يساري في الوضع نفسه وكانتا تقصان السكر، فالكيس أمامنا مفتوح، والنساء والأطفال يتناولون منه خلسة. مع الرئيس

(١) جمع ضب.

برأس زورايا نحو رأسي، ليفهمني بأنها تريد أن تكون لي زوجة مثل لالي. أخذت لالي يدي ووضعتها على ثديها لتريني أن ثدي أختها صغير، وأني من أجل هذا لا أريدها، فرفعت أكتافي، فضحك الجميع. وبدت زورايا تعسة جداً، وعندئذ أخذتها بين ذراعي ودغدغت ثدييها فعادت إليها إشراقة وجهها.

دخنت عدة سيجارات، وحاول بعض الهنود أن يدخنوا، فألقوا بالسيجارة وعادوا إلى السيجار فتناولوه وناره من الفم. أمسكت بذراع لالي لنلعب، فحييت الجميع ومشت لالي خلفي وزورايا خلفها. هيأنا سمكاً مشوياً على الجمر، إنها دوماً الأكلة اللذيذة الممتعة.

حصلت على المرآة والورق الدقيق، وورق نقل الرسم وزجاجة صمغ لم أكن أوصيت بإحضارها ولكنها قد تنفع، وعدة أقلام شمعية متوسطة القساوة، والمحبرة والريشة. علقت المرآة بخيط، على ارتفاع صدري وأنا قاعد، وظهر على سطحها رسم رأس النمر بوضوح تام وبكل التفاصيل. ونظرت إلى لالي وزورايا بفضول واهتمام بالغين. واتبعت الخطوط بالفرشاة وبما أن الحبر كثير السيولة فقد احتجت إلى الصمغ، فمزجت شيئاً منه بالحبر، وبعد هذا كان كل شيء على ما يرام، وفي ثلاث جلسات، ومدة كل جلسة ساعة، كان على سطح المرآة صورة انعكاس رأس النمر بالتمام والكمال. ذهبت لالي لإحضار الرئيس فتناولت زورايا يدي ووضعتها على ثدييها، وبدا عليها أنها عاشقة تعسة، تطفح الشهوة والحب من عينيها، وبدون وعي مني بطحتها أرضاً وسط الكوخ ونلت منها وطراً، فزفرت قليلاً وأنت، وتوتر جسمها من فرط لذتها، فضمتني ولم ترد إفلاتي، فانسللت من بين ذراعيها برفق، وأسرعت إلى البحر للاستحمام لأن جسمي تمرغ بالتراب، فتبعتني واغتسلنا معاً، فدلكت ظهرها، ودلكت هي ذراعي وساقي ثم عدنا إلى المنزل، فوجدنا لالي قاعدة في المكان الذي كنا فيه ولدى دخولنا فهمت كل شيء، فنهضت وأحاطت عنقي بذراعيها وقبلتني في حنان، وأخذت أختها من يدها وأخرجتها من بابي وعادت فخرجت هي من بابها. سمعت خبطاً في الخارج، خرجت فرأيت لالي وزورايا وامرأتين أخريين يحاولن ثقب الجدار بحديدة، فأدركت أنهن يردن فتح باب رابع، وقد لجأن إلى بل الجدار بالمرشة لئلا يتصدع، وأنجزن هذا العمل في وقت يسير، ودفعت زورايا بالأنقاض خارج المنزل، وبعد الآن هي التي تدخل وتخرج من هذا الباب، ولا أحد سواها يدخل من بابي.

حضر الرئيس بصحبة ثلاثة من الهنود، وأخوه الذي أوشك جرح ساقه أن يلتئم. ورأى الرسم على المرآة ورأى نفسه، وأذهله إتقان الرسم، كما دهش من رؤية وجهه، ولم يدرك ما أنوي عمله. وبعد أن جف على المرآة وضعتها على المنضدة ووضعت فوقها الورقة الشفافة، وشرعت أنسخ في خفة وسرعة، إن هذا هيّن والقلم المتوسط القساوة يتبع الخطوط بكل أمانة، وفي أقل من نصف ساعة، أخرجت صورة طبق الأصل على مرأى من كل العيون الملهوفة المهتمة، وتداول الحاضرون الصورة وهم يوازنون بينها وبين النمر

الموشوم على صدري. مددت لالي على المنضدة وبللت بطنها بخرقة مبللة، ثم وضعت ورقة النقل التي رسمتها منذ قليل، رسمت بعض الخطوط التي ظهرت آثارها على بطن لالي فكانت رائعة غاية الروعة. وعندئذ فهم الرئيس أن كل ما كابدت من مشقة كان من أجله.

الناس الصرحاء الذين لا يراؤون وهم على درجة حسنة من التربية الحضارية، تكون ردود الفعل عندهم عفوية، وسرعان ما يبدو عليهم الفرح أو الحزن، السرور أو الغم، الاهتمام أو اللامبالاة. ومعظم الهنود الأقحاح مثل هؤلاء الكاجيريين، صرحاء وقلوبهم مفتوحة لذا فإنهم يتجاوزوننا في كل شيء، فإذا تبنوا إنساناً جعلوا كل ما يملكون ملكاً له. وفي مقابل هذا، إذا آنسوا من هذا الإنسان أدنى عناية فإنهم يتأثرون تأثراً عميقاً بحكم طبيعتهم الرهيفة الحساسة.

قررت إحداث الخطوط العريضة بالموسى بحيث تثبت أطراف الصورة النهائية منذ الجلسة الأولى وبعد ذلك سيكون الوخز بثلاث إبر مثبتة في طرف عود. وسأبدأ العمل غداً.

لقد زاتو على المنضدة، وبعد أن نقلت الرسم بقلم قاس عن الورقة الدقيقة إلى ورقة أخرى بيضاء أكثر مقاومة، طبعته على الجلد الجاف الذي كان قبلاً مغطى بماء الطباشير الأبيض فظهرت الطبعة وتركتها تجف جيداً. كان الرئيس يتمدد متيبساً لا يتحرك خشية أن يفسد الرسم الذي أريته إياه في المرآة. شطبت الخطوط بالموسى فسال الدم خفيفاً، وكنت أجففه. دهنت الصدر كله بالحبر الصيني الأزرق وثبت في سهولة إلا في المواضع التي يسيل منها الدم بسبب عمق الجرح قليلاً. وفيما عدا ذلك كان الرسم فائق الروعة. وبعد ثمانية أيام كان على صدر زاتو صورة رأس النمر وهو فاغر فاه، كاشف عن لسانه الوردي وأسنانه البيض، وظهر أنفه وشواربه السود وعيناه. وكنت مسروراً من عملي فقد فاق ما كان مرسوماً على صدري دقة وحيوية، وعندما سقطت القشور أعدت الوخز بالإبر في بعض المواطن، وكان زاتو مسروراً، فطلب من زوريلو أن يؤمن له ست مرايا له واحدة، ولكل كوخ مرآة.

تمضي الأيام والأسابيع والشهور، فنحن الآن في شهر نيسان (ابريل) وهو الشهر الرابع الذي ينقضي على وجودي هنا. وصحتي في تمام الحسن، وأنا قوي. وقد اعتدت السير حافياً وكنت أسعى طويلاً وأنا أطارد الضبان الكبيرة دون تعب.

نسيت أن أقول إنه بعد زيارتي الأولى للساحر أوصيت زوريلو أن يحضر لي صبغة اليود وماء الأوكسجين وقطناً وضماداً وشيئاً من حبوب الكينا وستوفارسول. كنت رأيت في المنشقى سجيناً مصاباً بدمل يحجم دمل الساحر. وكان المرض شانال يسحق حبة الستوفارسول ويرش المسحوق فوق الدمل. وقد حصلت عن طريق زوريلو على هذه

الأشياء كلها مضافاً إليها مرهم. أرسلت إلى الساحر السكين الخشبية الصغيرة وأحاطني بإرسال سكينه. وكان إقناعه بالمعالجة أمراً عسيراً. ثم رضي بأن أعتني به وبعد زيارات عدة تضاءل حجم النمل إلى النصف، ثم تابع الساحر وحده العلاج. وفي يوم جميل أرسل لي سكينه الخشبية لأذهب إليه وكان قد تمكن البرء منه ولم يعلم أحد بأني أنا الذي عالجته.

زوجتاي لا تتركاني. فعندما تكون لالي في الصيد تبقى معي زوواينا، وإذا ذهبت زوواينا لازمتني لالي.

ولد للزعيم زاتو ولد. ذهبت زوجته أثناء المخاض إلى الشاطئ، وأوت إلى صخرة كبيرة تحجبها عن الأنظار. وحملت زوجة زاتو الثانية سلاً كبيراً فيه كعك وماء عذب وسكر غير مصفى أسمر على هيئة المخروط يزن كيلو غرامين. فولدت في حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، وقبيل الغروب أقبلت نحو القرية وهي تنادي زاتو وترفع الوليد بين يديها إشارة إلى أنه غلام. ولو أنها أنجبت أنثى لرجعت دون أن تصيح صيحات الفرح ودون أن ترفع المولودة عالياً بين ذراعيها. هذا ما فسرته لي لالي ببعض الإشارات والحركات. تقدمت الهندية ثم توقفت بعد أن رفعت الغلام بين يديها، فرفع زاتو ذراعيه صائحاً ولكن دون أن يتحرك نهضت الزوجة ثم خطت بضعة أمتار، وتكرر هذا مراراً في الثلاثين متراً الأخيرة، ولم يتزحزح زاتو عن عتبة كوخه، إنه أمام الباب الكبير والناس عن يمينه ويساره. توقفت الأم على مسافة خمسة أمتار ورفعت الغلام بين أطراف ذراعيها وصاحت، وحينئذ تقدم زاتو وتناول الصبي من تحت إبطه ورفعه بدوره على طول ذراعيه واستدار نحو الشرق وصاح ثلاث مرات وفي كل مرة كان يرفع ذراعيه ثم أجلسه على ذراعه الأيمن ومدده على صدره ثم أدخل رأسه تحت إبطه وقد ستره بذراعه الأيسر ودخل من الباب الكبير ولم يعد، ثم تبعه القوم والأم آخرهم وشربوا كل ما عنده من الشراب المشابه للخمر.

وخلال الأسبوع الأول كانوا يرشون الماء صباحاً ومساء أمام كوخ زاتو، ثم يأخذ الرجال والنساء يلبدون الأرض ضرباً بكعوبهم أو بأقدامهم، وهكذا صنعوا دائرة واسعة من الأرض الفخارية الحمراء الملبدة جيداً وفي الغداة أخرجوا خيمة من أديم الثور واسعة وقدرت أن احتفالاً سيقام.

تحت قبة الخيمة نصبت قدور مصنوعة من الفخار المشوي وهي ملأى بشرابهم المفضل الذي كان في جرار ضخمة لا يقل عددها عن عشرين، صفت حولها الحجارة، وأحضرت أحطاب خضر ويابسة، أعلنت كومتها تزداد كل يوم، وكثير من هذا الحطب كان البحر قد لفظه منذ زمن بعيد وكان بعضه أبيض مصقولاً، وتوجد جذوع ضخمة سحبت من المياه، منذ متى؟ قدر ولا حرج. وصنعوا من الحجارة شحين من الخشب على

ارتفاع واحد، هما الحاملان لسفود[1] ضخم. وأحضرت أربع سلاحف مقلوبة على ظهرها وأكثر من ثلاثين ضباً حياً من حجم واحد كبير، غالبها متشابكة بصورة تحول دون هروبها، وخروفان.

كل هذا الزاد ينتظر الذبح ثم الأكل، وكذلك كانت هناك ما يزيد على ألفي بيضة من بيض السلاحف في صباح أحد الأيام وصل خمسة عشر فارساً من الهنود وحول أعناقهم قلائد وعلى رؤوسهم قبعات واسعات من القش. سيقانهم وأفخاذهم ومؤخراتهم عارية. ويرتدون سترات من جلد الخروف صوفها نحو الداخل وليس بذات أكمام. وكان كل واحد منهم يتمنطق بخنجر كبير، واثنان منهم يحملان بندقيتي صيد ذواتي فوهتين، ومع رئيسهم بندقية وسترة جلدية سوداء وحزام مليء بالرصاص. وكانت خيولهم بديعة جداً وصغيرة وعصبية، ولونها رمادي مرقش باللون الأبيض، وخلفهم على أرداف الخيول يحملون حزمة عشب يابس. لقد أعلنوا عن وصولهم من بعيد بإطلاق النار من بنادقهم. ورئيسهم يشبه زاتو وأخاه شبهاً غريباً ولكنه أكبر سناً. نزل عن جواده الأصيل ثم توجه نحو زاتو وأخيه، وتبادلوا الملامسة بالأكتاف، ودخل الدار وحده ثم عاد متبوعاً بالهندي والغلام بين يديه فعرضه على الجميع ثم فعل ما فعله زاتو، وبعد تعريضه نحو الشرق ستره تحت إبطه وعضده الأيسر، ودخل الدار مجدداً. عند ذلك ترجل جميع الفرسان، وعقلوا خيولهم بعيداً قليلاً والمخالي معلقة في أعناقها. وعند الظهر أقبلت الهنديات في عربة ضخمة تجرها أربعة خيول ويقودها زوريلو. وفي العربة ما لا يقل عن عشرين هندية شابة وسبعة أو ثمانية أطفال وكلهم من الذكور. وقبل وصول زوريلو قدمني زاتو إلى الفرسان بدءاً من رئيسهم.

لفت نظري في قدم زاتو أن خنصره الأيسر مشدود وملتف فوق الإصبع الأخرى وأخوه كذلك ومثلهما الرئيس الذي وصل. ثم أراني تحت ذراع كل واحد منهم شامة سوداء، ففهمت أن القادم الجديد أبوه.

إن وشم زاتو نال إعجاب الجميع وبخاصة صورة رأس النمر. ولجميع الهنديات القادمات رسوم على أصداغهن ووجوههن، من الألوان. كانت لالي تقلد البعض منهن قلائد من قطع المرجان حول أعناقهن، وللبعض الآخر قلائد من الصدف. شاهدت هندية جميلة أكثر طولاً من الأخريات اللاتي كن متوسطات الطول. جانب وجهها إيطالي، كأنها جوهرة. شعرها أسود بنفسجي، وعيناها خضراوان كالزبرجد، وأهدابها طويلة. ولها حاجبان مقوسان، وقد قصت شعرها قصيراً على الطريقة الهندية، والعصابة المهدبة لها خط في وسطها يقسمها قسمين بحيث ينزل قسم من الأهداب على يمين الوجه وقسم ينزل على يساره فيغطيان الأذنين. ثدياها حقان من العاج متقاربين جداً في خط البداية عند منبتها

---

(١) السفود: حديدة يشوى بها، والسفيفة اللحم يشك فيها للاشتواء (القاموس المحيط).

ثم يتباعدان في انسجام تام. عرفتني لالي بيا وصحبتها إلى بيتنا مع زورايا وفتاة أخرى هندية صغيرة تحمل قعاباً[1] وريشات للرسم مصنوعة من الأعواد التي ربطت أطرافها بخيوط من الصوف والواقع إن الزائرات يرغبن في صبغ الهنديات في فريقي. ولقد شهدت عملاً فنياً قامت به الهندية الحسناء على جسد لالي وزورايا. كانت تغمس المنقش (ريشة الرسم) في عدد من الألوان لتؤدي رسومها وحينئذ أمسكت بريشتي ورسمت ابتداء من سرة لالي لبنة يتفرع منها فرعان كل فرع يتجه نحو قاعدة الثدي. ثم رسمت تويجات وردية وقمة الثدي باللون الأصفر فبدا كأنه برعم يتفتح وقد ظهرت فيه مدقته وقد رغبت الثلاث الأخر في أن أصبغ لهن مثل ذلك. فأعلمت زوريلا برغبتهن فسمح لي أن أفعل ذلك مع تشي. وما الذي لم أفعله هنا؟ في غضون ساعتين رسمت أثداء الهنديات الضيوف وغيرهن. وألحت زورايا أن أرسم عليها ما رسمت على جسد أختها بالضبط. وفي هذه الأثناء كان الهنود يشوون على السفود الخرفون. أما لحم السلحفاتين فيشوى مقطعاً على الجمر، وهو لحم أحمر طيب مثل لحم العجل.

جلست بالقرب من زالو وأبيه تحت الخيمة، الرجال يأكلون في ناحية والنساء في ناحية باستثناء اللاتي يقمن على خدمتنا. واختتم العيد بنوع من الرقص في وقت متأخر من الليل. ولترقيص الراقصين كان هندي يعزف على شبابة تعطي أصواتاً حادة وقليلة التلوين، ويضرب على طبلين من جلد الخروف. سكر بعض الهنود والهنديات ولكن لم يقع ما يعكر الصفو. جاء الساحر على حمار، ونظر الجميع إلى القشرة التي حلت مكان الدمل الذي كانوا يعرفونه، وكانت مفاجأة لهم أنه شفي منه. أنا وزوريلو وحدنا على بينة من أمره. وقد فسر لي زوريلو بأن رئيس العشيرة الذي قدم، هو والد زالو واسمه جوستو ومعناه العادل، وهو القاضي الذي يحل الخلافات التي تقع بين أبناء قومه وبين أبناء القبائل الأخرى، والتي هي أيضاً من أصل كاجيري. وقال لي: إذا امتد الخلاف إلى قبيلة أخرى مثل (الأبي) فإنهم يجتمعون للمناقشة فيما إذا كانت الحرب لازمة أم أن الحل بطريقة ودية ممكن. وإذا قتل أحد من قبيلة أخرى، فالاتفاق قائم على أن القاتل يجب أن يدفع الثمن لتجنب الحرب، وقد يبلغ أحياناً مئتي رأس من الثيران، لأن القبائل في الجبال وفي أسفل المنحدرات يملكون الكثير من البقر والثيران. ولسوء الطالع أنهم لا يلقحون هذه الأبقار لقاحات مضادة للحمى القلاعية. فهذا الوباء يفتك بعدد كبير من هذه الحيوانات. وهذا الأمر حسنة، إذ لولا الوباء لبلغ عدد الحيوانات مبلغاً كبيراً.

هذه الماشية لا يمكن أن تباع في كولومبيا أو فنزويلا ويجب أن تبقى في حدود منطقتها خشية العدوى. قال زوريلو: في الجبال كثير من مهربي القطعان.

طلب مني الزعيم الزائر جوستو عن طريق زوريلو الذهاب إلى قريته حيث يزيد

(1) جمع قعب وهو وعاء للشرب صغير.

عدد الأكواخ على المئة، كما طلب إحضار لالي وزورايا. وأنه سوف يعطيني كوخاً من أجلنا جميعاً، وأن لا أحمل معي شيئاً. فالكوخ سوف يكون مجهزاً بكل ما يلزم. وطلب إحضار أدوات الوشم فقط لأرسم له أيضاً رأس النمر ونزع من معصمه حزاماً جلدياً للقوة وقدمه لي. وحسب أقوال زوريلو أن هذه البادرة ذات مغزى كبير تعني أنه صديقي وأنه ملزم بتنفيذ رغباتي وسألني إن كنت أرغب في اقتناء جواد، قلت نعم ولكن لا أستطيع قبوله لعدم توفر العشب الكافي، فقال إن لالي وزورايا تستطيعان عند الضرورة الذهاب مسافة نصف يوم على الحصان حيث العشب الطويل والجيد، وحينئذ قبلت الحصان على أمل إرساله عما قريب.

وقد اختتمت زيارة زوريلو الطويلة هذه لأعرب له عن ثقتي به وعن أملي بأن لا يخونني بذكر ما أفكر به من الذهاب إلى فنزويلا أو كولومبيا. وقد وصف لي الأخطار المحدقة في الثلاثين كيلو متراً الأولى حول الحدود. وبحسب معلومات المهربين إن الحدود الفنزويلية أشد خطراً من الحدود الكولومبية، هذا وقد وعد بأنه سوف يصحبني بنفسه إلى الحدود الكولومبية حتى سانتا مارتا، وأضاف أنه سبق له أن سلك هذا الطريق وفي رأيه أن الحدود الكولومبية أفضل. واتفقنا على شراء كتب تعليم اللغة الإسبانية حيث توجد عبارات ثابتة. وفي رأيه إذا تعلمت اللجلجة في الكلام بشكل قوي فإن هذا يفيدني، لأنهم سيتبرمون بي ويثورون عندما يسمعونني ويكملون الجملة من تلقاء أنفسهم دون أن يفطنوا إلى اللهجة أو نبرة اللفظ، فاتفقنا على ذلك، وسوف يحضر لي كتباً ومصوراً دقيقاً قدر المستطاع ويبيع لي لآلئي إذا اقتضى الأمر بعملة كولومبية.

وقد أوضح لي بأن الهنود بدءاً من الزعيم لا يمكن إلا أن يكونوا بجانبي حين اتخاذ قراري في الرحيل إن كنت راغباً فيه، وسوف يأسفون لفراقي، ويدركون أن من حقي الطبيعي أن أعود بما أملك. إنما العقبة الكأداء هي زورايا ولالي إذ هما قادرتان على قتلي بطلقة من بندقية. وشيء آخر لم أكن على علم به هو أن زورايا حامل، لم ألاحظ هذا وقد أدهشتني المفاجأة.

انتهى الاحتفال وذهب الجميع والخيمة الجلدية قوضت، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه، على الأقل من حيث المظهر.

حصلت على الحصان الأبيض المرقش بالرمادي، وله ذيل ضافٍ فوق الأرض وعرف رمادي بلاتيني بديع. لالي وزورايا كئيبتان. استدعاني الساحر ليقول بأن لالي وزورايا سألتاه إن كان في وسعهما إعطاء الحصان زجاجاً مسحوقاً بغية قتله دون خطر عليهما، فنهاهما عن فعل ذلك، لأن قديساً هندياً من قديسيهم ـ لا أدري أي قديس ـ يحرسني ويحوطني بالرعاية ولأن الزجاج سيتحول إلى بطنيهما. وأضاف بأنه يعتقد بأن لا خطر ولا يمكن الجزم بذلك، وعلي أن أكون حذراً. فإن وجدنا أنك تعد الأهبة للسفر

جلداً ولالي بصورة خاصة ستطلق عليك النار – هل يمكنني أن أحاول إقناعها بأني سأعود؟ يجب أن لا أبدي لها رغبة في الرحيل.

استطاع الساحر أن يقول لي ذلك لأنه استخدم زوريلو في اليوم نفسه ليكون ترجماناً. فعدت أدراجي إلى البيت وزوريلو غادر سالكاً طريقاً تغاير طريقي، ولم يعلم أحد من القرية أن الساحراستدعى زوريلو في الوقت الذي استدعاني فيه.

ها هي ذي ستة أشهر تنسلخ على وجودي هنا، وأنا استعجل الرحيل. دخلت يوماً فرأيت لالي وزورايما منكبتين على الصور تحاولان فهم ما تمثله هذه الرسوم. والذي أقلق بالهما وجود أربعة أسهم على الصور تشير إلى نقاط أربع أساسية. فهما مدهوشتان حائرتان، ولكنهما قدرتا أن هذه الورقة شيء هام جداً في حياتنا يستحق النظر بدأ بطن زورايما ينتفخ، وأحست لالي بشيء من الغيرة، فكانت تجبرني على الخلوة في أية ساعة. أما زورايما فقد تقنع بساعات الليل لحسن الحظ.

ذهبت لمقابلة جوست والد زوتو، وفي رفقتي لالي وزورايما، واستخدمت الرسم الذي لا زالت أحتفظ به لأطبع رأس النمر على صدره، وانتهيت منه خلال ستة أيام لأن قشرة الجرح سقطت سريعاً، بفضل غسله بالماء الممزوج بقطعة صغيرة من الكلس الحي. وشعر ببهجة ما بعدها بهجة حتى أنه كان ينظر إلى نفسه بالمرآة كل يوم عدة مرات. وقد حضر، خلال إقامتي هناك، زوريلو. ورافقني حين تحدثت مع جوست عن خطتي، لأنني أرغب في تبديل الجواد. إن خيول كاجيرا رمادية مرقشة باللون الأبيض وليس في كولومبيا ما يماثلها، ويملك جوست ثلاثة جياد صهباء. وما أن علم جوست بالخطة حتى بعث في طلب الخيول فاخترت الجواد الذي بدا لي أنه أكثرها هدوءاً فأسرجه لي، ثم وضع الركاب والشكيمة(1) الحديدية على حين أن الشكائم عندهم من عظم وليس للخيل سروج. وبعد الانتهاء من تجهيزه على الطريقة الكولومبية وضع في يدي أعنة جلدية بنية اللون. ثم عد لزوريلو وعلى مرأى مني تسعاً وثلاثين قطعة ذهبية، وقيمة كل منها مئة بيزو. وقد احتفظ بها ليوم سفري، وشاء أن يعطيني بندقية متعددة الطلقات فرفضتها إذ قال لي زوريلو بأنني لا أستطيع دخول كولومبيا مسلحاً. وعندئذ أعطاني جوست سهمين طويلين كالإصبع ملفوفين بالصوف ومغلقين بغمد جلدي. أخبرني زوريلو بأنهما مسمومان بسم ناقع، ونادر الوجود. لم يكن زوريلو قد رأى من قبل سهاماً مسمومة، بله الحصول عليها، وكان عليه أن يحتفظ بها حتى يوم سفري. ولم أدر كيف أعبر لجوست عن اعترافي بأياديه البيض، وبكل ما فعله من إحسان من أجلي. وقال لي، عن طريق زوريلو، بأنه يعرف شيئاً عن حياتي، والجانب الذي يجهله لا بد أن يكون حافلاً لأنني رجل كامل. وأنه لأول مرة في حياته يعرف رجلاً أبيض عن كثب، وكان ينظر إلى البيض على أنهم جميعاً

(1) الحديدة المعترضة في فم الفرس

أعداء. وأنه سوف يحبهم وسيتعرف على رجل أبيض مثلي. وقال لي: فكر قبل أن ترحل إلى أرض يكثر فيها أعداؤك. أما على هذه الأرض فالجميع أصدقاؤك. وقال: إنه هو وزاتو سيسهران على لالي وزورايما، وسيكون لولد زورايما مكانة الشرف في العشيرة، إذا كان ذكراً بطبيعة الحال. ولا أريدك أن تتعب. ابق ولسوف أقدم لك أجمل هندية رأيتها في الاحتفال، إنها يافعة، وتحبك. وباستطاعتك البقاء هنا معي، وسيكون لك كوخ كبير، وما تشاء من البقر والثيران.

فارقت هذا الرجل العظيم وعدت إلى قريتي وعلى طول الطريق لم تقل لالي كلمة، وكانت جالسة خلفي على الحصان الأصهب، والسرج يخدش فخذيها، وزورايما كانت خلف رجل هندي على حصانه. وذهب زوريلو لقريته من طريق آخر.

حل في الليل برد، فتناولت لالي سترة من جلد الخروف أعطانيها جوست وارتدتها دون أن تفوه بكلمة أو أن تشرح شيئاً أو أن تشير إلى شيء. قبلت السترة لا أكثر ولم تتشبث بجسمي لتتمكن في الركوب. ولما وصلنا إلى القرية ذهبت للسلام على زاتو، فلحقت هي بالحصان وربطته أمام البيت وحزمة العشب أمامه ولم ترفع عنه سرجه أو تنزع شكيمته. عدت إلى البيت بعد قضاء ساعة طيبة مع زاتو.

عندما يحزن الهنود وبخاصة النساء فإنهن يقطبن ويعبسن فلا تتحرك في وجوههن عضلة، وترى عيونهن غرقى في الأسى، ولكنهن لا يذرفن دمعاً. قد يألمن ويتحسرن ولكن لا يبكين. في إحدى تحركاتي أصبت زورايما في بطنها فدفعها الألم إلى الصراخ، فنهضت عندئذ خوفاً من تكرار ذلك، وذهبت إلى سرير آخر معلق على مستوى منخفض جداً فرقدت فيه. ولم ألبث أن شعرت بأن أحداً قد لمسه فتظاهرت بالنوم. كانت لالي جالسة على جذع خشبي تنظر إلي ولا تتحرك. وبعد هنيهة أحسست بوجود زورايما. وكان من عادتها أن تتعطر برائحة زهرالبرتقال، تسحقه وتدعك به جلدها. كانت تشتري الأزهار في أكياس صغيرة من هندية كانت تتردد على القرية بين الفينة والفينة. وعندما استيقظت وجدتهما على حالهما لا تتحركان. طلعت الشمس والساعة الآن الثامنة، فأخذتهما إلى البحر وتمددت على الرمل الجاف، فجلست لالي كما جلست زورايما فداعبتها في ثدييها وبطنها فظلت باردة كالرخام، مددت لالي وقبلتها في فمها فأطبقت شفتيها.

جاء الصياد ينتظر لالي فلما رأى وجهيها فهم وانسحب. لقد تعبت حقاً ولم أدر ما أفعل. داعبتها وقبلتها لأبرهن لها على حبي فلم تخرج من فمها كلمة. واضطربت مثالة لمجرد التفكير بحالها، وكيف تكون حالها بعد رحيلي. لالي تطرح نفسها علي في يأس وتريد بالاكراه أن أعاشرها فما الباعث على ذلك؟ لا يمكن إلا أن يكون شيء واحد، هو أنها تريد الحمل مني ولأول مرة، رأيت منها هذا الصباح بادرة غيرة من أختها، فبينما كنت ألاطف زورايما في صدرها وبطنها، كانت هي تعضني في شحمة أذني عضاً خفيفاً، وكنا مستلقين على الشاطئ، فوق الرمل الناعم في وهدة محجوبة عن الأنظار. وصلت لالي، وأمسكت

بذراع زورايا ومررت يدها على بطنها المنتفخ، ثم أشارت إلى بطنها هي، الأملس المسطح. نهضت زورايا وكأنها تقول: إنك على حق ثم انصرفت. كانت المرأتان تعدان لي كل يوم طعاماً ولا تأكلان. واستمرتا ثلاثة أيام على هذه الحال. أعددت الجواد، وكنت ارتكب خطأ جسيماً ارتكبته منذ خمسة شهور حين ذهبت لزيارة الساحر. وفي الطريق عدلت عن رأيي، وبدلاً من الذهاب إليه كنت أذرع الأرض ذهاباً وإياباً على بعد مئتي متر من خيمته فرآني وأشار إلي بيده كي أقبل عليه. وتمكنت بعد لأي أن أفهمه بأن لالي وزورايا لا تأكلان فأعطاني نوعاً من الجوز لأضعه في الماء العذب في البيت، فرجعت ووضعت الجوزة في الجرة، فشربتا مراراً ولم تأكلا. لالي لا تذهب إلى الصيد، وبعد أربعة أيام من الصوم، قامت اليوم بعمل جنوني. ذهبت بغير مركب سباحة على بعد مئتي متر تقريباً ثم عادت ومعها ثلاثون محارة لآكلها. إن يأسهما الأبكم أربكني إلى درجة أنني أضربت أيضاً عن الطعام. دام ذلك ستة أيام: لالي راقدة، وقد ارتفعت درجة حرارتها وخلال هذه الفترة امتصت بضع ليمونات، هذا كل شيء. زورايا تأكل مرة في اليوم عند الظهر. لقد ضاقت في وجهي المذاهب. جلست إلى جانب لالي، وهي متمددة على الأرض فوق أرجوحة مطوية تقوم مقام الفراش وهي تنظر إلى السقف باستمرار دون أن تتحرك. نظرت إليها وإلى زورايا وبطنها المكور، ولا أعلم على وجه التدقيق لماذا انفجرت باكياً. هل بكيت على نفسي أم عليهما؟ الله أعلم. بكيت وذرفت الدمع غزيراً. أخذت زورايا تئن، والتفتت لالي فرأت بكائي، فنهضت فجأة، وجلست على مقربة مني وصارت تئن أنيناً خافتاً وتقبلني وتلاطفني وزورايا تربت على كتفي، وطفقت تتكلم وتتكلم، وفي الوقت نفسه كانت زورايا ترد عليها وكأنها تلومها. أعطت لالي قطعة من السكر بحجم قبضة اليد وذوبتها ثم تناولته على جرعتين، ثم خرجت مع زورايا. جرتا الحصان، الذي وجدته مسرجاً عند خروجي وقد وضعت شكيمته، والعنان مربوط بمقبض السرج. لبست سترة زورايا الصوفية، وقد وضعت لالي على السرج سريراً أرجوحياً مطوياً.

ركبت زورايا أولاً في المقدمة على عنق الفرس تقريباً، وأنا في الوسط، ولالي في الخلف. كنت مشوشاً حتى أنني ذهبت ولم أسلم على أحد، ولم أعلم الرئيس.

كنت أعتقد أننا ذاهبون إلى الساحر فسلكت الطريق نحوه، فشدت لالي الرسن وقالت: زوريلو فاتجهنا نحو زوريلو. وكانت في الطريق تقبلني مراراً في عنقي. كان الرسن بيدي اليسرى وباليد اليمنى كنت أداعب زورايا إلى أن وصلنا قرية زوريلو تماماً في اللحظة التي وصل هو فيها من كولومبيا ومعه ثلاثة حمير وحصان تكدست عليها الأحمال. دخلنا الدار فتكلمت لالي أولاً ثم زورايا، فشرح لي زوريلو ما قالت:

إن اللحظة التي بكيت فيها كانت تعتقد أنني «أبيض» لا أقيم لها وزناً، وأنني عازم على الرحيل، وهي تعرف هذا، وكنت عادياً كالأعمى لأنني لم أخبرها ولم أفهمها، وأنها منيت بخيبة أمل كبيرة، وبأن هندية مثلها تستطيع إسعاد رجل، وإن رجلاً مسروراً راضياً

لا يمكن أن يرحل، وأنها تفكر بأنه ليس هناك ما يسوغ استمرار حياتها بعد جرحة على مستوى هذه الخطورة. وقالت زورايا مثل ذلك وأضافت أنها تخشى أن يكون ولدها مثل أبيه زائغاً لا عهد له، وأن يطلب إلى زوجاته أموراً صعبة التحقيق جداً. وأنهما تبذلان حياتهما في سبيلي ولا تفهماني. وتساءلت لماذا أهرب منها فراري من الكلب الذي عضني يوم قدومي؟ فقلت:

– ماذا تفعلين يا لالي لو كان أبوك مريضاً؟

– سأمشي على الشوك في سبيل العناية به

– ماذا تفعلين لو أنك طردت طرد البهائم ليقتلوك في الوقت الذي تستطيعين فيه الدفاع عن نفسك؟

– سأبحث عن عدوي في كل مكان لأدفنه في حفرة سحيقة لا يستطيع بعدها الخروج منها

– وإذا تحقق هذا كله، فماذا تفعلين لو أن عندك زوجتين رائعتين تنتظرانك؟

– سأعود على حصان.

– وهذا ما سوف أفعله بكل تأكيد

– وإذا رجعت فوجدتني عجوزاً وقبيحة؟

– سأعود قبل أن تصبحي عجوزاً وقبيحة بكثير.

– نعم. لقد سال الدمع من عينيك ولا يمكن أن تفعل ذلك تصنعاً. في وسعك الذهاب متى شئت ولكن على مرأى من الجميع في وضح النهار، لا كما يذهب اللصوص. يجب أن تعود في نفس الساعة التي أتيت فيها، بعد الظهر، وأنت في أحسن هندام. ولعلك تتساءل منذا الذي سوف يسهر علينا ليل نهار؟ زاتو هو الزعيم، ولكن يجب أن يكون هناك رجل يرعانا. يجب أن تتذكر أن البيت بيتك دوماً. ولن يدخله رجل سوى ابنك، إن كان في بطن زورايا ذكراً. وفيما عداه لن يدخل بيتك رجل. وبناء عليه يجب على زوريلو أن يحضر يوم سفرك ليترجم كل ما عندك من قول.

نمنا عند زوريلو، وكانت ليلة عذبة ندية، وكان لهمسات شفاه المرأتين نغمات حب مؤثرة هزت أعطافي.

عدنا نحن الثلاثة على الحصان متئدين حرصاً على بطن زورايا. وعلي أن أسافر بعد ظهور الهلال بثمانية أيام لأن لالي أرادت التأكد من حملها، ففي الشهر القمري الأخير لم تر دماً، وخشيت أن تكون مخطئة، ولكنها في هذا الشهر إن لم تطمث فهذا دليل على أن الجنين قد تكوّن.

يحضر زوريلو كل ما يلزم من ملابس يجب أن أرتديها هناك، عندما أتحدث إلى الكاجيرين عارياً. ليلتئذ يجب أن نذهب نحن الثلاثة إلى الساحر، وهو الذي يخبرنا، إذا

كان الباب الخاص بي سيغلق أم سيظل مفتوحاً، فهما تفضلان معرفة ذلك على البقاء متوترتين ومبتلتين في نظر نساء ورجال القرية.

وحين تلد زورايا ستخرج مع صياد لاستخراج كثير من اللآلئ، التي سوف تحتفظ بها من أجلي. ولالي ستعود بعد فترة للصيد كل يوم متحملاً وقتها. ولقد ندمت على أنني لم أتعلم من لغة الكاجيرو سوى بضع كلمات، فعندي الكثير لأقوله لهم، ولا أستطيع قوله عن طريق المترجم.

وأول شيء نفعله عند وصولنا هو مقابلة زالو لنعرض عليه اعتذارنا عن ذهابنا دون إذن منه. ولا يقل زالو نبلاً عن أخيه، فقبل أن أنطق بكلمة واحدة وضع يده على عنقي وقال: ويلو أي: اسكت. سيهل الهلال الجديد بعد اثني عشر يوماً وإذا أضفنا ثمانية أيام للمراقبة سيكون المجموع عشرين يوماً ويومئذ ستكون على درب الرحيل.

نظرت في الصور من جديد مبدلاً بعض التفاصيل في أسلوب اجتياز القرى، وأعدت النظر فيما قاله جوست. في أي مكان سوف أكون أكثر سعادة من سعادتي هنا؟ حيث يحبني الجميع. ألا أضيع شقائي بيدي إذا رجعت إلى الحضارة؟ المستقبل سوف يكشف عن ذلك. هذه الأسابيع الثلاثة مرت كالحلم. فقد تأكدت لالي من حملها، وهكذا سيكون بانتظار عودتي ولدان أو ثلاثة. لماذا ثلاثة؟ أخبرتني لالي بأن والدتها أنجبت توأمين مرتين. ذهبنا إلى الساحر وأوصى بأن لا يغلق بابي الخاص، إنما تضع غصن شجرة عند مدخله. والسرير الذي كنا ننام عليه نحن الثلاثة يجب أن يبقى معلقاً وتنام عليه المرأتان لأنهما بمثابة شخص واحد. ثم أجلسنا قرب النار ووضع فيها أوراقاً خضراً أحاط بنا دخانها أكثر من عشر دقائق.

رجعنا إلى دارنا ننتظر زوريلو الذي وصل بالفعل في المساء ذاته. أمضينا الليل كله متحلقين حول النار أمام بيتي نتكلم وكنت، بوساطة زوريلو، أقول لكل هندي قولاً كريماً وكان يجيب بعض القول. وعندما طلعت الشمس انسحبت أنا ولالي وزورايا إلى الكوخ نستمتع بحبنا طيلة النهار. وكتْ زورايا فوقي لتشعرني بنفسها. ولالي تلتف بي وكان لبلابا قد نبت في عضوها الذي كان ينبض كنبض القلب.

الرحيل بعد الظهر قلت (وزوريلو يترجم):

زالو! يا زعيم هذه العشيرة العظيم، يا من استقبلني ومنحني كل شيء جئتك طالباً السماح لي بمغادرتكم لعدة شهور قمرية.

ـ لماذا تريد مفارقة أصدقائك

ـ لأعاقب من طاردوني مطاردتهم لوحش. وبفضلك أنت وفي قريتك وجدت الأمن والحمى وعشت سعيداً، أكلت أطيب الطعام، وعاشرت أنبل الأصدقاء، وفي زوجتان

وضعتا الشمس في صدري. ولكن هذا كله لا ينبغي أن يحول رجلاً مثلي إلى دابة لجأت إلى كهف دافئ، وبقيت فيه كل الحياة هرباً من مرارة الكفاح. سوف أواجه أعدائي، وأذهب إلى أبي الذي يحتاجني. أما هنا فإنني أترك روحي في زوجتيّ لالي وزورايا، وفي الأولاد الذين هم ثمرة التحامنا. كوخي لهما وللأولاد الذين سيولدون. وآمل منك يا زالو، إذا نسي أحد هذا أن تذكره، وأطلب بالإضافة إلى حذرك واحتراسك أن يقوم رجل يدعى أوسلي بحماية أسرتي ليل نهار. لقد أحببتكم جميعاً وسوف أبقى محباً لكم، وسوف أفعل المستحيل لأرجع إليكم في أسرع وقت، وإذا مت وأنا أتمم واجبي، فإن روحي ستأتي إليكم، إلى لالي وزورايا وأولادي، وإليكم جميعاً يا هنود الكاجيرا، فأنتم أسرتي.

دخلت كوخي تتبعني لالي وزورايا. ارتديت قميصاً وبنطالاً كاكياً وجوارب وحذاء. سرت وأنا ألتفت طويلاً نحو هذه القرية المحبوبة إلى قلبي شبراً فشبراً، حيث قضيت ستة أشهر كاملة. عشيرة الكاجيرا هذه مرهوبة الجانب تهابها القبائل الأخرى والرجال البيض على حد سواء. أما أنا فقد وجدت فيها متنفساً لا نظير له، وملاذاً من شرور الرجال، ووجدت في كنفها الحب والأمن والاستقرار والنبل.

وداعاً كاجيرو. وداعاً أيها الهنود المستوحشون في شبه جزيرة كولومبية ـ فنزويلية، أرضكم العظيمة لحسن الحظ، لا ينازعكم عليها أحد، وبعيدة عن كل تدخل من الحضارتين اللتين تحيطان بكم ـ طريقتكم في العيش والدفاع عن أنفسكم علمتني شيئاً هاماً جداً أفادني في مستقبل وهو: لأن أكون هندياً متوحشاً خير من أكون محازاً في الآداب والقضاء.

وداعاً لالي وزورايا. وداعاً للمرأتين اللتين لا يشق لهما غبار في ردود الفعل القريبة من الطبيعة، واللتين تسلكان سلوكاً عفوياً فطرياً. إنهما وضعتا ساعة الرحيل كل ما في الكوخ من لآلئ في كيس صغير من القماش.

عودتي مؤكدة لا ريب فيها، ولكن متى؟ وكيف؟ لست أدري. إنما عاهدت نفسي على هذا. ركب زوريلو عند الأصيل حصاناً، واتجهنا نحو كولومبيا، وكان معي قبعة من القش، وكنت أمسك بعنان الفرس. كان رجال القبيلة بدون استثناء يسترون وجوههم باليد اليسرى، ويمدون اليد اليمنى نحوي، يقصدون بهذا أنهم لا يودون رؤيتي مرتحلاً لأن هذا يحز في نفوسهم، يمدون الأذرع بإشارة تعبر عن رغبتهم في الامساك بي. رافقتني لالي وزورايا قرابة مئة متر، وفجأة كانتا تهمان بتقبيلي عندما رجعتا فجأة إلى البيت وهما تنتحبان دون أن تلتفتا نحوي.

العودة إلى الحضارة
سجن سانتا مارتا

لم يكن الخروج من منطقة كاجيرا الهندية عسيراً. اجتزنا مراكز حدود لاغيرا دون حادث. استطعنا على الحصان أن نجوب في يومين ما قطعته في زمن طويل مع أنطونيو. وليس غير هذه المراكز الحدودية ما هو خطر جداً. وهناك أيضاً خط طوله مئة وعشرون كيلو متراً إلى ريوهاشا القرية التي منها هربت. بدأت مع زوريلو أول تجربة حوار مع مدني كولومبي التقينا به في استراحة يباع فيها الطعام والشراب وقد أحسنت التخلص بشهادة زوريلو. إن القافلة تساعد كثيراً على طمس اللهجة وأسلوب الكلام. سلكنا طريق العودة إلى سانتا مارتا، وعلى زوريلو أن يفارقني في منتصف الطريق ليعود أدراجه هذا الصباح. وقد فارقني فعلاً، واتفقنا على أن يأخذ معه الحصان. وفي الواقع إن اقتناء جواد يشبه اقتناء مسكن في قرية محددة، وحينئذ تكون المغامرة في أن يكون المرء مكرهاً على الإجابة عن أسئلة محرجة: هل تعرف فلاناً؟ ما اسم المختار؟ ماذا تفعل السيدة الفلانية؟ لذا فضلت السير على الأقدام على ركوب الباص أو الشاحنة، وبعد سانتا مارتا في القطار، ويجب حينئذ أن أبدو أمام الجميع غريباً يعمل في أي مكان من هذه المنطقة ويحمل أي شيء.

كان زوريلو قد بدل ثلاث قطع ذهبية وأعطاني ألف بيزو. إن العامل الجيد يكسب في اليوم بين ثماني وعشر بيزات. إذن بإمكاني العيش زمناً طويلاً.

ركبت شاحنة كانت ذاهبة إلى مكان قريب جداً من سانتا مارتا حيث المرفأ العام الذي يبعد مئة وعشرين كيلو متراً من نقطة افتراقي عن زوريلو. وهذه الشاحنة ذاهبة لتحميل الماعز أو الجديان لا أعرف بالضبط.

كانت الحانات على الطريق تتباعد خمسة أو ستة كيلو مترات، وكان السائق ينزل

عند كل حانة ويدعوني للشراب. يدعوني وأنا أدفع. وفي كل مرة كان يشرب خمسة أو ستة أقداح من كحول كالنار، وأنا أتظاهر بالشرب. وما كدنا نقطع مسافة خمسين كيلو متراً حتى أمسى ثملاً مخموراً كالأثان، حتى أنه أخطأ الطريق ودخل في درب موحل غرزت فيه الشاحنة وتعذر الخروج، ولم يأبه لهذا بل راح يغط في نوم عميق في الخلف بعد أن طلب مني أن أنام في حجرة القيادة؛ وحرت في أمري إذ لا يزال أمامنا مسافة أربعين كيلو متراً إلى سانتا مارتا ووجودي معه يحول دون طرح الأسئلة علي في مصادفاتي مع الآخرين. ومن ناحية أخرى كان يمكن أن أصل في وقت أقصر مما لو ذهبت ماشياً رغم الوقفات العديدة التي كان يقفها. لذا عزمت على النوم وقد أوشك الصبح أن يبلغ أشرقت الشمس والساعة تقارب السابعة. وصلت عربة يجرها جوادان، والشاحنة تعترض سبيلها. أيقظوني وهم يحسبونني السائق، نظراً لوجودي في حجرة السائق فتظاهرت بالنوم وأنا ألهو، وكأن إيقاظي المفاجئ جعلني لا أدري ما حولي. أفاق السائق وناقش سائق العربة. ورغم المحاولات العديدة لم نتوصل إلى إخراج الشاحنة، فالوحل قد بلغ محور السيارة، ولم تبق لنا حيلة.

كان في العربة راهبتان ترتديان اللباس الأسود ومعهما ثلاث فتيات صغيرات. وبعد مناقشات عديدة اتفق الرجلان على تمهيد جانب من الأرض لكي تعبر العربة، أحدهما لابيها على الطريق والآخر على القسم الممهد، وعلى مسافة عشرين متراً. وبالاستعانة بمحصد قصب السكر (وهي أداة يحملها كل رجل في الطريق) كانا يقطعان كل ما من شأنه الإعاقة، وأنا أرتبه في الدرب لأقلل من الارتفاع، وكيلا تغرس العربة في الوحل. وبعد ساعتين من العمل كان الممر جاهزاً. وسألتني الأختان عن وجهة سيري بعد أن شكرتا لي. قلت: سانتا مارتا. قالتا: ولكنك لا تسلك الطريق الصحيح وينبغي أن ترجع إلى الوراء معنا، نقودك إلى مكان قريب جداً يبعد ثمانية كيلو مترات عن سانتا مارتا. استحال علي الرفض لأنه سيبدو أمراً مريباً. وإذا زعمت بأنني أود البقاء هنا مع سائق الشاحنة لمعاونته فإن هذا يقتضي كلاماً مطولاً وفي ذلك صعوبة شديدة، لذا آثرت القول: غراسيا، غراسيا (أي شكراً). فجلست في الخلف إلى جانب الصغيرات، والأختان الطيبتان على مقعد أمامي إلى جانب السائق. انطلقنا مسرعين لاجتياز بضعة الكيلو مترات التي دخلناها خطأ. ولما وصلنا إلى الطريق العام سرنا سيراً حثيثاً. وعند الظهر نزلنا عند استراحة لتناول الطعام. جلس السائق والفتيات الصغيرات إلى مائدة، وأنا والأختان إلى مائدة أخرى. الراهبتان شابتان يتراوح عمرهما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، بشرتهما بيضاء صافية. إحداهما إسبانية والأخرى إرلندية، سألتني الإرلندية في لطف:

ــ أنت لست من هنا أليس كذلك؟

ــ أجل. أنا من برانكيا.

ــ لا. لست كولومبياً، فشعرك أشقر، ووجهك أسمر لوحته الشمس. من أين أنت قادم؟

ـ من ريوهاشا
ـ ماذا كنت تفعل هناك؟
ـ عامل كهرباء.
ـ آه. لي صديق في شركة الكهرباء يدعى بيزو، إنه إسباني، هل تعرفه؟
ـ أجل
ـ هذا يسرني.

وبعد الطعام نهضنا لغسل أيدينا. وعادت الإرلندية وحدها. نظرت إلي وقالت بالفرنسية:
ـ لن أخونك ولكن رفيقتي تقول بأنها رأت صورتك في إحدى الصحف. أنت الفرنسي الهارب من سجن ريو هاشا أليس كذلك؟
وجدت أن الإنكار أخطر فقلت:
ـ نعم يا أختاه، وأتوسل إليك أن لا تذكري شيئاً عن هذا. لست ذلك الإنسان الشرير كما صوروني في الصحف. أنا أحب الله وأعظمه.
جاءت الإسبانية فقالت لها الأخرى نعم. فردت بقول سريع لم أفهمه. وبدا عليهما التفكير. ونهضنا من جديد وذهبنا نحو المغسلة من جديد. وخلال الدقائق الخمس التي غابتا فيها، فكرت كيف أتصرف بسرعة. هل يجب أن أرحل؟ هل يجب أن أبقى؟ هذا يعود إلى ما تفكران فيه في الإخبار عني. فإن ذهبت فسرعان ما يعثر علي، فليس في المنطقة دغل أو حرج، وكذلك فإن الطرق المؤدية إلى المدن هي بالتأكيد سريعة المراقبة. واستسلمت للقدر الذي لم يكن ضدي حتى اليوم.

عادتا باسمتين وسألتني الإرلندية عن اسمي فقلت انريك.
ـ حسناً يا إنريك. ستأتي معنا إلى الدير وهو على بعد ثماني كيلو مترات من سانتا مرتا. ولا تخش شيئاً على الطريق وأنت معنا في العربة ولا تتكلم فسوف يظن الجميع أنك تعمل في الدير.

ودفعت الأختان ثمن الطعام. اشتريت اثني عشر علبة سجائر وقداحة صوفان وشققنا طريقنا إلى الدير. وعلى طول الطريق لم توجه لي الأختان أية كلمة، وقد سرني هذا لأن الخوذي لن ينتبه إلى أنني لا أحسن التكلم. ووقفنا أصيلاً عند استراحة كبيرة ورأيت باصاً مكتوباً عليه: ريو هاشا ـ سانتا مارتا. ورغبت في ركوبه فاقتربت من الإرلندية وقلت لها إنني أميل إلى ركوب هذا الباص. قالت: إنها لمخاطرة. فعلى الطريق ما لا يقل عن مركزين للشرطة يطلبون من المسافرين هوياتهم. وهذا لا يحصل في العربة.

فشكرت لها بحرارة. وحينئذ زال فجأة ما كان في قلبي من غم حل به منذ اكتشافها لشخصيتي. وعلى العكس كان من حسن حظي أن قابلت هاتين الأختين الطيبتين. وبالفعل وصلنا عند حلول الغسق إلى مخفر للشرطة وقد تعرض للتفتيش باص قادم من

سانتا مارتا وذاهب إلى ريوهاشا. رقدت على أرض العربة والقبعة من القش تغطي وجهي وتظاهرت بالنوم. والطفلة الصغيرة ذات الأعوام تنام حقاً متكئة برأسها على كتفي. وعندما مرت العربة أوقف الخوذي عربته بين المخفر والباص. قالت الراهبة الاسبانية:
ـ (كومو استان بور اكي) أي كيف حالكم هنا.
ـ جيد جداً يا أختاه
ـ أنا مسرورة بكم يا أولادي.

وذهبنا في هدوء. وفي العاشرة مساء مررنا على مخفر آخر يعج بالأضواء. وهناك صفان من العربات من كل نوع واقفة في الانتظار. تفتح صناديق السيارات ورجال الشرطة ينظرون داخلها ورأيت امرأة اجبرت على النزول وقد فتشوا حقيبة يدها ثم قادوها إلى المخفر ومن المحتمل أن لا يكون معها بطاقة شخصية.

لا حيلة لنا في هذه الحالة، فالعربات مترادفة، ونظراً لوجود صفين لا يمكن أن يكون لنا تر خطوة فالخطأ خطأ المسافة، ويجب أن نخضع للانتظار. ألقيت نفسي ضائعاً. أمامنا باص صغير مزدحم بالمسافرين، وعلى السطح في أعلاه حقائب وطرود كبيرة، وفي الخلف أيضاً نوع من الشبك الكبير مليء بالطرود. أربعة أشراط أنزلوا الركاب وليس لهذا الباص سوى باب واحد من الأمام نزل الرجال، والنساء وعلى أذرعهن أطفالهن، ثم صعدوا واحداً بعد واحد.

سيدولا، سيدولا. وأخرجوا جميعاً بطاقاتهم وعليها صورهم ثم أبرزوها.

(وريلو لم يحدثني قط عن هذا. ولو كنت أعلم لربما تدبرت واحدة مزيفة. وفكرت إذا تجاوزت هذا المخفر في أن أدفع أي مبلغ للحصول على (سيدولا) أي هوية شخصية، قبل أن أغادر سانتا مرتا إلى برانكيا وهي مدينة ذات شأن وعدد سكانها كما يذكر المعجم مئتان وخمسون ألفاً.

رباه ما أطول الإجراءات في هذا الأتوبوس. التفتت الأخت الإرلندية نحوي وقالت لي اطمئن يا أنريك. وما كنت أود منها هذه العبارة غير الحكيمة، فقد سمعها السائق ولا شك، وتقدمت عربتنا بدورها في هذا الضوء الباهر. قررت أن أجلس لأن الاستلقاء قد يوحي بأنني اختبيء. أسندت ظهري إلى ألواح العربة الخشبية ووجهي نحو ظهر الأختين، ولا يرى مني سوى جانب وجهي والقبعة مضغوطة فوق رأسي ولكن دون مبالغة.

قالت الراهبة الإسبانية:
ـ كومو استان توديس بور أكي) كيف حالكم جميعاً هنا؟
ـ جيد جداً أيتها الأخوات ولكن ما الذي أخركما إلى الآن؟
ـ حالة طارئة، لذا لا تؤخرونا، فنحن في عجلة من أمرنا.
ـ هيا. [illegible] يا أختينا.

ـ شكراً يا أولادي. حفظكم الله.
ـ آمين.

ومررنا دون أن يطلب منا أحد شيئاً. ويبدو أن الانفعالات في هذه الدقائق العصيبة قد أثرت في الأخوين، فشكتا من ألم في بطنيهما. إذ ما كادت العربة تبتعد مئة متر من هناك حتى أوقفنا العربة ولوغلنا في الدغل قليلاً ثم استأنفنا السير. وشرعت بالتدخين وكنت متأثراً، حتى إذا صعدت الإرلندية قلت لها: شكراً يا أختاه.

لا شيء يستحق الشكر، ولكن داخلنا من الخوف ما سبب لنا اضطراباً في أحشائنا. وصلت إلى الدير موهناً وكان له باب وسور كبيران. أخذ السائق الخيول إلى المبيت، وسبقت البنات الصغيرات إلى داخل الدير. وعلى عتبة الساحة انعقدت مناقشة بين الراهبة الحارسة والأختين. قالت لي الارلندية بأنها لا تريد إيقاظ الراهبة الأم لتطلب منها السماح بالمبيت في الدير. وهنا فقدت الحزم والقرار. كان ينبغي أن استغل هذا الموقف لكي أنسحب وأذهب إلى سانتا مرتا بحيث أعلم أنه لم يبق بيني وبينها سوى ثماني كيلو مترات. هذا الخطأ كلفني غالياً بعد سبعة أعوام في السجن. وأخيراً استفاقت الأم العليا. أعطيت غرفة في الطابق الثاني. كنت أرى من النافذة أضواء المدينة وميزت المنارة، وأضواء مركز عسكري. كان يخرج من المرفأ مركب كبير.

نمت. وعند شروق الشمس قرع الباب، وكنت أرى رؤيا رهيبة: لآلئ تفتح بطنها أمامي وتخرج منه الجنين إرباً.

حلقت لحيتي، وأسرعت في تمشيط شعري، ونزلت إلى الطابق الأول وكانت الأخت الارلندية في أسفل السلم، فاستقبلتني بلطف ابتسامة على ثغرها.

ـ صباح الخير يا هنري. هل نمت جيداً؟
ـ نعم أختاه.
ـ تفضل أرجوك إلى مكتب الأم التي تود رؤيتك.

فدخلنا فرأيت امرأة جالسة خلف مكتب. وجهها في غاية القسوة. لها من العمر خمسون سنة أو تزيد. تنظر بعينين سوداوين، تخلوان من الأنس والوداعة.

ـ هل تحسن التكلم باللغة الاسبانية
ـ قليلاً جداً.
ـ حسناً ستقوم الأخت بالترجمة. قيل لي إنك فرنسي.
ـ نعم أماه.
ـ هل أنت هارب من سجن ريوهاشا؟
ـ أجل أماه.
ـ منذ متى؟
ـ منذ سبعة أشهر تقريباً.

ـ ماذا فعلت خلال هذه الفترة؟
ـ كنت مع الهنود
ـ ماذا؟ مع الكاجيرو؟ شيء لا يقبله العقل. أبداً هؤلاء الوحوش لم يقبلوا إنساناً قط على أرضهم، ولم يستطع مبشر الدخول إليها. هل تتصور؟ لا أقبل هذا الجواب أين كنت قل الحقيقة.
ـ أماه كنت عند الهنود وعندي البرهان.
ـ ما هو؟
ـ لآلئ، صادوها بأنفسهم.

وفككت الكيس المعلق بدبوس في وسط ظهر سترتي، فطرحتها أمامي.

ـ كم لؤلؤة؟
ـ لا أعلم خمس مئة، ست مئة.
ـ هذا ليس ببرهان، قد تكون سرقتها من مكان ما.
ـ أماه. لكي يكون ضميرك مرتاحاً. سأبقى هنا إن شئت، الوقت الكافي، إلى أن تحصلي على المعلومات، إذا كانت هناك سرقة لؤلؤ. وعندي مال، وسوف أدفع نفقات مبيتي هنا، وأعد أنني لن أتحرك من غرفتي إلى اليوم الذي تتخذين فيه قراراً معاكساً.

نظرت إلي نظرة ثابتة وسرعان ما تبادر إلى ذهني أنها تحاول أن تقول: وإذا هربت؟ أنت هربت من السجن، والهروب من هنا أسهل.

ـ سأترك لك اللآلئ، التي هي ثروتي وأنا أعلم أنها في يد أمينة.
ـ حسناً. هذا معقول. لا، لست ملزماً بالبقاء في الغرفة تستطيع النزول إلى الحديقة في الصباح، وبعد الظهر، حين تكون الفتيات في الكنيسة، وسوف تأكل مع الطباخين، في المطبخ.

خرجت من هذه المقابلة وأنا بين الشك واليقين. وفي الوقت الذي كنت أهم فيه بالصعود إلى غرفتي قادتني الارلندية إلى المطبخ. قدموا لي القهوة بالحليب في جام[1]، وخبزاً أسود طازجاً وزبدة. شهدت الأخت فطوري واقفة واجمة ويبدو عليها القلق. قلت:

ـ شكراً لك أختاه على كل ما فعلت من أجلي.
ـ كنت أتمنى أن أفعل أكثر ولكن خرج الأمر من يدي يا صديقي هنري.

وبعد هذه الكلمات خرجت من المطبخ وأنا جالس أرى من النافذة المدينة والمرفأ والبحر، والريف في الضواحي حسن الزرع.

لا أستطيع التخلص من الإحساس بالخطر حتى أنني عزمت على الفرار في الليلة القادمة. لا أبالي باللآلئ، لتحتفظ بها للدير أو لنفسها. الأم الكبيرة لا توحي بالثقة، ومن جهة أخرى لا يمكن أن تخدعني، إذ كيف يحق لراهبة دير عالية أن لا تتكلم اللغة

(١) زبدية، أو سلطانية.

الفرنسية؟ هذا نادر جداً إذن سأهرب الليلة. سأنزل بعد ظهر اليوم إلى الساحة للنظر في المكان الذي يمكن أن أتسلل منه.

وحوالي الساعة الواحدة قرع الباب:

ـ تفضل بالنزول للغداء يا هنري.

ـ شكراً. سآتي حالاً.

وبينما كنت جالساً على المائدة وقد بدأنا بأكل اللحم والبطاطا المسلوقة انفتح الباب وظهر رجل مسلح ببندقية، وأربعة من رجال الشرطة في ملابسهم البيض وبأيديهم المسدسات.

ـ لا تتحرك وإلا قتلناك!!

ووضع القيد في يدي. صاحت الراهبة الإرلندية صيحة وأغمي عليها. وتعاونت على حملها راهبتان كانتا في المطبخ.

قال رئيسهم، فاموس أي هيا بنا.

صعد معي إلى غرفتي، ونبشوا أمتعتي فعثروا على القطع الذهبية الست والثلاثين، وكل واحدة تساوي مئة بيزو. وبقي معي الأنبوبة دون أن يفطنوا لها. وكذلك السهمان وربما حسبوهما قلمين. وفي ارتياح مفضوح وضع الذهب في جيبه جهاراً ثم خرجنا. وكان في الساحة عربة ما. تكدست أنا ورجال الشرطة الخمسة في العجلة التي انطلقت بنا مسرعة ويقودها سائق في ملابس شرطي، أسود كالفحم.

لقد قضي علي، ويجب أن لا أعترض، وأن أحاول التزام جانب الوقار، وليس علي أن ألتمس رحمة. خطر ببالي هذا كله خطور السهم وقلت لنفسي: كن رجلاً، والمهم أن لا تفقد الأمل، وعندما ترجلت من العربة عزمت على الظهور بمظهر الرجال وقد نجحت في ذلك إلى درجة أن الضابط بادر إلى القول بعد أن تفحصني: إن هذا الفرنسي جريء ولا يبدو عليه الخوف من وقوعه بين أيدينا، دخلت مكتبه، ورفعت قبعتي وجلست قبل أن يطلب مني ذلك، ووضعت خرجي بين قدمي.

ـ تومابس هابلار اسبانيول؟ هل تتكلم الإسبانية؟

ـ لا

ـ ناد الحذّاء

ـ وبعد لحظات وصل رجل قصير يرتدي صدارة زرقاء وبيده مطرقة الحذائين

ـ هل أنت الفرنسي الذي فر من ريوهاشا منذ عام؟

ـ لا

ـ أنت تكذب

ـ أنا لا أكذب. ولست ذلك الفرنسي الذي فر منذ عام.

ـ فك قيوده. اخلع سترتك وقميصك. (أخذ ورقة ونظر إلى الوشم المرسوم عليها)

ـ هل أنت فاقد إبهامك الأيسر.

ـ أجل

ـ إذن هو أنت

ـ إنه غيري. لأنني لم أهرب منذ سنة، بل منذ سبعة أشهر.

ـ سيّان

ـ بالنسبة إليك سيان أما بالنسبة إلي فلا.

ـ في رأيي: أنت قاتل نموذجي، إن كنت فرنسياً أو كولومبياً، فكل القتلة متشابهون في كونهم صعباً قيادهم. أنا القدم الثاني في هذا السجن، ولا أدري ما عساهم يفعلون بك وفي الوقت الحاضر ستنضم إلى زملائك القدامى.

ـ أي زملاء؟

ـ الذين أتيت بهم إلى كولومبيا.

تبعت رجال الشرطة الذين قادوني إلى سجن تشرف شبكته على الباحة فوجدت أصدقائي الخمسة فعانقنا. قال كلوزيو: تصورنا أنك نجوت إلى الأبد يا صديقي. وبكى ماتوريت مثل ولد صغير. والثلاثة الآخرون اعتصرهم الأسى. واللقاء بهم من جديد يمنحني قوة. قالوا لي: حدثنا.

ـ فيما بعد، وماذا عنكم؟

ـ نحن هنا منذ ثلاثة أشهر

ـ هل عاملوكم معاملة حسنة؟

ـ ليست بالحسنة ولا السيئة. ونحن بانتظار نقلنا إلى برانكيا حيث يبدو أنهم سوف يسلمونا إلى السلطات الفرنسية.

ـ يا لعصبة الأنذال! والهروب؟

ـ أتفكر بالهروب وأنت واصل لتوك.

ـ لا، ولكن أحياناً. أو تظن أنني أهجر الوطن هكذا؟ هل المراقبة مشددة؟

ـ المراقبة في النهار قليلة، أما في الليل فتوجد حراسة مخصصة من أجلنا.

ـ ما عددهم؟

ـ ثلاثة.

ـ كيف ساقك؟

ـ أحسن، ولا أعرج

ـ هل أنتم محبوسون دوماً؟

ـ لا. نفسح في الساحة، ساعتين في الصباح وثلاث ساعات بعد الظهر.

ـ كيف هم السجناء الآخرون الكولومبيون؟

ـ فيهم رجال خطرون. هم لصوص أكثر منهم قتلة.

كنت أتحدث مع كلوزيو بعد الظهر على انفراد عندما نوديت. تبعت الشرطي،

ودخلت المكتب الذي دخلته في الصباح، فرأيت المقدم المسؤول عن السجن وفي صحبته المقدم الذي استجوبني. كرسي الشرف يحتله رجل قاتم اللون يقرب من السواد، وهو بهذا اللون أقرب إلى الزنج منه إلى الهنود. شعره قصير جعد، إنه شعر زنجي يناهز الخمسين من عمره، عيناه سوداوان ماكرتان، شارباه قصيران جداً، يظللان شفة ضخمة من فم يلم عن سرعة الغضب، قميصه مفتوح، ولا يضع ربطة للعنق. وعلى ذراعه الأيسر شارة خضراء وبيضاء وعليها بعض الزخارف، والحنّاء أيضاً هناك.

– أيها الفرنسي لقد قبض عليك بعد فرار دام سبعة أشهر. ماذا كنت تفعل خلال هذه الفترة.

– كنت عند الكاجيرو.

– لا تسخر مني وإلا طلبت تأديبك

– إني أقول الحقيقة.

– لم يعش أحد عند الهنود. هذا أنهم قتلوا من خفر السواحل هذه السنة خمسة وعشرين.

– لا. المهربون هم الذين قتلوا خفر السواحل.

– كيف عرفت ذلك.

– عشت هناك سبعة أشهر فالكاجيرو لا يخرجون من أرضهم أبداً.

– حسناً. قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن من أين سرقت الست والثلاثين قطعة ذهبية

– إنها لي فقد أعطانيها رئيس القبيلة في الجبل اسمه جوست.

– من أين لهندي أن يحصل على هذه الثروة؟ وكيف يعطيكها؟

– يا رئيس. هل توجد سرقة ذهب من فئة مئة بيزو.

– لا. هذا صحيح. ليس في اللوائح سرقة. وهذا لا يمنع من أن نستعلم.

– افعل ذلك إكراماً لي.

– أيها الفرنسي. ارتكبت خطأً فادحاً بهروبك من سجن ريوهاشا، والخطأ الأدهى أنك هربت رجلاً كان سيقتل رمياً بالرصاص لقتله عدداً من خفر السواحل. والآن علمنا أنك مطلوب من قبل فرنسا حيث عليك أن تتحمل عقوبة السجن المؤبد. أنت قاتل خطر. لذا لن أغامر بهروبك من هنا بتركك مع الفرنسيين الآخرين. ستبقى في سجن مظلم حتى ساعة ترحيلك إلى برانكيا. والقطع الذهبية ستعاد إليك إذا لم يظهر أنها مسروقة.

خرجت منقاداً إلى سلم منحدر تحت الأرض أكثر من خمس وعشرين درجة. وصلنا إلى ممر هزيل النور، وعلى جانبيه أقفاص. فتحوا أحدها ودفعوني إلى داخله، وعندما يغلق الباب، وهو مطل على الممشى تفوح رائحة عفنة من أرض لزجة. كانوا ينادونني من كل جهة، وخلف كل ثقب مشبك بالحديد سجين أو سجينان أو ثلاثة.

– فرنسي، فرنسي! لم أنت هنا؟ ماذا فعلت؟ هل تعلم أن هذه الزنزانات أعدت للموت؟

وتنادي مناد:

– اسكتوا. دعوه يتكلم.

– أجل أنا فرنسي، وأنا هنا لأني هربت من سجن ريوهاشا (وقد فهموا هذه اللحلحة باللغة الاسبانية كل الفهم).

– تعلم هذا يا فرنسي! في قاع الزنزانة رف خشبي للنوم، وعلى يمينك علبة فيها ماء فلا تبدده لأنك لن تعطى سواه إلا القليل كل صباح، وعلى يسارك دلو عوض عن المرحاض غطه بسترتك. فلست هنا في حاجة إلى السترة نظراً لشدة الحر، وذلك لتخفف الرائحة نحن جميعاً نسد دلاءنا ببعض أمتعتنا.

اقتربت من الشباك محاولاً تمييز الوجوه، فاتضحت لي معالم وجهين فقط كانا مقابلين لي وقد التصق وجهاهما بالشباك. أحدهما من طراز هندي إسباني، من نفس جنس رجال الشرطة الذين أوقفوني في ريوهاشا، والآخر أسود، وليس سواده حالكاً، إنه شاب يافع، وقد أنذرني بأن الماء في أرض السجن يرتفع كلما اشتد المد، وعلي أن لا أجزع فإن الماء لن يرتفع أكثر من مستوى البطن، وأن لا أقبض على الجرذان التي تتمكن من الركوب علي، إنما أكتفي بتسديد ضربة لها، وقال: ولا تضربها إذا شئت أن لا تعضك. سألته:

– منذ كم أنت هنا؟

– منذ شهرين

– والآخرون

– ليس فيهم من زاد مكثه على ثلاثة أشهر، والذي أمضى ثلاثة أشهر ولم يخرج فإنه لا محالة هالك.

– ما أطول مدة قضاها رجل هنا؟

– ثمانية أشهر، ولكن لم يبق من بقي طويلاً.

وهذا الشاب منذ شهر وهو لا يستطيع الوقوف إلا على ركبتيه، وإذا جاء يوم يطغى فيه المد فإنه يكاد يموت غرقاً.

– ولكن بلدكم بلد متوحش.

– لم أقل لك إن بلدنا متمدين، وليس بلدكم متحضراً كذلك، ماداموا قد حكموا عليك مؤبداً. عندنا في كولومبيا، إما الإعدام وإما عشرون سنة، ولايوجد حكم بالسجن المؤبد.

– دع عنك هذا، فكلهم سواء في كل مكان.

– هل قتلت كثيراً؟

– لا. قتلت واحداً.

– مستحيل لا يحكمون هذه المدة الطويلة برجل واحد.

– أؤكد لك أن هذا صحيح.

ـ إذن أنت ترى معي أن بلدك لا يقل وحشية عن بلدي.
ـ لندع المناقشة في البلد. أنت على حق فرجال الشرطة في كل مكان قذرون. وأنت ماذا فعلت؟
ـ قتلت رجلاً وابنه وامرأته.
ـ لماذا؟
ـ لأنهم ألقوا بأخي الصغير إلى الخنزيرة لتأكله.
ـ مستحيل. يا للفظاعة.
ـ كان أخي وعمره خمس سنوات يلقي بالحجارة على ولدهم فجرحه في رأسه.
ـ ليس هذا مسوغاً لقتله.
ـ هذا ما قلته عندما علمت بالأمر.
ـ وكيف عرفت؟
ـ غاب أخي ثلاثة أيام. وبينما كنت أبحث عنه وجدت أحد نعليه في دمنة[1] كانت أخرجت من حظيرة الخنزيرة، وبينما كنت أنبش فيها وجدت جورباً أبيض مضرجاً بالدم ففهمت، واعترفت الأم قبل أن أقتلها، وجعلتهم يصلون قبل أن أطلق النار. والطلقة الأولى حطمت ساقي الأب.
ـ أحسنت صنعاً بقتلهم، ما عساهم يفعلون بك؟
ـ عشرون عاماً على الأكثر.
ـ ولماذا أنت هنا؟
ـ ضربت شرطياً من أسرتهم كان هنا في السجن، ثم أبعدوه، لذا فأنا مرتاح.

انفتح باب الممر ودخل حارس مع سجينين يحملان برميلاً خشبياً معلقاً على قضيبين، وخلفهم حارسان يحملان بندقيتين. كانوا يخرجون الدلاء المستعملة بدلاً من المراحيض، ويفرغون ما فيها في البرميل، والروائح تسمم الجو إلى درجة الاختناق. وعندما وصلوا إلي ألقى لي الذي حل دلوي، بطرد صغير على أرض السرداب فدفعته برجلي إلى الداخل في سرعة. ولما انصرفوا وجدت علبتي سجائر وقداحة صوفان وورقة مكتوب عليها باللغة الفرنسية. أشعلت أولاً سيجارتين وألقيت بهما إلى الرجلين المقابلين. وناديت جاري فمد يده وتناول السجائر وهو بدوره مدها للآخرين وبعد هذا التوزيع، أشعلت قداحتي وحاولت أن أقرأ ما في الورقة على ضوء الفتيل فلم أتمكن. وحينئذ برمت الورقة التي لفت بها علبتا السجائر، برماً دقيقاً، وبعد جهد متكرر أشعلت الورقة وقرأت:

وتشجع بابيون، اعتمد علينا، وانتبه جيداً. سترسل لك غداً ورقة وقلماً لتكتب إلينا. نحن معك حتى الموت».

فأشاع هذا القول في قلبي حرارة. فهذه الكلمة الصغيرة بالنسبة إلي مجددة للعزيمة

(1) مزبلة.

والنشاط، فأنا لست وحدي وبوسعي الاعتماد على صحبي.

ما من أحد يتكلم، فالجميع يدخنون، وتوزيع السجائر جعلني أعرف أن عدد السجناء في سراديب الهلاك تسعة عشر. وهأنذا من جديد في طريق العفن. وهذه المرة إلى الأعناق. فأصوات الرب الطيب، كن أصوات الشيطان. ومع ذلك فأنا واثق بأن من وشى بي لم تكن الراهبة الإرلندية ولا الاسبانية. أية حماقة ارتكبتها بوثوقي بالراهبات.

آه. لا. ليس هن من فعل هذا. ربما فعله السائق الذي تكلمت الأختان أمامه بالفرنسية مرتين أو ثلاثاً دون تبصر ولا حذر. هل سمع؟ ماذا يهم؟ المهم أنني وقعت، وقعت بجد. سواء أكان من أوقعني الأخوات أم السائق أم الراهبة الأم فالنتيجة واحدة.

لقد ألقي بي في هذا السرداب الشنيع الذي يفيض بالماء مرتين في اليوم بتأثير المد، والحر خانق جداً. نزعت قميصي فبنطالي، وخلعت حذائي وعلقت الجميع بالشباك الحديدي. لقد قطعت ألفين وخمس مئة كيلو متر لأصل إلى هنا؟ ما أفظع هذا المآل حقاً. رباه! لقد كنت كريماً جداً معي فهل تتخلى عني؟ ربما كنت غاضباً علي. أما وهبت لي حرية؟ وامرأتين رائعتين لا إمرأة واحدة، والشمس والبحر، ومنزلاً كنت فيه سيداً بلا منازع. هذه الحياة في أحضان الطبيعة، هذه الحياة البدائية ولكن ما أحلاها وأعدلها من حياة. وهذه الهدية الفذة التي قدمتها لي ألا وهي الحرية فلا حراس ولا قضاء، لا حساد ولا أشرار يحيطون بي، وأنا الذي لم أقدر هذه النعمة حق قدرها. هذا البحر بزرقته واخضراره وظلمته أحياناً، وشروق الشمس المغمور بالطمأنينة الصافية العذبة. هذا الأسلوب في العيش دون مال، ولا ينقص شيء ضروري لحياة رجل. كل هذا وطئته بقدمي وازدريته لأذهب، وإلى أين؟ إلى مجتمعات لا تريد أن تحنو علي، إلى مخلوقات لا تكلف نفسها معرفة ما يكمن في نفسي من أسباب الصلاح. إلى عالم يدفعني عنه، ويرمي بي بعيداً عن الأمل، إلى مجتمعات لا تفكر إلا في شيء واحد، هو إزالتي بأية وسيلة كانت.

عندما يسمع أولئك الرجال الاثنا عشر في القضاء خبر اعتقالي سوف يمرحون ويضحكون. الشاهد، ورجال الشرطة والمدعي العام، إذ لا بد أن ينبري صحفي فيرسل النبأ إلى فرنسا. وحين يذهب رجال الشرطة إلى أقاربي ويعلنون لهم هروبي يسعدون بفرار صغيرهم أو أخيهم من أيدي الجلادين، والآن إذا علموا بالقبض عليه ثانية فسوف يغتمون مرة أخرى.

لقد أخطأت إذ تنكرت لعشيرتي. أجل أستطيع القول «عشيرتي» لأنهم جميعاً تبنوني. لقد أخطأت وأستحق ما جرى لي. ومع ذلك لم أهرب لأزيد في عدد الهنود في أمريكا الجنوبية. يا إلهي يجب أن أعيش في مجتمع متحضر سوي، وأبرهن على أنني جزء منه دون أن أكون خطراً عليه. هذا هو قدري معك أو بدون عونك. يجب أن أقيم الدليل على

أنني قادر حاضراً ومستقبلاً على أن أكون مخلوقاً سوياً إن لم أكن أفضل من أفراد آخرين في مجتمع ما أو بلد ما.

دخنت سيجارة. بدأ الماء يصعد حتى وصل إلى كعبي، فناديت الأسود وقلت له:

ـ كم يبقى الماء في الزنزانة؟

ـ هذا منوط بقوة المد، ساعة أو ساعتين على الأكثر.

سمعنا بعض السجناء يصيحون: «إنه كاندوو أتي وصل». وبدأ الماء يرتفع بالتدريج وشيئاً فشيئاً. تعلق الأسود والخلاسي بالقضبان الحديدية وتدلى سيقانهما في الممر وأحاطا بأذرعهما القضيبين. سمعت ضجة في الماء. هذا جرذ بحجم الهر، يحاول الصعود على الشبك. فتناولت حذائي ولما جاء من ناحيتي، سددت له ضربة على رأسه فجرى في الممر يصرخ. قال الأسود:

ـ يا فرنسي هل شرعت في الصيد؟ إذا أردت قتلها جميعاً فإنك لن تنتهي. اصعد على الشبك وتمسك بالقضبان وابق هادئاً.

اتبعت نصيحته ولكن القضبان تقطع فخذي، فلا أستطيع الثبات في هذا الوضع. كشفت الدلو، واستعملت سترتي وربطتها بالقضبان وتزلقت عليها فكانت لي كرسياً، مما يتيح لي في هذا الوضع احتمالاً أفضل. لأنني الآن شبه قاعد.

إن هجوم الماء وما يحمله معه من الجرذان وكثيرات الأرجل والسرطانات الصغيرة هو أحط وأكره ما يستطيع احتماله بشر.

وبعد أن انحسر الماء بعد ساعة طويلة، يبقى وحل لزج، يزيد سمكه على سنتمتر. لبست حذائي كيلا أخوض في الوحل. رمى الأسود بخشبة طولها عشرة سنتمترات لأجرف بها الوحل ابتداء من خشبة النوم وحتى الممر. إن هذا العمل استغرق نصف ساعة، وجعلني لا أفكر إلا به. إنه أمر ما. قبل المد التالي لن يكون عندي ماء خلال إحدى عشر ساعة بالضبط، إذن الساعة الأخيرة هي ساعة الفيضان. ولمعرفة إقبال الماء من جديد يجب عد الساعات الست حيث يكون الجزر والساعات الخمس حيث يعود إلى الصعود.

فأجريت هذا التفكير المضحك:

بابيون. أنت مقدر لك أن تكون على صلة مع مد البحر وجزره، والقمر ـ شئت أم أبيت ـ له أهمية كبيرة بالنسبة إليك وإلى حياتك. فبفضل المد والجزر استطعت الخروج من ماروني عندما هربت من سجن الميناء. وبحساب ساعة المد خرجت من ترينيداد ومن كوراساو، وإذا كنت قد وقعت في ريوهاشا فذلك لأن الجزر لم يكن بالقوة الكافية ليبعدني بصورة أسرع وأنت الآن تحت رحمة هذا المد الدائم الثابت.

إذا قيض لهذه الصفحات أن تنشر يوماً ما، فإنني واجد بين القراء من يرثي لحالي مما كابدت وتحملت من عذاب في هذه السجون الكولومبية. فهؤلاء هم الأخيار، وأما

الآخرون من أقاربي الاثني عشر الذين حكموا علي أو أخوة المدعي العام، فسوف يقولون: إنه يستحق ذلك ولو أنه بقي في سجن الميناء لما جرى له ما جرى وهل أقول لكم أيها الطيبون، ولكم أيها الشامتون، إنني لا أعرف اليأس أبداً وأفضل أن أكون في هذا السجن من القلعة الكولومبية القديمة التي بنتها محاكم التفتيش الاسبانية، على البقاء في جزر السلام حيث يجب أن أكون في هذه الساعة. لا يزال أمامي الكثير من محاولات الهرب، وأنا في هذا الثقب العفن لا زلت بعيداً عن سجن الميناء بمقدار ألفين وخمس مئة كيلو متراً.

وما ندمت على شيء ندمي على عشيرتي الكاجيرا ولالي وزوراتما، وعلى هذه الحرية في الطبيعة التي ليس فيها رغد الحضارة ولكنها أيضاً بدون شرطة ولا سجن ولا زنزانات. لا أفكر إلا بهؤلاء المتوحشين الذين لم يخطر ببالهم أن يمارسوا مثل هذا التعذيب على أعدائهم، فما بالك في رجل مثلي لم يرتكب قط جريمة في حق الكولومبيين.

استلقيت على اللوح الخشبي، ودخنت سيجارتين أوثلاثاً في آخر الزنزانة، لئلا يرى الآخرون الدخان، وعندما أرجعت للأسود خشبته، ألقيت له بسيجارة مشتعلة، وهو بدوره فعل مثلي بخالب نظره. هذه التفاصيل التي تبدو تافهة هي في مشاعري ذات قيمة، وهذا دليل على أننا نحن المنبوذين من المجتمع، لا تزال لدينا بقية على الأقل من أدب السلوك ورقة الاحتشام.

وليس الحال هنا كما في سجن التوقيف. أنا هنا أستطيع أن أحلم وأن أحوم في الفضاء دون أن أضطر إلى وضع المنديل لحماية عيني من النور الباهر.

متذا الذي أخبر الشرطة بوجودي في الدير؟ له لو عرفته يوماً لجعلته يدفع الثمن. ثم قلت لنفسي: لا تكن غبياً يا بابيون، فكر بما ستعمله في فرنسا. لم تأت إلى هنا، وأنت الضائع، لكي تسيء إلى أحد، ولا بد لهذا الواشي من أن تعاقبه الحياة نفسها، وإذا رجعت يوماً ما فليس من أجل الانتقام أعود بل من أجل لالي وزوراتما، وربما من أجل أولادك منهما. وإذا كتبت لي العودة إلى هذا البلد فسوف يكون ذلك من أجلهما، ومن أجل رجال الكاجيرا كلهم لأنهم أسعدوني بقبولي بينهم كواحد منهم.

لا زلت في طريق العفن، وفي زنزانة تحت الماء، وأنا في طريق الفرار والحرية شئتم أو أبيتم. أبيتم في هذا أم أبوا هذا شيء يستحيل إنكاره.

حصلت على ورقة وقلم وعلبتي سجائر. وقد مضى على وجودي هنا ثلاثة أيام بل ثلاث ليال إذ يستوي الليل والنهار. وبينما كنت أشعل السيجارة لم أستطع إخفاء شعور الإعجاب بهذا التفاني بين السجناء، فكم يخاطر هذا الكولومبي الذي يأتيني بالدخان؟ ولو أنه وقع لكان مصيره إلى هذه الزنزانات بلا ريب.

فهو حين قبل مساعدتي في محنتي ودون أن يعرفني لم يكن شجاعاً فحسب بل كان على درجة من النبل نادرة. وبالطريقة نفسها في إشعال الورقة قرأت:

نحن نعلم يا بابيون أنك صامد. برافو. خبرنا عن أحوالك. نحن على ما نحن عليه. جاءت راهبة تتكلم الفرنسية لتراك ولم يسمحوا لها بمخاطبتنا ولكن أحد الكولومبيين قال لنا بأنه تسنى له أن يقول لها إن الفرنسي في سراديب القناء. فقالت إنها ستعود. هذا كل شيء. إليك قبلاتنا. أصدقاؤك. ليست الإجابة سهلة ومع ذلك كتبت:

شكراً لكم على كل شيء. وإني لقادر على ما يتوني. اكتبوا إلى القنصل الفرنسي، وما يدريكم. فهو صاحب التوكيل. ففي حالة الحوادث يجب أن يكون هناك من يستحق العقاب. لا تلمسوا رأس السهمين. فليعش الهروب.

الهروب إلى سانتا مرتا

بعد ثمانية وعشرين يوماً، وبتدخل من قنصل بلجيكي في سانتا مرتا، يدعى كلوزن، أخرجت من هذه المغارة الدنسة. وكان الرجل الأسود، ويدعى بالاسبوس قد خرج بعد ثلاثة أسابيع من وصولي. وهو صاحب فكرة إعلام أمه في إحدى زياراتها بأن تخبر البلجيكي بأن بلجيكياً مسجون في هذه الزنزانات المظلمة. وقد واتته الفكرة حين رأى القنصل يزور بلجيكياً يوم الأحد. في أحد الأيام اقتادوني إلى مكتب المقدم الذي بادرني بالقول:

ـ أنت فرنسي فلماذا تقدمت بطلب التماس إلى القنصل البلجيكي، وكان في المكتب رجل يرتدي الملابس البيض يناهز الخمسين من عمره، شعره أشقر حتى كاد أن يكون أبيض، ووجهه مستدير ممتلئ متورد، وكان جالساً على أريكة وعلى ركبتيه محفظة جلدية، وفي الحال تحققت من صفته.

ـ أنت الذي تقول ذلك. أنا اعترفت بأنني هربت من العدالة الفرنسية، ولكنني بلجيكي قال الرجل القصير ذو الوجه الذي يشبه وجه خوري:

ـ ها، هل رأيت؟

ـ لم لم تقل هذا؟

ـ بالنسبة إلي، ليس لهذا أهمية، لأنني لم ارتكب جرماً ذا شأن على أرضكم سوى أنني هربت وهذا طبيعي بالنسبة لكل سجين.

ـ حسناً ستكون مع رفاقك، ولكن يا سيدي القنصل أنذرك بأنه عند أول محاولة للفرار سأعيده إلى حيث أتى. خذوه إلى الحلاق ثم ضموه إلى زملائه. قلت بالفرنسية:

ـ شكراً لك يا سيدي القنصل، شكراً جزيلاً على ما تجشمت من أجلي.

ـ يا إلهي، كم عانيت في هذه الزنزانة الشنيعة، تتصرف مسرعاً، قبل أن يرجع هذا الحيوان عن رأيه، سأعود لرؤيتك. إلى اللقاء.

لم يكن الحلاق موجوداً، والتحقت برفاقي، ويبدو أنه كانت لي صورة غريبة، لأنهم لم يكفوا عن القول إننا نتركك. مستحيل. ماذا فعل بك القذرون؟ حدثنا، كلمنا عن شيء. هل أنت أعمى؟ ماذا في عينيك؟ لماذا توالي بين فتحهما وإطباقهما؟

ـ لأنني لم أتعود هذا النور، هذا الضياء شديد جداً ويجرح عيني اللتين ألفتا الظلام. جلست وأنا أنظر نحو الزنزانة. ما أحسن الحال هنا.

ـ تفوح منك رائحة العفن، هذا أمر لا يتصوره عقل.

تعريت تماماً ووضعوا ملابسي قرب الباب. كان ذراعاي وظهري، وفخذاي وساقاي مليئة بآثار اللدغ الحمراء مثل لدغات البق عندنا، وعضات السراطين الصغيرة التي كانت تقوم مع المد. لقد كنت شنيعاً، ولم أكن في حاجة إلى مرآة لأعرف هذا.

هؤلاء السجناء الخمسة الذين شاهدوا الكثير في حياتهم، انعقدت ألسنتهم، وأذهلتهم رؤيتي على هذه الحال.

نادى كلوزيو شرطياً وقال له: إذا لم يكن هناك حلاق فإن الماء موجود في الباحة. فأجابه بأن عليه انتظار الخروج. خرجت عارياً وكلوزيو يحمل لي ملابس نظيفة لأرتديها.

وبمعاونة ماتوريت اغتسلت واغتسلت بصابون عني أسود. وكلما اغتسلت زالت عن جسمي أدران جديدة. وبعد اغتسال بالصابون تارة وبالماء تارة عدة مرات أحسست بأنني نظيف. جففت جسمي بالشمس في خمس دقائق ثم ارتديت ملابسي. وصل الحلاق وأراد أن يجز شعري جزاً قلت له: لا. قص عادية واحلق لحيتي وسوف أدفع لك.

ـ كم؟

ـ بيزو

قال كلوزيو: اتقن عملك وسوف أدفع لك اثنين.

أحسست بأن الروح قد ردت إلي بعد الاستحمام والحلاقة والملابس النظيفة. رفاقي يستعيدونني الحديث عن الماء وصعوده، وعن كثيرات الأرجل، والوحل، والسراطين، والقاذورات في البرميل، والأموات المخرجين وقد ماتوا إما حتف أنوفهم وإما انتحاراً وإما شنقاً، وإما بالانتحار على أيدي رجال الشرطة. الأسئلة تنهال علي دون توقف، والكلام

الكثير أعطشني، وفي الساحة رجل يبيع القهوة ففي خلال الساعات التي قضيتها في الساحة شربت أكثر من عشرة فناجين قهوة ثقيلة محلاة بسكر غير مصفى، وكانت في فمي أطيب شراب في العالم. جاء الرجل الأسود لتحيتي. وشرح لي بصوت منخفض حكاية أمه مع القنصل البلجيكي، فصافحته في حرارة، وكان فخوراً بأنه سبب خروجي، ثم انسحب وهو في غاية السرور، وقال: لقد تكلمنا ما فيه الكفاية وسوف نتحدث غداً.

رأيت سجن رفاقي قصراً. فكلوزيو له سرير أرجوحي، خصه اشتراه بمالي، أجبرني على النوم فيه. فتمددت فيه في الهواء مخالف، فاستغرب هذا، وشرحت له بأنه إذا نام على السرير طولاً فهذا يعني أنه يجهل طريقة استعماله.

كنا نأكل ونشرب وننام ونلعب بالداما والورق ونتكلم اللغةالإسبانية فيما بيننا ومع رجال الشرطة والسجناء الكولومبيين لنتمكن من هذه اللغة.

كل هذه النشاطات كانت تحمل نهارنا وجزءاً من ليلنا. إن النوم في الساعة التاسعة يشق على النفس. لهذا كانت تفاصيل الهروب من المستشفى من سان لوران إلى سانتا مرتا تتسلل أمام عيني وتتطلب الاستمرار وسوف تستمر، وقلت في نفسي: استعد قواك فهناك مراحل جديدة. كن واثقاً.

وجدت السهمين، وورق الكوكا، إحداهما جافة تماماً والأخرى لا تزال خضراء قليلاً فمضغتها فنظر إلى الجميع مذعورين، فشرحت لهم بأن الكوكائين يصنع من هذه الأوراق.

ــ أنت تسخر منا

ــ ذق

ــ فعلاً إنه يخدر اللسان والشفتين.

ــ هل يباع منه هنا؟

ــ لا أدري. كيف فعلت يا كلوزيو لتظهر المال من وقت إلى آخر؟

ــ بدلت في ريوهاشا ومنذ ذلك الحين وأنا في نظر الجميع أملك المال.

ــ عندي ست وثلاثون قطعة ذهبية من فئة مئة بيزو مع المقدم وكل قطعة تساوي ثلاث مئة بيزو. وسوف أثير موضوعها في يوم من الأيام

ــ إنها لثروة، ساومه عليها.

ــ إنهم جشعون

ــ فكرة حسنة.

تحدثت يوم الأحد مع القنصل البلجيكي، والسجين البلجيكي. هذا السجين متهم بسوء الائتمان في شركة أمريكية للموز، وقد كرس القنصل نفسه لحمايتنا وهو متحمس لإسداء خدمة لي وقد دون استمارة سجل لي فيها تصريحاً بأنني ولدت من أبوين بلجيكيين في بروكسل.

حدثه عن الراهبات واللآلئ. ولكنه وهو البروتستانتي لا يعرف الراهبات ولا الخوارنة إنما يعرف الأسقف قليلاً. ونصحني أن لا أطلب القطع الذهبية لأن في ذلك مخاطرة، وأنه يجب التصريح بذلك قبل الذهاب إلى برانكيا بأربع وعشرين ساعة. وقال: يمكن التصريح بحضوري فهل لديك شهود؟

ــ أجل

ــ في الوقت الحاضر لا تطلب شيئاً فإنه قادر على إرجاعك إلى السرداب، وربما سعى إلى قتلك. حقاً إنها ثروة صغيرة. والقطعة لا تساوي ثلاث مئة بيزو كما تظن بل خمس مئة. إنه مبلغ ضخم، قد تلعب بالنار. أما بالنسبة لموضوع اللآلئ، فالأمر مختلف. أمهلني لأفكر.

سألت الأسود إذا كان يطمح إلى الهروب معي، وكيف يجب، في رأيه، أن أتصرف.

فاربد وجهه عندما سمع الحديث عن الهروب.

ــ أرجوك يا رجل. دعك حتى من التفكير فيه، فإنك ملاق موتاً بطيئاً شنيعاً. ولقد ذقت شيئاً من طعمه. اصبر حتى تكون في مكان آخر في برانكيا. أما هنا فهو انتحار. هل تريد أن تموت؟ اسكن. ففي جميع أنحاء كولومبيا لا يوجد سرداب كالذي عرفته، فلماذا تخاطر هنا؟

ــ نعم، ولكن الجدار هنا ليس مفرطاً في الارتفاع، وهو هين نسبياً.

ــ هين؟ لا. لا تتكل علي، لا في الذهاب ولا في المساعدة ولا في الكلام. ثم فارقني مذعوراً وهو يقول:

لست إنساناً سوياً أيها الفرنسي، أنت مجنون، إذ تفكر بأمر كهذا هنا في سانتا مرتا. كل صباح وكل أصيل كنت أنظر إلى هؤلاء السجناء الذين هم في هذا المكان، لارتكابهم جرائم خطيرة وجوه تتعلق بالإجرام ولكن المرء يحس بأنهم خاضعون للسيطرة، لأن الخوف من الذهاب إلى هذه السراديب يشلهم شللاً تاماً.

منذ أربعة أيام رأينا خروج شيطان مريد من السرداب، رأسه أكبر من رأسي، ويدعى كيمان مشهور بأنه خطر جداً. تحدثت معه، وبعد عدة نزهات قلت له:

ــ كيمان! هل ترغب في الهروب معي؟

نظر إلي وكأنني شيطان وقال: حتى أعود من حيث جئت إذا أخفقنا؟ لا. شكراً إن قتل أمي أهون عندي من العودة إلى هناك.

وهذا آخر من حاولت معه، ثم لم أعد إلى ذكر الهروب مع أحد.

في اليوم التالي رأيت المقدم رئيس السجن. توقف ونظر إلي وقال: كيف حالك؟

ــ جيد. وسأكون في حال أفضل لو حصلت على القطع الذهبية.

ــ لماذا؟

ـ لأنني أتمكن من توكيل محام.
ـ تعال معي.
وأدخلني إلى مكتبه. فنحن وحدنا. قدم لي سيجاراً ـ لا بأس ـ وأشعله. ومن حسن إلى أحسن.
ـ هل تتكلم الإسبانية لتفهم وتجيب. إذا حدثتك ببطء؟
ـ نعم.
ـ حسناً تقول إنك راغب في بيع الست والعشرين قطعة ذهبية.
ـ لا. الست والثلاثون.
ـ أجل، أجل. وبالمبلغ تريد توكيل محام. وليس أحد سوانا نحن الاثنين يعرف أن هذه النقود لك.
ـ بل. هناك الرقيب والرجال الخمس الذين أوقفوني، ثم المقدم الأحمر الذي صادرها مني وسلمها لك، ثم قنصل بلادي.
ـ آه. آه (بيينو) وهذا أفضل حين يكون عدد من الناس على اطلاع على الموضوع. وهكذا نستطيع التصرف بوضوح. أنت تعلم أنني قدمت لك خدمة كبيرة إذ سكت ولم أعمم طلب الاستعلام على مختلف أقسام الشرطة في البلاد التي مررت بها لموافاتنا بمعلومات عن سرقة قطع ذهبية.
ـ ولكن يجب أن تفعل.
ـ لا. لم أفعله لصالحك.
ـ شكراً أيها المقدم.
ـ هل ترغب في أن أبيعها لك؟
ـ بكم؟
ـ بالسعر الذي دفع لك، كما قلت ثلاث مئة بيزو للقطعة الواحدة، وسوف تعطيني مئة بيزو عن كل قطعة مقابل ما قدمت لك من خدمة. فما رأيك؟
ـ لا. سترد لي القطع عشراً عشراً وأنا أدفع لك عن كل قطعة مئتين، لا مئة واحدة وهذا يساوي ما فعلته من أجلي.
ـ أيها الفرنسي إنك خبيث جداً. ما أنا إلا ضابط كولومبي مسكين كثير الوثوق قليل الذكاء، أما أنت فرجل ذكي وماكر جداً.
ـ حسناً. ما العرض الذي تريد أن تقدمه لي.
ـ غداً سأحضر الشاري إلى مكتبي هنا وهو يقدم العرض بعد أن يرى القطع وبالشاري. إما هذا وإما فلا. وسوف أرسلك إلى براتكيا مع النقود أو أحتفظ بها قيد التحقيق.
لا. إليك عرضي الأخير الرجل يأتي إلى هنا ويرى القطع، وكل ما زاد على ثلاث مئة وخمسين بيزو للقطعة فهو لك.

ـ حسناً. ولكن أين سنضع هذا المبلغ الكبير؟
ـ في لحظة تسليم المال تستدعي القنصل البلجيكي. سأعطيه إياها ليدفع للمحامي.
ـ لا. لا أريد شاهداً.
ـ إنك لن تجازف. فأنا سأوقع لك اعترافاً بأنك أعدت الست والثلاثين قطعة. قبل وإذا كنت مستقيماً معي فسوف أعرض عليك اقتراحاً آخر.
ـ ما هو؟
ـ ثق بي. إنه جيد كالأول. وفي العرض الثاني سيكون المبلغ مضاعفاً.
ـ ما هو؟ قل لي.
ـ حسناً غداً وفي الساعة الخامسة مساء، عندما يصبح المبلغ في مأمن مع القنصل سأقول لك الموضوع الآخر.
وكانت المقابلة طويلة، وعندما عدت مسروراً إلى الباحة، كان رفاقي قد دخلوا إلى الزنزانة.
ـ ماذا يجري؟ فرويت لهم الحوار بأكمله، فأغرقوا في الضحك على الرغم مما نحن فيه.
ـ يا له من ثعلب، ولكنك تفوقت عليه في السرعة. هل تعتقد أن الأمور ستسير وفق هواك؟
ـ إنني أقامر بمئة بيزو مقابل مئتين مما في الجيب. أليس هناك من يقامر؟
ـ وأنا أعتقد أن المسألة ميسرة.
قضيت الليل مفكراً فالموضوع الأول في حكم المنتهي، والموضوع الثاني موضوع اللآلئ، والمسألة محلولة أيضاً، وسوف يسر كثيراً في استعادة اللآلئ. وأما المسألة الثالثة هي أن أعطيه كل ما حصلت عليه مقابل أن يهيء لي سرقة مركب من المرفأ، وأستطيع شراءه بما أملك في الأسبوع وسوف أرى إن كان يثبت أمام هذه المحاولة. بماذا أغامر؟ فبعد العمليتين الأولى والثانية لن يستطيع معاقبتي. سنرى.
لا تبع جلد الدب. يمكنك التريث حتى براتكيا. ولكن لماذا؟ فالمدينة أكثر أهمية من هذه، والسجن فيها أبعى وسوف تكون مراقبتك أكبر، وستكون الجدران أعلى. ينبغي أن أعود إلى الحياة مع لالي، وزورايما، سأهرب في سرعة. وأنتظر هناك سنوات، وسوف أذهب إلى الجبل مع القبيلة التي تملك النهر وأكون على اتصال بالفنزويليين.
هذا الهروب يجب أن أسعى لإنجاحه بأي ثمن وكنت طوال الليل أدبر كيفية الوصول إلى الموضوع الثالث.
ولم يكن الغد بعيداً. ففي الساعة التاسعة صباحاً جيء في طلبي لأقابل سيداً ينتظرني عند المقدم. بقي الشرطي خارجاً. وكنت أمام رجل في الستين من عمره يرتدي

ملابس رمادية وربطة عنق رمادية اللون. وعلى المنضدة قبعة كبيرة واسعة من نوع قبعات رعاة البقر. وكان على ربطة عنقه وبشكل بارز، لؤلؤة رمادية وزرقاء فضية. ولا يخلو هذا الرجل النحيل من بعض الأناقة.

ـ صباح الخير؟

ـ هل تتكلم الفرنسية؟

ـ نعم يا سيدي، أنا لبناني الأصل. أرى أنك تملك قطعاً ذهبية من فئة بيزو وأنا ولوع بأمثالها. وتريد خمس مئة بيزو لكل واحدة.

ـ لا. ست مئة وخمسين.

ـ معلومات خاطئة، فسعرها الأعلى خمس مئة وخمسون.

ـ اسمع ما دمت ستأخذها كلها فأنا أبيع بست مئة.

ـ لا. بخمس مئة وخمسين.

وباختصار اتفقنا على خمس مئة وثمانين. صفقة معقولة.

ـ ماذا قلت؟

ـ تمت الصفقة أيها المقدم وسيكون البيع بعد الظهر.

وانصرف الرجل وقال المقدم:

ـ جيد جداً فما مقدار ما يعود لي؟

ـ مئتان وخمسون في القطعة. أرأيت؟ لقد أعطيتك مئتين ونصف ما أردت أن تكسب في القطعة.

فابتسم وقال: والأمر الآخر؟

ـ أولاً على القنصل أن يحضر ويقبض المبلغ، وبعد منصرفه سأقول لك الموضوع الثاني.

ـ إذن هناك موضوع ثان حقاً؟

ـ لقد وعدتك.

ـ أرجو أن يتحقق ذلك.

وفي الساعة الثانية كان القنصل واللبناني حاضرين. وأعطاني هذا الأخير مبلغ عشرين ألفاً وثماني مئة بيزو. وسلمت القنصل البلجيكي اثني عشر وست مئة، والمقدم ثمانية آلاف ومئتين وثمانين. ووقعت إيصالاً للمقدم بأنه أعاد لي القطع الذهبية الست والثلاثين. ثم بقينا وحيدينا أنا والمقدم، وخبرته بخبر الراهبة الكبيرة.

ـ كم لؤلؤة؟

ـ من خمس مئة إلى ست مئة.

ـ يا لها من لعبة! وسوف ألزمها بإعادتها إليك أو تودعها لدى الشرطة. وسوف أصرح بذلك.

ـ لا. سوف تذهب لتراها بنفسك حاملاً مني رسالة باللغة الفرنسية. وقبل أن تفاتحها بالرسالة تستدعي الإرلندية.

ـ فهمت الآن الإرلندية هي التي ستقرأ الرسالة المكتوبة بالفرنسية وتترجمها. فأنا ذاهب إليها.

ـ انتظر الرسالة.

ـ حقاً.

وصاح من الباب المفتوح: يا جوزة هيء العربة مع شرطيين.

وجلست إلى مكتب المقدم وعلى ورقة من أوراق السجن كتبت الرسالة التالية:

«سيدتي كبرى راهبات الدير. إلى الأخت الإرلندية المحبة.

عندما قادني الرب اليكم كنت أعتقد أنني سأجد منكم عوناً وهو حق من حقوق كل مضطهد، في الشريعة المسيحية. وكنت أودعت عندكم كيساً من اللآلئ، هو ملكي، وذلك لتحكم الثقة بأنني لن أغادر بطريقة غير مشروعة سقفكم الذي يحمي بيتاً من بيوت الله. وظن شخص حقير أن من واجبه إخبار الشرطة التي سارعت إلى اعتقالي عندكم. وأرجو أن لا تكون هذه النفس الدنيئة التي قامت بهذه المبادرة نفساً تابعة لإحدى بنات الله في منزلكم، ولا أستطيع القول بأنني أستطيع أن أسامح هذا المخلوق الفاسد ذكراً كان أم أنثى، وإلا أكن قد قلت فنداً[1]. بل على العكس إني أتضرع إلى الله أو إلى أحد القديسين من قلب مجروح، أن يعاقب بغير رحمة من ارتكب هذه الخطيئة الفظيعة.

ارجوك يا سيدتي الكبيرة أن ترضي إلى المقدم سيزاريو كيس اللآلئ التي أودعته عندك، وهو يعيده إلي بصورة شرعية دينية، وأنا واثق من هذا. هذه الرسالة، تكون عندك بمثابة إيصال. وتفضلي... الخ.

ولما كان الدير يبعد ثماني كيلومترات، فقد عادت العربة بعد ساعة ونصف الساعة وأرسل المقدم في طلبي.

ـ على ما يرام. عددها لنتأكد من عدم النقصان.

عددتها، لا من الشك من كمالها، بل لمعرفة عددها. فبين يدي هذا الفاجر الآن خمس مئة واثنان وسبعون لؤلؤة.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ لم فالتره؟ ألا ينقص شيء؟

ـ لا. والآن حدثني.

ـ لدى وصولي إلى الدير كانت الكبيرة في الباحة، وكان الشرطيان يحفان بي، فقلت: مدام! الأمر خطير يمكن أن تعرفيه بالحدس، أرى من الضروري التحدث مع الإرلندية بحضورك.

---

(١) كذباً

ـ وبعد ذلك؟

ـ كانت الأخت الإرلندية تقرأ الرسالة للكبيرة مضطربة، وهذه الأخيرة لم تفه بكلمة، بل خفضت رأسها، وفتحت درج مكتبها وقالت:

ـ هذه هي صرة اللآلئ، لم تُمس، وليغفر الله لي ارتكب هذه الجريمة بحق هذا الرجل. قل له بكنا نصلي من أجله.

وهكذا انتهى المقدم من القول ووجهه يشع بالحبور.

ـ ومتى يباع اللؤلؤ؟

ـ غداً. لن أقول لك: من أين لك هذا؟ إنما أعلم أنك قاتل خطر، وفي الوقت نفسه أرى فيك رجلاً يحفظ العهد. ورجلاً شريفاً. دونك هذا اللحم، وزجاجة النبيذ، والخبز الفرنسي، لكي تحتفي بهذا اليوم الذي لا ينسى، ثم مساء. ووصلت مصحوباً بزجاجة خمر، وقرابة ثلاثة كيلو غرام من اللحم المدخن وأربعة أرغفة فرنسية طويلة، وكانت وجبة عيد. اللحم والخبز والخمر، تقلص حجمها في سرعة. فقد أكلنا جميعاً وشربنا في نهم.

ـ هل تتصور أن المحامي يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا؟

فضحكت، والمساكين أنفسهم صدقوا حكاية المحامي.

ـ لا أدري، فالمسألة تتطلب دراسة واستشارات قبل أن ندفع له.

قال كلوزيو: الأفضل أن لا تدفع له إلا في حال نجاحه.

ـ حقاً ينبغي أن نجد محامياً يقبل هذا العرض.

وقطعت الحديث، فقد خجلت.

وفي الغداة عاد اللبناني، وقال:

ـ المسألة معقدة، إذ يجب فرز اللآلئ بحسب قياسها، ثم بحسب إشراقها، وأخيراً بحسب شكلها. وتبدأ بالفرز تبعاً للحجم والتكوير. وتابع اللبناني قائلاً: وباختصار ليس الأمر معقداً فحسب، بل فوق هذا ينبغي إحضار زبون آخر أكثر اختصاصاً. وفي غضون أربعة أيام تنتهي. ودفع لنا ثلاثين ألف بيزو. وفي آخر لحظة سحبت لؤلؤة وردية والتين سوداوين لأقدمها هدية لزوجة القنصل البلجيكي. فاستغلا ذلك وقالا إنها تساوي خمسة آلاف بيزو. ومع ذلك أخذتها بهذا الثمن. هذا وقد تمنع القنصل كثيراً قبل أن يقبل بها. ودفع له على سبيل الأمانة لي مبلغ خمسة عشر ألف بيزو. إذن غدوت أملك سبعاً وعشرين ألفاً. والآن نسلك في الموضوع الثالث، فكيف وبأية طريقة أسلك إليه. يكسب العامل الجيد في كولومبيا بين ثمانية وعشر بيزو إذن مبلغ سبع وعشرين ألفاً يعد ضخماً إذن سأضرب الحديد وهو حام. قبض المقدم ثلاثاً وعشرين ألفاً فإذا أضاف إليها سبعة وعشرين، فسوف يملك خمسين ألفاً. قلت له: أيها المقدم! كم يلزم من المال لإقامة تجارة يكون معها المرء في حال أفضل من حالك؟

ـ التجارة الجيدة تحتاج إلى رأسمال يتراوح بين خمسة وأربعين وستين ألفاً.

ـ وما مردودها؟ ثلاثة أضعاف كسبك؟ أربعة أضعاف؟

ـ أكثر. خمسة أو ستة أضعاف واحمل.

ـ ولم لا تصبح تاجراً؟

ـ يجب أن يكون معي ضعف ما أملك.

ـ اسمع. عندي عرض ثالث أطرحه عليك.

ـ لا تعبث بي.

ـ لا. بل أؤكد لك. هل تريد المبلغ الذي أملك؟ إنه لك حين تشاء.

ـ كيف؟

ـ أن تدعني أهرب.

ـ اسمع يا فرنسي. أنا أعلم أنك لا تثق بي وفي الماضي كنت على حق. أما الآن، وقد خرجت بفضلك من البؤس، وأستطيع شراء بيت، وإرسال أولادي إلى مدارس خاصة، تأكد أنني صديقك ولا أريد أن أنهبك، ولا أن يقتلك أحد. هنا لا أستطيع فعل شيء من أجلك ولو في سبيل ثروة. لا يمكنني تهريبك مع توفر فرص النجاح.

ـ وإذا برهنت لك العكس؟

ـ سنرى. ولكن قبل ذلك فكر جيداً.

ـ هل لك صديق صياد؟

ـ نعم.

ـ ربما كان قادراً على إخراجي إلى عرض البحر، ويبيعني مركبه.

ـ لا أدري.

ـ كم يساوي المركب تقريباً؟

ـ يساوي ألفي بيزو.

ـ إذا أعطيته سبعة آلاف وأعطيتك عشرين.

ـ يا فرنسي. أنا يكفيني عشرة آلاف، واترك لنفسك شيئاً.

ـ رتب الأمور.

ـ هل تذهب وحدك؟

ـ لا.

ـ كم واحداً؟

ـ نحن ثلاثة.

ـ سأكلم صديقي الصياد.

أذهلني هذا الشخص في تغيره نحوي، ولئن كان وجهه وجه مجرم، فإنه يخفي في أعماق قلبه أشياء جميلة. تكلمت في الباحة مع كلوزيو وماتوريت. فقالا لي: افعل ما يحلو لك. ونحن على إثرك سائران.

إن القاهما قدرتهما في يدي يبعث في نفسي شعوراً عظيماً بالرضى والارتياح، لأنني

حلت على عاتقي تبعة كبرى ولكن يتبقى إشعار رفيقيا الآخرين.

انتهينا من لعبة الدومينو، وقاربت الساعة التاسعة مساء وهو وقت شرب القهوة. ناديت: كافتيرو. وقدمت لنا ستة فناجين من القهوة الساخنة. قلت يجب أن أحدثكم، واعتقد أن في مكنتي محاولة الهروب مجدداً. ولسوء الحظ لا يتوفر هذا إلا لثلاثة فقط، وطبيعي أن أذهب مع كلوزيو وماتوريت، وإذا كان لدى أحدكما ما يقوله في هذا الصدد فليقل بصراحة. فنحن مستمعون. قال البروتوني: إن هذا هو الإنصاف من كل وجه. فأنتم الثلاثة قربتم من الأشغال الشاقة معاً ومن جهة أخرى فإن وجودكم في هذا الوضع ما كان ليحصل لولا خطؤنا إذ طلبنا إليكم إنزالنا في كولومبيا. شكراً لك يا بابيون على أنك استشرتنا، ولك الحق فيما تفعل. ونرجو الله أن يوفقكم. أما إذا وقعتم فإنه الموت المحقق في أسوأ الشروط.

— نحن نعلم ذلك.

حدثني المقدم بعد الظهر وأخبرني بأن صاحبه الصياد قد وافق. وسأل عما نحتاجه في السفينة.

— برميل ماء عذب سعة خمسين لتراً، وخمسة وعشرين غراماً من طحين الذرة وست لترات زيتاً، وهذا كل شيء.

قال المقدم: ستبحر بشيء قليل.

— أجل.

— أنت رجل قيم.

— حسناً. لقد عزمنا على القيام بالمرحلة الثالثة.

قال بيرود: فعلت هذا من أجل أولادي. صدق أو لا تصدق. ثم من أجلك أنت، لأنك جدير به بسبب شجاعتك.

— أعرف أن هذا صحيح. وشكراً لك.

— ماذا تفعل حتى لا يرى أنك على اتفاق معي؟

— لن تتحمل أية مسؤولية. سأذهب ليلاً أثناء وجود المقدم الآخر.

— ما خطتك؟

— ستبدأ غداً بإنقاص الحراس واحداً، وبعد ثلاثة أيام ستحقق واحداً آخر.

وعندما لا يبقى سوى واحد ستقيم مرقباً تجاه الزنزانة. ففي أول ليلة ممطرة سيلجأ الحارس إلى المرقب محتمياً وأقفز أنا من الشباك الخلفي. وبالنسبة إلى النور حول الجدار ستقوم بنفسك لقطع التيار. هذا كل ما أطلبه منك. وتستطيع ذلك بأن تأتي بسلك نحاسي بطول متر وتربط بكل طرف منه بحجر ثم تلقي به على السلكين الموصولين بالمصابيح التي تضيء أعلى الجدار. وعلى الصياد أن يربط المركب بسلسلة يحكم قفلها بنفسه، وبطريقة لا يضيع معها وقت فتحه، ولتكن الأشرعة جاهزة للنشر مع ثلاثة مجاديف.

— ولكن في السفينة محركاً.

— آه.. هذا أفضل. فليضع المحرك عند نقطة التحرك. وليذهب إلى أول مقهى ليشرب الكحول. وعندما يرانا قادمين يتمركز عند مؤخرة المركب في مشمع أسود.

— والمال؟

— عشرون الألف التي تخصك سأقطع كل ورقة من أوراقها قطعتين، وسبعة الآلاف سأدفعها مقدماً للصياد. سأعطيك أنصاف الورق مقدماً. والأنصاف الأخرى سيردها لك فرنسي سيبقى هنا وسوف أعلمك من هو.

— ألا تثق بي؟ هذا شيء غير مستحسن.

— لا. ليست المسألة مسألة ثقة، ولكن قد يقع خطأ عند قطع التيار، وحينئذ لن أدفع، ولن أذهب إذا لم ينقطع التيار.

وأصبح كل شيء جاهزاً بوساطة المقدم. وأعطيت الصياد سبعة آلاف بيزو. والآن وبعد خمسة أيام لم يبق من الحراس سوى واحد، ووضع المرقب. وانتظرنا المطر ولكن السماء بخلت به. وكان القضيب الحديدي قد نشر بمنشار أعطانا إياه المقدم، وكان الحز[1] عالياً وفضلاً على ذلك فقد كان مستوراً بقفص فيه ببغاء بقصد التمويه وكان الببغاء يقول بالفرنسية «قذارة».

نحن الآن على أحر من الجمر. لقد حاز المقدم على أنصاف الأوراق النقدية. وها نحن أولاً ننتظر كل ليلة أن يهطل المطر ولا مطر. وعلى المقدم أن يقطع التيار قبل نقطة الصفر بساعة واحدة تحت الجدار من الناحية الخارجية. لا شيء من المطر في هذا الفصل إنه لأمر عجيب. وأصغر سحابة تتراءى لنا من خلال الشبك في الصباح تملأ نفوسنا أملاً ثم لا شيء. وكدنا نفقد عقولنا. سهرنا ست عشرة ليلة. وبلغت قلوبنا الحناجر. وفي صباح يوم أحد جاء المقدم بنفسه يطلبني وقادني إلى مكتبه وأعاد لي أنصاف الأوراق النقدية. قلت: ماذا جرى؟

— يا فرنسي، يا صديقي لم يبق أمامك سوى ليلة واحدة. فغداً صباحاً ترحلون إلى برانكيا. وأرد لك من مبلغ الصياد ثلاثة آلاف فقط لأنه أنفق الباقي. وإذا شاء ربك أن يسوق المطر هذه الليلة فإنك ستجد الصياد في انتظارك وتعيد إليه هذا المبلغ ويأخذ المركب، وأنا لي فيك ثقة ولا أخشى شيئاً. واحتبس المطر.

(١) الحز: مكان القطع.

هروب في بارانكيا

في الساعة السادسة صباحاً ثمانية جنود، واثنان من خفر السواحل وبصحبتهم ملازم، وضع الأغلال في أيدينا. وها نحن أولاً في شاحنة عسكرية في طريقنا إلى بارانكيا — قطعنا مئة وثمانين كيلو متراً في ثلاث ساعات ونصف الساعة. وفي الساعة العاشرة كنا في سجن يدعى سجن الثمانين.

رغم ما بذلنا من جهود فقد تواجدنا في برانكيا. وهي مدينة ذات شأن، وأول مرفأ كولومبي على الأطلسي ولكنها واقعة في داخل مصب نهر ريومجدلينا. وسجنها سجن هام، فيه أربع مئة سجين ومئة مراقب، وهو منظم كأي سجن في أوروبا. يحيط به أسوار عالية تبلغ ثمانية أمتار. استقبلنا أركان حرب السجن وعلى رأسهم المدير دون غريغوريو. ويتألف السجن من أربع باحات اثنتان من جهة واثنتان من الناحية الأخرى، تفصل بينها كنيسة طويلة حيث يقام القداس وتصلح لأن تكون قاعة للزيارات. ولدى التفتيش وجدوا معي ثلاثة الآلاف بيزو والسهمين الصغيرين. واعتقدا أن من واجبي أن أخبر المدير بأنهما مسمومان، لكي يعاملونا معاملة طيبة.

وهؤلاء الفرنسيون معهم حتى السهام المسمومة!

وجودنا في هذا السجن في بارانكيا هو في نظرنا أخطر برهة في مغامرتنا. لأننا هنا سنسلم إلى السلطات الفرنسية. أجل برانكيا التي تضاءلت في أعيننا إلى حجم السجن الكبير، مثل نقطة الاختيار. ينبغي الهروب مهما كان ثمن التضحية، وعلى أن أغامر.

زنزانتنا في وسط الفناء وهي أشبه بالقفص منها بالزنزانة، يستريح سقفه الإسمنتي فوق قضبان حديدية غليظة. في إحدى زواياه المراحيض والمغاسل. والسجناء الآخرون وعددهم مئة موزعون في زنزانات منقوبة في جدران هذه الباحة ويبلغ طولها أربعين متراً وعرضها عشرين. والشباك يطل على الفناء. ويعلو كل شباك نوع من الإفريز من الحديد المصفح يمنع دخول المطر إلى الزنزانة. وليس في القفص سوانا نحن الفرنسيون الستة. وهو واقع في المركز حتى يكون تحت أنظار السجناء والحراس بوجه خاص.

نمضي النهار في الباحة من الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساء. ندخل إلى القفص ونخرج منه كما نشاء. ويمكننا التحدث في الباحة.

وبعد وصولنا بيومين، جمعونا نحن الستة في الكنيسة بحضور المدير وبعض رجال الشرطة، وعدد من الصحفيين والمصورين.

— هل هربتم من السجن الفرنسي في غويان؟

— لا ننكر ذلك.

— ما الجرائم التي نسبت إليكم حتى تلتم هذه العقوبات القاسية؟

— ليس لهذا أهمية. والمهم أننا لم نرتكب جرماً في الأراضي الكولومبية. وبلدكم لا يرفض منحنا الحق في حياة جديدة فحسب، بل يجعل رجاله صيادين للرجال، وأشراطاً في خدمة الحكومة الفرنسية.

— كولومبيا تفكر في أن لا تقبل بكم على أرضها.

— أنا شخصياً واثنان من رفاقي كنا ولا نزال عازمين على عدم العيش في هذا البلد. ولقد أوقفونا نحن الثلاثة في عرض البحر، وعلى العكس من ذلك كنا قد بذلنا أقصى جهد للابتعاد عنها

قال مندوب صحفي عن جريدة كاثوليكية: إن الفرنسيين في الغالب من الكاثوليك مثلنا نحن الكولومبيين.

— من الممكن أن تكونوا قد عمدتم كاثوليكيين، ولكن سلوككم يبعدكم عن المسيحية.

— وماذا تعيبون علينا؟

— إنكم تساعدون المجرمين الذين يلاحقوننا، بل تقومون بأعمالهم نيابة عنهم. ألم تجردونا من سفينتنا ومن كل ما نملك، وهو ما أهدي إلينا من رجال الكاثوليك في جزيرة كوراساو، والذي قدمه لنا الأسقف ايرينه دوبردين بكل نبل؟ ولا تجد مسوغاً لإعراضكم عن مغامرة في تجربة إصلاحنا المريب، فضلاً عن أنكم تحولون بيننا وبين الذهاب بعيداً بوسائلنا الخاصة إلى بلد قد يقبل بالمغامرة. وعملكم هذا غير مستساغ.

— أتحقدون علينا نحن الكولومبيين؟

— لا نحقد عليهم في ذاتهم إنما على نظامهم الأمني والقضائي.

— ماذا تعني؟

— أعني أن كل خطيئة قد يقع فيها صاحبها، إنما أريد له أن يقع. دعونا نذهب بحراً إلى بلد آخر.

— سوف نسعى للحصول على أمر بذلك.

وما أن عدنا إلى الباحة حتى بادر ماتوريت إلى القول:

— دعنا هذه المرة من الأوهام يا رجل. حسناً هل فهمت؟ نحن نتقلب في النار. والفرار من القلاة لن يكون سهلاً.

— أصدقائي الأعزاء، لست أدري إن كنا نقوى باتفاقنا، ولكنني أقول: إن كل واحد منا يستطيع أن يفعل ما يحلو له. وأما أنا فينبغي أن أهرب من هذا السجن الشهير.

استدعيت يوم الخميس إلى قاعة الزيارات، فرأيت رجلاً حسن الهندام في حوالي الأربعين من عمره. نظرت إليه فوجدته يشبه لويس ديغا شبهاً غريباً.

— هل أنت بابيون؟

— نعم.

ـ أنا جوزيف أخو لويس ديغا
ـ قرأت في الصحف وجئت لرؤيتك.
ـ شكراً.
ـ هل رأيت أخي هناك؟ وهل تعرفه؟
ـ رويت له ملحمة ديغا إلى يوم افتراقنا في المستشفى. فأخبرني بأن أخاه في جزر السلام وهذا الخبر جاءه من مرسيليا.
مواعيد الزيارة في الكنيسة أيام الخميس والأحد، وأعلمني أن في بارانكيا يعيش اثنا عشر فرنسياً ـ أتوا يبحثون عن الثروة مع نسائهم. وكلهم قوادون.

وفي حي خاص من أحياء المدينة حوالي ثماني عشرة مومساً يمارسن البغاء بامتياز وخلق على الطريقة الفرنسية. دائماً نفس الطراز من الرجال، نفس النمط من النساء اللاتي ينشرن على الأرض اختصاصهن القديم قدم العالم، وحسن الاستمتاع به، من القاهرة إلى لبنان، ومن انكلترا إلى استراليا ومن بيونس أيريس إلى كاراكاس، ومن سايغون إلى برازافيل.

أعلمني جوزيف ديغا بخبر جيد، هو أن القوادين الفرنسيين غير راضين. إنهم يخشون أن يكون لقدومنا إلى سجن هذه المدينة أثر في هدوء بالهم أو إلحاق الضرر بتجارتهم المزدهرة.

وبالفعل لو أن واحداً منا، أو أكثر، هرب من السجن، فإن رجال الشرطة سيذهبون بصورة بديهية إلى منازل الفرنسيين، حتى ولو لم يذهب الهارب إليهم في طلب المعونة منهم. ومن هنا فإن الشرطة ستكشف أشياء كثيرة: أوراقاً مزورة أو إجازات إقامة باطلة، أو ملغاة. فالبحث عنا يثير تحقيقات في الشخصية والإقامة. وهنالك رجال ونساء لو اكتشفوا لأصابتهم متاعب جمة. هذه هي المعلومات التي حصلت عليها، وأضاف بأنه تحت تصرفي لأي غرض. وبأنه سيأتي لرؤيتي كل خميس وأحد. فشكرت هذا الرجل الذي بدا لي أنه مخلص في وعوده. وأحاطني علماً كذلك بأنه تم الاتفاق مع فرنسا على تسليمنا إليها. وهذا حسب ما ورد في الصحف..

ـ إيه يا سادة! لدي الكثير مما أقوله لكم.
فقال الخمسة بصوت واحد وفي استغراب: ماذا؟
ـ أولاً ليس هناك ما نتعلق به من الأوهام، وقد بات التسليم مقرراً. ستأتي سفينة خاصة من خويان الفرنسية لتحملنا من هنا، وبالتالي لإعادتنا إلى حيث كنا، وأخيراً إن وجودنا هنا يقلق القوادين الذين ينعمون بالاستقرار في هذه المدينة. جوزيف لا يبالي بالنتائج ولكن زملاءه في المهنة يخشون هروب أحدنا، الأمر الذي يسبب لهم المتاعب.
فأغرق الجميع في الضحك وظنوا أنني أمزح. قال كلوزيو:
ـ يا سيدي فلان. أرجوك هل أستطيع الهروب؟

ـ كلفنا مزاحاً، إذا جاءت مومسات لرؤيتنا ينبغي أن تطلب منهن بأن لا يحدثن إطلاقاً مفهوم؟
ـ مفهوم.
في باحتنا كما قلت حوالي مئة سجين كولومبي، وهم بعيدون عن الغباء. فيهم لصوص مهرة وفيهم مزورون مشهورون، وغشاشون حاذقون، ومختصون بالهجوم بالسلاح، وفيهم تجار السوق السوداء للمخدرات، وفيهم بعض القتلة الذين أعدوا بالتدريبات المتواصلة إعداداً خاصاً لممارسة القتل وهي مهنة شائعة في أمريكا، وهنالك الأغنياء والسياسيون والمغامرون الذين يستأجرون خدمات هؤلاء القتلة لصالحهم.

الجلود ذات ألوان متباينة، بدءاً من الأسود الإفريقي السنغالي إلى الجلد الشاكه لون الشاي، إلى القرميدي المغولي ذي الشعر الناعم الأملس بلون أسود بنفسجي، إلى الأبيض النقي.

قمت ببعض الاتصالات، وأدخلت في حسابي قدرة بعض الأفراد المختارين، وإرادتهم الهروب. ومعظمهم مثلي. وربما أنهم حاذقون، أو محكومون بعقوبة طويلة الأمد، فإنهم يعيشون في تحفز دائم للهروب.

في أعلى الأسوار الأربعة المحيطة بهذه الباحة المستطيلة تدور طريق مضاءة ليلاً. وفي كل زاوية برج صغير فيه حارس. وهكذا يتواجد أربعة حراس على رأس عملهم ليل نهار. يضاف إليهم حارس في الباحة على باب الكنيسة، وهو غير مسلح.

الغذاء متوفر، وعدد من السجناء يبيعون ما يؤكل وما يشرب كالقهوة وعصير الفاكهة المحلية كالبرتقال والأناناس والبابايي الخ وهذه الأشياء يؤتى بها من خارج السجن. ومن حين لآخر يتعرض هؤلاء الباعة إلى هجمات مسلحة مفتعلة في سرعتها. وقبل أن تتاح لهم فرصة رؤيتهم يأتي المعتدون بمشفة كبيرة يلفون بها وجوه ضحاياهم لئلا يسمع صراخهم. ويسددون السكين إلى خاصرتهم أو عنقهم والتي قد تغوص في أجسادهم بعمق لدى أية حركة. وهكذا يسلبون الضحايا ما معهم قبل أن يقولوا أف، ثم يتبعون ذلك بضربة على القذال عند نزع المشفة. ومهما يحصل فإن أحداً لا يتكلم. وأحياناً يرتب البائع ما يبيعه ويبحث عمن سدد له الضربة، فإذا كشفه حصلت معركة بالمدى.

جاءني لصان يعرضان علي اقتراحاً، فأصغيت لهم بانتباه. ويبدو أن في المدينة رجال شرطة من اللصوص.

وهذان الزائران يعرفانهم جميعاً، وأوضحا لي بأنه إذا لم يتسلم أحدهم الحراسة على باب الكنيسة مرة في الأسبوع عدّوا ذلك من سوء طالعهم. إذن يجب أن أحصل على مسدس أثناء الزيارة. وإذا سلمت جدلاً بأن الشرطي اللص رضي كارهاً ويدون عناء بأن يطرق باب الخروج من الكنيسة الذي يطل على مركز صغير للحراس يضم أربعة أو ستة رجال،

فإني أفاجئهم والمسدس بيدي وحينئذ لن يستطيعوا منعنا من النزول إلى الشارع، ولا يبقى سوى أن نتوارى في الزحام الشديد.

لم يرق لي هذا المخطط كثيراً. فالمسدس يجب أن يكون صغير الحجم بعيار ٦،٣٥ على الأكثر، كي أتمكن من إخفائه. ولكن هذا المسدس الصغير لا يخيف أحداً من الحراس الخوف الكافي، فيحاول أمراً فأضطر إلى قتله. فصرفت النظر عن هذه الخطة.

إن فكرة التحرك لا تعذب أحداً غيري، وكذلك رفاقي، ولكن يخارق أنهم في بعض الأيام التي يصابون فيها بالوهن، يصلون إلى درجة الاستسلام للبقاء في السجن حتى يأتي المركب الذي سيقلنا. ويمكن أن تصور التعذيب الذي سوف نتعرض له هناك. ويناقش أصحابي كيف يمكن أن يكون عقابنا، وما شكل المعاملة التي تنتظرنا. قلت لهم:

ـ لا أستطيع سماع هذائكم، وعندما تودون الخوض في الحديث عن هذا المستقبل، لاتشركوني فيه، انتحوا إلى ركن لا أكون فيه ثم تناقشوا. فهذه القدرية التي تتكلمون بها لا يقبلها إلا عاجز. فهل أنتم عاجزون؟ هل فينا واحد استؤصلت خصيتاه؟ إذا حصل ذلك فاصرخوا. لأني سأقول لكم: أيها الرجال، إني عندما أفكر بالهروب، إنما أفكر به من أجل الجميع، ونحن نلمع في فكري خطة الهروب، فذلك من أجل الجميع، وبالنسبة إلى ستة أشخاص ليس الأمر سهلاً.

وأقول لكم كلما اقترب الموعد دون أن أفعل شيئاً، هان علي قتل شرطي كولومبي لكسب الوقت. لأنهم لن يرسلوني إلى فرنسا إذا قتلت لهم شرطياً، وحينئذ سيكون لدي متسع من الوقت. وبما أني سأبقى وحدي فسوف يكون هروبي أيسر.

إن الكولومبيين يعدون مخططاً آخر لا بأس في تنظيمه: في يوم القداس صباح الأحد، تكون الكنيسة غاصة بالزوار والسجناء. أولاً نصغي إلى القداس معاً، ثم ينتهي الواجب في الكنيسة، ويبقى السجناء الموعودون بالزيارة.

طلب مني الكولومبيون حضور القداس يوم الأحد لأكون على بينة مما يجري حتى تنسق العمل يوم الأحد القادم. وقد عرضوا علي أن أكون رئيس الفئة ولكنني رفضت هذا الشرف، إذ لا أعرف العناصر التي سوف تتحرك، معرفة جيدة.

أجبت نيابة عن أربعة فرنسيين، فالبروتوني والرجل ذو الكلوة، لا يريدان المساهمة، وليس في هذا مشكلة، فما عليهم إلا الامتناع عن الذهاب إلى الكنيسة.

يوم الأحد ذهبنا نحن الأربعة الضالعين في العملية إلى القداس. هذه الكنيسة مستطيلة الشكل تتصدرها الحوقة، وفي الوسط، من كل جانب بابان يشرفان على الباحتين. والباب الرئيسي يطل على مركز الحرس وهو محوط بشبك يقف خلفه الحراس وعددهم عشرون. وأخيراً خلفهم الباب المؤدي إلى الشارع، وبما أن الكنيسة تغص بالناس فإن الحراس يتركون الشبك مفتوحاً، وهم يظلون أثناء أداء مهمتهم واقفين

متراصين. ومن بين الزائرين سيأتي رجلان، وأسلحة تحملها نساء بين أفخاذهن، ويسلمن هذه الأسلحة حال دخول الناس وهي عبارة عن مسدسين كبيرين من عيار ثمانية وثلاثين، أو خمسة وأربعين. وسوف يحصل زعيم المؤامرة على مسدس ذي عيار كبير من امرأة ستسحب فور تسليمه. ويبدأ الهجوم دفعة واحدة عندما يرن غلام الحوقة الجرس الرنة الثانية. ومهمتي أنا أن أضع المدية في عنق المدير دون غريغوريو وأقول له: أعط الأوامر بإطلاق سراحنا وإلا قتلتك.

وهناك رجل آخر يقوم بالمهمة ذاتها مع الخوري، والثلاثة الآخرون يشهرون أسلحتهم على الشرطيين الواقفين أمام شبك مدخل الكنيسة الرئيسي. ومن لا يرم سلاحه يقتل. أما غير المسلحين فيجب انزاجهم أولاً، وسوف نتخذ المدير والخوري متراسين لحماية ظهورنا وإذا سارت الأمور في مجراها الطبيعي فإن رجال الشرطة يتركون أسلحتهم على الأرض، ورجالنا المسلحون يدخلونهم إلى الكنيسة. ونخرج بعد أن نغلق الشبك أولاً، ثم الباب الخشبي. وسوف يكون مركز الحراس خالياً نظراً لوجودهم جميعاً في القداس بصورة إلزامية.

وفي الخارج سيكون في انتظارنا شاحنة على بعد خمسين متراً علق خلفها سلم صغير لسرعة الصعود، وتنطلق الشاحنة عندما يصعد زعيم الفئة، والذي عليه أن يكون آخر من يصعد. وهكذا يجري كل شيء، وفق ما خطط له فرناندو. أما جوزيف ديغا فلن يحضر إذ يكون مشغولاً بإعداد سيارة عامة مزيفة، لأننا نحن الفرنسيين لن نركب في الشاحنة، ثم يأخذنا إلى مخبأ قد أعده لنا.

كنت طوال الأسبوع مضطرباً، أنتظر العملية بفارغ الصبر. تمكن فرناندو من الحصول على مسدس بوسيلة أخرى وهو من عيار خمسة وأربعين، من الحرس الملكي الكولومبي، وإنه فعلاً رهيب. وفي يوم الخميس جاءت إحدى نساء جوزيف لتراني، وهي لطيفة جداً وأخبرتني بأن السيارة ستكون صفراء، لئلا يكون هناك التباس.

ـ شكراً.

ـ أتمنى لكم حظاً سعيداً

وقبلتني في وجنتي في رقة وهي متأثرة قليلاً.

قال الخوري: ادخلوا ادخلوا وتسلقوا الكنيسة لسماع صوت الحق.

كلوزيو على أتم استعداد وماتوريت تبرق عيناه والآخر لا يفارقني قيد أنملة. أخذت مكاني رابط الجأش. والمدير دون غريغوريو جالس هناك على كرسي بجانب امرأة بدينة، وأنا واقف ملتصقاً بالجدار، وكلوزيو على يميني، والآخرون على يساري. وكنا قد ارتدينا الملابس المناسبة التي لا تلفت النظر إذا خرجنا إلى الشارع. المدية مجردة على زندي الأيمن يشدها مطاط قوي، ويسترها كم قميصي الكاكي الموثوق العرى عند المعصم.

وفي اللحظة التي ينهض فيها الجميع منحنية أعناقهم خاشعة أبصارهم وكأنما يبحثون عن شيء، يقرع صبي الجوقة الجرس قرعاً متواتراً ثم يقرع ثلاث قرعات متميزات، القرعة الثالثة هي إشارتنا، ويعرف كل منا دوره.

القرعة الأولى... القرعة الثانية... ألقيت بنفسي على دون غريغوريو والخنجر أسفل عنقه الضخم المتجعد، وصاح الخوري: الرحمة لا تقتلوني. وسمعت الثلاثة الآخرين، ودون أن أراهم، يأمرون الحراس بإلقاء أسلحتهم. وكل شيء يجري وفق الخطة المرسومة. أمسكت دون غريغوريو من ياقة بذلته الجميلة وقلت له انحني ولا تخف، فلن ألحق بك أي أذى.

والخوري كان تحت حلقه موسى حلاقة بالقرب من جماعتي. وقال فرناندو:

ـ قاموس فرانس قاموس الا ساليفا (أي هيا أيها الفرنسيون هيا اخرجوا)

دفعت بأصحابي نحو الباب المطل على الشارع وأنا أحس بنشوة الظفر حين دوى طلقان ناريان وهوى على أثرهما فرناندو وأحد المسلحين، ومع ذلك تقدمت مسافة متر نحو الأمام ولكن الجنود نهضوا وسدوا علينا طريقنا ببنادقهم ومن حسن الحظ أنه كان بيننا وبينهم نساء فمنعهم من إطلاق النار.

ثم سمعنا طلقين من بندقية، وطلقاً من مسدس ورفيقنا الثالث المسلح سقط على الأرض، وكانت قد سنحت له طلقة عشوائية فجرحت فتاة صغيرة.

كان دون غريغوريو شاحباً كالأموات، فقال لي هات السكين، فسلمتها له، ولا جدوى من استمرار المعركة. ففي أقل من ثلاثين ثانية تبدل الموقف. وعلمت بعد أسبوع أن التمرد قد أخفق بسبب سجين من الباحة الأخرى كان يشاهد القداس بدافع الفضول من خارج الكنيسة فأنذر حراس الجدار منذ اللحظات الأولى، فقفزوا عن الجدار إلى الباحة من علو يزيد على ستة أمتار فجاء أحدهم من جهة والآخر من جهة أخرى من الكنيسة، وأطلقا النار من خلال القضبان الحديدية للأبواب الجانبية على المسلحين اللذين كانا يهددان الحراس بأسلحتهما، وقتل الثالث أثناء مروره في مجال الرمي. بقيت أنا إلى جانب المدير الذي كان يصدر أوامره صارخاً.

وهكذا تواجد ستة عشر سجيناً، وفيهم الفرنسيون الأربعة، في السرداب، وليس لنا من الغذاء إلا الخبز والماء.

زار جوزيف دون غريغوريو، واستدعاني وقال إنه إكراماً لجوزيف سوف يعيدني إلى الباحة أنا وأصحابي، وبفضل جوزيف هذا عدنا بعد عشرة أيام من الفتنة إلى زنزانتنا ذاتها وأعيد الكولومبيون أيضاً. وحين وصلنا إليها، طلبت أن نقف بضع دقائق حداداً على فرناندو وزميليه القتيلين في العملية وقد قال لي جوزيف في إحدى زياراته بأنه قام بجمع

تبرعات من القوادين بلغت خمسة آلاف بيزو، وبها استطاع إقناع دون غريغوريو. هذه البادرة من القوادين رفعت من أقدارهم في نظرنا. ما العمل الآن؟ وماذا نبتدع من جديد؟ ومع ذلك لن أعترف بالهزيمة، ولن أنتظر وصول السفينة دون أن أقرر شيئاً.

تمددت عند المغاسل العامة محمياً من الشمس حيث أتمكن، ودون أن يحس بي أحد، مراقبة حركة تبديل الحراس على السور الدائري. ففي الليل ينادون كل عشر دقائق: أيها الحارس كن حذراً. وهكذا يتأكد رئيس المركز من أن أحداً من هؤلاء الأربعة لا ينام. وإذا سكت أحدهم كرر الحارس النداء حتى يسمع الإجابة.

اخال أنني وجدت ثغرة: في كل ركن من الأركان الأربعة في الممر الدائري، ما يشبه الخيمة يتدلى منها حبل ربطت في طرفه علبة. وإذا أراد الحارس قهوة نادى صاحب القهوة (الكافيتيرو) الذي يصب له مقدار فنجان أو فنجانين في العلبة ويسحب الحارس الحبل. وللخيمة في الطرف اليمين ما يشبه البرج البارز على الباحة. قلت في نفسي: لو صنعت محجناً[1] كبيراً وربطته بطرف حبل مضفور لأمكن التسلق عليه في سهولة، وفي ثوان معدودات، أستطيع عبور الجدار المشرف على الشارع. والمشكلة الوحيدة هي كيف يمكن تحييد الحارس. أراه ينهض ويقوم ببضع خطوات على السور الدائري وواضح أنه متضايق من الحر. وأنه يقاوم النعاس بشدة. هذا ما أصبو إليه باسم الله... يجب أن ينام. سأصنع الحبل، وإذا وجدت المحجن المضمون، فسوف أنيمه وأجرب حظي.

وخلال يومين هيأت حبلاً مبرماً من قماش القمصان وبخاصة القمصان الكاكي، ومن السهل نسبياً الحصول على محجن. إنه أحد حوامل الرواق المثبت على أبواب الزنزانات ليحميها من المطر. أحضر لي ديغا زجاجة شراب منوّم فعال، وبحسب التعليمات يجب تناوله بمقدار عشر نقط، والزجاجة تحوي على ما يقرب من ست ملاعق كبيرة.

أولاً عودت الحارس أن يقبل مني ما أقدمه له من القهوة فكان يدلي بعلبته فأضع له فيها في كل مرة ثلاثة فناجين قهوة، وبما أن الكولومبيين يحبون الكحول، وفي المنوّم شيء من طعم الأنيسون، استحضرت زجاجة أنيسون وقلت للحارس:

ـ هل ترغب في قهوة على الطريقة الفرنسية؟

ـ وكيف هي؟

ـ تحتوي على الأنيسون.

ـ حاول، أولاً أريد أن أتذوقها.

تذوق عدد من الحراس قهوتي بالأنيسون، والآن عندما أقدم القهوة يقولون لي: على الطريقة الفرنسية وإذا سمحت... وأسكب لهم الأنيسون.

---

(١) المحجن: الكلاّب.

حانت ساعة الصفر. نحن في يوم السبت ظهراً، والطقس حار جداً وأصدقائي يعلمون أن لا مجال لمرور اثنين. غير أن كولومبياً يحمل اسماً عربياً (علي) قال: بأنه سوف يصعد بعدي، فقبلت، لأن ذلك بالتالي يجنبه العقوبة. ومن جهة أخرى لا أستطيع حل المحجن والحبل، فقد يتسع الوقت للحارس لمراقبتي. عندما أقدّم له القهوة، ففي رأينا يجب أن ينتهي كل شيء في دقائق خمس. ناديت الحارس وقلت له:

ـ هل أنت بخير؟
ـ نعم
ـ هل لك في قهوة؟
ـ أجل. وتفضل على الطريقة الفرنسية.
ـ انتظر سأحضرها لك.

ذهبت إلى صاحب القهوة وطلبت منه فنجانين وسكبت فيهما محتوى الزجاجة كلها من المنوم. وإذا بهذا المقدار لم يكن كافياً لإسقاطه كالخشبة. وصلت إلى مهوى الحبل ورآني أصب الأيسون علانية.
ـ هل تريدها ثقيلة؟
ـ نعم.
فوضعت مقداراً آخر وسكبت القهوة كلها في علبته ورفعها في الحال. مرت خمس دقائق، عشر، عشرون ولم ينم. والأنكى، أنه بدلاً من أن يجلس كان يمشي خطوات ذهاباً وإياباً، والبندقية في يده، رغم أنه شرب حتى الثمالة. وفترة الحراسة ساعة. كنت أتتبع حركاته على أحر من الجمر والبندقية بين ساقيه ورأسه تميل نحو كتفه. أصدقائي، واثنان أو ثلاثة من الكولومبيين كانوا مثلي يتابعون بلهفة شديدة ردود فعله. قلت للكولومبي هيا إلى الحبل، وكان يستعد لرميه، عندما نهض تاركاً بندقيته تسقط على الأرض. وصار يتمطى ويحاول أن ينقل ساقه ولكنها تبقى في مكانها ولم يبق سوى ثماني عشرة دقيقة لتبديل الحراسة. فدعوت ربي سراً أن يعينني: أتضرع إليك، أعني مرة أخرى، وأتوسل إليك لا تذرني... ولكن توسلاتي إلى إله المسيحيين لم تجد فتيلاً هذا الإله الذي لا يقدر الظروف أحياناً وبخاصة لمن كان مثلي زنديقاً.

اقترب مني كلوزيو وقال: عجيب أن هذا الأحمق لم ينم. تناول الحارس بندقيته، وفي اللحظة التي انحنى فيها لتناولها، هوى على طوله فوق الطريق الدائري، وكأنه مصعوق.

وألقى الكولومبي المحجن ولكنه لم يعلق، بل وقع من جديد، فرمى به ثانية فتشبث. فشده قليلاً ليختبر ثباته وانطلقت منه يتقي، وعندما وضعت قدمي على الجدار لأقوم بأول نقلة في الصعود قال لي كلوزيو: احذر فقد جاء البديل، وتمكنت من الانسحاب

قبل أن يراني أحد، وبغريزة الدفاع والصداقة بين السجناء أحاط بي عدد من الكولومبيين، واحتووني بينهم، ومشينا إلى الجدار، وخلفنا وراءنا الحبل معلقاً بالجدار، ورأى الحارس البديل، بلمح البصر، المحجن والحبل والرجل الممدد مع بندقيته، فجرى مترين أو ثلاثاً وضغط على زر الإنذار، وهو يعتقد أن هناك هروباً. فجيء بالمحفة لنقل النائم، وتواجد أكثر من عشرين شرطياً ومعهم دون فريغوريو، فرفع الحبل وأمسك بالمحجن بيده. وبعد دقائق كان الشرطيون يحتلون الباحة وأسلحتهم مشرعة، وأجرى التفقد. وكان على كل من نودي باسمه أن يدخل الزنزانة، وكانت المفاجأة أن العدد لم ينقص. وأعيد التفقد زنزانة بعد زنزانة مع المراقبة المشددة فما اختفى أحد.

وحوالي الساعة الثالثة سمح لنا بالخروج إلى الباحة. وترامى إلينا أن الحارس يشخر وقبضتاه مطبقتان، ولم تجد في إيقاظه أية وسيلة استخدموها. كان شريكي الكولومبي لا يقل عني تعباً، إذ كان على يقين تام من نجاحنا، وثار على المصنوعات الأمريكية لأن المنوم من صنع أمريكي.

ـ ما العمل؟ هل نعاود؟
هذا كل ما كان عندي من كلام للكولومبي. وظن أنني أردت القول بالعودة إلى تنويم حارس آخر فقال: هل تعتقد أن هؤلاء الحراس على درجة من الغباوة بحيث نجد واحداً منهم يقبل شرب القهوة على الطريقة الفرنسية. ورغم هذه اللحظة المأساوية لم أتمالك من الضحك.
ـ بكل تأكيد يا رجل.

نام الشرطي ثلاثة أيام وأربع ليال، وأخيراً عندما استيقظ قال: لا ريب أنني نومته بهذه القهوة الفرنسية، فاستدعاني دون فريغوريو لسماع أقوالي. وأراد رئيس الحرس أن يضربني بالسيف فوثبت إلى ركن من أركان الغرفة فأغضبته، ورفع آخر سيفه، فتوسط دون فريغوريو فتلقى الضربة في كتفه فتهاوى على الأرض وقد انكسرت ترقوته وصرخ صراخاً شديداً. فلم يعد الضابط يهتم إلا به لرفعه واستغاث دون فريغوريو فبادر من المكاتب المجاورة موظفون مدنيون ووقع عراك بين الضابط والشرطيين والحارس الذي نومته من جهة، وعشرة من المدنيين أرغوا الثأر للمدير من جهة أخرى. وقد جرح في هذه المعمعة عدد منهم جروحاً طفيفة وأنا الوحيد الذي لم يصب بأذى. والمهم لم تبق المشكلة مشكلتي، إنما هي بين المدير والضابط. وانتقال المدير إلى المستشفى أعادني إلى الباحة.

ـ سنرى فيما بعد يا فرنسي.

حضر المدير في اليوم التالي مقصص الكتف، وطلب مني تصريحاً خطياً ضد الضابط. فأمليت بكل سرور كل ما يودون التصريح به. ومن ثم أدرجت قضية المنوم في طي النسيان ولم تبق موضع اهتمام وهذا من حسن حظي.

وبعد انقضاء عدة أيام، عرض جوزيف ديغا تنظيم عملية من الخارج وكنت أعطته علماً بأن الهروب ليلاً مستحيل بسبب الإضاءة على الطريق الدائري، ففكر في قطع التيار بوساطة عامل كهربائي وحده يخفض قاطع التيار الموجود خارج السجن، وأنا أتدبر شراء الحارس من جهة الشارع والحارس الموجود في الباحة على باب الكنيسة. ولكن الأمر أعقد مما كنا نعتقد. أولاً أنا ملزم بإقناع غريغوريو بضرورة الحصول على عشرة آلاف بيزو بحجة إرسالها إلى أسرتي عن طريق جوزيف الذي سيكرمه بطبيعة الحال بمبلغ ألفي بيزو ليشتري هدية لزوجته، وكذلك الأمر بالنسبة للذي ينظم المناوبة والتوقيت، يجب أن يشترى، ولكنه لا يرغب في الإشتراك في المفاوضات مع الحارسين الآخرين. وعلي أنا أن أجدهما وأتعامل معهما، وبعد ذلك أقدم له اسميهما، ليصار إلى ترتيب مناوبتهما في الحراسة حسب إشارتي. التحضير لهذه العملية الجديدة استغرقت قرابة الشهر. وأخيراً كل شيء كان جيداً، وبما أنه ليس علينا حرج من شرطي الباحة، فإن القضيب الحديدي سيقطع بمنشار.

عندي ثلاث شفرات. سينشر الكولومبي صاحب المحجن القضيب الحديدي على عدة مراحل.

ولهذا الكولومبي صديق يتظاهر بالجنون منذ فترة من الزمن، ففي ليلة العملية سيضرب على صحيفة معدنية من التوتياء، ويغني بأعلى صوته.

إن الكولومبي يعلم بأن الحارس لم يرض بالتعامل معنا إلا على أساس هروب اثنين من الفرنسيين وقال: لو أن رجلاً ثالثاً صعد فإنني سأطلق عليه النار. ومع ذلك يريد على أن يجرب حظه قائلاً: إنه في حال التسلق ملتصقين جيداً لن يميز الحارس في الظلمة الواحد من الاثنين. أجرى كلوزيو وماتوريت قرعة والفائز فيها هو الذي يهرب معي وقد فاز كلوزيو.

أقبلت الليلة غير مقمرة وقد أخذ كل من الرقيب والشرطيين نصف الأوراق العائدة له، وقد كانت مقصوصة من قبل، والنصف الآخر سوف يقبضونه من الحانة الصينية (باريو شينو) من عند امرأة جوزيف ديغا.

أطفئت الأنوار، فداهمنا القضبان، وفي أقل من عشر دقائق كانت منشورة، فخرجنا من الزنزانة في قميص وبنطال قاتمين. انضم إلينا الكولومبي في الممر وهو عار إلا من سروال قصير أسود. تسلقت شبك باب سجن في الجدار وتجاوزت الإفريز ورميت بالمحجن وطول حبله ثلاثة أمتار فأصبحت في الطريق الدائرة على أعلى السور، في أقل من ثلاث دقائق، دون أن أحدث ضجة. انبطحت منتظراً كلوزيو وكان الظلام حالكاً وفجأة رأيت أو بالأحرى قدرت أن يداً تمتد فأمسكت بها وسحبت. فحدثت قعقعة مدوية، وذلك أن كلوزيو مر بين الإفريز والجدار، وعلق من حلقة حزام بنطاله بالصفائح المعدنية، فتوقفت

طبعاً عن السحب بعد هذا الصخب الذي حدث. كفت صفائح القصدير عن القعقعة، فسحبت من جديد، وقد توهم كلوزيو أنه تخلص، وفي وسط هذه الجلبة التي أحدثتها صفائح القصدير انتزعته بقوة وجعلته يتسنم[1] السور، وانطلق رصاص البندقيات من مختلف المراكز إلا من ناحيتنا، فطار صوابنا فوثبنا من جهة خاطئة، إلى شارع ينخفض تسعة أمتار على حين أن الشارع الآخر على اليمين لا ينخفض عن أعلى السور أكثر من خمسة أمتار. والحصيلة: انكسرت ساق كلوزيو اليمنى من جديد، وأنا لم أستطع النهوض إذ انكسرت قدماي، وعرفت في وقت متأخر أن الكسر كان في العقبين، والكولومبي انفك منه مفصل الركبة. وطلقات البندقية أخرجت الحراس إلى الشارع فأحاطوا بنا تحت ضوء مصباح كبير وهاج، والبنادق مصوبة نحونا. فأخذت أبكي من الحنق وإمعاناً في سوء الحظ، لم يصدقوا بأني لا أستطيع النهوض فأعدت إلى السجن زحفاً على الركب، وتحت ضربات الحراب. وكان كلوزيو يقفز على رجل واحدة وكذلك فعل الكولومبي. كان الدم ينزف من جرح في رأسي بسبب ضربة من أخمص البندقية.

استفاق دون غريغوريو على طلقات النار. وكان ينام في مكتبه وهو المناوب تلك الليلة لحسن الحظ، ولولاه لقضي علينا بضربات أعقاب البنادق والحراب. وأكثرهم اندفاعاً ضدي ذلك الرقيب الذي رشوته ليعين الشريكين في العملية. وقد أوقف دون غريغوريو هذه الهجمة الشرسة علينا، وهدد بإحالة من يجرحنا إلى المحكمة، فشلهم جميعاً بهذا القول الساحر. وفي اليوم التالي وضعت ساق كلوزيو في الجص في المستشفى وقام أحد السجناء، وهو مجبر للعظام، بإعادة مفصل ركبة الكولومبي إلى وضعه الطبيعي وشدها بعصابة.

وفي الليل انتفخت قدماي حتى غدت كل واحدة منها بحجم رأسي، واصطبغتا بلون أحمر أو أسود، وتورمتا في نهايتهما. غطسهما الطبيب في ماء فاتر، ثم علق عليهما العلق ثلاث مرات يومياً، وعندما كانت العلقة تمتلئ دماً، تسقط من تلقاء نفسها ثم توضع في الخل لتفرغ ما امتصته من الدم، وأغلق جرح رأسي بست قطب.

كتب أحد الصحفيين مقالاً ضدي، ولفق فيه أخباراً: فروى أني كنت زعيم التمرد في الكنيسة وأني سممت حارساً، وأن آخر ما فعلته أني دبرت هروباً جماعياً بالاشتراك مع البعض من الخارج، إذ قطعوا تيار المحول، وانتهى إلى القول إننا نأمل من فرنسا أن تسارع في أقرب وقت ممكن لتخلصنا من مجرميها الأول.

جاء جوزيف بصحبة زوجته آني ليراني، وحضر الرقيب والشرطيان كل على انفراد ليأخذوا أنصاف الأوراق النقدية. وسألتني آني ماذا يمكنها أن تفعل، قلت لها: ادفعي لأنهم التزموا بعهدهم وإذا أخفقنا فليس هذا من ذنبهم

---

(1) يعلو (كما يركب البدوي على سنام الجمل).

منذ أسبوع أخذوا يطوفون بي في الباحة فوق نقالة اتخذناها سريراً. كنت ممدداً وقدماي مرفوعتان ومستندتان إلى شريط من القماش مشدود بين قطعتين من الخشب مثبتين عمودياً على ذراعي النقالة. قدماي متورمتان ومحتقنتان بالدم المتخثر. لا أستطيع الاتكاء بهما على أي شيء حتى في حالة الاستلقاء. ولعل هذا الوضع هو أنسب وضع لتجنب الآلام. وبعد مرور خمسة عشر يوماً من كسر قدمي خف ورمهما إلى النصف. وعرضوني على الأشعة، فتبين أن عقبيَّ مكسوران. أي سأبقى طيلة حياتي بقدمين مفلطحتين.

أعلنت صحيفة اليوم انه في نهاية الشهر ستصل سفينة وعلى ظهرها مجموعة من الشرطيين الفرنسيين وقالت الصحيفة إن السفينة تدعى مارتا. ونحن الآن في الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) أي لم يبق سوى ثمانية عشر يوماً. ويجب أن ألعب لعبتي الأخيرة، ولكن أية لعبة هذه وأنا مكسور القدمين؟

كان جوزيف يائساً، وأخبرني حين زارني أن الرجال والنساء جميعاً في حانة باريو شينو مهتمون جداً بما أقاسيه في كفاحي من أجل حريتي. ويعز عليهم أن يروني بعد أيام أسلم إلى السلطات الفرنسية. وقد شاع هذا الاضطراب والبلبلة في المستعمرة كلها، وقد أثلج صدري أن أرى قلوب هؤلاء الرجال وسالهم إلى جانبي.

صرفت النظر عن فكرة قتل شرطي كولومبي وفي الحقيقة لا أستطيع الإقدام على إلغاء إنسان من الوجود من غير ذنب، فقدرت أن يكون له أب أو أم يعيلهما أو زوجة أو أطفال. وتبسمت حين فكرت في قتل شرطي شرير ليست له أسرة. أستطيع أن أسأله مثلاً لو أني قتلتك ألا يفتقدك أحد؟

في صباح الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، اسودت الدنيا في عيني. نظرت إلى حجر خفي اليكريك لو أني أكلته لاكتسب وجهي شحوباً. وإذا نقلت إلى المستشفى فقد أستطيع الخروج منه بوساطة رجال يشتريهم جوزيف.

وفي الغداة كنت شاحباً بلون الليمون، وحاملي جوزيف فرآني في الباحة مضطجعاً في الظل على النقالة، وقدماي مرفوعتان إلى الهواء. وعلى الفور وبدون لف ولا دوران وبدون تبصر قلت:

ـ لك مني عشرة آلاف بيزو إذا استطعت نقلي إلى المستشفى.

ـ سأحاول يا فرنسي، لا من أجل عشرة آلاف بيزو، وإنما يعز في نفسي أن أراك تستميت في سبيل الحصول على حريتك. وفي اعتقادي أنهم لن يرسلوك إلى المستشفى بسبب تلك المقالة في الصحيفة، إنهم خائفون. أرسلوا الطبيب بعد ساعة ولم تمس قدماي الأرض أنزلوني من سيارة الإسعاف على محفة ثم أعادوني إلى السجن بعد ساعتين، وبعد إجراء فحوص وتحاليل للبول دون أن أتحرك من المحفة.

اليوم، الخميس التاسع عشر من شهر أكتوبر (تشرين الأول). حضرت آلي، زوجة جوزيف مصحوبة بزوجة رجل كورسيكي، ومعهما سجائر وبعض الحلوى. وبكلامهما الودي أحسنتا إلي أيما إحسان. ومن الجميل حقاً أنهما أظهرتا من مظاهر الود والصداقة ما حوّل نهاري الحافل بالزيارة، إلى يوم مشرق عذب. وإني لأعجز عن التعبير عما كان لهذا التضامن من عون، خلال إقامتي في سجن الشانتين. وكم أنا مدين لجوزيف الذي مضى في مساعدتي على الهروب إلى حد المقامرة بحريته وأوضاعه.

من كلام آلي تولدت عندي فكرة، إذ قالت في حديثها:

عزيزي بابيون لقد فعلت كل ما في وسع بشر أن يفعله، لتستعيد حريتك، ولم يبق لك سوى أن تفجر السجن.

ـ ولم لا؟ لم لا أفجر هذا السجن العتيق وفي ذلك خدمة لهؤلاء الكولومبيين، فإذا فجرته ربما قرروا بناءه من جديد بحيث تتوفر فيه الشروط الصحية. وبعد أن قبلت هاتين الساحرتين قبلة الوداع قلت لآلي:

ـ اطلبي من جوزيف أن يوافيني يوم الأحد.

وقد حضر جوزيف يوم الأحد في الثاني والعشرين فقلت له:

ـ اسمع. افعل المستحيل لكي يأتيني أحدهم بإصبع ديناميت ومفجر وسلك بيكفورد، ومن جانبي سأفعل ما يلزم للحصول على مثقب وثلاث فتائل.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أريد أن أفجر جدار السجن في وضح النهار. واتفق مع سائق تكسي مزيف على خمسة آلاف بيزو لهذا الموضوع. ولينتظر كل يوم في الشارع خلف ماخور ميديلين من الساعة الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساء. ستدفع له خمس مئة بيزو كل يوم، إذا لم يحدث شيء، وإذا حدث شيء تدفع له خمسة آلاف، ومن النقب الذي سيحدثه الديناميت في الجدار سأصل إلى التكسي على ظهر كولومبي شديد المراس، وعليه الباقي. فإن عثرت على السائق فأرسل لي الديناميت وإلا كانت نهاية النهايات وفقدنا كل رجاء.

ـ اتكل علي.

وفي الساعة الخامسة، تحاملت على ذراعي متكئاً على شخصين إلى الكنيسة وقلت أريد أن أصلي وحدي، وأرسلت في طلب دون غريغوريو، فلباني.

ـ لم يبق سوى ثمانية أيام للفترق.

ـ من أجل هذا دعوتك. لي عندك خمسة عشر ألف بيزو، أود تسليمها لصديقي قبل الرحيل ليرسلها بدوره إلى أسرتي، وأرجو أن تقبل مني ثلاثة آلاف بيزو هدية من صميم القلب لأنك كنت دوماً تحميني من سوء معاملة الجنود، وإنك لتخدمني خدمة كبيرة لو أعطيتني إياها ملفوفة بورق لاصق حتى أقسم أجزاءها وأرتبها منذ اليوم وحتى يوم الخميس فتكون جاهزة فأعطيها لصديقي.

ـ حسناً.

علد وسلمني اثني عشر ألفاً وكل ورقة مقطوعة نصفين واحتفظ لنفسه بثلاثة آلاف.
وحين رجعت إلى نقالتي ناديت الكولومبي الذي رافقني آخر مرة إلى ركن معزول واطلعته على عطفي وسألته إذا كان قادراً على حملي على ظهره إلى مسافة عشرين أو ثلاثين متراً إلى سيارة عامة. فتعهد بذلك تعهداً قاطعاً. ورتبت أموري على أساس نجاح جوزيف. وصباح الاثنين وفي ساعة مبكرة اتخذت مكاني عند المفاصل. وكان يقود نقالتي المتحركة ماتوريت و كلوزيو. وقد ذهب ماتوريت لإحضار الرقيب الذي منحه ثلاثة آلاف بيزو، والذي ضربني بوحشية أثناء محاولة الهروب الأخيرة.

ـ أريد أن أكلمك أيها الرقيب.
ـ ما تبغي؟
ـ مقابل ألفي بيزو أريد مثقباً قوياً جداً وست فتائل اثنتان منها بضخامة نصف سنتمتر، واثنتان بسمك سنتمتر واحد، واثنتان بضخامة سنتمتر ونصف.

ـ ليس لدي مال لأشتريها.
ـ إليك خمس مئة بيزو.
ـ ستنالها غداً الثلاثاء عند تبديل الحرس في الساعة الواحدة. هيء الألفي بيزو.
وفي الساعة الواحدة حصلت على ما أريد من سلة مهملات فارغة في الباحة، كانت قد أفرغت عند تبديل الحرس. جمع بابلو، الرجل الشديد المراس، كل شيء وخبأه.

الخميس في السادس والعشرين، لم يزرني جوزيف. وفي نهاية الزيارة نوديت. كان الزائر عجوزاً فرنسياً، متغضن البشرة كان موفداً من قبل جوزيف. قال:
ـ في قرص الخبز هذا، ما طلبته.
ـ إليك ألفي بيزو من أجل السيارة العامة، لكل يوم خمس مئة.
ـ سائق السيارة من بيروفيا، متفتح للغاية، لا تعر ذلك انتباهاً. شياو.
ـ شياو.
ولإبعاد الشبهة عن قرص الخبز وضعوا معه في الكيس لفائف تبغ، وأعواد ثقاب، ونقانق مدخنة، وزبدة، وزجاجة زيت أسود.

وعند التفتيش أعطيت الحارس الواقف على الباب علبة سجائر، وكبريتاً واثنين من النقانق، فقال أعطني قطعة من الخبز. لا ينقصنا سوى هذا!! قلت: لا اشتر خبزاً هناك خمسة بيزو، لأن خبزنا لا يكاد يكفينا نحن الستة.

أف. لقد خرجت من هذا المأزق سالماً. ويا لها من فكرة تقديم النقانق لهذا الشخص. وابتعدت نقالتي مسرعة عن هذا الشرطي المزعج. فقد فاجأني بطلب الخبز حتى تصبب العرق مني.

ـ غداً موعد الأسهم النارية، وكل شيء معد. يجب نقب الجدار تحت بروز البرج تماماً. فالمراقب في الأعلى لن يراك.
ـ ولكنه سيسمع.
ـ حسبت لذلك حساباً. ففي الساعة العاشرة صباحاً تكون هذه الناحية من الباحة ظليلة. وعلى أحد عمال النحاس أن يشرع في تصفيح ورقة نحاسية، وذلك بطرقها جهاراً على الجدار على بعد بضعة أمتار منا، وإذا كانا اثنين فهذا أفضل، وسوف أدفع لكل منهما خمس مئة بيزو.
أوجد هذين الرجلين.. فوجدهما.
ـ صديقان لي سوف يطرقان النحاس دون انقطاع، فلن يلاحظ الحارس صوت المثقب. أما أنت في عكسك، فيجب أن تتواجد خارج الظل قليلاً تناقش زملاءك الفرنسيين، وهذا يحجبني قليلاً عن الحارس من الجهة الأخرى. وتم نقب الجدار في ساعة بفضل ضربات المطرقة على النحاس، والزيت الذي يصب مساعد على المثقب. أبعد عن الحارس الفلتون. أدخل إصبع الديناميت في الثقب، والمفجر مثبت على بعد عشرين سنتمتراً من الفتيل. وقد ثبت وضع الديناميت بالغضار والسخام، وإذا جرت الرياح بما تشتهي السفينة، فسوف تحدث فجوة نتيجة الانفجار، وسوف يسقط الحارس مع خيمته، وأنا سوف أصل على صهوة (حصاني) بابلو، والآخرون يدبرون أمرهم، وطبيعي أن يصل ماتوريت وكلوزيو إلى السيارة العامة قبلي.

قال بابلو قبل إشعال الفتيل، منذراً الكولومبيين: إذا أردتم النجاة بعد لحظات فإن ثغرة ستحدث في الجدار.
ـ وهذا شيء جميل، لأن رجال الشرطة سيطلقون النار على من كان قريباً منهم.
أشعل الفتيل ودوى انفجار شيطاني هز الأركان، وانهار البرج مع الشرطي وتصدع الجدار من كل جانب بصدوع متباعدة حتى رأينا الشارع من الجهة المقابلة. ولكن لم تكن الشقوق على درجة كافية من الاتساع تسمح بمرور أحد وهنا حكمت على نفسي بالضياع، ويأبى القدر إلا أن أعود إلى كايين. والبلبلة التي تبعت الانفجار تفوق حد الوصف، فقد تواجد في الباحة ما يربو على خمسين شرطياً. وأدرك دون فريغوريو من الفاعل؟
ـ حسناً أيها الفرنسي. أعتقد أنها الأخيرة.

جن جنون رئيس الحامية من الغضب، وهو لا يستطيع أن يأمر بضرب إنسان جريح، وتجنباً لكل المتاعب للآخرين، أعلنت بصوت عال بأنني وحدي المسؤول عن كل ما حدث. وقف ستة حراس أمام الجدار المتشقق وستة في الباحة، وستة آخرون خارج السجن في الشارع يتولون الحراسة باستمرار إلى أن ينتهي البناؤون من ترميم العطب. والشرطي الذي سقط من أعلى الجدار لم يصب بأذى، لحسن الحظ.

العودة إلى سجن الميناء

وبعد ثلاثة أيام، أي في الثلاثين من أكتوبر (تشرين الأول) وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصل الاثنا عشر مراقباً، مرتدين الملابس البيض لاسترجاعنا. ولا بد قبل الرحيل من إجراء بعض المراسم. ولا بد أن يكون كل منا واضح الهوية والشخصية. فأحضرت ملفاتنا وفيها أوصافنا وصورنا وبصماتنا، وبعد أن تحققوا من هوياتنا تقدم قنصل فرنسا، ليوقع وثيقة للقاضي المكلف تسليمنا رسمياً إلى فرنسا. ودهش الحاضرون من الطريقة الودية التي عاملنا بها المراقبون، لا حقد، ولا قسوة في القول. والثلاثة الآخرون الذين كانوا هناك قبلنا بزمن يعرفون عدداً من المراقبين، فتكلموا معهم وتسلوا وكأنهم أصدقاء قدامى. نظر رئيسهم المقدم بورال إلى قدمي وقلق لحالتي وقال: سنعتني بك على ظهر السفينة حيث يوجد ممرض جاء في جملة من جاؤوا لإحضاركم.

إن السفر في قعر سفينة كهذه مرهق بالحرارة الخانقة وأشد ما كان يضايقنا هو ربطنا مثنى مثنى بقيود حديدية، تنزلق حول قضيب معدني بدءاً من سجن تولون. ويحسن الإشارة إلى حادثة وقعت: اضطرت السفينة إلى التزود بالوقود من ترينيداد. وما أن وصلنا إلى المرفأ حتى طلب ضابط بحري انجليزي أن يرفعوا عنا الأغلال، ويبدو أن ذلك محظور، فاستغللت الفرصة ووجهت لضابط انجليزي مفتش صفعة، وقصدت من وراء هذا أن أوقف وأنزل إلى اليابسة ولكن الضابط قال لي: لن أوقفك ولن أنزلك أرضاً لما اقترفت من إثم. إنما سيكون عقابك أكبر عندما تعود إلى هناك. وأنا كنت الخاسر.

لا. أنا حقاً محكوم علي بالعودة إلى سجن الميناء. ما أتعسني وما أشقاني. غير أن هذه الشهور الأحد عشر من الهروب المصحوب بالصراع والعنف، انتهت نهاية مأساوية. وعلى الرغم من كل شيء وعلى الرغم من هذا الصخب الداوي الذي أحدثته مختلف المغامرات. فإن الأوبة إلى سجن الميناء بكل ما فيه من عواقب مرة، فإنه لن يستطيع أن يمحو لحظات عشتها لا تنسى.

بالقرب من مرفأ ترينيداد الذي غادرناه على مسافة بضع كيلو مترات، أسرة بوين التي لا ترقى إلى مستواها أسرة، ولم نمر بعيدين عن كوراساو أرض الرجل العظيم أسقف هذا البلد ايرينه دوبرين وبدون أدنى شك قد تكون لامستنا أرض هنود كاجيرا، حيث عرفت الحب الملتهب من نبعه الصافي في صورته الطبيعية العفوية وبكل الوضوح الذي لا يقدر عليه إلا الأطفال، والأسلوب النقي في رؤية الأشياء، الذي يسم هذه السن المميزة. كل ذلك وجدته عند هؤلاء الهنديات الممتلئات بالعزم والإرادة، الغنيات بروح التفاهم والحب الساذج والطهر.

وأولئك البرص، في جزيرة الحمام، هؤلاء المحكومون المصابون بهذا المرض الشنيع، ومع ذلك أوتوا مقدرة على أن يحملوا في قلوبهم النبل اللازم لمساعدتنا.

إلى ذلك القنصل البلجيكي الطيب، إلى جوزيف ديغا الذي عرض نفسه للأخطار دون أن تربطني به معرفة سابقة.

كل هؤلاء الناس، كل هؤلاء المخلوقات الذين عرفتهم في هذا الهروب جديرون بهذه المعرفة. ورغم أنني تحطمت فإن في هروبي انتصاراً أغنى روحي بهذه الشخصيات النادرة فما ندمت على الهروب. هذه هي مارويني، ومياهها الموحلة، فنحن على متن مالنا وشمس الاستواء جعلت الأرض صفراء، والساعة التاسعة صباحاً، ورأيت من جديد مصب النهر، ودخلنا متئدين، من حيث خرجت فيما مضى مسرعاً. صحبي واجمون. وسر المراقبون بالوصول. وكان البحر صاخباً طيلة رحلتنا، والآن أحس كثير منهم بالارتياح.

السادس عشر من نوفمبر (كانون الأول) عام ١٩٣٤.

تجمع لدى نزولنا جمع غفير. أحسست بأنهم يتطلعون في كثير من الفضول، الرجال الذين لم يرهبوا السفر البعيد. ولما اتفق أن وصلنا الأحد كان هذا الوصول تسلية ومتعة لهذا المجتمع المحروم من التسلية إلا قليلاً. وسمعت بعضهم يقولون: هذا هو بابيون، وهذا كلوزيو، وذاك ماتوريت، وهكذا دواليك.

وفي معسكر الإصلاحية اصطف ست مئة رجل أمام براكاتهم وبالقرب من كل مجموعة مراقبون، وأول من تعرفت عليه هو فرانسوا سييرا، فأجهش بالبكاء ثم لم يستطع أن يداري بكاءه أمام الآخرين متسلقاً إحدى نوافذ المستشفى، محدقاً بي، وإنك لتحس بصدق مرارته.وقفنا وسط المعسكر، والمقدم رئيس الإصلاحية يحمل بوقاً وقال:

ـ أيها المبعدون! لعلكم لمستم عقم الهروب. فإن كل البلاد توقفكم لتعيدكم إلى فرنسا، إذ لا يقبلكم ولا يرضى بكم أحد. وما الذي ينتظر هؤلاء الرجال الخمسة؟ ينتظرهم حكم صارم يتحتم قضاؤه في الانفرادي، في جزيرة سان جوزيف، وباقي العقوبة المؤبدة في جزر سالو. هذا ما كسبوه من الهروب، وأرجو أن تكونوا قد فهمتم. أيها المراقبون! قودوا هؤلاء الرجال إلى معسكر التأديب. وبعد دقائق ألقينا أنفسنا في زنزانة خاصة في المعسكر تحت مراقبة شديدة. ولم أكد أصل حتى طلبت العناية بقدمي اللتين ما زالتا متورمتين منتفختين. وقال كلوزيو: إن ساقه تؤلمه بسبب الجص. سنجرب إن كانوا لا يحيلوننا إلى المستشفى أبداً. وصل فرانسوا سييرا مع المراقب الذي قال: ها هو ذا المريض.

ـ كيف حالك يا بابي؟

ـ أنا مريض وأرغب في الذهاب الى المستشفى.

ـ سأحاول نقلك إلى هناك، ولكن بعد الذي فعلته، أظن أن الأمر يكاد يكون مستحيلاً، وكذلك بالنسبة إلى كلوزيو.

ولك تدمّيَ وعصبها بالمرهم، وفحص الجص على ساق كلوزيو وانصرف ولم نستطع أن نقول شيئاً وعيون الحراس ترمقنا بنظرات ملؤها العلوية مما هز أعطافي ولما جاء مبيرا في الغداة لإجراء التدليك قال:

ـ ليس في الإمكان الذهاب إلى المستشفى. وهل تريد أن أنقلك إلى قاعة مشتركة؟ هل يقيدونك من قدميك ليلاً؟

نعم.

ـ إذن يستحسن أن تذهب إلى قاعة عامة وسوف تبقى مغلولاً، ومع ذلك لن تكون وحيداً على حين أن وجودك معزولاً يسبب لك إزعاجاً.

ـ معقول.

أجل إن الانفراد في هذه الفترة أصعب احتمالاً من ذي قبل، وإنني في حالة نفسية لا أحتاج فيها إلى إغماض عيني لأهيم في الذكريات، بمقدار ما أنا في حاجة إلى التفكير في الحاضر. ونظراً لعجزي عن المشي فإن الزنزانة أسوأ مما كانت عليه في الماضي. أواه. هاأنذا قد رجعت إلى طريق الفقر، ومع هذا تخلصت منه في المرة السابقة في سرعة. وحلقت فوق البحر نحو الحرية، نحو الفرح حيث أكون إنساناً جديداً، ونحو الانتقام أيضاً. إن هذا الدين الذي لي على الثلاثي: بولاد، والشرطة، والمدعي العام، ينبغي أن لا أنساه. وبالنسبة إلى الصندوق ليس ضرورياً أن أودعه لرجال الشرطة على باب المخفر القضائي، بل سأحمل بلباس عامل في القطار، وعلى رأسي قبعة، وألصق على الصندوق بطاقة مكتوباً عليها: المفوض بينوا ٣٦ رصيف الصاغة باريس (السين). سأحمل بنفسي الصندوق إلى قاعة العلاقات،وبحسب تقديراتي فإن المنبه لا يعمل إلا بعد السحاب، وإصابة الهدف لن تخيب. وبوصولي إلى هذا الحل أحسست بأن عبئاً ثقيلاً نزل عن كتفي. وأما المدعي العام، فسوف أجد الوقت الكافي لأقطع لسانه ولن تتغير الوسيلة، وكأنها شيء واقع. هذا اللسان الفاجر سأقطعه إرباً. وأكثر الأمور إلحاحاً هو أن أعتني بقدمي، وينبغي أن أمشي في أسرع وقت ممكن، ولن أحاكم قبل ثلاثة أشهر. وخلال ثلاثة أشهر ستحدث أشياء جمة: أحتاج إلى شهر لشفاء قدمي، وشهراً لوضع الأمور في نصابها. وربما سادة عموا مساء ولكن هذه المرة لن يستطيع أحد أن يقبض علي.

بالأمس وبعد ثلاثة أيام من وصولي نقلوني إلى قاعة عامة حيث أربعون رجلاً ينتظرون المجلس الحربي: البعض منهم متهم بالسرقة، وآخرون بالسلب أو بإشعال الحرائق أو القتل، أو محاولة القتل أو الاغتيال السياسي أو محاولة الهروب أو الهرب نفسه حتى أكل لحم البشر. كنا جميعاً مقرنين بقضيب حديدي، على جانب حاجز خشبي طوله خمسة عشرمتراً، وكل عشرين رجلاً من جهة.

وفي الساعة السادسة مساء كانت تربط الرجل اليسرى لكل سجين، بالقضيب الحديدي بوساطة حلقة حديدية. وفي الساعة السادسة صباحاً، ترفع عنا هذه الحلقات، فنستطيع الجلوس والتجول واللعب بالداما، وليس ما يضجرني كثيراً في النهار، إذ يأتي الجميع لزيارتي في زمر قليلة، لأروي لهم حكاية هروبي، وكانت تند عنهم صيحات الاستغراب عندما أخبرهم بأني هجرت بمحض إرادتي عشيرتي الكاجيرا ولالي وزورايما.

قال لي باريسي كان يصغي إلى حديثي: عم كنت تبحث يا صديقي؟ عن القطارات الكهربائية؟ عن المصاعد؟ عن دور السينما؟ عن الأضواء ذات التيار المرتفع التوتر والتي يستعمل في المقعد الكهربائي؟ أم أنك كنت تواقاً إلى الاستحمام في حوض ساحة بيغال؟

ثم أردف قائلاً: كانت لك امرأتان كل واحدة منهم أعذب من الأخرى، وكنت تعيش عارياً في أحضان الطبيعة إلا من عصابة يضعها العراة تأكل وتشرب وتصيد. عندك البحر والشمس والرمل الحار، اللآلئ، المحارات، كل هذا لك بالمجان، ولم تجد غير هذا تهجره وترحل عنه؟ وإلى أين؟ قل لي. إلى شوارع تجتازها، وأنت خائف أن تدهسك سيارة؟ إلى منزل تدفع أجره؟ ولائحة الكهرباء والهاتف؟ إذا أردت سيارة خربة لتشغل كساراً، أو تعمل كالأبله مستخدماً فإنك تكسب قوت يومك فقط فلا تموت جوعاً. إني لا أفهمك يا هذا كنت في النعيم، وهبطت إلى الجحيم طوعاً. حيث أنه فوق متاعب الحياة وهمومها، عليك أن تتحمل همّ مطاردة الشرطة لك في كل مكان في العالم.

صحيح أنه تجري في عروقك الدماء الفرنسية الحارة، وأنك لم تستطع أن تلاحظ أن قواك الجسدية والفكرية قد أصابها الكلل. لا أستطيع أن أفهمك أنا نزيل السجن عشر سنوات، وعلى كل حال أهلاً بك بيننا، وما دمت لم تزل نزاعاً إلى الهرب من جديد اتكل علينا جميعاً لمساعدتك. أليس كذلك أيها الرفاق؟ هل أنتم موافقون؟ وقد وافق الجميع، فشكرت لهم.

إنهم كما أرى رجال أشداء، وبسبب اختلاطنا كان من العسير أن يلاحظ هذا أو ذاك أني أحل الأنبوبة. وفي الليل كان الجميع مقرونين إلى القضيب الحديدي المشترك، فمن الصعب جداً قتل أحدهم دون عقاب. أما في النهار، فيكفي مقابل شيء من المال أن يقبل العربي حامل المفاتيح بأن لا يقفل الحلقة إقفالاً تاماً. وهكذا فإن الرجل يفك ليلاً ويفعل ما كان قد دبره في النهار ويعود إلى قيده ويغلقه إغلاقاً محكماً. وبما أن الرجل العربي شريك في الذنب فإنه سيغلق فمه ويسكت. مرت ثلاثة أسابيع على عودتي وما كان أسرعها وبدأت أمشي قليلاً ممسكاً بقضيب الممر الذي يفصل الحاجز الخشبي.

بدأت محاولتي الأولى. ففي الاسبوع الماضي رأيت أثناء التحقيق حراس المستشفى الثلاثة الذين ضربناهم وجردناهم من أسلحتهم، وقد سروا جداً بعودتنا، وأملوا أن نقع

موقعاً يستطيعون فيه أن يسدوا لنا خدمة!! إذ بعد هروبنا نالوا عقوبات جسيمة، منها حرمانهم من قضاء عطلتهم في أوروبا لمدة ستة أشهر، ومنها حرمانهم من تعويض الاغتراب في المستعمرات لمدة سنة. ويمكن القول إن لقاءنا لم يكن ودياً، فكرنا هذه التهديدات خلال التحقيق ليكون على بينة. أما العربي فقد سلك سلوكاً أفضل، فلم يقل سوى الحق دون مبالغة، ومتناسياً الدور الذي لعبه ماتوريت. وألح قاضي التحقيق، وهو برتبة مقدم، على معرفة من أعطانا المركب فتظاهرنا بالغباء وقصصنا أموراً ملفقة من مثل أننا صنعنا بأنفسنا ألواحاً خشبية تعوم على سطح الماء. وقد قال لنا إنه بسبب هجومنا على الحراس الثلاثة سيبذل جهداً لكي يكون الحكم علينا أنا وكلوزيو بخمس سنوات وعلى ماتوريت بثلاث. وبما أنك أنت المدعو بابيون، ثق تماماً أنني سأقص جناحيك ولن تطير من بين أيدينا. وقد خشيت أن يكون على صواب. وانتظرنا شهرين لنمثل أمام المحكمة. وآمل أن لا أكون قد وضعت في رأس أنبوبي رأس السهم المسموم، فإن فعلت ذلك أكن قد غامرت بكل شيء. في معسكر التأديب أنني الآن أشعر بتحسن في كل يوم وأمشي بصورة أفضل. وفرانسوا سييرا لا يتأخر أبداً عن الحضور صباح مساء لتدليكي بالزيت والكافور. وزيارات التدليك كان لي فيها خير عظيم، لقدمي ولنفسي على حد سواء. ما أجمل أن يكون للإنسان صديق في هذه الحياة. وقد لاحظت أن هذا الهروب الطويل قد منحنا امتيازاً في أعين السجناء، لا مراء فيه. وأنا على يقين بأننا في أمان تام وسط هؤلاء الرجال ولسنا معرضين للقتل من أجل سرقتنا. فالغالبية العظمى تستنكر هذا، وبالتأكيد إن الفاعلين إن فعلوا فسيقتلون فالجميع بلا استثناء يحبوننا، بل يكنون لنا بعض الإعجاب، ونظراً لإقدامنا على ضرب الحراس فإنهم يرون أننا على استعداد أن نفعل أي شيء. وهذا أمر بالغ الأهمية في إشعارنا بالطمأنينة. صرت أمشي كل يوم مسافة أطول. وبفضل الزجاجة التي تركها لي سييرا، فإن رجالاً يعرضون على أنفسهم للقيام بتدليك قدمي، وكذلك عضلات ساقي التي ضمرت قليلاً، بسبب الجمود وقلة الحركة.

عربي تأكله النمال

في القاعة رجلان كئيبان، لا يكلمان أحداً، وهما دوماً متلازمان، يتهامسان فلا يسمعهما أحد.
قدمت في أحد الأيام لأحدهما سيجارة من علبة كان سييرا قد أحضرها لي، فشكر لي وقال:
— هل فرانسوا سييرا صديقك؟
— نعم إنه أفضل صديق.
— إذا ساءت الأمور يوماً، ربما تركنا لك إرثاً بوساطته.

— أي إرث؟
— لقد قررنا أنا وصديقي، إذا نفذ فينا حكم الإعدام، أن نرسل لك أنبوبتنا فقد تنفعك في الهروب ثانية ستعطيها يومئذ لسييرا، وهو يحملها لك.
— هل تظنان أنهم سيحكمون عليكما بالإعدام؟
— هذا شبه مؤكد، وفرصتنا في النجاة من الإعدام ضعيفة.
— إذا كنتما بهذا الوثوق، فلم أنتما هنا في القاعة العامة؟
— أظن أنهم يخشون علينا من الانتحار، لو أننا بقينا وحدنا في الزنزانة.
— آه. نعم هذا ممكن. ولكن ماذا جنيتما؟
— أطعمنا حرساً[1] للنمل آكل اللحوم. أقول لك هذا، لأنه لسوء الحظ، لديهم الدليل القاطع، لقد وقعنا في الجرم المشهود.
— أين حصل هذا؟
— عند الكيلو متر الثاني والأربعين في معسكر الموت، بعد خليج سبارووين.
اقترب صاحبه منا وهو من تولوز فقدمت له سيجارة أمريكية. جلس بالقرب من صديقه في مواجهتي وقال القادم الجديد:
— لم يسبق أن طلبنا رأي أحد، وسوف أكون فضولياً في معرفة رأيك فينا.
— كيف تريد أن أقول لك ودون أن أعرف شيئاً، إن كنتما على حق أم على باطل في إطعام النمل اللاحم إنساناً ولو كان حرساً، ينبغي أن أطلع على كل شيء من الألف إلى الياء.
— سأسرد عليك الحكاية: إن معسكر ٤٢ هو على بعد اثنين وأربعين كيلو متراً من سان لوران ويقع في غابة. المحكومون هناك مجبرون على قطع أخشاب صلبة بمعدل متر مكعب كل يوم، ويجب عليهم أن يتواجدوا مساء في أرض جرداء قرب أخشابهم التي قطعوها ورتبوها. ثم يأتي المراقبون وبصحبتهم حملة القناديل العرب ليتحققوا من إنجازنا المهمة المفروضة علينا، وعندما يتم تسليم كل متر مكعب يعلّم بصبغ أحمر أو أخضر أو أصفر تبعاً للأيام. ولا يقبلون من الخشب إلا ما كان صلباً قاسياً ولبلوغ ذلك يؤلف فريق من شخصين. وغالباً ما كنا نعجز عن إنجاز العمل فنوضع في السرداب دون عشاء ونخرج منه صباحاً دون إفطار ونجبر على سداد نقص الأمس إضافة إلى عمل اليوم، وأوشكنا نموت كالكلاب، إذ كلما ازددنا إرهاقاً ازداد عجزنا عن إتمام العمل، وفضلاً على ذلك أوكل أمرنا إلى عربي لا إلى مراقب كان يصحبنا إلى موقع تكديس الخشب. وبكل سهولة كان يجرب سوطه المصنوع من عصب الثور في سيقاننا، ولا يكف عن إهانتنا. وكان يمضغ طعامه ويحدث صريراً بين فكيه ليثير شهوتنا إلى الطعام، وباختصار كان عذاباً مقيتاً. وكان معنا أنبوبتان تحوي كل منهما ثلاثة آلاف فرنك أعددناها للهروب وفي يوم من الأيام قررنا

---

(١) ويقصد رجلاً عربياً أسمر. المترجم.

أن نرشي العربي فازدادت الحالة سوءاً. ولحسن الحظ أنه ظن أننا نحمل أتيوباً واحداً. والطريقة كانت يسيرة. كنا ندفع له مثلاً خمسين فرنكاً فيسمح لنا بسرقة أخشاب من أكداس اليوم السابق ونختار أخشاباً لم تصب بالأصباغ. وبهذا كنا نكمل المتر المكعب المفروض، وهكذا استطاع بين خمسين ومئة يوم أن يسحب منا ألفي فرنك. ولما سار عملنا سيراً طبيعياً سخيوا العربي. وظننا أنه لن يغدر بنا لأنه سلبنا مالاً وفيراً. تابعنا خطتنا السابقة. وفي أحد الأيام اقتفى أثرنا خطوة خطوة في الخفاء ليرى إذا كنا نسرق الخشب ثم كشف عن نفسه:

ـ ها. ها. أنت تسرق الخشب ولا تدفع؟ إذا لم تعطيني خمس مئة فرنك فسأخبر عنك. وما دام الأمر لا يتعدى التهديد فقد رفضنا. وعاد في اليوم التالي وقال: إما أن تدفع وإما أن تكون هذا المساء في السرداب، ورفضنا أيضاً. فرجع بعد الظهر مصحوباً ببعض الحراس وكانت ساعة رهيبة يا بابيون. فقد عرونا، وقادونا إلى أكداس الخشب التي أخذنا منها ولاحقنا هؤلاء الوحوش، والعربي يجلدنا بسوطه، وأجبرونا، ونحن نجري، على هدم أكداس خشبنا، وأن نعوض ما سرقناه. ودام سباق الثيران هذا، يومين دون طعام ولا شراب، وغالباً ما كنا نهوي على الأرض، والعربي ينهضنا، وهو يركلنا بقدميه وتحت ضربات السوط، وأخيراً فقدنا كل قدرة على الاحتمال، وارتمينا على الأرض، وليتك تعلم ما فعل بنا ليجبرنا على النهوض، فقد جاء بعش من أعشاش الزنابير البرية إذ قطع الغصن الذي يتعلق به العش وحطمه علينا، فلم ننهض وحسب بل ركضنا عدواً، كالمجانين، وغني عن البيان كم قاسينا من الآلام، وأنت تعلم شدة لسع الزنبور فتصور خمسين أو ستين لسعة ملتهبة، من هذه الحشرات الشرسة.

تركونا لنا في السرداب خبزاً وماء طيلة ستة أيام دون العناية بنا، بل على العكس كان يجرون علينا البول، مما يزيد في حروقنا، ثلاثة أيام دون انقطاع، فعميت عيني اليسرى التي هاجمتها عشرة من الزنابير. ولدى عودتنا الى المعسكر قرر السجناء الآخرون تقديم العون لنا، وذلك بأن يعطينا كل واحد منهم قطعة من الخشب الصلب بنفس المقياس، فما أمكننا من تشكيل الكومة المفروضة علينا، حتى لم يبق سوى كومة واحدة نقوم نحن بإنجازها، وما بلغنا ذلك إلا بشق الأنفس. استعدنا قوانا شيئاً فشيئاً أكلنا كثيراً. وقد واتتنا فكرة الانتقام بغتة من العتر بوساطة النمل. وبينما نحن نبحث عن الخشب، وجدنا مسكناً للنمل اللاحم كان منهمكاً في التهام أيل بحجم العنزة كان العربي يقوم بجولاته متفقداً سير العمل، وفي يوم جميل مشرق سددنا له ضربة بقبضة الفأس وجردناه قرب مساكن النمل، ثم عريناه وربطناه بشجرة منثنياً إذ ربطنا قدميه بكفيه بوساطة حبل من الحبال المعدة لحزم الخشب. وبالفأس أحدثنا جروحاً في مختلف أنحاء جسمه. وسددنا فمه بالعشب لئلا يصرخ، ثم كممنا فاه وانتظرنا فلم يهاجمه النمل إلا حين أوطئنا عصاً في مساكنه وهززناه فوق جسم العتر، ولم يمض قليل من الوقت، حتى كانت تهاجمه بالآلاف.

ـ هل رأيت نملاً لاحماً يا بابيون؟

ـ لا بل شاهدت نملاً كبيراً أسود.

ـ هذه النمال صغيرة وحمراء مشابهة الدم. وهي تنهش قطعاً صغيرة جداً من اللحم وتحملها إلى مساكنها. وإذا كنا قد لاقينا المر من لسع الزنابير، فتصور كم يكون قد لاقى هو، والنمل يسلخ جلده وهو حي، ودام نزعه يومين كاملين وقسماً من ضحى اليوم الثالث، وبعد أربع وعشرين ساعة فقد عينيه. واعترف أننا لم نكن رحماء في انتقامنا، ولكن كان يجب أن يرى ما فعل بنا هو نفسه، وإذا كنا لم نمت فهي تلك أعجوبة. وطبيعي أنه جرى بحث عن العتر في كل مكان، وكان حملة المفاتيح الآخرون من العرب وكذلك الحراس يشكون بنا ويثقون بأننا لسنا بعيدين عن اختفائه. كنا نحفر كل يوم قليلاً في الجهة أخرى، لنصنع قبراً نضع فيه ما بقي منه، ولم يعثر عليه أحد، إلى أن رآنا أحد الحراس ونحن نعد الحفرة، فصار يتبع آثارنا كلما ذهبنا إلى العمل ليعرف موضعه وهذا الذي قضى علينا.

وفي صبيحة أحد الأيام أخذنا نفك العربي من الحبال منذ وصولنا إلى العمل، وكان النمل لا يزال يغطيه وأوشك أن يكون هيكلاً عظمياً، ولم ننج من عض النمل حتى سال منا الدم) وبينما كنا نجره نحو الحفرة داهمنا ثلاثة من العرب واثنان من المراقبين وقد كانوا مختبئين عن أنظارنا منتظرين بفارغ الصبر هذه اللحظة، لحظة الدفن. ووجهت إلينا تهمة القتل أولاً، ثم تقديمه طعاماً للنمال ثانياً.

واستند الاتهام إلى تقرير الطبيب الشرعي: إنه ليس فيه جرح قاتل، إنما جرى افتراسه حياً، وقال المراقب المدافع عنا (إلا أن المراقبين هناك بمثابة المحامين): إذا قلت القضية تجوتم من الإعدام.

وفي صراحة، إن رجاءنا ضعيف جداً. لذلك وقع اختيارنا عليك لتكون وريثاً لنا دون أن تخبرك بذلك.

ـ أملنا كبير أن لا أرثكما. أتمنى لكما ذلك من صميم فؤادي.

أشعلنا سيجارة، ورأيت أنهما ينظران إلي نظرة مغزاها: هل تتكلم؟

ـ اسمعا. أرى أنكما تنتظران مني ما سأستشيله قبل سرد حكايتكم، أن أحكم على قضيتكم كرجل، ولكن لدي سؤال، لن يكون له أي تأثير على قراري، ما رأي الغالبية في هذه القاعة، ولم لا تكلمون أحداً؟

ـ رأي الغالبية أنه يستحق القتل، ولكن لا أن نطعمه للنمل. وأما ما يتعلق بسكوتنا فمرده إلى أنه سنحت لنا فرصة الهروب يوماً بالفتنة والعنف، ولكنهم لم يفعلوا.

ـ إليكما رأيي في الموضوع، لقد أحسنتما صنعاً بأنكم كلتم له الصاع صاعين. إن ضربة عش الزنابير لا تغتفر، وإذا تعرضتما للمقصلة في آخر لحظة فركزا فكركما في شيء واحد: وإذا قطعوا رأسي، فإن هذا يدوم ثلاثين ثانية، ما بين ربطي وإدخال رأسي

وسقوط سكين المقصلة، أما هو فقد دام نزعه ستين ساعة، فإذن أنا الرابح. أما موضوع العراكم عن رجال القاعة، فلا أدري إن كنتما على حق أم لا لأنكما تعتقدان بأن التمرد في ذلك اليوم قد يجيء هروباً جماعياً، وقد لا يكون للآخرين هذا الرأي، ومن جهة أخرى قد يضطر أحدنا إلى القتل دون إرادة مسبقة. إذن من بين جميع الحاضرين هنا، أعتقد أن الوحيدين الذين يمكن أن يجازفوا برؤوسهم هم: أنتما والأخوان غراقيل يا رجال. لكل حالة لبوسها وردود فعلها الخاصة بها بصورة إلزامية.

وبعد أن اكتفى هذان السكينان بهذا الحوار انصرفا وعادا إلى عزلتهما وصمتهما اللذين خرجا منه من أجلي.

هروب أكلة لحوم البشر

يا ذا الساق الخشبية!.. لقد التهموه.. يا ذا الساق الخشبية!.. إنه طعام شهي، ويصيح صوت يقلد صوت النساء: قطعة من شخص مشوية جيداً، بدون فلفل يا معلم، أرجوك.

قل أن لا تسمع في الليل البهيم، عبارة من هذه العبارات، إن لم تكن كلها.
أنا وكلوزيو، كنا نتساءل: لمن يقال هذا الكلام؟ ولماذا؟

بعد ظهر اليوم، وقعت على مفتاح السر من أحد مروجي تلك العبارات، ويدعى ماريوس دولاسيوتا اختصاصي بالصناديق الحديدية. فعندما علم أني أعرف أباه تيتين، لم يخش التحدث معي. وبعد أن رويت له جانباً من قصة هروبي سألته، وهذا شيء طبيعي، وأنت؟

ـ أنا؟ قصتي قذرة. أنا أخاف من عقوبة سجن لمدة خمس سنوات من أجل هروب بسيط. أنا من مجموعة سميت بجماعة أكلة لحوم البشر. إن ما تسمعه ليلاً: لقد أكلوه، إنه طعام شهي.. هذا من أجل الأخوين غراقيل.

هربنا ستة، من الكيلو متر الثاني والأربعين وكان معنا في المجموعة دده وجان غراقيل وهما أخوان أحدهما في الثلاثين والآخر في الخامسة والثلاثين وهما من ليون، ومعنا أيضاً لابرليوني من مرسيليا، وأنا من لاسيوتا وشخص من أنجه له ساق خشبية وفتى في الثالثة والعشرين كان يعاشره معاشرة الأزواج.

خرجنا من ماروني ولكننا في البحر لم نستطع حسن الاتجاه فلفظنا البحر إلى شاطىء غويان الهولاندية. ولم يتبق أحد من حبة الأمل فلا أغلبية ولا أي شيء آخر ثم وجدنا أنفسنا لحسن الحظ في أرض جرداء ويحسن أن أذكر بأنه لم يكن في هذا المكان شاطىء رملي، فالبحر يدخل إلى الغابة العذراء، وهي وعرة المسالك، دروبها متشابكة مستعصية بسبب الأشجار المتهاوية المحطمة من جذوعها أو المجتثة من جذورها بفعل البحر، وقد تشابك بعضها ببعض. وبعد مسيرة يوم كامل وجدنا الأرض جافة، فتوزعنا أنا والأخوان غراقيل والفريزي وذو الساق الخشبية مع صديقه الصغير في زمر ثلاث، وانطلقنا في اتجاهات مختلفة. وبعد اثني عشر يوماً تلاقينا أنا والأخوان غراقيل وماريوس في نفس المكان الذي افترقنا فيه، وكان محاطاً بحمأة متحركة، ولم نعثر على أي ممر ولا جدوى من أن أصف لك وجوعنا، فقد عشنا ثلاثة عشر يوماً بدون أن نأكل شيئاً سوى جذور الأشجار أو بعض النباتات الصغيرة. كنا كالأموات جوعاً وإعياء حتى الرمق الأخير. فعزمنا أنا وماريوس بما بقي من قوتنا أن نعود إلى شاطىء البحر، وأن نربط قميصاً فوق أعلى شجرة لتراقبنا أول سفينة من سفن خفر السواحل التي لا بد أن تمر من هناك. وكان على الأخوين غراقيل بعد أن يستريحا بضع ساعات أن يقتفيا أثر اثنين آخرين وهذا يبدو سهلاً إذ اتفقنا قبل الرحيل أن تترك كل زمرة علامات على الطريق من الأغصان. وبعد ساعات رأينا ذا الساق المكسورة قادماً وحده،

ـ أين الصغير؟
ـ تركته بعيداً لأنه لم يعد يقوى على السير.
ـ لقد كنت لئيماً في تركه.
ـ هو الذي أراد أن أعود على عقبي.
وحينئذ لاحظ دده أنه يحتذي في قدمه الوحيدة حذاء الفتى فقال له:
ـ لقد زدت الطين بلة إذ تركته حافياً لتلبس أنت حذاءه. أهنئك إذ تبدو في هيئة حسنة كهيئتنا، وواضح أنك أكلت.
ـ نعم وجدت قرداً جريحاً.
ـ هنيئاً لك.
وهنا نهض دده والسكين بيده وقد رأى أن فمه لا يزال ممتلئاً.
ـ افتح فاك.
ففتح فمه، وكانت قطعة من اللحم لا تزال في فمه.
ـ ما هذا؟
ـ قطعة من لحم القرد.
ـ أيها القذر لقد قتلت الفتى لتأكله؟
ـ لا يا دده، أقسم لك أنه مات من شدة التعب فأكلت منه قليلاً سامحني. ولم

يكد يبني حتى غاصت السكين في بطنه، وخلال تفتيشه وجد كيساً من الجلد، وأعواد ثقاب وعكاً. ومما يثير الغيظ أن الرجل لم يوزع أعواد الثقاب قبل الافتراق وباختصار دفعهما الجوع إلى إيقاد النار وطفقا يأكلان الرجل.

وصل غيزيبي إبان المأدبة فدعواه فأبى، لأنه كان قد أكل سراطين بحرية وسمكاً نيئاً. حضر الوليمة دون أن يشارك فيها وشاهد الأخوين غرافيل يضعان على الجمر أجزاء أخرى من لحم الرجل حتى أنهما استخدما رجله الخشبية في تغذية النار إذن شهد غيزيبي في ذلك اليوم وفي اليوم التالي، الأخوين وهما يأكلان الرجل بل إنه رأى الأجزاء التي أكلاها: بطة الساق والفخذ والأليتين.

قال ماريوس: كنت لم أفارق الشاطئ، عندما جاءني غيزيبي باحثاً عني.

ملأنا قبعة بسراطين البحر والسمك وشويناها على نار الأخوين غرافيل، ولم أر الجثة فقد جراها بعيداً، إنما رأيت قطعاً من اللحم لا تزال إلى جانب النار فوق الرماد وبعد ثلاثة أيام التقطنا أحد خفراء السواحل وأعادنا إلى معسكر التأديب في سان لوران — ماروني.

غيزيبي لم يمسك لسانه، فقد علم بالأمر جميع رجال القاعة حتى الحراس. أروي لك هذا لأنه لم يعد عقاباً على أحد. من هنا هذه الجلبة التي تسمعها ليلاً، لأن هذين الأخوين سيئا الطبع.

نحن رسمياً متهمون بالهروب وما زاد الاتهام خطورة أكل لحوم البشر. والقصة هي أنني لكي أدافع عن نفسي يجب أن أتهم وهذا غير ممكن. وكلهم أنكروا أثناء التحقيق حتى غيزيبي، وأفادوا بأن الرجلين قد اختفيا في الغابة. فهذا هو وضعي يا بابيون.

— إني أعذرك، لأنك في الواقع لا تستطيع أن تدافع عن نفسك إلا باتهام الآخرين.

بعد شهر قتل غيزيبي ليلاً بطعنة في صميم قلبه. ولم يكن هناك ضرورة حتى للتساؤل عن الفاعل.

هذه هي القصة الثابتة، قصة آكلي اللحم البشري، الذين أكلوا الرجل بعد أن شووا لحمه على رجله الخشبية وهو نفسه أكل الفتى الذي كان في صحبته.

ثبت هذه الليلة في موضع آخر من القضيب الحديدي بوساطة الحلقة. كانت المراقبة شديدة إلى درجة أن الدوريات لم يكن لها تنظيم معين، فهي تتوالى دون توقف وأخرى تأتي من اتجاه معاكس في أية لحظة. قدماي في حالة جيدة جداً، ويجب أن أنظر السماء حتى أنام. وعلي مع ذلك أن أقوم بعمل جديد. ولكن كيف؟

ليس في هذه القاعة نافذة، وليس فيها سوى شباك ذي حامل يشغل العرض كله ويصل إلى السقف، وهو موضوع بصورة تسمح بمرور الريح الشمالية الشرقية بحرية تامة. ورغم التمحيص والمراقبة مدة أسبوع لم أصل إلى ثغرة في مراقبة الحراس، ولأول مرة أصل إلى القناعة بأنهم سيحبسونني في سجن جزيرة سان جوزيف، وقد قيل لي إنه رهيب، ويدعونه آكل الرجال. وهناك معلومات تفيد بأنه منذ إنشائه أي منذ حوالي ثمانين عاماً وحتى اليوم، لم يستطع رجل واحد أن يفلت منه.

وبطبيعة الحال هذه القناعة الصحيحة بأنني خاسر تدفعني إلى النظر في المستقبل. عمري الآن ثمانية وعشرون عاماً. طلب المحقق عزلي خمس سنوات، ومن العسير أن أخرج من المحكمة بحكم أقل. وسوف يكون عمري ثلاثة وثلاثين عاماً حين أغادر الانفرادي. لا زلت أحمل مالاً. إذن لن أهرب وهو الأرجح إذ يتحتم علي أن أعتني بصحتي على الأقل.

إن خمس سنوات في الانفرادي أمر شاق يتعذر احتماله دون أن يصاب المرء بالجنون لذا أعتمد الغذاء الجيد والتنظيم الفكري منذ اليوم الأول من العقوبة وفق برنامج مدروس دراسة جيدة ومتنوع، وعلي أن أتحاشى قدر المستطاع الأحلام المتعلقة بالانتقام. إني أعد نفسي منذ الآن لاجتياز فترة العقوبة التي تنتظرني.

أجل، إنهم الخاسرون. سأغادر السجن الانفرادي أشد بنية وأنا في كامل قواي الجسدية والفكرية. وفي هذا خير لي، لأرسم خطط سلوكي، ولأستسلم في صفاء لما هو مقدر لي.

النسيم المنساب إلى القاعة يداعبني قبل غيري من الناس وينعشني حقاً.

كلوزيو يعرف الوقت الذي لا أريد الكلام فيه، لذا فهو لايعكر علي استغراقي في الصمت، وكان يدخن كثيراً. وهذا كل ما كان يفعله. لمحت بعض النجوم فقلت:

— هل ترى النجوم من موضعك؟

فمال علي قليلاً وقال:

— أجل. إنما أؤثر أن لا أتأملها لأنها تذكرني بالنجوم التي كنا نراها في هروبنا.

— لا تغتظ. سوف نراها بالآلاف في هروبنا التالي.

— متى؟ بعد خمس سنوات؟

— في السنة التي نولد فيها من جديد. كل هذه المغامرات التي قمنا بها، وجميع الناس الذين تعرفنا عليهم، ألا يساوون خمس سنوات في السجن الانفرادي؟ هل تفضل لو لم تكن مساهماً في ذلك الهروب، وبقيت في الجزر منذ وصولك؟ وبسبب ما سوف نتوقعه، وبطبيعة الحال لن يكون مبكراً، هل أنت نادم على ذلك الهروب؟ جاوبني بصراحة، هل أنت نادم أم لا؟

ـ يا بابي. لقد نسيت شيئاً، وهو أنني لم أكن معك عند الهنود، ولا أمضيت هناك سبعة أشهر، ولو أني كنت معك لفكرت مثل تفكيرك. ولكنني كنت في السجن.
ـ عفواً لقد نسيت هذا. كنت أهذي.
ـ لا. إنك لا تهذي. ورغم كل شيء أنا مسرور من هروبنا، وأنا أيضاً مرت بي ساعات لا تنسى وإنما ينتابني غم مما ينتظرني في السجن أكثر الرجال. خمس سنوات، من المستحسن قضاؤها.

وحينئذ شرحت له ما عزمت عليه وأحسست به إعجاباً. وقد سرني أن أرى صديقي يستعيد افتخاره بي وأمامنا خمس عشر يوماً لنمثل أمام المحكمة. وبحسب الإشاعات إن المقدم الذي سيأتي ليرأس المجلس الحربي معروف بأنه رجل صارم، ولكنه مستقيم جداً ولا يتقبل اقتراحات الإدارة، وهذا الخبر طيب. أنا وكلوزيو رفضنا أن يكون أحد المراقبين محامياً عنا. أما ماتوريت فهو في الإفرادي منذ وصولنا وعزمت على أن أتولى بنفسي الدفاع عن نفسي وعن صديقيّ.

الحكم

قصصت هذا الصباح شعري، وحلقت لحيتي، وارتديت ملابس جديدة من الكتان المخطط بالأحمر ولبست حذاء. ثم جلسنا ننتظر في الباحة، المثول أمام المحكمة.

كلوزيو صار يمشي كالأسوياء، لم يبق أعرج. بدأ المجلس الحربي جلساته يوم الاثنين ونحن اليوم في يوم السبت. فمنذ خمسة أيام والمجلس ينظر دعاوي مختلفة، منها دعوى الرجلين اللذين أطعما صحيتهما للنمل، وقد استغرقت يوماً كاملاً، فحكم عليهما بالإعدام، وكان آخر عهدي بهما. أما الأخوان غرافيل فقد حكم عليهما بأربع سنوات فقط لعدم وجود الدليل على أنهما من أكلة لحوم البشر، وقد استغرقت محاكمتهما نصف يوم، وتراوحت الأحكام في الجرائم الأخرى ما بين أربع وخمس سنوات. وبوجه عام، فإن العقوبات كانت صارمة ولكنها مقبولة لا مبالغة فيها.

بدأت جلسة المحكمة في الساعة السابعة والنصف، وكنا في القاعة عندما دخل المقدم في زي مهري[1] مصحوباً بكهل برتبة رائد في المشاة، وملازم، وهما بمثابة معاونين له. على يمين هيئة المحكمة مراقب ذو شارات مذهبة على كتفه! ورائد يمثل الإدارة والاتهام. والآن قضية شاريير وكلوزيو وماتوريت. ونحن على بعد أربعة أمتار من هيئة المحكمة حيث تمكنت من رؤية تفاصيل رأس هذا المقدم المشغول دوماً بالصحراء، وهو في العقد الخامس، وقد شاب شعر صدغيه، أثيث الحاجبين، عيناه سوداوان رائعتان ترسلان النظرات كالسهم إلى أعيننا، إنه عسكري بحق، ولا تنطق عيناه بالشر. تفحصنا ودقق النظر ولم تفارق عيناي عينيه، ثم أغضيت طوعاً.

كان الرائد، ممثل الإدارة، بياحنا بعنف، وهذا ما أدى إلى خسرانه. إنه يعتبر تحييد المراقبين بشريم محاولة قتل. ويؤكد أن نجاة العربي من الموت كانت معجزة بعد تلك الضربات المتعددة!! وتورط في خطأ آخر إذ قال بأن هذا السجن منذ تأسيسه لم يشهد مجرمين مثلنا، حلنا إلى أقاصي البلاد عاراً على فرنسا، وصل حتى كولومبيا.

ـ يا سيدي الرئيس! إن هؤلاء الرجال قد طافوا ألفين وخمس مئة كيلو متر من ترينيداد إلى كوراساو إلى كولومبيا. فكل هذه الأمم قد سمعت حتماً، الحكايات الملفقة عن إدارة التأديب الفرنسية لذا فإني أطالب بحق شاريير وكلوزيو بحكمين متميزين مجموعهما ثماني سنوات، خمس لكل منهما لمحاولة القتل وثلاث من أجل الهروب. أما بالنسبة إلى ماتوريت فإنا أطلب له حكماً بثلاث سنوات فقط من أجل الهروب إذ لم يثبت أنه اشترك في محاولة القتل. الرئيس: «إن المحكمة ستهتم ما أمكن بالمختصر المفيد من هذه اللمحة المطولة».

رويت رحلتنا ـ ناسياً ذكر ماروبل ـ في البحر، إلى ترينيداد وتعرضت لذكر أسرة بروان وطيب عنصرها، وذكرت ما قاله رئيس الشرطة في ترينيداد وليس من حقنا أن ندين العدالة الفرنسية، ولكن نقطة الخلاف بيننا هو أنهم يرسلون سجناءهم إلى غويان، ومن أجل هذا نحن نساعدكم. ثم انتقلت إلى الحديث عن كوراساو ولقائي بالأب ايريغين، وحادثة كيس النقود، ثم عن كولومبيا. لماذا وكيف ذهبنا إليها. وعرضت عرضاً سريعاً ومقتضباً، لمحة من حياتي عند الهنود. كان المقدم يصغي لأقوالي ولا يقاطعني وإنما سألني عن بعض التفاصيل من حياتي عند الهنود، وهي الشيء الذي أثار اهتمامه بصورة بالغة. وحدثته عن السجون الكولومبية وخاصة السرداب تحت البحر في سانتا مرتا.

ـ شكراً. إن دفاعك ألقى الضوء أمام المحكمة وأثار اهتمامها وسوف ترفع الجلسة خمس عشرة دقيقة. إني لا أرى محاميكم أين هم؟
ـ ليس لنا محامون، وأطلب أن تقبلوا دفاعي عن نفسي وعن أصدقائي.
ـ تستطيع ذلك فالأنظمة تجيزه.
ـ شكراً.
وبعد ربع ساعة استؤنفت الجلسة.
الرئيس: شاريير!! إن هيئة المحكمة تسمح لك بالمدافعة عن نفسك وعن

(١) المهري كلمة مستعملة في شمال إفريقيا وتعني الذي يسوق ناقة في السباق mahariste.

اصدقائك. ولكن تذكر بأنه إذا صدر عنك ما يسيء إلى ممثل الإدارة فإننا سنسحب منكم حق الكلام. فبوسعكم الدفاع عن أنفسكم، بمنتهى الحرية، إنما بتعابير لائقة. فالكلام لكم الآن.

ـ أطلب من هيئة المحكمة استبعاد جرم محاولة القتل. فهي غير صحيحة، وسوف أبرهن على ذلك: كان لي من العمر سبع وعشرون سنة في السنة الماضية، وكان كلوزيو في الثلاثين. كنا في كامل قوانا وقد وصلنا من فرنسا حديثاً. طولي مئة وأربعة وسبعون سنتمتراً، وطوله مئة وخمسة وسبعون سنتمتراً ضربنا العربي والمراقبين برجل السرير الحديدية، ولم يجرح واحد منهم جرحاً ذا بال. إذن ضربوا في كثير من الحذر بغية طرحهم، وذلك بإلحاق أقل الضرر بهم، ونسي المراقب المدعي العام أن يقول أو أنه يجهل بأن قطعة الحديد كانت ملفوفة بخرق من القماش لئلا يتعرض أحدهم لخطر الموت.

إن هيئة المحكمة، وهي مؤلفة من رجال عسكريين، تعرف جيداً ما يمكن أن يفعله رجل قوي بتصل حربة. حينئذ يمكن أن يتصوروا ماذا يفعل برجل سرير حديدية. ألفت نظر المحكمة إلى أن أحداً من الرجال الأربعة لم يدخل المستشفى.

والهروب بالنسبة لرجل محكوم بالسجن المؤبد ليس خطراً كما هي الحال بالنسبة إلى من كانت عنده عقوبة خفيفة. إن من العسيرجداً على من كان في عمرنا أن يرضى بعدم العودة إلى الحياة من جديد فأنا أطلب من هيئة المحكمة الرأفة بنا نحن الثلاثة.

تهامس القائد مع مساعديه ثم ضرب على المنضدة بمطرقة وقال:

ـ أيها المتهمون! قفوا

توقفنا نحن الثلاثة كالخشب المسلة نستمع.

الرئيس: إن هيئة المحكمة قد صرفت النظر عن محاولة القتل ولن تصدر فيها أي حكم وفيما يخص الهروب فقد تقرر اعتباركم مذنبين من الدرجة الثانية فحكمت عليكم المحكمة بالسجن الانفرادي لمدة سنتين.

فقلنا في صوت واحد: شكراً لك أيها القائد. وأردفت وشكراً لهيئة المحكمة.

ولدى عودتنا إلى المبنى حيث رفاقنا. كان الجميع في غاية السرور من هذا الحكم ولم يكن فيهم حاسد، بل العكس هو الصحيح. حتى أولئك الذين كانوا سفهاء هنؤونا بإخلاص. وأقبل على فرانسوا سيرا يعانقني مبتهجاً.

جزر سالو
الوصول إلى الجزر

سنبحر غداً إلى جزرسالو. ورغم كفاحي، هاأنذا هذه المرة على وشك الحبس بعد ساعات وإلى الأبد وقبل هذا يجب أن أمضي سنتين في الانفرادي في جزيرة سان جوزيف، وآمل أن أكذب تسميتهم له بآكل الرجال. لقد خسرت اللعبة، ولكني لا أحس بأني مغلوب، وعلي أن أكون مسروراً بأنه حكم علي بسنتين فقط في هذا السجن لا في غيره. وكما عاهدت نفسي، لن استسلم إلى الأوهام في سهولة، إلى الأوهام التي تبدعها العزلة التامة. وتفادياً لهذا، عندي الدواء. ويجب قبل كل شيء، أن أرى نفسي حراً، سليماً معافى كأي محكوم عادي في الجزر. وسأبلغ الثلاثين عند خروجي من الانفرادي.

إن الفرار من هذه الجزر نادر جداً. أعرف ذلك. ومع هذا فإن عدد الرجال الذين فروا لا يتجاوز عدد الأصابع. وأنا سأهرب بالتأكيد بعد سنتين من الجزر. كررت هذا القول على مسمع كلوزيو الجالس إلى جانبي.

ـ يا عزيزي بابيون! إنك لتشقى بهذا النضال، وأغبطك على ما تحمله من إيمان بالحصول على الحرية يوماً ما. فمنذ عام وأنت لا تكف عن الهروب، ولم تعدل عنه مرة واحدة، فما إن تنهزم في هروب حتى تبدأ بتحضير هروب آخر. وإنه ليدهشني أنك هنا لم تحاول.

ـ هنا يا صديقي، لا توجد سوى وسيلة واحدة وهي إشعال فتنة. وليس لدي الوقت لأستحوذ على هؤلاء الرجال الوعرين، وكدت أضرم نارها ولكن خفت أن تلتهمني. هؤلاء الرجال الأربعون سجناء قدماء امتصتهم طريق العفن، فتصرفاتهم تختلف عن تصرفاتنا، والدليل على ذلك، أكلة لحوم البشر، رجل النمل، والرجل الذي لم يتردد في وضع السم في الحساء في سبيل قتل رجل فقتل سبعة لا ذنب لهم.

ـ ولكن في الجزر الطراز نفسه من الرجال.

ـ نعم. وسوف أهرب دون مساعدة من أحد. سأهرب وحدي أو مع صديق وحسب. أنت تبتسم يا كلوزيو، لماذا؟

ـ أبتسم لأنك لن تتخلى عن اللعبة، والنار التي تتقد في أحشائك للعودة إلى باريس، تشدك، وأنت تعرض على أصحابك بياناً بالحساب، بقوة إلى درجة أنك لا تقبل إلا ما تشتهي ما دام لم يتحقق.

ـ عم مساء يا كلوزيو إلى الغد. نعم سنرى هذه الجزر المقدسة وأول ما أسأل عنه لم سميت هذه الجزر بجزر سالو (السلام)؟

وعندما أدرت ظهري لكلوزيو ملت بوجهي نحو نسيم الليل.

غداً وفي ساعة مبكرة سنركب البحر إلى الجزر، وعلى ظهر مركب صغير حولته أربعة وعشرون طناً وستة وعشرون رجلاً. وهذا المركب رائح وغادٍ بين كايين والجزر وسان لوران. قيدونا مثنى مثنى من أرجلنا بقيود حديدية، جعلونا فرقتين في الأمام مؤلفتين من ثمانية رجال يراقب كل فرقة أربعة من الحراس والسلاح في أيديهم. زد على ذلك فرقة مؤلفة من عشرة في الخلف ومعهم حراسهم الستة ورئيسا المجموعتين.

والجميع على ظهر هذا المركب الصغير على وشك الإعياء في أية لحظة من سوء حالة الجو. وحزمت أمري على عدم التفكير، خلال الرحلة، بل أردت أن أتسلى. وقد أردت فقط أن أغيظ المراقب الجهم القريب مني فقلت له بصوت مرتفع:

بهذه السلاسل التي قيدتمونا بها تجازفون بفرصة النجاة، لو أن هذا المركب الهتري أوشك على الغرق. وحصول هذا متوقع في بحر خضم هذه حالته.

فتنبه المراقب منزعجاً وتحرك كما لو أنني حثثته وقال:

ـ لا نبالي إن غرقتم، فالأوامر هي أن تبقوا مكبلين. وهذا كل شيء والتبعة تقع على عاتق من يصدر الأوامر. أما نحن فخليون من التبعات على أية حال.

ـ ومع ذلك أنت على حق يا سيدي المراقب، لأنه إن كنا بالأغلال أو بدونها إذا انفتح هذا النعش في الطريق، سننزل جميعاً إلى الغور. فأجاب الأحمق:

ـ أنت تعلم أن المركب منذ زمن طويل يقوم بهذه الرحلات ولم يحصل له شيء.

ـ وبما أنه يعمل منذ طويل فمن المؤكد أن يحصل له شيء في أية لحظة.

وهكذا توصلت إلى ما كنت أبتغي من تحطيم الصمت الذي كان يثير أعصابي. وعلى الفور صار الموضوع متداولاً وموضع جدال بين المراقبين والسجناء.

ـ نعم. هذا المركب الصغير خطر ونحن مكبلون ولولا القيود لكانت لنا مع ذلك فرصة.

ـ نحن نطراؤكم. فنحن بألبستنا، وأحذيتنا وسلاحنا، لسنا رشيقين أيضاً.

قال آخر: السلاح ليس مشكلة، ففي حالة الغرق يمكن التخلص منه في الحال.

وبعد أن رأيت هذا الموضوع قد حاز اهتماماً، أثرت موضوعاً آخر فقلت أين قوارب النجاة؟ لا أرى سوى واحد لا يكاد يتسع لثمانية أشخاص. الرائد وطاقمه يملؤونه، والآخرون كرات عالقة في الهواء. أقلع المركب مطلقاً نفثاً عالياً، وعليه رجال هم آباء لأطفال تتعرض حياتهم للخطر في مصاحبة هؤلاء السفلة حراستهم دون إحساس بالمسؤولية على نحو لا يطاق.

كنت مع الزمرة التي تجلس في مؤخرة المركب، ويسافر معنا رئيسا القافلة. نظر إلى أحدهما وقال:

ـ أأنت بابيون العائد من كولومبيا؟

ـ نعم.

ـ إنه لا يدهشني أن تكون قد ذهبت بعيداً جداً ويبدو أنك تفهم أمور البحر.

فأجبت معتزاً: نعم كثيراً.

فأشاع هذا طمأنينة زد على ذلك أن القدم نزل عن جسر السفينة لأننا في هذه اللحظة خرجنا من المصب ماروني، وبما أن هذه اللحظة حرجة فقد أمسك بالمقود بنفسه، ثم سلمه إلى آخر. وهذا القدم الأسود قصير القامة، ممتلئ الجسم وملامح الشباب في وجهه.

سأل عن الشبان الذين قطعوا البحر إلى كولومبيا فوق دفة خشبية.

قال رئيس القافلة: هذا وذاك والآخر إلى الجانب.

سأل القزم: ومن كان رئيسهم

ـ أنا يا سيدي.

ـ حسناً أيها الفتى، بصفتي بحاراً أهنئك فأنت لست رجلاً عادياً.

ومد يده إلى جيب سترته وقال: اقبل مني علبة التبغ الأزرق هذه، مع أوراقها، ودخن نخب صحتي.

ـ شكراً لك أيها القدم، وأنا أيضاً يجب أن أهنئك على جرأتك على الإبحار بهذا المركب مرة أو مرتين في الأسبوع على ما أعتقد. فأغرق في الضحك على حين كنت أقصد غيظه.

ـ آه. أنت على حق كان ينبغي أن يحال إلى المقبرة منذ زمن طويل، ولكن الشركة تنتظر حتى يغرق لتحصل على تعويض التأمين.

وختمت قولي بهذه الوخزة: لحسن الحظ أنه لديك أنت والمراقبين زورق للنجاة.

فأجاب وهو في طريقه إلى السلم وبدون تفكير: نعم لحسن الحظ.

إن هذا الموضوع الذي طرحته عمداً أثار جدلاً، وأدلى كل واحد برأيه، حتى عمت المناقشة جميع من كانوا في المركب فطالت الرحلة أكثر من أربع ساعات.

اليوم وحوالي الساعة العاشرة كان البحر متوسط ارتفاع الموج، ولكن الريح لا تلائم الرحلة. ووجهتنا نحو الشمال الشرقي أي باتجاه معاكس للموج والريح، لذا فإن المركب

أحد يتقلقل ويضطرب قليلاً. وسادت صحة عدد من المراقبين والسجناء، أما المقرون معي فكانت له أقدام بحار لحسن الحظ، إذ لا شيء أدعى إلى الاشمئزاز من رؤية أحدهم يتقيأ. وهذا الشاب من باريس، جيء به إلى السجن عام ١٩٢٧، فهو إذن في الجزر منذ سبع سنوات. إنه شاب ــ نسبياً ــ وعمره ثمان وثلاثون سنة. قال:

ــ أنا أدعى تيتي لابيلوت. وأحب أن أقول لك يا صديقي أنني أقوى من لعب البيلوت، وهي مصدر كسبي في الجزر، وكل لعبة بفرنكين، ويستمر اللعب طوال الليل.

ــ إذن، في الجزر مال كثير؟

ــ أجل يا صديقي بابيون. ففي الجزر الكثير من الأنبوبات المترعة بالمال. البعض يحملها معه، و آخرون يحصلون عليها باقتسام ما فيها مناصفة مع المراقبين. ويبدو عليك أنك جديد، وكأنك لا تعرف شيئاً.

ــ لا. لا أعرف شيئاً عن الجزر، ولكنني أعرف أن الهروب من هناك دونه خرط القتاد[1].

ــ الهروب؟ لا داعي لذكره. فأنا هناك منذ سبع سنين وقد حصلت خلالها محاولتان للهروب وكانت العاقبة ثلاثة قتلى وموقوفين. ليس هناك من يحاول ذلك. جرب حظك.

ــ ولم كنت على الشاطىء؟ على الأرض الكبرى؟

ــ عرضت نفسي على الأشعة لأتحقق من عدم وجود مَعْل.

ــ ألم تحاول الفرار من المستشفى؟

ــ ربما. إنك أوصدت في وجهنا كل شيء، وعلاوة على ذلك لقد نزلت في القاعة التي هربت أنت منها وإنك ترى المراقبة الشديدة. إذ كلما اقترب أحد من الشباك ليتنشق الهواء جروه إلى الوراء وإذا سألتهم لماذا؟ أجابوا: نخاف أن تواتيك فكرة ما كما واتت بابيون.

ــ قل لي يا تيتي. من هذا الشخص الكبير الجالس بجانب رئيس القافلة؟ هل هو موزع الورق في اللعب؟

ــ أأنت مجنون؟ إنه رجل ذو اعتبار في نظر الجميع. إنه تافه ولكنه يستطيع أن يظهر بمظهر رجل داهر: ليست له علاقات ودية مع الحراس، ولا منزلة خاصة، وهو لا يعدو صفة السجين عندهم. إنه ناصح أمين وصديق ولكنه يبتعد عن الشرطة. فلا الطبيب ولا الخوري استطاعا استخدامه. هذا التافه الذي يسلك سلوك رئيس العصابة، ينحدر من سلالة لويس الخامس عشر. أجل يا صديقي إنه (كونت) حقاً، يدعى الكونت جان دو بيراك. ومع ذلك وقبل أن يكتسب احترام الرجال، وقد استغرق ذلك زمناً، كان قد قام بفعلة نكراء تبعث على الاشمئزاز، أدت به إلى الأشغال الشاقة.

ــ ماذا فعل؟

(١) القتاد: خشب صلب جداً وقطعه شاق وصعب. يضرب به المثل في صعوبته.

ــ ألقى بغلامه الخاص إلى النهر من فوق جسر، فوقع الصغير في مكان ضحل قليل الماء وبلغت القسوة بهذا الرجل أن ينزل إلى الماء ويحمله ويزج به في لجة أكثر عمقاً.

ــ ماذا؟ فكأنه قتل غلامه مرتين.

ــ وحسب رواية صديق لي، كان يعمل محامياً، وقد اطلع على ملفه، أنه كان يعيش في وسطه الاجتماعي النبيل في رعب، وأن أمه رمت بأم الطفل إلى قارعة الطريق رمي الكلاب، وكانت قبلاً تعمل خادمة في القصر. ومن أقوال صديقي بأن هذا الفتى كانت تسيطر عليه أم متعجرفة دعية، وقد أذلته إلى درجة أنها كانت تعد له، وهو الكونت، علاقات غرامية مع الخادمة، وأنه كان لا يعي شيئاً حين ألقى بالغلام في النهر بعد أن قال للأم بأنه يأخذ طفلها إلى ملجأ عام.

ــ كم حكموا عليه؟

ــ حكموا عليه بعشر سنوات فقط مع الأشغال الشاقة. فكر يا بابيون أن هذا المخلوق ليس مثلنا فالكونتيسة رئيسة الشرف في الأسرة، قد شرحت للقضاة بأن قتل ابن خادمة ليس جريمة خطرة إذا ارتكبها كونت يريد إنقاذ سمعة الأسرة.

ــ والنتيجة؟

ــ والنتيجة في نظري، أنا تيتي الباريسي المتواضع هي كما يلي: هذا الكونت جان دوبيراك بما يتمتع من حرية وبما كان له من حكايات مستورة كان قد تربى تربية يرى من خلالها أنه لا شيء يستحق الذكر سوى الدم الأزرق، ومن عداهم لا قيمة لهم وغير جديرين بالاهتمام، فإن لم يكونوا عبيداً بالمعنى الصحيح فهم على الأقل مخلوقات من الهمل. وهذه الأثرة الخانقة وهذا الصلف اللذان تتصف بهما أمه سحقاه وأرهباه حتى صار كالأرقاء. وفي السجن فقط صار هذا السنيور نبيلاً حقاً. وقد يبدو هذا تناقضاً ولكنه الآن فقط الكونت دوبيراك.

أنا أجهل جزر السلام ولن أكون كذلك بعد ساعات. وأنا أعلم علم اليقين أن الهروب أمر عسير جداً ولكنه ليس مستحيلاً. وكنت أتنشق في عذوبة هواء البحر وأنا أفكر بأن هذه الريح المعاكسة سوف تتحول أثناء الهروب إلى ريح مواتية.

لقد وصلنا. وهذه هي الجزر. إنها تشكل مثلثاً، فجزيرة رويال وجزيرة سان جوزيف تشكلان القاعدة، وجزيرة الشيطان تشكل قمة هذا المثلث. والشمس المائلة تضيئها باللهيب الذي لا يماثله في الشدة إلا لهيب المناطق الاستوائية. هنا أمكن رؤية تفاصيل هذه الجزر على مهل. أولاً جزيرة رويال وطريقها الدائري المستوي حول أكمة يبلغ ارتفاعها مئتي متر وقمتها مستوية ويصور هذا المشهد هيئة قبعة مكسيكية موضوعة على البحر، والتي قطعت قمتها. وتنتشر أشجار النارجيل (جوز الهند) في كل مكان، والبيوت الصغيرة ذات سطوح قرميدية تمنح الجزيرة جاذبية غامضة، والذي يجهل ما فيها يتمنى لو قضى عمره فيها.

والنار يفيء، لئلا تحتمي السفن من الارتطام بالصخور، وبخاصة في الأحوال الجوية السيئة. فلما اقتربنا أكثر ميزت خمسة أبنية ضخمة طويلة. وعلمت من تيتي أنها تحوي قاعتين واسعتين حيث يعيش أربع مئة سجين، ثم معسكر القمع وزنزاناته وسراديبه المحاطة بأسوار عالية بيض، والبناء الرابع هو المستشفى، والخامس مشفى مخصص للمراقبين. وتتناثر في كل مكان على المنحدرات مساكن المراقبين التي يعلوها القرميد الوردي وهي بعيدة عنا، ولكنها قريبة جداً من نقطة التقاء رويال بجزيرة سان جوزيف.

أشجار النارجيل أقل، وبالتالي أوراق الشجر والظلال أقل. وفي أعلى الهضبة أطلال ترى من البحر بوضوح تام، وفي الحال أدركت أنها معسكر الانفرادي، وأيدني تيتي في ذلك. وأراني في الأدنى أبنية المعسكر حيث يعيش السجناء عقوبتهم العادية. وهذه الأبنية قريبة من البحر. أبراج المراقبين مع شرفاتها، متباعدة بعضها عن بعض. وهنالك بيوت أنيقة مصبوغة الجدران باللون الأبيض وسقوفها حمر.

ولما كان المركب متجهاً شمالاً نحو مدخل الجزيرة «رويال» لم تعد ترى جزيرة الشيطان الصغيرة.

إن الوهلة الأولى أرتني صخرة ضخمة تغطيها بعض أشجار النارجيل بدون أبنية ذات شأن. بعض المساكن على الشاطئ، صفراء اللون، سوداء السطوح. وقد عرفت في زمن متأخر أنها بيوت للمبعدين السياسيين.

بدأنا بدخول مرفأ رويال المحمي بركام من الحجارة عظيم. إنه عمل لا بد أنه كلف بناؤه حياة كثير من السجناء.

وبعد ثلاث صفرات، ألقى «تانون» مرساته على بعد مئتين وخمسين متراً من الرصيف، وهو مبني من الإسمنت والحصى الكبير، طويل، ومرتفع إلى أكثر من ثلاثة أمتار والأبنية المصبوغة باللون الأبيض تمتد موازية له.

قرأت لوحات كتبت باللون الأسود على خلفية بيضاء: «مركز حرس مصلحة الزوارق» «المخبز»، «إدارة المرفأ»..

ترى سجناء ينظرون إلى المركب ولا يلبسون الملابس المخططة، يلبسون جميعاً البنطال ونوعاً من القمصان البيض..

قال لي تيتي: في هذه الجزر، من كان يملك مالاً يخيط ملابسه تفصيلاً عند الخياطين وذلك من أكياس الطحين، بعد أن ينزعوا الحروف المطبوعة عليها. قماشها لين ناعم وأحياناً تعطي مظهراً أنيقاً، ولا يكاد أحدهم يلبس ملابس السجن.

دنا زورق من «تانون» وكان عند الحاجز مراقب وعلى اليمين واليسار مراقبان مسلحان ببندقيتين قصيرتين. وخلفهم ستة من السجناء واقفون، عارية صدورهم،

يرتدون بنطالات بيض ويجدفون بمجاديف واسعة. وقد اجتازوا المسافة في سرعة، ويقطرون خلفهم زورقاً كبيراً فارغاً من نوع زوارق النجاة، وتم الانتقال، فنزل رؤساء القافلة أولاً، فأخذوا مكان الصدارة، ثم تقدم نحو الأمام مراقبان مسلحان. كانت أقدامنا خفيفة الحركة ولا تزال مكبلة. نزلنا مثنى مثنى إلى الزورق: عشرة من زمرتي، وثمانية من زمرة الأمام.

رفع المجدفون مجاديفهم، وسوف يعودون ليأتوا بآخرين. نزلنا إلى الرصيف واصطففنا أمام مبنى إدارة المرفأ ننتظر. وأخذ المقولون يحدثوننا، دون أن يقيموا وزناً للحرس، بصوت عال ومن مسافة محظورة تقرب من ستة أمتار. عدد من المقولين من زمرتي سلموا علي سلام تحية.

قال لي سيزاري وإيساري وهما لصان كورسيكيان عرفتهما في سان مارتن بأنهما يعملان في الزوارق في مصلحة المرفأ.

وفي هذه الأثناء وصل شاتار من مصلحة الصيرفة في مرسيليا وقد تعرفت عليه في فرنسا قبل دخولنا السجن. قال لي دون حرج من الحراس: لاتهتم يابابيون، اعتمد على الأصدقاء ولن ينقصك شيء في الانفرادي. كم حكم عليك؟

– بسنتين.

– حسن، ستمران في سرعة وتعود إلينا فنحن هنا في حالة غير سيئة.

– شكراً شاتار. ما أخبار ديغا؟

– إنه محاسب في الأعلى، ويدهشني أن لا يكون هنا. وسوف يؤسفه انه لم يرك. وفي هذه اللحظة وصل كالكالي متجهاً نحوي، وأراد الحارس منعه من المرور ولكنه مر قائلاً إنك لن تمنعني من تقبيل أخي، فقبلني وقال: اعتمد علي ثم انسحب.

– ماذا تفعل؟

– إنني ساعي بريد.

– هل الأمور حسنة؟

– إنني مرتاح.

نزل الآخرون وانضموا إلينا وفكوا قيودنا جميعاً. انسحب الكثيرون من زمرتنا مثل تيتي ودوبيراك ومجهولون قال لهم أحد المراقبين: هيا اصعدوا إلى المعسكر. هم يحملون أكياس أمتعتهم، كل يضع كيسه على عاتقه. اتجهوا نحو طريق تؤدي إلى أعلى الجزيرة.

وصل المقدم في الجزر مصحوباً بستة مراقبين وجرى التفقد وتسلمهم بالكامل، وانسحبت مجموعتنا. سأل المقدم عن المحاسب فقيل له: إنه آت. فرأيت ديغا قادماً بأحسن هندام أبيض وسترة ذات أزرار، ومعه مراقب وكل منهما يتأبط كتاباً، وأخذا كلاهما يخرجان الرجال من الصفوف الواحد تلو الآخر بحسب تصنيفهم الجديد فلان، انفرادي، فلان رقم تسجيله في المبعدين كذا، وفلان في سجل الانفرادي برقم كذا.

ـ كم؟

ـ كذا سنة.

وعندما جاء دوري قبلني ديغا مراراً وتكراراً ودنا المقدم وقال:

ـ أهذا هو بابيون؟

ـ أجل يا سيادة المقدم

ـ اعتنِ بنفسك في الانفرادي فمدة سنتين تمضي مسرعة.

الانفرادي

كان الزورق جاهزاً، من أصل تسعة عشر سجيناً، عشرة ينزلون إلى الزورق، تودعت للذهاب فقال ديغا ببرود: لا. هذا سيكون في الرحلة الأخيرة.

ولقد أذهلني ما رأيت منذ وصولي. بأية طريقة يتكلم السجناء. لا يكاد المرء يحس بالتأديب، بل يبدو أنهم يستخفون بالخفراء. تحدثت إلى ديغا وكان بجانبي. وهو يعلم قصتي ويعرف تفاصيل هروبي. إن رجالاً كانوا معي في سان لوران أتوا إلى الجزر وأحاطوه علماً بكل شيء. ولم يلمني فهو أرق من أن يفعل ذلك، بل وجه إلي عبارة نابعة من صميم فؤاده وهي: لقد كنت تستحق النجاح يا بني، وأتمناه لك مستقبلاً. ولم يقل لي تشجع لأنه يعرف أني لا أفتقر إلى الشجاعة.

أنا محاسب عام، وعلى علاقة طيبة مع المقدم. انتبه لنفسك في الانفرادي. سأرسل إليك التبغ وما يلزم من الطعام ولن ينقصك شيء.

نودي علي: هيا يا بابيون. جاء دوري فودعت الجميع وشكرت لهم عواطفهم.

ركبت الزورق وبعد عشرين دقيقة حاذينا ساحل سان جوزيف وكان معنا ثلاثة مراقبين مسلحين من أجل ستة من المحكومين يقومون بعملية التجذيف في الزورق، وعشرة من المحكوم عليهم بالانفرادي، إن ترتيب الاستيلاء على هذا المركب يبدو أمراً مضحكاً.

كانت في مرفأ سان جوزيف لجنة استقبال. تقدم منا مقدمان: مقدم مسؤول عن التأديب في الجزيرة ومقدم مسؤول عن السجون الانفرادية. صعدوا بنا طريق السجن الانفرادي مشياً على الأقدام، ونحن محاطون بالحراس. لم نلتق في طريقنا بأي سجين. دخلنا

من باب حديدي واسع كتب فوقه: الانفرادي التأديبي. وفهمنا على الفور جدية هذا الحصن هذا الباب والأسوار الأربعة العالية كانت تخفي أولاً بناء صغيراً قرأنا عليه «الإدارة» ثانياً: ثلاثة أبنية أ-ب-ت. أدخلونا إلى بناء الإدارة. وفي قاعة باردة اصطففنا، نحن التسعة عشر، صفين. قال لنا ضابط الانفرادي:

ـ أيها المحكومون بالسجن الانفرادي! هذا المكان كما تعلمون مخصص لمعاقبة الذين ارتكبوا الجرائم من المحكومين في سجن المنفى. ونحن هنا لا نحاول إصلاحكم إذ ليس في ذلك جدوى، إنما نحاول قهركم وإذلالكم. النظام الوحيد هنا هو الصمت، الصمت المطلق. المكالمة بالاشارة الصوتية تستوجب العقوبة الشديدة في حال تلبس أحدكم بها. وإذا لم يكن مرض أحدكم خطراً فلا يطلبن زيارة الطبيب، لأن مثل هذه الزيارة إن كانت ادعاء، تجر إلى العقوبة هذا كل ما الذي من قول أقوله لكم. ويمنع التدخين بكل حزم. وعلى المراقبين أن يذهبوا الآن ليفتشوا بدقة كل واحد في زنزانته. وينبغي أن لا يجتمع شارير وكلوزيو وماتوريت في بناء واحد. وعليك يا سيد ساتوري أن تتحقق من ذلك بنفسك.

وبعد عشر دقائق أغلق دوني باب الزنزانة ذات الرقم أربعة وثلاثين ومئتين من البناء آ، وكلوزيو في ب وماتوريت في ت. وقد ودع بعضنا بعضاً بالنظرات ولقد فهمنا فور وصولنا أنه إذا أردنا الخروج أحياء فما علينا إلا الطاعة العمياء لهذه الأنظمة اللاإنسانية. ورأيت أصحابي يفترقون عني، أولئك الأصحاب الذين رافقوني في رحلة هروب طويلة، أصحابي الأباة الشجعان الجديرون بالتقدير فلم يشكوا يوماً ولم يندموا على شيء فعلوه معي. وأحسست بقلبي ينقبض، إذ بعد أربعة عشر شهراً من "الكفاح" من شاطئ إلى شاطئ لنفوز بحريتنا، انعقدت بيننا صداقة لا تنفصم عراها، ولا حدود لها. بدأت أتفحص الزنزانة التي أدخلوني إليها. لم أستطع أن أتحمل أو أتصور أن بلداً مثل بلدي فرنسا أم الحرية في العالم أجمع، الأرض التي أنبتت حقوق الإنسان والمواطن، كيف أمكن مع ذلك أن تقيم في غويان، فوق جزيرة ضائعة في الأطلسي لا تزيد مساحتها على رقعة منديل، بربرية زجرية، مثل الانفرادي في سان جوزيف. تصوروا مئة وخمسين زنزانة مثلاً متلاصقة جنباً إلى جنب، وكل زنزانة متكئة على الأخرى ظهراً لظهر، جدرانها سميكة جداً، مثقوبة فقط بباب حديدي وكوة صغيرة. وفوق كل كوة كتب: يحظر فتح هذا الباب بدون أمر من جهة عليا. على يساري لوح خشبي ووسادة خشبية، من نفس الطراز الذي كان في بوليو. اللوح الخشبي يرفع ويعلق في الجدار. وفي صدر المكان في الزاوية لبنة من الاسمنت بدلاً من الطاولة، ومكنسة وغطاء، وقدح معدني للماء، وملعقة خشبية، وصفيحة معدنية تستر دلواً معدنياً، تعلق بسلسلة (يمكن سحبها من الخارج لتفريغها ومن الداخل لاستخدامها) ارتفاع الزنزانة ثلاثة أمتار، وفي السقف قضبان حديدية ضخمة كالخطوط الحديدية، متصالبة بشكل لا يدع مجالاً لمرور أي جسم وإن كان ضئيل الحجم ثم في الأعلى السقف الحقيقي للبناء الذي يرتفع سبعة أمتار عن الأرض.

ويشرف على الزنزانات طريق دائري عرضه متر وله حاجز حديدي (درابزين).

يبدأ حفيران بالتجول، كل واحد من طرف ويلتقيان في منتصف الطريق ثم يعودان بعد أن يدورا نصف دورة على عقبيها. وكل هذا يترك انطباعاً رهيباً.

يصل ضوء النهار إلى الممشى، ولكن الزنزانة نفسها لا يكاد المرء يرى فيها شيئاً حتى في وضح النهار. بدأت بالمشي منتظراً، صوت صفارة أو نحوها، لست أدري، كيف يتم إنزال اللوح الخشبي المسند إلى الجدار.

وتجنباً للضوضاء يلبس السجناء والخفراء أحذية مصنوعة من القماش. قلت في نفسي: هنا في الزنزانة، ذات الرقم ٢٣٤ حاول أن تعيش دون أن تصاب بالجنون يا شاريير الملقب بابيون، وتقضي عقوبة سنتين أو ثلاثين وسبع مئة يوم، وعلى هذا السجن أن يكذب هذه التسمية التي نسبت إليه وهي أنه آكل الرجال.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.

مر الخفير على مقربة من السقف ولم أسمع خطوه بل رأيته، والمصباح المعلق بالسقف الأعلى يرسل النور من عل وقد نيف ارتفاعه على ستة أمتار، وأضياء الممشى والزنزانات تبقى في الظل. كنت أمشي، فقد عاد الرقاص إلى العمل:

انعموا بالنوم الهادئ، أيها الجباه الذين حكمتم علي. انعموا بالنوم، وأظن أنكم لو علمتم مآلي لرفضتم وترفعتم عن أن تكونوا من طالبوا بتطبيق مثل هذه العقوبة.

لقد بدا لي أنه من الصعب أن أفلت من شطحات الخيال، بل يكاد يكون مستحيلاً. ومن الأفضل أن أوجهها على ما أعتقد إلى بواعث لا تدعو إلى الإسفاف، وذلك خير من إلغائها كلياً.

أعلنت الصفارة فعلاً وقت إنزال اللوح الخشبي، وسمعت صوتاً أجش يقول:

ـ بالنسبة إلى الجدد، ابتداء من الآن يمكنكم إنزال اللوح الخشبي وأن تناموا إن شئتم ذلك.

ولم أحفظ سوى هذه الكلمات «وإن شئتم ذلك». إذن سأستمر في المشي إذ لم تحن ساعة النوم ويجب أن أعتاد هذا القفص المفتوح من سقفه. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. وفي الحال اتخذت إيقاع رقاص الساعة، خافضاً رأسي، ويداي خلف ظهري، والمسافة بين الخطوة والأخرى يجب أن تكون بالضبط كالرقاص الذي ينوس، وأنا في ذهاب وإياب لا ينتهيان، كما يفعل السائر المتكلم في نومه. عندما كنت أصل إلى نهاية الخطوات الخمس، لم أكن أرى الجدار بل كنت ألمسه حين أستدير، ثم أتابع بدون كلل، جولتي التي لا أصل فيها إلى هدف وليس لها زمن للانتهاء.

حقاً يا بابي، ليس مزاحاً ما قيل عن آكل البشر هذا. وعندما يسقط ظل الخفير على الجدار فإنه يترك أثراً غريباً، وإذا نظرت إليه رافعاً رأسي، أحسست بالانحطاط أكثر وكأنني

فهد واقع في حفرة، والصياد الذي أسرني ينظر إلي من أعلى، وهذا يترك انطباعاً فظيعاً في نفسي، وأحتاج إلى شهور كي أعتاد هذا.

تتألف كل سنة من ٣٦٥ يوماً والسنتان من ٧٣٠ يوماً إذا لم يكن أحد العامين كبيساً. وابتسمت لهذه الفكرة ٧٣٠ أو ٧٣١ يوماً، لا فرق. لماذا؟ بل هناك فرق بيوم واحد أي بزيادة أربع وعشرين ساعة، والأربع والعشرون ساعة طويلة، ٧٣٠ يوماً مضافاً إليها أربع وعشرون ساعة. وكم تساوي هذه الأيام كلها بالساعات، وهل أستطيع حسابها ذهنياً؟ وكيف أفعل إن هذا مستحيل. لم لا؟ إن هذا ممكن. فمئة يوم تساوي ألفين وأربع مئة ساعة وإذا ضربناها بسبع فالناتج ستة عشر ألف وثماني مئة ساعة. والثلاثون يوماً الباقيات تساوي سبع مئة وعشرين ساعة، فالمجموع إذا لم أخطئ، عشرون وخمس مئة وسبعة عشر ألف ساعة.

يا سيد بابيون عليك أن تقتل ١٧٥٢٠ ساعة في هذا القفص المصنوع خصيصاً، بجدرانه الملساء للوحوش الكاسرة. كم دقيقة سوف أمضي هنا؟ وليس وراء حسابها طائل حسبت الساعات لا بأس أما حساب الدقائق؟! لا ينبغي أن نبالغ. لماذا لا نحسب الثواني؟ إن كان لمثل هذا الحساب أهمية أم لا؟ وليس هذا ما يهمني. إنما يجب أن أجعل هذه الأيام أو الدقائق حبلى بشيء ما، وأنا وحيد مع نفسي. ترى من يكون على يميني؟ من على يساري؟ أو خلفي؟ هؤلاء الثلاثة سوف يتساءلون من الذي شغل الزنزانة رقم ٢٣٤ هذا إن كانت تلك الزنزانات مشغولة.

حدثت ضجة كالمدة لشيء وقع خلفي في الزنزانة. ما عساه يكون؟ هل جاري على هذه الدرجة من المهارة بأن يلقي لي شيئاً من خلال الشبك؟ حاولت أن أتبين هذا فالرؤية سيئة. ومع ذلك رأيت شيئاً طويلاً ودقيقاً، وفي الوقت الذي أردت تناوله في شبه الظلام، حيث لا أفرق بين التخمين والرؤية. أخذ هذا الشيء بالتحرك مسرعاً نحو الجدار، فتراجعت مسرعاً إلى الوراء، وبدأ هذا الشيء يتسلق الجدار الأملس الناعم فلم يتقدم، وتركت له فرصة محاولة التسلق ثلاث مرات، ولما سقط في المرة الرابعة، سحقته بقدمي فكان رخواً تحت جوربي فما هذا؟ فنظرت إليه عن كثب، وأنا راكع على ركبتي وتمكنت من معرفته. إنه إحدى كثيرات الأرجل الضخمة طولها عشرون سنتمتراً وعرضها بمقدار إصبعين. فانتابني اشمئزاز كبير لم أستطع معه حمل الدويبة إلى الدن فدفعتها برجلي إلى ما تحت خشبة السرير. سأراها غداً في النهار ولسوف أرى العديد من كثيرات الأرجل تسقط من السقف العالي وسوف أتعلم كيف أتركها تتنزه فوق جسدي العاري دون أن أمسك بها أو أزعجها إذا كنت نائماً. وسوف تتاح لي فرصة التعلم، كم يكلف الخطأ مع هذه الحشرة غالياً؟ يكلف آلاماً مبرحة، إن لسعتها تسبب حمى تستمر اثنتي عشرة ساعة، والإحساس بالالتهاب مدة ست

ساعات، على كل حال سيكون لي في ذلك تسلية، وتحويلاً لأفكاري. فعندما تقع كثيرة الأرجل، إذ كنت يقظان، فسوف أعذبها بالمكنسة أطول وقت ممكن، وأتسلى بها تاركاً إياها تختبئ، وأنا أفتش عنها لأكتشف مكان اختبائها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. الصمت مطلق، ولكن أليس هنا من إنسان يشخر؟ أو إنسان يسعل؟ صحيح إن الحر خانق، والليل مطبق ولكن ليس الإصباح بأفضل منه. أعددت نفسي للعيش مع كثيرات الأرجل فعندما كنت في سجن الميناء تحت البحر في سانتا مرتا كان منها الكثير أصغر منها، ولكنها من نفس الفصيلة. في سانتا مرتا كان الفيضان يومياً. هذا صحيح ولكننا كنا نتكلم أو نصرخ، كنا نسمع غناء البعض أو هذيان المجانين الذين فقدوا عقلهم مؤقتاً أو نهائياً، الحالة تختلف. ولو إني خيرت لاخترت سانتا مرتا.

إن ما تقوله يا بابيون غير منطقي. إن المتفق عليه هناك، على أن الحد الأقصى الذي يستطيع احتماله رجل هو ستة أشهر. أما هنا فالكثيرون محكوم عليهم بأربع أو خمس سنوات أو أكثر. إن الحكم بهذه المدة شيء، وتنفيذه شيء آخر.

ترى ما عدد الذين انتحروا؟ ولا أرى طريقة للانتحار. أجل هذا ممكن، ليس الأمر سهلاً ولكن يمكن للمرء أن يشنق نفسه. فمن البنطال يصنع حبلاً، ثم إذا صعد على خشبة السرير واستعان بالمكنسة يربطها بطرف الحبل، فإنه يدخله من خلال القضبان الحديدية، فإذا تمت هذه العملية عند تماس الجدار بالطريق الدائري، فمن الأرجح أن لا يرى الخفير الحبل، وبعد أن يمر يتأرجح المنتحر في الهواء. ولدى عودة الخفير يكون كل شيء انتهى. وعند ذلك لا يكون مستعجلاً في النزول وفتح باب الزنزانة ليفك حبل المشنقة أيفتح الزنزانة؟ لا يستطيع. فقد كتب على الباب، لا يسمح فتح الباب إلا بأوامرعليا. إذن لا تخش شيئاً، فمن أراد الانتحار، سيكون عنده الوقت الكافي قبل أن يفكوا عنقه بأمر عال.

أسرد كل ذلك وقد لا يكون مشوقاً أو مهماً لبعض الناس الذين يحبون الحركة والجلبة. فعلى هؤلاء أن يتخطوا الصفحات، إن كنت أضجرهم. ومع ذلك فإن الانطباعات الأولى والأفكار الأولى التي تجتاحني عند التماس الأول مع الزنزانة الجديدة، وردود الفعل في الساعات الأولى في وضعي في القبر، اعتقد بأنه من الواجب وصفها بأكبر قدر من الأمانة.

هاأنذا أمشي منذ زمن، ميزت في الليل حركة إنها حركة تبديل الحرس. كان الأول طويلاً ونحيلاً، والثاني كان قصيراً وبديناً، يجر جواربه، واحتكاكها يسمعه من كان في الزنزانتين قبله، والزنزانتين بعده، ولم يكن صامتاً مثل صديقه. تابعت المشي فالوقت متأخر. كم يمكن أن تكون الساعة؟ لن أكون غداً بغير مقياس للزمن. فبفضل انفتاح الكوة أربع مرات في اليوم يمكنني تقدير الزمن. أما في الليل فبمعرفة ساعة تبديل الحرس ومدتها أستطيع أن أعيش مع مقياس منظم. الحراسة الأولى، الحراسة الثانية، الثالثة.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، عدت آلياً إلى هذه النزهة التي لا تنتهي، ويساعدني الإعياء على التحليل في يسر لنبش الماضي. وبالمقارنة والتناقض حتى مع ظلمة الزنزانة كنت أحس بأشعة

الشمس تملأ نفسي على الشاطئ، مع ليلي، والمركب الذي تصيد عليه لالي يتأرجح على بعد مئتي متر مني فوق صفحة هذا البحر الأخضر، بغلالة من الزبد الأبيض لا نظير له، أنكش الرمل بقدمي، وتأتيني زوراياما بسمكة مشوية على الجمر محفوظة في ورقة موز لتبقى ساخنة وكنت آكل آكل بيدي طبعاً، وتجلس أمامي متربعة تنظر إلي محبورة، كيف كنت أفكك أوصال السمكة في سهولة، وتقرأ على وجهي علامات الرضا، وأناأتلذذ بطعام شهي. أحلم وكأنني لست في الزنزانة ولا أعرف الانفراد، ولا سان جوزيف، ولا الجزر، أتدحرج على الرمل، أنظف يدي بدعكهما بالمرجان الناعم جداً كالطحين. أذهب إلى البحر فأغسل فمي بالماء الصافي الأجاج وأغرف بكفي من هذا الماء وأرش به على وجهي. وبينما أحك عنقي أحس بأن شعري قد طال. ولدى عودة لالي كنت أقص شعري، وأسمر مع عشيرتي.

كان نسيم البحر يداعبنا أنا وزوراياما فتمددنا على الرمل في وضح النهار، وتئن حباً كدأبها كلما غامرها السرور. وتعود لالي إلى الشاطئ، فتغادره باسمة، وفي أثناء عودتها تفك ضفائرها وتخلل أصابعها الطويلة في شعرها المبلل الذي يبدأ بالجفاف بالهواء والشمس في ذلك النهار البديع فأتوجه نحوها فتلفني بذراعها الأيمن، وتدفعني نحو الكوخ مبتعدة عن الشاطئ، ولا تكف طول الطريق عن محاولة إفهامي: وأنا؟ وأنا؟ وزوراياما ذكية فلا تدخل علينا إلا بعد أن تجري حساباً بأن نهونا قد انتهى، فتأتي وتجلس معنا وتنقر بأصبعها على خد أختها بلطف وهي تردد كلمة ربما كان معناها يا جشعة.

وهكذا كنت أقضي الليل مع الكاجيرا ولا أنام ولا أضطجع لأرى من خلال جفني المغمضين، هذه المشاهد التي عشتها. كنت أمشي كالنائم مغناطيسياً، وبدون تدخل من إرادتي انتقلت من جديد إلى ذلك اليوم الجميل اللذيذ الذي عشته منذ ستة أشهر.

أطفئت الأنوار وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر واجتاح غلس الزنزانة طارداً هذا النوع من الضباب العائم الذي يلف كل شيء من حولي، وانطلقت الصفارة وسمعت جلبة الأسرة الخشبية وهي ترتطم بالجدران، وسمعت من زنزانة جاري على اليمين صوت تعليق الدفة بالحلقةالمثبتة بالجدار. سمعت سعال جاري، وصوت قليل من الماء. كيف يغتسلون هنا؟

ـ يا سيدي المراقب كيف يغتسلون هنا؟

ـ أيها الحبيس. أعذرك لجهلك، حيث لا يحق لأحد التكلم مع المراقب الحارس وإلا نال عقاباًشديداً. ولكي تغتسل، اجلس على الدن، واسكب من قدر الماء بيد، واغتسل باليد الأخرى. ألم تنشر حاجاتك؟

ـ لا.

ـ لا شك أن في الداخل منشفة.

أليس لنا الحق في التكلم مع الحارس؟ ومهما كانت الأسباب؟ وإذا اشتد الألم من أي

شيء؟ أو إذا كان الإنسان على وشك الموت؟ من أزمة قلبية، أو أزمة التهاب الزائدة، أو أزمة ربو حادة؟ هل يمنع هنا طلب النجدة، حتى في حالة خطر الموت؟ هذا هو الأنكى، بل إنه طبيعي فمن السهل جداً إثارة فضيحة عندما تفقد الصبر، وأعصابك تثور.

كل شيء أعدّ لكمّ الأفواه وإخراس الأصوات. كل شيء من أجل منع غيرك من التحدث معك. وإنك لتسمع قائلاً يقول لك: مت وأنت أخرس.

عشرون حالة تقع كل يوم لعشرين شخصاً من أصل مئتين وخمسين شخصاًيخترعون أي شيء ليتخلصوا من الضغط الكبير على دماغهم.

فليس صاحب فكرة بناء الأقفاص للأسود بعالم من علماء النفس، ولا يمكن لطبيب أن يسف إلى هذا الدرك من العار، وليس (لدكتور) أن يسن مثل هذا النظام. ولكنهما معاً وبمساعدة المهندس كوّنوا مجموعة تضع أدق التفاصيل لتنفيذ هذه العقوبة. كلاهما مقيتان كبيران كلاهما إنسانيان حقيران خبيثان، امتلأت نفساهما بالحقد السادي على المحكومين. إن السجون المظلمة المركزية في بوليو وكاين عميقة إلى مقدار طابقين (دورين) تحت الأرض ومع ذلك يمكن أن يتسرب يوماً ما إلى الجمهور صدى التعذيب لوسوء المعاملة التي يسأم بها هذا أو ذاك من المعاقبين. والدليل على ذلك أنه عندما فكوا أغلال يدي رأيت الخوف يرتسم على وجوه الحراس، الخوف من بعض المضايقات ولا ريب في هذا.

أما هنا في السجن الانفرادي حيث لا يستطيع الدخول سوى موظفي الإدارة، فهم مطمئنون، ولن يحصل لهم شيء.

كلاك، كلاك، كلاك. فتحت جميع الكوى، ودنوت من كوتي مجازفاً، بنظرة ثم أخرجت رأسي قليلاً، ثم رأسي كله إلى الممر. فرأيت على اليمين وعلى اليسار العديد من الرؤوس، وفهمت أنه ما تكاد الكوى تفتح حتى تشرئب الأعناق نحو الخارج. ونظر إلي السجين على يساري نظرة بلهاء لا معنى لها، وهو شاحب اللون، وجهه دعي لا رونق فيه.

والسجين الذي كان على يميني قال لي بسرعة: كم؟

ـ ستتان.

ـ أنا أربع، أمضيت منها سنة. ما الاسم؟

ـ بابيون.

ـ أنا جورج جوجو من الأوفرن، أين وقعت؟

ـ في باريس. وأنت؟

ولم يتسع الوقت ليرد علي إذ وصلت القهوة وكرة الخبز إلى الزنزانتين السابقتين، فأدخل رأسه وفعلت مثله. مددت طاسي فملؤوه قهوة ثم أعطوني كرة من الخبز فتدحرجت على الأرض أثناء إغلاق الكوة لأنني لم أسرع في تناولها. وفي أقل من ربع ساعة ران الصمت من جديد.

كان هناك توزيعان: عند الظهر يوزع المرق مع قطعة من لحم مسلوق، وفي المساء يوزع طبق من العدس. قائمة الطعام هذه لم تتغير مدى عامين، إلا في المساء حيث كان يتم أحياناً توزيع فاصولياء حمراء أو فاصولياء بيضاء، أو قطانية، أو حمص مكسر أو رز بالدسم. أما وجبة الغداء فلا تغيير فيها.

كنا كل أسبوعين نخرج رؤوسنا من الكوى للحلاقة. ويمر أحد السجناء ومعه قصاصة حلاق يجز بها لحانا.

مضى على وجودي هنا ثلاثة أيام وهناك شيء يشغل بالي. قال لي أصدقائي في جزيرة رويال بأنهم سيرسلون لي طعاماً آكله، وسجائر، ولم أتلق شيئاً حتى الآن. وتساءلت كيف يمكنهم أن يفعلوا هذه المعجزة. لذا لم يدهشني أنني لم أتلق شيئاً. والتدخين شيء خطر جداً وعلى أية حال فهو ترف. أما الأكل فحيوي. فالحساء عند الظهيرة عبارة عن ماء حار مع قطعتين أو ثلاث من اللحم لا يزيد وزنها على مئة غرام. وفي المساء غرفة من الماء تسبح فيه بعض قطع من الفاصولياء والخضار الأخرى اليابسة. وبصراحة، إن ظنوني بالإدارة في هذا الشح في الغذاء، أقل من ظنوني بالسجناء الذين يوزعون الطعام ويحضرونه. راودتني هذه الفكرة عندما قام شاب مرسيلي بتوزيع الخضار. فقد غاصت مغرفته إلى أسفل الوعاء وعندما يكون دوره أنال من الخضار أكثر مما أنال من المرق. أما الآخرون فعلى العكس من ذلك فإن مغرفتهم لا تغوص كثيراً ويتناولون المرق سطحياً بعد التحريك قليلاً. ومن هنا كانت الخضار قليلة والسائل كثيراً. سوء التغذية في غاية الخطورة. وحتى تكون للمرء إرادة يجب أن تكون له قوة جسدية.

عندما يكنسون الممر، لاحظت إنهم يتلكؤون أمام زنزانتي مدة أطول، وقد أحدث فتى المكنسة صريراً على بابي. نظرت بإمعان فرأيت قطعة من ورق أبيض. فأدركت على الفور أنهم يرسلون لي شيئاً ما، وينتظرون أن أسحبه قبل متابعة الكنس، فسحبت الورقة ونشرتها فكانت مكتوبة بحبر فوسفوري. تريثت حتى مضى الحارس إلى سبيله وقرأت:

«بابي، احتياراً من الغد، ستجد في الدلو كل يوم، خمس سجائر وجوز هند. امضغ الجوزة جيداً عند أكلها إذا أردت أن تنتفع منها جيداً وابتلع لبها. دخن صباحاً عند تفريغ الدلو واحذر أن تفعل ذلك بعد قهوة الصباح. ولك أن تدخن بعد حساء الظهر مباشرة، وفي المساء بعد تناول الخضار. وتجد طي هذه الورقة قلامة من فحم القلم، وكلما أردت شيئاً أو احتجت إلى شيء اطلبه على جزازة من الورق الموجود طي هذه الورقة. عندما يحك الكناس بابك بمكنسته حكه أنت أيضاً بأصابعك وادفع بورقتك وإياك أن تخرجها قبل أن يرد على حكتك بحكة من مكنسة. ضع قصاصة الورق في أذنك وقطعة فحم القلم في أي مكان من أسفل جدار الزنزانة. تشجع. وإليك قبلاتنا التوقيع: إيناس ولويس.

هذان صديقاي كالكلاي وديغا اللذان أرسلا لي الرسالة. فأحسست بحرارة في حلقي. أن يكون للمرء أصدقاء أوفياء جداً ومتفانون جداً لأمر يحث على الدفء، والإيمان بالمستقبل والوثوق بأنه سيخرج حياً من هذا القبر الذي أعاجه بخطوة والثقة فرحة: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة نصف دورة الخ. وكنت خلال سيري أفكر: كم يحمل هذان الرجلان في نفسيهما من نبل وحب للخير. وربما خاطرا بمركزيهما. أحدهما محاسب والآخر ساعي. إنه لعمل جليل ما يفعلانه من أجلي دون أن يحسا أن ذلك يكلفهما غالياً. كم رجلاً اشتريا ليصلا من جزيرة رويال إلي في هذا السجن آكل الرجال.

أيها القارىء يجب أن تفهم أن جوزة الهند ملأى بالزيت ولإيضاح ذلك يكفي أن تغمس لب ست جوزات في الماء الحار حتى تحصل في اليوم التالي على لتر من الزيت، وهو مادة دسمة غنية بالفيتامينات التي بسبب الحرمان منها، في ظل هذا النظام في التغذية، آلاماً.

جوزة الهند كل يوم هي الصحة الأكيدة تقريباً. فعلى الأقل لا أصاب بجفاف الجلد والعروق ولا أموت بالبؤس الفيزيولوجي.

في هذا اليوم قد مر علي أكثر من شهرين وأنا أتلقى الطعام والسجائر بدون حوادث. واتخذت الاحتياطات اللازمة عند التدخين وكنت ابتلع الدخان بعمق ثم ارجعه شيئاً فشيئاً وأنا أضرب الهواء بيدي اليمنى المفتوحة كالمروحة لكي يتبدد الدخان.

بالأمس حدث شيء مريب، ولا أدري إن أحسنت التصرف أو أسأت. اتكأ أحد المراقبين على الدرابزين ناظراً في زنزانتي. فأشعل سيجارة وسحب بعض أنفاسها ثم تركها تسقط في زنزانتي، ثم انصرف. انتظرت عودته لأدوس السيجارة بقدمي على مرأى منه. توقف قليلاً ثم استأنف سيره حالماً انتبه لحركتي هذه. هل أشفق علي؟ أم كان خجلاً من الإدارة التي ينتمي إليها؟ أم كان ذلك شركاً؟ لست أدري. وهذا ما أغمني. فعندما يتألم الإنسان يغدو مفرط الإحساس. فإذا كان هذا الحارس قد أراد أن يكون معي طيباً في لحظة من اللحظات فإنني لم أشأ أن أسبب له انزعاجاً بتلك البادرة التي تدل على الازدراء.

مر شهران على وجودي هنا، وفي رأيي أن هذا الإنفرادي هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يتعلم منه الإنسان شيئاً وأرى نفسي منقاداً إلى الانفصام. عندي (تكنيك) لا يجب لأسرح مع النجوم، ولأرى، بعد جهد ـ بروز مختلف مراحل مغامراتي أو طفولتي، أو لكي أبقى مصروعاً من الأوهام بواقعية خادعة، يجب أولاً أن أتعب كثيراً، يجب أن أمشي ولا أجلس مدى ساعات دون توقف، وأن أفكر تفكيراً سوياً في أي شيء، وعندما أبلغ درجة الإرهاق أتمدد على دفة السرير، واضعاً رأسي على نصف اللحاف، وأطوي نصفه الآخر فوق وجهي، وحينئذ يصل هواء الزنزانة الفاسد إلى فمي وأنفي بصعوبة بعد أن يتلقاه اللحاف. وهذا ما يحدث في رئتي نوعاً من الاختناق، ويبدأ رأسي بالالتهاب. فأنا أكاد أختنق من الحر وقلة الهواء وأنهض في الحال وأنا ... آه! هذه التهويمات النفسية كم منحتني من الأحاسيس التي تفوق

الوصف. كانت لي ليالي حب أكثر مما كانت يوم أن كنت حراً، وأشد إثارة وأعنف استمتاعاً مما مر بي على أرض الواقع.

نعم إن هذه القدرة على التحليق في الفضاء أتاحت لي مجالسة والدتي التي توفيت منذ سبعة عشر عاماً أداعب طرف ثوبها، وهي تلامس حلقات شعري الذي تركته يطول وكأنني بنت صغيرة في الخامسة من عمرها. وأنا ألامس أناملها الدقيقة وبشرتها الناعمة كالحرير، وكانت تضحك معي من رغبتي الجامحة في الغطس في النهر أسوة بالصبيان الكبار في يوم نزهة.

كنت أرى أدق التفاصيل من شعرها وعينيها الصافيتين المتوقدتين اللامعتين بالحنان، وفي كلامها العذب الذي يعجز اللسان عن وصفه: يا صغيري بيري كن عاقلاً وعاقلاً جداً لكي تحبك ماما كثيراً. وعندما تكبر ستصبح أنت أيضاً قادراً على الغطس في النهر من مكان عال عال جداً. أما الآن فأنت صغير يا كنزي الغالي، وسوف يأتي اليوم الذي تغدو فيه كبيراً، سريعاً وسريعاً جداً. وعدنا إلى البيت بمحاذاة النهر ويدي في يدها. فأنا حقاً في منزل طفولتي. أضع كفيّ على عيني ماما أحول بينها وبين العلامات الموسيقية، وتستمر في الوقت نفسه بالعزف لي على العزف (البيانو). أنا في البيت حقيقة لا خيالاً. أنا هنالك معها. صعدت على كرسي خلف كرسيها الدوار حيث كانت تجلس وشددت بكلتا يدي على عينيها النجلاوين، وأناملها الرشيقة تتابع لمس العزف لمساً رفيقاً لأسمع «الأرملة الطروب» إلى النهاية.

فلا أنت أيها النائب العام اللاإنساني، ولا أنتم يا رجال الشرطة ذوي الشرف المريب، ولا بولان البائس الذي اشترى حريته بشهادة زور، ولا المحلفون الاثنا عشر الأغبياء الذين انساقوا وراء قضية الاتهام وطريقته في تفسير الأشياء، ولا حراس الانفرادي أكابر شركاء «آكل الرجال»، لا أحد على الإطلاق حتى الجدران السميكة، ولا المسافات الشاسعة التي تفصل هذه الجزيرة الضائعة على المحيط الأطلسي، لا شيء البتة، معنوياً كان أم مادياً، يمنعني من رحلاتي اللذيذة الملونة بلون ورد القمامة عندما أهيم بين النجوم.

إني أخطىء حينما أقوم بعملية حساب الزمن الذي أبقى فيه وحيداً مع نفسي لا أتكلم فيه إلا عن الساعات الزمنية. هذا خطأ، فهناك لحظات يجب قياسها بالدقائق الزمنية وعلى سبيل المثال بعد توزيع القهوة والخبز يأتي وقت تفريغ القناني، أي بعد ساعة على وجه التقريب ولدى إرجاع الدن فارغاً سآخذ جوزة الهند والسجائر الخمس، وأحياناً بطاقة فوسفورية حينئذ أعد الدقائق، غالباً لا دوماً. وهذا أمر سهل لأنني ألبس الخطوة بثانية وحيناً أجعل من جسمي نواساً، وفي كل خمس خطوات وأنا أدور نصف دورة أقول الآن: واحد، وبعد التي عشرة تكون مضت دقيقة. لا تتوهموا بأنني متلهف للحصول على جوزة الهند لأكلها وهي حياتي، أو للحصول على خمس سجائر، وللتدخين في هذا القبر

لمدة فائقة، وأنا أدخن عشر مرات في الأربع والعشرين ساعة لأنني أقسم السيجارة قسمين. لا ليس هذا، وإنما في لحظة توزيع القهوة الفم في غياء وأحس بالخوف دونما سبب معين من أن يحصل شيء لأولئك الرجال الذين يقامرون بأمنهم واستقرارهم في سبيل مساعدتي هذه المساعدة الكريمة السخية. هذا فإنني أترقب ولا يهدأ لي بال حتى أرى جوزة الهند فكل شيء إذن على ما يرام بالنسبة إليهم.

لم الساعات والأيام، والأسابيع بطيئة جداً، وأوشك عام أن ينصرم وبالتحديد منذ أحد عشر شهراً وعشرين يوماً، ولم أتحدث مع أحد أكثر من أربعين ثانية بكلمات متقطعة هي أقرب إلى الهمس منها إلى الإفصاح.

ومع ذلك كان لي حوار مرة بصوت عال. أصابني برد، وكنت أسعل سعالاً متواصلاً. فكرت في أن هذا يحق لي الخروج لزيارة الطبيب. كنت أبدو شاحباً. هذا هو الطبيب. وانفتحت الكوة، بينما كنت ساهماً. ومن خلال هذه الفوهة امتد رأس. وقال صاحبه:

ـ ما بك؟ مم تتألم؟ من التهاب القصبات؟ استدر ثم اسعل.

لا. قد يحصل. هل هو مزاح؟ ومع ذلك هذه هي الحقيقة المحضة. إنه طبيب من المستعمرة جاء ليكشف علي من خلال الكوة! يديرني على بعد متر منها، ويضيع بسمعه ليفحصني ثم يقول أخرج ذراعك، وأوشكت أن أمدها بصورة آلية ولكن في نوع من تكريم الذات قلت لهذا الطبيب العجيب: شكراً دكتور لا داعي لأن تزعج نفسك، فالأمر لا يستحق هذا الاهتمام. وهكذا تمكنت من إفهامه جيداً بأنني لا أحمل كشفه الطبي على محمل الجد. فرد رداً وقحاً قائلاً: كما تشاء. وانصرف لحسن الحظ لأنني كدت أتفجر غيظاً.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.

أمشي وأمشي دون كلال ولا توقف. واليوم أمشي غاضباً، وساقاي مجهودتان ولم تبقيا كما كانتا من قبل طليقتين.

وبعد الذي حدث أحتاج إلى أن أدوس شيئاً، ماذا أستطيع أن أدوس بقدمي؟ الأرض تحتها اسمنتية لا. ساطأ كثيراً من الأشياء أثناء المشي، سوف أطأ بلادة هذا الطبيب الذي ارتضى القيام بأخس الأشياء لينال حظوة عند الإدارة. سأدوس عدم اكتراث فئة من الرجال ، بآلام وأوصاب فئة أخرى من الرجال. سأدوس جهل الشعب الفرنسي وقلة اهتمامه أو فضوله في معرفة كيف تعامل هذه الشحنات البشرية فوق ظهور السفن التي تغادر سان مارتن دوره كل عامين. سأدوس صحافيي الأخبار المحلية الحمراء الذين بعد أن يكونوا قد كتبوا مقالات فاضحة عن رجل بسبب جريمة مجنحة، لا يعودون يذكرون بعد أشهر إن كان على قيد الحياة. سأدوس الأساقفة الكاثوليك الذين استمعوا إلى

الاعترافات وهم يعرفون ماذا يجري في السجن الفرنسي ثم يسكتون. سأدوس هذا النظام في المحاكمة التي تتحول إلى مبارزة كلامية خطابية بين الذي يهاجم والذي يدافع. سأدوس جمعية حقوق الإنسان والمواطن التي لا ترفع صوتاً ينادي أن أوقفوا هذه المجازر أو أزيلوا هذه السادية الجماعية الموجودة في موظفي الإدارة. سأدوس غياب عضو أو جمعية لا تستجوب المسؤولين عن هذا النظام لتسألهم كيف ولماذا يختفي ثمانون بالمئة من الذاهبين على طريق العفن. سأدوس شهادات الوفاة الصادرة عن الطبابة الرسمية: انتحار، تعب فيزيولوجي، سوء تغذية دائم، داء الحفر، سل، جنون حاد، مرض عدم ضبط الغوط والتبول. وما يدريني ماذا أدوس أيضاً؟ وعلى كل حال، لا أستطيع بعد ما تقدم أن أمشي مشياً سوياً، يجب أن أسحق في كل خطوة شيئاً ما.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.. والساعات بمرورها البطيء وبالتعب تهدىء ثورتي الخرساء. بعد عشرة أيام سأتمم نصف مدة العقوبة في الانفرادي إنه حقاً عيد سنوي يستحق الاحتفال ولولا هذه النزلة الوافدة التي أصابتني لكنت في صحة جيدة. فما أنا بمجنون ولا قريب من الجنون، بل أنا واثق مئة بالمئة، من الخروج حياً متزناً في العام القادم والذي سيبدأ عما قليل.

استيقظت على صوت مهموس وسمعت: إنه جاف تماماً يا سيد دوراد، فكيف لم تلاحظ ذلك من قبل؟

ـ لا أعلم يا سيدي، إنه شنق نفسه في زاوية جانبية، وقد مررت مراراً دون أن أراه.

ـ لا أهمية لذلك. واعترف أنه من المنطقي أن لا تراه.

جاري على اليسار انتحر. هذا ما فهمته. نقلوه وأغلق الباب. وقد طبق النظام بحذافيره. إذ فتح الباب وأغلق بحضور سلطة عليا: رئيس السجن الانفرادي الذي عرفته من صوته. وهذا المنتحر هو الرجل الخامس الذي يغيب من جواري في غضون عشرة أسابيع.

حان العيد السنوي لدخولي هذه الزنزانة، وجدت في الدن علبة حليب مكثف (نستلة). إنه جنون من أصدقائي. إنها غالية ومخاطرة في الحصول عليها وفي تمريرها إلي. إنه إذن يوم النصر عندي، على الخصومة. لذلك عاهدت نفسي أن لا أسقط، فأنا في الانفرادي، وقد مر عام على وصولي وأشعر بقدرتي على الهروب غداً إذا سنحت لي الفرصة. هذا بيان إيجابي، وأنا فخور به. تلقيت كلمة من أصدقائي بوساطة الكناس، بعد الظهر، وهذا شيء غير مألوف: تشجع بقي أمامك عام. نحن نعلم أنك في صحة جيدة. ونحن طبعاً بخير. نقبلك، لويس ـ إيناس.

«أرسل إذا أمكنت بضع كلمات مع حامل ورقتنا». فكتبت على الورقة البيضاء

المرافقة بالرسالة: أشكركم على كل شيء. أنا قوي وآمل أن أظل كذلك بفضلكم خلال عام. هل من أخبار عن كلوزيو وماتوريت؟ وعاد الكناس ونقر على الباب فأسرعت إلى إعطائه الورقة وغاب عن الأنظار في الحال.

طول هذا النهار وفي قسم من الليل كنت بحالة جيدة على أرض الواقع، كما عاهدت نفسي تكراراً.

عام وأنتقل بعده إلى إحدى الجزيرتين رويال، أو سان جوزيف، وأنتشي بالحديث وبالتدخين وبتنظيم خطة الهروب المقبل. سأستقبل الغد وهو اليوم الأول من ٣٦٥ يوماً بقيت لي، وأنا واثق من قدري. كنت على حق في الأشهر الثمانية التي تبعت ذلك ولكن في الشهر التاسع فسدت الأمور.

هذا الصباح، وفي وقت تفريغ الدلو فوجيء حامل جوز الهند ويده في الكيس، في اللحظة التي كان يدفع بها الدلو وكان قد وضع فيها جوزة الهند والسجائر الخمس. كانت الحادثة خطيرة حتى أنهم نسوا نظام الصمت برهة من الزمن. وكانت الضربات التي يتلقاها هذا البائس تسمع بوضوح، ثم حشرجة رجل مشرف على الموت.

فتحت كوة زنزانتي فامتد رأس حارس محتقن وصاح بي: أنت لا تضيع شيئاً للانتظار؟

— أنا تحت تصرفك أيها الغبي. قلت هذا وقد استفزتني طريقة معاملتهم للرجل المسكين حدث هذا في الساعة السابعة. وفي الساعة الحادية عشرة جاء المقدم الثاني في السجن بفويض، عهد فيه إليه، بإحضاري. وفتح الباب لأول مرة عشرين شهراً بعد أن أغلق دوني. كنت في آخر الزنزانة ووعاء الشرب بيدي في وضع استعداد للدفاع، وقد عزمت على تسديد أكبر عدد ممكن من اللكمات، وذلك لسببين: أولاً لئلا يضربني الحراس بلدون جريرة ارتكبتها، ثانياً لكي أضرب في سرعة. ولم يحدث شيء من هذا، وقيل لي أيها السجين اخرج.

— إذا كان هذا لضربي، فانتظروني حتى أدافع عن نفسي، وليس علي أن أخرج لكي أهاجم من كل الجهات. أنا أفضل البقاء هنا لأتناول أول من يلمسني بالضرب.

— يا شاريير لن نضربك.

— ومن يضمن لي ذلك؟

— أنا المقدم الثاني في السجن.

— هل لديك ما تقوله؟

— لاتهن، لا مناص. أعدك بشرفي بأن أحداً لن يضربك، هيا اخرج. احتفظ بالوعاء بيدي.

— تستطيع الاحتفاظ به ولن تحتاج إلى استخدامه.

— حسناً.

خرجت محاطاً بستة من المراقبين والمقدم الآخر، وقطعنا الممر كله، ووصلنا إلى الباحة فشعرت بدوار في رأسي، وآلمتني عيناي من وهج الضوء فلم أستطع فتحهما. وأخيراً رأيت البيت الذي استقبلنا فيه. وهناك اثنا عشر مراقباً أدخلوني إلى قاعة الإدارة دون دفع، وعلى الأرض رجل يئن وهو مضرج بدمه وكانت على الجدار ساعة معلقة تشير إلى الحادية عشرة. ففكرت بأن هذا المسكين تحت التعذيب منذ أربع ساعات. وقد جلس المقدم خلف مكتبه وجلس المقدم الثاني إلى جانبه.

— شاريير منذ متى وأنت تحصل على جوز الهند والسجائر؟

— لا بد أنه قال لكم ذلك.

— أنا أسألك أنت؟

— أنا فاقد الذاكرة، فلا أعلم ما حصل البارحة.

— أتسخر مني؟

— لا. إن هذا يدهشني. أليس ذلك مسجلاً في ملفي؟ أنا مصاب بفقد الذاكرة على أثر ضربة في رأسي.

فوجيء المقدم بهذا الجواب فقال:

— اسألوا من جزيرة رويال، إذا كان هناك ما ينص على هذا الموضوع.

وبينما كان يجري الاتصال الهاتفي، تابع يقول:

— هل تذكر أن اسمك شاريير.

— هذا نعم.

وحتى أزيده حيرة قلت متغابياً، (كتمثال متحرك)

— اسمي شاريير مولود عام ١٩٠٦ في ولاية أرديش وحكم علي بالسجن المؤبد في باريس.

فاستدارت حدقتاه وأحسست أنني هززت كيانه.

— هل حصلت على قهوتك وخبزك هذا الصباح؟

— نعم

— ما نوع الخضار التي قدمت لك مساء أمس؟

— لا أدري

— إذن هل نصدقك بأن ليست لك ذاكرة؟

— مما يجري لا شيء البتة. أما الوجوه فأذكرها. مثلاً أعلم أنك استقبلتني يوماً ما ولكن متى؟ لست أدري.

— ألا تعلم كم بقي لك لكي تخرج من السجن؟

— مؤبداً إلى أن أموت. أظن هذا.

— لا. لا. أسألك عن عقوبتك في الانفرادي.

— هل أنا محكوم بالانفرادي؟ لماذا؟

ـ لقد بلغ السيل الزبى. يا اسم الله. لا تجعلني أخرج عن طوري. ولن تقول لي أنك لا تذكر أنك محكوم بسنتين بسبب هروبك.
وحينئذ كدت أزهق روحه إذ قلت:
ـ من أجل الهروب؟ أنا يا سيدي المقدم؟ أنا رجل جاد، وقادر على تحمل التبعة. تعال لتزورني في زنزانتي لتتحقق إذا كنت قد هربت.
وفي هذه اللحظة قال الحارس: مخابرة من رويال يا سيدي المقدم. فأمسك بالهاتف
ـ ألا يوجد شيء؟ غريب! يدعي أنه فاقد الذاكرة. السبب؟ ضربة على الرأس؟ مفهوم. إنه يتظاهر. سيعلم. حسناً. أعذرني أيها المقدم. سأتحقق إلى اللقاء. نعم سوف أحيطك علماً.

ـ أيها المهرج. أرني رأسك. نعم يوجد أثر جرح كبير. ولكن كيف تتذكر بأنك فاقد الذاكرة منذ تلك الضربة هيه. قل لي.
ـ لا تفسير عندي ولكن الاحظ أنني اتذكر الضربة وأن اسمي شاريير وأشياء أخرى.
ـ ماذا تريد أن تقول أو تفعل بعد هذا كله؟
ـ ما كنا بصدد مناقشته هنا. أنت تسألني منذ متى يحشون إلي ما آكله وادخنه. وهذا هو جوابي الحاسم. لا اعرف إن كانت المرة الأولى أو الألف بسبب فقدان ذاكرتي. لا أستطيع الجواب هذا كل شيء وافعل ما تشاء.
ـ ما أريده بسيط جداً. لقد أكلت كثيراً ولفترة طويلة ويجب أن تعود نحيلاً. حرمان من طعام المساء حتى نهاية العقوبة.

وفي اليوم نفسه تلقيت بطاقة في عملية الكنس الثانية، ولسوء الطالع لم أستطع قراءتها فليست مكتوبة بالحبر الفوسفوري. أشعلت في الليل سيجارة بقيت لي من أمس بعد التفتيش إذ لم يعثروا عليها فقد كانت مخبأة جيداً في سريري الخشبي وعلى ضوء نارها استطعت أن أفك رموزها. إن مفرغ أوعية القاذورات لم يحلس إلى الماثلة. وقد قال إنها المرة الثانية التي يبعث فيها إليك طعاماً، تطوعاً منه، وأنه فعل ذلك لأنه يعرفك فرنسا. وفي رويال لم يبال أحد بما جرى. تشجع. هأنذا محروم من جوزة الهند والسجائر وأخبار أصدقائي في رويال. ومما زاد الطين بلة أنهم ألغوا لي العشاء. ولقد عاهدت نفسي أن لا أتذمر من الجوع، وعلاوة على ذلك تلك الجلسات العشر للتدخين، والتي كانت تزين نهاري وقسماً من الليل. لا أفكر في نفسي فحسب وإنما أفكر في ذلك المسكين الذي اوسعوه ضرباً حتى أوشك أن يموت بسببي، وأرجو أن لا يكونوا قد عاقبوه عقاباً شديداً. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.
قلت لنفسي: لن تستطيع احتمال هذا النظام في الطعام، بهذه السهولة، وبسبب

من قلة الطعام يجب تغيير(التكتيك). وعلى سبيل المثال: البقاء متمدداً أطول مدة ممكنة، حتى لا تصرف طاقة. فكلما قلت الحركة، قلت الحريرات. إذن علي أن ابقى نائماً لساعات طويلة. إنه نمط من الحياة مغاير تماماً يجب أن أتعلمه. وأربعة أشهر تساوي مئة وعشرين يوماً.

وبحسب التنظيم الذي فرض، كم من الوقت يلزمني قبل أن ادخل في مرحلة الهزال وفقر الدم؟ فهذا يستغرق على الأقل شهرين. إذن أمامي شهران تحت التجربة. وعندما أغدو ضعيفاً واهناً فإن الأمراض ستجد مرتعاً ملائماً لهاجمتي. فقررت أن ابقى متمدداً من الساعة السادسة مساء وحتى السادسة صباحاً وسوف أمشي بدءاً من تقديم القهوة إلى ما بعد جمع دنان القاذورات أي مدة ساعتين قد تزيد أو تنقص. وكذلك بعد الغداء سأمشي ساعتين تقريباً وفي المجموع سأمشي أربع ساعات تقريباً وفيما بقي من الوقت سأبقى جالساً أو مستلقياً، وسوف يتعذر علي الشرود الذهني، دون أن أكون مرهقاً. ومع ذلك سأحاول.

اليوم وبعد فترة طويلة من التفكير بأصدقائي وبذلك التعس الذي عومل أقسى معاملة صرفت اهتمامي إلى نظامي الجديد. وقد نجحت إلى حد ما رغم الساعات التي تبدو لي طويلة. وساقاي لا تحملان ساعات بأكملها وأحس فيهما دبيباً كدبيب النمل. وقد دام هذا النظام عشرة أيام، وأحس بالجوع باستمرار وبدأت أشعر بشيء من التعب الدائم، قد استحوذ على موضعياً.

إنني افتقد النارجيل بشكل غريب. أما اللفائف فهي درجة أقل. أنام مبكراً وسرعان ما أهرب-هروباً وهمياً من زنزانتي. بالأمس كنت في باريس في رامور أشرب الشمبانيا مع أصحابي: أنطوان من لندن، أصله من باليار ولكنه يتكلم الفرنسية مثل باريسي. ويتكلم الانجليزية كما يتكلمها أي انجليزي، وفي اليوم التالي كنت في مارونيه شارع كليشي وقد قتل بخمس رصاصات من مسدس أحد أصدقائه وما أسرع ما تتحول الصداقة في هذا الوسط إلى حقد قاتل. أجل كنت بالأمس في باريس أرقص على أنغام الأكورديون في حفل راقص في بولي جارفند، في شارع سانت أوين ورواده كلهم من كورسيكا ومرسيليا. وجميع هؤلاء الأصدقاء يتحركون في هذه الرحلة الخيالية بواقعية لا أشك فيها بوجودهم ووجودي. في هذه الأماكن أمضيت أعذب الليالي.

إذن بدون أن أمشي كثيراً وصلت بهذا النظام الغذائي المختصر جداً إلى نفس النتيجة التي كنت أصل إليها وأنا متعب. صور الماضي تنتزعني من زنزانتي بقدرة عشت بها ساعات من الحرية أكثر مما عشت في الانفرادي. لا يزال أمامي شهر. وقد مضت ثلاثة أشهر ما كنت أطعم فيها سوى كرة الخبز والحساء الحار، بدون تشويات ظهراً مع قطعة صغيرة من اللحم المسلوق. والجوع المستمر جعلني أصل إلى درجة أنني كنت

أفحص قطعة اللحم لأرى إذا لم تكن قطعة من الجلد كما كان يحصل غالباً. أصبح جسمي ناحلاً، ورأيت كم كانت جوزة الهند أساسية، أسعفني الحظ، إذ كانت تأتيني خلال عشرين شهراً فتقيم أودي، وتبقي على عافيتي وتحفظ توازني بعد هذا الحائل الخطر بيننا وبين الحياة. إنني هذا الصباح متوتر الأعصاب بعد أن شربت قهوتي. فقد أكلت نصف ما يخصني من الخبز، وهذا ما لم أفعله قط وفي المعتاد كنت أقسمه أربعة أقسام متفاوتة في الحجم، قطعة للصباح وأخرى للظهر وثالثة للمساء ورابعة لليل. لم فعلت ذلك؟ ولت نفسي على هذا. أفعلت هذا لكي تخور قواك في النهاية؟ أنا جائع وأحس بانحطاط في قواي. لا تكن مدعياً، كيف يمكن أن تصبح قوياً؟ بما تلتهمه؟ المهم أنك من هذه النقطة منتصر. أنت ضعيف وهذا صحيح ولكنك لست مريضاً. إن هذا السجن آكل الرجال، إذا أسعفك الحظ قليلاً فإنه يخسر لعبته معك. جلست بعد ساعتين من المشي على لبنة من الاسمنت وقد اتخذتها بدلاً من الكرسي. ثلاثون يوماً أو لتكن سبع مئة وعشرين ساعة، ثم يفتح الباب ويقال لي: أيها السجين شاريير اخرج. لقد أنهيت سنتين، وماذا أقول؟ سأقول: نعم لقد أنهيت هاتين السنتين من المحنة.

ولكن لا. بل يجب أن أتابع القول ببرود موجهاً إلى المقدم الذي سبب لي هذا العزال:

— ماذا؟ هل أعفي عني؟ هل أذهب إلى فرنسا؟ هل انتهى الحكم المؤبد؟ لا لشيء سوى أن أرى وجهه وأقنعه أن الصيام الذي فرضه علي كان جائراً.

ولكن ماذا حصل لي: ظلم أم عدل فإن المقدم لا يبالي بما أخطأ. ما أهمية ذلك لمن كانت له مثل هذه العقلية. ولن يتحرك له ضمير فيؤنبه على ما عاقبني به وإن كان ظالماً. احذر نظرة منك كاذبة أن تحسب السجان إنساناً سوياً. إن يحسب إنسان إلى هذه المجموعة فليس جديراً بهذه التسمية. وقد يعتاد المرء على كل شيء في الحياة حتى الدناءة قد يجعل منها ديدنه. ولا يرعوي إلا إذا دنا من القبر وخشي ربه إن كان دَيِّناً فيمسي خاشعاً نادماً. لا لأن ضميره يؤنبه بل لأنه يخاف أن يحاسبه به على ما جنت يداه وأن الله هو الحاكم الذي سيحاكمه.

لذلك، عندما تخرج إلى أية جزيرة تخصص لك، لا تركنن بعد الآن إلى هذا النوع من البشر، فأنت وإياهم على طرفي نقيض. فعلى طرف تجد تبلد الإحساس والسلطة الدعية المتغطرسة الخالية من الروح، وتجد كذلك السادية الصريحة وردود الفعل الذاتية، على حين أكون في الطرف الآخر، مع الرجال من زمرتي الذين ارتكبوا حقاً أخطاء فاحشة غير أن مرارة الآلام خلقت فيهم صفات لا يرقى إليها كل إنسان: كالرأفة وحسن الطوية والتضحية والنبل والإقدام. وأقول بكل إخلاص: أنني أفضل أن أكون مجرماً على أن أكون سجّاناً.

لم يبق إلا عشرون يوماً وقد شعرت بالوهن وألاحظ أن كرة الخبز لا يزداد حجمها. منذا الذي بلغ به الإسفاف والحطة أن يختار لي قطعة الخبز هذه، والحساء لا يتعدى أن يكون ماء حاراً، وقطعة اللحم هي دوماً عظمة عليها قليل جداً من اللحم أو الجلد. وأخشى ما أخشاه الوقوع في المرض، وقد لازمني الضيق فأنا مكدود لا أقوى على بذل أي جهد، لأحكم بأني شرير وأنا يقظان. وهذا الإرهاق المصحوب بالكآبة يقلقني حاولت الحركة. فكنت أمضي الأربع والعشرين ساعة في كل يوم في مشقة. سمعت صريراً على الباب وسرعان ما انزلقت بطاقة وهي مكتوبة بالحبر الفوسفوري أرسلها ديغا وكالكاني، فقرأت: أكتب لنا كلمة فنحن في غاية القلق عليك وعلى صحتك ولم يبق إلا تسعة عشر يوماً تشجع. لويس وإيناس. وكان هناك جزازة ورق وقطعة فحم قلم فكتبت: إنني أقاوم وأنا ضعيف جداً وشكراً. بابي.

وعادت المكنسة إلى الاحتكاك بالباب فأرجعت الورقة. كانت البطاقة بغير جوز هند ولا سجائر. هذه الظاهرة، ظاهرة الصداقة السامية جداً والثابتة جداً كانت حافزاً منشطاً كنت في حاجة إليه. في الخارج يعرفون ما أنا فيه، وإذا مرضت فلا بد أن يزورني الطبيب، ولسوف يوليني عناية صحيحة بدفع من صحبي. وكانوا على حق. تسعة عشر يوماً وأصل إلى نهاية السباق المضني مع الموت والجنون. لن أموت وعلي أن أقوم بأقل قدر ممكن من الحركة لئلا أصرف الحريرات التي لا غنى لي عنها وسوف ألغي ساعتي المشي في الصباح وساعتي الظهيرة. وهذه أحسن وسيلة للمقاومة. ففي الاثنتي عشرة ساعة الليلية أنام، وفي الاثنتي عشرة ساعة النهارية أبقى جالساً بدون حركة ومن حين لآخر أنهض وأقوم ببعض الانحناءات والحركات ثم أعاود الجلوس.

بقي أكثر من عشرة أيام. كنت مستغرقاً في نزهة في ترينيداد، ورباية الجاوي ترسل أنغاماً شجية إذا بصراخ وحشي يعيدني إلى الواقع. هذا الصراخ كان صادراً من زنزانة خلفي أو من أخرى قريبة جداً. سمعت أحدهم يقول:

— أيها الوغد انزل إلى هذه البؤرة. ألم تتعب من مراقبتي من أعلى؟ ألا ترى أنك تضيع نصف النظر بسبب ضآلة النور في هذه الحفرة؟

فأجاب الحارس:

— اخرس وإلا عوقبت في قسوة.

— آه. دعني أضحك أيها الغبي كيف يمكنك أن تجد ما هو أقسى من هذا الصمت؟ عاقبني كما تشاء. اضربني، إذا كان هذا يرضيك أيها الجلاد الكريه ولكنك لن تجد ما يساوي هذا الصمت قوة، هذا الصمت الذي تجبرني على البقاء فيه. لا. لا. لا لم أعد أريد ولم أعد أطيق الاستمرار في هذا الصمت. منذ ثلاث سنوات كان يجب أن أقول لك: أنت قذر أحمق. وكنت غبياً حين صبرت ستة وثلاثين شهراً خائفاً من القصاص، ولم أصرخ معبراً عن اشمئزازي منك ومن أمثالك من السجانين الفاسدين.

وبعد دقائق معدودات كنت أسمعهم يقولون:

– ليس هكذا، ضعه مقلوباً فذلك أنجع، والمسكين يزمجر:

– ضعه كما تشاء أيها الفاسد، ألبسني قميص المجانين مقلوباً، إذا شئت واشدد بركبتيك على حبالك حتى اختنق ولكن هذا لا يمنعني من أن أقول لك إن أمك خنزيرة. ولن تستطيع أن تكون أكثر من كومة قاذورات.

لا ريب أنهم كموا فمه إذ لم أعد أسمع شيئاً.

تأثر الحارس الشاب من هذا المشهد وتوقف أمام باب زنزانتي وقال: ربما جن

– أتعتقد ذلك؟ ومع هذا فإن ما قاله موزون.

ضحك الحارس من قولي وتابع سيره قائلاً: حسناً وأنت إذن تعيد على أقواله.

هذه الحادثة انتزعتني من الجزيرة حيث رجال الربابة وأكواخ الفنيات في مرفأ بورت أوف سبين إلى الواقع الحزين في الانفرادي.

لا يزال أمامي عشرة أيام أي مئتان وأربعون ساعة، علي أن أتحملها.

إن ترتيب عدم الحركة، الذي رتبته لنفسي، قد آتى أكله، فعلى الأقل تمر الأيام هادئة وربما كان مرد ذلك إلى الطاقة التي وجهها أصحابي أو بالأحرى إن إحساسي بالقوة أعزوه إلى موازنة فرضت على نفسها: فأنا على مسافة زمنية مقدارها مئتان وأربعون ساعة من الخلاص من الانفرادي، وعقلي سليم، وعضلاتي لن تحتاج إلى أكثر من قليل من القوة الجسدية لتستعيد نشاطها. على حين أن هناك خلفي رجلاً مسكيناً يفصله عني جدار على بعد مترين قد دخل المرحلة الأولى من الجنون، وربما من أسوأ أبوابه ألا وهو العنف، ولن يعيش طويلاً لأن ثورته تعطي الفرصة لإمكانية قتله مشبعاً بالمعاملة القاسية المدروسة علمياً. وقد لمت نفسي على هذا الشعور بالقوة أمام رجل مغلوب، وتساءلت: هل أنا كالأناني الذي يكون في الشتاء مرتدياً حذاء وقفازين، متمتعاً بالدفء تحت معطف مبطن بالفراء، ويرى أمامه أفواجاً من الناس مسرعين إلى أعمالهم وقد جمدهم البرد، لا يرتدون الملابس الملائمة، أو على الأقل، ازرقت أكفهم بسبب جليد الصباح، وهو يوازن بينه وبين هذا القطيع، السابق إلى أول مترو أو باص ويحس بالدفء أكثر من ذي قبل، ويتمتع بفرائه أكثر من أي وقت. وغالباً ما تكون الموازنة في هذه الحياة جيدة: صحيح أنا محكوم بعشر سنوات، ولكن بابيون محكوم مؤبداً. صحيح أنا محكوم مؤبداً ولكن عمري ثمانية عشر عاماً، على حين أنه محكوم بخمسة عشر عاماً وعمره خمسون.

هيا لقد وصلت إلى النهاية وآمل أن تكون صحتي جيدة من كل الوجوه جسدياً ونفسياً، وحبوبي في وضع جيد من أجل الهروب بعد ستة أشهر.

لقد تكلمت عن الهروب الأول أما الهروب الثاني فسوف يكون منقوشاً على حجارة جدار السجن لا أرتاب في ذلك. سأهرب بالتأكيد قبل أن تمضي ستة أشهر.

هذه هي الليلة الأخيرة التي أمضيها في الانفرادي. فمنذ سبعة عشر ألف وخمس مئة ساعة دخلت الزنزانة رقم مئتين وأربع وثلاثين. وقد فتح الباب مرة وساقوني إلى المقدم لكي يعاقبني، وإذا استثنيت المقاطع التي كنت أتبادلها مع جاري خلال ثوان في اليوم فقد كلموني أربع مرات: قيل لي في اليوم الأول إنه يجب إنزال السرير الخشبي عند سماع الصافرة، وفي المرة الثانية مع الطبيب الذي قال لي: استدر، اسعل. وجرى حوار أطول وأكثر حيوية مع المقدم، وفي المرة الرابعة، أربع عبارات مع المراقب المنفعل بسبب ذلك المجنون المسكين. هذه تسلية لا مبالغة فيها. استسلمت للنوم وأنا لا أفكر سوى في شيء واحد، وهو المهم غداً بالتحديد، سيفتحون هذا الباب. غداً سأرى الشمس، وإذا أرسلت إلى رويال سأشم هواء البحر. غداً سأكون طليقاً، وضحكت من نفسي، كيف أكون طليقاً؟ غداً سأبدأ بتصفية عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة. أهذا يسمى حرية؟ أعلم هذا، ولكن الحياة هناك لا تقاس بالحياة التي عانيتها هنا كيف الوصول إلى كلوزيو وماتوريت؟

قدمت لي القهوة في الساعة السادسة، وحدثتني النفس بأن أقول: إنني أخرج اليوم، ولكنني أخطأت وتذكرت أنني فاقد الذاكرة. ومن يدري؟ لو أنني تذكرت بهذه الدقة لتبين المقدم بأنني كنت أسخر منه، فقد يكون قادراً على إعادتي فوراً إلى الانفرادي شهراً آخر. وعلى أية حال يجب أن أخرج بحسب القانون، من السجن الانفرادي، اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ١٩٣٦ وبعد أربعة أشهر سأبلغ الثلاثين من عمري.

في الساعة الثامنة أكلت كل ما عندي من الخبز على الفور ولسوف أجد ما آكله حال خروجي.

فتح الباب المقدم الثاني ومراقبان كانا هناك.

– شاريير! لقد انتهت مدة عقوبتك نحن في السادس والعشرين من حزيران ١٩٣٦. اتبعنا.

خرجت. ولدى وصولي إلى الساحة كانت الشمس تشرق بقوة كادت تخطف بصري. كنت منهار القوى، وساقاي رخوتان. وترافقت أمام عيني بقع سوداء، ومع ذلك لم أمش سوى خمسين متراً، ثلاثون منها في الشمس. وعندما وصلت إلى مكتب الإدارة، رأيت ماتوريت وكلوزيو وكان ماتوريت هيكلاً عظمياً حقاً، وجنتاه بارزتان، وعيناه غائرتان. وكان كلوزيو ممدداً على نقالة، لونه ضارب إلى الزرقة وتبدو عليه علائم الموت. فكرت في قبح صديقي فقلت: هل أنا على هذه الصورة؟ أتوق لرؤية نفسي في المرآة. قلت لهما: كيف الحال؟ فلم يردا، فكررت: هل أنتما بخير؟ قال ماتوريت في هدوء: نعم.

كنت أشتهي أن أقول لهما بأن عقوبة الانفرادي قد انتهت ولنا الحق في الكلام. قبلت كلوزيو في خده، فنظر إلي بعينين لامعتين وابتسم ثم قال: وداعاً بابيون.

ـ لا. ليس الأمر كذلك.
ـ لقد انتهيت.

وبالفعل مات بعد بضعة أيام في مستشفى رويال وله من العمر اثنان وثلاثون عاماً. وكان قد صدر بحقه حكم بعشرين سنة من أجل سرقة دراجة لم يرتكبها.

وصل المقدم فقال: أدخلهم.

ماتوريت، وأنت يا كلوزيو سلكتما سلوكاً حسناً لذلك سوف أسجل في ملفكما: سلوك حسن وأنت يا شاربير بما أنك ارتكبت خطأ فاحشاً سأضع لك ما تستحق «سيء السلوك».

ـ معذرة أيها المقدم، أية خطيئة ارتكبت؟
ـ هل صحيح أنك لا تذكر اكتشاف السجائر وجوزة الهند؟
ـ لا. صدقاً.
ـ لنر أي نظام كان لك منذ أربعة أشهر.
ـ من أية ناحية؟ ناحية الأكل؟ إنه لا يتغير منذ وصولي.
ـ آه هذه ثالثة الأثافي. ماذا أكلت أمس مساء؟
ـ كالمألوف. وما يدريني؟ لا أذكر شيئاً، ربما قدموا لنا فاصولياء أو أرزاً أو نوعاً آخر من الخضار.
ـ إذن كنت تأكل مساء؟
ـ أو تحسبني أرمي بصحني؟
ـ لا. ليس هذا. لقد رجعت عن كلامي، لقد سحبت «سيء السلوك». اكتب يا سيد (س) بطاقة خروج وضع عبارة «حسن السلوك» فهل أنت راض؟
ـ هذا عدل. لم أفعل شيئاً يحول دون هذا الاستحقاق.

وبهذه العبارة خرجنا من المكتب.

انفتحت بوابة السجن الانفرادي ليسمحوا لنا بالمرور مخفورين بمراقب واحد، وانحدرنا على الطريق المؤدية إلى المعسكر، فأشرفنا على البحر اللامع بالانعكاسات الفضية والزبد. تواجهنا جزيرة رويال التي تغطيها الخضرة والسقوف الحمر. أما جزيرة الشيطان فقاحلة ومتوحشة طلبت من المراقب أن يأذن لي بالقعود قليلاً ففعل. فجلسنا أحدنا عن يمين كلوزيو والآخر عن يساره، وبصورة لا شعورية احتضنت أكفنا كفيه. وقد ولد فينا هذا التماس انفعالاً غريباً وأخذنا نقبله دون أن ننطق بكلمة.

قال المراقب: هيا يا شباب، يجب أن ننحدر.

وبكل هدوء نزلنا إلى المعسكر ودخلنا نحن الاثنين في المقدمة وقد تشابكت يدانا، وخلفنا اثنان يحملان على المحفة صديقنا المحتضر.

وما أن وطئت أقدامنا ساحة المعسكر حتى أحاط بنا السجناء مرحبين بنا. والتقيت من جديد بييرو المجنون وجان سارترو وكولونديني وشيسيليا. قال لنا المراقب إنه ينبغي أن نذهب نحن الثلاثة إلى المستشفى اجتزنا الساحة يحيط بنا عشرون رجلاً، فدخلنا بعدها المستوصف. وبعد بضع دقائق كان أمامنا أنا وماتوريت اثنتا عشرة علبة سجائر، وتبغ، وقهوة بالحليب الحار، وشوكولا مصنوعة من الكاكاو النقي. الجميع كانوا يرغبون في تقديم شيء ما. أما كلوزيو فقد حقنه الممرض حقنة من الزيت الممزوج بالكافور وبعض الأدوية اللازمة من أجل القلب. وقال زنجي نحيل جداً: أيها الممرض أعطه ما لدي من فيتامين، فهو أكثر احتياجاً مني إليها. حقاً إنها لبادرة طيبة وشعور بالتضامن نحونا ترك في نفوسنا أثراً كبيراً. قال لي بيير البوردولي:

ـ هل تريد مالاً؟ فقبل أن تذهب إلى رويال سيكون لدي الوقت الكافي لجمع التبرعات.

ـ لا. شكراً جزيلاً. معي مال. ولكن هل علمت بأنني ذاهب إلى رويال؟
ـ أجل. إن المحاسب قال لنا ذلك، بل أعتقد بأنكم ستذهبون إلى المستشفى.

كان الممرض لصاً جبلياً من كورسيكا يدعى إيساري، ولقد تعرفت عليه جيداً في وقت لاحق، وسوف أروي قصته كاملة لأنها حقاً مثيرة للاهتمام. مضت الساعتان في المستوصف في سرعة. لقد أكلنا جيداً وشربنا جيداً وذهبنا إلى رويال منشرحين مسرورين. ظل كلوزيو طوال الوقت مغمض العينين إلا عندما اقتربت منه ووضعت يدي على جبينه، وحينئذ فتح عينيه وقال:

ـ صديقي بابي، نحن صديقان حقاً.
ـ بل أكثر من ذلك، فنحن أخوان.

نزلنا بصحبة مراقب واحد. في الوسط كلوزيو على المحفة وأنا وماتوريت من جانبيها، وعلى باب المعسكر ودعنا السجناء، وتمنوا لنا حظاً سعيداً. فشكرنا لهم رغم احتجاجهم. بييرو المجنون علق في عنقي كيساً مملوءاً بالتبغ والسجائر والشوكولا، وعلب حليب نستله. وكذلك ماتوريت له مثل نصيبي ولا يعرف من أعطاه. وقد رافقنا إلى رصيف الميناء الممرض فرناندز ومراقب واحد. وقد قدما لكل واحد منا بطاقة دخول إلى المستشفى في رويال. وقد علمت أن السجناء الذين يعملون في التمريض منهم إيساري وفرناندز، قد حولونا إلى المستشفى دون استشارة الطبيب.

ها هوذا المركب، فيه ستة نوتيين ومراقبان في الخلف مسلحان ببندقيتين وآخر يمسك

بالسكاكين. وأحد النوتيين هو شابار: صاحب عملية المصارف في مرسيليا. ونحن الآن في عرض البحر، والمجاديف تغوص في الماء، والجميع يجدفون. قال شابار: هل أنت بخير يا بابي؟ وهل كان يصلك جوز الهند؟

ـ لا. منذ أربعة أشهر لم يصلني شيء.

ـ أعلم أنه حدث حادث. كان هذا الرجل طيباً وكان يعلم أنني كنت أفعل ذلك ولم يلمح لي.

ـ ما أخباره؟

ـ مات.

ـ مستحيل. من أي شيء؟

ـ حسب أقوال أحد الممرضين أن كبده قد انفجرت نتيجة وكزة من قدم.

نزلنا على رصيف رويال، وهي أعظم الجزر الثلاث. كانت ساعة المخزن تشير إلى الثالثة. وكانت شمس بعد الظهر شديدة حقاً تكاد تفقدني الوعي بحرارتها.

طلب أحد المراقبين اللذين يحملان المحفة، وهما سجينان شديدا المراس، يرتديان الملابس البيض، وحول معصميهما رباط من جلد أسود وقد علا كلوزيو وكأنه ريشة، ومشينا خلفه أنا وماتوريت وخلفنا مراقب يحمل بيده بضعة أوراق. كان عرض الطريق أكثر من أربعة أمتار وهو حصوي يستعصي على السالكين. ولكن لحسن الحظ كان حاملا المحفة يتوقفان من حين لآخر بانتظارنا. حينئذ جلست على ذراع المحفة من جهة رأس كلوزيو، وكنت أمر بيدي على جبينه ورأسه برفق وحنان فيبتسم لي كل مرة ويفتح عينيه ويقول لماتوريت المسك بيده:

هذا أنت يا صغيري ماتوريت؟ ويبدو عليه السعادة لإحساسه بالقرب منه. وعندما أوشكنا على الوصول لاقتنا فرقة ذاهبة إلى الأشغال، ومعظم السجناء من اللذين كانوا في فرقتي، وكنا نسمع أثناء مرورهم كلمات علنية. ولما وصلنا إلى فناء أمام مبنى مربع أبيض اللون، رأينا أعلى سلطة في الجزر وقد جلس أفرادها في الظل. دنونا من المقدم بارو الملقب بجوزة الهند اليابسة، ومعه عدد من رؤساء الحراس. قال لنا المقدم دون أن يقف وبدون مراسم:

ـ إذن لم يكن الانفرادي قاسياً!! وهذا الممدد على المحفة من هو؟

ـ إنه كلوزيو

نظر إليه وقال: خذوهم إلى المستشفى، وعندما يخرجون منه عليهم أن يقابلوني قبل ذهابهم إلى المعسكر.

وأودعونا في المستشفى في قاعة حسنة الإضاءة، والأسرّة نظيفة جداً، وعليها ملاءات

وبسائد. وأول مريض شاهدته هو شاتال، الممرض في قاعة المراقبة المشددة في سان لوران ـ ماروني. والذي أولى كلوزيو عناية خاصة، وطلب من المراقب إحضار الطبيب، وقد وصل حوالي الساعة الخامسة، وبعد فحص طويل ودقيق رأيته يهز رأسه غير مرتاح، فكتب الوصفة وتوجه نحوي وقال لشاتال:

ـ أنا وبابيون لسنا أصدقاء.

ـ هذا ما يدهشني. إنه شاب طيب يا دكتور.

ـ ربما، ولكنه صعب القياد.

ـ لأي سبب؟

ـ بسبب زيارة قمت بها وهو في الانفرادي.

فقلت له: يا دكتور، أتسمي تلك الزيارة زيارة. تفحصني من خلال الكوة؟

ـ الإدارة تحظر فتح السجن.

ـ جيد جداً يا دكتور. ولكن كان الأمل أن لا تكون إلا معاراً إلى الإدارة لا أن تكون جزءاً منها.

ـ سنتكلم في هذا في مناسبة أخرى. سوف أحاول الصعود إليك. أنت وصديقك. أما الآخر فأخشى أن يكون قد فات الأوان.

ثم روى لي شاتال بأنهم اشتبهوا به في تدبير هروب فاحتجزوه في الجزر، وأعلمني أيضاً بأن جيزو الذي خدعني في هروبي قد قتل على يد أبرص لا يعرف اسمه. وتساءلت ألا يكون أحد هؤلاء اللذين ساعدوني بسخاء. إن حياة السجناء في جزر سالو تختلف كل الاختلاف عما يمكن تصوره. أكثر الرجال هنا في غاية الخطورة لأسباب عدة: أولاً، الجميع يأكلون إذ يشمل البيع كل شيء: المشروبات الكحولية، والسجائر، والقهوة، والشوكولا، والسكر، واللحم والخضار الغضة، والسمك البحري، وجوز الهند، فكلهم إذن في أتم الصحة في مناخ سليم جداً.

المحكومون لمدة معلومة، لديهم الأمل وخدعهم بالإفراج عنهم. أما المحكومون مؤبداً فما داموا ضائعين فهم جميعاً أكثر خطراً، الجميع غارقون في المتاجرة اليومية. السجناء والمراقبون على حد سواء. وهذا الخليط يستعصي على التفاهم. وبعض نساء المراقبين يبحثن عن سجناء شبان للقيام على خدمتهن. وغالباً ما يتخذن منهم عشاقاً، ويسميهم غلمان الأسرة بعضهم بستانيون، وبعضهم طباخون، هذه هي الزمرة من المحدين تصلح لأن تكون صلة الوصل بين المعسكر ومنازل الحراس.

وغلمان الأسرة لا ينظر إليهم نظرة سوء من قبل السجناء الآخرين، إذ يفضلهم يؤمنون تجارتهم ولكن لا يعتبرون أصفياء. إن رجلاً من وسط معتبر لا يمكن أن يقبل بالقيام بمثل هذه الحاجات، ولا أن يكون حاملاً للمفاتيح، ولا أن يشتغل في مطعم المراقبين، وبالمقابل يدفعون غالباً في سبيل أداء الخدمات التي لا تماس لهم فيها مع

الحراس، من مثل تفريغ القاذورات، وجمع الأوراق الميتة، وسوق الجواميس، والتمريض، والسخرة، ومزاولة حرفة القصاب، والخباز، والنوتي، والمراسل، وحارس النار. وهذه الخدمات كلها في يد السجناء الحقيقيين. والسجين الجيد لا يعمل إطلاقاً في أعمال تعهدات دعم الجدران أو في الطرقات أو السلالم أو زراعة جوز الهند، وهذا يعني أنهم لا يشتغلون تحت وطأة الشمس ولا تحت مراقبة الحراس.

يبدأ العمل في الساعة السابعة صباحاً وحتى الظهر ومن الساعة الثانية حتى الساعة السادسة. وهذا يعطي صورة عن بيئة هذا الخليط من الناس المتفاوتين الذين يعيشون حياة مشتركة سجناء وحرّاساً. إنها قرية صغيرة حقيقية، حيث كل شيء يشرح نفسه بنفسه، أو يحكم نفسه بنفسه، والجميع تحت بصر الجميع.

حضر ديغا وكالكاني لتمضية يوم الأحد معنا في المستشفى، أكلنا السمك وحساء السمك والبطاطا والجبن، وشربنا القهوة والنبيذ الأبيض. هيأنا هذه الوجبة في غرفة شاتال حيث اجتمعنا أنا وشاتال وديغا وكالكاني وماتوريت وغرانده. وطلبوا مني أن أروي لهم حكاية هروبي بكل تفاصيلها.

وقد اتخذ ديغا قراراً بعدم محاولة الهروب، وهو ينتظر من فرنسا عفواً عن خمس سنوات، وإذا أضفنا إليها ثلاث سنوات قضاها في فرنسا وثلاثاً أخر هنا، فلن يبقى سوى أربع سنوات عليه أن يقضيها. أما كالكاني فيزعم بأن سيناتور من كورسيكا يهتم بقضيته. ثم جاء دوري فطلبت منهم أن يرشدوني إلى المواضع الأكثر ملاءمة للهروب.

قال ديغا: إنها مسألة لم تخطر له ببال، وكذلك كالكاني. ويفترض شاتال أن إحدى الحدائق قد تتيح تحضير طوف. وبالنسبة إلى غرانده فقد أعلمني أنه يعمل حداداً في الأشغال، حيث يوجد، كما قال، كثير من الحرفيين، فهناك دهانون ونجارون وبناؤون، ويقرب عددهم من مئة وعشرين رجلاً يعملون في تعهدات أبنية الإدارة. وقد عرض على ديغا وهو محاسب عام، أي عمل أريده، وما علي إلا أن أختار كما قدم لي غرانده نصف مكانه كمدير للعب الميسر. وما أكسبه من اللاعبين يغطي نفقاتي دون أن أمس ما أملكه في الأنبوبة. سأنظر في هذا الأمر لأنه هام جداً، ولكنه بالغ الخطورة.

انقضى يوم الأحد مسرعاً. قال ديغا وهو ينظر إلى ساعته الجميلة: بلغت الساعة الخامسة ويجب أن نعود إلى المعسكر. وأعطاني ديغا وهو ذاهب خمس مئة فرنك لألعب بها في لعبة البوكر إذ تقام أحياناً في قاعتنا حفلات جميلة. كما أعطاني غرانده مدية فاخرة كان أسبق فولاذها بنفسه، إنها قطعة سلاح رهيبة. قال:

– كن دوماً متسلحاً بها ليلاً ونهاراً.

– والتفتيش؟

– إن معظم المراقبين الذين يقومون بهذا العمل هم من حملة المفاتيح العرب، فإذا كان الرجل معدوداً في الخطرين، فلن يجدوا معه سلاحاً ولو لمسوه، ثم أردف: ستلتقي في المعسكر.

وخبرني كالكاني بأنه احتجز لي مكاناً في زاويته، وبأننا سنؤلف معاً مجموعة، وأعضاء هذه المجموعة يرتفقون[1] في طعامهم وما يملك أحدهم من مال فهو للجميع.

ومن جهة ديغا فإنه لا ينام في المعسكر، بل في إحدى غرف مبنى الإدارة.

ثلاثة أيام مرت على وجودنا هنا. ونظراً لملازمي كلوزيو في الليل لم أعر انتباهاً للحياة في قاعة المستشفى حيث كان عندنا يقرب من ستين رجلاً. ولما كان كلوزيو في حالة سيئة فقد عزلوه في غرفة كان فيها مريض مدنف. حقنه شاتال بالمورفين إذ كان خائفاً أن لا يطلع عليه الصبح.

كان في القاعة ثلاثون سريراً على كل طرف من طرفي ممشى عرضه ثلاثة أمتار، وهذه الأسرّة كلها مشغولة تقريباً. ولا يضيء القاعة سوى مصباحين نفطيين. قال لي ماتوريت:

– هناك يلعبون البوكر وأنا ذاهب إليهم وعددهم أربعة.

– هل أستطيع أن أكون الخامس؟

– أجل.

وهنا اكتشفت صنفاً من السجناء وهم المقامرون الذين يعتاشون من الميسر. لعبنا طوال الليل وتوقفنا عند تقديم القهوة. وربحت ألفاً وثلاث مئة فرنك فتوجهت نحو سريري عندما لاقاني باولو والتمس مني أن أقرضه مئتي فرنك ليتابع لعبه، ويلزمه مئتان ولم يكن معه سوى مئة. قلت له خذ ثلاث مئة والربح مناصفة.

– شكراً لك يا بابيون، أنت خير من كلمني. سنكون صديقين.

مد يده وصافحته، وانصرف مسروراً.

مات كلوزيو هذا الصباح. وكان في الليلة السابقة قد طلب من شاتال أن لا يعطيه المورفين:

– أريد أن أموت على سريري وأصدقائي من حولي. كان الدخول إلى غرفة الحجر محظوراً جداً ولكن شاتال أخذ الأمر على عاتقه ومات صديقنا بين أذرعنا، فأغمضت عينيه. كان ماتوريت يتمزق من الألم. فقد رحل رفيق مغامرتنا وألقي به إلى سمك القرش.

إن موت صديقي جعل المستشفى ثقيل الوطأة على صدري. فأبلغت ديغا بأنني أريد المغادرة بعد غد. فبعث لي يقول: أطلب من شاتال أن يمنحك فرصة استراحة لأسبوعين

(١) الارتفاق: الانتفاع المشترك

في المعسكر ربما تتاح لي فرصة اختيار الوظيفة التي تعجبني. على حين سيبقى ماتوريت أيضاً، فربما اتخذه شاتال مساعداً له في التمريض. فدعاني حال خروجي من المستشفى إلى مبنى الإدارة للمثول أمام المقدم الملقب بجوزة الهند اليابسة، فقال لي:

– بابيون: قبل أن أضعك في المعسكر أنا ملزم بالتحدث معك قليلاً. لك هنا صديق عزيز وثمين، وهو يعمل محاسباً عاماً عندي: لويس ديغا. يزعم أنك مظلوم بكل هذه المعلومات التي وصلت عنك من فرنسا، وهو يعدّك محكوماً بريئاً، فمن الطبيعي أن تكون في ثورة دائمة وإني أقول لك بأني لست معه في هذا الموضوع. والأمر الذي أحب أن أعرفه: الحالة النفسية التي أنت فيها في الوقت الراهن.

– أولاً يا سيادة المقدم وقبل أن أجيبك. هل لك في أن تقول لي ما المعلومات المكتوبة عني في الملف؟

– انظرها بنفسك.

وقدم لي بطاقة صفراء قرأت فيها ما يلي:

– هنري شاريير الملقب بابيون والمولود في السادس عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٦ المحكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة من قبل محكمة السين. رجل خطر من كل وجهات النظر. تجب مراقبته مراقبة دقيقة.

من مركز كايين: محكوم لا يمكن إصلاحه ولن يستفيد من الأعمال التي يستفيد منها المقربون تجب مراقبته باستمرار.

من سان مارتن دوريه: نظامي ولكنه بالتأكيد قادر على التأثير في أصحابه. يحاول الهروب من أي مكان.

من سان لوران ماروني: قام بالهجوم الوحشي على ثلاثة من المراقبين وأحد حملة المفاتيح، لكي يهرب من المستشفى عاد من كولومبيا. سلوكه حسن أثناء التوقيف، حكم عليه بعقوبة خفيفة في السجن الانفرادي مدة سنتين.

السجن الانفرادي في سان جوزيف: سلوك حسن حتى إطلاق سراحه.

ولما أرجعت إليه الملف قال لي:

– ويحنا يا عزيزي بابيون، لسنا مطمئنين إلى استضافتك. فهل ترغب في عقد اتفاق معي؟

– لم لا؟ حسب نص الاتفاق.

– أنت رجل، تسعى ولا شك، إلى الهروب من الجزر رغم كل العقبات الصعبة، كما هو واضح وربما نجحت، وأنا لا يزال أمامي خمسة أشهر، لتثبيت الأمن في الجزر. هل تعلم كم يكلف المقدم هروبك في الجزر؟ يكلف عقوبة سنة. وبمعنى آخر حرمان كامل من تعويض الاغتراب في المستعمرة، ثم تأخير إجازة ستة أشهر وإنزالها إلى ثلاثة. وحسب نتائج التحقيق، فإن كان إهمال من طرف المقدم فمن الجائز تخفيض رتبته. ألا ترى أن

ليس في الأمر مزاح. فإن أنا قمت بعملي بأمانة وشرف وأودعتك في الزنزانة أو السرداب، فذلك من حقي، وليس بدافع من أنك قادر على الهروب، والله إني لخرج لحظة وهمية، وهذا ما لا أريد أن أفعله. إذن أحب أن توافقني على عدم محاولة الهروب حتى ارتحالي عن الجزر خمسة أشهر.

– يا سيادة المقدم أعطيك كلمة شرف بأني لن أغادر ما دمت هنا، إذا كان هذا لا يتعدى ستة أشهر.

– بل سأذهب قبل مرور خمسة أشهر. هذا تأكيد مطلق.

– حسن جداً. اسأل ديغا فسوف يخبرك بأني أصدق العهد.

– إني أصدقك.

– ولكنني من جانب آخر التمس منك شيئاً آخر.

– ما هو؟

– خلال خمسة الأشهر التي ينبغي أن أقضيها هنا، أرجو أن تتوفر لي إمكانية الحصول على وظائف أستفيد منها مستقبلاً، أو أنقل إلى جزيرة أخرى إذا لزم الأمر.

– أنا موافق على أن يبقى ذلك سراً بيننا.

– أجل أيها المقدم.

ثم استقدم ديغا الذي أقنعه أن مكاني ليس مع ذوي السلوك الحسن بل في مبنى الخطرين. حيث يتواجد أصدقائي جميعاً. أعيد إلي كيس أمتعتي وقد أضاف إليها المقدم بعض البنطالات، والأردية البيض النقية ذات الأكمام الطويلة. المفصلة عند الخياطين. سلكت طريقي ومعي بنطالان أبيضان جديدان وثلاث دراعات، وقبعة مصنوعة من قش الرز يرافقني حارس من مبنى الإدارة إلى المعسكر المركزي. ولكي نذهب من مبنى الإدارة الصغير إلى المعسكر كان علينا أن نجتاز الفناء كله، فمررنا أمام المستشفى. وكان المراقبون يقفون على امتداد سور يعلو أربعة أمتار ويحيط بالسجن من كل جوانبه. وبعد أن طفنا حول هذا المستطيل الواسع كله تقريباً وصلنا إلى البوابة الرئيسية وسجن الجزر الإصلاحي – شعبة رويال. كان هذا الرتاج الكبير مصنوعاً من خشب ومفتحاً انفتاحاً كاملاً وقد يبلغ ارتفاعه ستة أمتار. وهناك فرقتان للحراسة تتألف كل منها من أربعة رجال. وكان أحدهم، وهو ذو شارة، جالساً على كرسي، جميعهم مسلحون بالمسدسات لا البنادق. ورأيت أيضاً خمسة أو ستة من حملة المفاتيح العرب. وعندما وصلت إلى المدخل المسقوف خرج جميع الحراس ورئيسهم الكورسيكي الذي بادر بالقول:

هو ذا سجين جديد من الصنف الرفيع. وهيأ حملة المفاتيح لعملية التفتيش فحال بينهم وبين ذلك قائلاً: لا تدنسوه بإخراج جميع أمتعته. هيا ادخل يا بابيون.

لا شك أن لك في المبنى الخاص أصدقاء كثيرين. اسمي سوفراني أتمنى لك حظاً سعيداً في الجزر.

ـ شكراً، رقيب.

دخلت فناء رحباً حيث تقوم أبنية كبيرة ثلاثة. تبعت المراقب الذي قادني إلى أحدها وقد كتب فوق بابه: البناء (أ)، الزمرة الخاصة. وأمام الباب المفتوح على مصراعيه تادى الرقيب يا حارس البيت! فأطل محكوم قديم، فقال له: هاك محكوماً جديداً. ثم انصرف. ولجت قاعة فسيحة مستطيلة الشكل يعيش فيها مئة وعشرون رجلاً، وكما في البراكة الأولى في سان لوران، على محيطها حاجز حديدي من أقصى أطرافها، ولكنه مفصول عند موقع الباب بشبك حديدي لا يوصد إلا ليلاً. وقد شدت بين جدران القاعة والحاجز الحديدي أقمشة متينة من الكتان تقوم مقام الأسرّة والتي يدعونها الأسرّة الأرجوحية وهي مريحة جداً وصحية. وقد ثبت في الجدار فوق كل سرير رفان خشبيان أحدهما للملابس والآخر للأغذية والصحون.. الخ. وبين صفي الأسرة ممر عرضه ثلاثة أمتار. والرجال هنا أيضاً يعيشون في اشتراكيات صغيرة وبعضها يتألف من رجلين اثنين فقط، وبعضها من عشرة. وما كدت أطأ أرض القاعة حتى تقاطر علي السجناء من كل صوب. هذا يقول تعال من هنا وذاك يقول: تعال معنا. تناول غرانده كيس امتعتي وقال سنؤلف معاً جبهة واحدة، فتبعته. نصبوا لي سريري وشدوه جيداً. قال غرانده:

ـ هاك وسادة من ريش الدجاج.

لاقيت كثيراً من الأصدقاء، من كورسيكا ومن مرسيليا أو من باريس، وكلهم أصدقاء من فرنسا، وبعضهم عرفتهم في سجن التوقيف أو في القافلة. وأدهشني تواجدهم هنا فسألتهم السر في الشغل في هذه الساعة؟ فتضاحك الجميع وقالوا: سوف تفعل ذلك مثلنا. إن الذي يشتغل من رجال هذا المبنى لا يشتغل أكثر من ساعة في اليوم ثم يعود إلى مجموعته.

ولقد كان هذا الاستقبال حاراً حقاً والأمل أن يدوم ذلك. ولكن سرعان ما تنبهت لشيء لم أكن قد نظرت إليه بعمق واهتمام رغم الأيام التي أمضيتها في المستشفى وهو أن أعتاد التعايش مع الآخرين. رأيت مشهداً لم أكن أتوقعه. دخل شخص بلباس أبيض يحمل صينية مغطاة بقطعة قماش ناصعة البياض وينادي بفتيك. بفتيك من يريد بفتيك؟ ثم دنا منا شيئاً فشيئاً حتى وصل إلينا ورفع الغطاء الأبيض فبدت لنا مصفوفة كما يفعل الجزارون في فرنسا. ولاحظت أن الرجل لم يسأل غرانده هل تريد؟ بل كم تريد؟ فهو زبون يومي.

ـ هات خمساً.

ـ هل تريدها من لحم الكتف.

ـ أريد «فيليه». بكم لنا مدين لك؟ أعطني الحساب. والآن بعد أن زاد عددنا واحداً لم يبق الأمر كما كان.

أخرج بائع اللحم دفتراً صغيراً وشرع يحسب.

ـ المجموع مئة وخمسة وثلاثون فرنكاً بما في ذلك حساب اليوم.

ـ خذ حسابك ولنبدأ من الصفر.

وبعد انصراف الرجل قال لي غرانده:

ـ هنا، من ليس لديه مال يمت. ولكن هناك سبلاً للحصول عليه في كل وقت: الخلق وحسن التدبير والتصرف الحسن، كلها طرق متبعة للحصول على المال.

طباخ المعسكر يبيع اللحم النظيف المخصص للسجناء بصورة بفتيك. فعندما يأتي اللحم إلى المطبخ يقطع منه النصف، حسب نوع اللحم، للسلق أو للطبخ مع مواد أخرى. يباع جزء منه للمراقبين بالمرور على زوجاتهم، ويباع قسم للسجناء ممن يتيسر لهم الشراء، وبطبيعة الحال يعطي الطباخ قسماً من الأرباح لمراقب المطبخ. وأول مبنى يمر عليه بضاعته هو مبنى الفئة الخاصة، المبنى (أ) أي حيث نحن. إذن الحذق هو الأساس. فهذا الطاهي الذي يبيع اللحم والشحم، وهذا الخباز الذي يبيع الخبز المترف والخبز الأبيض الطويل المخصص للمراقبين، والجزار الذي يبيع اللحم، والممرض الذي يبيع الحقن، والمحاسب الذي يتقاضى مالاً لقاء تعيين في هذا العمل أو ذاك، أو ليعفيك من أعمال السخرة، والبستاني الذي يبيع الخضار والفاكهة والعامل في المختبر الذي لا يسلم نتائج التحاليل الطبية إلا بمقابل، بل قد يصل به الأمر إلى حد تلفيق الأمراض الكاذبة للمحكومين، فهذا مصاب بالسل وذاك بالبرص، وآخر بالتهاب الإمعاء. وهناك مختصون بالاختلاس من بيوت المراقبين، يبيعون البيض والدجاج وصابون مرسيليا. وإلى جانب هؤلاء غلمان البيوت الذين يتاجرون مع ربات بيوت المراقبين حيث يعملون خدماً، فيحضرون ما يطلب إليهم من زبدة وحليب مكثف أو مسحوق الحليب وعلب الطون والسردين والجبن، والخمور بطبيعة الحال (وهكذا لا تخلو جعبتنا من زجاجة ريكارد أو السجائر الانجليزية والأمريكية).

وكذلك هناك من لهم حق الصيد، يبيعون السمك والسراطين البحرية.

غير أن أحسن المهارات وأشدها خطراً أيضاً إدارة اللعب بالميسر. والقاعدة المتبعة هي أنه لا ينبغي أن يكون في المبنى الواحد أكثر من ثلاثة أو أربعة مدراء للقمار من أصل مئة وعشرين رجلاً. والذي يعزم أمره على تولي إدارة اللعب يتقدم في إحدى الليالي في بداية اللعب ويقول:

ـ أريد مكان مدير الميسر. فيردون عليه: لا.

ـ كلكم تقولون لا؟

ـ كلنا.

ـ إذن أختار فلاناً لآخذ مكانه.

والرجل المعني بذلك يفهم وينهض متجهاً نحو وسط القاعة، وتجري بين الاثنين مبارزة بالسكاكين، والرابح هو الذي يتولى مكان مدير القمار. ومدراء القمار يتألون خمسة

بالثة عن كل جولة رابحة. ويتفرع عن الميسر نفسه أعمال يتفع منها بعض السجناء انتفاعاً يسيراً فمنهم من يهيء الأغطية مشدودة على الأرض شداً ومنهم من يؤجر مقاعد خشبية صغيرة للاعبين الذين لا يستطيعون الجلوس متربعين ومنهم من يبيع السجائر والذي يعرض بضاعته فوق غطاء في علب ملأى بالسجائر الفرنسية والانجليزية والامريكية. وكذلك السجائر التي تلف باليد. ولكل نوع سعر، ويقوم اللاعب بنفسه بتناول حاجته ويضع في العلبة قيمتها المسجلة بكل دقة. ومنهم السراج الذي يعد مصابيح النفط ويسهر على نظافتها كي لا تنفث كثيراً من دخانها وتصنع المصابيح من علب الحليب الفارغة وقد تثقب غطاؤها العلوي لمرور الفتيل المنغمس في النفط، ويحتاج دوماً إلى إصلاح بالمقراض. وللذين لا يدخنون، أصناف من السكر المصنع والحلوى (الكاكاو) المصنوعة بتدبير خاص، ولكل مبنى صانع للقهوة أو اثنان تبقى القهوة مكانها مغطاة بكيسين من قشر قنب هندي ومعدّة على الطريقة العربية، فتحافظ على حرارتها طوال الليل. ومن حين لآخر يطوف الرجل بقهوته أو بالكاكاو الحار في نوع من القدور الزوجية. وهناك أخيراً نوع من الاسترزاق عن طريق الصناعات اليدوية، فبعضهم يتخذ ما يأتي به الصيادون من بذل[1] السلحفاة صناعة. فكل بذل سلحفاة يتألف من ثلاث عشرة صفيحة قد يبلغ وزنها كيلو غرامين. يصنع منها الفنان عقوداً وأساور وأقراطاً وأمشاطاً وظهور فراش[2]، حتى أنني رأيت صندوقاً صغيراً صنع من صفائح البذل وكان في غاية الروعة. وآخرون ينحتون أشكالاً لأفاعي من النارجيل وقرون الثيران والجواميس وخشب الأبنوس وخشب الجزيرة وآخرون يصنعون من خشب الأبنوس أعمالاً فنية نفيسة حفراً دون استخدام أي مسمار. وأمهر هؤلاء هم الذين يعملون في صناعة البرونز ولا ننسى الفنانين الرسامين. وقد يتفق أن تجتمع عدة مواهب لإنجاز موضوع واحد ومثال ذلك صياد يحمل سمكة من أسماك القرش ويترك فكه مفتوحاً بحيث تظهر أسنانه البيض المنتقية، ويصنع أحد نقاشي الأبنوس نموذجاً مصغراً لمرساة من الخشب عريضة في الوسط لتيسير الرسم عليها، ويثبت الفك المفتوح على هذه المرساة ثم يأتي رسام فيرسم جزر سالو يحيط بها البحر. والموضوع المتبع غالباً هو كالتالي: من رأس جزيرة رويال يرى المضيق وجزيرة سان جوزيف، والشمس عند الغروب ترسل أشعتها اللاهبة على البحر الأزرق وعلى صفحة الماء سفينة يقف على متنها ستة من السجناء عراة الجذوع، والمجاذيف مرفوعة عمودياً، وخلفهم ثلاثة من المراقبين يحملون الرشيشات بأيديهم. وفي الأمام رجلان يحملان نعشاً ينزلق منه جثمان سجين مكفن بكيس طحين، وترى على سطح الماء أسماك القرش فاغرة أفواهها بانتظار الجثمان. وقد كتب في الأسفل وعلى يمين اللوحة «الدفن في رويال» كما كتب عليها التاريخ. تباع مختلف هذه الأشغال في بيوت المراقبين وأجملها يباع

(1) بذل السلحفاة: جلد السلحفاة أو غطاؤها
(2) جمع فراشة

مقدماً أو أنها تصنع بناء على طلب مسبق. وما تبقى يباع على متن السفن المارة بالجزر، وفي هذا مجال للبحارة وبعض الماجنين يأتون بأصونة[1] معدنية قديمة سطوحها كثيرة الالتواء، وينقشون عليها: هذا الصوان يخص دريفوس. جزيرة الشيطان. التاريخ... وكذلك يعملون بالملاعق والصحون.

وبالنسبة إلى البحارة البريتونيين فإن الأشغال التي لا تبور هي التي تحمل اسم سوزينيك. هذه التجارة الرائجة باطراد، تدرّ على الجزر مالاً، وللمراقبين في ذلك منفعة، ويجري كل شيء كما يشتهون، والرجال بعد أن اعتادوا حياتهم الجديدة تسلس قيادهم.

واللواط يتخذ صيغة رسمية. الجميع يعلمون، حتى القادم، أن فلاناً لفلان، وعندما ينقل إلى جزيرة أخرى تبذل المساعي للقائهما في بعض الأحيان، هذا إن لم يتم نقلهما معاً.

من بين جميع هؤلاء الرجال لن تجد ثلاثة في المئة يفكرون بالهروب حتى المحكومون مؤبداً.

والطريقة الوحيدة هي السعي بكل الوسائل لرفع الحجر عنهم والذهاب إلى الأرض الكبرى في سان لوران أو إلى كورو أو إلى كايين، الأمر الذي لا يستفيد منه إلا المحكومون مؤقتاً. أما المحكومون مدى الحياة فيستحيل عليهم ذلك ما لم يرتكب أحدهم جريمة قتل، فإن فعل فإنه يوفد إلى سان لوران ليمثل أمام المحكمة هناك وقبل ذهابه يدلي باعترافاته وبذلك يجازف بخمس سنوات في السجن الانفرادي، ودون أن يتأكد من استغلال فرصة إقامته القصيرة في المعسكر التأديبي في سان لوران —وهي لا تزيد على ثلاثة أشهر— للهروب. ويمكن أيضاً محاولة الانطلاق من الحجر لأسباب صحية، فإذا عرفوا أن السجين مسلول بعثوا به إلى معسكر المسلولين، المسمى بالمعسكر الجديد وهو يبعد ثمانين كيلو متراً عن سان لوران. وهناك أيضاً الجذام أو التهاب الأمعاء الزحاري الزمن، إنه نسبياً يسهل الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن ينطوي على خطر كبير، وهو مساكنة مرضى من نمط خاص مدة سنتين في جناح معزول. ومن هنا فإن ادعاء المرض يؤدي إلى المرض، وبادعاء السل يخرج السجين مسلولاً. لا يفصله عن هذا سوى خطوة واحدة.

أما الزحار فهو أيضاً مرض تصعب النجاة من العدوى به.

هاأنذا أقيم إذن في المبنى (أ) مع مئة وعشرين صديقاً. وقلت لنفسي: عليك أن تعود العيش مع هذه المجموعة حيث جرى تصنيفك سريعاً. أولاً ينبغي أن يعلم الجميع أنه لا تمكن مهاجمتك دون أن يتعرضوا للخطر. حالما تفرض الرهبة تستوجب الهيبة وذلك بأسلوب التعامل مع الحراس فلا تقبل بالمهمات، وارفض أعمال السخرة ولا ترضى

(1) جمع صوان وهو وعاء للشرب

بسلطان حلة الفاتيح، ولا تخضع ولا تستجيب لنداء الاستغفار. حارس البيت (يطلقون على المبنى اسم البيت) يصيح «مريض نائم» المراقبون في الساتين الأخرى يلتقطون أحياناً لإحضار المريض المعلن عنه ويجبرونه على تلبية الاستغفار. وهذا لا يحصل على الإطلاق في مبنى ذوي الرؤوس المتينة. والخلاصة إنهم من أكبرهم إلى أصغرهم يتشددون قبل كل شيء السكينة والهدوء في السجن.

صديقي غرانده الذي شكلت معه الجمعية، شاب من مرسيليا، لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره طويل جداًونحيل كالمسمار، ولكنه قوي جداً. نحن صديقان منذ كنا في فرنسا وكلنا نلتقي في تولون أو مرسيليا أو باريس. وهو مشهور بثقب الصناديق الحديدية وهو طيب القلب ولكن ربما كان خطراً.

أنا اليوم وحدي تقريباً في هذه القاعة الفسيحة الأرجاء وكان رئيسها يكنس الأرض الاسمنتية ويمر عليها بالمسحة. ورأيت رجلاً مشغولاً بتصليح ساعة وقد وضع شيئاً ما على عينه اليسرى وفوق سريره رف خشبي علق عليه ما يقرب من ثلاثين ساعة وهذا الفتى الأشيب قد لا يبلغ الثلاثين من عمره. دنوت منه أنظر إلى عمله، ثم حاولت أن أحاوره فلم يرفع رأساً وظل صامتاً فانسحبت مغتاظاً وخرجت إلى فناء المبنى وجلست قرب المغسل، والتقيت بتيتي مستغرقاً بلعب الورق، وكان الورق جديداً كل الجدة، وكانت أصابعه الماهرة تحقق الاثنتين والثلاثين ورقة بسرعة لا تسمح معها ركزاً. قال لي ودون أن يتوقف عن اللعب بيديه وكأنه مشعوذ:

ـ إيه يا صديقي كيف الحال؟ هل أنت مسرور في رويال؟

ـ أجل. ولكنني أحسست اليوم بالكدر. سأخرج من المعسكر لأشتغل اليوم قليلاً. لقد أردت التحدث قليلاً مع هذا الشخص الذي يعمل في تصليح الساعات فلم يرد علي.

ـ ماذا تقول يا بابي؟ إن هذا الشخص لا يأبه بكل ما حوله ليس له إلا ساعاته وكل ما عدا ذلك فهو هراء. والحق يقال، إنه بعد الذي جرى له، من حقه أن ينطوي على نفسه. وهذه نتيجة حتمية. تصور أن هذا الفتى ـ ونستطيع أن نقول عنه فتى لأنه لما يبلغ الثلاثين بعد ـ قد حكم عليه بالإعدام في العام الفائت لأنه كما زعموا اغتصب امرأة أحد الحراس القذرين وكان منذ زمن يتبادل معها القبلات، وهي زوجة مراقب بريتوني برتبة رقيب. وبما أنه كان يعمل عندها خادماً، فكلما ذهب المراقب إلى وظيفته في النهار كان الساعاتي يلتقي بالعشيقة. غير أنهما ارتكبا خطأ، وهو أن المشعوذة لم تعد تتركه يقوم بعملية غسل الملابس وكيها بل تقوم بذلك بنفسها وزوجها المخدوع الذي يعرفها كسولة وجد ذلك غريباً، فساورته الظنون ولكنه لم يجد الدليل على سوء طالعه، وحينئذ رتب خطة لمباغتتهما في الجرم المشهود، وقتلهما معاً. وقد عزم على ذلك دون أن يشعر السفيهة بشيء، وغادر ذات يوم مقر حراسته بعد ساعتين من استلامه لها ودعا أحد الخفراء إلى

مصاحبته إلى المنزل مدعياً أنه يريد إعطاءه قطعة من لحم (الجاتيون) الذي وصله من بلده، عبر الباب متخلص الخطاء، وما كاد يدخل حتى علا صوت بيفاه يصيح: ها هوذا المعلم، كما تعود أن يفعل كلما رجع الخفير إلى البيت وفي الحال أخذت المرأة تصيح: النجدة، النجدة. ودخل المراقبان الغرفة في اللحظة التي كانت فيها الزوجة تتملص من بين ذراعي السجين الذي يوضت، فقفز من النافذة، فأطلق عليه الزوج النار فأصابه برصاصة في كتفه، وفي تلك الأونة كانت الفاجرة تخدش موضع عنقها ووجنتها، وتقد مئزرها.

وقع الساعاتي وهم الخفير بالإجهاز عليه فبادر الآخر إلى انتزاع السلاح منه، وتجدر الإشارة إلى أن الخفير الآخر كورسيكي وأدرك أن رئيسه قد لفق له حكاية كاذبة ولم يكن هناك أي اغتصاب، ولكن الكورسيكي لم يجرؤ أن يحدث البريتوني في ذلك فتظاهر بأنه مقتنع بالاغتصاب. حكم على الساعاتي بالإعدام.

إلى هنا يا صديقي وكل شيء عادي، ولكن ما تبع ذلك هو المهم. في معسكر المعاقبين في رويال مقصلة، كل قطعة منها في مكان خاص، وفي الفناء، صفت البلاطات التي تنصب عليها المقصلة صفاً راسخاً ومستوياً.

وفي كل أسبوع كان الجلاد ومساعده (وهما من السجناء)، يركبون المقصلة وسكينتها وبكل ما فيها من هول ورعب ويقطعون جذعاً أو جذعين من جذوع الموز، وبهذه الطريقة يطمئنون إلى أنها في حالة جيدة وصالحة للاستعمال.

وكان الساعاتي ـ وهو من مقاطعة سافوا ـ في زنزانة المحكوم عليهم بالموت، مع أربعة آخرين، ثلاثة من العرب وواحد صقلي، وكلهم ينتظرون جواب طلب العفو الذي قدمه المراقب الذي قام بمهمة الدفاع عنهم.

في صبيحة أحد الأيام ركّبوا المقصلة، وفتحوا باب زنزانة الساعاتي فجأة، وهجم عليه الجلادون وأثقوا قدميه بحبل، وربطوا معصميه بالحبل نفسه ثم أعادوا الحبل إلى قدميه، ثم أخذوا بالمقص طوق قميصه بالمقص على شكل هلال، وساروا به عند البلاج الصبح مسافة عشرين متراً والجو لا يزال أغبش. تخيل نفسك يا بابيون أمام المقصلة وجهاً لوجه موثقاً على لوح خشبي قائم بسيور جلدية. لقد ربطوه وذهبوا به ليزحلقوا اللوح وقد تجاوز رأس المسكين حرف اللوح. وفي تلك اللحظة وصل المقدم الخالي والمسمى بالنارجيلة اليابسة، وهو ملزم بحضور التنفيذ، وكان يمسك بيده مصباحاً كبيراً وفي لحظة إضاءة المشهد تنبه إلى أن الحراس الأغبياء قد وقعوا في خطأ، إذ لم يكن الساعاتي هو المقصود إعدامه في ذلك اليوم. فصاح بارو: توقفوا، توقفوا. وكان منفعلاً إلى درجة لم يستطع معها الكلام فوقع المصباح من يده ووبخ الحراس والجلادين، وفك وثاق الساعاتي بنفسه وأخيراً أصدر أمره إلى المرضى بإعادته إلى زنزانته، وطالب بالعناية به وبالبقاء إلى

جانبه ويعطيه شيئاً من الروم وقال: وأنتم أيها الأنذال! انعموا وأتوا بالكأس فهو الذي جاء دوره في التنفيذ اليوم، ليس غيره. وفي اليوم التالي اشتعل رأس الساعاتي شيباً كما رأيته اليوم.

قدم محاميه إلى وزير العدل طلباً للعفو عنه، وقد روى له ما حدث، فنال هذا العفو وحكم عليه بالسجن المؤبد، ومنذ ذلك الحين وهو يمضي وقته في تصليح ساعات الحراس. فهذه هي هوايته، إنه يراقبها طويلاً، وهكذا تجمعت هذه الساعات المعلقة على لوحة المراقبة. والآن قد فهمت بالتأكيد بأن له الحق بأن يكون متأثراً أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد يا نبي، بعد صدمة كهذه يحق له أن لا يكون اجتماعياً. إني أرثي له من كل قلبي.

كل يوم أتعلم شيئاً جديداً في هذه الحياة الجديدة. إن المبنى (أ) ملتقى الرجال المريبين في ماضيهم وفي تصرفاتهم في حياتهم اليومية.

إنني لا أعمل دائماً. إنني أتوقع أن يسند إلي عمل تفريغ القمامة وهو لا يستغرق أكثر من خمس وأربعين دقيقة وانطلق بعدها في الجزيرة ويحق لي الذهاب إلى الصيد.

هذا الصباح عند النداء للسخرة في غرس أشجار النارجيل نودي على جان كاستيلي، فخرج من الصف وقال:

ـ ماذا؟ أترسلونني إلى العمل؟ أنا؟

ـ أجل ويقول لك خفير السخرة خذ هذا المعول.

نظر إليه كارلي وقال له:

ـ هيا يا رجل. ألا ترى أنك تأتي من بلدك الأوفرن لتتعلم كيف تستعمل هذه الآلة الغريبة؟

ـ أنا كورسيكي مرسيلي. ففي كورسيكا يرمون بأدوات الشغل بعيداً وفي مرسيليا لا يعلمون بوجودها. احتفظ بهذا المعول ودعني وشأني.

وحسبما أفادوني فيما بعد، أن هذا الخفير الشاب لم يكن على بينة من مجريات الأمور هنا، فرفع المعول في الهواء، فصرخ مئة وعشرون رجلاً بصوت واحد.

ـ أيها الجيفة إياك أن تمسه وإلا قتلناك.

وصاح غراندة: تفرقوا.

وعاد الجميع فدخلوا البيت دون أن يأبهوا لاستعدادات الحراس للهجوم. على حين سار رجال البيت (ب) إلى العمل وكذلك رجال البيت (ث). وارتد اثنا عشر حارساً ليغلقوا الباب الشبكي. وهذا أمر نادر الحدوث، وبعد ساعة كان على الباب أربعون حارساً مسلحين بالرشيشات وعلى رأسهم المقدم المساعد ورئيس الحرس ورئيس المراقبين، والمراقبون، إنهم جميعاً هنا باستثناء المقدم الذي كان في جزيرة الشيطان في جولة تفتيشية في

الساعة السادسة، أي قبل الحادث. قال المقدم المساعد:

ـ داسيل. تفضل بمناداة الرجال واحداً بعد واحد.

ـ غراندة!

ـ حاضر.

ـ اخرج.

خرج بين أربعين حارساً فقال له داسيل: اذهب إلى العمل.

ـ لا أستطيع.

ـ هل ترفض؟

ـ لا. أنا لا أرفض ولكنني مريض.

ـ منذ متى؟ لم تكن مريضاً عند النداء الأول.

ـ في الصباح لم أكن مريضاً، أما الآن فإنني مريض.

نودي على ستين سجيناً فأجابوا كلهم الجواب نفسه. أما الأخير وهو الواحد والستون فقد ذهب إلى حد العصيان ولابد أنه كان يرغب في أن يرسلوه إلى سان لوران ليمثل أمام المجلس الحربي وعندما سئل هل ترفض؟

قال: نعم. أرفض ثلاثاً.

ـ لماذا؟

ـ لأنكم دنستموني. بالتأكيد أرفض العمل لأشخاص في مثل غباوتكم.

بلغ التوتر أقصاه، فالحراس، والشبان منهم خاصة، لايطيقون إهانة من السجناء كهذه. ولاينتظرون سوى شيء واحد هو بادرة تهديد تتيح لهم استخدام السلاح الذي لايزال مسدداً نحو الأرض. وكان جميع الذين نودوا عراة، وفي طريقهم إلى الزنزانات كلما سقطت الأمتعة سمعت قعقعة السكاكين التي ترن على الأرض المحصبة. وفي هذه الأثناء وصل الطبيب.

ـ هل تتفضل يا دكتور باجراء الفحص على هؤلاء الرجال؟ فمن تبين منهم أنه غير مريض فمآله إلى السرداب والآخرون يبقون في البيت.

ـ أيوجد ستون مريضاً؟

ـ أجل. دكتور، ماعدا واحداً فقد رفض أن يشتغل.

قال الطبيب إلي بالأول. غراندة! ما بك؟

ـ عندي عسر هضم، لا أقوى على هضم السجان يا دكتور. فنحن جميعاً محكومون بعقوبات طويلة الأمد، والغالبية العظمى مؤبداً. ولا أمل للهروب من الجزر، لذا فقد ضقنا ذرعاً بهذه الحياة ولانطيق احتمالها، إلا إذا كان في النظام مرونة وتفهم. ففي هذا الصباح سمح أحد المراقبين لنفسه أن يرفع مقبض المعول ليهوي به أمام الجميع على رأس واحد منا بحجة الجميع، ولم يكن المراقب في حالة دفاع عن النفس، لأن السجين لم يهدده

ولم يفعل شيئاً سوى أنه رفض استخدام المعول وهذا هو السبب الحقيقي لهذا الوباء الجماعي. ولك أن تحكم في هذا.

خفض الطبيب رأسه هنيهة وفكر ثم قال:

ـ اكتب أيها الممرض: ونظراً لوجود تسمم في الطعام الجماعي فإن الممرض المراقب ملزم باتخاذ التدابير الضرورية لإعطاء جميع المجدين الذين اعتبروا مرضى هذا اليوم عشرين غراماً من سلفات الصود. أما المجعد فلان فيرجى وضعه تحت المراقبة في المستشفى لنتأكد مما إذا كان في تمرده هذا مالكاً لقواه العقلية.» ثم أدار ظهره وانصرف.

صاح المقدم المساعد:

ـ الجميع إلى الداخل. اجمعوا حوائجكم ولاتنسوا سكاكينكم. والزموا البيت جميعكم. ولن يخرج أحد اليوم حتى حامل الخبز.

وعند الظهر احضروا لنا بدلاً من الحساء دلواً خشبياً مملوءاً بالمسهل، سلفات الصود، وكان يحمله اثنان من السجناء الممرضين، ومعهما المراقب الممرض. ثلاثة فقط أجبروا على شرب الدواء. أما الرابع فقد وقع على الدلو متظاهراً بأزمة صرع مثلها أصدق تمثيل. فوقع الدلو واندلق المسهل منه وسقطت المغرفة في كل اتجاه وهكذا انتهى الحادث بتكليف رئيس المهجع بتجفيف هذا السائل المندلق على الأرض.

أمضيت ظهيرة ذلك اليوم بالتحدث مع جان كاستيلي إذ جاء يأكل معنا، وهو يؤلف ثنائياً مع رجل من تولون يدعى لويس غرافود الذي حكم عليه بسبب سرقة فراء. وعندما حدثته عن الهروب لمعت عيناه، وقال: أوشكت في العام المنصرم أن أهرب غير أن الخطة أجهضت. وما كنت أشك في أنك رجل لايمكن أن يكون وادعاً هنا. إنما الكلام عن الهروب هنا في الجزر كأنه من اللغة العبرية. ولحظت من جهة أخرى أنك لم تختبر بعد سجناء الجزر وكما ترى عيناك، من كل مئة سجين، ثمانون يعيشون سعداء نسبياً بالإقامة هنا، وما من أحد يشي بك مهما تفعل. يقتل أحدهم فلا يجدون شاهداً، وكذلك بالنسبة للسرقة، مهما يفعل الفرد، يلتف حوله الآخرون ككتلة واحدة للدفاع عنه. وسجناء الجزر لايخشون سوى شيء واحد هو أن ينجح أحدهم بالهروب، فحينئذ تنقلب حياتهم الوادعة نسبياً حيث يعود التفتيش المستمر، ويتوقف لعب الميسر ولعب الشطرنج والداما، وتنقطع أنغام الموسيقا، وتحطم كل الأدوات التي يعثر عليها أثناء التفتيش. فلا كتب ولا أي شيء آخر، حتى ولا أشغال فنية، يلغى كل شيء على الإطلاق، يجري التفتيش بلا انقطاع. يختفي السكر والزيت والفتيك والزبدة. وفي كل مرة يكون فيها الهروب ناجحاً في مغادرة الجزر يوقف في الأرض الكبرى في ضواحي كورو. أما بالنسبة إلى الجزر فإن الهروب إذا نجح، استطاع الهاربون الخروج من الجزر، وحينئذ تطبق العقوبات بحق الحراس الذين يتقمون من الجميع

كنت أصغي بكل إحساسي. لم أر الأمور على هذه الصورة قط. ثم تابع كاستيلي قائلاً:

ـ والخلاصة، حينما تضع في ذهنك خطة للهروب احذر مواطني، قدميك واتئد. وفكر عشر مرات قبل أن تتعامل مع شخص لاتثق بإخلاصه لك كل الإخلاص.

جان كاراني لص بيوت محترف، وهو يتمتع بزراقة وذكاء نادرين، غير أنه يكره العنف ويلقب بالنحفة. إنه لايستعمل إلا صابوناً مرسيليا، فإذا استعملت أنا صابون بالموليف قال لي: لعمري إن فيه رائحة الصة أنت تغتسل بصابون فاجرة. ولكنه مع الأسف يبلغ من العمر الثانية والخمسين ولكن فعاليته كالحديد تسر الناظرين. قال لي:

أنت يا بابيون تشبهني حتى لكأنك ابني. إن الحياة في الجزر لاتهمك. تتغذى جيداً لأن الغذاء ضروري لكي تبقى قوياً، ولم تخلق لتعيش حياتك كلها في الجزر. أهنئك على هذا، وليس بين جميع السجناء أربعة يفكرون تفكيرنا وخاصة في الهروب. صحيح أن هناك رجالاً يدفعون أموالاً طائلة للخلاص من الحجز عليهم ولينقلوا إلى الأرض الكبرى، ليهربوا من هناك. إنما من هنا لايؤمن أحد بالهروب.

وأسدى إلي كاستيلي العجوز النصائح التالية: تعلم الانجليزية كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، تكلم الاسبانية مع اسباني. ثم أعارني كتاباً لتعلم الاسبانية في أربعة وعشرين درساً، ومعجماً فرنسياً انجليزياً. وهو صديق حميم لرجل مرسيلي اسمه غاردس الذي عرف منه لمحة عن الهروب، لأنه هرب مرتين مرة من السجن البرتغالي، والمرة الثانية من الأرض الكبرى، وله وجهة نظر في الهروب من الجزيرة. وكذلك جان كاستيلي، وغرافود التولوني له أيضاً طريقته في النظر إلى الأمور. ولكن هذه الآراء كلها تتفق. ومنذ ذلك اليوم جمعت أمري على أن أحتفظ لنفسي، ولن أتكلم عن الهروب أبداً. إنه لأمر عسير إذا ليس من ذلك بد.

إن النقطة الوحيدة المتفق عليها هي أن اللعب بالميسر مهم في سبيل الحصول على المال وحسب وينطوي على خطر كبير. وفي أية لحظة قد يجد المرء نفسه مكرهاً على العراك بالسكين مع أول قادم صلف مغتر. ثلاثة رجال هم رجال أفعال، وهم حقاً ذوو بأس شديد بالنسبة إلى الصارمهم، وهم: لويس غرافود وعمره أربعون سنة، وغراديس ويقارب الخمسين، إضافة إلى كاستيلي.

سنحت لي بالأمس مساء فرصة لتعريف كل من في المهجع بطريقتي في النظر إلى الأمور وفي التصرف: رجل من (نيم) تحدى شاباً تولوزياً ودعاه إلى المبارزة بالسكين. وكان التولوزي يلقب بالسردين، والنيمي القوي المراس يلقب بالكبش. وقف الكبش وسط الممر عاري الصدر وهو يقول: إما أن تدفع خمسة وعشرين فرنكاً عن كل لعبة بوكر أو أن لا تلعب أبداً.

ــ لم يسبق لأحد أن دفع لآخر شيئاً. لم تأخذ مني، ولاتهاجم رواد اللعب على الطريقة المرسيلية؟

ــ ليس لك أن تعرف السبب. فإما أن تدفع وإما أن تنسحب وإما أن تقاتل.

ــ لا. لن أقاتلك.

ــ هل تواضعت؟

ــ نعم. لا أجازف بحياتي بطعنة سكين من يد متغطرس مثلك لم يذهب قط في هروب أما أنا فرجل هروب ولست هنا لأقتل أحداً أو يقتلني أحد.

كنا جميعاً نترقب ما سوف يحصل. قال لي غرانده:

ــ حقا إنه شجاع، هذا الصغير رجل هروب. وإنه لمن المحزن أن لاتستطيع قولاً. فتحت موساي ووضعتها تحت فخذي وجلست على سرير غرانده. وتابع الكيش قوله.

ــ إذن علام عولت أيها المتواضع أتدفع أم تنسحب من اللعب؟ جاوب.

وتقدم خطوة نحو سردين، فصحت به:

ــ اخرس أيها الكيش. دع هذا الشخص وشأنه.

قال لي غرانده: ألنت مجنون يا بابيون؟

ودون أن أتحرك من مكاني والسكين تحت ساقي الأيسر ومقبضها بيدي، قلت:

ــ لا لست مجنوناً، واسمعوا جميعاً ما أقوله لكم. وأنت يا كيش قبل أن أقاتلك، ولسوف أفعل إذا اقتضى الأمر حتى قبل أن أتكلم، دعني أقول للجميع أنه منذ وصولي إلى هذا البيت، وعددنا يربو على المئة، لاحظت وأنا أحس بالعار أن أحداً منكم لايقدر شأن الهروب وهو أجل الأشياء وأجدرها بالنظر وهي الحقيقة الوحيدة، فكل رجل آنس في نفسه بأنه رجل هروب، وفي وجدانه ما يكفي للمخاطرة بحياته في سبيل ذلك فهو رجل ويستحق التبجيل، بغض النظر عن كل شيء. فمن منكم يرى خلاف ذلك؟ (صمت). ففي شريعتكم ينقص مبدأ أولي وأساسي، وهو ليس ضرورة احترام رجال الهروب وحسب بل ضرورة تقديم المساعدة لهم ودعمهم. لا إكراه في الهروب، ولا اعتراض على قراركم باستمرار حياتكم هنا وإذا لم تكن لديكم الجرأة الكافية على محاولة حياة جديدة، فكرموا على الأقل رجال الهروب الكريم اللائق بهم. ومن ينس هذا القانون فليتوقع أوخم العواقب. والآن يا كيش إذا كنت مصراً على النزال فأنا قادم

ثم وثبت إلى وسط القاعة، والسكين بيدي، فألقى الكيش سكينه وقال:

ــ أنت على حق يابابيون. أنا أيضاً لا أود منازلتك بالسكين وإنما بالأيدي حتى لاأطاطيء رأسي.

تركت مديتي مع غرانده وتلاكمنا مثل كلبين ما يقرب من عشرين دقيقة، وفي نهاية الأمر غلبته بلكمة موفقة في رأسه. ثم ذهبنا معاً إلى المغاسل، فغسلنا وجوهنا مما سال

عليها من دماء. قال لي الكيش:

ــ في الحق إن المرء في هذه الجزر ليصاب بالخبل. أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً، ولم أنفق ألف فرنك للخلاص من الجحر. يا للعار.

عندما رجعت إلى مجموعتي لامني غرانده وكالكاني: «ألم تكن مخطئاً في إثارة الجميع وإهانتهم على النحو الذي فعلت؟ ولا ندري بأية أعجوبة لم يقفز إلى الحلبة ليقاتلك بسكينه؟

ــ لا يا صاحبي، ليس في الأمر ماهو عجيب. عندما يتكلم أحدنا وهو على صواب فكل رجل من وسطنا يؤيده فيما قال.

قال كالكاني: حسناً، ولكن اعلم أنه ما كان ينبغي أن تبالغ بالعبث بهذا البركان.

جاءني في تلك الأمسية رجال كثر يتحدثون معي، يتزلفون إلي، يخوضون في أي موضوع ويقولون قبل أن يفارقوني نحن على وفاق معك فيما قلته يا باي.

فهذه الحادثة قربتني من الرجال، وبدءاً من هذه الساعة عدني الرجال واحداً من وسطهم ولكن لا انحني للأمور ولا أقبلها دون تحليل ومناقشة. ولاحظت أنني عندما أتولى اللعب تقل الخصومات، وآمرهم فيصدعون.

رائد اللعبة كما قلت يقتص بخمسة بالمئة في كل جولة رابحة. يجلس على كرسي وظهره نحو الجدار ليحمي نفسه من أي قاتل، والقتل ممكن في كل لحظة، وعلى ركبتيه غطاء يستر سكينه الكبيرة المفتوحة دوماً، ويتحلق حوله ثلاثون أو اربعون أو خمسون لاعباً، من جميع المناطق الفرنسية وفيهم الكثير من الأجانب العرب.

اللعبة سهلة، فهناك أمين الصندوق، وقاطع الورق، وفي كل مرة يخسر فيها أمين الصندوق يتحول الورق إلى جاره، وعدد الأوراق اثنان وخمسون، وقاطع الأوراق يوزعها ويحتفظ بورقة مستورة، ويخرج أمين الصندوق ورقة ويرمي بها على الغطاء المفروش على الأرض وحينئذ يبدأ اللعب. وهكذا يكون اللعب على القطع أو على أمانة الصندوق. عندما يكون عدد المتبارين قليلاً يبدأ بسحب الأوراق واحدة بعد واحدة. والورقة التي لها نفس قيمة إحدى الورقتين المطروحتين تخسر. مثال ذلك: لنفرض أن قاطع الورق قد ستر ورقة عليها صورة البنت، وكان أمين الصندوق قد كشف ورقة ذات خمس نقاط. فإذا سحب صورة البنت قبل صورة الخمس فإن القطع يخسر، وإذا كان العكس فإن الصندوق هو الذي يخسر فعلى رائد اللعب أن يعرف حصيلة كل مقامر، ويتذكر من القاطع، ومن أمين الصندوق، ليعرف لمن تعود الأرباح، وليس ذلك بهين، وتجب حماية الضعفاء من الأقوياء، الذين يحاولون دوماً الغش والخداع، وعندما يتخذ رائد اللعب قراراً في حالة مريبة يجب أن يتقبل الجميع قراره بدون لغو.

قتل هذه الليلة إيطالي يدعى كارلينو. كان يعيش مع فتى الجلد عشيقاً. وكانا يعملان معاً في حديقة وكان يحس، على ما يبدو، أن حياته معرضة للخطر، فعندما ينام

كان الفتى يسهر عليه والعكس بالعكس. وقد وضعا تحت سريرهما علباً فارغة لئلا يستطيع أحد التسلل إليهما دون أن يحدث ضجة. ومع ذلك قتل من تحت السرير. وتبع صرخته مباشرة صخب شديد أحدثه العلب الفارغة التي دحرجها القاتل.

كان غرانده يقود لعبة مرسيلية. وحوله أكثر من ثلاثين لاعباً. وأنا كنت على مقربة من مكان اللعب الحدث. وتوقف اللعب بعد سماع الصرخة وضوضاء العلب الفارغة، ونهض كل واحد يتساءل عما حدث. صديق كارليتو لم ير شيئاً، وكارليتو لفظ أنفاسه. سأل رئيس البيت عما إذا كان يجب استدعاء المراقبين.

ـ لا. غداً عند التفقد سيكون الوقت مناسباً لإعلان ذلك ما دام الرجل قد مات، فلا حيلة لنا من أجله.

وتكلم غرانده فقال:

لم يسمع أحد شيئاً، وكذلك أنت أيها الصغير (موجهاً الخطاب إلى صديق كارليتو) غداً عندما تصحو من النوم ستلاحظ أنه ميت.

بدأ اللعب وعاد اللاعبون إلى صياحهم: قاطع، لا، صندوق الخ.. وكأن شيئاً لم يحدث كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أرى ماذا يحصل عندما يكتشف الحراس جريمة قتل.

يقرع الجرس عادة في الساعة الخامسة والنصف ويقرع ثانية في السادسة عند تقديم القهوة، في المرة الثالثة يخرج الجميع للتفقد كما هي الحال في كل يوم. أما اليوم فقد اختلف الأمر. فعند الجرس الثاني قال رئيس البيت للحارس المرافق لحامل القهوة:

ـ أيها الرقيب لقد قتل رجل.

ـ من هو؟

ـ كارليتو.

ـ حسناً.

ـ وبعد ست دقائق وصل ستة من الحراس.

ـ أين الميت؟

ـ هناك.

ورأوا الخنجر مغروزاً في ظهره بعد أن اخترق قماش السرير الأرجوحي، فسألوه.

ـ احملوه.

فحمله رجلان على محفة. طلع النهار. فقرع الجرس الثالث، ولايزال الخنجر بيد رئيس المراقبين ملطخاً بالدم. فصاح آمراً:

ـ ليخرج الجميع على أهبة الاستعداد للتفقد. ولا نرضى اليوم بعذر مريض تألم.

فخرج الجميع، ويتواجد عادة عند التفقد القائدان ورؤساء المراقبين. فأجري التفقد وعندما وصلوا إلى اسم كارليتو أجاب رئيس المهجع مات هذه الليلة ونقل إلى معرض الجثث. قال الحارس الذي يجري التفقد: حسناً.

وبعد أن أجابه الجميع بكلمة (حاضر) رفع رئيس المعسكر السكين في الهواء وسأل.

ـ هل يعرف أحدكم هذه السكين؟

فلم يجب أحد.

ـ هل فيكم من رأى القاتل؟

صمت مطلق.

ـ إذن ما من أحد يعرف شيئاً كما هي العادة. مروا أمامي مرفقين وأيديكم مبسوطة ثم ليذهب كل منكم إلى عمله.

ـ ياسيدي القائد! الشيء نفسه دوماً، لاشيء يكشف عن فاعل الطعنة.

قال القائد: خطة مدبرة. احفظ السكين واربط بها ورقة تشير إلى أنها استخدمت في قتل كارليتو.

هذا كل شيء وعدت إلى المهجع واستلقيت لأنام إذ لم يغمض لي جفن طول الليل. وبينما أوشك النوم يعقد أجفاني قلت لنفسي: إن السجين ليس شيئاً مهماً حتى ولو أنه قتل في حين أنهم يأبون أن يزعجوا أنفسهم في البحث عن الحقيقة. السجين في نظر الإدارة لاشيء على الإطلاق فهو أدنى من كلب.

قررت أن أبدأ العمل يوم الاثنين وهو تفريغ القاذورات. كنت أخرج في الساعة الرابعة والنصف مع رجل آخر لتفريغ الأوعية، أوعية الليل (آ)، والقاعدة المتبعة في إفراغها أن تنزل إلى البحر، ولكننا كنا ندفع مالاً لراعي الجواميس فينتظرنا في مكان ما من القناة حيث توجد قناة مصنوعة من الإسمنت تنحدر نحو البحر وهكذا كنا نفرغ القاذورات في أقل من عشرين دقيقة في هذه القناة ونلقي وراءها بثلاثة آلاف لتر من ماء البحر محلولة في برميل ضخم وذلك لدفع الأوساخ بعيداً.

رحلة المياه هذه كنا ندفع ثمنها عشرين فرنكاً في اليوم للجواميسي الزنجي اللطيف. وكان يساعدنا في انزال كل شيء مستعيناً بعتلة قاسية جداً. ولما كان هذا هو يومي الأول في نقل الأوعية على قضيبين خشبيين فقد شعرت بالتعب في معصمي. ولكن لم ألبث أن تعودت هذا العمل.

صديقي الجديد خدوم جداً. ومع ذلك فقد أنذرني كالكاني بأنه رجل في غاية الخطورة. فقد ارتكب في الجزر سبع جرائم قتل. أما طريقته في تدبير المال فهي في بيع الغائط.

والواقع أن كل بستاني يجمع سماده، فيحفر لهذا الغرض حفرة يضع فيها أوراقاً يابسة وأعشاباً، وهذا الزنجي يحمل بصورة غير مشروعة وعاء أو وعاءين من الفضلات البشرية إلى الحديقة. وبطبيعة الحال إنه لايستطيع أن يفعل ذلك وحده. وأنا مكره على مساعدته لأني أعلم أنها غلطة جسيمة، إذ قد تنتشر عدوى الزحار بتدنيس الخضار فتصيب المراقبين والسجناء على حد سواء. فعزمت على أن أمنعه من فعل ذلك يوماً، حين تتوطد بيننا الصداقة أكثر، وذلك بأن أعوضه ما يخسره من هذه التجارة. وهو من ناحية

اخرى بنقش قرون الجواميس، أما فيما يتعلق بالصيد فقد قال بأنه لايستطيع أن يعلمني، ولكنني سأعتمد على الرصيف شابار أو أي أحد غيره يساعدني على تعلم الصيد.

أنا إذن نزّاح[1] فبعد أن أنتهي من عملي، أستحم وأرتدي بنطالاً قصيراً (شورت) وأذهب كل يوم إلى الصيد في حرية تامة، وحيث يطيب لي، وليس علي من التزام سوى التواجد ظهراً في المعسكر. وبفضل شابار لم يكن يعوزني شص ولا قصبة. وعندما أصعد كنت أحمل سلكاً معلقاً عليه أسماك من ثقوب آذانها وكثيراً ما تناديني نساء المراقبين من بيوتهن وكلهن يعرفن اسمي فيقلن:

— بابيون! هنا كيلو غرامين من هذا السمك.

— هل أنتن مريضات؟

— لا.

— هل عندكن ولد مريض؟

— لا

— إذن لا أبيعكن من سمكاتي.

لقد اصطدت عدداً كبيراً قدمته لرفاقي في المعسكر، ولكن أقايضه بالخبز الطويل أو الخضار أو الفاكهة وفي جمعيتي كنا نأكل سمكاً كل يوم مرة على الأقل.

وذات يوم كنت عائداً ومعي اثنا عشر سرطاناً بحرياً ، وثمانية كيلو غرامات من السمك، ومررت أمام دار القائد بارو، فقالت لي امرأة بدينة: إنك موفق في صيدك رغم أن البحر هائج، ولم يستطع أحد أن يقع على صيد، ولم أذق طعم السمك، منذ خمسة عشر يوماً، خسارة أنك لاتبيع منه شيئاً وقد علمت من زوجي أنك ترفض بيع نساء المراقبين.

— هذا صحيح يا سيدتي. أما أنت فشيء آخر.

— لماذا؟

— لأنك سمينة وربما كان اللحم مضراً بصحتك.

— حقاً. قيل لي لا تأكلي سوى الخضار والسمك المسلوق قليلاً. أما هنا فغير ممكن.

— تفضلي يا سيدتي خذي هذه السرطانات البحرية وهذه السمكات.

واعطيتها ما يقارب الكيلو غرامين من السمك.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أعطيها في كل صيد سمين سمكاً يعينها على اتباع راتب غذائي منظم (ريجيم) ولاتنطق سوى كلمة شكر وهي تعلم أن كل شيء في الجزيرة يباع، وهي على حق، لأنها أحست بأنها لو اعطتني مالاً لقابلت عطاءها بالاستياء. وغالباً ما كانت تدعوني إلى الدخول إلى دارها وتقدم لي بنفسها كأساً من النبيذ الأبيض، وإذا جاءها من كورسيكا مشروب فيفاتل أهدتني منه. لم تسألني يوماً شيئاً عن حياتي الماضية، إلا في عبارة

(1) هو الذي يفرغ أوعية البراز.

كانت منها زلة لسان إلا قالت يوماً بمناسبة الحديث عن السجن: صحيح أنه لايمكن الهروب من الجزر، ولكن البقاء في جوها السليم الصحي خير من أن يموت المرء في العفن كالدابة في الأرض الكبرى.

وهي التي شرحت لي أصل تسمية الجزر، قالت:

حصلت جائحة وباء الحمى الصفراء في كايين فالتجأ الآباء البيض والأخوات من أحد الأديرة إلى جزر سالو ونجوا كلهم فسميت بجزر سالو (أي السلام).

وبفضل الصيد كنت أذهب إلى كل مكان. مضى على اشتغالي بالنزح ثلاثة أشهر وعرفت الجزيرة أكثر من أي شخص آخر. تعبت أترصد الحدائق بحجة تقديم السمك مقابل الخضار والفواكه. بستاني الحديقة القائمة على طرف مقبرة المراقبين هو ماتيو كاربونيري وهو من جمعيتي. إنه يعمل في البستان وقلت لنفسي: يمكن في المستقبل أن ندفن في بستانه طوفاً أو نصنعه. فبعد شهرين سيرحل القائد وأكون في حل مما عاهدته عليه، وأتصرف كما أشاء.

لقد نظمت نفسي : فأنا نزاح بالاسم. أخرج كما لو أنني ذاهب للتفريغ وفي الواقع كان الارتيبكي هو الذي يفعل هذا بدلاً عني، مقابل مبلغ من المال طبعاً.

توددت إلى رجلين عديلين محكومين بالسجن المؤبد، هما ماريك وكيبيه ويطلق عليهما «العديلان» ويقال بأنهما اتهما بتحويل خازن إلى لبنة من الإسمنت بعد قتله. رآهما بعض الشهود يحملان في عربة تدفع بالأيدي لبنة إسمنت ثم يلقيان بها في نهر المارن أو في نهر السين. وحدد التحقيق بأن الخازن كان قد ذهب إليهما ليقبض منهما ولم يره أحد بعد ذلك. فأنكرا بإصرار، وفي السجن كانا أيضاً يدعيان البراءة. ومع ذلك فإن هم لم يعثروا على الجسم فقد عثروا على الرأس ملفوفاً بمنديل كبير، وقد وجد في حوزتهما مناديل من نفس اللحمة والسدى كما أفاد الخبراء ولكنهما والمحامين أثبتوا أن آلاف الأمتار من هذا القماش قد صنعت مناديل، ولدى الكثيرين مثلها وأخيراً حكم على العديلين بالسجن المؤبد، وعلى زوجة أحدهما، وهي أخت زوجة الثاني، بعشرين عاماً في السجن الانفرادي.

ولقد استطعت الاتصال بهما. وبما أنهما بنّاءان فلهما حق الدخول إلى المعمل والخروج منه وربما تمكنا من إخراج قطعة من الخشب بعد قطعها وهذا ما يكفي لي صنع الطوف. بقي علي اقناعهما

قابلت بالأمس الطبيب، وكنت أحمل سمكة لايقل وزنها عن عشرين كيلو، وهي دقيقة من النوع المسمى ميرو. صعدنا نحو الفناء، ثم جلسنا متقاربين فقال لي:

— يمكن أن يصنع من رأس هذه السمكة حساء لذيذاً. فقدمته له مع قطعة من لحم السمك كبيرة فأدهشته هذه البادرة فقال: ألا زلت حاقداً علي يا بابيون؟

— ما فعلت هذا من أجل نفسي يا دكتور بل لأنني مدين لك إذ فعلت المستحيل من أجل صديقي كلوزيو. ثم تحدثنا قليلاً وبعد ذلك قال:

— أنت ترغب في الهروب أليس كذلك؟ لست مجرماً وإنما تبدو شيئاً آخر.

ـ أنت على صواب، فأنا لا أنتمي لهذا السجن بل أنا ضيف عليه وحسب، فضحك، وحينئذ قلت:

ـ دكتور! ألا تعتقد أن الإنسان يمكن أن يولد من جديد؟

ـ بلى.

ـ هل بإمكانك الافتراض أنني أستطيع خدمة هذا المجتمع دون أن أكون خطراً عليه، وأغدو مواطناً شريفاً؟

ـ أؤمن بذلك كل الإيمان.

ـ إذن لم لاتساعدني على بلوغ ذلك؟

ـ كيف؟

ـ بأن تخرج من الحجر بحجة أنني مصاب بمرض السل. وحينذاك أكد لي شيئاً كنت سمعت عنه.

ـ إن ذلك مستحيل وأنصحك بأن لاتقدم على هذا الفعل، فإنه في غاية الخطورة. إن الإدارة لاتخرج أحداً لمرض إلا بعد أن يمضي على الأقل عاماً في الجناح المخصص لمرضه.

ـ لماذا؟

ـ من الخزي والعار، التصريح بذلك، أعتقد أن الهدف من ذلك أن يعلم الشخص المعني، إذا كان متمارضاً، أن فرص العدوى متاحة له بمساكنته هؤلاء المرضى ولكي يصبح في النهاية مريضاً مثلهم. إذن لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

ومنذ ذلك الحين أوشكت عرى الصداقة تتوثق بيننا حتى جاء يوم كاد يقتل فيه صديقي كاربونيري. وفي الحقيقة كان ماتيو كاربونيري على علاقة عادية معي، وكان قد ارتضى أن يكون طباخاً عند رؤساء المراقبين. كنت أدرس امكانية سرقة ثلاثة براميل، خل أو خمر أو زيت، وإيجاد وسيلة لربطها ثم الهروب عليها بحراً. وبدهي أن ذلك سيكون بعد سفر بارو. ولكن ذلك صعب جداً، إذ يجب سرقة البراميل ونقلها إلى البحر وربطها، كل ذلك في ليلة واحدة، دون أن يرانا أو يسمعنا أحد، ولايتأتى هذا إلا في ليلة عاصفة ممطرة. ولكن من الصعب في مثل هذا الجو إنزال طوف في البحر الذي لابد أن يكون ليلئذ هائجاً.

كاربونيري إذن طباخ. أعطاه رئيس الأواني ثلاث أرانب لتحضيرها للغد، وهو يوم أحد، أرسل كاربونيري أرنباً لأخيه، على الرصيف البحري، والتهين لنا، وكانت مسلوخة حسن الحظ، ثم قتل ثلاث قطط سمينة وطبخها، ومن سوء طالعه أن الطبيب كان مدعواً لتناول الطعام، فبعد أن تذوق الأرنب قال:

ـ أهنئك ياسيو فيلوفوري على هذا الطعام. حقاً إن هذا القط لذيذ.

ـ لاتسخر مني يا دكتور، نحن نأكل ثلاث أرانب جميلة.

قال الطبيب وهو عنيد كالبغل: هذا قط. انظروا إلى الأضلاع التي آكل منها، إنها مبسطة، على حين أن أضلاع الأرنب مستديرة: إذن ليس هناك أي التباس نحن نأكل هررة.

قال الكورسيكي: اسم الله. كريستافو. أفي بطني قط؟ وخرج ركضاً نحو المطبخ ووضع مسدسه تحت أنف ماتيو وقال:

ـ عبثاً تحاول أن تكون نابوليونياً، سأقتلك لأنك أطعمتني قطاً.

وكان الشرر يتطاير من عينيه وكأنه مجنون.

فأجابه كاربونيري دون أن يفهم كيف عرف ذلك.

ـ إذا كنت تسمي ما أعطيتني قططاً فليس الذنب ذنبي.

ـ أنا أعطيتك أرانب.

ـ حسناً، وهي التي هيأتها لك. انظر إلى جلودها ورؤوسها فهي لاتزال هنا.

نظر المراقب إلى جلود الأرانب ورؤوسها مذهولاً.

ـ أتظن أن الدكتور لايعي ما يقول؟

قال كاربونيري وهو يتنفس: هل الدكتور قال ذلك؟ إنه يسخر منكم، قل له ليس هذا مزاحاً يتعاطاه.

عاد فيليفوري إلى قاعة الطعام هادئاً مقتنعاً وقال للطبيب: تكلم قل ما تشاء، فقد لعبت الخمرة برأسك، سواء أكانت الأضلاع التي بين يديك مبسطة أم مستديرة، فأنا أعلم أن ما أكلته إنما هي أرانب. لقد رأيت فراءها ورؤوسها الثلاثة.

تخلص ماتيو من هذه الورطة ولكنه آثر أن يقدم استقالته بعد بضعة أيام.

اقترب اليوم الذي أستطيع فيه التحرك. عدة أسابيع ويمضي بارو. ذهبت بالأمس لأرى زوجته البدينة، ولعل إنها خفت وزناً بفضل الراتب الغذائي المقنن الذي اتبعته بأكل السمك والخضار. هذه المرأة الشهمة أدخلتني دارها لتقدم لي زجاجة كانكينا. وكان عندها في الصالة صناديق أوشكت على الامتلاء. فهم يعدون أنفسهم للرحيل. قالت لي القنمة (كما يسميها الناس): لا أدري كيف أشكرك على ما أبديت من التفات نحوي في الأشهر الأخيرة. أذكر لك أياماً كانت بخيلة بالصيد، فقدمت لي كل ما استطعت اصطياده. أشكر لك كثيراً. بفضلك تحسنت صحتي ونحلت أربعة عشر كيلو غراماً. فماذا أفعل لأعبر لك عن اعترافي بصنيعك؟

ـ أريد شيئاً صعباً عليك يا سيدتي: أن تعوزني لي ببوصلة جيدة دقيقة وصغيرة الحجم.

ـ ليس هذا شيئاً ذا شأن، وليس كثيراً ما تطلبه يا بابيون ولكن فترة ثلاثة أسابيع فقط، سيكون ذلك علي عسيراً.

وقبل سفرهم بثمانية أيام غاظ هذه السيدة النبيلة أن لاتوفق إلى الحصول على البوصلة الجيدة. فانطلقت، واستقلت سفينة وذهبت إلى كايين وعادت بعد أربعة أيام وفي

حوزتها بوصلة فاخرة ضد المغناطيس.

القدم والقدمة بارو ذهبا هذا الصباح. وكان بالأمس قد سلم القيادة إلى مراقب من نفس رتبته وهو من أصل تونسي ويدعى بروبه.

والخبر الطيب هو أن المقدم الجديد عهد إليّ ديغا أن يبقى في منصب المحاسب العام، وهذا أمر مستحسن بالنسبة للجميع، وبخاصة لي. وفي خطابه للسجناء المصطفين على شكل مربع في الفناء الواسع، ترك في النفوس انطباعاً عاماً بأنه حيوي جداً وذكي جداً. وقال فيما قال: وبدءاً من هذا اليوم أتسلم قيادة الجزر ولما كنت قد لاحظت أن أساليب سلفي قد آتت أكلها، فلا أرى مسوغاً لتغيير ما هو موجود. وإذا كنتم في سلوككم لم تجبروني على ذلك، فلا أرى ضرورة لتعديل حياتكم.

رأيت إرتحال المقدمة وزوجها بفرح معبر بعد انتظار مرهق، رغم أن هذه الشهور الخمسة قد مضت عاجلة لم أكد أشعر بها. هذه الحرية الزائفة التي يتمتع فيها السجناء في الجزر باللعب والصيد والمحادثة والمعارف الجديدة، والخصومات، والمعارك، كلها مصارف للضجر ذات أثر ولاتترك مجالاً للسأم.

ومع ذلك لم أترك نفسي تنخدع بهذه البيئة، وكلما التقيت صديقاً أطرح على نفسي هذا السؤال: هل يكون مؤهلاً للهروب، أو هل هو على مستوى تقديم العون لآخر في تحضير هروبه؟

لم أرَ إلا هذا: الهروب وحدي أو مصحوباً والمهم الفرار. هذه هي الفكرة الثابتة التي لا أحدث عنها أحداً كما أوصاني جان كوستيلي، ولكنها تضيق على الخصار. ولسوف أحقق هدفي الأسمى وهو الهروب.

جزر سالو
طوف في قبر

في خمسة أشهر، تعرفت على أصغر زوايا الجزر، وقناعتي الآن هي أن الحديقة المجاورة للمقبرة حيث كان يشتغل صديقي كاربونييري ــ وهوالآن ليس فيها ــ هي أنسب وأمن مكان لصنع الطوف. لذا طلبت من كاربونييري أن يعود إلى الحديقة ولكن بدون معاون. وبمساعدة من ديغا أعيد إلى الحديقة.

لدى مروري هذا الصباح أمام منزل المقدم الجديد، كان سفود[1] السمك معلقاً بخيط معدني. وسمعت السجين الشاب خادم الأسرة يقول للمرأة الشابة هو ذا أيتها المقدمة، هو الذي كان يأتي بالسمك كل يوم لمدام بارو. وسمعت الشابة السمراء الجميلة، وهي من النوع الجزائري، الرونزية البشرة، تقول له: إذن هذا بابيون؟ وتوجهت نحوي وقالت: لقد أكلت ما قدمته مدام بارو من سراطين البحر اللذيذة، والتي كانت من صيدك. ادخل الدار واشرب قدحاً من النبيذ وكل قطعة من جبن الماعز الذي وصلني من فرنسا.

ــ لا. شكراً لك يا مدام.

ــ لماذا؟ كنت تدخل على مدام بارو، ولا تدخل عليّ؟

ــ ذلك أن زوجها سمح لي بذلك.

ــ يا بابي زوجي يأمر في المعسكر، وأنا صاحبة الأمر في البيت. ادخل ولا تخف.

فشعرت بأن هذه الجميلة السمراء ذات عزم وحزم وربما كانت نافعة أو خطرة. فدخلت. قدمت لي على المائدة في غرفة الطعام، طبقاً من اللحم المدخن، وجبناً.

(١) القضيب معدني يشك فيه اللحم (سيخ).

وجلست تجاهي بدون كلفة، وصبت لي الخمر ثم القهوة، والروم اللذيذ من جامايكا، ثم قالت لي:

ـ بابيون! أتيح للسيدة بارو الوقت لكي تحدثني عنك، رغم انشغالها بتحضير أمتعة السفر والتحضير لقدومنا. وعلمت أنها المرأة الوحيدة التي تحصل منك على سمك، وأرجو أن تكرمني كما كرمتها

ـ فعلت هذا لأنها كانت مريضة، وأنت كما أرى في عافية تامة.

ـ أنا لا أكذبك. أجل صحتي جيدة ولكنني من مرفأ بحري وأحب السمك حباً جماً، والذي يضايقني أيضاً أنني علمت أنك لا تبيع السمك، وهذا ما يحصر الصدر.

والخلاصة، اتفقنا على أن أحضر لها سمكاً.

كنت منصرفاً إلى التدخين بعد أن أهديتها ثلاثة كيلو غرامات من السمك ومئة من السراطين البحرية، حين حضر المقدم، فلما رآني قال:

ـ لقد أفهمتك يا جوليت أنه فيما عدا الخادم لا ينبغي لأحد من السجناء أن يدخل هذا البيت.

فنهضت، فقالت: ابق جالساً ـ إن هذا السجين هو الذي أوصتني به مدام بارو قبل ذهابها إذن ليس لك أن تقول شيئاً ولن يدخلن البيت رجل سواه، ومن ناحية أخرى فإنه يحضر لي السمك كلما احتجت إليه.

ـ لا بأس. ما اسمك؟

نهضت لأجيب، فوضعت جوليت يدها على كتفي، وأجبرتني على القعود ثانية وقالت:

ـ هنا بيتي، والمقدم لم يبق المقدم، بل زوجي برديه.

ـ شكراً لك يا مدام. اسمي بابيون.

ـ ها. قد سمعت عنك وعن هروبك منذ ثلاث سنوات من مستشفى سان لوران

ـ ماروني. هذا وإن أحد المراقبين الذي ضربته على رأسه ليس سوى ابن أخي وابن أخت هذه التي تحميك. وهنا ضحكت جوليت ضحكة كتغريد الطير وقالت:

ـ إذن أنت الذي نعجت غاستون؟ إن هذا لن يبدل شيئاً من علاقتنا.

فقال لي وهو لا يزال واقفاً: إن عدد جرائم القتل والاغتيال التي ترتكب في الجزيرة كل سنة، لا يصدق. فهي أكثر مما يحصل على الأرض الكبرى. كيف تفسر ذلك يا بابيون؟

ـ أيها المقدم! بما أن الرجال هنا لا يستطيعون الهروب فقد غدوا شرسين يعيش بعضهم مع بعض سنوات طوالاً، ومن الطبيعي أن تتولد أحقاد أو تنعقد صداقات لا تنفصم عراها، ومن جانب آخر فإن نسبة ضئيلة من القتلة، تقل عن خمسة بالمئة، ينكشف أمرها، مما يجعل القاتل واثقاً من الإفلات من العقوبة.

ـ تعليلك منطقي. منذ متى وأنت تمارس الصيد؟ وما العمل الذي تقوم حتى تحصل على حق الصيد؟

ـ أنني نزّاح. أنهي عملي في السادسة صباحاً فيتسع لدي الوقت للصيد.

قالت جوليت: وبقية النهار؟

ـ أنا ملزم بالرجوع إلى المعسكر في الثانية عشرة ظهراً، وأستطيع الخروج ثانية في الساعة الثالثة وإلى السادسة. ومن المزعج أن لا أستطيع الصيد أحياناً في ساعات المد والجزر.

قالت جوليت: سوف تعطيه إذناً خاصاً، أليس كذلك يا محبوبي؟ من الساعة السادسة صباحاً وحتى السادسة مساء وهكذا يستطيع الصيد متى شاء.

ـ موافق.

غادرت المنزل مغتبطاً بهذا التصرف، لأن هذه الساعات الثلاث ثمينة، فهي وقت القيلولة، ومعظم المراقبين ينامون في تلك الفترة، ومن هنا تكون المراقبة متراخية.

احتكرتني جوليت أنا والصيد احتكاراً فعلياً إلى حد أنها كانت ترسل لي خادمها يبحث عني في الصيد ليحمل لي صيدي وغالباً ما كان يقول لي: القدمة أرسلتني لأحضر كل ما وقع لك من الصيد إذ عندها ضيوف وتود أن تصنع لهم كذا وكذا. وباختصار إنها تتصرف بكل ما اصطاد، بل كانت تطلب أنواعاً معينة من السمك أو تطلب مني الغطس لالتقاط السراطين البحرية. وهذا يزعجني جداً لأن ذلك يؤثر في طعام جمعيتي، ولكنه من جهة أخرى يحسن لي حالة، وأجد عندها أحياناً بعض الالتفات.

ـ هل المد والجزر في الساعة الواحدة؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ تعال لتتغدى عندنا، وهكذا لن تكون مضطراً إلى العودة إلى المعسكر.

وأتغدى عندها لا في المطبخ بل على المائدة دوماً في غرفة الطعام، وتجلس تجاهي، وتخدمني بنفسها وتصب لي الشراب. وهي ليست كتومة رصينة مثل مدام بارو فغالباً ما تسائلني في شيء من المداراة عن ماضي حياتي وأتحاشى دوماً الموضوع الذي يثير اهتمامها أكثر وهو حياتي في مونتمارتر، لأروي لها عن شبابي وطفولتي، وفي هذه الأثناء يكون المقدم نائماً في غرفته.

في صباح أحد الأيام، وبعد صيد سمين في ساعة مبكرة، إذ قبضت على ستين سرطاناً، مررت بها في الساعة العاشرة، فألفيتها جالسة بقميص نومها الأبيض وخلفها امرأة شابة تصفف لها شعرها، فسلمت وقدمت لها اثني عشر سرطاناً.

ـ لا أعطيها كلها، كم واحداً معك؟

ـ ستون.

ـ بالتمام. دعها أرجوك. كم يلزمك وأصدقاؤك من السمك؟

ـ ثمان.

ـ خذها واعط الخادم الباقي ليبرقه.

فوقعت في حيرة من أمري ولم يسبق لها أن خاطبتني بصيغة المفرد. وخاصة أمام امرأة لن تتردد بالتأكيد في إشاعة ذلك. وكنت متضايقاً إلى أبعد الحدود عندما قالت: اهدأ واجلس وتناول شراباً قربنا كنت حران.

إن هذه المتسلطة حيرتني طيلة فترة قعودي. تذوقت الخمرة ببطء وأنا الأخرس. وكنت أنظر إلى المرأة الشابة التي تمشط شعر القدمة، والتي كانت تنظر إلي من وقت إلى آخر من طرف خفي، وقد لاحظتها عيون القدمة وهي تحمل بيدها المرآة. فقالت لها: إن عشيقي خجل، هيه سيمون. إنكن جميعاً غيورات أليس كذلك يا سيمون؟ ثم أخذتا في الضحك، فلم أدر كيف أستقر في مكاني من شدة الخجل. فقلت في غباوة: إن عشيقك كما تقولين ليس محظوظاً لحسن الحظ، وهو في وضعه الراهن لا يمكن أن يكون عشيقاً لأحد.

قالت الجزائرية: لن تقول لي إنك لست عشيقي. لم يستطع أحد أن يستأنس أحداً مثلك. وأنا أفعل بك ما أشاء. لا بد أن هناك سبباً ألست معي يا سيمون؟

قالت سيمون: لا أعلم السبب ولكن الثابت أنك يا بابيون متوحش مع الجميع إلا مع القدمة. ففي نهاية الأسبوع الماضي كنت تحمل خمسة عشرة كيلو غراماً من السمك كما حكت لي زوجة رئيس المراقبين ولم تقبل أن تبيعها سمكتين تسيتين كانت تشتهيهما. ولم يكن في الملحمة قطعة من لحم.

ـ هل هذه هي الأخيرة التي أخبرتني عنها يا سيمون؟

ـ ألا تعلمين ماذا قال للسيدة (كاركيرة) ذات يوم؟ لقد رأته ماراً ومعه السراطين البحرية وسمكة ضخمة قالت: بعني هذه السمكة أو نصفها بابيون. أنت تعلم كنا نحن البروتونيين نعرف كيف نعدها جيداً فقال: أليس غير البروتونيين يقدرونها يا مدام؟ هناك أناس كثيرون منذ عهد الرومان بما فيهم الأردينيون يقدرونها ويعدونها طعاماً فاخراً، وتابع سيره دون أن يبيعها شيئاً.

واغرقنا في الضحك. فرجعت إلى المعسكر مهتاجاً ورويت لرفاقي في الجمعية القصة كاملة. قال كاربونيري: الأمر جدي، إن هذه المشهترة تعرضك للخطر. أقلل من الذهاب إلى هناك قدر المستطاع وعندما يكون القدم في بيته. فأجمع الرفاق على هذا الرأي، وأزمعت على الأخذ به. اكتشفت نجاراً من فالانسيا وهي تقريباً بلدي. قتل حارساً للمياه والغابات. إنه مقامر عنيد لذا فهو دوماً مدين. ففي النهار يضني نفسه في صناعة أشغال فنية وفي الليل يخسر كل ما جناه. وغالباً ما يصنع هذه القطعة أو تلك ليسدد للدائن دينه. وبهذا يستغلونه، فيعطونه مئة وخمسين أو مئتي فرنك في صندوق خشبي وردي يساوي ثلاث مئة فرنك. فقررت أن أحاوره ثانياً.

قلت له في أحد الأيام عند المغسل: أريد أن أحدثك هذه الليلة وسأنتظرك أمام

المراحيض وأشير إليك. وفي الليل التقينا وحدنا لنتحدث في روية فقلت:

ـ بورسيه! نحن من بلد واحد هل تعلم؟

ـ لا. وكيف.

ـ ألست من فالانس؟

ـ بلى.

ـ وأنا من أرديش فكأننا من بلد واحد.

ـ وماذا يعني؟ وماذا يقدم أو يؤخر؟

ـ هذا يعني أنني لا أريد لك أن تستغل عندما تكون مديناً ولا أريد أن يدفعوا لك نصف ثمن الأشياء التي تصنعها. احضرها لي، وأنا أدفع لك ما تستحق من ثمن. هذا كل شيء.

ـ شكراً لك.

ولم أدخر وسعاً في مساعدته وهو لا يكف عن مجادلة دائنيه. سارت الأمور حسنة حتى جاء يوم كان فيه مديناً لفيسولي، لص كورسيكي، وهو أحد أصدقائي المخلصين علمت من بورسيه أن فيسولي يهدده إذا لم يدفع وقدره سبع مئة فرنك، وأنه يصنع مكتباً صغيراً على وشك الانتهاء، ولا يستطيع أن يحدد وقت انتهائه، لأنه يصنعه في الخفاء. وفي الحقيقة لا يسمح بحمل قطعة أثاث نظراً لمقدار الخشب اللازم لذلك. فأجبته بأنني سأنظر فيما يمكنني عمله من أجله وبالاتفاق مع فيسولي ألفت فصلاً هزلياً. فهو يمارس ضغطاً على بورسيه ويهدده وأتدخل أنا بصفة منقذ. وهذا ما حصل منذ بداية الإجراء والتزعم أنني رتبته، وبورسيه لا يرى إلا ما أراه، ويمنحني ثقة مطلقة. ولأول مرة في حياته في السجن استطاع أن يتنفس مستريحاً. وقررت الآن البدء بالمغامرة. قلت له في إحدى الأمسيات:

ـ لك عندي ألفا فرنك إذا فعلت ما أطلبه منك: وهو أن تصنع لي طوفاً يتسع لشخصين، مصنوعاً من قطع منفصلة.

ـ اسمع يا بابيون. لا أفعل هذا لغيرك أما أنت، فأنا مستعد للمخاطرة بسنتين في السجن الانفرادي إذا وقعت في الفخ. ولكن هناك أمراً وهو أنني لا أستطيع إخراج قطع الخشب الكثيرة من المصنع.

ـ عندي من يقوم بهذا

ـ من هو؟

ـ رجلا العربة: ناريك وكنية. كيف يكون العمل؟

ـ يجب أولاً وضع التصميم مع المقاييس، ثم تصنع القطعة بعد الأخرى، وهي ذات فروض لكي يتداخل بعضها في بعض بشكل محكم. والمشكلة الأخرى هي إيجاد الخشب الذي يعوم جيداً، لأن الخشب الموجود في الجزر من النوع الصلب ولا يعوم.

ـ متى يأتيني ردك؟

ــ خلال ثلاثة أيام.

ــ هل ترغب في الهروب معي؟

ــ لا.

ــ لماذا؟

ــ أخاف سمك القرش وأخشى الغرق.

ــ هل تعدني بمساعدتي بإخلاص؟

ــ أقسم على ذلك بأولادي. إنما الأمر يحتاج إلى وقت طويل.

ــ اسمعني جيداً. منذ الآن أعد لك حماية في حال وقوع حادث. سوف أنسخ مخطط الطوف بنفسي على ورقة وسوف أكتب لك تحته: «يا بورسيه إذا كنت تريد أن لا تقتل اصنع لي الطوف المرسوم أعلاه» وبعد ذلك سوف أصدر لك أوامر مكتوبة من أجل تنفيذ كل قطعة. وكلما انتهيت من قطعة وضعتها في مكان أدلك عليه. وسوف أرفع فلا تبحث عمن رفعها ولا متى رفعها. (فارتاح لهذه الفكرة).

وبهذه الطريقة أجنبك التعذيب في حال افتضاح الأمر. ولن تكلفك المغامرة أكثر من ستة أشهر.

ــ وإذا أنت وقعت في الشرك؟

ــ حينئذ سيكون العكس، فأنا أعترف بكتابة ما أرسلته إليك وطبيعي أنك ستبقى محتفظاً بهذه الأوامر. هل تعدني؟

ــ أجل.

ــ ألست خائفاً؟

ــ لا أشعر بأي جزع. وهذا ما يجعلني أقبل على مساعدتك مسروراً.

لم أفاتح أحداً في الموضوع حتى الآن.

أنا بانتظار جواب بورسيه وبعد أسبوع طويل، طال حتى حسبته لن ينقضي، استطعت أن أحدثه منفرداً في المكتبة ولم يكن فيها أحد سوانا. وكان ذلك صباح يوم الأحد. وكان اللعب في الباحة على أشده. وقد تحلق ثمانون لاعباً ومثلهم من المتفرجين. وفجأة أثار فكري إذ قال: أصعب شيء هو الفوز بخشب خفيف وجاف وبكمية كافية. وقد عالجت هذا وأنا أتخيل نوعاً من الحصان الخشبي المحشو بجوز الهند الجاف بقشرته الليفية طبعاً. وليس أخف من هذه الألياف التي لا تمتص الماء وعندما يكون الطوف جاهزاً عليك أنت إعداد ما يكفي من جوز الهند لتضعه في داخله. وغداً سأصنع القطعة الأولى، ويستغرق هذا ثلاثة أيام تقريباً وابتداء من يوم الخميس بوسع أحد العديلين أن يحملها لدى أول عاصفة قصيرة. ولا أبداً بصنع واحدة أخرى قبل أن تكون الأولى قد أخرجت من المصنع. إليك المخطط، انسخه واكتب تحته الرسالة التي وعدت بها. هل كلمت أحداً من العديلين؟

ــ لا. كنت بانتظار جوابك.

ــ ها قد أجبتك بنعم.

ــ شكراً بورسيه. لا أدري كيف أشكر لك. إليك خمس مئة فرنك.

وحينئذ نظر إلي في وجهي وقال:

ــ كلا. احتفظ بمالك فإذا وصلت إلى الأرض الكبرى فسوف تحتاج إليها في هروبك التالي. وبدءاً من هذا اليوم لن أتعاطى الميسر إلى أن ترحل، وسوف أكسب بعض الأشغال ما يكفيني لشراء السجائر والفتيك.

ــ لم ترفض؟

ــ لأنني لا أفعل هذا، ولو بعشرة آلاف فرنك، وأنا المخاطر رغم الاحتياطات المتخذة. ولكنني أفعل هذا بغير مقابل. لقد ساعدتني، وأنت الوحيد الذي مد لي يده، وإنني لسعيد بمساعدتك على نيل حريتك، رغم خوفي.

شعرت وأنا أنقل المخطط على ورقة، بالخجل أمام هذا النبل العفوي. لأنه لم يخطر بباله أن سلوكي نحوه كان محسوباً ومدروساً. وكنت مضطراً أن أقول لنفسي لأرفع من شأنها في نظري: علي أن أهرب بأي ثمن إذا اقتضى الأمر، ولو في المواقف الصعبة التي لا تكون دوماً مستحبة.

تحدثت ليلاً مع شريك اللقب بيون بوي. وهو بدوره سيحيط عديله علماً. فقال لي بدون تردد اتكل علي في اخراج القطع من المشغل. ولا تستعجل الأمور إذ لا يمكن إخراجها إلا مع مواد كبيرة مهمة في عملية البناء في الجزيرة. وأعدك بأن لا أدع فرصة تفوت.

حسناً. بقي أن أتحدث مع ماتيو كاربونيري لأنه رفيق الدرب في الهروب وكنا على وفاق تام.

ــ ماتيو لقد وجدت من يصنع لي الطوف، وعثرت على الذي ينقل لي الألواح الخشبية من المشغل وعليك أن تجد في بستانك مكاناً نطمر فيه الطوف.

ــ لا. إن في هذا خطراً. فالحراس يأتون ليلاً ليسرقوا الخضار، فإذا ما مشوا فوقه ووجدوا تحته محفوراً دعينا في داهية. أريد أن أنقب مخبأ في جدار. فأقتلع حجرة كبيرة محدثاً نوعاً من المغائر وهكذا عندما يأتيني لوح خشبي فلا أفعل أكثر من رفع الحجر.

ــ هل تحضر الخشب مباشرة إلى بستانك؟

ــ لا. وفي هذا أيضاً خطر. فليس للعديلين أن يقربا بستاني. والأفضل أن نتفق على أن يضعا الخشب في كل مرة في مكان غير المكان الأول وغير بعيد عن الحديقة.

ــ اتفقنا.

يبدو أن الأمور تسير في مجراها الطبيعي. وبقي جوز الهند. سأرى كيف أحضر كمية كافية دون لفت الأنظار. حينئذ شعرت بالانتعاش، وكأنني عشت من جديد.

وبقي كذلك أن أفاتح كلاكالي وفرانشه. ولا يحق لي أن أسكت إذ يمكن أن توجه إليهما تهمة الاشتراك، ومن المنطقي أن أنفصل عنهما بصورة رسمية لأعيش وحدي. فعندما صرحت لهما بأني أعد العدة للهروب، وأن من الواجب أن أنفصل عنهما، فرفضا الانفصال عني بتأكيد مطلق وقالا: اذهب بأسرع وقت ممكن. نحن سنرتب الأمور لنبقى معنا حتى ذلك الحين.

مضى شهر وخطة الهروب على دربها المرسوم لها. تسلمت حتى الآن سبعة ألواح خشبية اثنان منها كبيران. ذهبت لأرى جدار الدعم حيث نقب ماتيو المخبأ، ولا يظهر على الحجر أنه تزحزح من مكانه لأنه العشب حول الأثنة يخطي. فرأيت المخبأ في غاية الاتقان ولكن الفجوة تبدو أصغر من أن تضم كل الخشب. وفي اللحظة الراهنة لا يزال فيها متسع. إن حدث تحضير الهروب أعطاني دفعاً معنوياً قوياً. فصرت آكل ما لم آكله من قبل، والصيد يمنحني بوضع جسدي جيد. وفضلاً عن ذلك إنني أقوم بالتمرينات الرياضية مدة ساعتين يومياً ، وأمرن ساقي بوجه خاص لأن الصيد يمرن ذراعي، وقد وجدت طريقة من أجل ساقي: كنت أتقدم في الماء والأمواج تلطمها، ولكي أحفظ توازني كنت أشد عضلاتي، وكانت النتيجة رائعة.

جوليت زوجة المقدم، لا تزال تتردد. ولكنها لاحظت أنني لا أدخل دارها إلا بحضور زوجها، ولكي ترضي من غلتي، قالت إنها كانت تفرح يوم أن كانت عندها الماشطة وهذه الأخيرة كانت تترصدني على طريق عودتي من الصيد، لتسمعني كلمات رقيقة مستفسرة عن حالي وعن صحتي. إذن كل شيء يسير نحو الأفضل. وما كان بورسيه يضيع فرصة في صنع قطعة والآن مضى على بداية الإعداد شهران ونصف، والمخبأ قد امتلأ كما توقعت. ولا ينقصنا سوى لوحين خشبيين، أحدهما بطول مترين والآخر بطول متر ونصف ولا يمكن إدخالها في المخبأ. وبينما كنت أسرح بصري في المقبرة وقعت عيني على قبر حديث لامرأة مراقب ماتت في الأسبوع المنصرم، وعليه طاقة من الورد يابسة، ذوت أزهارها. كان حارس المقبرة: وهو سجين عجوز نصف أعمى يطلق عليه اسم بابا، يقضي نهاره في ظل شجرة جوز في الزاوية المقابلة للمقبرة ومن موضعه هذا لا يستطيع أن يشاهد القبر ولا أي انسان يدنو منه. تصورت أن استخدم هذا القبر في تركيب الطوف ووضع أكبر عدد ممكن من جوز الهند في ذلك التجويف الذي صنعه النجار لهذا الغرض، وهو يتسع لثلاثين واحدة أو تزيد.

وأكبر مجموعة منها موجودة في حديقة جوليت وقطعها اثنتا عشرة جوزة، وخادمها يحسب أنني أجمعها هناك بانتظار يوم أعصر منها زيتاً.

وعندما بلغني أن زوج المتوفاة قد ذهب إلى الأرض الكبرى اتخذت قراراً بتعريغ التراب من القبر حتى النعش. فعد ماتيو كاريو ليري على الجدار يقوم بعملية الرصد وقد

وضع فوق رأسه منديلاً أبيض معقوداً من أطرافه الأربعة. وبجانبه منديل آخر أحمر اللون. ويحتفظ بالأبيض على رأسه ما دمنا آمنين. فإذا ما بدا له شخص أيا كان وضع على رأسه المنديل الأحمر ولم يستغرق هذا العمل الخطر سوى ما بعد الظهر والليل. ولم يقتصر عملي على رفع التراب بل كنت مضطراً إلى تعريض الحفرة بعرض الطوف أي مئة وعشرين سنتمتراً وزدتها قليلاً للمرونة.

كانت الساعات تمضي بطيئة. وظهر لي المنديل الأحمر مراراً، وأخيراً فرغت من العمل هذا الصباح. سترت هذه الحفرة بورق جوز الهند المجدول. فتشكل غطاء فيه بعض المتانة، وفوق التراب حاشية صغيرة ولا يكاد يظهر أثر لشيء وعند ذلك بلغت من التعب أشده.

منذ ثلاثة أشهر وأنا أعد العدة للهروب. أخرجنا الأخشاب من مخبئها محزومة ومرقمة ووضعناها فوق نعش المرأة الطيبة وأهيل التراب الذي غطى الحصائر، ووضعنا في فجوة الجدار ثلاثة أكياس طحين وحبلاً بطول مترين من أجل صنع شراع وقارورة ملأى بأعواد الثقاب، وعكاً واثنتي عشرة علبة حليب. هذا كل شيء.

بورسيه يزداد اهتياجاً حتى لكأنه هو الهارب مكاني. ويندم تاريك على عدم موافقته في البداية. ولولا رفضه لصنعنا طوفاً يتسع لثلاثة أشخاص بدلاً من اثنين.

هذا فصل الأمطار. فالمطر يهطل كل يوم وهذا ما يبيح لي التردد على كهفي الصغير حيث أوشكت أن انتهي من تركيب الطوف، ولا ينقصني سوى حاشيتين وحامل الهيكل (شاسي)، وقربت جوز الهند من بستان صديقي، وتناولتها بسهولة ودون خوف من خطيرة الجواسيس المقترحة. ولم يسألني رفاقي إلى أين وصلت. وإنما يكتفون من حين لآخر بالقول: هل تسير الأمور على ما يرام؟ فأجيب: نعم كل شيء بخير.

– ألا ترى أن الوقت قد طال؟

– لا يمكن أن تمضي في سرعة دون تعرض للخطر.

ربما أنني أودعت قسماً من جوز الهند عند جوليت فقد رأته وأرهبتني حين قالت:

– قل لي يا بابيون! هل صنعت زيتاً من جوز الهند؟ لم لا تصنعه هنا في فناء الدار، فلديك كمية يطول قطعها وعندي قدر كبيرة لتضع فيها اللب.

أفضل صنعها في المعسكر.

– غريب. إن هذا العمل في المعسكر ليس هيناً.

وبعد لحظة من التفكير قالت:

– هل أقول لك؟ أعتقد أنك لن تصنع أنت الزيت من جوز الهند.

فتجمدت مكاني، وتابعت تقول:

– لماذا تصنع زيتاً، وزيت الزيتون مبذول لك متى رغبت؟ هذا الجوز لأمر آخر

أليس كذلك؟

فتصلبت عرقاً (وخاصة أن لسانها قد زل بكلمة هروب فيا مضى) فبهرت أنفاسي فقلت:

ـ مادام هذا سر. ولكني أراك متلهفة لمعرفته، حتى ضيعت حلاوة المفاجأة التي كنت أعدها لك، ولا يسعني إلا أن أقول لك: هذه الجوزات الكبيرة التي تحزنها لأصنع منها شيئاً جميلاً بعد تفريغها، كنت أود أن أقدمه لك. هذه هي الحقيقة.

لقد انتصرت إذ أجابت:

ـ بابيون لا ترهق نفسك من أجلي ولا أريد بصورة خاصة أن تنفق شيئاً من المال لتفعل شيئاً استثنائياً. أشكرك من صميم قلبي. لا تفعل شيئاً. هذا ما أطلبه منك.

ـ حسناً سنرى.

أف. وعلى الفور طلبت منها أن تقدم لي كأساً من الشراب وهذا ما لم أفعله قط، ولم تلاحظ ارتباكي لحسن الحظ. إن الله معي.

الجو ماطر كل يوم، وبخاصة بعد الظهر وفي الليل. وكنت أخشى أن يترشح الماء من طبقة التراب الرقيقة فيكشف حصائر جوز الهند، لذا فإن ماتيو يهيل عليها التراب باستمرار. الطبقة العليا كادت تغرق، وبالتعاون معه سحبت الحصيرة والماء يكاد يغمر النعش. ووصلنا إلى مرحلة الحرج. وعلى مسافة غير بعيدة حفرة لطفلين ماتا من زمن بعيد. وفي أحد الأيام اقتلعنا البلاطة ودخلت ومعي قضيب معدني قصير فكسرت الاسمنت من أسفل وما كان القضيب يخترق الأرض حتى انهمر سيل من الماء من القبر المجاور إلى الحفرة، فخرجت منها لما غاصت ركبتاي في الماء. فأرجعنا البلاطة إلى مكانها والصقناها بملاط خاص كان ناريك قد أعطاني إياه. وبهذه العملية نقص الماء في القبر الخبأ إلى النصف. وفي المساء قال لي كاربو نيري:

ـ ألن تنتهي أبداً من مضايقات هذا الهروب؟

ـ لقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى يا ماتيو.

ـ تقريباً نرجو ذلك.

نحن حقاً أمر من الجمر. نزلت في الصباح إلى الرصيف، وطلبت من شابار أن يشتري لي كيلوغرامين من السمك وقلت: سآتيك ظهراً لآخذها وانقلنا. ثم صعدت إلى بستان كاربو نيري، وعندما دنوت رأيت ثلاث قبعات بيض. ما معنى وجود ثلاثة مراقبين في البستان؟ هل هم في جولة تفتيشية؟ وهذا شيء غير مألوف، ولم أر قط ثلاثة مراقبين معاً في حديقة كاربو نيري. انتظرت ما يزيد عن ساعة حتى عيل صبري فتقدمت لأرى ما يجري. فسرت على الدرب المؤدي إلى البستان بحزم. ورأني المراقبون مقبلاً، وكنت قلق البال، ولم يعد يفصلني عنهم سوى عشرين متراً، وعندئذ وضع ماتيو المنديل الأبيض على رأسه وتنفست أخيراً. وكانت المسافة كافية لعودتي إلى طبيعتي قبل الوصول إليهم.

ـ صباح الخير أيها السادة المراقبون. صباح الخير ماتيو. جئت أسألك عن ثمار

الهند[1] التي وعدتني بها.

ـ آسف يا بابيون. لقد سرقت هذا الصباح بينما ذهبت لإحضار عصي للفاصولياء المتسلقة، ولكن ستجد بعد بضعة أيام بعضها ناضجاً فهي في بداية اخضرارها.

ـ أيها المراقبون. ألا تريدون شيئاً من الخس والبندورة (الطماطم) والفجل لزوجاتكم؟

قال أحدهم: إن بستانك تبدو عليه العناية أهنئك.

وتقبلوا البندورة والخس والفجل وانصرفوا. ذهبت علانية قبلهم بقليل ومعي خستان. مررت بالمقبرة، وكان القبر نصف مكشوف بفعل المطر الذي جرف التراب، وميزت الحصائر على بعد عشر خطوات. إن الله معنا. لم ينكشف أمرنا. تهب الريح كل ليلة كالشيطان، تكتنف الجزيرة مزمجرة مصحوبة غالباً بالأمطار، والأمل أن يدوم ذلك. إنه طقس ملائم جداً للفرار، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى القبر.

أطول قطعة خشبية والتي يبلغ طولها متران قد وصلت إلى المأوى لتنضم إلى القطع الأخرى. وقد ركبتها من غير جهد في الفرضة المحفورة.

وصل بورسيه إلى المعسكر جرياً ليعلم إذا كنت تسلمت الخشبة باهتمام بالغ وارتباك مضحك. وكم كان سعيداً عندما عرف أن كل شيء انتهى، وكأنه يشك في وصولها فسألته:

ـ هل تساورك الظنون؟ هل تعتقد أن أحداً على علم؟ هل أسررت إلى أحد؟ أجب؟

ـ لا. لا. لا.

ـ ومع ذلك يبدو لي أنك قلق، تكلم.

ـ مجرد إحساس بعدم الارتياح لنظرة فضولية مرتابة ألقاها المدعو بيير سيليه. وكأني به قد رأى ناريك يتناول الخشبة من تحت النضدة ويضعها في برميل الكلس، ثم ينقلها وعيناه تلاحقان ناريك حتى الباب. ذهب العديلان لطلاء أحد الأبنية بالكلس، هذا هو مصدر الغم الذي ترى آثاره في وجهي.

سألت غرانده: بيير سيليه هذا في مهجعنا. وهو إذن ليس ممن يزرعون الأوراق في الـسر؟ فأجاب:

ـ هذا الرجل سرح من وظيفته في الأشغال العامة، وكان في الفرقة الإفريقية. فهو أحد الجنود العتيدين. ذاق جميع أنواع السجون العسكرية في المغرب والجزائر. محارب خطر في استخدام السكين. يمارس الشذوذ الجنسي مع الفتيان في شبق، وهو أيضاً مقامر. ولم يكن البتة مدنياً، والنتيجة أنه لا ينفع في شيء وفي غاية الخطورة. السجن حياته. وإذا كنت في ريب من أمره فأسبقه واقتله هذه الليلة، وهكذا لن يتسع له الوقت للوشاية بك

(١) نوع من البلح.

إذا كان في نيته ذلك.

ـ لا شيء يثبت أنه واش.

كالكاتي: ـ صحيح ولكن لا شيء يثبت أيضاً أنه رجل شهم. وأنت تعلم أن هذا النوع من السجناء، لا يحب الهروب لأن حياته الضيقة الهادئة والمنظمة، ستصاب بالاضطراب. ومن كانوا على شاكلته ليسوا وشاة ولكن بالنسبة إلى الهروب من يدري؟

استشرت ماثيو كاربو نيري فكان من رأيه قتله هذه الليلة وأنه يقوم بذلك بنفسه. ولقد أعطأت في منعه من ذلك. إذ يعز في نفسي قتل إنسان أو السماح بقتله استناداً إلى الأوهام. وإذا كان بورسيه يتخيل ما يرويه؟ فربما جعله الخوف يرى الأمور على غير وجهها الصحيح.

سألت ناريك: هل لاحظت شيئاً من ناحية بيير سيليه؟

ـ لا. خرجت والبرميل على كتفي لئلا يرى حامل المفاتيح على الباب، ما بداخله ووقفت أمامه ـ وفق تدبير مسبق ـ أنتظر عديلي ودون أن أنزل البرميل، وذلك تنبيهاً للعربي بأنني خرجت على غير عجل، لكي أعطيه مزيداً من الثقة، لئلا يفتش ما بداخل البرميل. وقد قال لي عديلي بعد ذلك بأنه يظن بأن بيير يراقبنا باشتباه.

ـ ما رأيك أنت؟

ـ بالنسبة لأهمية هذه القطعة فإنها تبرر لأول وهلة بأنها صنعت للطوف، وكان عديلي مستفزاً وخائفاً، ولكن تصوره أقرب إلى الظن.

ـ وهذا رأيي أيضاً. ولنسكت عن الموضوع. وبشأن القطعة الأخيرة، انظروا أولاً أين موضع بيير سيليه، وخذوا حذركم منه كما لو كان حارساً.

أمضيت الليلة في اللعب لعبة جهنمية على الطريقة المرسيلية، فربحت سبعة آلاف فرنك وكلما لعبت مختاطاً زادت أرباحي.

وفي الساعة الرابعة والنصف خرجت كما يقال لإنجاز سخرتي، وتركت الزنجي يقوم بهذا العمل. توقف المطر، فاتجهت نحو المقبرة، ولا يزال الدجى حالكاً، فسويت الأرض بقدمي، إذ لم أجد مجرفة. وفي الساعة السابعة عندما نزلت للصيد سطعت شمس براقة، فسلكت طريقي نحو رأس رويال الجنوبي، حيث أنوي إنزال الطوف في الماء. البحر هنا عالٍ وشديد. ويخيل إلي ـ ولست أدري ـ أن الانفصال عن الجزيرة، ليس هيناً، فقد أتعرض لأن تطرحني الموجة على الصخر وشرعت في الصيد، وفي الحال وقعت على كثير من السمك المسمى روجيه، وفي فترة وجيزة كان في حوزتي أكثر من خمسة كيلو غرامات. توقفت بعد أن نظفتها بماء البحر. كنت قلقاً جداً ومرهقاً بسبب السهر في الليلة الماضية في اللعبة الحامية. جلست في الظل أستعيد الذكرى قائلاً في سري: إن هذا التوتر الذي عشته منذ ثلاثة أشهر كاد يبلغ نهايته، وحين أفكر في قضية سيليه أصل إلى نتيجة وهي أنني لا أريد قتله.

أنا ذاهب لأرى ماثيو، من جدار بستانه يرى القبر في وضوح. وفي الممر يوجد تراب وسوف يذهب كاربو نيري ظهراً لإزالته.

مررت على جوليت وأعطيتها نصف ما معي من السمك فقالت لي:

ـ بابيون حلمت أحلاماً سيئة بالنسبة لك: رأيتك مضرجاً بالدم ومكبلاً بالأصفاد. لا تقم بحماقات فإنني سأشعر بالأسى لو أصابك شيء. وأنا مضطربة من هذا الحلم إلى درجة لم أستطع معها أن أغسل وجهي وأن أمشط شعري. بحثت عنك على مد البصر لأعرف أين تصطاد لما أبصرتك. فمن أين اصطدت هذا السمك؟

ـ من الطرف الآخر من الجزيرة، هذا لم تريني.

ـ لماذا ذهبت، للصيد بعيداً حيث لا يراك أحد. لو أن موجة جرفتك لن يراك أحد فينقذك من سمك القرش.

ـ لا تبالغي.

ـ هل تظن ذلك؟ إني أمنعك من الصيد خلف الجزيرة، وإذا عصيت أمري فسوف أعمل على سحب رخصة الصيد منك.

ـ كوني عاقلة يا مدام ولكي تكوني راضية، سأخبر خادمك بموضع صيدي.

ـ حسناً. ولكن يبدو عليك الإرهاق.

ـ أجل يا سيدتي فأنا صاعد إلى المعسكر لأنام.

ـ حسناً. وأنا بانتظارك في الساعة الرابعة لتشرب فنجاناً من القهوة، هل تأتي؟

ـ أجل يا مدام، إلى اللقاء القريب.

لم يكن ينقصني سوى حلم جوليت لأهب لنفسي الطمأنينة وكأن ليست لدي معضلات واقعية حتى أضيف إليها الأحلام.

قال بورسيه بأنه شعر حقاً بالمراقبة. انقضى أسبوعان ونحن بانتظار القطعة الأخيرة. ناريك وكينيه قالا بأنهما لم يريا شيئاً غير طبيعي. غير أن بورسيه يصر على عدم صنع القطعة الخشبية، فإذا لم تفتح فيها الفروض وهي تحتاج إلى دقة بالمليمتر، فإن ماثيو مستعد لعمل ذلك في البستان. وفي الواقع إن الضلوع الخمس الأخرى ينبغي أن تولج في هذه الخشبة.

وبما أن ناريك وكينيه يقومان ببعض الإصلاحات في الكنيسة فإن في وسعهما إخراج الأدوات من المصنع ثم إدخالها، في كل يسر. والأحسن من هذا أنهما يستخدمان أحياناً عربة صغيرة يجرها جاموس صغير. ويجب أن نستغل هذا. وأخيراً صنع بورسيه الخشبة مكرهاً بإلحاح منا. وادعى يوماً بأن هناك من يتلمس الخشبة ويعيدها إلى موضعها. بقي حفر فرضة واحدة في طرف الخشبة وتم الاتفاق على أن يحفرها، ويعيدها تحت المنضدة وأن يضع فوقها شعرة، لنتحقق من دعواه بأن أحداً لم يتلمسها ويفحصها.

وصنع الفرضة وخرج في الساعة السادسة آخر العاملين في المشغل، وتأكد من خلو

المكان إلاّ من الحارس. الخشبة في موضعها والشعرة فوقها.

كنت في المعسكر ظهراً منتظراً قدوم العمال من المصنع وعددهم لمالوت. تاريك وكيبه كانا معهم. أما بورسيه فلا. تقدم نحوي رجل ألماني وسلمني بطاقة مغلقة وملصقة ورأيت أنها لم تفتح. وقرأت فيها: إن الشعرة لم تبق في مكانها. إذن فالخشبة قد مست. فالتمست من الحارس أن يدعني أشتغل وقت القيلولة لأنتهي من صندوق صغير. فأذن لي بذلك. سأرفع الخشبة واضعها في مكان أدوات تاريك: أنذرهما ينبغي أن يخرجا في الساعة الثالثة مباشرة، ومعهما الخشبة ويمكننا أن نقبض على الشخص الذي يراقبنا في سرعة.

وافق تاريك وكيبه على الخطة. وسوف يتخذان مكانهما في الصف الأول من العمال، وقبل أن يدخل الجميع يكون هناك رجلان يقتتلان أمام الباب، وقد يطلب إلى رجلين من بلد كاريو نيري أن يفتعلا ذلك، وهما كورسيكيان من مونتمارتر: ماسيلي وسانتيني ولم يسألا عن السبب. وسوف يستغل تاريك وكيبه هذه البلبلة ويخرجان مسرعين مع بعض الأدوات كما لو أنهما يستعجلان الذهاب إلى عملهما وأن ما يجري لا يعنيهما في شيء. وأجمعنا كلنا على أنه بقيت أمامنا فرصة واحدة، إذا نجحت كان علي أن لا أتحرك ساكناً مدة شهرين. لأن من الثابت أن واحداً أو أكثر على علم بتجهيز طوف، وعليهم أن يعرفوا لمن؟ وأين المخبأ؟

الساعة الآن الثانية والنصف والرجال يستعدون. بين التفقد والاصطفاف للذهاب إلى العمل مقدار نصف ساعة، ويبدأ السير. سيليه في وسط الطابور تقريباً وهو يتألف من عشرين صفاً رباعياً تاريك وكيبه في الصف الأول. ماسلي وسانتيني في الصف الثاني عشر وسيليه في العاشر. أتصور أن الوضع على هذا النحو جيد. إذ في اللحظة التي أمسك بها تاريك الأخشاب والقضبان والخشبة، كان الآخرون لم يستكملوا خروجهم بعد. كان يجري تقريباً أمام الباب أو قبله بقليل. وعندما ثارت الضجة، ضجوا كثبات أقوى، بطريقة عفوية، وسير بينهم، فعاد للاستطلاع وفي الساعة الرابعة كان كل شيء قد تم. وقذفت الخشبة تحت كومة من المواد في الكنيسة، ولم يستطيعوا إخراجها ولكنها مستترة هناك.

ذهبت لأرى جوليت، فلم تكن في الدار وفي طريق عودتي مررت بالفناء حيث مبنى الإدارة. كنت واقفاً في الظل عندما رأيت ماسيلي وسانتيني ينتظران الدخول إلى السرداب، وهذا معروف مسبقاً. فمررت قريباً منهما وقلت: كم؟ ـ ثمانية أيام. فقال حارس كورسيكي: إنه لمن المؤسف أن يتخاصم رجلان من بلد واحد. رجعت إلى المعسكر في الساعة السادسة وكان بورسيه عائداً وهو منشرح الصدر فقال:

ـ قيل لي قبلاً إني مصاب بمرض السرطان والآن أعلمني الطبيب بأنه أخطأ إذ لست مصاباً بهذا المرض. احتفل كاريو نيري وصحبي وهنؤوني على تدبير العملية. وكذلك كان العديلان مسرورين. كل شيء يسير وفق هوانا. نمت طوال الليل، وحين جاء اللاعبون في السهرة يدعونني إلى اللعب، اعتذرت مدعياً الشعور بألم في الرأس. وفي

الواقع كنت ميتاً من شدة النعاس. ولكنني مسرور وسعيد لأنني على حافة النجاح. فقد تجاوزت أكبر عقبة في طريقي.

وضع ماتيو صباح هذا اليوم الخشبة في فجوة الجدار بصورة مؤقتة.

كان حارس المقبرة ينظف الممرات من جهة القبر الملجأ. فليس من الحكمة الاقتراب منه في مثل هذا الوقت. كنت أذهب في الأسحار كل يوم، ومعي معول من الخشب لتسوية تراب القبر وأكنس المشى بمكنسة وأعود مسرعاً لعملية التفريغ تاركاً أوعية القاذورات والمكنسة والمعول في ركن.

مضى على تهيئة الهروب أربعة أشهر بالضبط، وعلى حصولنا على الخشبة الأخيرة للطوف تسعة أيام انقطعت الأمطار في النهار وأحياناً في الليل. تدابيري كلها مستوفزة من أجل نقطتين: أولاهما استخراج الخشبة الشهيرة من بستان ماتيو وتركيبها في موضعها من الطوف حيث تنمج الضلوع فيها دمجاً محكماً، ولا يمكن القيام بهذا العمل إلاّ نهاراً. وثانيتهما الفرار، ولا يمكن أن يكون فورياً لأنه ينبغي أن نضع في الطوف جوز الهند والمواد الغذائية.

رويت بالأمس على مسمع جان كاستيلي كل شيء إلى حيث وصلت في تنفيذ المخطط. لقد أسعده أنني كنت الأمس هناك وقال لي: إن القمر في ربعه الأول.

ـ أعلم هذا، ولن يضايقني حد منتصف الليل، ويكون المد في الساعة العاشرة. وخير توقيت للنزول في الماء سيكون في الساعة الثانية صباحاً.

قررنا أنا وكاريو نيري استعجال الأحداث.

غداً صباحاً في الساعة التاسعة، موعد وضع الخشبة في موضعها والهروب ليلاً.

وفي الغداة نسقنا أعمالنا، ومررت من حديقة المقبرة وقفزت عن الجدار بمعول، وبينما كنت أرفع التراب عن الحصائر كان ماتيو يرفع الحجر ليأتي بالخشبة. رفعنا الحصائر معاً ووضعناها جانباً وظهر الطوف في مكانه في حالة جيدة سوى بعض الوحل اللازب، فاستخرجناه لأننا بحاجة إلى مسافة أوسع بجانبه لوضع الخشبة الجديدة، وللقيام بعملية الدمج اضطررنا إلى الطرق بحجر. وفي اللحظة التي انتهينا فيها منه وكنا في صدد إزالته إلى مكانه، فاجأنا مراقب وبيده بندقية قصيرة وقال: لا تتحركا وإلا قتلتنا!

ألقينا بالطوف ورفعنا أيدينا إلى الأعلى. هذا الحارس كنت أعرفه. إنه رئيس المراقبين في المصنع.

ـ لقد وقعتما، فلا تركبا حماقة بمحاولة المقاومة. ارضخا وانجوا بحياتكما التي تتعلق بخيط رفيع في رشكما بهذه البندقية. هيا امشيا في الطريق وأيديكما مرفوعة في الهواء. امشيا إلى مكتب المقدم. وأثناء مرورنا بباب المقبرة التقينا بحامل المفاتيح العربي، فقال له المراقب:

ـ شكراً لك يا محمد على هذه الخدمة التي أديتها لي. مر علي غداً صباحاً لأعطيك ما وعدتك به.

قال العنز: شكراً لك، سآتي ولا ريب. ولكن يا سيدي يجب على بيير سيليه أن يدفع لي أليس كذلك؟

ـ سوِّ أمرك معه.

حينئذ قلت: أهو بيير سيليه الذي أوقع بنا يا رقيب.

ـ لست أنا الذي قلت هذا.

ـ سيان. المهم أن أعرف.

كنا كلانا في رهبة من البندقية. قال المراقب: محمد! فتشهما.

فأخرج العربي مفتيق ومدية ماتيو، فقلت له:

ـ أنت خبيث يا محمد. كيف كشفت أمرنا؟

ـ كنت أتسلق إلى أعلى شجرة جوز عند كل يوم لأرى أين أخفيتم الطوف.

ـ من طلب منك أن تفعل هذا؟

ـ بيير سيليه أولاً، ثم المراقب بروبه.

وفي الطريق قال الحارس:

لقد تكلمتما ما فيه الكفاية. اخفضا يديكما وامشيا بخطوة أوسع.

إن المسافة التي تفصلنا عن المقدم، وهي لا تزيد على أربع مئة متر، وجدتها أطول طريق في حياتي وكنت مشرفاً على التلف. أبعد هذا الكفاح الطويل نقع لقمة سائغة كالأغبياء. رباه ما أقساك. وصولنا إلى مقر القيادة كان فضيحة جميلة إذ كلما تقدمنا انضم إلى خفيرنا الذي يسدد إلينا بندقيته خفراء آخرون، ولدى وصولنا بلغ عددهم خلفنا ثمانية. وجرى العربي قبلنا ليعلم المقدم، وكذلك ديغا، وخمسة رؤساء مراقبين، كانوا على عتبة مقر الإدارة.

قال المقدم: ماذا جرى يا سيد بروبه؟

ـ لقد أمسكت بهذين الرجلين وهما يخفيان طوفاً وأظنه جاهزاً

ـ ماذا تقول يا بابيون؟

ـ سأتكلم أثناء التحقيق.

ـ ضعوهما في السرداب.

وضعت في سرداب تطل نافذته المسدودة على مدخل مقر القيادة. وكان السرداب مظلماً، ولكنني أسمع ما يقوله الناس في الطريق.

تمضي الأحداث حثيثاً. أخرجونا في الساعة الثالثة وكبلونا بالحديد.

أقيم في القاعة ما يشبه المحكمة. المقدم ومعاونه ورئيس الخفراء، وحضر أحد مكان كاتب المحكمة، وجلس ديغا منفرداً أمام منضدة صغيرة ليأخذ أقوالنا بالتأكيد بصدد السرقة.

ـ شاريير! كاربونيري! استمعا إلى التقرير الذي قدمه ضدكما السيد بروبه:

أنا بروبه أوغست، الرقيب المراقب مدير المصنع في جزر سالو اتهم بالسرقة واختلاس مواد عائدة للدولة كلاً من السجينين شاريير، وكاربونيري، وأتهم النجار بورسيه بالتواطؤ. واعتقد أنني أستطيع أن أحمّل ناريك وكينيه مسؤولية الاشتراك بالذنب. وأضيف أنني قبضت على شاريير وكاربو نيري متلبسين بالجرم المشهود بانتهاك حرمة قبر السيدة بريغات وقد اتخذا هذا القبر مخبأ لإخفاء الطوف.

قال المقدم: ماذا تقول؟

أولاً: كاربو نيري ليست له علاقة بالقضية لأن الطوف كان معداً لشخص واحد، إنما أجبرته فقط على مساعدتي في رفع الحصائر عن القبر وهي عملية لا أستطيع القيام بها وحدي. إذن كاربو نيري ليس مذنباً في اختلاس أو سرقة مواد عائدة للدولة، ولا في التواطؤ للهروب ما دام الهروب لم يتم. أما بورسيه فهو شيطان مسكين لأنه تصرف تحت تهديد بالموت، وبالنسبة إلى ناريك وكينيه فهما رجلان لا أكاد أعرفهما وأصر على أنهما لم يكونا في العير ولا النفير.

قال الخفير: ليس هذا ما أخبر به المخبر.

ـ إن بيير سيليه هذا، والذي أخبرك يستطيع أن يستغل جيداً هذه القضية لينتقم من أحدهم، معرضاً إياه للخطر ظلماً. من يستطيع الوثوق بجاسوس واش؟

ـ باختصار. أنت متهم رسمياً بالسرقة واختلاس مواد عائدة للدولة، وانتهاك حرمة قبر، ومحاولة الفرار. تفضل بتوقيع الصك.

ـ لا أوقع ما لم تسجل أقوالي بحق كاربو نيري وبورسيه والعديلين ناريك وكينيه.

ـ أقبل. اكتب الوثيقة.

ثم وقعت. لا أستطيع تفسير ما يعتمل في نفسي بوضوح، منذ هذا الإخفاق في اللحظة الأخيرة كنت في السرداب كالمجنون، لا آكل إلا قليلاً، ولا أمشي، بل أدخن بإفراط. اللفافة تلو الأخرى، ولحسن الحظ عندي مؤونة من التبغ والفضل في ذلك يعود إلى ديغا. كنا نقوم كل يوم بنزهة مدة ساعة في الشمس في فناء الزنزانات التأديبية.

جاء المقدم هذا الصباح، ليتحدث معي. إنه لأمر عجيب. فهو الذي يمكن أن يصاب بأفدح الأذى لو أن عملية الهروب قد نجحت . ومع ذلك فهو أقل الناس غضباً علي.

قال وقد افتر ثغره عن ابتسامة بأن زوجته قالت: إذا لم يكن الرجل فاسداً فمن الطبيعي أن يحاول الفرار.

وجرب بكل حذق أن أعترف بدور كاربو نيري، ويخيل إلي بأنني أقنعته وقد شرحت له، بأن هذا الرجل لا يستطيع في الواقع أن يرفض مساعدتي بضع لحظات في سحب الحصائر.

أبرز بورسيه أوراق التهديد والمخطط الذي رسمته. فمن ناحية بورسيه، كان القدم قانعاً كل القناعة بأن الأمر قد حدث على هذه الصورة. سألته كم سيكون الحكم في تقديره مقابل الاتهام بالسرقة والاختلاس. فأجاب ليس أكثر من ثمانية عشر شهراً.

وباختصار بدأت الآن الصعود شيئاً فشيئاً من الهوة التي تورطت فيها.

تلقيت كلمة من شانال أعلمني فيها أن بيير سيليه في قاعة منفردة في المستشفى رغبة في تخليصه من الحجر، بتشخيص مرضي نادر الوجود: دمل في الكبد، وربما كان هذا تدبيراً من الإدارة والطبيب لحمايته من الانتقام.

لم يفتشوني ولم يفتشوا زنزانتي واقتنعت من ذلك بأن ادخلت سكيناً. قلت لداريك وكينيه أن يطلبا مواجهة بيني وبين مراقب المصنع وبيير سيليه والنجار متوسلين إلى القدم أن يتخذ بعد هذه المقابلة، القرار الذي يراه عادلاً في حقهم. إما التوقيف الاحتياطي، وإما العقوبة الزجرية، أو إطلاق سراحهم على الفور. وفي ساعة الخروج للتنفس في الباحة قال لي داريك بأن القدم قبل بذلك. وسوف تتم المواجهة غداً في الساعة العاشرة وسيحضر هذه الجلسة رئيس مراقبين بصفة محقق. وطوال الليل وأنا أحاول أن أضع نفسي على جادة الصواب، لأني أنوي قتل بيير سيليه. فلم أوفق لذلك. سوف يكون من الظلم أن يفلت هذا الرجل من الحجر لقاء هذه الخدمة التي قدمها، وهو فيما بعد سيهرب من الأرض الكبرى مكافأة له. لأنه حال بيني وبين الهروب. نعم ولكن من المحتمل أن يحكموا علي بالإعدام بسبب العمد المسبق. لا أبالي هذا قراري النهائي فقد يئست. أربعة أشهر من الأمل والفرح والمهارة والجزع من الوقوع، ولما حان القطاف تأتي هذه النهاية المفجعة بكلمة من نمام. ليحصل ما يحصل، سأحاول غداً قتل سيليه. والوسيلة الوحيدة للنجاة من حكم الإعدام هي أن يشهر سكينه. لهذا يجب أن أريه علانية مديتي مفتوحة. وبالتأكيد سوف يستل مديته على أن يتم هذا فور انتهاء المواجهة أو قبلها بقليل. وليس باستطاعتي قتله أثناء المواجهة فقد يطلق علي أحد الحراس النار. سأستفيد من إهمال الحراس الزمن. كنت طوال الليل أصارع هذه الفكرة ولا أستطيع التغلب عليها. حقاً إن في الحياة أشياء لا تغتفر. صحيح أنه لا يجوز للإنسان أن ينصب نفسه ميزاناً للعدل، ولكن هذا لطبقة اجتماعية أخرى. كيف يمكن لإنسان أن لا يفكر في معاقبة رجل قمي، كهذا بلا رحمة ولا شفقة. لم أسيء إلى هذا المطرود من القلعة، بل إنه لا يكاد يعرفني. إنه إذن حكم علي بكذا سنة في السجن الانفرادي دون أن يكون له أي مأخذ علي. لقد سعى إلى دفني ليعيش هو من جديد. لا. لا ثم لا. مستحيل أن أدعه يتخلص من ذلك. مستحيل لقد أحسست بالضياع. وما دمت ضائعاً، فليكن مثلي في الضياع. ولكن إذا حكموا علي بالموت فمن الحماقة أن أموت من أجل شخص وضيع وعاهدت نفسي أن لا أقتله إذا لم يستل سكينه. مضى الليل ولم أنم. وقد دخنت علبة من التبغ بأكملها. وبقيت لي سيجارتان عندما وصلت قهوة الصباح في الساعة السادسة. كنت على درجة من الإجهاد حتى أنني قلت لموزع القهوة ـ وهذا شيء ممنوع ـ هل في

وسعك أن تعطيني بعض السجائر أو قليلاً من التبغ؟ بعد الاستئذان من الرقيب. إني في غاية الإعياء يا سيد أنتارتاكليا.

ـ نعم. أعطه إذا كان لديك. أما أنا فلا أدخن. إني أرثي لحالك من كل قلبي يا بابيون. وأنا بصفتي كورسيكياً أحب الرجال وأكره النذالة.

الساعة الرابعة إلا ربعاً، وأنا في الفناء بانتظار الدخول إلى القاعة. وكان هناك داريك وكينيه وبورسيه وكاريو نيري. والخفير الذي يرافقنا هو أنتار تاكليا مراقب القهوة. كان يتحدث مع كاريو نيري باللغة الكورسيكية. وفهمت منه أنه يقول: من المؤسف ما حدث له، سيعاقب ثلاث سنوات في السجن الانفرادي. وفي هذه اللحظة انفتح الباب ودخل إلى الباحة العربي الذي كان يحتل شجرة جوز الهند، والعربي حارس المصنع وبيير سيليه. وعندما لمحني تراجع قليلاً فقال له الحارس الذي يرافقهم:

ـ تقدم والفرد هنا على اليمين، وأنتار تاكليا لم يدع مجالاً لأن يختلط بعضهم ببعض وقال:

ـ يمنع التخاطب بين الفريقين. لا يزال كاريو نيري يتكلم باللغة الكورسيكية مع مواطنه الذي يراقب الفريقين. انحنى الحارس ليصلح أنشوطة حذائه، فأومأت إلى ماتير أن يتقدم قليلاً إلى الأمام، ففهم على الفور ونظر نحو سيليه وبصق في اتجاهه. ولما استقام المراقب استمر كاريو نيري في محاورته دون انقطاع مسترعياً انتباهه إلى أن اختلست خطوة في غفلة منه، تركت مديتي تنساب إلى يدي بحيث يستطيع سيليه أن يراها وحده، وفي سرعة مذهلة استل سكيناً مفتوحة، وسدد لي طعنة قطعت عضلتي في الذراع الأيمن وأنا أعسر. فأوجرته[1] مديتي في صدره حتى آخر نصلها، فندت عنه صرخة كصرخة الوحش.

أ ـ أ ـ آه. وارتمى على الأرض كتلة هامدة. شهر أنتر تاكليا مسدسه وقال لي: تراجع يا صغير تراجع. لا تضربه وهو على الأرض وإلا اضطررت إلى اطلاق النار عليك وهذا ما لا أريده.

دنا كاريو نيري من سيليه وحرك رأسه بقدمه وقال باللغة الكورسيكية كلمتين فهمت أنه يقول: قضى نحبه. وكرر الحارس أعطني سكينك يا صغير فسلمته إياها. وأعاد مسدسه إلى قرابه، وذهب إلى الباب الحديدي وقرعه، وفتح أحد الحراس الباب فقال له: أرسل حملة المحفة لينقلوا ميتاً

ـ من الذي مات؟

ـ بيير سيليه.

ـ آه لقد حسبته بابيون.

علق الاجتماع. قال لي كاريو نيري قبل الدخول إلى العشى:

ـ مسكين يا بابيون. هذه المرة وقعت.

(١) طعنه

ـ نعم ولكني حي. أما هو فقد نفق[1].

عاد الحارس وحده وفتح الباب بهدوء. قال لي وهو لا يزال مضطرباً:

ـ اقرع الباب وقل إنك جريح. إنه هو البادىء بالهجوم لقد رأيته. وأعاد إغلاق الباب.

هؤلاء الحراس الكورسيكيون رهيبون: فهم إما طيبون جداً وإما سيئون جداً.

خبطت على الباب وصرخت: أنا جريح خذوني إلى المستشفى لإجراء الضماد.

عاد الحارس مع الرقيب المراقب في العسكر التأديبي.

ـ ما بك؟ لم هذا الضجيج؟

ـ أنا جريح يا رقيب.

ـ أنت جريح؟ كنت أظن أنه لم يمسك عندما هاجمك.

ـ عضلة ذراعي الأيمن مقطوعة.

ـ وقال للحارس: افتح.

وفتح الباب وخرجت. وبالفعل كانت العضلة مقطوعة.

ـ اشدد يديه بالقيد، واذهب به إلى المستشفى. ولا تدعه هناك مهما كانت الأسباب. أعده إلى هنا بعد العناية به. ولدى خروجي كان هناك أكثر من عشرة حراس مع القدم. قال مراقب المصنع: قال.

وقبل أن أجيب قال له المقدم: اخرس أيها المراقب برويه. إن بابيون قد هوجم.

ـ ليس هذا صحيحاً.

قال الثر تأكيداً: لقد رأيته، فأنا شاهد، واعلم يا سيد برويه أن الكورسيكي لا يكذب.

وفي المستشفى نادى شاتال الطبيب الذي ضمد الجرح دون تخدير ولا إبرة موضعية، ووضع لي ست قطب، دون أن يخاطبني بكلمة. وأنا تركته يفعل ما يشاء دون تذمر وأخيراً قال لي:

ـ لم أستطع تخديرك موضعياً إذ ليس عندنا حقناً لهذا الغرض.

ثم أردف قائلاً:

ـ لقد أسأت صنعاً.

ـ أنت تعلم أنه على كل حال، لن يعيش طويلاً بسبب الدمل الذي في كبده.

جوابي غير المتوقع تركه مشدوهاً.

استؤنف التحقيق، فاستبعدت مسؤولية بروبه بشكل قاطع، لأنه كان مهدداً وهو الأمر الذي ساهمت في تثبيت القناعة به. وكذلك بالنسبة إلى تاريك وكيته لعدم وجود الدليل. بقيت أنا وكارير ليري الذي لم تثبت عليه تهمة السرقة والاختلاس. وأدين

(1) مات كالدواب.

بمحاولة الاشتراك في الهروب، فنال عليها عقوبة ستة أشهر.

أما بالنسبة إلي فإن الأمور تعقد وتتشابك، وفي الحقيقة فإنه بالرغم من شهود النفي الذين كانوا إلى جانبي لم يقبل المكلف بالتحقيق بشرعية الدفاع.

وديغا الذي أطلع على الملف قال لي على الرغم من قسوة المحقق فإن الحكم بالإعدام مستحيل بسبب الجرح الذي أصابك.

والشيء الذي أستند إليه الاتهام في تشديد العقوبة هو شهادة العربيين اللذين شهدا بأني أنا من أخرجت السكين أولاً.

انتهى التحقيق. والآن انتظر النزول إلى سان لوران للمثول أمام المجلس الحربي. فلم أكن أفعل شيئاً سوى التدخين، فلا أمشي إلا قليلاً. سمح لي بنزهة ثانية بعد الظهر مدة ساعة. لم يكن المقدم ولا المراقبون يضمرون لي عداوة ولا بغضاء باستثناء مراقب المصنع والمحقق. وكلهم يكلمونني غير حاقدين ويسمحون لي بإدخال التبغ الذي أريده.

اليوم هو الثلاثاء. والذهاب يوم الخميس. وفي صباح الأربعاء كنت في الفناء عندما ناداني المقدم وقال: تعال معي. فخرجت معه بغير حراسة. فتساءلت إلى أين نذهب. نزلنا في الطريق المؤدي إلى منزله وفي الطريق قال لي:

ـ تريد زوجتي أن تراك قبل رحيلك، ولم أشأ أن أفجعها برؤيتك مخفوراً بحارس مسلح وأرجو ألا تخون التصرف.

ـ أجل أيها المقدم.

وصلنا إلى داره فنادى، جولييت! جئتك بمن تحميه، كما وعدتك، ويجب أن أعود به قبل الظهر. ولديك ما يقرب من الساعة للتحدث معه، ثم انسحب خفية. اقتربت جولييت ووضعت يدها على كتفي، وحدقت في عيني، وعيناها السوداوان تزدادان لمعاناً بقدر ما تغرقان في الدموع، ولكنها تماسكت.

ـ أأنت مجنون يا صديقي؟ لو أنك قلت لي إنك تريد الهروب لكان في وسعي، على ما أعتقد، تيسير الأمور لقد طلبت من زوجي أن يمد لك يد العون قدر المستطاع، فقال لي إنه يأسف أن المسألة ليست منوطة به. استدعيتك أولاً لأعرف أحوالك. أهنئك على شجاعتك، وقد وجدتك في حال أفضل مما كنت أتصور. وأود لو أقول لك بأنني أريد أن أدفع لك ثمن السمك الذي قدمته لي بسخاء في أشهر عدة. إليك ألف فرنك هذا كل ما أقدر عليه ويؤسفني أن لا أستطيع أن أفعل خيراً من هذا.

ـ اسمعي مدام، أنا لست في حاجة إلى المال بل ينبغي أن لا أقبل ما يكدر صفاء صداقتنا.

ودفعت بيدي الورقتين من فئة خمس مئة فرنك، المدفوعتين بسخاء. لا تلحي أرجوك.

ـ كما تشاء. هل لك في كأس من الشراب الخفيف.

وخلال أكثر من ساعة ما كنت أسمع من هذه المرأة الفاتنة إلا كلاماً عذباً. إنها تعترض بالتأكيد أنه سيصدر حكم علي بسبب قتل هذا القذر بثمانية عشر شهراً وستين من أجل الباقي.

وفي لحظة الوداع شدّت على يدي بكلتا يديها وقالت: إلى اللقاء وأتمنى لك حظاً سعيداً، ثم انفجرت باكية.

اقتادني المقدم إلى معسكر الزنزانات، وفي الطريق قلت له:

ـ سيدي المقدم عندك زوجة من أنبل نساء العالم.

ـ أعلم ذلك يا بابيون. وهي لم تخلق لتعيش هنا، فالحياة هنا قاسية عليها. ولكن ما العمل. وعلى كل حال سأحال على التقاعد بعد أربع سنوات.

ـ أحب أن أستغل فرصة وجودنا منفردين لأشكر لك هذه المعاملة الطيبة رغم المضايقات الكبيرة التي كانت ستحيق بك لو أنني نجحت في الفرار.

ـ فعلاً، كنت ستسبب لي متاعب جمة. هل تحب أن أقول لك شيئاً؟ إنك تستحق النجاح. ولدى باب المعسكر أضاف:

ـ وداعاً بابيون وكان الله في عونك فأنت في حاجة إلى عونه.

ـ وداعاً أيها المقدم.

نعم إنني في حاجة إلى عون الله، لأن المجلس الحربي يرأسه مقدم في الدرك ذو أربع شارات عرف عنه القسوة والتجرد من الرأفة.

ثلاث سنوات بسبب السرقة واختلاس مواد عائدة للدولة، ثم انتهاك حرمة قبر، فمحاولة هروب. هذا عدا خمس سنوات عقوبة قتل سيليه. فالمجموع ثماني سنوات، ولو لم أكن جريحاً لحكم علي بالموت ولا ريب.

هذه المحكمة التي تست علي أشد القسوة. كانت أقل قسوة على بولوني يدعى دالدوسكي قتل رجلين وعن سابق قصد وتصميم لا جدال في ذلك وحكمت عليه بخمس سنوات فقط.

دالدوسكي هذا، كان خبازاً لا يقوم إلا بعملية العجن. فهو يشتغل ثلاث ساعات فقط في الصباح. ولما كان المخبز على الرصيف تجاه البحر فإنه كان يقضي ساعات فراغه في الصيد. كان هادئاً ولا يحسن التكلم باللغة الفرنسية ولا يألف أحداً. وقد ولّد السجن المؤبد فيه حناناً نحو قط رائع، أسود اللون أخضر العينين. كان يعيش معه وينام معه ويتبعه إلى العمل كالكلب وباختصار كان البولوني يحب قطه حباً جماً، ويصطحبه في ذهابه إلى الصيد، وإذا كان الطقس حاراً، ولم يجد القط ركناً يستظل به، فإنه يعود إلى المخبز وحده وينام في سرير صاحبه. وعندما يقرع الجرس ظهراً فإنه ينطلق نحو البولوني، ويتواثب نحو السمكة التي يرقّصها صاحبه أمام أنفه إلى أن يتعلق بها.

كان الخبازون يتعايشون معاً في قاعة تابعة للمخبز. وفي أحد الأيام دعا السجينان المدعوان كورازي وأنجيلو دالدوسكي إلى طعام يأكلون فيه أرنباً مطبوخاً مع الخضار والمرق. وهذا ما يحصل مرة في كل أسبوع على الأقل. أكل دالدوسكي معهم وقدم زجاجة من الخمر فشربوا وهم يأكلون. لم يرجع القط مساء، وبحث عنه البولوني في كل مكان دون جدوى. مر أسبوع والقط غائب، ولم تعد نفس دالدوسكي الحزين تشتهي شيئاً بعد فقده القط. لقد كان يعاني الأسى، لاختفاء الكائن الوحيد الذي يحبه اختفاء غامضاً. ولما علمت زوجة أحد المراقبين بمرارة كآبته أهدته قطاً صغيراً فرده قائلاً للمرأة: كيف تفترضين أنني أستطيع أن أحب قطاً سوى قطي. إنها إهانة كبيرة لذكرى العزيز المختفي عن الأنظار.

وذات يوم ضرب كورازي مستخدماً يوزع الخبز وهو لا يبيت مع الخبازين، ولكنه تابع للمعسكر فراح يبحث عن دالدوسكي وقد امتلأ قلبه غيظاً وحقداً حتى التقيه فقال له:

ـ هل تعلم بأن الأرنب التي أكلتها مع كورازي وأنجيلو لم تكن سوى قطك؟

فأمسك البولوني بخناق الرجل وقال له:

ـ ما البرهان؟

ـ ستجده تحت شجرة المانغو، القائمة خلف الزوارق قليلاً. رأيت كورازي يدفنه هناك. وعدا البولوني كالمجنون، وعثر فعلاً على الجلد فجمعه وقد بدأ يتفسخ والرأس متفكك. فذهب إلى البحر يغسله، ثم جففه بتعريضه للشمس ثم لفه بمنديل نظيف ودفنه في مكان جاف عميق لئلا يأكله النمل.

هذا ما حكاه لي البولوني.

وفي الليل كان كورازي وأنجيلو جالسين جنباً إلى جنب على مقعد يلعبان تحت ضوء مصباح بترولي. دالدوسكي يبلغ من العمر أربعين عاماً، متوسط الطول، عريض التكوين وقوي جداً.

هيأ عصا غليظة متينة كالحديد، وهي في وزن الحديد، وجاء من خلفهما ووجه ضربة عنيفة على رأس كل منهما فانفتحت جمجمتاهما كرمانتين وتناثر النخاع على الأرض.

وبلغت به حدة الغضب وثورة الجنون أنه لم يكتف بقتلهما بل أخذ الدماغ وألصقه على جدار القاعة وقد تضرج بالدم والدماغ.

إذا كان المقدم رئيس المجلس الحربي لم يفهمني، فإن دالدوسكي الذي قتل رجلين عن سبق إصرار وتصميم لم يعاقب بأكثر من خمس سنوات، من حسن طالعه.

السجن الانفرادي الثاني

صعدت إلى الجزر مقروناً بالبولوني، ولم يجرونا إلى سراديب سان لوران، وصلنا يوم الاثنين، ومثلنا أمام المجلس يوم الخميس، ويوم الجمعة أبحرنا نحو الجزر، فصعدنا إليها ستة عشر رجلاً منهم اثنا عشر سجيناً، وكان البحر أثناء الرحلة هائجاً، وغالباً ما كان سطح الزورق يغتسل بكل موجة أكبر من سابقتها. وبلغت من اليأس أن تمنيت أن يغرق هذا الزورق. لم أكلم أحداً. تجمعت على نفسي بسبب الريح المخضلة بالملح التي تلامس وجهي. لم أكن أحمي نفسي بل العكس هو الصحيح. تركت قبعتي تطير راضياً، ولن أحتاج إليها خلال ثماني السنوات القادمة، أواجه الريح وأتنفس وهي تلسعني حتى الاختناق واستدركت:

إن سمك القرش قد أكل بيير سيليه. وأنا لي من العمر ثلاثون عاماً. وعلي أن أمضي ثمانية أخرى؟ ولكن هل من الممكن إمضاؤها بين جدران الزنزانة آكلة البشر. وبحسب تجربتي أظن ذلك مستحيلاً أو أربع أو خمس سنوات هي الحد الأقصى للمقاومة الممكنة. ولو لم أقتل سيليه لما حكموا علي أكثر من ثلاث سنوات، ربما سنتين، لأن القتل جعل كل شيء فادحاً في نظرهم حتى الهروب. ما كان ينبغي أن أقتل هذه الجيفة. وواجبي كرجل أن لا أثأر لنفسي. الحياة،من أجل الهروب فوق كل شيء. كيف انزلقت هذا المنزلق. وقد كاد هذا القذر أن يقتلني. الحياة، الحياة، الحياة، هذا ما يجب أن يكون مذهبي الأوحد.

من بين المراقبين المرافقين، مراقب عرفته في السجن الانفرادي ولا أعرف اسمه، ولكنني شعرت برغبة ملحة في طرح سؤال عليه

– يا رقيب! أرغب في أن أسألك سؤالاً.

دنا مني مستغرباً وقال: ماذا؟

– هل تعرف رجالاً استطاعوا إتمام ثمانية أعوام في الانفرادي؟

فكر قليلاً وقال:

لا. إنما أعرف عدداً من الذين أمضوا خمس سنوات. وأذكر واحداً منهم خرج بصحة جيدة ومتوازناً، بعد قضاء ست سنوات وكنت موجوداً عندما أطلقوا سراحه.

– شكراً.

– لا شيء يستحق الشكر. أظنك محكوماً بثماني سنوات.

– أجل يا رقيب.

– لن تستطيع الخروج إلا إذا لم يسبق لك أن عوقبت قبلاً. ثم، انسحب.

هذه العبارة هامة جداً. أجل لن أستطيع الخروج حياً إذا سبق لي أن عوقبت. وفي الحقيقة إن العقوبات تستند إلى أساس اقتطاع جزء من الغذاء، أو كله لفترة من الزمن. وبالتالي، حتى لو عاد السجين إلى نظامه الغذائي المعتاد فإنه لن يستطيع الانتعاش والنهوض. وبعض العقوبات القاسية تمنعه من الاستمرار حتى النهاية، فإنه يموت قبل ذلك. والحصيلة هي كالتالي: يجب أن لا أقبل بجوز الهند أو السجائر، ولا الكتابة، ولا تلقي الأوراق المكتوبة.

وفي الطريق كنت اجتر هذا القرار دون انقطاع: لا شيء على الإطلاق لا من الداخل ولا من الخارج. لمعت في ذهني فكرة: الوسيلة الوحيدة، لكي أساعد نفسي دون مخاطرة هي في أن يقوم أحدهم من الخارج برشوة موزعي الحساء لانتقاء أكبر اللحم وأفضله ظهراً. وهذا أمر هين، وذلك لأن أحدهم، يسكب المرق وآخر بعده يحمل الصينية، ويضع قطع اللحم في الصحون. يجب أن يغترف لي من قاع القدر غرفة أنال بها أكبر كمية ممكنة من الخضار. لقد تنشطت بهذه الفكرة. وفي الواقع أستطيع أن آكل جيداً إلى حد تهدئة الجوع وربما إلى حد الشبع إذا أحسنت ترتيب ذلك. وعلي أن أحلم وأن أحلق في جو الخيال قدر المستطاع مختاراً الأفكار السعيدة حتى أبعد عن نفسي شبح الجنون.

وصلنا إلى الجزر وما كدنا نصل حتى رأيت جوليت في ثوبها الأصفر إلى جانب زوجها اللذين سرعان ما اقتربا مني، قبل أن يلاصق المركب الرصيف وقال:

– كم؟

– ثماني سنوات.

عاد إلى زوجته وكلمها وبدا عليها الانفعال فجلست فوق حجر خائرة القوى. أخذ زوجها بذراعها فنهضت وبعد أن ألقت من عينيها النجلاوين نظرة مثقلة. انصرفا دون أن يلتفتا.

قال ديغا: كم؟ قلت ثماني سنوات في السجن الانفرادي.

لم يقل شيئاً ولم يجرؤ على النظر إلي. اقترب كالكاني، وقبل أن يسألني قلت له:

– لا ترسل لي شيئاً ولا تكتب لي شيئاً، فالعقوبة طويلة ولا تحتمل المجازفة بأي قصاص.

– أفهم

وبصوت منخفض أضفت سريعاً: تدبر أمر إطعامي طعاماً جيداً قدر المستطاع ظهراً وعشاء. فإذا توصلت إلى ذلك ربما التقينا يوماً ما. وداعاً.

ثم توجهت طوعاً نحو الزورق الأول الذي يقلنا إلى سان جوزيف، والجميع ينظرون إلي كما ينظرون إلى نعش ينزل في حفرة، وقد أمسكوا عن الكلام. وخلال الرحلة القصيرة كررت على مسمع شاتال ما قلته لكالكاني فأجاب:

ـ هذا ما يجب أن يحصل. تشجع بابيون. وماذا بشأن ماتير كاربو نيري؟

ـ اعترلي على نسيان إياه. لقد طلب رئيس المجلس الحربي مزيداً من المعلومات قبل أن يتخذ قراراً. أهذا سيء أم حسن؟

ـ هذا أمر حسن في ظني.

أنا في الصف الأول من الطابور المؤلف من اثني عشر رجلاً، الذي يشاق الساحل للذهاب إلى الانفرادي وكنت عجولاً فصعدت مسرعاً وحثثت الخطا حتى قال لي الحارس: تمهل بابيون، لكأنك تستعجل العودة إلى البيت الذي غادرته منذ وقت قريب. وصلنا.

ـ أقدم لكم مقدم الانفرادي.

ـ يؤسفني أنك عدت يا بابيون. أيها السجناء... إلى آخر محاضرته المألوفة.

الموقع(؟) والزنزانة الثالثة والسابعة والعشرون هي الأفضل لك يا بابيون إذ ستكون مواجهاً لباب الممر، وهكذا سيأتيك بعض النور، وبعض الهواء. وآمل أن تسلك سواء السبيل لثماني سنوات زمن طويل، ومن يدري؟ لعلك تنال عفواً عن ستة أو ستين، إذا كان سلوكك رائعاً وأتمنى لك هذا لأنك رجل شجاع.

هأنذا في الزنزانة الثالثة والسابعة والعشرين. وبالفعل تقع تجاه باب كبير ذي شبك يطل على الممر. ولو بلغت الساعة السادسة يمكن رؤية الأشياء في وضوح. وليس للزنزانة رائحة العفن التي كانت لزنزانتي السابقة، وهذا ما أعطاني شحنة من الشجاعة، قلت لنفسي:

ـ يا بابيون المسكون هذه الجدران الأربعة ستراك تعيش ثماني سنوات، إياك أن تعد الشهور والساعات، وإذا أردت قياساً مقبولاً فيجب أن تعتمد ستة الشهور وحدة قياس ست عشرة مضروبة في ستة أشهر، تصبح بعدها حراً. وعلى أية حال إنك واجد منفعة. فإذا مت هنا فعلى الأقل ترتاح للموت في الضياء، هذا إذا حدث الموت في النهار. وهذا أمر له قيمته. إن الموت في الظلام لا يبعث على السرور، وإذا مرضت فإن الطبيب سيرى وجهك. وليس عليك أن تلوم نفسك على رغبتك في الهروب، ولعمري لا ندامة على قتل سيليه. تصور كم يحيق بك من العذاب، لو أنه هرب وأنت قابع هنا، والزمن سيكشف ذلك. ولربما صدر عفو عام، أو اشتعلت حرب، أو حدثت هزة أرضية، أو إعصار يهدم هذا الحصن. لم لا؟.

وقد يرجع رجل شريف إلى فرنسا فيثير الفرنسيين، وهؤلاء سوف يجبرون إدارة السجون الإصلاحية على إلغاء هذا النمط من الذبح بغير مقصلة. ربما روى طبيب رحيم القلب، كل هذا بصحفي أو راهب وما يدريني؟ وعلى أي وجه فإن سيليه قد هضمته أسماك القرش وأنا هنا، وإذا كنت جديراً باسمي يجب أن أخرج حياً من هذا اللحد.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة. بدأت السير مسترجعاً على الفور وضع الرأس والذراعين وطول الخطوة اللازم، واشتغل رقاص الساعة على أتم وجه،

وعزمت على المشي ساعتين في الصباح وساعتين بعد الظهر، إلى أن أعرف إذا كان بالإمكان الاعتماد على تغذية متميزة بكميتها. وعلي أن لا أبدأ بهذه العصبية منذ الأيام الأوائل في تبديد الفعالية هدراً.

إن هذا الإخفاق أخيراً ليبعث على الحسرة. صحيح أنها لم تكن إلا المرحلة الأولى من الهرب، غير أنه كان أمامنا رحلة بحرية سعيدة، مسافة مئة وخمسين كيلو متراً فوق هذا الطوف الواهن. وحيثما وصلنا من الأرض الكبرى يجب أن نقوم بهروب آخر. ولو أن النزول كان ميسراً فإن الشراع المصنوع من ثلاثة أكياس طحين كان سيدفع الطوف بسرعة عشرة كيلو مترات في الساعة وفي أقل من خمس عشرة ساعة نصل إلى اليابسة. هذا إذا نزل المطر نهاراً إذ لا نجسر على رفع الشراع إلا في جو ممطر. وأظن أن المطر قد هطل بعد نزولي إلى السرداب. ولست واثقاً من هذا.

أحاول الكشف عن الأخطاء. لم أجد إلا اثنين. أراد النجار أن يصنع طوفاً محكماً موثوقاً فوجب أن يصنع صندوقاً يكدس فيه جوز الهند. فهذا الأمر وكأننا وضعنا طوفاً داخل طوف واستلزم هذا خشباً كثيراً، واستغرق وقتاً طويلاً لإنجازه بحذر، والخطأ الثاني، وهو الأفدح، الشك الأول وهذه في سيليه إذ كان ينبغي أن أقتله منذ الليلة الأولى ولو أنني فعلت هذا، ترى أين كنت الآن؟

حتى لو وصلت إلى الأرض الكبرى أو قبض علي في لحظة الإنزال إلى الماء ما كنت عوقبت بأكثر من ثلاث سنوات لا ثمان، ولكنت راضياً بما حصل. ولو أن الأمور سلكت سبل التوفيق في الجزر وفي الأرض الكبرى، فلا ولا حرج، ربما كنت الحدث الآن مع بوين في ترينداد، أو كنت في كوراساو، أو في حماية الأسقف إيرينه ومن هناك ما كنا رجعنا إلا بعد الوثوق من أن هذا البلد أو ذاك يقبلنا. وفي حال العكس كان سهلاً علي أن أرجع وحدي على زورق صغير مباشرة إلى الكاخيرا عشيرتي.

نمت متأخراً، وكان نومي طبيعياً، والليلة الأولى لم تكن في عقلي. الحياة، الحياة، الحياة. علي أن أردد كلمة الأمل هذه ثلاثاً، كلما شعرت بالاستسلام إلى اليأس، لا يأس مع الحياة.

مر أسبوع، ومنذ الأمس شعرت بأن تغيراً قد طرأ على طعامي. قطعة رائعة من اللحم المسلوق ظهراً، وعند المساء، قصعة مملوءة بالعدس الصافي بدون مرق تقريباً، وقلت لنفسي كالطفل: هذا العدس يحوي مادة الحديد، وهذا مفيد جداً، للصحة. فإذا استمر هذا أمكنني المشي من عشر إلى اثني عشرة ساعة كل يوم، وعندما أتعب أسرح مع النجوم لا. لا أهيم. هأنا على الأرض أفكر في أحوال جميع السجناء الذين عرفتهم في الجزر، ولكل واحد منهم قصة من قبل ومن بعد. وفكرت في الأساطير التي رويت في الجزر، ووعدت نفسي بتنفيذ إحداها عندما أرجع إلى الجزيرة وهي قصة الناقوس.

كما قلت سابقاً إن السجناء لا يدفنون، إنما يلقون في البحر، في مكان يغص بأسماك القرش. يلفّ الميت بأكياس الطحين بعد أن يربطوا قدميه بحبل تعلق به صخرة، والصندوق المستطيل لا يتغير، في وضع أفقي في مقدمة المركب، وعندما يصل المجدفون، وهم من السجناء، إلى المكان المحدد يرفعون المجاديف أفقياً إلى مستوى متن المركب، يميل أحدهم الصندوق، ويفتح الآخر سقفاً متحركاً فتنزلق الجثة. ومن الثابت أن أسماك القرش تقطع الحبل ولا تدع مجالاً للجثة للغوص بعيداً فتطفو على السطح وتتنازع هذه الأسماك على اختيار هذه القطعة من اللحم أو تلك. والذين رأوا هذا المشهد الجهنمي يضيفون إلى ذلك أن الأسماك عندما يكون عددها كبيراً ترفع الكفن وما احتوى فوق سطح الماء وهي تنهش أكياس الطحين مع قطع كبيرة من الجثة.

هذا ما يحصل بالفعل كما وصفته. ولكن شيئاً واحداً لم أتحقق منه. لقد روى جميع المحكومين دون استثناء أن الذي يجذب القروش إلى هذا المكان هو صوت ناقوس الكنيسة الذي يقرع عندما يكون هناك ميت ويبدو أنك إذا كنت على طرف المرسى في رويال في الساعة السادسة مساء من بعض الأيام لا ترى قرشاً واحداً، فإذا ما قرع الجرس في الكنيسة الصغيرة احتشدت القروش في أقل من لحظة تنتظر، إذ لا شيء يثبت أنها تهرع إلى هذا المكان في تلك الساعة المعلومة. وآمل أن لا أكون يوماً وجبة طعام لأسماك القرش في رويال في مثل هذه الظروف. لتفترسني حياً أثناء الهروب سعياً وراء الحرية، هذا لا يهمني. أما أن أموت بعد مرض في الزنزانة وأكون طعاماً لها، فهذا لن يكون.

بفضل ما تطعمه أصدقائي من الراتب الغذائي كنت آكل إلى حد الشبع، وأجد نفسي في صحة جيدة. وأمشي منذ الساعة السابعة صباحاً وحتى السادسة مساء دون توقف، كذلك في المساء تكون الصحفة ملأى بالخضار الجافة من الفاصوليا والعدس والبازلاء، والأرز مع الدسم كنت آكلها كلها دون أن أجبر نفسي على ذلك. والمشي يساعدني كثيراً ففي هذا التعب الذي يسبب لي، السلامة والعافية. ولقد توصلت إلى الشرود وأنا أمشي. بالأمس مثلاً أمضيت نهاري في مروج بلد صغير في الأردبش يدعى فالفراس، كنت أقصده غالباً ـ بعد أن ماتت أمي ـ لأقضي بضعة أسابيع عند خالتي المدرّسة في هذه الضيعة.

بالأمس كنت على أجنحة الخيال في غابات الكستناء، أجمع الفطور ثم أسمع صاحبي الصغير راعي الغنم يصدر أوامره إلى كلبه الذي ينقلها بإحكام، فيسترجع شاة شاردة أو يعاقب عنزة تجري مسرعة، وأكثر من ذلك كنت أحس برودة النبع الممتزج بطعم الحديد في فمي وأتذوق دغدغة حبابه الصغيرة التي تتصاعد إلى أنفي. هذا الإحساس الواقعي باللحظات الغابرة والتي مر عليها خمس عشرة سنة، والقدرة على بعثها من جديد بمثل هذا العنف، لا تأتي إلا في الزنزانة بعيداً عن كل ضجة وفي صمت مطبق.

إنني أرى لون ثوب تاتا أوتين الأصفر، وأسمع صرير احتكاك الريح بشجر الكستناء وأسمع صوت ارتطام الكستناء بالأرض الجافة الرخوة عند تساقطها على بساط من أوراق الشجر. وأرى الخنزير البري الضخم الذي برز من بين أشجار الوزّال فروّعني حتى أطلقت ساقي للريح كالمجنون، فتساقط مني أكثر ما جمعت من الفطور.

نعم، أمضيت النهار في فالفراس مع تاتا وصديقي الراعي الصغير جوليان. هذه الذكريات التي انبعثت من الماضي حية وهي مفعمة بالصفاء والحنين والوضوح، لا يستطيع أحد أن يحول بيني وبين الاستغراق في طياتها، وأن استمد منها الهدوء الذي لا غنى عنه لنفسي المتعبة. إنني في إحدى الزنزانات آكلة الرجال. وفي الواقع إنني اختلست منهم نهاراً كاملاً حين سرحت فيه في فالفراس بين المروج وأشجار الكستناء بل شربت ماء معدنياً من النبع المسمى (بيشه). مضت ستة أشهر، ولقد عاهدت نفسي على أن أعتمد أنصاف السنين حساباً وقد أنجزت وعدي. في هذا الصباح خفضت العدد إلى خمس عشرة بدلاً من ست عشرة وصار العدد الآن: ستة أشهر مضروبة بخمس عشرة.

لنجر الحساب: لم يحدث أي حادث شخصي خلال الأشهر الستة. الغذاء ثابت ولكنه ملائم فلا شكوى من ناحية الصحة. كثرت حولي الانتحارات، وزاد عدد المجانين الصاخبين والذين ينقلون على عجل. إنه لمن موجعات القلب أن يسمع المرء صراخاً أو تشكياً أو أنيناً ساعات طويلة بل أياماً بأكملها. عثرت على شيء جيد ولكنه سيء بالنسبة إلى الأذن. اقتطعت قطعتين من الصابون وأقحمتها في أذني لئلا أسمع هذه الصيحات التي ترتعش لها القلوب، ولكن من المؤسف أن الصابون يؤذيني ولا تلبث القطعتان أن تسيلا بعد يوم أو يومين.

ولأول مرة منذ دخولي إلى الزنزانة أذل نفسي في طلب شيء من أحد الحراس. إنه الرقيب الذي يوزع الحساء وهو من مونتليمار البلدة القريبة من بلدتي، وكنت عرفته في رويال. التمست منه أن يحضر لي كرة من الشمع الذي يساعدني على احتمال صيحات المجانين المجلجلة قبل ترحيلهم. وفي الغداة أحضر لي كرة شمعية بحجم الجوزة وما كان أحسنه من علاج في صم الآذان عن سماع هؤلاء التعساء.

لقد تعودت على كثيرات الأرجل. ففي خلال ستة أشهر لم تعضني سوى مرة واحدة. وأثبت جيداً حين أستيقظ وأرى إحداها تتنزه على جسدي العاري. أعتاد كل شيء، وهذه مسألة تتعلق بمراقبة الذات، لأن هذه الدغدغة التي تحدثها الحشرة بأرجلها وقرنيها تبعث على النفور. وإذا لم تحسن التقاطها فإنها تلسع، والأحسن أن تدعها تنحدر

وحدها وبعد ذلك تبحث عنها وتحرقها. على مقعدي الإسمنتي توجد دوماً قطعتان من الخبز أو ثلاث مما يفضل من طعام اليوم، والرائحة تجلبها بصورة إجبارية فتسعى إليها وحينئذ أقتلها.

ينبغي أن أطرد من ذهني فكرة ثابتة تلح: لماذا لم أقتل بيير سيليه في اليوم الذي ساورتنا فيه الظنون بدوره المشؤوم؟ وأجري مناقشة بيني وبين نفسي: حتى يحق لنا أن نقتل؟ ثم استخلص: الغاية تبرر الوسائل. فغايتي هي النجاح في الهروب، واستحقاق الحظ في إنهاء طوف محكم الصنع وإخفائه في حرز مكين. أما الهروب فمتروك للزمن وقد عرفت الخطر الذي يمثله سيليه عند إنجاز القطعة قبل الأخيرة والتي وصلت إلى موضعها بأعجوبة. وكان ينبغي أن أنفذ دون تردد، وسلمت بأنني كنت مخدوعاً بالمظاهر الزائفة ألا أكون قد قتلت رجلاً بريئاً. يا للفظاعة! ولكن هذا مناقب للمنطق أن تطرح مشكلة ضمير. أنت مسجون مؤبداً. والأسوأ من ذلك أنت محكوم بثماني سنوات بالسجن الانفرادي داخل عقوبة مؤبدة. ماذا تظن أيها الغاية الضائعة وأنت تعامل معاملة رجس من أرجاس المجتمع؟ أود أن أعرف لما كانت قطع الخبز الإثنا عشرة (المحلفون) الذين حكموا عليك، قد سألوا أنفسهم مرة واحدة بوحي من ضمائرهم، ليعرفوا حقاً هل أحسنوا صنعاً في حكمهم الجائر أم لا؟ وهذا المدعي العام الذي لم تقرر بعد بأية آلة ستنتزع لسانه، هل سأل نفسه إن كان قاسياً في تحقيقاته أم لا؟ حتى المحامون أنفسهم لا يذكرونك بكل تأكيد. ولا بد أنهم يتكلمون بعبارات عامة حول قضية بابيون التعسة في محاكم عام ١٩٣٢: «تعلمون أيها الزملاء حتى ذلك اليوم لم أكن على ما يرام. زد على ذلك أن المدعي العام كان في أوج أيامه. لقد أدان هذه القضية، إكراما للاتهام، بصورة متقنة. إنه حقاً خصم من الصنف الرفيع». كنت أسمع هذا كما لو كنت بجانب الأستاذ ريمون هوبير في محاورة مع المحامين أو في اجتماع عائلي أو بالأحرى في ممر من ممرات القصر العدلي. واحد فقط له بالتأكيد وضع لائق، نزيه وشريف هو الرئيس بيفان. يستطيع هذا الرجل المنصف أن يناقش زملاءه أو أن يتكلم في اجتماع عائلي عن أخطار الأحكام الصادرة عن المحلفين. لا بد أنه سيقول بكلمات متقنة بأن الاثني عشر عاقلاً ليسوا مؤهلين لحمل مثل هذه الأمانة، لأن بلاغة الاتهام أو الدفاع تسحرهم تبعاً لهيمنة أحد الطرفين في هذه المبارزة الخطابية، وإنهم يبرئون ساحة هذا أو يحكمون على ذاك، دون أن يعلموا كيف، حسب الجو الذي يخلقه أقوى الفريقين سلباً أو إيجاباً.

الرئيس وأسرتي أيضاً. نعم أسرتي كانت تحقد علي قليلاً بلا ريب بسبب ما خلقت لها من متاعب وأبي وحده هذا الأب المسكين لم يتذمر من الصليب الذي ألقى به ابنه على كاهله. أنا واثق من ذلك، فهو يجر هذا الصليب الثقيل دون أن يتهم ولده، ولم يوجه إليه لوماً —وهو المدرس الذي يحترم القوانين— بل كان يعمل على تفهمها وتقبلها. وأنا متأكد من أنه في أعماق نفسه يصرخ أيها القذرون: لقد قتلتم ولدي، والأسوأ من هذا أنكم حكمتم عليه بالموت البطيء وهو ابن الخامسة والعشرين؛ ولو كان يعلم أين ابنه وماذا فعلوا به لغدا فوضوياً.

إن آكلة الرجال هذه الليلة استحقت هذا الاسم أكثر من أي وقت مضى. فهمت

أن اثنين قد شنقا وآخر اختنق بإدخال خرق في فمه وفي منخريه.

الزنزانة المئة والسابعة والعشرين هي بالقرب من المكان الذي يتناوب فيه الحراس الحراسة، وأسمع أحياناً جانباً من أحاديثهم. في هذا الصباح مثلاً لم يخفضوا أصواتهم كما ينبغي حتى لا أسمع ما يقولون عن أحداث الليل.

مرت ستة أشهر أخرى. فأجريت الحساب وحفرت على الخشب الرقم ١٤ بمسمار كان معي استعمله كل ستة أشهر مرة واحدة. نعم أجريت الحساب، فالصحة جيدة، والروح المعنوية عالية، وبفضل رحلاتي إلى النجوم، نادراً ما تنتابني أزمات اليأس، وإذا حدثت تخطيتها في سرعة. واصنع من أي شيء رحلة حقيقية أو خيالية تطرد الأفكار السوداء. وموت سيليه يساعدني كثيراً في الانتصار على لحظات الأزمات الحادة، فأقول: أنا على قيد الحياة، أنا حي ويجب أن أبقى حياً، حياً، لأحيا من جديد حراً في يوم من الأيام. أما هو فقد حال بيني وبين الهروب فمات ولن يكون حراً كما سوف أكون. هذا مؤكد، وهذا أمر موثوق به. وعلى كل حال سيكون عمري، إذا خرجت، ثمانية وثلاثين عاماً، لن أكون كهلاً. والهروب الآتي سيكون الأمثل. أنا على يقين.
واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.

منذ أيام اسودت ساقاي ونزفت لثتي. هل أبدي مرضي؟ ضغطت بالإبهام على أسفل ساقي فظل الأثر مطبوعاً، ولكأني بها امتلأت ماء. منذ أسبوع وأنا لا أستطيع أن أمشي عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم. أنا متعب وأمشي ست ساعات فقط على فترتين. وعندما أغسل أسناني لا أستطيع أن أدعكها بالمنشفة المغمسة بالصابون دون أن أتألم أو يقطر الدم. وقد سقطت بالأمس إحدى أسناني من تلقاء ذاتها، وهي إحدى القواطع من الفك العلوي.

إن ستة الأشهر الجديدة انتهت بثورة حقيقية. وفي الحقيقة، طلبوا منا أن نخرج رؤوسنا ومر الطبيب وكان يرفع شفاه كل واحد منا. وهذا الصباح وبعد مكث في الزنزانة دام ثمانية عشر شهراً فتح الباب وقيل لي أخرج ثم قف تجاه الجدار وانتظر. كنت الأول بجانب الباب، وخرج ما يقرب من سبعين رجلاً. قيل لنا: نصف دورة يساراً. فوجدت نفسي الأخير في صف سوف يتجه نحو الطرف الآخر من البناء خارجاً إلى الفناء.

الساعة التاسعة. طبيب شاب يرتدي قميصاً من الكاكي ذا أكمام قصيرة، يجلس في الهواء الطلق خلف منضدة خشبية صغيرة، وإلى جانبه ممرضان من السجناء ومراقب ممرض، والجميع بما فيهم الطبيب لا أعرفهم. عشرة حراس والبنادق في أيديهم يحضرون (المهرجان). المقدم والرقباء المراقبون واقفون ينظرون دون أن يتفوهوا بكلمة. صاح المراقب: على الجميع أن ينزعوا ملابسهم ويتأبطوها. الأول ما اسمك؟
— فلان
— افتح فمك. فرشخ. اقلعوا له ثلاث أسنان. تحول مع صبغة اليود أولاً ثم

أزرق ميتيلين وأخيراً شراب كوشلياريا مرتين في اليوم قبل الطعام.

كنت الأخير.

ـ ما اسمك؟

ـ شاريير.

ـ أنت الوحيد من له جسم لائق. هل وصلت الآن؟

ـ لا.

ـ منذ كم أنت هنا؟

ـ اليوم أكملت ثمانية عشر شهراً.

ـ لم تكن هزيلاً كالآخرين؟

ـ لا أعلم.

ـ أنا أقول لك. لأنك تأكل أكثر منهم، وتمشي أقل. افتح فمك، باعد ساقيك. ليمونتان في اليوم واحدة في الصباح والأخرى في المساء. مص الليمون مع شيء من عصارته، لذلك اللثة فأنت مصاب بداء الحفر.

نظفوا لي لثتي بالكحول الإيودي، ثم دهنوها بأزرق ميتيلين وأعطوني ليمونة.

نصف دورة فأنا في آخر الصف وعدت أدراجي إلى الزنزانة. إن ما حصل هو ثورة حقيقية. إخراج المرضى إلى الفناء ليروا الشمس، وعرضهم على الطبيب عن كثب. لم يحصل مثل هذا من قبل. ما الذي يجري هنا؟ هل من قبيل المصادفة أن طبيباً يرفض أن يكون شريكاً أخرس لهذا النظام المشهور؟ هذا الطبيب الذي أصبح صديقاً لي فيما بعد يدعى جيرمان غيبير. مات في الهند الصينية. كتبت لي زوجته تعلمني بذلك من مكاريبو في فنزويلا بعد سنوات عديدة من هذا اليوم.

أصبحنا نقوم بزيارة شمسية كل عشرة أيام. والوصفة ذاتها دوماً: كحول مع الإيود، أزرق ميتيلين وليمونتان. حالتي لاتترقى وكذلك لا تتحسن. طلبت شراب الكوشلياريا مرتين وفي المرتين امتنع الطبيب عن إعطائي إياه الأمر الذي بدأ يثيرني، لأنني لا أستطيع المشي أكثر من ست ساعات في اليوم، ولا يزال أسفل ساقي متورماً ومسوداً.

وفي يوم من الأيام كنت أنتظر دوري لاحظت أن الشجرة الصغيرة التي احتمي بظلها من الشمس هي شجرة ليمون بغير ليمون. انتزعت منها ورقة ومضغتها، ثم قطعت غصناً صغيراً من أغصانها يحمل بعض الوريقات بدون فكرة مسبقة. فعندما ناداني الطبيب وضعت الغصن خلف ظهري وقلت له:

ـ دكتور. لا أدري إذا كان هذا بسبب ليموناتك. انظر ماذا نبت لي خلف ظهري، وأدرت له ظهري، وأريته الغصن. أغرق الحراس في الضحك بادئ ذي بدء، ولكن الرقيب قال:

ـ بابيون ستعاقب على سوء أدبك مع الدكتور.

قال الطبيب: لا. أبداً لا ينبغي أن تعاقبوه فأنا لا أشكو منه. ألم تعد تريد ليموناً؟ أهذا ما تقصده؟

ـ أجل دكتور! لقد اكتفيت من هذا الليمون، فأنا لم أجد فيه شفاء أود أن أجرب شراب الكوشلياريا

ليس عندنا إلا كمية ضئيلة من هذا الشراب احتفظ بها لمن كان مرضهم جسيماً ومع ذلك سأعطيك كل يوم ملعقة على أن تستمر في استعمال الليمون دوماً.

ـ دكتور رأيت هنوداً يأكلون طحالب بحرية وقد رأيت مثلها في رويال ولا بد أنها متوفرة هنا في سان جوزيف.

ـ إنها لفكرة غنية. سأوصي بأن يوزعوا عليكم منها كل يوم، فقد رأيتها بالتأكيد على شاطئ البحر أيأكلها الهنود مطبوخة أم نيئة؟

ـ نيئة.

ـ حسناً وشكراً لك. وأرجو من المقدم ألا يعاقبه فأنا اعتمد عليه.

ـ أجل يا نقيب.

حدثت معجزة. أصبح الخروج إلى الشمس لمدة ساعتين في كل ثمانية أيام، إما للعيادة أو للمرور أو رؤية بعض الوجوه والتهامس معها ببعض العبارات. من كان يعلم أن شيئاً عجيباً كهذا يمكن أن يحدث؟ إنه تغيير خيالي في نظر الجميع. الأموات يخرجون ويمشون في الشمس، وهؤلاء المدفونون أحياء أخيراً يستطيعون أن يتفوهوا ببعض الكلمات. إنها زجاجة أوكسجين تنفخ الروح في كل واحد منا.

كلاك. كلاك. لانهاية لهذا الصوت كلاك. فتحت أبواب الزنزانات جميعاً في الساعة التاسعة من يوم الخميس وعلى كل واحد منا أن ينتصب واقفاً على عتبة الباب وصاح صائح: أيها السجناء، الحاكم يقوم بجولة تفتيشية.

كان في صحبة الحاكم خمسة من الضباط في المستعمرة، وبالتأكيد جميعهم من الأطباء. الحاكم رجل طويل أنيق أشيب يمر بتؤدة على طول الممر، أمام كل زنزانة وصحبتهم يشيرون إلى العقوبات الكبيرة ودوافعها، وقبل أن يصلوا إلي، رفعوا رجلاً لم يقو على الانتظار طويلاً وهو واقف. إنه واحد من آكلي لحوم البشر المدعو غرافيل قال أحد العسكريين: هذه جثة متحركة. فأجاب الحاكم: كلهم في حالة يرثى لها. وصلت البعثة إلي، فقال المقدم:

ـ عقوبة هذا أكبر عقوبة في الانفرادي.

قال الحاكم: ما اسمك؟

ـ شاريير.

ـ ما عقوبتك؟

ـ ثماني سنوات لسرقة مواد حكومية.. الخ قتل، ثلاث وخمس سنوات.

ـ كم أمضيت منها؟
ـ ثمانية عشر شهراً.
ـ كيف سلوكه؟
ـ قال المقدم: حسن.
ـ صحته؟
ـ قال الطبيب: وسط.
ـ ماذا عندك من قول؟
ـ إن هذا النظام لا إنساني وغير لائق بشعب كالشعب الفرنسي.
ـ ما الأسباب؟
ـ صمت مطلق، لا خروج للتنفس، إلا في هذه الأيام الأخيرة، والعناية مفقودة.
ـ تجلد جيداً. وسوف ينالك عفو إذا بقيت في الحكم.
ـ شكراً.

ومنذ ذلك اليوم وبأمر من الحاكم ورئيس الأطباء القادمين من مارتينيك وكايين أصبحنا نخرج للتزهة ساعة من كل يوم مع حمام بحري في شبه مسبح. والسابحون في مأمن من أسماك القرش بوجود جدار مرصوف من الأحجار.

في الساعة التاسعة من صباح كل يوم كنا ننزل من الزنزانات الانفرادية إلى المسبح في زمر وكلنا عراة. وأجبرت نساء المراقبين وأولادهن على البقاء في المنازل حتى نستطيع النزول عراة. ودام ذلك شهراً فتغيرت سحن الرجال إنها تغير. هذه الساعة في الشمس، وهذا الحمام في الماء الملح، والتخاطب ساعة كل يوم قد غيرت هذا القطيع من السجناء المرضى نفساً وجسدياً.

وذات يوم وبينما كنت عائداً من المسبح إلى الزنزانة، وكنت من الأواخر، سمعت صرخات امرأة يائسة، وطلقات مسدس، والصوت يقول:
ـ إلى النجدة، ابنتي تغرق.
كان الصراخ آتياً من الرصيف الذي لم يكن سوى منحدر اسمنتي ينتهي إلى البحر حيث تتجاوز المراكب. صرخات أخرى: أسماك القرش!

ثم طلقتان أخريان من مسدس. التفت الجميع نحو أصوات الاستغاثة، وطلقات النار وبدون تفكير دفعت أحد الحراس وعدوت نحو الرصيف، ولما وصلت رأيت امرأتين تصرخان وكأنهما فقدتا رشدهما، وثلاثة مراقبين، وعرباً.

صاحت المرأة: ارم بنفسك في الماء. فليست بعيدة، أنا لا أجيد السباحة، ولولا ذلك لذهبت يا عصبة الجبناء.
قال أحد الحراس: أسماك القرش! وأطلقوا عليها النار من جديد.

بنت صغيرة في ثوبها الأزرق، والأبيض تعوم فوق البحر يجرفها بهدوء تيار خفيف. وهي تتجه رأساً نحو ملتقى التيارات والذي يصلح أن يكون مقبرة للسجناء، ولكنها لا تزال بعيدة عنه، والحراس لا يكفون عن إطلاق النار. وبالتأكيد أصابوا بعضها إذ تلاحظ تحركات قرب الطفلة. صحت بهم لا تطلقوا النار.

ودون أي تفكير ألقيت بنفسي في الماء، ساعدني التيار على الاتجاه في سرعة نحو الصغيرة التي تعوم بفضل ثوبها وتضرب برجليها بأقصى شدة لتبعد القروش. أنا الآن على بعد ثلاثين أو أربعين متراً منها عندما وصل قارب خارج من رويال، فرأى المشهد من بعيد ووصل إلى الصغيرة قبل فتناولها وحماها. فبكيت من الحنق، ولم أفكر بالقروش، ورفعوني إلى سطح القارب أيضاً، لقد خاطرت بحياتي في سبيل لا شيء. أو هكذا ظننت؛ إلا بعد شهر وعلى سبيل المكافأة، استحصل الدكتور جيرمان غيبر على أمر توقيف عقوبتي في الانفرادي لسبب صحي.

العودة إلى رويال
الجواميس

إذن رجعت بأعجوبة حقيقية إلى العقوبة العادية في رويال، غادرتها بعقوبة ثمانية أعوام نتيجة لتلك المحاولة في النجاة، وعدت بعد تسعة عشر شهراً. التقيت بأصدقائي، بديغا الذي لايزال محاسباً، وكالكالي مراسلاً، وكاربونيري الذي برئت ساحته في قضية هروبي، وغرانده، وبورسيه النجار، ورجلي العربة: ناريك وكينيه، وشاتال الممرض، وشريكي في هروبي الأول، ماتوريت الذي لم يغادر وهو مساعد ممرض، وعصابة لصوص دغل كورسيكا، كلهم هنا: إيساري وفيسولي، وسيرازي، ورازوري، وفوسكو، وموكوير وشابار الذي أعدم لاغريف صاحب عملية البورصة في مرسيليا وكل أبطال الصحافة الشيوعية من سنة ١٩٢٧ إلى ١٩٣٥، مارينو قاتل دوفرين قضى نحبه الأسبوع الفائت. في ذلك اليوم كان لسمك القرش طبقاً مختاراً وقد كان من أكابر خبراء باريس في الحجارة الكريمة.

بارات الملقب بالكوميدي بطل الشس المليونير في ليموج، الذي قتل سالفاً وصديقه الصغير الجسيم. بارات هو الآن رئيس المخبر والصيدلي في مستشفى رويال، وباختصار كان لقدومي إلى رويال دويّ كدوي المدفع. كان دخولي إلى مبنى الرؤوس العنيدة يوم السبت صباحاً، وكانوا جميعاً حاضرين، فاستقبلوني استقبالاً حافلاً يشهد لي بصداقتهم، بما فيهم ذلك الرجل الساعاتي الذي لم ينطق منذ ذلك الصباح الشهير الذي كادوا فيه أن يعدموه بالمقصلة خطأً، أزعج نفسه وجاء يحييني.

– إيه، أصحابي! هل أنتم جميعاً بخير؟

– نعم ومرحباً بك.

قال غرانده: لانزال نحتفظ بمكانك فهو شاغر منذ أن فارقتنا.

– شكراً للجميع. ماذا من جديد؟

– خبر طيب.

– ماهو؟

– في هذه الليلة وجد العتر مقتولاً وهو الذي وشى بك، وكان يتربص بك من أعلى الشجرة، ولابد أن يكون قاتله واحد من أصحابك أراد لك أن لا تراه حياً ووفر عليك مهمة قتله.

– بالتأكيد، ولكن أود معرفته لأقدم له شكري.

– سيكشف لك عن نفسه يوماً ما، لقد وجدوه هذا الصباح عند التفقد، والسكينة مغروسة في قلبه، ليس فينا من سمع ولا من رأى.

– نعماً فعلتم. وماذا عن اللعب؟

– على أحسن حال. ومكانك محفوظ.

– حسناً ستعود إلى الحياة مع الأشغال الشاقة المؤبدة. نريد أن نعلم كيف ومتى ستنتهي هذه الحكاية؟

– بابي! لقد تأثرنا جميعاً حين علمنا أنك محكوم بثماني سنوات، ولا أعتقد أن رجلاً واحداً في هذه الجزر، يستطيع، وأنت هنا، أن يمتنع عن مد يد المساعدة لك. في سبيل أي شيء، وبأي ثمن.

قال حارس عربي: إن القائد يطلبك. فخرجت معه وعند مركز الحراسة خاطبني بعض الحراس بكلمات طيبة، فتبعت العربي، ووجدت القائد بروية فقال:

– كيف حالك يا بابيون

– بخير يا سيادة القائد.

– أنا سعيد بالعفو عنك، وأهنئك على عملك البطولي مع الطفلة الصغيرة ابنة زميلي.

– شكراً.

– سأخصك برعاية البقر ريثما تعود مرتاحاً مع حق الصيد.

– إذا لم يكن في هذا إحراج لك فأنا موافق.

– هذا الأمر يخصني. إن مراقب الضبع قد رحل. وأنا سأذهب إلى فرنسا بعد ثلاثة أسابيع. حسناً. تسلم عملك غداً.

– لست أدري بأي لسان أشكرك.

فقال ضاحكاً: انتظر شهراً قبل أن تحاول الفرار مرة أخرى.

رأيت في القاعة الرجال أنفسهم وطريقتهم في الحياة نفسها كما كانت قبل دخولي، واللاعبون صنف مستقل لايعيشون إلا للعب، ولايفكرون إلا به. ومن كان عندهم فتيان فإنهم يعيشون ويأكلون وينامون معهم، يألفون الرجال شهوة وكأنهم أسر حقيقية، يحبونهم ويأسرون تفكيرهم ليل نهار، تبدو عليهم مظاهر الغيرة دون تحفظ، وكما يحدث بين رجل وامرأة، كل منهما يترصد الآخر، وقد يترتب على ذلك جرائم قتل، إذا سئم أحدهما الآخر

وطار إلى عشاق آخرين. ومن أجل شارلي الحسناء (بارات)، قتل الزنجي المدعو سمبلون، في الأسبوع المنصرم شخصاً يدعى سيليرو. وهذا هو الشخص الثالث الذي يقتله سمبلون إكراماً لشارلي.

لم يمض على وجودي في المعسكر بضع ساعات حين وافاني رجلان للقائي:

ـ قل لي يا بابيون! أريد أن أعرف إذا كان ماتوريت غلامك؟

ـ لماذا ؟

ـ لأسباب تخصني.

ـ اسمع جيداً. كان ماتوريت مصاحباً لي في رحلة مسافتها آلاف وستمئة كيلومتر حيث سلك مسلك الرجال. هذا كل ما عندي لأقوله لك.

ـ أريد أن أعلم إذا كان معك؟

ـ لا. لم أعرف ماتوريت معرفة جنسية. أقدره بصفة صديق، وما عدا ذلك لايهمني إلا إذا أصابه أذى.

ـ وإذا اتخذته زوجة لي في يوم من الأيام؟

ـ في هذه الحالة، إذا كان هو راضياً فلن أتدخل في شيء، أما إذا كنت تمارس عليه ضغطاً بالتهديد ليكون لك صبياً، فلي معك شأن آخر.

لافرق عند الشاذين أن يكون أحدهما سلبياً أو إيجابياً، مادا مستغرقين في لذاتهما دون أن يفكرا في شيء آخر.

التقيت بالرجل الإيطالي الذي كان يحمل أنبوبة ذهبية فأقبل علي مسلماً فقلت له:

أما زلت هنا؟

ـ فعلت المستحيل. فقد أرسلت لي أمي اثني عشر ألفاً، ذهب منها للخفير ستة آلاف عمولة. انفقت أربعة آلاف لأتخلص من الحجر. وفقت في الذهاب إلى التصوير الشعاعي في كايين ولم أستطع شيئاً، ثم أسندت إلى نفسي تهمة جرح صديق تعرفه، إنه رازوري اللص الكورسيكي.

ـ وبعد هذا؟

ـ اتفقت معه على أن يحدث جرحاً في بطنه، ونزلنا معاً إلى المجلس الحربي. هو بصفة مدع وأنا بصفة مدعى عليه، وما استطعنا أن نطأ الأرض هناك بأقدامنا. وبعد خمسة عشر يوماً انتهت المحاكمة، ونلت عقوبة في السجن الانفرادي مدة ستة أشهر قضيتها في السنة الماضية وأنت لم تكن تعلم أنني كنت هناك. بلى لم أعد أطيق الحياة وأرغب في الانتحار.

ـ الأفضل لك أن تموت في البحر أثناء الهروب. فعلى الأقل تموت حراً.

ـ أنا مستعد لعمل أي شيء. وأنت على صواب. فإذا هيأت شيئاً ما، فأخطرني علي.

ـ اتفقنا.

وبدأت الحياة في رويال من جديد. وهاأنذا راعي جواميس. عندي جاموس أعطوه اسم بروتوس. يزن ألفي كيلو غرام. إنه قاتل الجواميس الأخرى، قتل جاموسين من الذكور. قال لي المراقب الكورسيكي الذي يقوم على رعايته: هذه آخر فرصة له، فإذا قتل جاموساً آخر فسوف يذبح. تعرفت هذا الصباح على بروتوس وعلى الزنجي الذي يقوده وطلبت منه أن يبقى معي مدة أسبوع ليعلّمني. وسرعان ما غدوت صديقاً لبروتوس إذ سلحت[1] على أنفه فلعق بلسانه الكبير بعض السائل الذي يحبه حباً كثيراً. ثم قدمت له ما جمعته من المانغو من بستان المستشفى. نزلت مع بروتوس مقروناً كالثور بنير عربة تليق بعصور الملوك الخاملين، لأنها مصنوعة بطريقة بدائية ريفية. وعليها برميل يتسع لثلاثة آلاف لتر ماء. عملي هو مثل عمل صديقي بروتوس نذهب إلى البحر ونملأ البرميل ماء ثم نصعد الشاطىء الوعر حتى الساحة. وهناك أدير مفتاح البرميل والماء يسيل في المجاري جارفاً كل ما بقي من قاذورات الصباح. أبدأ في الساعة السادسة وأنتهي في الساعة التاسعة. وبعد أربعة أيام قال لي المارتينيكي بأنني أصبحت قادراً على العمل وحدي. هناك شيء واحد يزعجني وهو أنني في الساعة الخامسة صباحاً كان علي أن أسبح في المستنقع بحثاً عن بروتوس الذي يختبىء هرباً من الشغل.

ونظراً لحساسية منخريه فإن حلقة تخترقهما ويتدلى منها سلسال طوله خمسون سنتمتراً، وعندما أكتشفه يتراجع ويغطس في الماء ليظهر في مكان أبعد. والقبض عليه يستغرق أحياناً ساعة في هذا الماء الراكد الآسن ماء المستنقع المليء بالحيوانات والنيلوفر. وكانت تنتابني فورات من الغضب. وكنت أناديه: أيها القذر، يا أحمق أنت عنيد مثل بروتوني هل تخرج أم لا؟

ولايكون حساساً إلا إذا أمسكت السلسال، أما الشتائم فلا يأبه لها. وأخيراً إذا خرج من المستنقع عاد لي صديقاً. كان عندي وعاءان للشحم فارغان وكنت أملؤهما بالماء العذب وأغسل فأنظف نفسي من ماء المستنقع اللزج. وبعد غسل جسمي بالصابون أصب الماء العذب، ويبقى منه عندي مقدار أغسل به بروتوس بألياف قشر الجوز، وأدلك الناطق الحساسة وأنا أرشه بالماء وأنظفه فيحك حينئذ رأسه بيدي ويذهب من تلقاء نفسه إلى خشبة العربة. ولم أعامله قط بالشوكة كما كان يفعل الزنجي المارتينيكي ليقدر لي ذلك فيمشي معي بأسرع مما يمشي معه.

كانت هناك جاموسة صغيرة تعشق بروتوس، فتصاحبنا سائرة إلى جانبنا، وما كنت أزجرها كما كان يفعل الآخر، بل على العكس أتركها تقبل بروتوس وترافقنا في حلنا وترحالنا فلا أضايقه عندما يتبادلان القبل، وهو يعترف لي بهذا الجميل، فيصعد بثلاثة آلاف لتر في سرعة فائقة. وكأنه يريد أن يستدرك الوقت الذي ضيعه في منادمته مرغريت ـ وهذا اسم الجاموسة.

(١) سلح الحيوان أو الطير: راث

حدثت بالأمس، عند التفقد في الساحة السادسة، فضيحة صغيرة بسبب مرغريت. فالزنجي المارتينيكي كان يتسلق جداراً صغيراً ويقبل الجاموسة ففاجأه الحارس فنال عقوبة بالسجن المظلم مدة ثلاثين يوماً. فأحضرت مرغريت إلى المعكسر واستعرضت أكثر من ستين رجلاً وحين وصلت إلى محاذاة الزنجي التفتت وأدارت له أستها. واغرق الجميع في الضحك وصار وجه الزنجي رمادياً من شدة الارتباك.

كان مفروضاً على أن أقوم بثلاث نقلات مياه في اليوم. كبراها هي ملء البرميل بمساعدة اثنين فينتهي العمل في سرعة، وأنتهي في الساعة التاسعة، ولأذهب إلى الصيد.

أنا مرتبط مع مرغريت لاخراج بروتوس من المستنقع. فأحك أذنها فتصدر صوتاً شبيهاً بحمحمة الفرس، وحينئذ يخرج بروتوس وحده. وما عدت لا أحتاج إلى الماء لأغتسل به فإنه سيستحم استحماماً أوفر فيبدو أكثر نظافة وبدون رائحة الماء الكريهة التي تسبب الغثيان، وقد امضى في ذلك الماء ليله، فيروق لمرغريت وهو يحتدم الشرق لها. وبعد الصعود من البحر وفي منتصف الشاطىء مكان منبسط لي فيه حجرة كبيرة. وكان من عادة بروتوس أن يزفر خمس دقائق فأوقف العربة فيستريح.

وفي هذا الصباح كان بانتظارنا جاموس آخر يدعى دانتون، وهو لايقل ضخامة عنه، وكان مختبئاً خلف أشجار نارجيل صغيرة لاتحمل سوى الأوراق. انطلق دانتون وهاجم بروتوس، فقفز منحرفاً فحادت الضربة، واصطدم قرنه في الضربة الأخرى بالعربة فانغرز في البرميل وبذل جهوداً من أجل الخلاص. فعمدت أنا إلى تخليص بروتوس من النير وتوابعه وعند ذلك احتل بروتوس الساحة، وعن بعد ثلاثين متراً جرى بروتوس عدواً نحو دانتون وتدافع من الخوف أو اليأس تخلص دانتون من البرميل تاركاً فيه قسماً من قرنه الذي انكسر. تم هذا قبل أن يصل إليه بروتوس الذي لم يستطع أن يكبح جماحه في الوقت المناسب فدخل في العربة فقلبها وهنا رأيت مشهداً عجيباً. لقد كانا يتحاكان بالقرون دون تدافع وكأنهما يتخاطبان وبدون صخب، فهما يتألمان فقط. ثم صعدت الجاموسة بمحاذاة الشاطىء ببطء يتبعها الفحلان، وهما يتوقفان من حين لآخر ويعاودان الاحتكاك بالقرون فتتداخل بعضها ببعض، وعندما يطول ذلك فإن مرغريت تئن في حسرة وتعود نحو المنبسط الجاموسان الضخمان يتابعان خط سيرهما، وبعد ثلاث وقفات من ذلك المشهد وصلنا إلى المنبسط، وهذا المكان الذي تخلص فيه من جهاز العربة يقابل المنار وهو مكان قفر قد يبلغ طوله ثلاث مئة متر، وفي طرفه الأبعد معسكر الساجين. وعلى اليمين واليسار أبنية مستشفى السجناء، والمستشفى العسكري.

استمر بروتوس ودانتون في المشي عشرين خطوة. وتوجهت مرغريت ببرودة إلى وسط الساحة ثم توقفت، ووصل الخصمان إلى مقربة منها، وهي بين الفينة والفينة ترفع خوارها الحزين المعبر عن الرغبة الجنسية. وتتلاقى القرون من جديد وفي هذه المرة يخيل لي أنهما يتخاطبان لأن زفيرهما يمتزج بأصوات ذات معنى

وبعد هذه المحاورة ذهب أحدهما يميناً والآخر يساراً على طرفي الساحة، فالمسافة

بينهما إذن ثلاث مائة متر ولاتزال مرغريت في الوسط. لقد فهمت: إنها مبارزة وحسب القوانين المرعية برضى الطرفين والجاموسة الفتية هي الظافرة، وبموافقتها لأنها فخورة إذ يتصارع عاشقان من أجلها، وبصيحة من مرغريت انطلق كل منهما نحو الآخر، في خط مسارهما وهو ما يقارب من مئة وخمسين متراً.

من نافلة القول، الإشارة إلى أن الأنثى كيلو غرام يتضاعفان مع السرعة التي بلغاها. إن صدمة رأسيهما كانت رهيبة إلى درجة أنهما ظلا يتصارعان مدة خمس دقائق، وتراخت قوائمهما. وكان بروتوس إلى استعادة نشاطه أسبق فعدا عدواً واحتل مكانه وبدأت المعركة ساعتين. أراد بعض الحفراء قتل بروتوس فعارضت وفي لحظة محددة انكسر قرن دانتون الذي فقد قسماً منه في البرميل فلاذ بالفرار، وتبعه بروتوس واستمرت المعركة إلى اليوم التالي وحيثما مرا أفسدا كل شيء، في المستشفى، وفي المقبرة، وفي مغسل الثياب. وبعد أن تعاركا طيلة الليل وحوالي الساعة السابعة استطاع بروتوس أن يحصر دانتون أمام جدار الملحمة القائمة على شاطىء البحر، وشك قرنه في بطنه، ولكي يجهز عليه تماماً أخذ يدور حوله مرتين حتى يدور القرن في الأحشاء، فسقط دانتون صريعاً في بركة من الدماء والأمعاء.

هذه المعركة بين العظيمين أوهنت بروتوس حتى أني خلصت قرنه من جسم القتيل لكي يستطيع النهوض فابتعد مترنحاً على الطريق الموازية للبحر، وهناك رافقته مرغريت رافعة رأسها الخالي من القرون. لم أشهد ليلة زفافهما، لأن الخفير المسؤول عن الجواميس اتهمني بأني خلصت بروتوس وبالتالي فقدت عمل كراعي جواميس.

فطلبت مقابلة المقدم لأكلمه في موضوع بروتوس

— ماذا جرى يابابيون. بروتوس يجب أن يقتل، فهو في غاية الخطورة فقد قتل ثلاثة مثاليين.

— أنا جئت أطلب منك إنقاذ بروتوس. هذا الحارس المكلف بالزراعة والمسؤول عن الجواميس لايفهم شيئاً. اسمح لي بأن أروي لك لماذا تصرف بروتوس هذا التصرف في الدفاع المشروع عن نفسه.

فابتسم المقدم وقال: أنا مصغ إليك.

— . . . إذن فهمتم يا سيادة المقدم بأن جاموسي قد هوجم. هذا ما استنتجته بعد أن رويت جميع التفاصيل، ولولا أني فككت بروتوس عن العربة لكان دانتون قتله وهو مقرون، ولكان غير قادر على الدفاع عن نفسه إذا كان مربوطاً بنير العربة.

— هذا صحيح.

وفي تلك البرهة قدم خفير الزراعة

— أسعدت صباحاً يا سيادة المقدم، إني أبحث عنك يا بابيون، لأنك خرجت هذا الصباح إلى الجزيرة كما لو كنت ذاهباً إلى العمل، ومع ذلك ليس عندك ما تفعله.

— خرجت ياسيد الكومسي لأرى إذا كنت أستطيع ايقاف المعركة ولكن مع الاسف

كانا مهتاجين.

ــ نعم هذا ممكن. أما الآن فليس من حقك أن ترعى الجاموس. لقد اشتريته. هذا ومن جهة أخرى فإن بروتوس سيذبح صباح الأحد ويوزع لحمه في السجن.

ــ لن تفعل ذلك.

ــ لست من يفعل.

ــ ولكن المقدم سيفعل ذلك. وإذا كان هذا لايكفي فإني سأطلب من الدكتور جيرمان غيير أن يتدخل لإنقاذ بروتوس.

ــ بم تحشر نفسك؟

ــ بما يخصني. الجاموس أنا الذي أقوده، وهو رفيقي.

ــ رفيقك؟ جاموس؟ أتسخر مني؟

ــ اسمع ياسيد انكوسي! هل تدعني أتكلم برهة؟

قال المقدم: دعه يدافع عن جاموسه.

ــ حسناً تكلم.

ــ أتؤمن ياسيد الكوسي بأن الحيوانات تتحدث فيما بينها؟

ــ لم لا. إذا تسارّت.

وشرحت من جديد كل شيء من البداية إلى النهاية.

قال الكورسيكي: كريستاشو (يا إلهي) إنك لرجل غريب يا بابيون. تدبر أمرك مع بروتوس ولكن لدى أول قتل لن ينجيه أحد حتى المقدم. أعيدك راعياً للجواميس. اجعل بروتوس يشتغل. وبعد يومين أصلح بعض عمال المصنع العربة. وعاد بروتوس إلى نقل الماء يومياً من البحر تصحبه مرغريت الشرعية. وكنت عندما نصل إلى الساحة حيث يستريح بروتوس، أشد العربة بالحجر الكبير، وأقول: أين دانتون يا بروتوس؟

فاقتلع هذا الجاموس الضخم بالعربة فجأة، وتابع طريقه مسرعاً.

فتنة في سان جوزيف

الجزر خطرة جداً بسبب هذه الحرية الزائفة التي يتمتعون بها. أتألم عندما أرى الجميع ثاوين في يسر ليعيشوا في غير مشاكل.

البعض منهم ينتظرون نهاية عقوبتهم. وآخرون لاشيء، يخوضون في رذائلهم.

كنت هذه الليلة مستلقياً على سريري الأرجوحي في آخر القاعة وكان اللعب حامياً كالجحيم، حتى اضطر صديقاي كاربونييري وغرانده إلى أن يتعاونا في إدارة اللعب، فالواحد لم يكن كافياً. وأنا أحاول أن أثير ذكرياتي لطقوس فاستعصت، حتى لكأن المحكمة لم تكن، وعبثاً حاولت إلقاء الضوء على الصور الضبابية لذلك اليوم المشؤوم فلم أتوصل إلى رؤية شخصية ما في وضوح والمدعي العام وحده برز لي بكل ما فيه من صلف وعنف. ربما كنت أعتقد أنني اكتسبت رضاك نهائياً عندما وجدت نفسي بين أسرة بوين في ترينيداد. أية رفقة ضارة جلدتني بها حتى أخفقت ست محاولات للهروب لأحصل بها على حريتي.

ففي المرة الأولى عندما هربت من الأشغال الشاقة. كيف استطاعت عيناك أن تغفل عني عندما علمت بالخبر؟ أريد أن أعرف إذا كنت تخاف أو كنت غاضباً عندما عرفت أن فريستك أتيح لها الفرار من طريق العفن، حيث ألقيت بها ثلاثة وأربعين يوماً قبل ذلك؟ كنت قد حطمت القفص، فأي قدر لاحقني حتى أرجعني إلى السجن حيث مكثت أحد عشر شهراً؟

ربما كان هذا قصاصاً من الله لأنني ازدريت الحياة البدائية، وكانت جميلة بحيث كنت أستطيع الاستمرار مدة أطول، قدر ما أشاء.

لأني وزورايما، حبيبتي، وهذه القبيلة التي ليس فيها شرطة، والقانون الذي ينظم الحياة هو التفاهم بين أفرادها. نعم أنا هنا بسبب غلطتي، ولكن يجب ألا أفكر إلا في شيء واحد هو الهروب، الهروب أو الموت. ولما علمت بأني وقعت ثانية وأعدت إلى السجن، أتراه عادت إليك ابتسامة انتصار المحكمة، وأنت تظن أن كل شيء على ما يرام هكذا فأنت مخطئ. لن يكون فكري ولا روحي ملكاً لهذا الطريق المهين. إنك جسمي فقط فحرسك وجهازك التأديبي يراقبون مرتين كل يوم، إذا كنت حاضراً وهذا يكفيك. ففي الساعة السادسة صباحاً ينادون باسمي (بابيون) فأجيب بكلمة (حاضر) وفي السادسة مساء بابيون (حاضر) وهكذا فالأمور تجري في أعنتها، ولسان حالهم يقول: نحن نمسك به منذ ست سنوات ويجب أن يبدأ بالتعفن ولسوف يأتي يوم يقرع فيه الناقوس الذي يدعو أسماك القرش لتستقبله بكل شرف، في وليمة يومية يقدمها لهم بالمجان جهاز الإعدام عندك في ابتذال. أنت مخطئ، وحساباتك ليست صحيحة. فوجودي الجسدي لايقاس بوجودي المعنوي. هل تريد أن أقول لك شيئاً؟ أنا لا أنتمي إلى السجن، ولا أتبنى في شيء أحداً في عاداته، حتى ولا عادات أوثق أصدقائي. أنا من رواد الهروب الدائمين.

وبينما كنت أعد نفسي للحوار مع من أتهمني في المحكمة دنا من سريري رجلان

ــ هل أنت نائم يا بابيون؟

ــ لا.

ــ لنا معك حديث.

ــ تكلّم هنا، لايوجد أحد. وإذا كان الكلام خافتاً فمن يسمعك؟

ـ نحن في صدد إعداد فتنة.

ـ ما خطتك؟

ـ نقتل كل عربي، وكل الحراس ونساءهم وأولادهم فهم أصل البلاء. فأنا آرتو وصديقي هوتان، نود مهاجمة مستودع الأسلحة في الأمريسة، وبمساعدة أربعة رجال. فأنا اشتغل هناك لصيانة الأسلحة. عندهم ثلاثة وعشرون رشيشاً، وأكثر من ثمانين بندقية، والعمل سيكون. . .

ـ قف لاتذهب بعيداً. أرفض مسايرتك، وأشكر لك ثقتك بي، ولكني أخالفك.

ـ ظننا أنك ستقبل بأن تكون رئيس الثورة. دعني أشرح لك التفاصيل المدروسة وسوف ترى أن هذا لن يخفق. فنحن نعد الحدث منذ خمسة شهور ويوافقنا عليه أكثر من خمسين رجلاً.

ـ لاتعطي أي اسم فأنا أرفض هذه الزعامة بل أرفض الاشتراك في هذه القضية.

ـ لماذا؟ فمن حقنا عليك أن تعطينا تفسيراً بعد أن أوليناك ثقتنا بحيث روينا لك كل شيء.

ـ لم أطلب منك أن تحكي لي خطتك، ثم إني لا أفعل في حياتي إلا ما أشاء أنا، لا ما يشاء الآخرون. زد على ذلك أنني لست ممن يقتلون الناس بالجملة. أستطيع أن أقتل رجلاً يعرضني للخطر. أما النساء والأطفال، وهم لاذنب لهم، فلا. والأمر الخطير لم تروه لي، وأنا الذي أقوله لك: حتى لو نجحت الثورة فالإخفاق حليفكم.

ـ لماذا؟

ـ لأن الشيء الرئيسي هو الهروب وهذا مستحيل. لنسلم بأن مئة رجل اشتركوا في الثورة فكيف يهربون؟ في الجزيرة زورقان فقط وكلاهما لايتسعان لأكثر من أربعين سجيناً، فما أنتم فاعلون بالستين الآخرين؟

ـ نحن سنكون في جملة الأربعين الذين يهربون أولاً.

ـ هذا ما تفترضه، فالآخرون ليسوا أغبياء، فهم مسلحون مثلكم. وإذا كان كل واحد منهم فيه ذرة من العقل، فسوف يطلق النار على الفريق الآخر ليحصل على الزورق، والأدهى من ذلك أن هذين الزورقين لن يستقبلهما أي بلد. لأن البرقيات ستصل قبلكم إلى البلاد التي يمكن أن تذهبوا إليها وخصوصاً مع فرقة الموت الكبيرة خلفكم، ستوقفون وتعادون إلى فرنسا. تعلمون أنني عدت من كولومبيا وأعني ما أقول، وأعاهدكم على الحكم بعد مثل هذا الانقلاب، ستعادون أينما كنتم.

ـ حسناً. إذن أنت ترفض؟

ـ نعم.

ـ أهذه كلمتك الأخيرة؟

ـ هذا قراري الحاسم.

ـ ما علينا إلا أن ننسحب.

ـ خطة. أطلب منكم أن لا تفاتحوا أحداً من رفاقي بهذا الموضوع.

ـ لماذا ؟

ـ لأنني أعلم مقدماً أنهم يرفضون فلا داعي لذلك.

ـ حسناً جداً.

ـ هل تظنون أنكم لاتستطيعون التخلي عن هذه الخطة؟

ـ بصراحة يا بابيون، لا.

ـ أنا لا أفهم هدفكم بالضبط، وقد شرحت لكم بصورة جدية أن الثورة في حال نجاحها لن تجعلكم أحراراً.

ـ نريد بوجه خاص أن ننتقم. والآن بعد أن أوضحت لنا أن قبولنا في البلاد الأخرى أمر مستحيل، سنشكل عصابة وندخل الغابة العذراء.

ـ لكن علي عهد أن لا أحدث أعز أصدقائي بما دار بيننا.

ـ نحن واثقون من ذلك.

ـ أخيراً. أنذروني مقدماً قبل بدء العملية بثمانية أيام لكي أرحل إلى سان جوزيف ولا أبقى في رويال.

ـ سنحيطك علماً في الوقت المناسب لكي تتمكن من تغيير الجزيرة.

ـ ألا أستطيع شيئاً من أجل تغيير رأيكم؟ هل ترغبون في ترتيب أمر ما معي؟ نسرق مثلاً أربعة بنادق، ونهاجم في إحدى الليالي مركز حراسة الزوارق دون أن نقتل أحداً، فنأخذ زورقاً ونرحل معاً؟

ـ لا. لقد تألمنا كثيراً. المبدأ هو الانتقام، ولو دفعنا أرواحنا ثمناً.

ـ والنساء ؟ والأطفال؟

ـ كل هذا من أصل واحد، من دم واحد. يجب أن يموتوا جميعاً.

ـ إذن لم يبق هناك كلام.

ـ ألا تدعو لنا بالتوفيق؟

ـ لا. بل أقول لكم ارجعوا عن غيكم، فهناك ما هو أفضل من هذه الحماقة.

ـ ألا تؤمن بأن من حقنا أن ننتقم؟

ـ بلى. ولكن ليس من الأبرياء. مساء الخير.

ـ مساء الخير. نحن لم نقل شيئاً بابي اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وانسحب هوتان وآرتو. إنها لقصة غريبة قصة هذين المختلين. وما يزيد الطين بلة أن الخمسين أو الستين رجلاً المشتركين سيربو عددهم ساعة الصفر على المئة. يالها من قصة مجانين. لم يفه أحد من أصدقائي بكلمة.

إذن هذان السجينان لم يفاتحا في هذا الموضوع إلا المجرمين العريقين إذ من غير الممكن أن يشترك رجال من الوسط الآخر بمثل هذه العملية، والأشد خطراً أن القتلة

المريقين هم المجرمون الحقيقيون أما الآخرون فهم جانحون، فالأمر يختلف. حصلت هذا الأسبوع على معلومات عن آرنو وهوتان آرنو كما يبدو كان الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة حكماً تعسفياً لأمر لا يستحق أكثر من عشر سنوات بالسجن فأنزل المحلفون به هذه العقوبة القاسية لأن أخاه في العام الأسبق قد حكم عليه بالإعدام لقتله شرطياً والمدعي العام أخذ يتكلم عن أخيه أكثر مما تكلم عنه ليخلق جواً مشحوناً بالعداوة والبغضاء، فأنزلوا به هذه العقوبة الرهيبة، ولابد أنه لقي الكثير من التعذيب في سجن التوقيف وكذلك بسبب ما فعله أخوه.

أما هوتان فلم يعرف الحرية، فهو في السجن منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره، وكان نزيلاً في إحدى الإصلاحيات، فتطوع في البحرية ليتخلص من الإصلاحية، وفي الليلة التي كان مقرراً فيها أن يغادرها ليلتحق بالبحرية، قتل رجلاً. ربما كانت فيه لوثة من الجنون لأن غايته على ما يبدو الفرار إلى فنزويلا ليشتغل في منجم للذهب هناك ثم لينسف ساقه ليقبض تعويضاً ضخماً. هذه الساق متخشبة بسبب حقنة لا أدري تركيبها، أعطيت له طوعاً في سان مارتن دوره. إنها لعبة مسرحية. عند التفقد هذا الصباح نودي على آرنو وهوتان وأخو ماثيو كاربونيري صديقي. أخوه جان يعمل خبازاً على الرصيف قرب المراكب. أرسلوا جميعاً إلى سان جوزيف بدون تفسير وبدون سبب ظاهر. حاولت الكشف فلم أجد شيئاً يشف عما وراء ذلك. آرنو كان يتعهد السلاح منذ أربعة سنوات، وجان كاربونيري خباز منذ خمس سنوات، فنقلهما إلى سان جوزيف ليس مجرد مصادفة. لابد أن هناك محاولة فرار. ولكن أي نوع من الهروب وإلى أين؟ قررت بسط الموضوع أمام أصدقائي المخلصين: ماثيو كاربونيري، وغرانده، وكلالكاني وليس لأحدهم علم بشيء. إذن هوتان وآرنو لم يتصلا إلا بالمجرمين لا الخالصين.

– لم حدثوني دون غيري إذن؟

– لأنك معروف بين الجميع أنك تريد الهروب بأي ثمن.

– ومع ذلك ليس بهذا الثمن.

– إنهم لم يميزوا.

– وأخوك جان؟

– لا أحد يعلم كيف ارتكب هذه الحماقة بإقحام نفسه في هذه القضية.

– ربما كان الثائر فيهم قد أقحمه في هذه الورطة دون أن يكون له فيها يد.

الأحداث تترى. قتل في هذه الليلة جيرازولو لحظة دخوله إلى المرحاض. وشوهد على قميص راعي الجواميس المارتينيكي شيء من الدم. جرى تحقيق سريع وبشهادة زنجي آخر كان معزولاً حكم على الجواميسي القديم بالموت حكماً صادراً عن هيئة محكمة استثنائية.

جاءني وأنا عند باب المغسل في القناة رجل من مقاطعة سافوا يدعى كارفيل يريد مخاطبتي.

– بابي! لقد أوقعت نفسي في قاذورة، إذ أنا الذي قتلت جيرازولو، وأريد إنقاذ الأسود ولكنني أخشى المقصلة. لم أتكلم بسبب هذا الثمن. ولكن إذا وجدت تبريراً يجعل الحكم بثلاث أو خمس سنوات صرحت بالحقيقة.

– ما عقوبتك في الأشغال الشاقة؟

– عشرون سنة.

– كم أمضيت منها؟

– اثنتي عشرة سنة.

– أوجد وسيلة ليحكموا عليك بالمؤبد دون أن تذهب إلى السجن الانفرادي.

– ما العمل؟

– دعني أفكر وسوف أعطيك الجواب هذه الليلة.

وفي المساء قلت له:

– لا تستطيع أن تكلف أحداً بالإبلاغ عنك.

– لماذا؟

– إنك تجازف بحياتك. هناك وسيلة واحدة تنجيك من السجن الانفرادي، وتنال حكماً بالمؤبد. أبلغ عن نفسك بنفسك. والسبب أنه بوازع ضميرك لم تشأ أن تدع بريئاً يقتل. واختر مراقباً كورسيكياً يدافع عنك وسوف أسميه لك بعد أن أستشيره ويجب الإسراع. والأمل أن لا يحرقوه على وجه السرعة. انتظر يومين أو ثلاثة.

فاتحت المراقب كولونا فأعطاني فكرة خيالية قال:

– أنا أقوده إلى المقدم وأقول له: إن كارفيل طلب مني الدفاع عنه وأن أصحبه ليدلي باعترافاته، وأنا ضمنت له بأن لا يحكم عليه بالموت إزاء هذا الموقف النبيل، ورغم أن قضيته خطرة فإنه يتوقع حكماً بالسجن المؤبد. وسارت الأمور على هذا المنوال: كارفيل أنقذ الأسود الذي أطلق سراحه على الفور، وأما شاهد الزور الذي اتهمه فقد حكم عليه بالسجن مدة سنة، ورويز كارفيل بالمؤبد.

مضى على ذلك شهران. أوضح لي كارفيل تتمة التفاصيل بعد أن انتهى كل شيء. جيرازولو كان الرجل الذي أبلغ عن آرنو وهوتان وجان كاربونيري بعد أن علم بتفاصيل المؤامرة، وكان قد رضي بالاشتراك فيها، ولم يكن يعرف لحسن الحظ أسماء أخرى. وحيال هذا التصريح الخطر الفظيع، فإن المراقبين لم يصدقوه. ومع ذلك ومن قبيل الحيطة والحذر، أرسلوا السجناء الثلاثة إلى سان جوزيف دون أن يقولوا لهم شيئاً، أو يسألوهم عن شيء.

– وما الذي دفعك أنت على قتله.

– الصحيح أنه سرق مني أنبوبتي التي أخفي فيها مالي. وأنا أنام تجاهه. في الليل أنزع أنبوبتي وأخفيها تحت غطائي الذي اتخذته وسادة. وفي إحدى الليالي ذهبت إلى المرحاض، ولدى عودتي وجدت الأنبوبة قد اختفت. ومن كانوا حولي، رجل واحد كان

يقظان وهو جيرازولو. وصدق الخفراء هذا التفسير ولم يذكروا لي أنه أنذر بفتنة محتملة.

نودي باسمي عند التفقد في الباحة: بابيون، بابيون!

ـ حاضر.

ـ اجمع حوائجك لتسلك الطريق إلى سان جوزيف.

ـ يا للقذارة..

أعلنت الحرب في فرنسا، وفرضت أنظمة جديدة، فرؤساء الخدمة العسكرية المسؤولون عن الهروب يعزلون من مناصبهم، وبالنسبة إلى المبعدين فمن قبض عليه متلبساً بالهروب فسوف يحكم عليه بالإعدام، إذ يعتبر الهروب في هذه الحالة رغبة في الالتحاق بقوات فرنسا الحرة، وفي هذا خيانة للوطن. وكل شيء يمكن التسامح فيه إلا الهروب.

إن المقدم بروية قد رحل منذ أكثر من شهرين، والجديد لا أعرفه. إذن لا مناص. ودعت أصدقائي وركبت البحر في الساعة الثامنة إلى سان جوزيف. والد ليزيت لم يبق في معسكر سان جوزيف بل ذهب إلى كايين في الأسبوع المنصرم. والمقدم في سان جوزيف يدعى روبان وهو من الهافر وهو الذي استقبلني. وكنت قد وصلت وحدي وقد سلمني المراقب في المركب إلى مراقب الخدمة على الرصيف مع أوراقي.

ـ أنت بابيون؟

ـ نعم أيها المقدم.

قال وهو يقلب أوراقي:

ـ أنت شخص عجيب.

ـ لماذا أكون عجيباً إلى هذا الحد؟

ـ أنت معدود من الخطرين في كل ناحية، وبخاصة أن هناك ملاحظة بالحبر الأحمر تقول: «دائم الأهبة للهروب» ثم ملحق يقول «حاول إنقاذ ابنة المقدم في سان جوزيف من أفواه أسماك القرش».

بابيون! أنا عندي طفلتان هل تحب أن تراهما؟ فاستدعاهما. إحداهما في الثالثة والأخرى في الخامسة من عمرها، شقراوان، دخلتا إلى المكتب يصحبهما فتى عربي يرتدي لباساً أبيض وامرأة سمراء في أتم الحسن.

ـ عزيزتي! أترين؟ هذا هو الرجل الذي أنقذ الطفلة التي هي ابنتك بالعمودية.

قالت المرأة الشابة: دعني أشد على يديك.

إن مصافحة السجين شرف عظيم يهدى إليه، أبداً لا تمد يد إلى محكوم. وتأثرت من عفويتها وصدق تعبيرها.

ـ أجل أنا عرّابة[1] ليزيت. نحن وثيقو الصلة بتلك الأسرة. ماذا تريد أن تفعل به

---

(1) عرّاب أو اشبين عند النصارى: الذي يكفل الطفل في العمودية في حال فقده أباه أو أمه. المترجم.

عزيزي!

ـ أولاً سنذهب إلى المعسكر ثم تخبرني بالعمل الذي تريد أن أعطيك إياه.

ـ شكراً لك أيها المقدم، وشكراً لك يا مدام. هل يمكن أن أعرف السبب في استدعائي إلى سان جوزيف؟ لأن هذا يعتبر نوعاً من العقوبة.

ـ في رأيي ليس هناك من داع. كل ما في الأمر أن المقدم الجديد يخشى أن تهرب.

ـ ليس مخطئاً.

ـ لقد زادوا عقوبة المسؤول عن الهروب، فقبل الحرب كان ممكناً أن يخسر رتبة. أما الآن فهو حتمي عدا سائر العقوبات. لهذا السبب بعث بك إلينا مؤثراً أن تهرب من سان جوزيف حيث أنه ليس مسؤولاً في سان جوزيف كما لو كنت في رويال.

ـ كم ستبقى هنا أيها المقدم.

ـ ثمانية عشر شهراً.

ـ لاأستطيع مثل هذا الانتظار الطويل. ولكن سأجد وسيلة للرجوع إلى رويال، لئلا ألحق بك أذية.

قالت المرأة: شكراً لك وأنا سعيدة بأن أتعرف على نبلك. وإذا كنت في حاجة إلى تعال في وثوق تام. وأنت ستصدر الأمر إلى مركز الحراسة في المعسكر أن يأتوا به إلي لزيارتي عندما يطلب ذلك.

ـ أجل يا عزيزتي. يا محمد! رافق بابيون إلى المعسكر. وأنت أختر البيت الذي تشاء.

ـ بالنسبة إلي الأمر السهل في مبنى الخطرين.

فضحك وقال: ليس الأمر صعباً.

وكتب ورقة أعطاها لمحمد.

فغادرت البيت الذي هو سكن للمقدم وفيه مكتبه، ويقع على الرصيف البحري، وهو بيت ليزيت بصحبتي العربي، فوصلت المعسكر.

رئيس مركز الحراسة عجوز كورسيكي عنيف وقاتل مشهور يدعى فيلساري

ـ هذا أنت يا بابيون قد وصلت؟ أنت تعلم أني طيب جداً وشرير جداً. لاتحاول معي الهروب لأنك إذا لم تنجح فسوف أقتلك كما أقتل أرنباً. وبعد سنتين سأحال إلى المعاش، إذن ليس الوقت مناسباً لأنال عقوبة قاسية.

ـ وأنت تعلم أني صديق لكل كورسيكي، ولن أقول لك إني لن أهرب، فإذا هربت ففي وقت لاتكون فيه على رأس عملك.

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا بأس. إذن يا بابيون لن نكون خصمين. أنت تفهمني جيداً. إن الشبان أقوى احتمالاً مني للمتاعب. أما أنا ففي سن شارفت فيها على التقاعد حساً. مفهوم؟ اذهب إلى المبنى الذي أرسلت إليه.

هاأنذا في المعسكر، في قاعة شبيهة جداً بقاعة رويال فيها ما بين مئة ومئة وعشرين

رجلاً وفيهم بييرو المجنون، وهوتان، وآرنو، وجان كاريونييري. ومن المنطقي أن أكون في جمعية تضمني مع جان لأنه أخو ماتيو، ولكنه ليس من صنف أخيه. وبسبب صداقته مع هوتان وآرنو فإنه لايناسبني. فتنحيت عنه، وأقمت إلى جانب كاريه البورغوني الملقب ببييرو المجنون.

جزيرة سان جوزيف أوحش من جزيرة رويال وأصغر منها رغم أنها تبدو أكبر بسبب طولها. والمعسكر يقع في وسط الجزيرة، وهي مكونة من مسطحين متراكبين، ويقع المعسكر في المسطح الأول، وفي المسطح الأعلى الزنزانات الانفرادية الرهيبة، وبهذه المناسبة، لايزال السجناء المعزولون يذهبون الى الاستحمام في البحر ساعة في كل يوم. ونأمل أن يدوم هذا.

كان العربي الذي يشتغل عند القادم يأتي كل يوم ظهراً بصحون بعضها فوق بعض تضمها حديدة مسطحة وبها مقبض خشبي يتركها لي ويأخذ ما أتى به بالأمس. غزالة ليزيت كانت ترسل لي كل يوم ما أعدته لأسرتها في ذات اليوم

ذهبت يوم الأحد إليها لأراها ولأشكر لها، فأمضيت الظهيرة في التحدث معها وباللعب مع ابنتيها، وبينما كنت أداعب شعرهما الأشقر قلت في نفسي: من الصعب أحياناً أن يعرف المرء أين واجبه. إن الخطر الجاثم فوق رأس هذه الأسرة في حال بقاء هذين المعتوهين مصرين على فكرتهما، سيكون خطراً. وبعد انذار جيرازوليو الذي لم يصدقه المراقبون إلى درجة أنهم لم يفصلوا بينهما، بل أرسلوهما إلى سان جوزيف، لو أنني قلت كلمة للتفريق بينهما لكان ذلك تأييداً لحقيقة الوشاية الأولى وخطورتها. وعند ذلك ماذا يكون رد الفعل عند المراقبين؟ فالصمت أجدى.

آرنو وهوتان لايكادان يتكلمان معي في المبنى، وهذا أفضل. نتعامل بأدب ولكن بغير الفة. وجان كاريونييري لايكلمني فهو غاضب لأننا لم نلتق معاً في مجموعة واحدة. مجموعتنا مؤلفة من أربعة، منهم بييرو المجنون، وماركيتي الحائز على الجائزة الثانية في العزف على الكمان في روما، وهو يعزف كثيراً، سامحات بأكملها، ومارسوريي، وهو كورسيكي.

لم أكلم أحداً، ويخيل إلي بأن أحداً لايدري بإجهاض مخطط الفتنة في رويال. هل لايزالون على رأيهم؟ ثلاثتهم يعملون في السخرة الشاقة عليهم أن يجروا حجارة ضخمة بسيور جلدية. تحضر هذه الحجارة لبناء مسبح في البحر. فالحجرة الضخمة تلف بالسلاسل ويعلق بها سلسال يتراوح طوله بين خمسة عشر متراً وعشرين. وعلى اليمين وعلى اليسار سجناء تلتف على جذوعهم وأكتافهم سيور من الجلد، وكل واحد منهم يدخل مجناً في حلقة من حلقات السلسال، ويجرون الحجر دفعة واحدة كالدواب، إلى موضعه، في أشد أوقات الحر إنه لعمل شاق ومرهق ومهين.

طلقات بندقيات ومسدسات صادرة من جهة الرصيف البحري. وفهمت، لقد تحرك المجانين ماذا يجري؟ من الظافر؟ بقيت في القاعة لا أتحرك. والمحكومون يقولون، إنها

ثورة.

ـ ثورة؟ أية ثورة؟

تظاهرت علناً بأنني لا أعلم شيئاً. دنا مني جان كاريونييري الذي لم يذهب إلى الشغل اليوم، وهو شاحب كالأموات رغم لفحة الشمس التي لوحت وجهه وقال لي بصوت خفيض:

ـ إنها الثورة يا بابي.

وبكل برود قلت له: أية ثورة هذه؟ لا علم لي بها.

طلقات البندقيات تتوالى. أقبل بييرو المجنون إلى القاعة راكضاً ك«المجنون»

ـ هذه ثورة وأعتقد أنها لم تنجح. يا لعصبة اللئام. بابيون افتح مطواك فعلى الأقل نقتل منهم أكبر عدد ممكن قبل أن نموت. فأعاد كاريونييري القول:

ـ أجل لنقتل منهم ما أمكن.

أخرج شيشيليا موسى حلاقة، وكل واحد حمل بيده سكيناً مفتوحة. فقلت لهم:

ـ لاتكونوا حمقى. ما عددنا؟

ـ تسعة

ـ ليلق سبعة منكم مداهم، وأول واحد يهدد حارساً سأقتله. أنا لا أرغب في رصاصة تقتلني في هذه القاعة، كما يقتل الأرنب. هل أنت معهم؟

ـ لا

ـ وأنت؟

ـ ولا أنا

ـ وأنت؟

ـ لا أعلم عن هذا الموضوع شيئاً

ـ نحن جميعاً من طبقة الجانحين، ولا أحد يعرف شيئاً عن ثورة الرعاع هذه. مفهوم؟

ـ نعم

ـ ومن كان على علم بالموضوع فيجب عليه أن يفهم أنهم سيقتلونه فور اكتشاف معرفته بذلك. إذن لا جدوى للأحمق من الكلام. ألقوا بأسلحتكم في وعاء القاذورات. فلن يتأخروا في الوصول إلينا.

ـ وإذا كان السجناء هم الغالبين؟

ـ فليرتبوا أمورهم من أجل الهروب في أعقاب انتصارهم. أما أنا فلا أريد الهروب بهذا الأسلوب. وأنتم؟

قال الرجال الثمانية بما فيهم جان كاريونييري، بصوت واحد: ولا نحن أيضاً.

ـ أنا لم أتفوه بكلمة مما أعلم، وبما أن طلقات النار قد توقفت، فهذا يعني أن المتمردين قد ضاعوا.

وفي الحق أن المجزرة المتوقعة لايمكن أن تتوقف.

وصل الحراس كالمجانين، وهم يدفعون بالخاصي البندقيات وبالعصي والأقدام، السجناء المشتغلين بالمجارة، فأدخلوهم إلى المبنى المجاور حيث تعروا جميعاً فيه.

القيثارات والمندولينات وألعاب الشطرنج، والداما، والمصابيح، وزجاجات الزيت، والسكر، والقهوة، والأمتعة البيضاء، كل هذا داسوه بالأقدام أو أتلفوه، أو ألقوا به خارجاً، بعد أن فقدوا صوابهم، وهم ينتقمون من كل ما هو غير قانوني.

سمعنا صوت طلقين لاريب. إنها بالتأكيد من مسدس.

في المعسكر لماني أبنية والحراس يقومون فيها بالعملية نفسها. ومن حين إلى آخر يستخدمون الخاص البنادق في الضرب المبرح. فهذا رجل غرج مهرولاً ــ وهو عار ــ نحو زنزانات التأديب وقد أوسعوه ضرباً وجعباً، وهم يسوقونه إلى السرداب. إنهم يلعبون كل ملعب: إلى الأمام، إلى اليمين وإلى الخلف. . . وهم الآن في المبنى السابع، ولم يبق سوى المبنى الذي نحن فيه، وكان كل واحد منا، نحن التسعة قد تسمر في مكانه، والجميع واجمون، وأنا أشعر بجفاف حلقي إذ كنت أفكر: عسى أن لايستغل غبي منهم هذه الحالة ليقتلني ويفلت من العقاب.

قال كاربونييري وقد انخلع قلبه من الفزع: إنهم آتون.

قد تجمعوا، أكثر من عشرين وبأيديهم البنادق أو المسدسات على أهبة اطلاق النار.

صاح فيليساري:

ــ كيف؟ ألم تعروا بعد؟ ماذا تنتظرون يا مجموعة الجيف. سنرميكم بالنار جميعا اخلعوا ملابسكم. فنحن لانشتهي أن نعريكم بعد أن تصبحوا جثثاً . .

ــ ياسيد فيليساري. .

ــ اخرس يا بابيون. ليس هنا مجال طلب الصفح. إن مؤامرتكم وخيمة العواقب. وأنتم في هذه القاعة، قاعة الخطرين، ضليعون فيها ولاريب.

وكانت عيناه جاحظتين تسبحان في بركة من الدم، تلتمعان بشهوة القتل لا لبس فيها. فأزمعت على المجازفة فقلت:

ــ يدهشني أن نابوليونياً مثلك سيقتل أبرياء. هل تريد إطلاق النار؟ حسناً. لاجدال. أطلق، أطلق في سرعة. اسم الله. يافيليساري الشيخ. حسبتك رجلاً. حسبتك نابوليونياً حقاً. إني مخدوع، يالخسارة. لا أريد أن أراك حتى وأنت تطلق النار، أدير لك ظهري. وأنتم أديروا جميعاً ظهوركم لهؤلاء الحراس لكيلا يقولوا: إننا هاجمناهم. وأدار الرجال ظهورهم معاً. وذهل الحراس من موقفي بقدر ذهولهم من قتل فيليساري رجلين تحسين في مبنى آخر ــ كما علمنا فيما بعد ــ

ــ ماذا عندك من قول أيضاً بابيون؟

أجبت وأنا لاأزال مدبراً: قصة الثورة هذه لا أصدقها. لماذا الثورة؟ لقتل الحراس ثم الفرار؟ أين المفر؟ أنا رجل هروب، رجعت من أقاصي البلاد، من كولومبيا، وأستطيع

أي بلد سيمنح حق اللجوء إليه لقتلة آبقين. لاتكونوا حمقى فليس هناك رجل جدير بهذه التسمية يقبل بمثل هذا العمل.

ــ أنت ربما! ولكن ما بال كاربونييري؟ إنه متآمر وأنا واثق. لأن آرنو وهوتان قوجئا متظاهرين بالمرض كيلا يذهب إلى الشغل.

ــ هذا مجرد وهم وأؤكد لك.

واستدرت نحوه بوجهي وقلت:

ــ ستعرف ذلك في الحال. كاربونييري صديقي يعرف كل تفاصيل هروبي، فلا يمكنه أن يعلل نفسه بأوهام وهو على بينة من عواقب الهروب بعد الثورة.

وفي هذه الأثناء وصل المقدم وظل في الخارج. فخرج فيليساري، وصاح المقدم:

ــ كاربونييري

ــ حاضر

ــ سوقوه إلى السرداب بدون قسوة، أيها المراقب فلان اصحبه. اخرجوا جميعاً. وليبق هنا رؤساء المراقبين فقط. اذهبوا واجمعوا المعدمين المبعثرين في الجزيرة واحشروهم جميعاً. لاتقتلوا أحداً. احضروهم كلهم إلى المعسكر بغير استثناء.

دخل المقدم إلى القاعة ومعه مساعده وفيليساري وأربعة من الحراس. قال المقدم:

ــ بابيون! لقد حدث شيء رهيب. وبصفتي قائد معسكر التكذيب، فإن تبعة كبرى تقع على عاتقي، وقبل أن اتخذ بعض المواقف أريد الحصول وفي سرعة، على بعض المعلومات. أنا أعلم أنك في مثل هذه اللحظة ترفض أن تتحدث معي بصفتي الرسمية، لهذا جئت إليك هنا. لقد قتلوا المراقب دوكلو، وأرادوا سلب الأسلحة الموضوعة عندي. وكان هذا إذن تمرداً، وليس أمامي سوى دقائق معدودات، وأنا أثق بك فما رأيك.

ــ لو كان هناك تمرد فكيف يخفى علينا؟ ولماذا لانحاط علماً به؟ وما عدد الرجال المتواطئين. فهذه هي الأسئلة الثلاثة التي أطرحها يا سيادة المقدم، وسوف أجيب عنها إذا علمت عدد الرجال الذين تحركوا بعد أن قتلوا واستولوا على سلاحه.

ــ ثلاثة.

ــ من هم؟

ــ آرنو، هوتان، مارسو.

ــ لقد فهمت. شئت أم أبيت ليس هناك تمرد.

قال فيليساري:

ــ أنت تكذب بابيون، كان مقدراً لهذه الفتنة أن تحدث في رويال. فقد أنذر بها جيرازولو. ونحن لم نصدقها. واليوم نرى أن ما قاله كان صواباً. أنت تتجاوز علينا بابيون.

ــ إذا كنت على صواب فأنا خاسر، وكذلك بيرو المجرد وكاربونييري، وكالكاني وكل المساجين الكورسيكيين في رويال ورجال الجنوح، ورغم ما حدث فأنا لا أصدق، ولو

كانت هناك فتنة، لكنّا نحن رؤساءها لأخبرنا.

— ماذا تخرف؟ ألم يتواطأ أحد؟ مستحيل.

— أين ما فعله الآخرون؟ هل تحرك أحد غير هؤلاء الثلاثة المجانين؟ هل هناك ما يشير ياسيد فيليساري إلى احتلال مركز الحرس حيث يتواجد أربعة مراقبين مسلحين ببنادقهم بالإضافة إلى رئيسهم؟ كم مركباً في سان جوزيف؟ زورق واحد. وهذا الزورق هل يتسع لست مئة رجل؟ ألسنا أغبياء إذن؟ ثم أنقتل لكي نهرب؟ وإذا سلمنا بأن عشرين رجلاً قد هربوا، فلا مناص من القبض عليهم وإعادتهم أينما كانوا. يا سيادة المقدم! أنا لاأدري وربما أنت لاتدري كم قتل رجالك من السجناء وأنا أكاد أجزم بأنهم من الأبرياء. والآن ماذا يعني تحطيم هذا الشيء القليل الذي نملكه؟ ويبدو أن هذا قد أحد غضبكم. ولكن لاتنسوا أنه في اليوم الذي لاتتركون فيه الحد الأدنى للحياة في السجن عند ذلك ستكون ثورة اليائسين ثورة في الانتحار الجماعي، الموت من أجل الموت. سنموت معاً سجّانين وسجناء. يا سيد دوتان! أخاطبك بقلب مفتوح، وأعتقد أنك تستحق ذلك لكونك جئتنا إلى هنا للاستعلام قبل أن تتخذ قراراً. دعونا وشأننا...

قال فيليساري: والمتفرون؟

— هذا، عليكم أنتم أن تكشفوا عنه النقاب. أما نحن فلا نعلم شيئاً ولانعلمكم في شيء من هذا الموضوع. وأعيد: إن هذه القصة جنون من الرعاع، وليس لنا بما فعلوا أية صلة.

— ياسيد فيليساري، بعد أن يدخل الرجال في عنق الحظيرين، أغلقوا الأبواب إلى إشعار آخر وليقف أمام الباب مراقبان. لا أريد أعمال عنف، ولاتتلفوا ما يملكون. هيا إلى الطريق. ولننصرف مع الحراس الآخرين.

قال فيليساري وهو يوصد الباب: من حسن طالعك أنني نابوليوني.

في أقل من ساعة كان جميع الرجال في بيتنا قد رجعوا، وكان قد تغيب منهم ثمانية عشر رجلاً ولاحظ الحراس أنهم بسبب استعجالهم قد أدخلوهم في مبنى آخر. وعندما انضموا إلينا عرفنا كل ما جرى لأن هؤلاء كانوا في أشغال السخرة.

حكى لي أحد اللصوص ما جرى بصوت خافت فقال:

تصور يا بابي أننا سحبنا حجراً يقارب وزنه الطن مسافة أربع مئة متر تقريباً. والطريق الذي نجر عليه ليس فيه قسم واضح المعالم، ويؤدي إلى بئر تبعد خمسين متراً عن منزل المقدم. وكنا نتخذ من البئر محطة استراحة، وهي تقع تحت ظل شجرة للرجيل في منتصف الطريق. فتوقفنا كدأبنا وسحبنا من البئر دلواً من الماء البارد فشربنا وبعضنا كان يبل منديله ليضعه على رأسه. ولما كان زمن التوقف يقدر بعشر دقائق فقد جلس الحارس هو أيضاً على طرف البئر، فرفع قبعته وانهمك في تجفيف عرقه وعند ذلك اقترب آرتو من خلفه وبيده مجرفة، ولم يرفعها ليفوت علينا فرصة تحذير الحارس بصرخة منا، فرفع المجرفة وأهوى بحدها على رأسه فنزلت الضربة في مفرقه ولم تستغرق ثانية فانفلق

رأسه شطرين وارتمى دون أن تصدر عنه صيحة. وكان هوتان أمامه فتناول البندقية، وانتزع مارسو الطاق بما فيه من أعيرة نارية، والتفت نحو الجميع وقال: الثورة.. فمن كان معنا فليتبعنا. ولم يتحرك أحد من حملة المفاتيح ولم يصرخ. وليس في الشغيلة من أبدى استعداداً لمؤازرتهم. فنظر إلينا آرتو جميعاً وتابع هوتان ومارسو: أيها الجبناء! سوف نريكم كيف يكون الرجال. تناول آرتو البندقية من بين يدي هوتان وجرى الاثنان نحو منزل المقدم. ظل مارسو في مكانه بعد أن انسحب جانبياً، وأخذ يصدر الأوامر: لاتتحركوا، لاتتكلموا، وأنتم ياتيوس انبطحوا ووجوهكم نحو الأرض.

من هناك حيث كنت، شاهدت كل شيء: بينما كان آرتو يصعد السلم للدخول إلى دار المقدم، فتح العربي الذي يشتغل عنده الباب، وظهر مع البنتين، إحداهما ممسكة بيده والأخرى يحضنها بذراعه، وكانت مفاجأة لهما كليهما فركل العربي آرتو بقدمه، والطفلة لاتزال بين ذراعيه، وأراد آرتو أن يجهز عليه، ولكن العتر اتخذ من الطفلة مجنّاً[1]. لم يرفع أحد صوتاً لا العتر ولا الآخرون. وكانت البندقية تسدد نحو العربي مراراً من مختلف الجهات، وفي كل مرة كانت الطفلة هي التي تواجه فوهة البندقية. فأمسك هوتان وهو واقف على جانب السلم ودون أن يصعد أمسك بطرف بنطال العربي فأوشك أن يقع، وحينئذ رمى البنت على بندقية آرتو ففقد التوازن، ووقع بعضهم فوق بعض حين دفع هوتان العربي من ساقه. وفي هذه اللحظة بدأت الصيحات تعلو من البنتين أولاً، ثم من العربي، وتبع ذلك شتائم آرتو وهوتان. كان العربي أسرع منهما إلى التقاط السلاح من الأرض، ولكنه أمسك به بيده اليسرى من ناحية السقاطة فأحاط هوتان ساقه بذراعيه بينما لوى آرتو ذراعه الأيمن، فرمى العربي البندقية إلى مسافة عشرة أمتار. وفي الوقت الذي كان يتسابق فيه الثلاثة للوصول إلى البندقية، صدرت الطلقة الأولى من بندقية حارس، فظهر المقدم من نافذته، وطفق يطلق نار مسدسه، طلقة بعد طلقة على مكان البندقية، خشية أن يصيب العربي. فلاذ هوتان وآرتو بالفرار نحو المعسكر عن طريق الشاطئ، والطلقات تلاحقهم. كان هوتان يجري في سرعة أقل بسبب ساقه المفصلة فجندلوه قبل أن يصل إلى البحر. أما آرتو فقد دخل في البحر من موضع يتوسط السبح الذي هو قيد البناء، ومسبح الحراس. وهذه المنطقة مأهولة بأسماك القرش، وأحاطت به طلقات البندقية من كل جانب إذ جاء حارس آخر لنجدة المقدم، فاختبأ خلف صخرة كبيرة فقال له الحراس: ارجع وانج بحياتك.

— أبداً. أوثر أن تلتهمني القروش، وهكذا لن أرى وجوهكم القذرة، وتوغل في الماء نحو القروش. ويبدو أن رصاصة أصابته، إذ توقف في لحظة من اللحظات واستمر الحراس يطلقون الرصاص، فعاد مشياً لا سباحة، وكان الماء يغمره إلى صدره فسقط عندما هاجمه القروش وشوهد بوضوح ثم وهو يسدد لكمة لقرش خرج من الماء إلى

(1) المجن = الترس.

نصفه وارتمى فوقه ثم تمزأ أربعة أجزاء متساوية دون القطاع الأطراف لأن كلاب البحر تنهشه من كل صوب، وفي أقل من خمس دقائق كان قد تلاشى.

كان الحراس قد أطلقوا ما يزيد على مئة طلقة على الكتلة التي شكلتها القروش وآرنو وقتل قرش واحد شوهد متجهاً نحو الشاطئ، وبطنه نحو الفضاء. وحين وصل الحراس من كل ناحية ظن مارسو أنه نجا بجلده إذ ألقى بالمسدس في البئر ولكن العرب تهجموا واستاقوه بالركل واللكم والضرب بالعصا، ودفعوا به إلى الحراس قائلين: إنه أحد عناصر الفتنة. وبالرغم من الدم الذي يسيل منه وبالرغم من أنه كان رافعاً يديه إلى أعلى فقد قتله الحراس برصاص المسدسات والبندقيات، وللإجهاز عليه سحق أحدهم رأسه بأخمص البندقية وصار يهز رأسه بالسبطانة.

أما هوتان فقد أخذ كل حارس يفرغ فيه عياراته النارية، وكان لكل واحد منهم ستة وثلاثون طلقة. والأشخاص الذين قتلهم فيليساري هم رجال حدثهم العرب بأنهم تحركوا أولاً لتأييد آرنو ثم تراجعوا، وهذا محض افتراء إذ لو كان هناك متواطئون لما تحرك أحد.

مر يومان على حبسنا جميعاً في القاعات المخصصة لكل زمرة، ولايخرج أحد إلى العمل. يتغير الحراس على الباب كل ساعتين، وبين الليل والليل حراس آخرون، ويمنع تبادل الكلام بين سجين، والوقوف أمام النوافذ، وليست رؤية الباحة ممكنة إلا من الممر بين الأسرّة ومن مكان خلفي من خلال الباب الشبكي. لقد جاء حراس من رويال للدعم وليس في الخارج أحد حتى ولا عربي من حملة المفاتيح. وبين الفينة والفينة يرى رجل عريان يتجه نحو الزنزانات التأديبية، يتبعه خفير، ولكن بدون ضرب ولا صراخ. وغالباً ما ينظر الخفراء إلى داخل القاعة من خلال نوافذ جانبية. على الباب حارس على اليمين وحارس على الشمال. مدة المراقبة قصيرة، ساعتان فقط، ولكن الحراس لايجلسون أبداً ولايضعون سلاحهم كذلك، فالبندقية ممدودة على الذراع الأيسر والأصبع على الزناد.

قررنا اللعب بالبوكر في فرق صغيرة تتألف من خمسة أشخاص. لا لعبة مرسيليه ولا لعبة على نطاق واسع، فذلك يحدث ضجيجاً. أجبر ماركيتي على التوقف وقد كان يعزف سوناتا بيتهوفن، إذ قيل له: أوقف هذه الموسيقا، فنحن الحراس في مأتم.

يسود توتر مشترك، ليس في البيت وحده. بل في المعسكر كله. لا قهوة ولا حساء. وما يقدم هو كرة من الخبز صباحاً، ولحم بقري مخلوط ظهراً والعلبة الواحدة لأربعة أشخاص وبما أنهم لم يتلفوا لنا شيئاً فلا زال عندنا قهوة وبعض الأغذية كالزبدة والزيت، والطحين.. في البيوت الأخرى، لاشيء البتة.

عندما خرج الدخان من النار التي أعددناها للقهوة من نافذة المرحاض قال أحد الحراس: أطفئوا النار. فنجرأ رجل مرسيلي من المحكومين القدامى يدعى نستون، وهو الذي كان يصنع القهوة ليبيعها، وقال للحارس: إن كنت تريد إطفاء النار ادخل وأطفئها بنفسك. وحينئذ أطلق الحارس النار من النافذة، فتبددت القهوة والنار كل مبدد. وأصيب نستون برصاصة في ساقه وهاج الجميع أنهم ملاقو حتفهم برصاص الحراس فانكبوا على

وجوههم. وفي تلك اللحظة هرع رئيس فرقة الحراسة فيليساري كالمجنون ويصحبه أربعة حراس. وشرح الحارس الأوفرني الذي صوب بندقيته تفاصيل الحادث. فشتمه فيليساري بالكورسيكية، والآخر لم يفهم شيئاً فقال: لم أفهمك.

ثم عدنا إلى أسرتنا الأرجوحية، وساق نستون تنزف دماً، قال:

– لاتقولوا إني جريح، فإنهم سوف يجهزون علي إذا خرجت

اقترب فيليساري من الشبك وخاطب ماركيتي بالكورسيكية:

– إصنعوا قهوتكم. إن ما حدث لن يتكرر.

ثم انصرف. ومن حسن طالع نستون أن الرصاصة لم تستقر في ساقه بل دخلت من أسفل العضلة وخرجت من وسط الساق، فشدت حتى انقطع الدم ثم ضمدت مع الخل الساعة الثالثة مساء. إذن قد غشينا الليل، فإذا بحارس بروتوني لا أعرفه يناديني باسمي

– لماذا أخرج في مثل هذه الساعة وليس لي عمل في الخارج؟

– المقدم يريد أن يراك.

– قل له يأتيني إلى هنا. أما أنا فلن أخرج.

– أنت ترفض؟

– نعم أرفض.

فأحاطني أصحابي إحاطة السوار بالمعصم. وكان الحارس يتكلم من الباب المغلق فقال له ماركيتي:

– لن ندع بابيون يخرج إلا بحضور المقدم.

– ولكنه هو الذي أرسل في طلبه.

– قل له أن يحضر بنفسه.

وبعد ساعة حضر شابان ومعهما العربي الذي يشتغل عند المقدم، والذي أنقذه وأحبط التمرد.

– بابيون أنا محمد، جئت لأصحبك. المقدم يريد مواجهتك ولايستطيع الحضور إلى هنا.

قال لي ماركيتي: الرجل مسلح

فخرجت حينذاك من الطوق المضروب حولي، وتقدمت من الباب. وبالفعل كان محمد يحمل بندقية على ذراعه. لقد شاهده الجميع. سجين يحمل بندقية بصورة رسمية. قال لي:

– أنا هنا لحمايتك والدفاع عنك إذا اقتضى الأمر.

– ولكنني لا أصدقه.

– هيا تعال معنا.

فخرجت وسار محمد إلى جانبي والأعراب خلفي وقصدنا مقر القيادة، وعندما

مررت بمركز الحراسة قال لي فيلساري: بابيون أرجو أن لاتشكوني في شيء.
ـ أنا لا أفعل ذلك. ولا أحد ممن معي من الخطرين في البيت، أما في الأمكنة الأخرى فلا أدري.
نزلنا إلى القيادة، كان النزل والرصيف مضاءين بمصابيح يستخدم فيها (الفحم الهيدروجيني). وفي الطريق قدم لي محمد علبة سجائر.
وحين دخولي القاعة المضاءة إضاءة شديدة بالكاربور، وجدت المقدم في رويال والقدم الثاني، ومقدم سان جوزيف ومقدم الزنزانات.
كان في الخارج أربعة من العرب يحرسهم عدد من الخفراء، عرفت منهم اثنين من شهود القضية. قال أحدهما: هودا بابيون
قال المقدم في سان جوزيف: مساء الخير يا بابيون.
ـ طاب مساؤك
ـ اجلس هنا على هذا الكرسي.
وكنت وجهاً لوجه مع جميع الحاضرين. وكان باب القاعة المؤدي إلى المطبخ مفتوحاً، فأومأت لي عزّابة لتزيت إيماءة ودية. قال المقدم في رويال:
بابيون. أنت في نظر المقدم دوتان جدير بالثقة. شربت نفسك بمحاولة إنقاذ ابنة زوجته بالمعمودية. وأنا لا أعرفك إلا من خلال التقارير الرسمية التي تصورك رجلاً خطراً من كل ناحية. أريد أن أنسى هذه التقارير وأصدق زميلي دوتان. سوف تأتي لجنة للتحقيق. فالمبعدون جميعاً من كل الفرق سوف يدعون إلى التصريح بما لديهم من معلومات. ومن المؤكد أنك وبعض صحبك لكم تأثير كبير في المحكومين جميعهم وهم يتبعون تعليماتكم بكل حرفية. أردنا أن نعرف رأيك في الثورة وتصوراتك عما يمكن أن يصرح به بالتقريب من كانوا في بيتك أو غيره.
ـ ليس عندي ما أقوله، وليس لي تأثير فيما يفعله الآخرون. وإذا جاءت اللجنة لتقوم فعلاً بالتحقيق في هذا الجو فإنكم ستعزلون من مناصبكم.
ـ ماذا تقول بابيون؟ أنا وزملائي في سان جوزيف قمعنا الفتنة.
ـ ربما أمكنك أن تخلص نفسك ولكنك لن تخلص رؤساء رويال.
نهض القادمان القادمان من رويال ثم جلسا. وقالا: وضح ذلك.
إذا تحدثتم بصورة رسمية عن التمرد فإنكم جميعاً ستخلعون، وإذا قبلتم جميعاً بشروطي نجوتم جميعاً ما عدا فيلساري.
ـ ما الشروط؟
ـ أولاً أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي على الفور أي منذ صباح الغد. وإذا أمكننا التحدث فيما بيننا استطعنا التأثير في الجميع حول ما يجب التصريح به للجنة. أليس هذا صحيحاً؟
ـ بلى ولكن مم يجب إنقاذنا؟

ـ أنتم رجال رويال، لستم رؤساء رويال وحسب بل رؤساء الجزر كلها.
ـ نعم.
ـ وقد تلقيتم إشعاراً من جيرازولو بأن الفتنة قيد الإعداد سوف تقع ويترأسها هوتان وأرتو.
أضاف الحارس: وكاربونيري أيضاً
ـ لا. هذا غير صحيح. إذ كان كاربونيري عدواً شخصياً لجيرازولو منذ أن كانا في مرسيليا لذلك أضافه إلى المؤامرة عمداً. إذن أنتم لم تصدقوا هذا الكلام عن الفتنة. لماذا؟ لأنه قيل لكم ان الثورة تستهدف النساء والأطفال والعرب والحراس، وهو الشيء الذي يبدو بعيداً عن التصديق. هذا من جهة. ومن جهة أخرى الزورقان في رويال لايتسعان لثماني مئة رجل، والزورق في سان جوزيف لايكفي لست مئة رجل، إذن يستبعد أن يقبل الاشتراك في هذه الضربة أي رجل متزن.
ـ أنى لك هذه المعلومات؟
ـ هذا أمر يخصني. ولكن إذا تماديتم في الكلام عن الثورة، حتى لو أوعزتم بإزالتي من الوجود، أو أكثر من ذلك، لو فعلتم ذلك بأنفسكم فلابد أن يقال هذا الكلام ويؤتى بالدليل عليه. إذن تقع التبعة على رويال. أبعدتم هذين الرجلين دون أن تفرقوا بينهما، والقرار المنطقي إذا انكشف هذا التحقيق، هو أنكم لن تكونوا بمنجاة من أضرار فادحة، إذ كان ينبغي إبعاد أحدهما إلى جزيرة الشيطان والآخر إلى سان جوزيف، مع الاعتراف بأنه من الصعب تصديق حكاية المجانين هذه. وأصر على أنكم إذا تحدثتم عن الثورة اغرقتم أنفسكم.
إذن إذا قبلتم فهذه هي شروطي:
أولاً ـ كما ذكرت لكم آنفاً: إعادة الحياة الطبيعية.
ثانياً ـ كل رجال الزنزانات يجب إخراجهم على الفور ليكونوا موضع الشبهة في التآمر وبالتالي أن لايكونوا خاضعين للاستجواب عن الثورة، لأنها غير موجودة.
ثالثاً ـ يجب إرسال فيلساري إلى رويال للحفاظ على حياته أولاً ولأنه إذا لم تكن هناك ثورة فكيف نبرر قتل ثلاثة رجال؟ ولأن المراقب قاتل حقير، فعندما تحرك إيلان الحدث كان مذعوراً ويرغب في قتل الجميع بما فيهم نحن إذ كنا في البيت. إذا قبلتم بهذه الشروط فسوف أرتب الأمور مع جميع الرجال بأن يصرحوا بأن آرتو وهوتان ومارسو قد أرادوا إلحاق الأذى بأكبر قدر ممكن قبل أن يموتوا، وما فعلوه لم يكن متوقعاً. ولم يكن هناك متواطئون ولا كاتمون للمعلومات. وفي رأي الجميع أن هؤلاء الأشخاص قد عزموا على الانتحار بهذه الطريقة قبل أن يقتلوا، وهذا ما يخونه.
سوف انسحب ـ إذا شئتم ـ إلى المطبخ لتتشاوروا قبل إعطاء الجواب.
دخلت إلى المطبخ وأغلقت الباب، صافحتني مدام دوتان وقدمت لي القهوة وقدحاً من الكونياك.

قال لي العربي محمد: ألم تقل شيئاً من أجلي

ـ هذا أمر يخص المقدم. ولكن حينما سلمك سلاحاً دلل على أنه ينوي أن يجيء لك عفواً.

وقالت عراية لزيت بلسان حلب: لقد نالت جماعة روبال حسابها.

ـ إنه كان من السهل عليهم أن يصدقوا بالثورة في سان جوزيف حيث علم بها جميع الناس ما عدا زوجك.

ـ بابيون! أنا سمعت كل شيء وفهمت في الحال أنك تريد لنا الخير.

ـ هذا هو الصحيح مدام دوتان.

فتح الحارس الباب وقال: أقبل بابيون.

وقال قائد روبال:

اجلس بابيون. بعد المناقشة، وصلنا بالإجماع إلى القناعة بأنك على حق، وبأنه لم تكن هناك فتنة. هؤلاء المعدون الثلاثة كانوا قد قرروا الانتحار على أن يقتلوا قبل ذلك أكبر عدد ممكن من الناس إذن فالحياة ستعود إلى ما كانت عليه من قبل. وفيليساري سينتقل الليلة إلى روبال. ووضعه يخصنا نحن ولانطلب منك أية مساعدة بشأنه. ونحن نستند إلى أنك تحفظ العهد.

ـ اتكلوا علي. إلى اللقاء.

ـ يامحمد رافق بابيون مع الحارسين إلى القاعة. وادع لنا فيليساري إنه ذاهب معنا إلى روبال.

وفي الطريق قلت لمحمد: الحق لك إطلاق سراحك. فشكر لي.

ـ ماذا أراد منك المراقبون؟

وفي جو من الصمت المطبق، قصصت عليهم بصوت عال ما حدث، كلمة كلمة بالضبط.

ـ إذا كان فيكم من يخالف أو من يعتقد أنه قادر على نقد هذا الاجراء الذي اتخذته باسمكم جميعاً فليقله.

وبصوت واحد وافق الجميع.

ـ هل تظن أنهم صدقوا أن أحداً لم يتآمر معهم؟

ـ لا. إذا شاؤوا أن لايعزلوا فيجب أن يصدقوا، ونحن إذا لم نرغب في المتاعب فعلينا أن نصدق.

في الساعة السابعة صباحاً أفرغت الزنزانات كلها في المعسكر التأديبي وقد أربى عددهم على الثمانين والمئة. لم يخرج أحد إلى العمل رغم أن القاعات فتحت أبوابها كافة. وقضى الفناء بالسجناء يتكلمون في حرية، ويدخنون، ويتعرضون للشمس أو يستظلون بالشجر على هواهم. ولقد ذهب تسعون إلى المستشفى.

قال لي كاربونيري أن ثمانين باباً من أبواب الزنزانات علق عليها ورق مطوي كتب عليه «ظنين بالاشتراك بمؤامرة الفتنة»

والآن بعد أن اجتمع الرجال كلهم اكتشفت هم حقيقة وهي أن فيليساري لم يقتل سوى رجل واحد. أما الآخران فقد قتلهما حارسان شابان كانا مهددين من بعض الرجال الذين حوصروا وظنوا أنهم مقتولون لامحالة، فحملوا سكاكينهم في محاولة قتل واحد على الأقل قبل أن يموتوا.

هاهي ذي فتنة حقيقة قد أخمدت في مهدها وتحولت إلى انتحار مبتكر، لثلاثة رجال، وهي قضية مقبولة رسمياً من الطرفين: الإدارة والمحكومين على السواء. ويبقى منها اسم الاسطورة أو القصة، أو ما بين هاتين التسميتين، وأنا لست على اطلاع واسع في هذا الصدد.

يبدو أن دفن ثلاثة قتلى في المعسكر بالإضافة إلى هوتان ومارسو قد تم على الوجه الآتي: نظراً لعدم وجود نعش ذي درج لإلقاء الجثث الخمس في البحر، فإن الحراس قد وضعوها في قعر زورق وأرجحوها في الهواء، وألقوا بها دفعة واحدة في الماء إلى القروش، وقدرنا أن الأواخر منهم سينزلون إلى قاع البحر بثقل الحجارة في أرجلهم بينما تكون القروش قد التهمتهم وقد روي لي أن واحدة من الجثث لم تغب في الأعماق، وأن الجثث الخمس قد رقصت عند حلول المساء رقصة باليه الكفن الأبيض وكأنها لعب العرائس تحركها أسطام القروش أو أذنابها، في هذه الرقصة الجديرة اللائقة بنبوخذنصر. وولى الحراس، والوتيون مسرعين، من شناعة هذا المنظر. وصلت اللجنة وبقيت قرابة خمسة أيام في سان جوزيف ويومين في روبال. ولم استجوابي كالآخرين دون تمييز. وقد علمت من المقدم دوتان أن كل شيء يجري طبيعياً. منح فيليساري إجازة طويلة تتصل بإحالته إلى المعاش أي أنه لن يرجع أبداً، وأعفي محمد من باقي عقوبته، ونال المقدم دوتان درجة استثنائية.

دوماً هناك ناقمون. سألني بورديل بالأمس فقال:

ـ ماذا انتفعنا نحن الآخرين بهذا التدبير؟

نظرت إلى هذا المخلوق وقلت:

ـ لم تكسب كثيراً. فقط خمسون أو ستون سجيناً نجوا من الانفرادي لمدة خمس سنوات لإخفائهم المعلومات ثم لاتجد هذا شيئاً يذكر..؟

وهدأت العاصفة بحسن الطالع، وكان هناك نوع من التعاون الضمني بين المراقبين والمحكومين، الذي وفر على اللجنة الكثير من عناء التحقيق، والتي ربما كانت تريد غير هذا: أن تنتهي الأمور إلى الأفضل. وأنا شخصياً لم أربح ولم أخسر شيئاً، سوى اعتراف رفاقي بالجميل لأنني لم أعرضهم إلى احتمال تأديب أكثر ضراوة. وفوق ذلك ألغي العمل في سحب الحجارة، وغدا هذا من عمل الجواميس، وعلى السجناء أن يجلوا الحجارة في مكانها فقط. عاد كاربونيري إلى المخبز. وأنا أسعى للرجوع إلى روبال، وفي الواقع

لايوجد هنا مصنع، إذن سيكون من المستحيل صنع ظرف جديد.

وصول بيتان إلى سدة الحكم وسع الشقة في علاقات السجناء مع المراقبين. فجميع هيئة الإدارة يصرخون بصوت عال بأنهم مع بيتان، حتى أن حارساً نورمانديًا قال لي:

ـ هل تريد أن أقول لك شيئاً يا بابيون؟ لم أكن يوماً جمهورياً.

ليس في الجزر من يملك (راديو). لانسمع الأنباء، وفوق هذا يقال بأننا قد الغواصات الألمانية في المارتينيك والكوادلوب بما تحتاج من التموين، ولانفهم شيئاً مما يجري. وهناك دوماً جدال:

ـ هل تحب أن أقول لك؟ الآن أوان الثورة لكي نعطي الجزر للديغوليين.

ـ وهل تظن بأن شارلو العظيم بحاجة إلى هذه السجون؟ وماذا يفعل بها؟

ـ إنه يجمع منها ألفين أو ثلاثة آلاف رجل.

ـ رجال مصابون بالبرص أو السل أو الزحار أو الجنون. إنك أحياناً تحب المزاح ليس هذا الرجل أحق ليربك نفسه بالسجناء.

ـ والأصحاء الذين يبلغ عددهم الألفين؟

ـ هذا شيء آخر. فالرجل الصحيح ليس بالضرورة رجل سلاح. هل تظن أن الحرب هجوم بأيد مسلحة؟ إن مبارزة بالسيف تدوم عشر دقائق، أما الحرب فتدوم سنين. ولكي تكون جندياً يجب أن تكون مؤمناً بالوطن. أرضيت بهذا أم لا. ولا أرى هنا رجلاً مستعداً لأن يقدم حياته في سبيل فرنسا.

ـ وكيف نقدم حياتنا لها بعد أن فعلت بنا ما فعلت.

ـ إذن أنت ترى أنني على حق. وحسن الحظ أن هذا الطويل شارلو رجالاً آخرين غيرنا ليحاربوا. ولاننسى أن نقول بأن الألمان القذرين يحتلون أرضنا وأن هناك فرنسيين إلى جانبهم.

الحقراء هنا جميعاً بغير استثناء هم مع المارشال بيتان، ويقول الكومت دوبيراك وإن سياسة بيتان هي نوع من التفادي، وحينئذ حدث ما يلي:

فيما مضى لم يكن أحد يتحدث عن الفداء، وها قد أصبح الجميع من الخاصة والرعاع، جميع هؤلاء المساكين يرون بريقاً من الأمل.

ـ أنقوم بالثورة من أجل الالتحاق بقوات ديغول يابابيون؟

ـ آسف جداً. لاأريد أن أضحي بنفسي إكراماً لعيون أحد. فالعدالة الفرنسية والقصل المسمى «رد الاعتبار» لايساويان عندي شيئاً. سأدفش رد الاعتبار بنفسي. ومن واجبي أن أهرب وأن أكون رجلاً سوياً حالما أتحرر. لأعيش في مجتمع لا أكون فيه خطراً عليه. ولا أعتقد أن أسلاً يستطيع أن يبرهن على ذلك بطريقة أخرى. إنني على استعداد للقيام بأي عمل من أجل الهروب. أما تسليم الجزر لشارلو العظيم فأمر لايعنيني، وأنا واثق أن ذلك لايهمه أيضاً.

ـ وإذا قمتم بمثل هذا الإجراء، فهل تعلم ما يقوله الأعلون؟ سيقولون بأنكم

احتللتم الجزر لتتحرروا، لا لكي تقدموا برهان الـولاء لفرنسا الحرة. ثم هل تعرفون أنتم أي الفريقين على حق؟ ديغول أم بيتان؟ أما أنا فلا أعلم شيئاً على الإطلاق. وأنا الرجل العي المسكين، يؤلمني أن أرى بلادي يجتاحها العدو. فأنا أفكر في والدتي وشقيقاتي وأولادهن.

ـ هل يجب أن نكون بليدين حتى تشغل بالنا مجتمع لم يرحمنا؟

ـ ومع ذلك فالأمر بديهي، لأن القضاة ورجال الدرك والحقراء ليسوا فرنسا، إنهم صنف على حدة، مكوّن من أناس ذوي تفكير معوّج. كم من رجال من هذا الصنف هم اليوم مستعدون ليضعوا أنفسهم في خدمة الألمان. أراهنك على أن الشرطة الفرنسية توقف المواطنين، لتسلمهم إلى السلطات الألمانية. حسناً إني أقول وأكرر القول إنني لن أساهم في تمرد أو ثورة، مهما كانت المواقع، إلا بهدف الهروب ولكن أي هروب هذا؟

تدور مناقشات خطرة، بين الرفقاء، بعضهم يميل إلى ديغول وبعضهم مع بيتان. والحقيقة لايعرفها أحد. إذ كما قلت آنفاً لايوجد راديو عند المراقبين ولا عند السجناء. والأخبار تصلنا عن طريق السفن التي تأتينا حاملة الطحين والخضار الجافة والرز. ونحن نرى الحرب من أقصى البلاد ومن العسير أن نفهم ظروفها.

سيأتي، على ما يبدو، إلى سانت لوران دو ماروني ضابط تجنيد تابع للقوات الحرة. وبالنسبة إلى سجن الأشغال فإننا لانعلم شيئاً بعد سوى أن الألمان قد احتلوا فرنسا كلها.

حدث حادث مسل: جاء إلى رويال خوري، فوعظ بعد القداس فقال:

وإذا هوجمت الجزر فسوف نعطيكم سلاحاً لتساعدوا المراقبين في الدفاع عن أرض فرنسا»

هذا أكيداً ما كان أحلاه هذا الخوري! إنه فعلاً يستحق منا رأياً متواضعاً. فطلب من السجناء الدفاع عن زنزاناتهم. وهكذا نكون قد رأينا كل شيء في السجن. إن الحرب يمكن أن نترجمها نحن بما يلي: مضاعفة عدد الرجال من الحارس العادي إلى المقدم، ورئيس المراقبين وأن يكثر عدد المفتشين، ويكون لبعضهم نكتة ألمانية أو ألزاسية، فيقل مقدار الخبز فيصبح نصيبنا أربع مئة غرام فقط، وكذلك تقل كمية اللحم.

الشيء الوحيد الذي زاد هو ثمن الهروب الفاشل، سيكون الحكم بالإعدام مع التنفيذ لأنهم سيضيفون إلى تهمة الهروب هذه العبارة: «حاول الالتحاق بأعداء فرنسا»

أنا في رويال منذ أربعة أشهر، واتخذت من الدكتور جيرمان صديقاً حميماً. وكانت زوجته امرأة فريدة وقد طلبت إلي أن أنشئ لها حديقة تساعدها على اتباع حمية لإنقاص الوزن. ونفذت الفكرة وزرعت لها الخس والفجل والفاصولياء الخضراء والبندورة، والباذنجان وكانت في غاية الإعجاب، وصارت تعاملني معاملة الصديق الطيب. كان الدكتور لايصافح أحداً من المراقبين مهما كانت درجته. أما أنا فقد كان يصافحني، وكذلك بعض السجناء الذين تعرف عليهم ويكن لهم كل تقدير.

ولما رجعت حراً وثقت علاقتي به من جديد بوساطة الدكتور روزنبرغ، فأرسل لي

صورته مع زوجته من مرسيليا، وكان قد عاد من مراكش، وهنأني إذ علم بعودتي إلى الحرية والسعادة. ومات فيما بعد في الهند الصينية في محاولة إنقاذ جريح متأخر. كان رجلاً فذاً، وامرأته جديرة به. وعندما سافرت إلى فرنسا عام ١٩٦٧ كنت أميل إلى الذهاب إليها ولكنني عدلت عن ذلك، لأنها كانت قد انقطعت عن مراسلتي منذ أن طلبت منها شهادة تزكية، وقد فعلت ذلك. لا أعرف سبباً لهذا الصمت ولكنني أحفظ لها في قلبي أعلى درجات العرفان بالجميل للطريقة التي عاملاني بها في مسكنهما في رويال.

بعد عدة أشهر تمكنت من الرجوع إلى رويال.

سان جوزيف

موت كاربونيري

بالأمس تلقى صديقي ماتيو كاربونيري طعنة سكين في صميم قلبه. وهذه الجريمة سبقتها جرائم أخرى لقد كان عند المغسل عارياً يغتسل ووجهه مغطى بالصابون عندما تلقى هذه الطعنة.

كانت العادة إذا أراد أحدنا الاستحمام تحت المرشة، وضع سكينه تحت المنشفة ليتسع له الوقت في تناولها إذا داهمه ـ افتراضاً ـ عدو. وهو لم يفعل ذلك فكلفه ذلك حياته. والذي قتل صديقي رجل أرمني ملتح منذ أن نبتت له لحية. وبإذن من القائم ومساعدة أحد الرجال أنزلت صديقي إلى الرصيف البحري، وكان ثقيلاً، وفي النزول اضطررت إلى الاستراحة ثلاث مرات. ووضعت في قدميه حجراً كبيراً، وبدلاً من الحبل وضعت له سلكاً معدنياً. وهكذا فإن القروش تعجز عن قطعه، وتغوص الجثة في الماء دون أن تفترسها أسماك القرش.

دق الناقوس ووصلنا إلى الرصيف، وكانت الساعة السادسة مساء، والشمس تغيب تحت جنح الدجى عند الأفق. صعدنا في زورق، وكان صديقي ينام نومته الأبدية في هذا الصندوق الشهير وقد أنزل غطاؤه ويستخدم هذا الصندوق للجميع. قال لي الحارس: اسحب إلى أعلى. وفي أقل من عشر دقائق وصلنا إلى التيار الناجم عن المضيق بين جزيرة رويال وسان جوزيف. وفجأة أحسست بغصة. وبدت على سطح الماء عشرات زعانف القروش تدور في سرعة، وفي مساحة ضيقة تقل عن أربع مئة متر هذه هي قاضمات السجناء. إنها على موعد، في الساعة المحددة بالضبط. وأرجو الله أن لا يهيء لها فرصة التقاط صديقي. رفعت المجاذيف مع تحية الوداع ورفعنا الصندوق وانزلق جثمان ماتيو المكفن بأكياس الطحين بجره ثقل الحجر الضخم، فلامس البحر في سرعته. بالفظاعة، فما كاد يغوص، وظننته توارى، حتى عاد إلى الصعود في الهواء يرفعه سبعة قروش، أو

عشرة، أو عشرون، فمن يستطيع لها عدأ؟ وقبل أن ينسحب الزورق كانت أكياس الطحين التي تلقه قد انتزعت. وحينئذ حدث شيء لم نجد له تفسيراً: لقد ظهر ماتيو لمدة ثلاث ثوان واقفاً في الماء، مبتور الساعد الأيمن، نصف جسمه خارج الماء يتقدم نحونا، وأثناء حركته اختفى إلى الأبد. وقد مرت القروش تحت زورقنا، وصدمت أسفله ولوشك رجل منا أن يفقد توازنه ويقع في الماء فتجمدنا جميعاً حتى الحراس. ولأول مرة أشتهي الموت. ولم يبق إلا القليل لكي أرمي بنفسي إلى القروش، وأختفي من هذا الجحيم إلى الأبد.

صعدت من الرصيف إلى المعسكر بتؤدة ولم يكن في صحبتي أحد. وضعت المحفة على كتفي ووصلت إلى المسطح، حيث هاجم جاموسي بروتوس الجاموس دانتون، توقفت فجلست. سجا الليل ولما تزل الساعة السابعة مساء، ومن ناحية الغرب كانت الشمس ترسل آخر خيوطها بعد أن توارت وراء الأفق وكانت السماء مسودة الأرجاء إلا من ثقب ضوئي تحدثه منارة الجزيرة بين لحظة وأخرى قلت لنفسي وقد ضاق صدري: أيها القدر! لقد أردت أن ترى حادثة دفن، والأسوأ من هذا دفن صديقك. حسناً لقد رأيته، رأيته جيداً. الناقوس وما استتبع دقاته. فهل أنت راض؟ وهل أشبعت نهم فضولك المراضي؟ بقي أن أفك عظام قاتل صديقي. متى؟ هذه الليلة؟ لم هذه الليلة لايزال الوقت مبكراً. إنه الآن في أوج احتراسه وحذره، هو وصحبه عشرة. يجب أن لا أكون اللقمة السائغة في هذه الضربة السريعة، ولنر على كم رجل يمكنني الاعتماد. أربعة وأنا نصبح خمسة، هذا يكفي ـ لندع هذا القاتل يسترخي، وإذا أمكن ذهبت إلى جزيرة الشيطان. لاطوف هناك ولاتحضير للهروب. كيسان من جوز الهند، ولا أبه للبحر، والمسافة إلى الشاطئ، ليست طويلة، نسبياً، فهي أربعون كيلو متراً. والمسألة لاتعدو الثبات. أنا قوي يومان في البحر على ظهر جوادي. وأعني به كيس جوز الهند، ويجب أن استطيع فعله. حملت المحفة من جديد وصعدت إلى المعسكر، ولدى وصولي فتشوني وهذا خارق للعادة إذ لم يحصل مثل هذا من قبل، وأمسك الحارس بسكيني.

هل تريد أن تقتلني؟ لم جردتني من سلاحي؟ هل تعلم أنك تدفعني إلى الموت إذ تفعل ذلك؟ فإن قتلوني يكن ذلك بسببك. فعي الحارس جواباً، وكذلك حملة المفاتيح العرب. فتحوا لي الباب ودخلت القاعة. الرؤية ضئيلة. ولماذا مصباح واحد بدلاً من ثلاثة. جرني قرانده من ردني وقال: تعال من هنا.

ليست القاعة صاخبة، فكأن شيئاً خطيراً سيحدث أو قد حدث.

ـ لم تبق مديتي معي. لقد انتزعت مني أثناء التفتيش.

ـ لست في حاجة إليها هذه الليلة.

ـ لماذا؟

ـ الأرمني وصاحبه في المراحيض.

ـ ماذا يفعلان هناك؟

ـ لقد ماتا.

ـ من الذي ردهما؟

ـ أنا.

ـ ما أسرع ما حصل. والآخرون؟

ـ بقي من الجمعية أربعة. بولو أعطاني عهد الرجال بأنهم لن يتحركوا، وإنهم ينتظرونك ليسألوك إذا كنت ترضى بالوقوف عند هذا الحد.

ـ أعطني مدية.

ـ إليك مديتي. أنا باق هنا في هذا الركن. اذهب وتكلم معهم.

ـ تقدمت نحو مجموعتهم. تعودت عيناي الآن هذا النور الضئيل، وتوصلت إلى تمييز هذه الجمعية. وكان الأربعة واقفين أمام أسرتهم، يلتصق أحدهم بالآخر.

ـ بولوا هل تريد مخاطبتي؟

ـ نعم.

ـ ويحك لم أمام رفاقك؟ ماذا تريد مني؟

تركت بيني وبينهم مسافة متر ونصف المتر على سبيل الاحتراس، والسكين مفتوحة في كمي الأيسر ومقبضها في مكان من يدي.

ـ أعتقد أن صديقك قد انتقم انتقاماً كافياً. أنت خسرت أعز صديق ونحن خسرنا اثنين وأرى أن نقف عند هذا الحد. فما رأيك أنت؟

ـ بولوا أنا أسجل لك هذا العرض، والذي يمكن عمله، إذا كنتم توافقون، هو أن تتوافق الفرقتان على أن لانقدما على عمل شيء مدة ثمانية أيام. فمنذ الآن وحتى ذلك الحين سنرى ما يجب عمله. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وانسحبت.

ـ ماذا قالوا لك؟

ـ قالوا أنهم يعتقدون بأن مصرع الأرمني ورفيقه كان كافياً للثأر لماتيو.

فرفض كالكاني، وسكت قرانده. جان كاستيلي ولويس قرافون موافقان على عقد صلح.

ـ وأنت يابابي.

ـ أولاً من الذي قتل ماتيو؟

ـ الأرمني.

ـ حسناً. لقد عرضت اتفاقاً وأعطيت كلمة الشرف، وهم فعلوا كذلك، بأن لايتحرك أحد خلال ثمانية أيام.

قال كالكاني: ألا تريد الثأر لماتيو؟

ـ يارجل. لقد ثأرنا له، وقتل اثنان من أجله. فلماذا نقتل الآخرين؟

ـ هل كانوا على علم بذلك؟ هذا ما يجب أن نعرفه.

ـ عموا مساء. اعذروني إنني أرغب في النوم قليلاً.

وكنت أبغي البقاء وحيداً بعض الوقت، فتمددت على سريري. شعرت أن يداً تنساب نحوي وتسحب السكين في هدوء. ثم سمعت صوتاً يهمس في الظلام:

ـ نم إذا استطعت يا بابي. نم وادعاً، ونحن نتناوب الحراسة.

كانت ميتة صديقي شرسة بشعة، لأنها كانت بغير سبب جاد. قتله الأرمني، لأنه فرض عليه الثأر اللعب مبلغ مئة وسبعين فرنكاً. فشعر الأحمق بأن قدره قد انحط، لأنه أجبر على الدفع أمام ثلاثين أو أربعين رجلاً من اللاعبين. ولما وجد نفسه محصوراً بين ماتيو وغرانده فلم يجد إلا الرضوخ والإذعان. فقتل في نذالة، رجلاً مغامراً نظيفاً وفياً في بيته. ولقد أوجعتني هذه الضربة، ولم أجد ما يعزيني سوى أن القاتلين لم يعيشا بعد جريمتهما إلا ساعات معدودات، وهذا لايكفي.

غرانده، هذا النمر، قد قطع عنق كل منهما قبل أن يأخذا حذرهما. وتم ذلك في سرعة تليق ببطل سيف حلوم. وأتصور المكان الذي سقطا فيه، عائماً بالدم، وفكرت في قيلولة وأحب أن أسأل عمن جرهما إلى المراحيض، ولكنني لاأريد أن أسأل. رأيت ، وأنا مغمض الجفنين، غروب الشمس الأحمر المشرب باللون البنفسجي، بشكل مأساوي تضيء بلهيبها الأخير هذا المشهد الوحي بشعر دانته، وأسماك القرش تتنازع صديقي، وهذا الجذع المنتصب المنثور الساعد وهو يمشي نحونا. إذن كان حقيقة ما يقال من أن الناقوس يستدعي القروش، وهذه الحيوانات القذرة كانت تعلم بأن طعاماً قد أعد لها لتلتهمه، عندما يقرع الناقوس. كنت أرى أيضاً عشرات الزعانف، وانعكاسات سوداء حزينة تجري كأنها غواصات، وتدور دوراناً. لقد كانت حقاً تفوق الألف. وبالنسبة إلى صديقي انتهى طريق العفن، فقد سار به إلى نهايته. مات بطعنة سكين من أجل ترهة، وهو في الأربعين من عمره. ياصديقي المسكين إني لا احتمل. لا. لا. لا. لاأريد أن تهضمني القروش. وقد أقبل ذلك حياً وأنا في مغامرة في سبيل حريتي، وبدون أكياس طحين ولاحبل ولاحجر، وبغير متفرجين ولا مساجين ولاحراس، وبدون ناقوس. إذا كان لابد من أن تأكلني فلتضربني بأخطامها وتهضمني في أحشائها وأنا حي أكافح ضد عناصر الطبيعة للوصول إلى الأرض الكبرى. انتهينا. انتهينا تماماً. لاهروب إلا بعد الإعداد المحكم.

إلى جزيرة الشيطان، ثم كيسان من جوز الهند ثم إطلاق العنان، ويسير كل شيء بقدرة المولى. وبعد هذا لن تكون المسألة أكثر من مقاومة جسدية خلال ثمان وأربعين ساعة أو ستين. هذا وقت طويل لخوض البحر؟ يضاف إليه مجهود عضلات الفخذين المقلصة حول أكياس جوز الهند. ألا تشل ساقاي في لحظة ما؟ وإذا أسعفني الحظ ووصلت إلى مر جزيرة الشيطان فسوف أحاول. يجب أولاً الخروج من رويال والذهاب إلى جزيرة الشيطان، وبعد ذلك سنرى.

ـ هل تنام بابي؟

ـ لا.

ـ هل لك في قليل من القهوة؟

ـ إذا سمحت.

ثم استويت قاعداً على سريري راضياً بالقهوة التي قدمها لي غرانده مع سيجارة مشتعلة.

ـ كم الساعة؟

ـ الواحدة صباحاً

ـ تسلمت الحراسة منذ ساعة. رأيتك تتقلب فأدركت أنك لاتنام.

ـ أنت على حق. إن موت ماتيو قلب كياني، ولكن إطعامه للقروش أثارني أكثر. هل تعلم؟ لقد كان ذلك رهيباً.

ـ لاتقل لي شيئاً يا بابيون، افترض أن ذلك كان فعلاً شيئاً رهيباً. وما كان عليك أن تذهب إلى هناك.

ـ كنت أعتقد أن قصة الناقوس حديث خرافة. وما كنت لأصدق بأن السلك المعدني الذي يحمل الحجر الكبير تطيح بها أسماك القرش في لج البحر. ماتيو المسكين، لن أنسى ما حييت هذا المشهد الرهيب. وأنت ماذا فعلت حتى مسحت الأرمني وصاحبه من الوجود؟

ـ أنا كنت عند طرف الجزيرة أركب باباً حديدياً للملحمة عندما بلغني نبأ مقتل صاحبنا، وكان الوقت ظهراً وبدلاً من أن أصعد إلى المعسكر ذهبت إلى الأشغال بدعوى تصليح القفل. استطعت أن أصنع خنجراً مشحوذاً من طرفيه في أنبوب طوله متر. كان مقبض الخنجر أجوف وكذلك كان الأنبوب. دخلت إلى المعسكر في الساعة الخامسة والأنبوب في يدي، فسألني الحارس عنه فأجبته بأن القضيب الخشبي في سريري الأرجوحي قد انكسر، وأني سوف استعمل هذا الأنبوب بدلاً منه هذه الليلة فقط. وكانت فلول النهار بدأت تنهزم عندما دخلت القاعة ولكنني تركت الأنبوب عند الغسل وقبل العقد استرجعته. وبدأ الليل يمد جناحه الأسود. فدعمت الخنجر بالأنبوب والأصحاب يحيطون بي. وكان الأرمني وصاحبه (سان سوسي) واقفين في مكانيهما أمام سريرهما، ويوليو خلفهما قليلاً. وكما تعلم، إن جان كاستيلي ولويس غرافون شجاعان غير أنهما تقدما في السن وتنقصهما سرعة الحركة لكي يقاتلا في حشد منظم كهذا. أردت أن أتصرف قبل وصولك، حتى أبعد الشبهة عنك مع ما عندك من سوابق. فلو كنا نحن الغلوين لتعرضت للخطر إلى أقصى حد. كان جان في آخر القاعة فأطفأ أحد المصابيح. وفعل غرافون مثله في الطرف الآخر. وكانت القاعة في شبه ظلمة. بوجود المصباح البترولي في الوسط. وكان معي مصباح جيب كان ديغا قد أعطانيه. فتقدمني جان وسرت خلفه، وعندما وصل إليهم رفع مصباحه ووجهه نحوهم، فبهر الضوء الأرمني فرفع ذراعه الأيسر إلى عينيه وسرعان ما خرقت عنقه برمحي. وسان سوسي (الرجل الآخر) شهر سكينه أمامه في الفراغ وهو لايعلم

ابن يضعها فطعنه بالرمح بقوة فاخترقت الطعنة عنقه من الوريد إلى الوريد. أما بولو فقد ألقى بنفسه منبطحاً على الأرض، ثم تقلب تحت الأسرة. وعندما أطفأ جان مصباح الجيب غفلت عن ملاحقته، وهكذا نجا بجلده.

ـ ومن جرهما إلى المراحيض؟

ـ لا أدري واعتقد أن رجال عصبته فعلوا ذلك ليخرجوا الأسبوعية من بطانيها.

ـ لابد أن هناك كثرة من الدم المهراق.

ـ ماذا تقول. لقد ذبحا من الوريد إلى الوريد، وربما أفرغا آخر نقطة من دمهما. جاءتني فكرة الضوء بينما كنت أعد الرمح، إذ كان في المصنع حارس يغير بطاريات مصابيحه والصلت يديها وطلبت منه أن يعيرني واحداً. ونظراً لاحتمال إجراء التفتيش نظامي فقد أعدت المصباح إلى ديما بوساطة حامل مفاتيح عربية، وكذلك الخنجر. إذن ليس هناك أية فضيحة من هذه الجهة. ولم أعمل شيئاً ألام عليه. لقد قتلوا صديقنا وعيناه مغلقتان بالصابون وأنا نحرتهما وعيناهما غارقتان في النور. إذن تعادلنا. ما رأيك يا بابي؟

ـ نعم ما فعلت. ولا أدري كيف أشكر لك هذا التصرف السريع للثأر لصديقنا، علاوة على فكرة إبعادي عن هذه الحادثة.

ـ لاداعي للكلام. فهذا واجبي، لقد قاسيت كثيراً وأنت تطمح إلى الحرية باندفاع قوي وهذا ما يجب أن افعله.

ـ شكراً يا غرانده. أجل إني أطمح إلى الذهاب، أكثر من أي وقت مضى؟ لذلك ساعدني على أن تقف القضية عند هذا الحد. وبكل صراحة ستكون مفاجأة لي، لو أن الأرمني كان قد أحاط صحبه علماً بنيته. وبولو لايقبل بجريرة جبانة كهذه، فهو يعرف العواقب.

ـ وأنا من رأيك ولكن غالغاني يقول بأنهم جميعاً الموت.

ـ سوف نرى ما قد يحصل في الساعة السادسة، فلن أخرج لتفريغ القاذورات، وسوف أتمارض لمشاهدة ما يحدث.

في الخامسة صباحاً اقترب منا خفير المهجع وقال:

ـ يا جماعة. هل تعتقدون أن من واجبي استدعاء الحراس النازيين؟ لقد اكتشفت قتيلين في المراحيض.

هذا الرجل سجين عجوز في السجون من عمره، يريد أن يوهمنا نحن بأنه لايعرف شيئاً رغم أنها تبردا منذ الساعة السادسة والنصف من مساء أمس. ولابد أن القاعة ملطخة بالدماء، وحين مشى الرجال انغمست أقدامهم في البركة المتشكلة وسط الممر.

فأجابه غرانده بخبث مماثل:

ـ كيف ذلك؟ أيوجد قتيلان في المراحيض؟ منذ متى؟

ـ الله أعلم. كنت أنام منذ الساعة السادسة، والآن وبينما كنت ذاهباً لقضاء حاجة تزحلقت في بركة لزجة وكاد وجهي يتحطم فأشعلت قداحتي فرأيت أن هذا دم. وفي

المراحيض وجدت الشخصين.

ـ تاو. سوف نرى.

ـ يامراقبون! يامراقبون!

ـ لماذا تصرخ بهذه الشدة أيها الحارس الهرم؟ هل اشتعلت النار في بيتك؟

ـ لايأسيدي الرقيب. إنما هناك قتيلان في المراحيض.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أبعثهما حيين؟ الساعة الآن الخامسة والربع، فحتى الساعة السادسة سوف نرى. حاول أن لايقترب أحد من دورة المياه.

ـ إن ما تقوله مستحيل. ففي ساعة اليقظة الجميع يذهبون إلى هناك لقضاء حاجاتهم.

ـ صحيح. انتظر، سوف أخطر رئيس الحرس.

وعاد ثلاثة منهم. مراقب رئيسي وحارسان. وظننا أنهم داخلون. لا. ظلوا أمام الباب الشبكي.

ـ تقول هناك قتيلان في المراحيض؟

ـ نعم يا سيدي

ـ منذ أية ساعة؟

ـ لا أدري. ولكن منذ قليل اكتشفتهما حينما كنت ذاهباً للتبول.

ـ من هما؟

ـ لا أعلم.

ـ حسناً أيها العجوز اللئيم. أنا أقول لك: أحدهما الأرمني. اذهب وانظر.

ـ حقاً إنه الأرمني ورفيقه سان سوسي.

ـ حسناً. ننتظر التفقد.

ثم انصرفوا.

الساعة السادسة، قرع الجرس الأول وفتح الباب وطاف موزعا القهوة من مكان إلى آخر، وخلفهما موزعو الخبز. في الساعة السادسة والنصف قرع الجرس الثاني وكانت الشمس قد ذرت قرنها، والممر عليه آثار أقدام من مشى في الليل. وصل المقدمان، وقد صار الوقت ضحى، ويصحبهما ثمانية مراقبين والطبيب.

ـ على الجميع أن يتعروا وأن يقفوا وقفة استعداد أمام سريرهم، إنها ملحمة حقيقية فالدم في كل مكان. كان المقدم الثاني أول داخل إلى المراحيض، ولما خرج كان ممتقع اللون فقال ولقد ذبحا ذبحاً. طبيعي إن أحداً لم ير ولم يسمع، صمت مطبق.

ـ أنت أيها العجوز حارس المهجع قد يبس هذان الرجلان. منذ متى كانت الوفاة بالتقريب يا دكتور؟

ـ منذ ثماني إلى عشر ساعات.

ـ ومع ذلك لم تكتشف ذلك إلا في الصباح. ألم تر شيئاً؟ ألم تسمع شيئاً؟

ـ لا أنا ثقيل السمع، ولا أكاد أرى أمامي، وبلغت من العمر سبعين عاماً، قضيت أربعين منها في السجن، أظنك تفهمني. فأنا رجل نؤوم، نمت في الساعة السادسة، ولولا إحساسي بالتبول لما استيقظت في الخامسة والنصف. ومن عادتي أن لا أستيقظ إلا على صوت الجرس.

قال المقدم ساخراً: أنت على حق. إنه لخطأ كبير. وهكذا نام الجميع وادعين، مراقبين وسجناء. أيها المرضون! احملوا هاتين الجثتين وخذوهما إلى مدرج التشريح. يادكتور أريد أن تجري تشريحاً. وأنتم اخرجوا واحداً واحداً عراة الأجسام.

مررنا أمام المقدم والطبيب مترادفين. وكانا يفحصان الرجال فحصاً دقيقاً من كل النواحي، وليس في جسم أحدهم جرح، وعلى بعضهم رش من الدم، وقد فسروا ذلك بأنهم تزحلقوا حين ذهابهم إلى المراحيض. أنا وكالكاني وغرانده كان فحصنا دقيقاً أكثر من غيرنا.

ـ بابيون أين مكانك؟

فلنذهب إليه ونفتش أمتعتي كلها

ـ أين مديتك؟

ـ أخذها مني الحارس عند الباب في الساعة السابعة من مساء أمس.

فقال الحارس: هذا صحيح. وقد أحدث جلبة وهو يقول بأنهم يريدون قتله.

ـ غراندة! هل هذه المدية لك؟

ـ أجل إنها في مكاني، فهي إذن لي.

وتفحص السكين فوجدها نظيفة جداً لاشيء فيها كالفرش الجديد. وعاد الطبيب من المراحيض وقال: إن الآلة المستعملة في ذبح الرجلين خنجر ذو حدين، وقد قتلا واقفين. وهذا أمر غريب. إن سجيناً لايسلم عنقه للذبح كالأرنب دون أن يدافع عن نفسه ولابد من وجود جريح.

ـ أنت ترى بنفسك يا دكتور، ليس هناك واحد فيه خدش.

ـ هل كان هذان الرجلان خطرين؟

ـ جداً يا دكتور. الأرمني هو حتماً قاتل كاربونيري الذي قتل بالأمس، في المغسل الساعة التاسعة صباحاً.

ـ قضية مدروسة.

ومع ذلك احتفظوا بمدية غراندة.

ـ هيا إلى العمل ما عدا المرضى. ألنت مريض بابيون؟

ـ أجل أيها المقدم.

ـ لم تضيع وقتاً للانتقام لصديقك. أنا لست غبياً. أنت تعرف ذلك ولسوء الحظ لا أملك البراهين، وأنا واثق بأني لن أضع يدي عليها. وللمرة الأخيرة أليس عند أحدكم ما يصرح به؟ إذا كان في وسع أحدكم أن يلقي الضوء على هذه الجريمة المزدوجة، له

عندي كلمة شرف بأن أحرره من الحجر وأرسله إلى الأرض الكبرى.

صمت مطلق. جميع رفاق الأرمني تمارضوا، وفي آخر لحظة تظاهر غراندة وكالكاني وكاستيلي ولويس غرافون، بالألم، بعد أن رأوا تمارض أولئك.

خلت القاعة من المئة والعشرين رجلاً، وبقينا فيها نحن الخمسة، وأربعة من فرقة الأرمني والساعاتي والحارس الذي كان يتذمر باستمرار بسبب ما عليه من التنظيف. وكان أيضاً ثلاثة أو أربعة آخرون من السجونين أحدهم الزاسي وهو سيلفان العظيم.

يعيش هذا الرجل وحده، ليس له مجموعة بل أصدقاء، وكان قد ارتكب حادثاً فريداً فنال عقوبة بالسجن عشرين سنة. إنه رجل أعمال مبجل. هاجم عربة بريدية في قطار باريس-بروكسل السريع. وهاجم الجنديين الحارسين، وألقى بأكياس البريد على حجارة السكة الحديدية، فتلقاها شركاء له كانوا على الطريق، وقد غنموا مبلغاً كبيراً.

ولما رأى سيلفان الفريقين يتهامسان كل في ركنه، وهو يجهل ما بينهما من الشقاق، سمح لنفسه بالكلام:

ـ أرجو أن لاتقوم بينكم معركة صاخبة على نحو ما كان يفعله الفرسان الثلاثة.

قال كالكاني: اليوم لا. أما في المستقبل فقد يحصل.

قال بولو: لماذا في المستقبل؟ لاتؤجل إلى الغد ما تستطيع أن تفعله اليوم. أما أنا فلا أرى موجباً للتقاتل. ما رأيك بابيون؟

ـ لدي سؤال واحد: هل كنتم على بينة مما كان ينوي أن يفعله الأرمني.

ـ أقسم بشرفي بأننا ما كنا نعرف شيئاً. وهل تحب أن أقول لك شيئاً؟ ما كنت أعلم بموت الأرمني فكيف كنت أقبل بما أقدم عليه؟

ـ قال غراندة: ما دام الأمر كذلك لماذا لانطوي القضية نهائياً؟

ـ نحن من جهتنا موافقون. لنتصافح ولانعد إلى هذا الموضوع المؤسف جداً.

ـ اتفقنا.

قال سيلفان وأنا شاهد على ذلك. ويسرني أن ينتهي الأمر.

ـ ولن نعود إلى الخوض فيه.

في الساعة السادسة مساء قرع الناقوس ولم أستطع أن أمنع نفسي عن تصور المشهد، الليلة البارحة، وصديقي منتصب الجذع آتياً نحو المركب. فالصورة بالغة التأثير، حتى بعد أن انقضت أربع وعشرون ساعة إني لا ألوم الأرمني وصديقه أن تناوشهما جماعة القروش.

كالكاني لم ينبس ببنت شفة، فهو يعرف ماذا جرى لكاربونيري، كان ينظر شارد الذهن، وساقاه المتدليتان عن سريره تتأرجحان، ذات اليمين وذات الشمال ـ غراندة لم يدخل بعد. كان رنين الناقوس الجنائزي قد توقف حين قال كالكاني دون أن ينظر إلي وهو لايزال يهز رجليه: أرجو أن لاتكون القروش التي أكلت الأرمني القذر هي نفسها التي ضربت ماتيو بخطمها. ولقد كانا مفترقين في الحياة، فمن الحماقة أن يلتقيا في بطن قرش

واحد.

إن غياب هذا الصديق المخلص سيترك فراغاً في حياتي. الأفضل أن انتقل إلى رويال وأتحرك في سرعة أكبر. كنت أكرر الكلام نفسه كل يوم.

هروب المجانين

نظراً لظروف الحروب، فإن العقوبات صارمة على من كان متلبساً بحالة هروب فاشلة.

ليس الآن أوان تحضير خطة للهروب أليس كذلك يا سالفيدا؟

كنت والإيطالي ذو الأنبوبة الذهبية الذي ألفيه أثناء القافلة نتناقش عند المغسل، بعد أن قرأنا البلاغ المتعلق بالأوضاع الجديدة بشأن الهروب قلت له:

ـ ومع ذلك ليس الحكم بالإعدام هو السبب الذي يحول بيني وبين الهروب. وأنت؟

ـ أنا يا بابيون، لا أطيق صبراً وأريد الهروب وليحصل ما يحصل. ولقد طلبت أن اشتغل في مأوى المجانين بصفة ممرض. فأنا أعلم أنه في مستودع التموين في المأوى برميلان، سعة كل منهما خمسة وعشرون ومئتي ليتر، وهما كافيان لصنع طوف. في أحدهما زيت زيتون وفي الآخر خل. فإن ربط أحدهما بالآخر بشكل لا ينفصم أحدهما عن الآخر، يعطي فرصة للوصول إلى الأرض الكبرى. تحت الأسوار التي تحيط بمبنى المجانين، من الناحية الخارجية لاتوجد حراسة، ومن الداخل حراسة دائمة يقوم بها حارس ممرض. يساعده في هذا سجناء يراقبون دون انقطاع ما يفعله المجانين. لم لاتأتي معي إلى هناك؟

ـ بصفة ممرض؟

ـ مستحيل بابيون. أنت لايعطونك عملاً في المأوى. فبعده عن المعسكر وضعف المراقبة وكل ما فيه لايسمح بإرسالك إلى هناك. وإنما يمكن الذهاب بصفة مجنون.

ـ من الصعب جداً ياسالفيدا. عندما يصنفك الطبيب مع المجانين، لايعطيك إلا الحق في أن تفعل أي شيء مجاناً، لا أكثر ولا أقل. وفي الحقيقة أنت معروف بعدم مسؤوليتك عن أعمالك فهل قدرت مسؤولية الطبيب عندما يقبل بذلك ويوقع على التشخيص المرضي؟ حينئذ تستطيع أن تقتل سجيناً أو حارساً أو زوجة حارس أو غلاماً. تستطيع الهروب، وأن تقترف أية جريمة. فالعدالة لاتملك شيئاً ضدك. وأقصى ما يمكن

عمله ضدك هو أن توضع في زنزانة عارياً إلا من قميص القهر الأبيض. وهذا النظام لايمكن أن يستمر طويلاً، وفي يوم من الأيام لابد أن تلين معاملتهم. والنتيجة ففي أي عمل خطر تقوم به بما في ذلك الهروب إنك لاتدفع الثمن غالياً.

ـ بابيون! أنا واثق منك ويرضي أن أهرب معك. افعل المستحيل لتأتي إلي بصفة مجنون، وأنا أستطيع مساعدتك بصفتي ممرضاً إلى أبعد الحدود. وأستطيع أن أواسيك في أحرج الساعات وأقساها ولا أخفي عليك بأن المرء العاقل يجد العيش بين هذه الكائنات الخطرة شيئاً رهيباً.

ـ اذهب يا روميو إلى المأوى وسوف أدرس القضية بعمق، وبخاصة الأعراض الأولى للجنون، لأتوصل إلى إقناع الطبيب لتصنيفي في زمرة غير المسؤولين. فكرة ليست بالسيئة. وبدأت بدراسة القضية دراسة جادة، ولم أجد في مكتبة السجن أي كتاب حول هذا الموضوع وكلما سنحت لي الفرصة كنت أناقش رجالاً عانوا من المرض قليلاً أو كثيراً وتوصلت بالتدريج إلى تكوين فكرة واضحة:

١ ـ يحس المجانين بآلام حادة في المخيخ.

٢ ـ ويحسون دوياً في الأذنين، غالباً.

٣ ـ وهم شديدو التوتر، فلا يستطيعون الرقود طويلاً في وضع واحد دون أن تضطرب أعصابهم، فيستيقظون وتختلج أبدانهم بعنف وألم شديدين.

يجب إذن أن أترك للطبيب أن يكتشف ذلك دون الإشارة إليه مباشرة، ويجب أن يكون جنوني من النوع الخطر، حتى يتخذ الطبيب قراره بضرورة عزلي في مأوى المجانين، ولكن لن أكون عنيفاً حتى لا أتعرض لسوء معاملة المراقبين: قميص القهر، اللكم، الحرمان من الغذاء، الحقن بالبروميور، الحمامات الباردة أو الحارة، الخ.

فإذا أحسنت تمثيل هذه المهزلة، استطعت مخادعة الطبيب فأقول له:

ـ عندي سؤال أعفني عنه إكراماً لي: لماذا ولأي سبب سأكون متمارضاً؟ وعندما لايجد الطبيب تفسيراً منطقياً لهذا السؤال فمن المحتمل أن أربح جولة. وليس هناك حل آخر بالنسبة إلي. لقد رفضوا إبعادي إلى جزيرة الشيطان، ولم أعد أطيق المعسكر، منذ أن قتل صديقي ماتيو. لن أتردد لقد حزمت أمري. سأذهب يوم الاثنين إلى العيادة. لا لست أنا الذي أدعي المرض، بل لابد من أحد يبلغ عني، وهذا أفضل. ويجب أن يكون موثوقاً. وعلي أن آتي بأشياء مريبة غير سوية في القاعة، وحينئذ فإن حارس القاعة سيروي للمراقب، وهذا بدوره هو الذي يسجلني في عداد المرضى.

ثلاثة أيام انسلخت، ولم تكتحل عيناي بنوم، ولم اغتسل ولم أحلق ذقني، وكنت أستمني أكثر من مرة كل ليلة. ولا آكل إلا قليلاً. بالأمس سألت جاري عن صورة انتزعها من مكاني وهي لم تكن موجودة أصلاً. فأقسم جهد أيمانه على أنه لم يمس أمتعتي، فساوره قلق فغيرَّ مكانه.

يترك الحساء عادة في وعاء خشبي بضع دقائق قبل توزيعه، فاقتربت من الوعاء

وبولت فيه أمام جميع الحاضرين فسادهم الذهول، ويظهر أن وجهي قد أثر فيهم فلم يهمس أحد بكلمة إلا صديقي غرانده فقد قال:

ـ بابيون لم فعلت هذا؟

ـ لأنهم نسوا أن يضعوا فيه ملحاً.

وبدون أن يتنبه لي أحد أحضرت صحني ومددت يدي نحو مراقب البيت وطلبت منه أن يسكب لي منه وفي صمت شامل نظر إلى الجميع وأنا أحتسي الحساء.

هاتان الحادثتان كانتا كافيتين لعرضي على الطبيب هذا الصباح. فوجدت نفسي أمامه دون طلب مني.

ـ إيه أيها الطبيب، أشراً ما رأيت أم هو خير؟

وكررت السؤال فنظر الطبيب إلي مدهوشاً وثبت النظر إليه بعينين طبيعيتين وبحقين إراقتي

ـ إنه خير. هل أنت مريض؟

ـ لا.

ـ إذن لم جئت للعيادة؟

ـ لا لشيء، قيل لي إني مريض وقد سرني أن أرى ما ليس صحيحاً. إلى اللقاء.

ـ انتظر قليلاً بابيون. اجلس تجاهي. انظر إلي.

وأخذ الطبيب يفحص عيني بمصباح يلقي منه حزمة ضوئية.

ـ ألم تر شيئاً دكتور مما تظن أنك اكتشفته؟ أشعتك ليست قوية، ومع ذلك أظنك فهمت شيئاً أليس كذلك؟ قل لي هل رأيتها؟

ـ رأيت ماذا؟

ـ لا تتباله، ألست طبيب أم بيطري؟ لاتحاول تقول لي أنه لم يكن لديك الوقت الكافي لتراها قبل اختفائها، إما أنك تخفي عني شيئاً أو أنك تتخذني هزواً.

كانت عيناي تبرقان من اللغوب[1]، وهيئتي على هذا الشكل بدون حلاقة ولا نظافة، لعبت دوراً لصالحي. وكان الحراس يصغون وقد أخذهم العجب، ولكنني لم أقدم على العنف الذي يستدعي تدخلهم.

قام الطبيب يداريني ويدخل في لعبتي، وأربت على كتفي وأنا جالس كل ذلك كيلا يستثيرني.

ـ نعم أردت أن أختفي عنك بابيون، وقد أتيحت لي فرصة رؤيتها.

قلت ببرود: أنت أفاك[2] أيها الطبيب، لأنك لم تر شيئاً قط، إن ما أفكر فيه هو أنك كنت تبحث عن شيء. إنها ثلاث نقط سود في عيني اليسرى أراها فقط عندما أنظر في الفضاء وحين أمسك بالمرآة أرى عيني بوضوح ولا أرى أثراً لتلك النقاط. إنها تختفي

(1) شدة التعب.
(2) كثير الكذب.

حالما أمسك بالمرآة لأراها.

ـ خذوه إلى المستشفى في الحال، دون أن يعود إلى المعسكر. قلت لي بابيون إنك معافى ويمكن أن يكون هذا صحيحاً وإنما أراك مرهقاً. هذا السبب سأبعث بك إلى المستشفى لبضعة أيام استجماماً. هل ترغب في ذلك؟

ـ إن هذا لايضايقني في المعسكر أو في المستشفى فأنا دوماً في الجزر.

لقد خطوت الخطوة الأولى. وألفيت نفسي بعد نصف ساعة في المستشفى في زنزانة مضاءة، فيها سرير جيد نظيف، ملاءاته ناصعات البياض. وقد علقوا على الباب ورقة كتب عليها «قيد الملاحظة» وشيئاً فشيئاً وبإيحاء داخلي أقول إلى «ع ون»، وإنها للعبة خطرة. إن تقليص عضلات الفم، والعض على الشفة السفلى بين الأسنان عملية مدروسة، أمام قطعة مرآة مكسورة كنت قد أخفيتها. وقد ألفت هذه الحركات إلى درجة القيام بها دون رغبة مني. قلت لنفسي: لاينبغي التسلي بهذه اللعبة الصغيرة يا بابي. اضطررت أن أفعل هذا لكي أشعر الآخر ضمنياً بأنني غير متزن، وفي هذا يكمن الخطر، إذ قد يترك في نفسي بعض العيوب أو العقد. ومع ذلك يجب إكمال اللعبة للوصول إلى الهدف. أدخل إلى الملجأ ثم أمضي من المسؤولية ثم أهرب مع صديقي. الهروب الكلمة السحرية التي تبر عطفي وتطربني أيما طرب. أتخيل نفسي جالساً على البرميلين مندفعاً نحو الأرض الكبرى بصحبة صديقي المريض الإيطالي.

كان الطبيب يمر لزيارتي كل يوم، ويفحصني طويلاً. وكنا نتحدث بأدب ولطف، ولكنه مشوش البال، ولايزال غير مقتنع. وسوف أنبه بألم ينتابني في القذال كأول الأعراض.

ـ كيف الأحوال بابيون؟ هل نمت جيداً؟

ـ أجل دكتور. أنا بخير تقريباً. وشكراً على مجلة (ماتش) التي أعرتني إياها. النوم شيء آخر وفي الواقع خلف زنزانتي مضخة لري أي شيء؟ لست أدري. وصوت ذراع المضخة بلان بان لم ينقطع طول الليل يصل إلى مؤخرة عنقي حتى كأنه يحدث في الداخل صدى. بان ـ بان لاهو ينقطع، ولا أنا أحتمل. هذا لن أنسى لك الجميل إذا أنت أمرت بتغيير الزنزانة.

التفت الطبيب إلى الحارس الممرض في سرعة وهمس:

ـ هل توجد مضخة؟

فأومأ الحارس برأسه إيماءة تعني لا.

ـ أيها المراقب. بدلوا زنزانته. أين تريد الذهاب؟

ـ إلى أقصى مكان. بعيداً عن هذه المضخة الملعونة، إلى آخر الممشى. شكراً دكتور.

أغلق الباب وألفيت نفسي وحيداً في الزنزانة ثم أحسست بما يشبه الإعصار، وهو ضجة تكاد لاتدرك، إذ كانوا يراقبونني متجسسين من خلال جهاز التجسس في الباب. إنه

الطبيب حتماً، لأنني لم أسمع خطواته تبتعد طويلاً، بعد أن انصرفوا. وفي سرعة مددت يدي نحو الجدار الذي يحجبني عن الصفحة الموهومة وصحت في شدة: قفي قفي أيتها القذرة. ألا تنتهين من سقيا بستان الجوز؟ واستلقيت على السرير وأخفيت رأسي تحت الوسادة ولم أسمع صوت الصفيحة النحاسية التي تغلق جهاز التجسس، ولكنني سمعت وقع الخطوات تبتعد. والنتيجة أن الطبيب هو الذي يتجسس.

بدلت زنزانتي بعد الظهر، والأثر الذي تركته هذا الصباح لاريب أنه جيد. إذ أنه رافقني إلى آخر الممر حارسان وسجينان ممرضان. فلم يتكلموا وأنا لم أكلمهم بل اكتفيت بالسير خلفهم دون أن أتلفظ بكلمة. وبعد يومين بأي دور الظاهرة المرضية الثانية وهي الطنين في الأذنين.

ـ كيف الحال بابيون؟ هل انتهيت من المجلة التي أرسلتها إليك؟

ـ لا لم أقرأها. لقد أمضيت النهار وجزءاً من الليل في محاولة خنق البعوضة أو الذبابة الصغيرة التي عششت في أذني. عبثاً حاولت إدخال قطعة من القطن ولم أجد حيلة، وأخنحها لأنني نظن زن زن زن. زد على ذلك أنها تدغدغني دغدغة غير مستحبة. والدوي مستمر. وفي النهاية أبلغ حد الاستفزاز يا دكتور. ما ظنك في هذا؟ إذا لم أنجح في خنقها يمكن إغراقها ما رأيك؟

تشنج عضلات وجهي لايتوقف، وأرى الطبيب وهو يسجل ملاحظة حول ذلك. أمسك بيدي ونظر إلى عيني فأحسست باضطرابه وتعبه.

ـ أجل يا صديقي بابيون سنغرقها. شاتال! اغسلوا له أذنيه. كل يوم يتكرر المشهد مع بعض التغيير والدكتور لم يقرر بعد أن يبعث بي إلى الملجأ.

أنبأني شاتال أثناء حقنة البرومور بأن الأمور حتى لاتدعو إلى القلق، والطبيب منزعج ولايزال الوقت مبكراً لكي يرسلك إلى الملجأ. أظهر للطبيب بأنه يمكن أن تكون خطراً، إذا أردت أن يتخذ قراراً سريعاً.

جاء الدكتور مصحوباً بالحراس والممرضين، ومنهم شاتال، ودخل وحياني وهو يفتح الباب: قال:

ـ كيف حالك بابيون؟

اتخذت موقفاً عدائياً، قلت: أوقف سيارتك دكتور. أنت تعلم أن الحالة جيدة. وأنا أريد أن أعلم من منكم الشريك مع الشخص الذي يعذبني.

ـ من الذي يعذبك؟ ومتى؟ وكيف؟

ـ أولاً هل تعرف يا دكتور أعمال الدكتور أرسونفال؟

ـ نعم وأرجو .

ـ وهل تعلم أنه اخترع نواساً ذا تموجات متعددة لكهربة الهواء حول مريض مصاب بقرحة في القفص وبهذا النواس يرسلون تيارات كهربائية. تصور أن عدواً لي قد

سرق جهازاً من المستشفى في كاين وكلما أنت هادئاً ضغط على الزر، وتصطدمني الشحنة المرتفعة في بطني وفي فخذي فأنتفض بغتة ثم أقفز قفزة فوق سريري على ارتفاع عشرة سنتمترات. ولم يكف الجهاز عن هذا الإرسال هذه الليلة. ولا أغمض عيني حتى يصل التيار، وينتفض جسمي كالنابض المطلق: فأنا لا أقوى على الاحتمال دكتور. أبلغ الجميع بأن أول من أكتشف اشتراكه بالتآمر مع ذلك الرجل فسوف أفك عظامه. أنا لست مسلحاً ولكن لي من القوة ما يكفي خنقه أياً كان. تحقق إلى مستمعي الكريم. وأبعد عني أعمالك المرائية وعبارتك المعسولة: «كيف الحال بابيون؟» وأعيد عليك القول أبعد عني عرنتك.

لقد أتت الحادثة أكلها وقال لي شاتال بأن الطبيب قد نبه الحراس بأن يكونوا حذرين وقال أن يخاطبوني بلطف. وأضاف قائلاً إنه مصاب بعقدة الاضطهاد ويجب إرساله بسرعة إلى الملجأ. قال شاتال، حتى يجنبني قميص المجانين:

ـ هل أكلت جيداً بابي؟

ـ نعم شاتال وكان طعاماً طيباً.

ـ هل تريد الذهاب معي ومع جينوس؟

ـ إلى أين؟

ـ نحن ذاهبون إلى الملجأ لإحضار بعض الأدوية، ويكون لك في ذلك نزهة.

ـ هيا بنا.

وخرجنا نحن الثلاثة في طريقنا إلى الملجأ، وكنا نتحدث طول الطريق وفي لحظة عندما اقتربنا قال:

ـ ألا تشعر بالتعب بوجودك في المعسكر بابيون؟

ـ بلى، والآني فيه الأمرين، وبخاصة بعد غياب صديقي كاربونيري.

ـ لماذا لاتبقى أياماً أخرى في الملجأ؟ وهكذا فإن رجل الجهاز لن يجدك هناك ليرسل عليك تياره.

ـ إنها فكرة حسنة، ولكن أتعتقد أنهم يقبلون بي هنا ما دام دماغي سليماً؟

قال الحارس مسروراً، وهو يتوهم أنني وقعت في فخ شاتال: دعني أتصرف. سوف أكلمهم في شأنك.

باختصار هاأنذا في الملجأ مع مئة من المجانين وليست الحياة مع المعتوهين سكراً. يستنشقون الهواء في الباحة مجتمعين في زمر. تتألف الزمرة من ثلاثين رجلاً تقريباً، في الوقت الذي كان الممرضون ينظفون فيه الزنزانات، وكلهم عراة ليل-نهار. وكان الطقس لحسن الحظ حاراً. تركوا لي حذاء من النسيج. وقدم لي الممرض سيجارة بعد أن أشعلها. جلست تحت أشعة الشمس أفكر بسالفيدا الذي لم أستطع مقابلته رغم مرور خمسة أيام على وجودي هنا.

دنا مني مجنون أعرف قصته، ويدعى فوشه، باعت والدته دارها لترسل له مبلغ خمسة عشر ألف فرنك بوساطة أحد المراقبين لكي يهرب، فأعطاه عشرة آلاف واحتفظ لنفسه بخمسة. ومازال هذا المراقب يبتزه حتى تركه مفلساً وذهب إلى كايين. ولما علم فوشه عن طريق آخر أن أمه هي التي أرسلت له المال، وأنها غدت وسائطها تراب، دون جدوى، جن جنونه، وهاجم في اليوم نفسه المراقبين، فسيطروا عليه، ولم يستطع أن يلحق بهم أي أذى، ومنذ ذلك اليوم أي منذ أربع سنوات وهو يعيش بين المجانين. قال لي:

ـ من أنت؟

نظرت إلى هذا المسكين، وهو شاب في الثلاثين من عمره، وقد انتصب أمامي ويسألني من أكون.

ـ أنا رجل مثلك لا أقل ولا أكثر.

ـ إجابتك غبية. أرى جيداً أنك رجل، وأرى ما أمامك، وخاصة أنك عاره ولو كنت امرأة لرأيت شيئاً آخر. إنما أسألك من تكون؟ أعني ما اسمك؟

ـ بابيون.

ـ بابيون؟ أأنت فراشة؟ مسكين! الفراشة تطير ولها جناحان، أين جناحاك؟

ـ لقد أضعتهما.

ـ يجب أن تعثر عليهما وبهذه الصورة تستطيع الهروب إذ ليس للحارس أجنحة. بوسعك إذن أن تسخر منهم. أعطني سيجارتك.

وقبل أن أقدمها له كان قد انتزعها بأصابعه وجلس ودخنها بلذة. قلت له:

ـ وأنت من تكون؟

ـ أنا المسحوق. كلما أعطيت شيئاً يخصني أعيد لي.

ـ لماذا؟

ـ هكذا! ولهذا سأقتل العديد منهم. وهذه الليلة شنقت اثنين. لا تخبر بذلك أحداً.

ـ لم شنقتهما؟

ـ لأنهما سرقا منزل أمي. تصور أن أمي أرسلت لي دارها، وهم لما رأوه جميلاً أخلوه واحتفظوا به، وسكنوه. ألم أحسن صنعاً إذ شنقتهما؟

ـ أنت على حق. وهكذا لن ينتفعوا من السكنى في دار أمك.

ـ هذا الحارس الكبير الذي تراه خلف الشباك هل تراه؟ هو أيضاً يسكن المنزل هذا فإنني سأخنقه، صدقني.

ثم نهض وانصرف.

أف. أليس من سخرية القدر أن يعيش المرء بين المجانين والمخاطر؟ الصراخ يملأ جنبات الليل وبخاصة إذا كان القمر بدراً كاملاً فإنه يهيجهم. كيف يؤثر القمر في المجانين؟ هذا ما لم أجد له تفسيراً ولكني لاحظته مراراً.

يقدم الحراس التقارير عن المجانين بملاحظتهم. وبالنسبة إلي، فإنهم يفتعلون أحداثاً ليلاحظوا رد الفعل عندي، من ذلك أنهم يتعمدون نسيان اخراجي إلى الفناء وينتظرون إذا كنت أطالب بالخروج، أو يتناسون طعامي. وكان عندي قصبة ذات خيط دقيق فأقوم بحركات الصياد، فيقول لي المراقب: هل هذا يعض يا بابيون؟

ـ لايمكن أن يعض. تصور أني عندما أصطاد تلاحقني سمكة صغيرة في كل مكان فإذا وجدت سمكة تريد أن تعض على الشص فإن الصغيرة تنذرها وتقول لها: احترسي ولاتعضي فإن بابيون هو الذي يصطاد. ولهذا السبب لم أتوصل إلى صيد. ومع ذلك فأنا ماض في الصيد لعل واحدة لاتصدقها.

عندما أدعى إلى المائدة المشتركة في قاعة الطعام لاأستطيع أن أستمتع بصحني من العدس. كنت ضحية لعملاق لايقل طوله عن متر وتسعين سنتمتراً. يكسو الشعر جذعه وذراعيه وساقيه كالقرد. فهو يجلس أبداً إلى جانبي.

إن العدس يقدم ساخناً جداً، ولكني نستطيع أكله يجب الانتظار قليلاً ليبرد وكنت أتناول بالملعقة الخشبية قليلاً وأنفخ عليها، ولايتسنى لي أن آكل سوى بضعة ملاعق حتى يأخذ إيفان هوه (كان يتوهم نفسه إيفان هوه)، صحنه ويحيط به بكفيه إحاطة السوار بالمعصم، ويزدرد كل ما فيه في خمس لحظات، ثم يستولي على صحني ويفعل به ما فعل بصحنه، ثم يعيده إلي ممسوحاً في صخب وجلبة، وينظر إلي بعينيه الواسعتين المحمراوين كالجمر وكأنه يقول: أرأيت كيف أتناول العدس وبدأت أضيق به ذرعاً. وبما أني لم أصنف بعد في زمرة المجانين أزمعت أن أكيل له ضربة يسمع لها صدى بعيد.

وكان يوماً آخر من أيام العدس. وإيفان هوه لم يكف عني فجلس بجانبي ووجهه المجنون مستثير. فتذوق سلفاً لذة التهام عدسه وعدسي، فسحبت جرة كبيرة ملأى بالماء كانت أمامي، وما إن رفع العملاق صحني وصب حسائي في حلقه، حتى نهضت ورفعت الجرة بكل ما أوتيت من قوة وحطمتها فوق رأسه، فطاح على الأرض وقد ندت عنه صيحة وحشية. وفي الحال انقض المجانين بعضهم على بعض مسلحين بالصحون وهبت ضوضاء صاخبة تتناغم مع صيحاتهم.

وجدت نفسي من جديد في الزنزانة حيث حملني أربعة من الممرضين الأقوياء بدون احتراس. وكنت أصرخ كمن فقد رشده مدعياً بأن ايفان هوه سرق مني عنقظي وفيها بطاقتي الشخصية، وهذه المرة أيضاً كنت موفقاً. فعزموا على تصنيفي مع المعفيين من تبعة أعمالهم. وأجمع المراقبون على أنني مجنون وادع، غير أنني أصبح خطراً في بعض الأحيان. ما أجمل العصابة والضماد على رأس إيفان هوه. ولحسن الحظ لانخرج إلى النزهة في وقت واحد.

استطعت التحدث مع سالفيدا وقد حصل على مفتاح إضافي لمخزن التموين حيث البرميلان. وهو يسعى للحصول على ما يكفي من الأسلاك المعدنية للربط. قلت له: إنني

تخشى أن تتقطع الأسلاك بتأثير الشد والارخاء على البرميلين في البحر، ويفضل استعمال الحبال فهي أشد مرونة. فذهب يسعى للحصول على الحبال، فتوفرت له مع الأسلاك، وبقي عليه أن يصنع ثلاثة مفاتيح أحدها لزنزانتي، وواحد لباب الممر المؤدي إليها، والثالث للباب الرئيسي في الملجأ. جولات المراقبين قليلة حارس واحد لكل أربع ساعات حراسة. من الساعة التاسعة إلى الواحدة صباحاً. ومن الساعة الواحدة إلى الخامسة، اثنان من الحراس يتبادلان أثناء الحراسة، ولايقومان بأية جولة، ويتكلان في هذا على سجين مريض مكلف بالحراسة معهما. إذن تجري الأمور على أحسن وجه، والمسألة لاتتعدى الصبر، وسيكون التحرك بعد شهر على الأكثر. أعطاني المراقب الأول سيجاراً رقيقاً مشتعلاً، عندما وصلت إلى الباحة، وقد بدا لي لذيذاً على رداءته، ونظرنا إلى هذا المقطع من الرجال العراة الذين يغتسلون ويدبكون، ويقومون بحركات مضطربة، أو يكلمون أنفسهم وكانت أجسامهم مبللة بسبب رشاش الماء (الدوش) الذي يأخذونه قبل الخروج إلى الفناء. هذه الأجسام الذاوية الضامرة التي ظهرت عليها آثار قتال القمصان المشدودة بقوة، وكذلك آثار السياط والضرب الذي مارسه الحراس عليهم أو مارسوه على أنفسهم. هذا هو المشهد الأخير لنهاية طريق العفن. كم واحداً من هؤلاء المشرفين على الهلاك كانوا معروفين بقدرتهم على تحمل تبعة أعمالهم بشهادة الأطباء النفسانيين في فرنسا.

تيتان (هكذا يدعى) كان معي في قافلة العام ١٩٣٣ قتل رجلاً في مرسيليا ثم وضع جثته في عربة يجرها جوادان، وقادها بنفسه إلى المستشفى، وقال لدى وصوله: خذوه واعتنوا به. أظنه مريضاً. وأوقف على الفور، ولم يعترف له المحلفون بأقل درجة من المسؤولية، ومع ذلك فهو مجنون لقيامه بمثل هذا العمل. وأغبى الأشخاص بطبيعة الحال من كان يعرف أنه سوف يتعرض للسخرية. إنه هنا، تيتان يجلس إلى جانبي، ويعاني من زحار مزمن، إنه جثة متنقلة ينظر إلي بعينين رماديتين بلون الحديد نظرة غبية. قال لي: في بطني قرود صغيرة، بعضها خبيث يعضني لذلك أنزف دماً عندما تكون غاضبة، وقرود أخرى يستر أجسادها الشعر، ولكن أيديها الناعمة كالريش تلمس أحشائي برفق وتمنع القرود الشقية من العض. وعندما تدافع عني هذه القرود الصغيرة لا أرى دماً.

ـ هل تتذكر مرسيليا يا تيتان؟

ـ أجل أتذكر مرسيليا، وأتذكر جيداً ساحة البورصة مع الأصحاب. ورصيف الطاشين.

ـ هل تذكر أسماء بعضهم؟ لابع لولوكر؟ لوغرافات وكليمانت؟

ـ لا. لا أذكر أسماء، إنما أذكر واحداً صاحب عربة ساقني إلى المستشفى مع صديقي المريض، وقال لي بأني سبب مرضه. وهذا كل شيء.

ـ والأصدقاء؟

ـ لا أعلم.

مسكين تيتان. أعطيته سيجاري ونهضت وفي قلبي رأفة عارمة بهذا الكائن المسكين

الذي سيموت ميتة الكلب.

أجل. إن مساكنة المجانين تنطوي على خطر. ولكن ما العمل؟ إنها على كل حال الطريقة الوحيدة لركوب هروب دون المجازفة بالعنق.

سالفيديا على أهبة الانتهاء، وقد حصل على مفاتيحه ولم يبق سوى الحصول على مفتاح زنزانتي، واستحصل أيضاً على حبل جيد. وقد صنع علاوة على الحبال سيوراً من قماش السرير الأرجوحي، كانت مجدولة من خمس فتائل كما ذكر لي. كل شيء مضمون من هذه الناحية، وكنت استعجل بداية العمل إذ أن تمثيل هذه الملهاة أمر صعب حقاً. ولكي أبقى في هذا المكان من الملجأ، حيث توجد زنزانتي، يجب أن أثير أزمة من وقت إلى آخر. وقد فعلت ذلك مرة بإحكام، فوضعني الممرضون في مغطس حار جداً وحقنت بإبرتين من البرومور. كان المغطس مغطى بقماش متين جداً حتى أنني عجزت عن الخروج منه، ورأسي وحده يبرز من ثقب في القماش. وأمضيت ساعتين في هذا النوع من قمصان القهر، وإذا بإيفان هوه يدخل، فبلغ قلبي حنجرتي من نظرته إلي وارتعدت فرائصي خوفاً من أن يخنقني وأنا لا أستطيع الدفاع عن نفسي وذراعاي تحت القماش. فدنا مني، وعيناه الواسعتان تنظران إلي بانتباه كما لو أنه يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الرأس الذي يبرز من الغل. واجتاحت وجهي أنفاسه ورائحته الفاسدة، وكدت أصرخ مستغيثاً، ولكنني خشيت أن أزيد في هياجه بصيحاتي، فأغمضت عيني أنتظر أن يخنقني بيديه العملاقتين. هذه اللحظات من الرعب لن أنساها. وأخيراً ابتعد عني وجال في القاعة ثم توجه نحو الحنفيات فأغلق حنفية الماء البارد وزاد في فتح الماء الحار فصرخت كمن فقد صوابه، وشعرت بأن جلدي قد نضج تماماً. وأخيراً انصرف إيفان هوه، وانتشر البخار في كافة أرجاء القاعة. وكدت اختنق وأنا أتنفس، وبذلت جهوداً فوق طاقة البشر لانقلب على قماش المحبس هذا، ولكن دون طائل. وأخيراً جاء الحراس لنجدتي إذ رأوا البخار يخرج من النافذة. وعندما أخرجوني من هذا المرجل، رأيت حروقاً رهيبة وكانت الآلام تلذعني، وبخاصة في الفخذين، وفي بعض الأماكن التي انسلخ فيها الجلد. فدهنوه بحامض البكريك، وأرقدوني في غرفة تمريض الملجأ. وكانت الحروق بليغة فاستدعوا الطبيب وحقنت بإبر المورفين التي ساعدتني على تمضية الأربع والعشرين ساعة. ولما سألني الطبيب عما جرى، قلت له إن بركاناً إنفجر في المغطس، ولم يفهم أحد ما الذي حدث. والمراقب الممرض اتهم الذي أعد المغطس بأنه لم يحسن تنظيم ورود المياه. خرج الآن سالفيديا بعد أن مد على الحروق طبقة من مرهم البكريك، وأخبرني بأنه مستعد، وإنها لفرصة حسنة أن أكون في غرفة التمريض، وفي حال إطلاق الهروب يمكن الرجوع إليها دون أن يرانا أحد. وبقي عليه تأمين مفتاح هذه الغرفة وذلك بأن يطبع المفتاح على قطعة من الصابون، وسيكون المفتاح معنا غداً. وعلي أنا أن أحدد اليوم الذي أتماثل فيه للشفاء لنستغل حراسة أحد العسس الذين لايقومون بالجولات.

هذه الليلة أثناء العس بين الساعة الواحدة والخامسة صباحاً، سالفيديا في إجازة.

وطبقاً لكسب الوقت سيفرغ برميل الخل في الساعة الحادية عشرة، وأما برميل الزيت فسندحرجه ملآن، لأن حالة البحر سيئة، والزيت يساعدنا على تهدئة الأمواج عند الإنزال إلى الماء. عندي نصف بنطال مخيط من أكياس الطحين ودرّاعة، وسكين في حزامي، وعندي كيس كتيم ساحله في عنقي وفيه سجائر وقداحة على الفتيل. وهيأ سالفيديا مخلاة غير قابلة لنفوذ الماء وجعل فيها طحيناً مبللاً بالزيت والسكر ويقدر وزنها بثلاثة كيلو غرامات.

لقد تأخر الوقت وأنا أنتظر صديقي جالساً على سريري، وأخذ قلبي يخفق في عنف. فبعد دقائق سيبدأ الهروب، وأتمنى أن يكرمني الله والحظ فأخرج أخيراً وإلى الأبد من طريق العفن ظافراً.

والأمر الغريب أنه لم يبق في ذاكرتي وأنا أهم بالهروب سوى أبي وأسرتي. ولا تلمع صورة المحكمة ولا المحلفين ولا المدعي العام. وفي اللحظة التي انفتح فيها الباب، تمثل لي على الرغم مني ماتيو في وضوح وهو منتصب ترفعه القروش. قال لي سالفيديا: هيا بنا، فتبعت خطواته وأغلق الباب وأخفى المفتاح في ركن من الممر. أسرع. هيا. وصلنا إلى مخزن التموين وكان الباب مفتوحاً. وكان إخراج البرميل لعبة وتسلية، لففت الأسلاك على جسدي ولف هو الحبال على جسده. وحملت مخلاة الطحين، وبدأت في الليل الحالك أدحرج برميلي نحو البحر، وأتى هو على أثري ومعه برميل الزيت، وهو لحسن الحظ صلب العود، واستطاع كبحه في سهولة. في هذا المنحدر الشديد الانحدار انتظرته حتى يرخي برميله الذي سبقني برميل كنت أنزل القهقرى والبرميل خلفي ووصلنا إلى أسفل الطريق دون مشقة. البحر هائج بعض الشيء وبالتالي يصعب عبور الصخور.

ـ افرغ البرميل فلن نستطيع اجتياز الصخور إذا كان مترعاً، والريح عاتية والأمواج ترتطم بالصخور مزبدة.

ـ ها قد أفرغته.

ـ ضع السدادة بإحكام. انتظر. ضع فوقها هذه الصفيحة من القصدير.

سدت الثقوب سداً محكماً.

ـ ادفع بالقدمة. مع عويل الريح وصخب الأمواج فإن الطرق لا يسمع.

ربط أحدهما بالآخر، وتعسر رفعهما فوق الصخور، فكل واحد منهما يتسع لمئتين وخمسة وعشرين لتراً أي أن حجمهما كبير وليس تحريكهما سهلاً. إن المكان الذي اختاره صديقي للإنزال في البحر لم يكن مناسباً.

ـ ادفع نحو الأعلى، يا إلهي، ارفع قليلاً. انتبه لهذه الموجة.

رفعتنا الموجة نحن الاثنين مع البرميلين ثم دفعتنا نحو الصخور بقسوة.

ـ انتبه أوشك البرميلان يتحطمان دون أن نلتفت إلى احتمال كسر يد أحدنا أو رجله.

ـ أهداً سالفيديا إما أن نتقدم نحو الأمام في البحر أو نرجع القهقرى إلى هنا. مكانك هنا جيد. اسحب نحوك حالما تسمع صيحتي، وأنا في الوقت نفسه سأدفع، وسوف نتخلص من الصخور حتماً، ولكن يجب أن نثبت ونقاوم ولو غمرتنا الموجة.

كنت أوجه إليه هذه الأوامر صارخاً ولابد أنه سمعها، حسب ظني، وسط هدير الموج وصفير الرياح. هذه موجة عارمة تغمر هذه الكتلة المتماسكة المؤلفة مني ومنه والبرميل. فدفعت بالبرميل في ثورة واهتياج بكل ما أوتيت من قوة وهو بدوره كان يشد حتماً إذ تخلصنا فجأة وحملتنا الموجة واختل هو البرميل قبلي. وفي اللحظة التي تسنت[1] فيها البرميل أخذتنا موجة من فوقنا كالجبل، وألقت بنا على صخرة مدببة بارزة عن بقية الصخور، وكانت الضربة قاصمة وقوية فانفلق البرميلان، وتناثرت شظاياهما. وقد حملتني الموجة أثناء انحسارها مسافة عشرين متراً. فسبحت ثم استسلمت لموجة أخرى رفعتني إلى الشاطئ مباشرة وقد حطتني بين صخرتين بالضبط وتمكنت من التعلق قبل أن تسترجعني الموجة وهكذا توصلت إلى الخروج مرضوض الجسم. وحين وطئت اليابسة، قدرت أنني ابتعدت عن النقطة التي كنا فيها من البحر مسافة مئة متر. صرخت بغير تحفظ: سالفيديا! روميو! أين أنت؟ ولم أسمع جواباً. استلقيت متهالكاً على الطريق وتركت بنطالي ودرّاعتي الصوفية وعدت عارياً إلا من الخف المصنوع من النسيج. اسم الله. صديقي أين أنت؟ وصرخت بأعلى صوتي من جديد: أين أنت؟ ويأتيني الرد من الريح والبحر والموج وحسب. بقيت هنالك منهوكاً زمناً لا أعرف مقداره، وقد تحطمت جسدياً وروحياً. ثم طفقت أبكي حنقاً، وألقيت الكيس الذي كان في عنقي بما فيه من التبغ والقداحة. ـ ووضع السجائر كانت لفتة أخوية من صديقي لأنه لا يدخن ـ وقفت مواجهاً الريح والأمواج الهائلة. رفعت يدي وأخذت أكيل للطبيعة الشتائم...

سكنت الريح، وهذا الهدوء الظاهري أحس أنه ردني إلى الواقع. سأصعد إلى الملجأ، وإذا استطعت دخلت إلى المستوصف وهذا ممكن بقليل من السعد. مشيت والبحر وفي ذهني شيء واحد: العودة والنوم، وكأني ما رأيت وما علمت. وصلت إلى الممر دون ضجر ووثبت من فوق جدار الملجأ إذ لا أعلم أين وضع سالفيديا مفتاح الباب الرئيسي. ومن غير بحث طويل عثرت على مفتاح غرفة التمريض فدخلت وأغلقت الباب دون إغلاقين. ونفذت إلى النافذة وألقيت بالمفتاح بعيداً فوقع في الجانب الآخر من الجدار. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفضحني هو الخف المبلل، فنهضت وعلقته بالمرحاض. جررت الغطاء على جسدي وبدأت أستدفئ شيئاً فشيئاً. وقد كانت الريح والبحر سبباً فيما أعانيه من البرد.

ترى هل غرق صديقي حقاً؟ ربما حمله الماء بعيداً عني، وربما استطاع التعلق بطرف الجزيرة أم أتعجل المصائب؟ كلا يجب أن أنتظر قليلاً. ولم نفسي على هذا التسرع

(1) انطلقت.

بالقناعة بفقد زميلي. في درج الطاولة حبتان منومتان، ابتلعتهما من غير ماء وكان لعابي كافياً لانزلاقهما. ونمت. ولم ألبث أن شعرت بالحارس الممرض يهزني وشعاع الشمس يملأ جنبات الغرفة، والنافذة مفتوحة ثلاثة مرضى ينظرون من الخارج.

ـ حلم تام يابيون كمن فقد وعيه؟ الساعة الآن العاشرة. ألم تشرب قهوتك؟ لقد بردت القهوة إليها واشربها.

صحوت في صعوبة، ومع ذلك تحققت أن ليس هناك ما يبدو غير طبيعي بالنسبة إلي..

ـ لم أيقظتني؟

ـ بما أن حرارتك قد شفيت فنحن في حاجة إلى السرير وسوف تعود إلى زنزانتك.

ـ حسناً يا رقيب.

ولحقت به وتركني أثناء مروري في الباحة. واستغللت ذلك لأجلس الخلف تحت الشمس مضت ثلاثة أيام على الهروب المحطم، ولم يأتي لنا أي إشاعة. كنت أذهب من الزنزانة إلى القناة ومن القناة إلى الزنزانة وسالفيديا لايظهر. فهو إذن قد مات. مسكين لابد أن صخرة قد هشمته، على حين نجوت بنفسي إذ كنت في الخلف لا في الأمام وأنى لي أن أعلم. وعلي أن أخرج من الملجأ ولكن الصعوبة تكمن في إقناعهم بأني تعافيت. ويجب على الأقل أن أكون مؤهلاً للتواجد في المعسكر أكثر من دخول الملجأ. وعلي الآن إقناع الطبيب بما أحس من التحسن.

ـ مسيو رولير (وهو الممرض الأول) لقد بردت في الليل، وأعدك بأن لا أوسخ ثيابي. لم لا تعطوني بنطالاً وقميصاً إنما سمحت وتكرمت.

أصيب الحارس بالذهول ونظر إلي في دهشة وقال:

ـ أجلس معي هنا وقل لي ماذا جرى؟

ـ لقد فوجئت بوجودي هنا. أهذا هو الملجأ؟ إذن أنا بين المجانين. هل كان ذلك مصادفة أني أضعت الشمال؟ لم أنا هنا؟ خبرني يا رقيب، وهذا لطف منك.

ـ صديقي بابيون، لقد كنت مريضاً، وأرى أنك تحسنت. هل تريد أن تعمل؟

ـ أجل.

ـ ماذا تريد أن تعمل؟

ـ أي شيء.

هاأنذا مرتدياً ملابسي أساعد في تنظيف الزنزانات. ويظل بابي مفتوحاً حتى الساعة التاسعة والحارس الليلي هو الذي يقفله عندما يتسلم الحراسة.

أمس مساء كلمني سجين مريض من أوفرن لأول مرة. كنا وحدنا في مركز الحراسة ولم يكن الحارس قد وصل بعد. أنا لا أعرف هذا الشخص ولكنه يعرفني على حد قوله.

ـ لاداعي لأن تستمر الآن.

ـ ماذا تعني؟

ـ قلت لي إذن؟ أوتظنني غافلاً عن هزيمتك؟ أنا مريض هنا منذ سبع سنوات مع المجانين ومنذ الأسبوع الأول أدركت أنك عاقل.

ـ إذن وما بعد هذا؟

ـ إني أرثي لك من كل قلبي أنك أخفقت في هروبك مع سالفيديا. وهذا ما كلفه حياته، وآلمني هذا المصاب بفقد صديق عزيز علي، رغم أنه لم يشعرني جداً من قبل وما كنت أريد له هذه النهاية. وأنت إذا كنت في حاجة إلى شيء، مهما كان، فأخبرني به. فأنا يسعدني أن أقدم لك أية خدمة. كانت نظراته تفصح عن صراحة وصدق، ولم يداخلني شك في أنه مستقيم. وإذا كنت لم أسمع عنه ما هو خير، فإنني كذلك لم أسمع عنه ما هو سيء. إذن لاشك أنه رجل شهم. مسكين سالفيديا إن غيابه سيحدث ضجة. لقد وجدوا أجزاء من البرميل لفظها البحر، وظنوا أن أسماك القرش قد التهمته. وأثار الطبيب ضجة الشيطان من أجل الزيت المهدور وقال: في هذه الظروف الراهنة، والحرب مشتعلة، من الصعب الحصول على زيت الزيتون.

ـ بماذا تنصحني؟

ـ سأسجل اسمك في عداد من يخرجون للعمل خارج الملجأ لإحضار الأغذية للمستشفى. وسيكون لك في هذا نزهة. ومن أصل عشر محادثات كن عاقلاً في ثمانية منها فقط، لأن الشفاء لايكون فجائياً.

ـ شكراً. ما اسمك؟

ـ دوبوا.

ـ أشكر لك يا هذا ولن أنسى لك فضـــل هذه النصائح.

مضى على خطة الهروب التي لم توفق فيها، قرابة الشهر، وقد عثر على جثة صديقي بعد ستة أيام عائمة لم تأكلها القروش. ولكن الأسماك الأخرى على ما يبدو نهشت أحشاءه وقسماً من ساقه، حسب رواية دوبوا. وكانت جمجمته مكسورة. ونظراً لدرجة تفسخه لم تجر عليه عملية تشريح.

طلبت من دوبوا أن يخرج لي رسالة إلى البريد ويعطيها للكالكاني لكي يدسها في كيس البريد عند ختمه.

كتبت إلى أم رومبو سالفيديا في إيطاليا:

«سيدتي. لقد مات صغيرك بدون قيود في رجليه، مات في البحر شجاعاً بعيداً عن مس السجن مات حراً وهو يكافح في شهامة ليظفر بحريته. لقد تواثقنا أن يكتب الواحد منا إلى أسرة الآخر إذا نزلت بساحة أحدنا مصيبة، ولقد قمت بهذه المهمة الموجعة. أقبل يديك في خضوع بنوي. صديق ولدك بابيون.

وبعد أن أنجزت هذا الواجب قررت أن لا أعود إلى التفكير بهذا الكابوس. هذه هي الحياة.

يجب علي أن أخرج من الملجأ وأن أذهب إلى جزيرة الشيطان مهما كلف الأمر. لأحاول من جديد هروباً آخر. عينني الحارس بستانياً في حديقته وعملت عنده شهرين وأنا في أحسن حال وسلكت سلوكاً كنت فيه موضع التقدير، وإذا بهذا الحارس الأحمق لايريد التخلي عني. قال لي دويون بأن الطبيب في زيارتي الأخيرة له أراد تخريجي، ليعيدني إلى المعسكر تحت الاختبار. فاعترض الحارس وقال بأن حديقته لم تكن في يوم من الأيام تحظى بمثل هذا العمل المتقن.

لذلك اقتلعت هذا الصباح أشجار (الفريز) كلها فألقيت بها في القمامة وغرست مكان كل شجرة صليباً صغيراً وأصبح في الحديقة من الصلبان بعدد ما كان فيها من الشجر.

كاد حارس السجن الثقيل هذا، يتميز من الغيظ بقدر ما كان سخطه عظيماً. فجلس على نقالة وما لبث أن انفجر باكياً بدمع مدرار. لقد كنت قاسياً ولكن ماحيلتي؟ والطبيب لم يحمل هذا التصرف محمل الفجيعة، بل ألح فقال: «هذا المريض يجب أن يوضع تحت الاختبار في المعسكر من جديد مع الحياة السوية، وما راودته هذه الفكرة الغريبة إلا لأنه كان وحيداً في الحديقة.»

ـ قل لي يا بابيون! لم استأصلت أشجار الفريز وغرست مكانها الصلبان؟

ـ لا أجد لذلك تفسيراً دكتور. وأنا اعتذر للمراقب. لقد كان يحب هذه الأشجار حباً جماً. وأنا شديد الأسف لما حصل وأدعو الله أن يعوضه خيراً منها.

هاأنذا في المعسكر وقد التقيت بصحبي، ومكان كاربونيري خال. فوضعت بجانب هذا المكان المقفر كما لو أن ماتيو لايزال هنا. وقد أمر الطبيب أن يكتب على سترتي «معاملة خاصة، ولا لأحد سلطة علي إلا الطبيب». وقد أصدر أمره إلي بأن أجمع أوراق الشجر من الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحاً أمام المستشفى.

شربت القهوة مع الطبيب ودخنت السيجارة على مقعد وثير أمام بيته وكانت زوجته تجالسنا وكان يستدرجني إلى الحديث عن ماضيّ وزوجته تعاونه في ذلك.

ـ وما بعد ذلك بابيون؟ ماذا حصل لك بعد أن تركت الهنود صيادي اللؤلؤ؟

وهكذا كنت أمضي أصائل الأيام مع هؤلاء الناس المدهشين. وكانت زوجة الدكتور تقول لي: تعال كل يوم لتراني بابيون. أولاً أريد أن أراك، ثم أريد أن أسمع ما وقع لك من أحداث.

وكل يوم كنت أقضي عدة ساعات مع الطبيب وزوجته وأحياناً مع الزوجة وحدها. وهما إذ يلحان على أن أسرد حياتي الماضية مفتحان بابها يساهمان في إعادتي إلى الاتزان بصورة نهائية.

قررت أن أطلب من الطبيب إرسالي إلى جزيرة الشيطان. لقد تم لي ذلك وسأرحل

غداً إن هذا الطبيب وزوجته يعرفان لماذا أذهب إلى جزيرة الشيطان. فقد كانا طيبين معي حتى أنني لم أشأ أن أخدعهما.

ـ دكتور لا أستطيع احتمال هذا السجن. أرسلني إلى جزيرة الشيطان لأهرب أو أموت، والمهم أن أنتهي مما أنا فيه.

ـ أفهمك يا بابيون، وأنا أشمئز من هذا الأسلوب في الزجر والكبح، ومن هذه الإدارة الفاسدة لذلك أقول لك وداعاً وأتمنى لك حظاً سعيداً.

الشيطان

مقعد دريفوس

هذه الجزيرة هي أصغر الجزر الثلاث المسماة سالو، وهي أكثرها وقوعاً في الشمال، وأكثرها تعرضاً لضربات الرياح والأمواج. بعد منبسط ضيق يمتد على شاطىء البحر يبدأ الارتفاع السريع نحو منبسط آخر، حيث يقوم مركز الحراسة والمراقبين، وقاعة واحدة للسجناء يقرب عددهم من العشرة. في جزيرة الشيطان لايجوز رسمياً أن يكون السجين من حكموا بسبب حق عام، إنما السجناء هم محكومون عاديون، ومبعدون سياسيون. يعيش كل منهم في بيت صغير، سقفه من الحديد المصفح تقدم لهم الأغذية الفجة يوم الاثنين من كل الأسبوع، ويوزع الخبز يومياً، وعددهم ثلاثون. الممرض هنا هو الدكتور ليجه الذي سمم أسرته كلها في ليون أو في ضواحيها، والسياسيون لايتعاملون مع السجناء، ويسطرون أحياناً احتجاجات إلى كايين ضد فلان أو فلان من سجناء الجزيرة، وحينذاك يعاد إلى جزيرة رويال.

تتصل رويال بجزيرة الشيطان بحبل (كابل) إذ غالباً ما يكون البحر رديئاً فيحول دون وصول الزورق الآتي من رويال أو يصعب إرساؤه أمام ما يشبه الرصيف والمصنوع من الإسمنت.

الحارس الرقيب في المعسكر (وهم ثلاثة) يدعى سالتوري وهو رجل طويل في غير رشاقة، وقذر وغالباً ما يترك لحيته تطول ثمانية أيام. قال لي:

ــ بابيون أرجو أن تسلك سلوكاً حسناً في جزيرة الشيطان ولاتزعجني فأدعك وشأنك اصعد إلى المعسكر وسأراك هناك.

وجدت في القاعة ستة محكومين عاديين: ثلاث منهم من الصين وآخران زنجيان، وشخص من بوردو والأخير من مدينة ليل.

أحد الصينيين يعرفني معرفة جيدة. كان معي في سان لوران، إذ كان موقوفاً رهن

التحقيق في جريمة قتل إنه من الهند الصينية. وقد عاصر ثورة سجن بولوكوندور في الهند الصينية. مهنته القرصنة وكان يهاجم مراكب النقل ويقتل أحياناً طاقم السفينة مع أسرهم. إنه بالغ الخطورة ومع ذلك له طريقته في الحياة مع الناس تستأثر بالثقة والمودة.

ــ ألست بخير بابيون؟

ــ وأنت ياشانغ؟

ــ نحن بخير هنا سنؤلف معاً مجموعة واحدة تأكل معي وتنام إلى جانبي. وأنا أقوم بطهو الطعام مرتين في اليوم وأنت تصطاد السمك، عندنا منه الكثير. وصل سالتوري فقال:

ــ هل استقر بك المقام؟ ستذهب غداً صباحاً مع شانغ لإطعام الخنازير. وهو يأتي بجوز الهند، وأنت تشقها تصفين بالفأس. ويجب فرز جوز الهند الدسم لتقدمها للخنازير الصغيرة والتي ليس لها أسنان. وبعد الظهيرة في الساعة الرابعة تقومان بالعمل نفسه، وفيما عدا هاتين الساعتين، إحداهما في الصباح والأخرى بعد الظهر، فأنتما حران في أن تفعلا ما تشاءان على أرض هذه الجزيرة. وعلى كل صياد أن يخرج كل يوم كيلو غراماً من السمك أو من السرطان البحري ويقدمه لطباخي. وهكذا يكون الجميع في حبور. هل هذا يلائمك؟

ــ أجل ياسيد سالتوري.

ــ أنا أعلم أنك رجل هروب. والهروب من هنا مستحيل. لذا لن أكون مشوش البال أنتم في الليل محجور عليكم. ومع ذلك أعلم أن بعضاً منكم يخرج. احترس من المبعدين السياسيين كلهم يملكون سيوفاً خشبية. فإذا اقتربت من دورهم ظنوا أنك تريد سرقة الدجاج أو البيض وهكذا يمكن أن تقتل أو تجرح. لأنهم يرونك من حيث لاتراهم.

بعد أن علفت مئتي خنزير تجولت في الجزيرة طول النهار في صحبة شانغ الذي يعرفها معرفة دقيقة. التقينا على الطريق البحري المحيط بالجزيرة، برجل مسن ذي لحية بيضاء، وهو صحفي من كاليدونيا الجديدة، الذي كان في الحرب العالمية الأولى يكتب ضد فرنسا لحساب ألمانيا. ورأيت كذلك الحقير الذي أطلق النار على اديث كافيل الممرضة الانجليزية أو البلجيكية التي كانت تنقذ الطيارين الانجليز عام ١٩١٧. وصاحب هذه الشخصية التي تشمئز منها النفس، سمين ضخم وبيده عصا غليظة يضرب بها سمكة يزيد طولها على مئة وخمسين سنتمتراً وهي بضخامة فخذي. والممرض يسكن أيضاً في أحد هذه البيوت الصغيرة التي لايجوز لغير السياسيين أن يسكنوها.

الدكتور ليجه رجل طويل قذر ولكنه شديد المراس. وجهه فقط هو النظيف يعلوه شعر أشيب، طويل في العنق وفي الصدغين، وعلى يديه خدوش وردية لم تلتئم جيداً، يبدو أنها حدثت من خشونة الصخور في محاولة للتشبث بها. قال لي:

ــ إذا كنت في حاجة إلى شيء تعال إلي فأعطيكه. ولاتأتي إلا إذا كنت مريضاً، ولا أحب أن يزورني أحد، ولاأحب التحدث مع أحد. أنا أبيع بيضاً وأحياناً أبيع

وجاجة. وإذا قتلت خنزيراً في الخفاء فأحضر لي فخذاً خلفياً فأعطيك دجاجة وست بيضات. وما دمت هنا فهاك هذه الزجاجة، ففيها مئة وعشرون حبة كينين، وربما أنك جئت إلى هنا للهروب، فإذا حدثت المعجزة وهربت فإنها ستنفعك في الأدغال المستنقعية.

كنت أصطاد صباح-مساء وأحصل على كميات وفيرة من السمك فأرسل منها ثلاثة أو أربعة كيلو غرامات إلى مائدة الحراس. كان ستوري فرحاً إذ لم يسبق له أن حظي بمثل هذا التنويع من السمك وسرطانات البحر. وكنت أحياناً أغوص أثناء الجزر فأغنم ثلاث مئة سرطان.

حضر الدكتور جيرمان غيبر بالأمس إلى جزيرة الشيطان ولما كان البحر هادئاً فقد صحبه المقدم في رويال ومدام غيبر. وهذه المرأة الرائعة أول امرأة تطأ قدماها أرض الشيطان. وحسب رواية المقدم لم يأت زائر مدني قط إلى الجزيرة. تحدثت مع السيدة أكثر من ساعة ورافقتني إلى المقعد حيث كان يجلس دريفوس متأملاً في الفضاء باتجاه فرنسا التي لفظته.

قالت وهي تلمس الحجر: ليت هذا الحجر المصقول يروي لنا أفكار دريفوس. بابيون! ربما كان هذا هو اللقاء الأخير بيننا، فقد قلت لي بأنك تعد نفسك للهروب. وأدعو الله أن يؤيدك بنصر من عنده. وأطلب منك قبل ارتحالك أن تأتي إلى هذا المقعد لدقيقة واحدة وتلمس الحجر كما لمسته أنا لتقول لي وداعاً.

أباح لي المقدم إرسال السمك والسرطان البحري كلما شئت بوساطة الحبل إلى الدكتور ووافق سانتوري.

ـ وداعاً دكتور. وداعاً مدام.

حييتهم قبل أن ينفصل الزورق عن الرصيف، وعينا مدام غيبر النجلاوان تحدقان بي وكأنها تقول لي: تذكرنا دوماً، لأننا نحن كذلك لن ننساك.

مقعد دريفوس يقع في نهاية طرف الجزيرة الشمالي ويهيمن على البحر من علو أربعين متراً. ما اصطدت شيئاً هذا اليوم. عندي في حوض طبيعي أكثر من مئة كيلو غرام من السمك. وعندي كذلك في برميل معدني مربوط بسلسال، ما يتوف على خمس مئة سرطان. بوسعي إذن أن لا أهتم بالصيد. فعندي ما يكفي لأرسل إلى الطبيب وإلى سانتوري والصيني وما يكفيني.

نحن الآن في العام ١٩٤١، وقد مضى على سجني أحد عشر عاماً، وبلغت من العمر الخامسة والثلاثين انقضت إما في الزنزانة أو في السرداب، وتمتعت بالحرية التامة مدة سبعة أشهر فقط، مع عشيرتي الهندية، والولدان اللذان كان من المفروض أنهما ولداي من زوجتي قد بلغا الثامنة.

يا للشناعة! ما أسرع ما يمر الوقت، ولكنني إذا التفت إلى الوراء تأملت هذه الساعات والدقائق التي ترسخت في طريق الآلام هذا.

خمسة وثلاثون عاماً. أين هي مونتمارتر، والساحة البيضاء، وبيغال، والحفلة الراقصة في بوتي جاردن، وشارع كليشي؟

أين زوجتي تبيت بوجهها المتجلي، تلك الجوهرة الحقيقية التي افترستني يأساً عيناها النجلاوان السوداوان، حينما صاحت في المحكمة: لاتهتم بلاوجي، إني ذاهبة لأنقذك منك؟ أين المحامي ريمون هوبير وعبارته: «سوف تبرأ ساحتك»؟ أين هم قطع الجبن المحلفون، ورجال الشرطة الديوك؟ والمدعي العام؟ وإلى ماذا يفعل؟ والأسر التي كونتها شقيقاتي تحت النير الألماني؟ محاولات الهروب عديدة. لننظر إلى عددها:

المحاولة الأولى عندما فررت من المستشفى بعد أن دفعت الحراس. والثانية كانت في كولومبيا في ريوهاشا وهي أجملها فهناك نجحت تماماً. لم غادرت عشيرتي؟ رعشة حب سرت في أوصالي تحيل إلى أنني أحس بمواقف الغرام مع الشقيقتين الهنديتين.

ثم الثالثة فالرابعة والخامسة والسادسة في بارانكيا. يا للخيبة، لقد أخفقت الضربة خلال القداس في الكنيسة، والديناميت الذي لم ينفجر، والمحاولة الأخرى التي علق فيها بنطال كلوزيو والنوم حين تأخر مفعوله. والمحاولة السابعة التي أجهضها القذر بيبر سيليه، ولولاه لنجحت المحاولة بالتأكيد. ولو أنه أفلح فيه لكنت الآن حراً أنا وصديقي المسكين كاربونيري والثامنة وهي الأخيرة التي كانت في الملجأ، وقد كان خطأ جسيماً مني أن تركت الإيطالي يختار نقطة الإنزال في الماء. ولو أننا ابتعدنا مئتي متر نحو الملحمة لكان اللقاء البرميل أيسر. وهذا المقعد حيث وجد دريفوس وهو المحكوم البريء، الشجاعة لكي يعيش رغم كل شيء، هذا المقعد يجب أن استفيد منه في شيء، ويجب أن لا اعترف بالهزيمة بل أحاول من جديد. نعم هذه الحجرة الملساء الناعمة المطلة على هذه الهاوية الصخرية حيث ترتطم الأمواج مزبدة دون توقف، يجب أن تكون لي سنداً ومثلاً يحتذى. دريفوس لم يتخاذل ولم يترك نفسه تنهار بل ناضل حتى النهاية ليسترجع ما كان له من اعتبار. صحيح أن أميل زولا قد دافع عنه في قصة الشهيرة «إني أتهم» غير أن دريفوس لو لم يكن رجلاً صلب العود تجاه التحديات الظالمة، لألقى بنفسه بالتأكيد في هذه الوهدة من هذا المقعد ذاته. فقد ثبت. ويجب أن لا أكون أقل منه، بل ينبغي أن أتخلى عن فكرة الهروب مقرونة بمثل هذا الشعار: النصر أو الموت. كلمة الموت هذه هي التي يجب أن استبعدها ولا أفكر في سوى النصر مع الحرية.

في الساعات الطويلة التي كنت أقضيها جاثماً على مقعد دريفوس هذا، كان خيالي يسرح بعيداً، ويحلم بالماضي، ويبني صرحاً من المستقبل الوردي، وعيناي تبرقان في معظم الأحيان بالضياء، وبالمكاشفات تجاه الأمواج الفضية. كنت أنظر إلى البحر دون الرغبة في رؤيته حقاً، لأعلم أهواء الأمواج الممكنة والخيالية وأثر الرياح فيها.

يهاجم البحر صخور الجزيرة المتقدمة دون انقطاع وبلا هوادة، فهو يتسلل بين هذه الصخور ويفتتها وكأنه يقول للجزيرة: انمحي ويجب أن تختفي من الوجود فأنت تضايقيني وتعترضين طريقي عندما أريد الارتماء في أحضان الأرض الكبرى، لذلك فإنني انتزع منك

بعض الأسماك شيئاً فشيئاً كل يوم، وإذا هبت عاصفة اهتز البحر طرباً لا لأنه يتغلغل ويغرف معه آثار الحت وحسب بل يفتش ويبحث في كل ركن وفي كل زاوية في أعالي هذه الجلاميد الصخرية فيفت في عضدها ويضنيها وكأنها تقول له: ليس لك هنا من سبيل. وحينئذ اكتشفت شيئاً بالغ الأهمية: في أسفل مقعد دريفوس تأتي الأمواج باتجاه صخور عملاقة على شكل ظهر حمار، فتهاجمها فتتكسر ثم تنحسر بعنف. وهذه الأطنان من المياه لاتتبدد لأنها تنحصر بين صخرتين على هيئة حدوة الحصان، والمسافة بينهما خمسة أو ستة أمتار، ثم تأتي عملية الجرف، إذ ليس لماء الموجة من منفذ سوى أن تتراجع إلى البحر. وهذا مهم جداً. إذ لو ألقيت بنفسي من الصخرة مع كيس من جوز الهند العوام، في اللحظة التي تتكسر فيها الموجة في الهواء فسوف أغوص فيها على الفور، وسوف تحملني الموجة أثناء انسحابها بدون أدنى شك.

أعرف من أين أحصل على عدة أكياس من قشر القنب. ففي حظيرة الخنازير يجد المرء منها ما يشاء لجميع جوز الهند. يجب إجراء تجربة قبل كل شيء. حينما يكون القمر بدراً يكون المد عالياً، وبالتالي تكون الأمواج أشد. سوف انتظر اكتمال البدر. فكيس مخيط جيداً وملىء بالنارجيل اليابس بما عليه من الألياف. يخفى النارجيل في مكان يشبه المغارة، ولايمكن لأحد أن يتوصل إليها إلا بعد أن يغوص تحت الماء. وقد اكتشفت هذه المغارة عندما كنت أغطس بحثاً عن سراطين البحر. وقد وجدت السراطين ملتصقة في سقف المغارة تستنشق الهواء فقط عندما يكون الماء منحسراً في حالة الجزر. وفي كيس آخر مربوط بكيس جوز الهند وضعت حجراً يزن قرابة الأربعين كيلو غراماً. وبما أنني سرأحمل بكيسين لاكيس واحد ولما كان وزني يبلغ سبعين كيلو غراماً، فإن نسبة التوازن ستكون متحققة.

لقد هاجتني هذه التجربة. فهذه الجهة من الجزيرة محرمة، لايستطيع أحد أن يفكر أو يتخيل أن شخصاً ما سيختار أشد الأماكن تعرضاً لضربات الموج، وأخطرها ليسلك سبيل الفرار. ومع ذلك فإن هذا المكان الوحيد الذي إن نجحت في الانفصال عن شاطئه فسوف يحملني الموج إلى عرض البحر، ولايمكن ان اتحطم على جزيرة رويال. يجب أن انطلق من هنا لا من مكان آخر.

كيسا الجوز والحجرة ثقيلان وليس حملها سهلاً. ولم أستطع رفعها على الصخرة، فالصخرة لزجة وتبللها الأمواج دوماً. فجاء شاتع يساعدني وقد أخبرته بما أنوي فعله، وقد أحضر معه عدة الصيد كاملة حتى إذا فوجئنا، ادعينا أننا في صدد نصب شرك للقرش.

ــ هيا يا شاتع وبعد قليل سيتم كل شيء.

أشرق البدر وبدد ظلمات الليل فهو نهار وصخب الأمواج يبهرني. قال لي شاتع:

ــ أأنت مستعد يا بابيون؟ أتى إلى هذه الموجة.

أسرعت الموجة كالمجنونة نحو الصخرة على ارتفاع خمسة أمتار فتكسرت أسفل منا ولكن الصدمة عنيفة إلى درجة أن رأس الموجة مر فوق الصخرة وبللنا من رأسنا إلى

قدمنا، ولكن هذا لم يحل دون إلقاء كيس الجوز في اللحظة التي تحركت فيها قبل أن تنحسر. أخذ الكيس طريقه في البحر كالقشة.

ــ نجحنا يا شاتع، هذا جيد جداً.

ــ انتظر قليلاً لنتأكد إذا كان الكيس لايعود.

وبعد دقائق خمس رأيت بقلب منفطر كيسي وهو يصل معلقاً في ذروة موجة مرتفعة تزيد على سبعة أمتار سمواً، وتحمل كيس الجوز هذا مع الحجر كريشة في مهب الريح. وقد امتطى تاجها قبل الزبد بقليل، وبقوة خفية رفته من حيث أتى ولكن نحو اليسار قليلاً وارتطم بالصخر الذي واجهه وانفتح الكيس وتناثر الجوز وغار الحجر إلى الأعماق. ونحن، غمرنا الماء حتى العظام وانجرفنا لحسن الحظ إلى جهة البر مسلوخين متورّكين، ودون أن نلقي نظرة إلى هذا البحر ابتعدنا مهرطعين عن هذا المكان اللعين.

ــ إن الهروب من هنا يابيون ليس مستحسناً. ففكرة الهروب من جزيرة الشيطان فكرة خاطئة والأفضل أن يكون من رويال، من الجهة الجنوبية.

ــ أجل . ولكن الهروب من رويال سينكشف أمره في ساعتين على الأكثر. وبما أن كيس الجوز ليس له قوة دفع سوى الموج، فأنا معرض للوقوع بين فكي كماشة تشكلها زوارق الجزيرة الثلاثة. أما هنا فلاتوجد مراكب. ثانياً أمامي الليل بطوله قبل أن يكتشفوا أمري، وأخيراً قد يظنون أنني غرقت وأنا أصطاد. وليس في جزيرة الشيطان هاتف، فإذا رحلت وخلفت ورائي مسافة زمنية كبيرة فلن يجدوا مركباً يستطيع الوصول إلى هذه الجزيرة. إذن يجب أن يكون الفرار من هنا. ولكن كيف؟

شمس رصاصية ظهراً. شمس استوائية تجعل الدماغ يغلي في الجمجمة، شمس تحرق كل زرع نبت ولكنه لم ينم نمواً يستطيع معه مواجهتها. شمس تبخر كل تجمع لمياه البحر في بضع ساعات وتتركها طبقة من الملح الأبيض. شمس ترقص الهواء، أجل أرى الهواء يتحرك في وضوح أمام عيني، وانعكاسها على سطح البحر يحرق حدقتي، ومع ذلك عدت من جديد إلى مقعد دريفوس، وكل الذي نزل بي لم يمنع تفكيري من دراسة البحر. وحينئذ أدركت أنني أحمق فعلاً.

إن الموجة البعيدة التي يزيد ارتفاعها على ضعفي ارتفاع الأمواج الأخرى، هي التي قذفت بالكيس على الصخور وجعلت ما فيه مبرداً. وهذه الموجة تتكرر بعد كل سبع موجات.

من الظهر وحتى أفول الشمس كنت أراقب إذا كان هذا يحدث آلياً متواتراً، أو إذا لم تكن هناك فترة عشوائية، أو أن هناك تغيّراً في زمن وحجم هذه الموجة العملاقة. فهي لم تتقدم مرة ولم تتأخر. ست موجات على ارتفاع ستة أمتار وتتبعها الموجة الكبيرة على بعد ثلاث مئة متر عن الشاطئ. إنها تتقدم منتصبة كالألف، وكلما تقدمت ازدادت حجماً وارتفاعاً، وهي غير متوجة بالزبد، بخلاف الست الأخريات ــ وهذا نادر ــ ولها دوي

عاصٍ كالرعد الصاعق الذي يتطفىء من بعيد، وحينما تتكسر على الصخرتين وتغذ السير في المضيق بينهما وتصطدم بالجرف فإنها تختنق وتدور عدة دورات في هذه الفجوة بسبب كتلة مائها العظيمة، ويستغرق خروج هذه الحركات والتجمع المتلاطمة خمسة عشرة ثانية، ثم تنسحب وتقلع في طريقها صخوراً تلف وتدور وتحدث قصفاً يشبه صوت مئات الشاحنات التي تفرغ حجارتها في خشونة.

وضعت عشرة من جوز الهند في الكيس ذاته ومعه حجرة تزن عشرين كيلو غراماً تقريباً. وما أن تكسرت الموجة الكبيرة حتى ألقيت بالكيس داخلها ولم أستطع ملاحقته بالنظر لكثرة الزبد الأبيض المتكون في هذه الوهدة، ولكن أتيح لي أن أراه لحظة والبحر يرتشفه في سرعة ولم يعد والموجات الست الأخر لم تقو على إرجاعه إلى الشاطىء، وعندما تشكلت الموجة السابعة على بعد ثلاث مئة متر كان الكيس قد تجاوز نقطة تشكلها، إذ ما عادت تبصره العين.

امتلأت حبوراً وأملاً ومشيت نحو المعسكر، وأنا أقول في نفسي: لقد نجحت، لقد وجدت كيف يكون الإنزال في الماء على الوجه الأكمل. وليست المحاولة مغامرة ومع ذلك سأقوم بتجربة أكثر جدية في نفس المعطيات التي تكون لي وأنا في الماء: كيسان من جوز الهند أحكم ربطهما، وفوقهما سبعون كيلو غراماً موزعة في حجرين أو ثلاثة.

سردت فكرتي لشانغ وصديقي شيتون دوبولو كونتدور كان يصغي إلى التفصيلات بأذن واعية.

ـ هذا جيد يا بابيون، وأعتقد أنك وجدت الحل دونما أساعد الشد في التجربة الحقيقية.

ـ لننتظر المد الذي يعلو ثمانية أمتار، وهذا قريب يتساوى الليل بالنهار.

وبالفعل استغللت المد المرتفع أكثر من ثمانية أمتار، وساعدني شانغ في إلقاء كيسين من جوز الهند محملين بحجارة تزن حوالي ثمانين كيلو غراماً.

قال الصيني: كيف أنت اسمها البنت الصغيرة السحرية من قبلك في سان جوزيف؟

أي: ما اسم البنت التي أنقذتها في سان جوزيف؟

ـ ليزيت.

ـ سوف نسمي هذه الموجة التي تحملك «ليزيت». اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وصلت الموجة ليزيت محدثة إرزاماً[1] يشبه صوت قطار سريع يدخل في المحطة. إنها تولدت على بعد يربو على مئتين وخمسين متراً، قائمة كالجرف تتقدم وهي تتعاظم في كل ثانية. إنه لمنظر مؤثر. لقد تكسرت في قوة كستنا عن الصخرة والأكياس المحملة سقطت

(١) صوت يشبه صوت الرعد.

من تلقاء نفسها في اللجة. ونحن لم نثبت على الصخرة بل ارتمينا نحو الخلف، ولئن لم ننج من انصباب الماء علينا فقد نجونا من السقوط في اللجة.

قمنا بهذه التجربة في الساعة العاشرة صباحاً ولم نخاطر لأن الحراس الثلاثة كانوا مشغولين في الطرف الآخر، بالبناء التفصيلي للسلم. ذهب الكيس واستطعت أن أراه في وضوح مبتعداً عن الشاطىء فهل السحب بعيداً عن مكان منشأ الموجة؟ لاتوجد علاقة تحدد المكان الأبعد أو الأقرب. الموجات الست التي تتبع ليزيت، لم تستطع اللحاق بأثرها أثناء إندفاعها. ومرة أخرى تتشكل ليزيت وعادت ولم تحمل معها الكيسين، فهما قد خرجا إذن من نطاق تأثيرها.

صعدت إلى مقعد دريفوس محاولاً رؤيتها مرة أخرى ورفرحنا من جديد عندما رأيناهما من بعيد جداً يعلوان قروة الموجات التي لاتتجه نحو الجزيرة بل بذهبان نحو الغرب وبما لاجدال فيه أن التجربة كانت ايجابية وسوف أرحل في مغامرة كبرى ممتطياً ظهر الموجة ليزيت.

ـ إنها هناك، انظر. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة ها هي ذي ليزيت قد وصلت.

البحر عند رأس مقعد دريفوس قاس. ولكنه اليوم معكر المزاج. تتقدم ليزيت بالضجة التي تتميز بها. ويبدو لي وهي تتحرك أنها اليوم أضخم مما تعودنا وبخاصة عند قاعدتها. هذه الكتلة الجبارة أتية لتهاجم الصخرتين بأسرع وأشد استقامة مما سبق. وعندما تنحسر وتسرع متدافعة في الفراغ بين جلاميد الصخر، فاللطمة تحدث ارتجاجاً يصم الآذان خلافاً لما كان يحدث في معظم الأحيان.

ـ وأتقول هنا يحسن الارتماء؟ حسناً يا صديقي لقد اخترت المكان العاري. صحيح أنني أريد الهروب ولكن بغير انتحار.

كان سيلفان منفعلاً جداً بما أوضحت له بشأن ليزيت. لقد وصل إلى جزيرة الشيطان منذ ثلاثة أيام. وقد عرضت عليه طبعاً الهروب معي، كل واحد منا على طوف. وهكذا، إذا قبل العرض، سيكون لي رفيق على الأرض الكبرى لاستئناف هروب جديد من هناك، فالوحدة في الأجمة ليس لهواً.

ـ لاتفزع مقدماً. إنني أعترف بأن كل رجل يتراجع عند الخطوة الأولى. إنها الموجة الوحيدة القادرة على حملك بعيداً لكيلا تقوى الموجات اللاحقة، على ردك إلى الصخور.

قال شانغ: اطمئن. لقد جربنا ذلك والتوفيق مؤكد، فإذا تجاوزت الموجات فلن تعود بك إلى جزيرة الشيطان ولن تدفعك نحو رويال.

إن اقناع سيلفان احتاج إلى أسبوع. إنه رجل مديد القامة يزيد طوله على مئة وثمانين سنتمتراً وهو شديد القوى متناسق الجسم كالمصارعين الأقدمين.

ـ حسناً لقد قبلت أن أحل بعيداً من هنا، ولكن كم يلزمنا من الوقت في فلكنا لكي نبلغ الأرض الكبرى والجزر يدفعنا؟

ـ بصراحة يا سيلفان لا أدري. إن الخروج قد يطول أو يقصر، قد تعاكسنا الريح فنتأخر وقد يكون الجو مكفهراً، فتشتد الأمواج وتدفعنا في سرعة أكبر إلى اليابسة. فإذا حصل الجزر سبع مرات أو ثمانياً أو عشراً، كان الوقت كافياً لبلوغ الشاطىء، وبتقدير زمني قد يتم ذلك خلال فترة تتراوح بين ثماني وأربعين وستين ساعة.

ـ كيف تحسب؟

ـ إن المسافة بين الجزر والساحل على خط مستقيم تقدر بأربعين كيلو متر. والخروج يشكل خطاً هو كالوتر في مثلث قائم الزاوية. انظر إلى اتجاه الموج. فيجب أن نقطع مسافة تتراوح بين مئة ومئة وخمسين كيلو متراً على أبعد تقدير. وكلما اقتربنا من الشاطىء دفعتنا ووجهتنا مباشرة نحوه. لأول وهلة إنك لاتصدق أن حطام سفينة لايقطع هذه المسافة عن الشاطىء في سرعة لاتتجاوز خمسة كيلومترات؟

نظر إلي في اصغاء تام ليسمع التفاصيل. هذا الشاب ذكي جداً. قال:

ـ لاتتفوه بحماقات. أنا أعرف ذلك. لو لم يكن هناك جزور[1] متخففة تضيع من وقتنا لأنها هي التي تجرنا نحو عرض البحر لبلغنا الشاطىء في أقل من ثلاثين ساعة.

ـ إذن أنت مقتنع فهل تذهب معي؟

ـ ربما. ولنفرض أننا وطئنا الأرض الكبرى، في الأجمة، فماذا نفعل؟

ـ يجب أن نقترب من ضواحي كورو، فهناك قرية صيادين مهمة. ففيها الباحثون عن الصمغ البرازيلي أو الذهب. ويجب أن نقترب بتبصر وحذر، بسبب وجود معسكر حربي للسجناء في الغابة هناك عوائق تحول دون الدخول إلى الأجمة للذهاب نحو كايين أو نحو المعسكر الصيني المسمى إينيي. وسوف نهدد أحد المحكومين أو أحد الزنج ونجبره على أن يذهب بنا إلى اينيي، فإن كان شخصاً مطواعاً أعطيناه خمس مئة فرنك ولينطلق وإن كان من المحكومين بالأشغال فسوف نجبره على الفرار معنا.

ـ وماذا نفعل في اينيي. هذا المعسكر الخاص بالهنود ـ الصينيين؟

ـ هناك أخو شانغ.

ـ نعم أخي هناك وهو يذهب معكما في رحلة الهروب، وهو يهيء سفينة مأمونة ومواد غذائية. وإذا لاقيتما كويك ـ كويك فسوف تجدون كل شيء معداً. ولن تجدا صينياً واشياً. لذلك فإن أي آتامي للقيانه في الغابة سوف يتهيء كويك كويك بوجودكما.

قال سيلفان: لماذا يسمونه كويك كويك.

ـ لا أدري، فقد عمده فرنسيون باسم كويك كويك.

ثم أضاف: ولكن حذار. فعندما توشكان بلوغ الأرض الكبرى فإنكما ستجدان

(١) جمع جزر وهو عكس المد.

حماة[1] فلا تمشيا عليها، فإنها تمتصكما. انتظرا مداً آخر يدفع بكما إلى الأجمة، وامسكا بأغصان الأشجار وإلا غصتما. فيجب الانتظار حتى تتمكنا من الإمساك بالأغصان والعرائش.

ـ حسناً يابيون لقد حزمت أمري.

ـ إذا صنعنا طوفين سيكونان متشابهين، لأن وزني يقارب وزنك. لذلك فإن أحدنا لن يبتعد عن الآخر حين نركب متن الموج. ولكن ماذا نفعل لو أن أحدنا أضاع صاحبه؟ نحن من هنا لانرى كورو. ولابد أنك لاحظت وأنت في رويال أنه على يمين كورو تقريباً وعلى بعد عشرين كيلو متراً منها، توجد حجارة بيض يمكن تمييزها عندما تسطع عليها الشمس.

ـ نعم.

ـ إنها الصخور الفريدة على ذلك الساحل. على اليمين وعلى الشمال حماً لا نهاية له، وقد ابيضت تلك الصخور من ذرق[2] الطيور وهي تعد بالآلاف. وحيث أن المكان هناك قفر موحش، فإنه سيكون لنا ملاذاً لإصلاح حالنا وسنأكل بيضاً وجوزاً مما نحمله معنا، ولن نشعل النار ومن سبق منا إلى هذا المكان انتظر الآخر.

ـ كم يوماً؟

ـ خمسة أيام. إذ لايمكن التلاقي قبل خمسة أيام.

لقد تم صنع طوفين وقد ضاعفنا الأكياس لتكون أكثر مقاومة. وطلبت من سيلفان مهلة عشرة أيام للتمرين أكبر قدر ممكن على ركوب الكيس فرشخة. وقد فعل هو مثلي، وفي كل مرة كنا نلاحظ أن الأكياس عندما تكون على وشك الدوران فإنها تتطلب جهوداً إضافية للثبات فوقها، ويجب الانبطاح فوقها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ولكن حذار من النوم، إذ لو وقعنا في الماء لأفلت منا الكيس ولعجزنا عن استعادته. وقد صنع لي شانغ كيساً كتيماً أعلقه في عنقي وفيه سجائري والقداحة الفتيل. نشّر كل واحد منا عشر جوزات نحملها معاً. فلبها يتيح لنا احتمال الجوع والعطش. وعند سانتوري ما يشبه الزق مصنوع من الجلد، وهو لايستخدمه. وشانغ الذي يتردد على الحارس سانتوري سيحاول سلبه.

يوم الأحد مساء الساعة العاشرة سيكون المد، بسبب البدر، على ارتفاع ثمانية أمتار، وستكون ليزيت في أشد قوتها. وشانغ سوف يقدم الطعام للخنازير وحده صباحاً.

سأنام طيلة نهار السبت والرحيل الساعة العاشرة مساء، ويكون الجزر قد بدأ منذ ساعتين. ومن المستحيل أن ينفصل الكيسان أحدهما عن الآخر، فهما مربوطان بحبال من قشر القنب مبرمة بخيط نحاسي. وهما مخيطان أحدهما بالآخر بخيط ثخين، وقد وجدنا

(١) طين البحر ووحله.

(٢) ما يرمي به الطائر من بطنه.

أكياساً أكبر من غيرها وقمحة كل واحد مندمجة بالأخر. وكذلك فإن جوز الهند لن يفلت من الكيس.

سيلفان لايكف عن ممارسة الرياضة البدنية، وأنا أسد فخذي بتعريضهما للأمواج الصغيرة تلطمهما ساعات طويلة. وهذه الضربات المتكررة على فخذي والتقلصات التي اضطر على فعلها عند كل موجة لمقاومتها جعلت ساقي وفخذي قويين كالحديد.

في بئر مهجورة في الجزيرة سلسلة طولها ثلاثة أمتار، شبكتها بالحبال التي تربط الكيسين. عندي (برغي وعزقة) تدخلان بين حلقات السلسلة. ففي حالة عدم احتمالي، سأتمكن من النوم دون المجازفة بالوقوع في الماء، وضياع العامة. وإذا دار الكيسان فإن الماء يوقظني وأعود إلى وضعي الذي كنت عليه.

ــ إذن بابيون لم يبق سوى ثلاثة أيام.

كنا جالسين على مقعد دريفوس نتأمل ليزيت.

ــ نعم لم يبق إلا ثلاثة أيام يا سيلفان. وأنا مؤمن بأننا سننجح. وأنت؟

ــ هذا مؤكد. الثلاثاء ليلاً أو الأربعاء صباحاً سنكون في الأجمة، وحينئذ لنا الحساء الطيب، شانغ سيشر عشر جوزات لكل واحد منا، وبالإضافة إلى السكاكين سنحمل سيوفاً خشبية مسروقة من احتياط الأدوات. ومعسكر ابنيي شرق كورو وإذا سرنا صباحاً في مواجهة الشمس، سنكون واثقين من أننا على الطريق الصحيح.

قال شانغ: صباح الاثنين سيجن سانتوري. أنا لن أذكر شيئاً هنكيا، سوى أنكما اختفيتما قبل يوم الاثنين الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد أن يكون الحارس قد نهض من قيلولته.

ــ لم لا تقول بأن موجة جرتنا أثناء الصيد.

ــ لا أنا لا أحب التعقيد. بل سأقول: بابيون وسيلفان لم يحضرا المعمل اليوم، وأنا وحدي أطعمت الخنازير، لا أكثر ولا أقل.

الهروب من جزيرة الشيطان

الأحد الساعة السابعة مساء. الآن استيقظت. نمت طوعاً، والبدر لايطلع إلا في الساعة التاسعة. إذن الليل حالك السواد في الخارج، والسماء مزدانة بقليل من النجوم. والسحب تجري مسرعة فوق رؤوسنا. لقد خرجنا من البراكة. وبما أننا نخرج للصيد ليلاً، أو للنزهة في الجزيرة بصورة مشروعة، فالآخرون جميعاً لايرون في ذلك شيئاً غير طبيعي.

دخل فتى مع عاشقه العربي الكث الشعر، ولاشك أنهما عائدان من جلسة غرامية في زاوية ما. وفيما كنت أنظر إليهما وهما يرفعان اللوح الخشبي للدخول إلى القاعة، فكرت في الماعز كيف يستطيع أن يقبل صديقه مرتين أو ثلاثاً في اليوم، فيبلغ ذروة المتانة. وفي اقتداره على أن يشبع نهمه الشهواني، وبذلك يتحول السجن عنده إلى جنة. والشيء نفسه بالنسبة إلى الآخر الذي أقدر له من العمر ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً. وجسمه يدل على أنه مراهق، يحاول أن يبقى في الظل ليحافظ على بشرته البيضاء الصافية بلون الحليب. ولكنه لم يبق مشبهاً أدونيس في جماله. وله في السجن عشاق، لايحلم بمثلهم لو كان حراً. وبالإضافة إلى حبيب قلبه الماعز فقد كان له زبن يتقاضى منهم خمسة وعشرين فرنكاً عن الضجعة الواحدة. تماماً كما تفعل مومس في شارع روش شوار في مونتمارتر. وفضلاً عما يتحقق له من لذة مع الزبن فإنه يكسب مالاً كافياً لعيشه مع رجله في رغد. إنهما والزبن ينغمسون في الرذيلة طوعاً. ومنذ اليوم الذي وطئوا فيه السجن لايشغل بالهم إلا الجنس مثلاً أعلى. للمدعي العام الذي طلب الحكم عليهم سعى في بحثه أن يعاقبهم بإرسالهم إلى طريق العفن ولكنهم في هذا العفن وجدوا سعادتهم.

وما أن أحكم إغلاق الباب حتى وجدنا أنفسنا أنا وسيلفان وحيدين.

ــ هلم بنا.

وفي سرعة بلغنا شمال الجزيرة فأخرجنا الطوفين من المغارة. وفي الحال قطسنا نحن الثلاثة، والريح تزمجر زمجرة خاصة في عرض البحر.

ساعدني سيلفان وشانغ في دفع طوفي من أعلى الصخرة. وفي اللحظة الأخيرة قررت أن أوثق معصمي الأيسر بحبل الكيس إذ خشيت أن يضيع مني بغتة فأرحل بدونه. صعد سيلفان فوق الصخرة المقابلة يعاونه شانغ وكان البدر قد ارتفع جيداً والرؤية جيدة. وعصبت رأسي بمشقة. وعلينا أن ننتظر ستة موجات أكثر من ثلاثين دقيقة.

عاد شانغ إلى مقربة مني فعانقني ثم قبلني. استلقى على صخرة متشبثاً عند منعطف حجرة وأمسك بساقي ليساعدني على تلقي صدمة انكسار ليزيت. صاح سيلفان: لم يبق سوى موجة واحدة وتتبعها الرادفة[1] الكبرى، وهو أمام طوفه ليغطيه بجسمه وليحميه من الماء الذي سوف يمر فوقه. وكنت في مثل وضعه. زد على ذلك أن يدي شانغ بأعصابها المتوترة، تنغرس أظافرها في ربلتي[2] ساقي لكي يستوثق مما يفعل. وصلت ليزيت التي جاءت لتأخذنا جاءت منتصبة مثل سهم الكنيسة، بصخبها المدوي المعتاد وتحطمت على صخرتينا وغارت نحو الجرف فرأيت بمقدار جزء الثانية قبل صديقي الذي وصل هو أيضاً في سرعة. والطوفان المتلاصقان رشقتهما ليزيت نحو عرض البحر في سرعة مذهلة وفي أقل من خمس دقائق إبتعدنا عن الشاطئ، أكثر من ثلاث مئة متر. سيلفان لم يتسلم بعد

(١) التي تلي بعضها.
(٢) الربلة بطة الساق.

ظهر طوفه على حين كنت فوق طوفي منذ الدقيقة الثانية. وكان شانع يلوح لنا بخرقة بيضاء إلى جانب مقعد دريفوس محيياً تحية الوداع الأخيرة، ويبدو أنه صعد إلى هناك مسرعاً.

خرجنا منذ خمس دقائق من المنطقة الخطرة حيث تتحرك الأمواج نحو جزيرة الشيطان، والأمواج التي كانت تحملنا كانت طويلة ومنتظمة وغير مزبدة تقريباً، وكنا نراكبها، وكأننا قطعة منها، بدون اهتزاز، الطوف غير مهدد بالانقلاب أو الارتداد.

كنا نهبط ونعلو في عذوبة فوق هذه الموجات العميقة والعالية ترافق الجزر، وبينما كنت أعتلي هامة إحدى هذه الأمواج التفت نحو الشاطئ، التفاتة كاملة فرأيت خرقة شانع البيضاء. لم يكن سيلفان بعيداً عني أكثر من خمسين متراً. وكان بين الفينة والفينة يرفع ذراعه ويهزه علامة الفرح والنصر.

لم يكن الليل قاسياً. وشعرنا في وضوح بتغير جذب البحر، وقد جرنا الجزر الذي رافقناه نحو عرض البحر، وبدأ يدفعنا نحو الأرض الكبرى.

بزغت الشمس عند الأفق. إذن الساعة الآن السادسة ولازلنا بعيدين عن رؤية الساحل ولاحظت أننا بعيدون جداً عن الجزر إذ لاأكاد أميزها. إن عددها ثلاث، فلا أرى سوى كتلة واحدة وهذا كل شيء. وعجزنا عن تمييزها جعلني أقدر أن المسافة التي تفصلنا عنها تقارب الثلاثين كيلو متراً وابتسمت ابتسامة الظفر والنجاح. وكنت إذا جلست على طوفي دفعتني الريح وهي تخفقني في ظهري. حللت السلسلة وقمت بدورة داخل نطاقي. والبرغي والعزقة المشحمان تسهلان شد ثقب اللولب. رفعت يدي في الهواء لتجفيفها. ودخنت سيجارة وتنشقت طويلاً وبعمق، ثم زفرت الدخان ببطء وزال عني الفزع، وغير مجد أن أصف ما عانيت من ألم في أحشائي في اللحظات الأولى وخلال هذه العملية. لم أبق خائفاً. وبعد أن انتهيت من التدخين قررت أن أزدرد لقيمات من لب جوز الهند، ثم التهمت منه حفنة، ثم دخنت سيجارة أخرى.

سيلفان بعيد عني، ومن وقت إلى آخر عندما نلتقي فوق قمة موجة، يشاهد أحدنا الآخر لمحاً. الشمس تضرب بأشعتها دماغي الذي بدأ يغلي. بللت منشفتي ولففتها حول رأسي خلعت دراعتي ورغم الريح فقد كنت أختنق داخلها.

اسم الله. كاد طوفي أن يدور وأوشكت على الغرق، وابتلعت جرعتين من ماء البحر ورغم الجهود التي بذلتها لم أتوصل إلى إعادة الطوف إلى وضعه، ولا إلى الصعود فوقه، وكان ذلك بسبب السلسلة. وأخيراً استطعت السباحة واقفاً إلى جانب الكيسين، وتنفست بعمق. وكنت قد أزلقته من طرف واحد، وبدأت أتخلص من السلسلة وأصابعي تحاول حل البرغي بدون جدوى، فثرت غاضباً مغتاظاً ووهنت أصابعي حتى عجزت عن فك حصارها.

أف. أخيراً انحلت المشكلة. لقد أمضيت ساعة عصيبة وكدت أجن من استحالة خلاصي من السلسلة. لم أجد مشقة في تدوير الطوف وكنت منهوكاً وأحسست بأن قواي تخونني. فاعتليت عليه، وكان عاليه سافله. ماذا يهم؟ لن أربط نفسي أبداً بسلسلة ولا

بغيرها، بعد أن رأيت الحماقة التي ارتكبتها عند ارتحالي بربط معصمي. إنها تجربة كانت مؤلمة.

الشمس تلسعني في ذراعي وفي فخذي، ووجهي ملتهب بنارها، وسامت حاله في الماء وسرعان ما تبخر وهذا مازاد في حرقه.

سكنت الريح وتيسرت الرحلة وغدت الأمواج أقل ارتفاعاً، فتقدمت في سرعة أبطأ إذن شدة الريح أفضل، وهيجان البحر خير من صفائه. تشنجت ساقي اليمنى تشنجاً حاداً، وبإصبعي رسمت صليباً على مكان التشنج إذ تذكرت أن جدتي قالت لي: افعل هذا. ودواء المرأة الطيبة لم يكن ناجعاً.

مالت الشمس نحو الغرب. والساعة تقارب الرابعة من بعد الظهر. وهذا هو المد الرابع منذ بداية الرحلة، والمد يدفعني بقوة عن الشاطئ. والآن أرى سيلفان دون انقطاع وهو كذلك يراني، وقل أن يغيب عن نظري إلا إذا كانت الموجة عميقة، وقد خلع قميصه وترك جذعه عارياً وكان يشير إلي بيده وهو يتقدمني أكثر من ثلاث مئة متر، ويبدو أنه كان يجدف بكفيه لقلة الزبد حوله وكأنه الآن يحاول كبح طوفه لأدنو منه، فانبطحت على الكيسين وغطست ذراعي في الماء وجدفت فإذا هو كبح وأنا جدفت فإن المسافة بيننا تتقاصر.

لقد أحسنت اختيار شريكي في هذا الهروب، إنه على مستوى ذلك مئة بالمئة. توقفت عن التجديف لأنني أشعر بالتعب إذ علي أن أحتفظ ببعض قواي، سآكل وأحاول قلب الطوف فصرة الطعام في الأسفل، وكذلك قرب الماء العذب، فأنا ظمآن جوعان، تشققت شفتاي وأحس باحتراق فيهما. وخير وسيلة لقلب الكيسين هي أن أتعلق بهما في مواجهة الموجة ثم أدفع بقدمي التي يرتفع فيها الكيسان إلى أعلى الموجة. وبعد خمس محاولات نجحت في قلب الطوف بضربة واحدة. وقد أنهكتني الجهود التي بذلتها ثم صعدت إلى أعلى الكيسين في مشقة وعناء.

الشمس عند الأفق، وعما قليل تغيب. إذن الساعة الآن تقارب السادسة. والأمل أن يكون الليل ساكناً لأنني على يقين بأن المؤثرات النفسية ستشد من عزيمتي.

شربت من قربة الماء، التي أعطانيها سانتوري، جرعتين كبيرتين. بعد أن أكلت حفنتين من لباب جوز الهند، وبعد أن شبعت وارتويت وجففت يدي في الهواء، أخرجت سيجارة ودخنت في لذة وقبل حلول الظلام حرك سيلفان منشفته بدلاً من تحية المساء، ورددت التحية بمثلها. ولايزال بعيداً عني. جلست عمداً ساقي فعصرت سترتي الصوفية ولبستها، وهذه السترات تحفظ الحرارة ولو كانت مبللة. فقد غربت الشمس وشعرت بالبرد.

ابترد الهواء، والغيوم في الأفق الغربي تغرق في ضياء وردي وكل شيء عدا ذلك يدخل الغسق دقيقة فدقيقة. فمن ناحية الشرق حيث تأتي الريح لاتوجد غيوم إذن ليس هناك خطر هطول الأمطار في الوقت الحاضر.

لا أفكر في شيء على الإطلاق إلا في التثبت وعدم الابتلال بالماء بدون جدوى، لا أفكر في سوى التساؤل إذا كان من الحكمة أن أربط نفسي بالطوف في حال التعب، أو أن في ذلك خطراً بعد تلك التجربة التي جربتها. ثم إني ألفيت نفسي متضايقاً، محدود الحركة لأن السلسلة قصيرة بسبب أن قسماً منها معدوم الفائدة لتداخله في الحبال والأسلاك المعدنية وهذا القسم ممكن استعادته في يسر. عند ذلك أكون أكثر طلاقة في الحركة. سأرتب السلسلة وأربطها من جديد في نطاقي. ثقب اللولب مليء بالشحم، لذا فهو يعمل في غير صعوبة تذكر. ولاينبغي المبالغة في شده، كما كان في المرة الأولى. وهكذا أشعر بالطمأنينة بعد أن كنت خائفاً من النوم ومن أن يفلت مني الكيس.

بدأت الريح تتعاظم، وكذلك الأمواج والطوف يجري على ما يرام على مستويات متفاوتة في شدتها. غمرت الظلمة كل شيء، والسماء مزدانة بالنجوم، ونجم القطب الجنوبي أكثر تألقاً من أي نجم، ولا أرى صديقي. هذه الليلة هامة جداً، فإذا شاء الحظ أن تتحرك الريح طول الليل بالشدة ذاتها فإن الطريق تنتهي في صباح الغد. كلما تقدم الليل اشتدت الريح، طلع القمر من البحر متهادياً وهو بلون أسمر محمر وحينما بدا كاملاً كبيراً ميزت ما عليه من بقع سوداء تعطيه صورة الوجه. إذن الساعة الآن تتجاوز العاشرة مساء، وبدأت حبات الليل تستتر، وبقدر ما يتكبد السماء، يغدو النهار القمري مهيباً. وغدت الأمواج بلون اللآلئ وانعكاساتها تحرق عيني. وليس من الممكن عدم النظر إلى هذه الانعكاسات الفضية، ولكنها في الحقيقة تجرح عيوني التي سبق للشمس والماء المالح أن هيجاها وعبثاً حاولت إقناع نفسي بأنني أبالغ، ولم أقو على المقاومة. فدخنت ثلاث سيجارات على التوالي. لاشيء غير طبيعي بالنسبة إلى الطوف، فهو يهبط ويصعد فوق بحر سحيق الغور بدون عائق، لا أستطيع أن أدع ساقي عندئذ طويلاً على الكيس لأن هذا الوضع يسبب لي تشنجاً مبرحاً. وأنا بطبيعة الحال مبلل إلى منطقة الحوض، ولكن صدري جاف والريح جففت سترتي، وبما أن موجة ما لم تبللني، فإن جسمي جاف إلى منطقة الحزام. عيناي، بهما حرقة تزداد باستمرار. كنت أغمضهما، وأغفو من وقت إلى آخر، وقلت لنفسي: يجب أن لاأنام. وهذا كلام سهل على اللسان، ولكنه فوق طاقتي فكنت أقاوم الخدر والخمود. وفي كل مرة أستعيد فيها المعنى الحقيقي لهذه العبارة، كنت أشعر بألم حاد في دماغي. أخرجت قداحتي لأحرق بها جلدي من حين إلى آخر بحثيلها المشتعل في عضدي الأيمن أو في عنقي، وعراني غم عظيم، حاولت طرده بكل ما أوتيت من إرادة، ترى هل استسلم للنوم؟ هل أسقط في الماء؟ هل يوقظني البرد؟ لا أستطيع احتمال ضياع هذين الكيسين فهما حياتي. وسوف يكون من نكد الشيطان أن لا أسقط أبداً إذا تدحرجت في اللجة. منذ دقائق تبللت من جديد بسبب موجة متمردة لم تتبع الطريق النظامي للموجات الأخرى فجاءت تصفعني من الجهة اليمنى ولم تكتف بأنها بللتني بل وضعتني في طريق موجتين عاديتين غمرتاني من مفرقي إلى أخمص قدمي.

الليلة الثانية تقدمت كثيراً. كم تكون الساعة يا ترى؟ فبحسب وضع القمر الذي

بدأ يميل نحو الغرب يجب أن تكون قريبة من الثانية أو الثالثة.

هذه هي المرة الخامسة التي يحدث فيها المد والجزر خلال الثلاثين ساعة منذ أن نزلنا إلى الماء. انغماسي في الماء حتى العظام أفادني من بعض الوجوه، فقد أذهب البرد عني النعاس. لقد كنت أرتجف غير أن عيني ملتحمتان متوسعتان بدون بذل مجهود ما. يبست ساقاي وعزمت على طيهما تحتي فأمسكت كل ساق بيدي ووضعتها وضعاً مناسباً فاستطعت الجلوس عليهما. أما الإبهامان المتجلدان من البرد، فربما وجدا الدفء تحتي؛ وهكذا جلست على الطريقة العربية طويلاً، وتغيير الوضع حسّن الأوضاع. حاولت رؤية سيلفان إذ أن القمر كان يضيء البحر إضاءة وافية، ولكنه بدأ يميل وصار في مواجهتي ويضايقني في تدقيق النظر فلم أر شيئاً. أما هو فلم يكن معه ما يربط به نفسه بالكيسين. ليت شعري هل لايزال فوقها؟ كنت أبحث عنه يائساً وبدون جدوى اشتدت الرياح ولكنها كانت منتظمة وهذا شيء مهم جداً. لقد ألفت جرسها[1] وجسمي يشكل مع الكيسين كتلة واحدة؛ واشتد بحثي حولي، حتى أنه لم يبق في ذهني سوى فكرة واحدة ثابتة هي رؤية صديقي. جعلت أصابعي في الهواء وأرسلت صفيراً حاداً وأصابعي في فمي، وأصغيت، فما سمعت جواباً. هل كان سيلفان يعرف الصفير بأصابعه؟ لست أدري. وكان علي أن أسأله عن ذلك من قبل وكان في استطاعتنا أن نصنع صفارتين، ولمت نفسي على أنني لم أفكر بهذا، ثم جمعت يدي حول فمي وصرخت هو، هو، فلم يجبني سوى صوت الريح ووشوشة الموج. ولما عيل صبري نهضت واقفاً على الكيسين رافعاً السلسلة بيدي اليسرى للتوازن في الوقت الذي تحملني فيه الموجات الخمس على قمتها، وحين وصلت إلى أعلى واقفاً تماماً، وحين الجلوس والصعود كنت أجلس القرفصاء. لاشيء على اليمين، لاشيء على اليسار، ولا شيء أمامي. هل هو خلفي؟ والشيء الوحيد الذي خطر ببالي دون أدنى شك، هو ما كان على يساري: خط أسود قاتم في هذا الليل القمر كالنهار وهي لاشك أرض الأجمة. فعندما يطلع النهار سوف أرى الشجر وهذا شيء يريحني. قلت لنفسي: غداً سترى الأجمة يا بابي. ربما النظر إلي كما ينظر الصديق إلى صديقه.

مددت ساقي بعد أن دلكت إبهامي ثم عزمت على تجفيف يدي وتدخين سيجارة أو اثنتين. كم تكون الساعة يا ترى؟ القمر منخفض جداً. لا أذكر متى تلاشى الليل وكم من الوقت سبق شروق الشمس حاولت أن أتذكر وأغمضت عيني، مستدعياً صور الليل الأخيرة ولكن بدون جدوى. آه. بلى. بغتة رأيت في وضوح شروق الشمس مع جزء من القمر لايزال مرئياً على خط الأفق في الغرب. إذن تكون الساعة قد قاربت الخامسة صباحاً. والقمر يتباطأ في الغروب. وتوارت نجوم الدب الأكبر والدب الأصغر وبقي نجم القطب لامعاً متلألئاً، فهو وحده الآن أمير السماء. ازداد حجم الريح فهي على الأقل أكثر

(١) نغمتها الموزونة، إيقاعها

كثافة، إن صح القول، مما كانت عليه أثناء الليل. وبذلك تقوى الأمواج وتزداد عمقاً وعلى ظهورها زاد عدد الخراف البيض عما كانت عليه أول الليل.

لقد انصرمت ثلاثون ساعة على إبحاري ويجب الاعتراف بأنه حتى الآن تجري الأمور نحو الأفضل لا الأسوأ والنهار القاسي هو الذي نواجهه اليوم. بالأمس كنت تعرضني الشمس منذ الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساء، قد لفحتني ولوحتني. واليوم عندما تبدأ الشمس تلفحني من جديد لن يكون الأمر سهلاً مثل أكل الحلوى ـ تشققت شفتاي، وما أزال في برودة الليل، وهما تحرقاني. وكذلك عيناي، وشبيه بذلك عضداي ويداي. لو استطعت لما كشفت عن ذراعي. أريد معرفة إمكانية احتمال الدارعة التي تشويني. وليست الشمس هي التي تزعجني ما بين المخذين والعجز، ولكن الماء المالح واحتكاك الكيسين.

على كل حال يا صديقي احترقت أم لم تحترق فأنت في حالة هروب، والوصول إلى هناك وحيثما كنت، يساوي احتمال الكثير من المشاق وأكثر. إن مؤشرات وصولي حياً إلى الأرض الكبرى إيجابية ثمانين في المئة. هذا هو المأمول وإلا فيا للتعاسة. أما إذا وصلت مسلوخ جلدة الرأس، وجسدي نصف حي فلن أكون قد دفعت الثمن غالياً للوصول إلى نتيجة كهذه. تصور أنني لم أتعرض لقرش واحد وكأن القروش جميعاً في إجازة. لايمكن أن أنكر أنني محظوظ ومحظوظ غريب وسترى الآن إذا كان هذا الهروب هو الهروب الموفق، وهو من أكثر محاولات الفرار دقة وتحضيراً، وفي آخر الحساب هو الفرار الأكثر نجاحاً، وقد يكون أكثرها حماقة: زورقي كيسان من جوز الهند، ثم الانطلاق حسب مشيئة الريح والبحر.

وفي الأرض الكبرى اعترف بأنه لاينبغي الخروج من سان مير لتعلم أن كل حطام قد ألقي به على الشاطىء. فإذا كانت الريح والموج قد حافظا طيلة النهار على الشدة التي كانت عليه في الليل فمن الثابت أنني أطأ الثرى بعد الظهر. هذا الجرم السماوي الاستوائي العظيم الذي يتدفق خلفي لهباً، يبدو أنه عزم على أن يشوي كل شيء. هذا اليوم إذ يرسل كل ما عنده من شواظ بعد أن طرد ليلة مقمرة في لحظات ولم ينتظر ذروره ذروراً كاملاً حتى يفرض سلطانه كملك على خط الاستواء لايمارى. وقد أصبح الهواء فاتراً في وقت وجيز جداً وبعد ساعة سيغدو حاراً. لقد تلاشى ما كان في جسمي من إحساس بالارتياح. وهذه الأشعة الأولى التي مستني مساً رقيقاً عذباً اجتاحت كيالي من منطقة الحزام إلى رأسي، لم تلبث أن اضمحل أثرها رغمت متشقتي على صورة (برنس) معرضاً وحتى إلى الأشعة كما أفعل إذا كنت حيال نار وقودها الحطب. هذا الجرم السماوي، أراد أن يشعرني، قبل أن يحققني، كيف هي الحياة قبل أن يكون الموت.

يجري الدم في عروقي مالحاً. وحتى فخذاي المبتلتان تشعران بدوران هذا الدم الناشط رأيت الأجمة بوضوح، رأيت ذرى الأشجار، وقدرت أنها ليست بعيدة، وأنا انتظر أن تتم الشمس قليلاً لأقف على الكيس لعلي أرى سيلفان، وارتفعت الشمس في أقل من

ساعة، وسيكون الطقس حاراً. يا إلهي! عيني اليسرى نصف مغمضة وملتصقة. تناولت ماء في فراغ كفي ودلكتها فأحسست بوخزة. خلعت ذراعي لأترك جذعي عارياً لبعض لحظات قبل أن تصبح الشمس لاذعة محرقة. موجة أقوى من مثيلاتها رفعتني عالياً وقبل أن تنحدر لمحت صديقي نصف ثانية، وكان جالساً على طوفه عاري الجذع، ولم يرني فهو بعيد عني بمقدار مئتي متر. أمامي ونحو اليسار لاتزال الريح شديدة لذلك قررت الاقتراب منه، وأن أمسك أسفل السترة بين أسناني وأرفع ذراعي داخل الكمين، فيكون شراع يدفعني بالتأكيد في سرعة تفوق سرعته، وخاصة أنه أمامي على نفس الخط. كنت الشراع لمدة نصف ساعة ولكن شعرت بألم في أسناني. والجهد الذي ينبغي بذله في مقاومة الريح سوف يستنفد قواي في سرعة. ولما تخليت عن هذا الإجراء كان لدي إحساس بأنني تقدمت بأسرع مما لو تركت نفسي محمولاً على الأمواج. عجباً رأيت الرجل الطويل، فهو على بعد يقل عن مئة متر ولكن ماذا يفعل؟ ألا يبدو مهتماً بمعرفة مكاني؟ وعندما رفعتني الموجة بقوة كافية رأيته من جديد مرتين أو ثلاثاً، وقد لاحظت بدقة بأن يده اليمنى فوق عينيه. إذن هو يتفحص سطح البحر. انظر إلى الخلف يا أحمق. لابد أنه نظر هذا مؤكد، لكنه لم يرني. وقفت وصفرت. وعندما صعدت من أعماق الموجة رأيت سيلفان في مواجهتي، فرفع سترته في الهواء فحييته وحياني ما لايقل عن عشرين مرة قبل أن نعاود الجلوس، ولدى كل موجة كنا نتبادل التحية في الهواء، ومن جميل المصادفة أننا كنا نرتفع معاً. وفي اللقاءين الأخيرين كان يشير بيده إلى الأجمة التي أمكننا رؤية تفاصيلها فنحن لانبعد عنها أكثر من عشرة كيلو مترات. فقدت التوازن ووقعت قاعداً على الطوف لقد شعت الفرحة العارمة في قلبي عندما رأيت صديقي والأجمة القريبة. وهذا الانفعال جعلني أبكي كالأطفال، بهذه الدموع التي طهرت عيني المتقيحتين رأيت مئات البلورات الكريستالية الصغيرة من جميع الألوان، وكأنني أرى زجاج كنيسة.

إن الله معي هذه المرة. ففي وسط عناصر الطبيعة العظيمة: الريح واتساع البحر وعمق الأمواج والسقف الأخضر الذي يعيش على الأجمة، يحس المرء بصغره اللامتناهي أمام كل ما يحيط به، وربما أحس بصورة لاشعورية بوجود الله ويكاد يلمسه بيده. وكما أحسست به ليلاً خلال آلاف الساعات التي قضيتها في غياهب السجون حيث كنت مدفوناً وأنا حي، من غير شعاع من النور، فإنني أحس به اليوم في نور هذه الشمس التي تشرق لتفترس كل ما هو ضعيف عن مقاومتها. إني أحس حقاً بوجود الله حولي وفي نفسي، وكأني به يهمس في أذني: لقد قاسيت وسوف تقاسي أكثر إنما هذه المرة سأكون معك، وسوف تتحرر وتنتصر. أعدك بهذا.

إذا لم تكن للإنسان ثقافة دينية وحتى إذا كان يجهل أبجدية الدين المسيحي، أو كان جاهلاً إلى درجة أنه لايعلم من هو أبو المسيح، ولا إذا كانت أمه مريم العذراء، أو إذا كان أبوه نجاراً أو جمّالاً، كل هذا الجهل الفاحش لايمنعه من أن يجد ربه عندما يبحث

عنه حقاً، ويتوصل إلى معرفته في الريح والبحر والشمس، والغابة والنجوم، حتى في الأسماك التي أوجدها لنأكل منها لحماً طرياً.

ارتفعت الشمس سريعاً، ولعل الساعة تقارب العاشرة، وقد جف جسمي ابتداء من كشحي [1] إلى رأسي. فمست منشفتي وجعلت منها برنساً حول هامتي، ولبست سترتي إلا أن ظهري وكتفي وذراعي تحرقني حرقاً شديداً، حتى ساقاي المغمورتان بالماء، غالباً ما كانتا حمراوين كجراد البحر.

إذا سلمنا بأن الشاطئ قريب، فالجلب أقوى، والأمواج تتجه بصورة عمودية نحوه. أرى تفاصيل الأجمة التي جعلتني أفترض أنه لم يبق سوى هذا الصباح (في الساعة الرابعة أو الخامسة) وبفضل حروبي الأول أعرف كيف أقدر المسافات، فعندما تستطيع أن تميز الأشياء في وضوح فهذا يعني أنك على بعد خمسة كيلو مترات على الأقل، فقد رأيت الفرق بين ضخامة جذوع الأشجار. من علو عرف الموجة ميزت في جلاء تام حيواناً ضخماً يشبه الفيل ينام معترضاً وهو يغسل جلده في البحر.

إليك... دلافين وطيور. وآمل أن لاتتسلى الدلافين بطوفي، ولقد سمعتهم يقولون بأن من عادتها أن تدفع نحو الشاطئ الحطام أو الرجال، ومن جهة أخرى فقد تغرقهم بضربات من خطمها وهي تنوي مساعدتهم. لا. إنها تدور وتعود وعددها ثلاثة أو أربعة جاءت تتشمم لترى ما هنا. ولكنها عادت دون أن تمس طوفي. أف. الوقت ظهراً والشمس عمودية على رأسي، ولا غرو في أنها تريد سلقي في قدر بخارية وعيناي تلتهبان باحمرار، وانسلخ جلد شفتي وأنفي، وقصرت الأمواج وأسرعت الخطى نحو الشاطئ، في صخب يصم الآذان. وأرى دوماً سيلفان فهو لايغيب عني أبداً. وليست الأمواج عميقة، وهو يلتفت نحوي بين الفينة والفينة رافعاً يده وهو عاري الجذع، والمنشفة على رأسه.

لم تبق الموجة موجة بل غدت كالقافلة تجري نحو الشاطئ، وتلتقي بنوع من الحواجز فتصطدم بها محدثة صوتاً رهيباً، ثم تجتاح الحاجز يعلوها زبد كثيف، ثم تتغلغل في هجومها على الأجمة.

نحن على بعد لايقل عن كيلو متر من الساحل وأرى الطيور البيض والوردية بل أرى أعرافها الأرستقراطية. وهي تتنزه وتسعى إلى رزقها في الحمأة [2] وكانت تعد بالآلاف وما كان واحد منها يحلق أعلى من مترين، وهذا الطيران المختصر كان تفادياً للبلل بالزبد. وللبحر وحل أصفر كريه المنظر، ولقد أصبحنا قريبين جداً بحيث استطعنا أن نرى على جذوع الأشجار الخطوط القذرة التي تركتها المياه في ارتفاعها الأقصى. وجلبة الأمواج لم تطمس الأصوات الحادة التي ترسلها الآلاف طويلات الساق، وهي من كل لون.

---

(١) خصري.
(٢) الوحل، أو الرمل المتحرك.

بال. بات لايزال أمامنا متران أو ثلاثة عالقاً على اليابسة، على الحمأة. ولم يكن الماء كافياً لحملي.

أقدر الساعة الآن — حسب ميل الشمس — الثانية بعد الظهر، بعد رحلة دامت أربعين ساعة. وكانت بدايتها أول أمس في الساعة العاشرة مساء، بعد ساعتين من الجزر. إذن هذا هو الجزر السابع، وطبيعي أن أكون الآن فوق اليابسة. إنه الجزر المنخفض، والمد سيكون في الساعة الثالثة، وسأكون في الليل في الأجمة، وعلي أن أحتفظ بالسلسلة لئلا انفصل عن الكيسين لأنه في لحظة الخطر هي اللحظة التي تبدأ فيها الأمواج بالمرور من فوقي دون أن تجرفني وذلك لقلة العمق. ولن أعوم قبل ساعتين من المد أو ثلاث.

سيلفان على يميني نحو الأمام ويبعد عني مئة متر، ينظر إلي ويشير بيده. أظن أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن حنجرته لاتقوى على أن تصدر صوتاً وإلا لكنت سمعته. اختفت الموجات الخفيفة ونحن فوق الحمأ المسنون، ولاتزعجنا ضجة سوى أصوات طويلات الساق.

أنا على مسافة خمس مئة متر من الأجمة، وقد تقل عن ذلك أو تزيد. ولكن ماذا يفعل هذا الأحمق، إنه واقف وقد ترك طوفه. إنه مجنون، ويجب أن لايمشي وإلا بدأ يغوص عند كل خطوة، ولن يستطيع رجوعاً إلى الطوف، أريد أن أصفر فلا أستطيع. بقي لي قليل من الماء، فأفرغت القارورة ثم حاولت الصياح لأوقفه فلم أستطع إصدار أي صوت. وكانت تنطلق من الوحل فقاعات غازية، فليست هذه إذن سوى قشرة تحتها الوحل، والغبي يرمي بنفسه في التهلكة، لا أنه أصيب بالجنون. التفت نحوي ونظر إلي وقام بحركات لم أفهم معناها. وأنا أومأت له بحركات أردت فيها القول: لا، لاتتحرك من طوفك. إنك لن تصل إلى الأجمة أبداً. وبما أنه خلف طوفه، لم أتبين إذا كان بعيداً أو قريباً منه. ظننت أولاً أنه قريب جداً منه، وفي حالة غوصه يستطيع التشبث به، وفجأة فهمت أنه انسحب بعيداً عنه، وأنه غاص في الحمأة دون أن يتمكن من التخلص منها والعودة إلى الطوف. وصلت إلى مسمعي صيحة منه، فانبطحت حينئذ فوق طوفي، وغرزت يدي في الوحل، وأخذت أشد بكل قواي، فتحرك الكيسان من تحتي نحو الأمام قليلاً وتمكنت من التزلق أكثر من عشرين متراً، وعند ذلك انحرفت نحو اليسار، فوقفت فرأيت صديقي وأخي مدفوناً إلى بطنه، وهو يبعد عن طوفه عشرة أمتار، ومنحني الرعب قوة في صوتي فصرخت سيلفان! لاتتحرك بل انبطح في الوحل وإذا استطعت أطلق ساقيك. فحملت الريح صوتي فبلغ مسمعه فأومأ برأسه أن نعم. ثم عدت إلى الانبطاح، وأخذت أزلق كيسي والغضب يعطيني قوة تفوق القدرة البشرية وبدأت التقدم في سرعة نحو مسافة ثلاثين متراً استغرق ذلك مني قرابة الساعة، ولكني اقتربت منه جداً حوالي خمسين أو ستين متراً وقد ميزته في مشقة، فكان وجهه ويداه ملطخة بالوحل. مسحت عن عيني ماتزال بها من الوحل المالح، فكانت تحرقني، وتمنع عن الرؤية لا بالعين اليسرى فقط بل العين

الأخرى أيضاً والتي أخذت تدمع إمعاناً في سوء الطالع. وأخيراً رأيته، فلم يكن واقفاً بل واقعاً، وجذعه فقط هو الذي يتجاوز الوحل. مرت الموجة الأولى وقفزت من فوقي دون أن تفصلني عن الطوف وامتدت بعيداً وهي تغمر الحمأة بزبدها، ومرت أيضاً فوق سيلفان ولايزال جذعه خارجاً. فكرت في سرعة: وكلما زاد عدد الأمواج ازداد الوحل رخاوة يجب أن أصل إليه مهما كلف الأمر. فكنت كالوحش الذي يهدد مسكنه الضياع، أو كالأم التي تريد أن تنتزع ولدها من خطر داهم. كنت أسحب وأسحب وأسحب فوق هذه الوحلة لأتقدم إليه، وكان ينظر إلي دون أن ينبس بكلمة واحدة ولايشير بأية إشارة بل كان يحدق بي بعينين جاحظتين تفترسان عيني، وعيناي ثابتتان عليه لاترتعدان ولاتتحولان عن نظرته دون أن أقسم أن تغوص يداي. زحفت قليلاً. وبسبب موجتين مرتا فوقي تماماً وغمرتاني، أصبح الوحل أقل تماسكاً وتقدمت بصورة أسرع مما كنت عليه منذ ساعة. ومرت موجة أخرى وكدت أختنق بمائها وأوشكت تقتلعني من مركبي، جلست لأحسن الرؤية. ووصل سيلفان في الغوص إلى إبطيه وأنا على مسافة منه تقل عن أربعين متراً وهو ينظر إليّ في حدة. أرى أنه أحس بدنو أجله فهو يغوص في رمل متحرك كشخص ذليل على بعد أقل من ثلاث مئة متر من الأرض الموعودة.

وصلت إلى الانبطاح أجرف الوحل أيضاً الذي أوشك أن يكون سائلاً. عيناي في عينيه. أشار إلي أن لا أقوم بأي مجهود، فتابعت مع ذلك، وتقاصرت المسافة بيننا إلى أقل من ثلاثين متراً وجاءت موجة غطتني بلججها وانتزعتني تقريباً عن كيسي اللذين انفصلا عني وتقدما مسافة خمسة أمتار، ولما انحسرت الموجة رأيت سيلفان قد توارى. وكان الوحل المغطى بطبقة خفيفة من الماء المزبد ناعماً جداً حتى أن يده لم تظهر لتودعني، الوداع الأخير.

كان رد الفعل عندي بهيمياً وعقلياً. وقد دعت غريزة البقاء بكل احساسي فقلت لنفسي:

أنت على قيد الحياة، وأنت وحدك، وعندما تكون في الأجمة بغير صديق لن تجري الأمور هينة لتنجح في الهروب. تكسرت موجة على ظهري، إذ كنت جالساً، فنبهتني، وقد طوتني تصفيق. وكانت الضربة شديدة بحيث فقدت معها النفس لبضع دقائق. وانزلق الطوف أيضاً بضعة أمتار. وحينئذ رأيت الموجة تموت قرب الأشجار فبكيت سيلفان. لقد كنا قريبين جداً. لولا أنك تحركت. وعلى مسافة تقل عن ثلاث مئة متر من الأشجار، لماذا؟ قل لي لماذا قمت بهذه الحماقة؟ كيف افترضت أن هذه القشرة اليابسة كانت في قوة كافية تسمح لك بالوصول إلى الشاطئ، مشياً على الأقدام؟ الشمس؟ الانعكاسات؟ ليت شعري ألم تستطع مقاومة الجحيم؟ قل لي كيف لم يستطع رجل مثلك أن يحتمل لفح الشمس ساعات أخر. توالت الأمواج باستمرار محدثة صوتاً كصوت الرعد، وكانت مترادفة، بعضها تلو الأخرى، وبدأت تتعاظم، وكلما أغرقتني انزلقت بضعة أمتار على تماس دائم بالحمأة، وحوالي الساعة الخامسة بدأت الأمواج تشتد وتقوى، أنا منفصل عن

الطوف ولكنني عائم، وهذه الأمواج ذات عمق لذلك فإنها لاتحدث ضجيجاً، وقد توقفت رغم الأمواج السابقة. كيس سيلفان وصل إلى الأجمة. وصلت إلى مسافة عشرين متراً من الغابة العذراء في وضع ليس قاسياً جداً، فعندما تنحسر الموجة من جديد فوق الطين، وفي نيتي أن لا أتزحزح عن كيسي إلى أن أمسك بأحد الأغصان بيدي. مسافة عشرين متراً استغرقت ساعة قبل أن أجد نفسي محمولاً إلى الأجمة، والموجة التي قذفت بي مزمجرة وجهتني تماماً نحو الأشجار فتفككت اللوالب وتخلصت من السلسلة ولم أرم بها فقد أحتاج إليها.

في الغابة

أسرعت في الدخول إلى الأجمة قبل غروب الشمس، أمشي تارة وأسبح تارة فهنالك أيضاً رمال متحركة مصاصة. والماء يدخل بعيداً، وأسدل الليل أستاره ولما أصل إلى اليابسة بعد. وزحمت رائحة المياه الآسنة أنفي، ولابد أن تكون مصحوبة بالغازات، عيناي تحرقاني. يغطي العشب والورق ساقي، ولازلت أدفع طوفي، وكلما خطوت خطوة تحسست الأرض تحت الماء بقدمي فإذا لم تغص مشيت.

وقضيت ليلتي الأولى فوق شجرة ضخمة ساقطة، وقد مرت على جسدي حشرات كثيرة. فأشعر بحروق ووخز. فلبست سترتي بعد أن رفعت طوفي على جذع الشجرة وثبت طرفيها. في هذين الكيسين حياتي، إذ حالما يفتحان فإن جوز الهند يتيح لي الغذاء والقوة. لبدت فوق الشجرة منهوكاً في ظل الأغصان التي شكلت لي نوعاً من المسكن، ونمت دون التفكير في أي شيء. بل لقد هجعت مرتين أو ثلاثاً: مسكين سيلفان، قبل أن أتهاوى كالكتلة. استفقت على صيحات الطيور ودخلت أشعة الشمس في الغابة بعيداً، وكانت تأتي أفقية، فربما بلغت الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً.

نهضت وحولي الماء. إذن فالبحر في حالة المد. وقد يكون نهاية المد العاشر؛ أي مضى على خروجي من جزيرة الشيطان ستون ساعة، ولا أستطيع أن أقدر إذا كنت بعيداً عن البحر وعلى أية حال سوف أنتظر انحسار الماء لأذهب إلى شاطئ البحر، لأجفف جسمي وأعرضه للشمس، لم يبق عندي ماء عذب وعندي ثلاث حفنات من لب جوز الهند، كنت آكلها في لذة وأفرك منها أيضاً على جروحي. وبفضل ما في لب الجوز من زيت فإنه يخفف الحروق. دخنت سيجارتين فكرت في سيلفان هذه المرة بدون أنانية. أما كان

الأفضل أن أهرب بغير صديق؟ ذلك أني كنت أدعي أنني أستطيع التصرف منفرداً. إذن لم يتغير شيء سوى أن الأسى يعتصر قلبي، وأغمض عيني وكأن هذا يمكن أن يحجب عني رؤية مشهد غوص صديقي في الرمال المتحركة. لقد انتهى.

علقت الكيس في العنق وبدأت استخرج منه جوز الهند وتمكنت من شق قشرة اثنتين بضربهما بالشجرة بكل ما أوتيت من قوة. ويحسن الضرب على رأسها المدبب بحيث ينفتح الغلاف، وهذا أفضل من استعمال السكين. أكلت واحدة بكاملها وشربت ما احتوت من مائها الحلو.

سرعان ما تراجع البحر، ومشيت في الوحل في سهولة حتى وصلت إلى الشاطئ. الشمس مشعة والبحر اليوم جميل لانظير له. نظرت طويلاً إلى المكان الذي افترض أن سيلفان قد توارى فيه، وجففت أمتعتي في سرعة، وكذلك جسمي الذي غسلته بماء البحر المتجمع في حفرة. دخنت سيجارة وألقيت نظرة أخيرة على قبر صديقي. ثم توغلت في الغابة أمشي في غير صعوبة تذكر، وكيسي على كتفي، وتغلغلت تحت غطاء الأشجار ببطء وفي أقل من ساعتين، وجدت أخيراً أرضاً لم يصل إليها فيض البحر، وليس هناك من أثر على الأشجار يدل على أن مد البحر قد وصل إليها. استرحت هنا أربعاً وعشرين ساعة، وفتحت جوزات الهند شيئاً فشيئاً لأضعها في الكيس جاهزة للأكل عندما أريد. وباستطاعتي أن أشعل النار، ولكن وجدت أن ليس من الحكمة أن أفعل هذا. مضت بقية النهار وطيلة الليلة بدون متاعب.

أيقظتني زقزقة العصافير عند شروق الشمس، أكملت تقشير جوز الهند فأصبح حجم الكيس صغيراً فوضعته على كتفي وسرت مشرّقاً.

وحوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر وجدت أمامي طريقاً وموطيء أقدام للباحثين عن الصمغ، أو المفتشين عن المعادن أو الذين ينقلون الامدادات الغذائية، أو الذين يمولون الباحثين عن الذهب. وكان هذا الدرب ضيقاً، ويبدو أنه مطروق، وعليه آثار حوافر الحمير والبغال وليس لها حدوات كما رأيت في الوحل اليابس آثار أقدام رجال، وبصمة الإبهام محفورة في وضوح في الغبار، مشيت حتى ولج الليل. كنت أمضغ الجوز، فيغذيني ويبل عطشي، وكنت أمضغ جيداً، فاستخرج من فمي مستحلباً من الزيت واللعاب فأدهن به أنفي وشفتي ووجنتي. وغالباً ما تلتصق أجفاني بسبب القيح، وسوف أغسلهما بالماء العذب عندما أستطيع إلى ذلك سبيلاً.

وكان معي في كيسي علبة محكمة الإغلاق وقطعة من الصابون المرسيلي واثنتا عشرة شفرة للحلاقة وفرشاة، وقد احتفظت بها سليمة.

سرت وقائم سيفي الخشبي بيدي، ولا حاجة بي إلى استعماله، إذ أن الطريق سالكة، ليس فيها عوائق، وكذلك لفت نظري وجود أغصان مقطوعة حديثاً. فعلى هذا الدرب يمشي أناس، وعلي أن أكون حذراً. ليست الغابة هنا كالتي عرفتها في هروبي الأول في سان لوران مادوني فهذه تتألف من طبقتين وليست كثيفة كما هي الحال في مادوني.

النوع الأول من النبات يعلو إلى ارتفاع خمسة أو ستة أمتار، ثم الطبقة الثانية العليا وتشكل قبة الغابة، وارتفاعها عشرون متراً، ولا أرى الضياء إلا عن يمين الشعب(1) أما عن اليسار فلا شيء سوى العتمة. تقدمت بخطا حثيثة، وأحياناً على ضوء حريق سببه إما الإنسان أو الصاعقة. وكنت ألمح أشعة الشمس، ويشير ميلها إلى أنها قاربت المغيب، فأدرت لها ظهراً، متجهاً نحو الشرق، إما إلى قرية زنوج كورو، وإما نحو المعسكر التأديبي الذي يحمل اسم كورو أيضاً. يهجم الظلام هنا دفعة واحدة وأود الدخول إلى الغابة وأن أجد لنفسي ركناً آوي إليه. وعلى بعد ثلاثين متراً من الشعب التجأت إلى كومة من الورق الناعم، وهو نوع من أوراق الموز، فرقدت عليها وقت، وكانت جافة. فقد كنت محظوظاً إذ لم يهطل المطر. دخنت سيجارتين. لست مرهقاً هذه الليلة ولب الجوز وهبني قوة وأسكت عني الجوع. أما العطش فقد جفف حلقي ولم أستطع أن أبتلع لعابي.

بدأت المرحلة الثانية، وهذه هي الليلة الثالثة التي أقضيها بدون حوادث مؤسفة على الأرض الكبرى. آه ليت سلفان كان معي، ولكنه ليس هنا فيا حسالي أفعل؟ أنا لست في حاجة إلى من يسدي إلي نصحاً أو يكون لي سنداً. أأنا ضابط أم جندي؟ يجب أن لا أكون غبياً. إذا لم يكن موجباً أن أفقد صديقي وأن أبقى وحدي في الغابة فلا يعني هذا أني أقل عزيمة من ذي قبل.

ما أبعد صحبي عني الذين هم في رويال وسان جوزيف وجزيرة الشيطان. وقد مرت ستة أيام على مغادرتي لهم. ولابد أن معسكر كورو قد أنذر بهروبي. أولاً جنود المعسكر في الغابة ثم الزنوج في القرية، والمؤكد أنه تشكلت دورية من الدرك فهل من الحكمة أن أمشي نحو هذه القرية؟ ولا أعلم شيئاً عن ضواحيها. والمعسكر ملاصق للقرية والنهر، هذا كل ما أعرفه عن كورو.

في رويال كنت فكرت في مهاجمة أول آتٍ وإجباره على أن يقودني إلى ضواحي معسكر لينبي حيث يتواجد الصينيون، وحيث كويك كويك أمر شائع، إذا كانوا في جزيرة الشيطان ظنوا أنني غرقت فلا ضجة ولافضيحة، أما إذا أدركوا أنه الفرار فإن في كورو خطراً. وبما أنه معسكر حربي فلابد أن يكثر فيه عدد الوصول أي عدد كبير من القناصة.

حذار من الخطأ. لاتدع نفسك بأيدٍ تقع لقمة سائغة في أفواههم، ويجب أن ترى الأشخاص أياً كانوا قبل أن يروك، ويستنتج من ذلك أنه يجب أن تمشي في الغابة موازياً للطريق لا على الطريق. لقد أخطأت اليوم خطأ فادحاً في سيرك على هذا الدرب بسلاح، ليس هذا من عدم التفكير بل من الجنون. إذن غداً سأمشي في الغابة.

لقد صحوت في ساعة مبكرة على أصوات الحيوانات والطيور التي تحيي طلوع الفجر فتحركت مع الغابة في وقت واحد. وبالنسبة إلي أنها يبدأ نهار جديد. تناولت حفنة من

(1) طريق ضيق، ممر.

جوز الهند وضغطها جيداً، ومسحت بعطفه وجهي وتابعت طريقي. مشيت في شيء من الشفقة إلى جانب الطريق، بسبب ما يتدلى من الأغصان والعرائش. وكنت مضطراً إلى إزاحة بعضها عن بعض، إذا كانت متشابكة، لكي أتمكن من المرور ولكني كنت متستراً بها . وعلى كل حال لقد أحسنت صنعاً بالابتعاد عن الطريق ، لأنني سمعت صفيراً . يجد الشعب أمامي خمسين متراً ولم أر الصافر . له هنا هوذا آتٍ ، إنه زنجي يحمل على عاتقه حملاً . وبيده اليمنى بندقية ، يرتدي قميصاً كاكياً وبنطالاً قصيراً، حافي القدمين، عاري الساقين، يحني رأسه ولا يرفع نظره عن الأرض مقوس الظهر بثقل الحمل الكبير. تواريت خلف شجرة كبيرة على حافة الطريق وانتظرت حتى يدنو مني وسكيني بيدي مفتوحة. وفي اللحظة التي مر فيها أمام الشجرة ارتميت عليه، وأمسكت بيدي اليمنى ذراعه التي تحمل البندقية ولويت له ذراعه فتخلى عن البندقية، وقال: لاتقتلني! يا إلهي الرحمة.

ظل واقفاً ورأس سكيني مرتكز على قاعدة عنقه اليسرى. انحنيت وتناولت البندقية العتيقة وهي ذات فوهة واحدة ولكنها محشوة بالبارود والرصاص إلى أقصاها ابتعدت عنه مترين وأصدرت إليه أمري:

ـ انزل حملك، ودعه يسقط لاتحاول الذهاب جرياً وإلا قتلتك.

وامتثل الأسود المسكين مذعوراً ثم نظر إلي وقال: أأنت هارب؟

ـ نعم.

ـ ماذا تريد؟ خذ ما تشاء وأتوسل إليك لاتقتلني، عندي خمسة أطفال، ابق على حياتي.

ـ اسكت. ما اسمك؟

ـ جان.

ـ إلى أين تذهب؟

ـ أحمل أغذية وأدوية إلى أخوي اللذين يقطعان الأخشاب في الغابة.

ـ من أين أنت آت؟

ـ من كورو.

ـ هل أنت من هذه القرية؟

ـ ولدت فيها.

ـ هل تعرف اينيني؟

ـ نعم. وأتعامل مع الصينيين في معسكر السجناء.

ـ هل ترى هذا؟

ـ ماهذا؟

ـ ورقة نقدية بقيمة خمس مئة فرنك. ولك أن تختار: إما أن تفعل ما أقوله لك،

وأقدم لك هذا المبلغ هدية وأرد لك البندقية، وإما أن ترفض أو تخدعني وحينئذ أقتلك. اختر.

ـ وماذا علي أن أفعل؟ سأفعل كل ما تريد مقابل لا شيء.

ـ يجب أن تقودني بدون مخاطرة إلى معسكر إينيني، وبعد أن أتصل بصيني تستطيع الذهاب. مفهوم؟

ـ اتفقنا.

ـ لاتغدر بي وإلا كنت من الهالكين.

ـ لا. أقسم لك بأنني سأساعدك باستقامة.

وكان معه علب حليب مكثف فأخرج ستاً منها وأعطانيها، ومعها قطعة خبز تزن كيلو غراماً، وقطعة من شحم الخنزير المدخن. وقلت له:

ـ خبىء كيسك في الغابة، وسوف تعود لاسترداده فيما بعد وحدد علامة على الشجرة أحدثها بسيفي.

شربت علبة حليب. وأعطاني أيضاً بنطالاً طويلاً جديداً أزرق مما يلبسه الميكانيكيون فلبسته دون أن أتخلى عن البندقية.

ـ هيا إلى الأمام وحذار من أن يرانا أحد إذ لو وقعنا فسيكون ذلك من خطئك، وحينئذ فالويل عليك.

يعرف جان كيف يمشي في الغابة خيراً مني، وتعبت من اللحاق به، وكان يحسن تفادي الأغصان والعرائش. هذا الرجل الطيب يمشي في الغابة في يسر.

ـ هل تعلم؟ لقد أنذروا في كورو أن سجينين قد فرا من الجزر. لذلك أريد أن أكون شريفاً معك، وسنلاقي أخطاراً عندما نمر قرب معسكر السجناء في كورو.

ـ يبدو أنك طيب وصريح يا جان وأرجو أن لا أكون مخطئاً. بماذا تنصحني للذهاب إلى إينيني. فكر بأن سلامتي هي حياتك فإذا وقعت في أيدي الحراس أو القناصة فسأكون مضطراً إلى قتلك.

ـ بماذا أناديك؟

ـ بابيون.

ـ حسناً يا مسيو بابيون. يجب الدخول كلياً في الغابة وبعيد عن كورو وأنا أضمن لك الوصول إلى إينيني من خلال الغابة.

ـ إنني أثق بك خذ الطريق التي تراها أكثر أمناً.

في الداخل سرنا سيراً أبطأ، ولكن منذ غادرنا حافة الغابة أحسست أن الأسود أكثر استرواحاً، ولم يتعرق بغزارة كما حصل له من قبل وأسارير وجهه أقل انكماشاً فهو الآن مطمئن.

قلت: أراك الآن يا جان أقل خوفاً؟

– أجل يا مسيو بابيون! وجودنا على جانب الطريق خطر عليك وبالتالي خطر علي. تقدمنا مسرعين، وهذا الأسود ذكي، فما كان يبتعد عني أكثر من ثلاثة أمتار.

– قف أريد أن أدخن.

– إليك علبة كاملة.

– شكراً يا جان أنت شخص طيب.

– أنا حقاً طيب جداً. فأنا كاثوليكي، ويعز علي نفسي أن أرى معاملة السجناء على أيدي المراقبين البيض.

– هل رأيت منهم الكثير وأين؟

– في معسكر كورو الحرجي، إنه لمن دواعي الإشفاق أن تراهم يموتون موتاً بطيئاً يأكلهم هذا العمل في قطع الأخشاب، ويفتيهم الزحار والحمى. أنتم في الجزر في حال أفضل، وهذه أول مرة أرى فيها سجيناً يتمتع بصحة جيدة مثلك.

– أجل. نحن في حال أفضل في الجزر.

جلسنا على غصن شجرة ضخم، فقدمت له علبة من علب الحليب التي كانت معي، ولكنه أقر أن يضع جوزة.

– هل زوجتك شابة؟

– نعم. عمرها اثنان وثلاثون سنة، وأنا عمري أربعون وعندنا خمسة أولاد، ثلاث بنات وغلامان.

– هل تكسب جيداً؟

– أكسب من الخشب الوردي ماهو كفافي، وزوجتي تغسل وتكوي الغسيل للمراقبين. وهذا يساعدنا قليلاً، فنحن فقراء جداً، ولكننا نأكل إلى درجة الشبع والأولاد يذهبون جميعاً إلى المدرسة، ويلبسون أحذية دوماً.

مسكين هذا الأسود الذي يجد السعادة حين يلبس أولاده أحذية. إنه يساويني في الطول ووجهه الأسود ليس فيه ما يتحرك منه بل على العكس فإن عينيه تشيان بوضوح عن إنسان يحمل من المشاعر ما يؤهله لأن يكون شريفاً وعاملاً سليم الطوية، وأباً طيباً لأسرته وزوجاً طيباً لزوجته، ومسيحياً طيباً.

– وأنت يابابيون؟

– أنا أبحث عن الحياة من جديد لقد دفنت حياً منذ عشر سنوات، ولم أكف عن الهروب، لأكون يوماً ما مثلك حراً مع زوجة وأبناء دون أن أفكر في إلحاق الأذى بالناس. قلت بنفسك إن هذا السجن عفن. والرجل الذي يكرم نفسه يجب أن يهرب من هذا الوحل.

– سأساعدك بشرف على النجاح. هيا بنا إلى الطريق.

وبحس الاتجاه المرهف الذي يملكه، وبدون أي تردد على الطريق قادني مباشرة إلى

ضواحي معسكر الصينيين، حيث وصلنا ليلاً[1] منذ ساعتين وسمعنا من بعيد صوت طلقات ولم نر نوراً. وقد شرح لي جان بأنه عند الاقتراب من المعسكر ينبغي تحاشي مركزين للحراس وقررنا التوقف لقضاء الليل. فقد أضناني التعب[2] وأخشى النوم. وإذا خدعت بالأسود؟ وإذا كان مثلاً عزلة واخذ مني البندقية أثناء نومي وقتلني؟ فيكسب بقتلي مرتين. الأول أنه يتخلص من الخطر الذي أفرضه عليه. والثانية يربح جائزة بقتل هارب.

نعم إنه ذكي. استلقى لينام دون كلام ودون طول انتظار. لاتزال السلسلة واللولب في حوزتي وكنت أشتهي ربطه، ثم فكرت بأنه قد يستطيع فك اللولب مثلي، وإذا فقد حذره خلال غفوتي ويدي قابضة على السلسلة فلن أشعر بشيء. أولاً ساحاول أن لا أنام، فعندي علبة كاملة من السجائر سابذل قصارى جهدي لأظل صاحياً، لا أستطيع الوثوق بهذا الرجل الشريف الذي صنفني مع المجرمين. الليل حالك السواد وهو ينام على بعد مترين مني ولا أميز سوى بياض أخمص قدميه العاريتين.

وللغابة ضجيجها المتميز، وأصوات القرود تنطلق من حناجرها مبحوحة وتصل إلى الآذان عن بعد عدة كيلو مترات. وهذا أمر له أهميته إلا من استتباب الأمور أن يأكل قطيع القرود وينام في هدوء. أي أنه لايحس خوفاً ولايشعر بخطر إذ ليس في الجوار حيوانات ولابشر.

كنت متوتراً ومتصلباً كالحجر أقاوم النعاس بدون جهد كبير وذلك بإحداث حروق في جسدي بالسجائر، وبوجود سحابة من البعوض تريد أن تمتص دمي كله، وكان في وسعي أن أحمي نفسي منها بدهن جسمي بلعابي ممزوجاً بالتبغ، والنيكوتين يحميه من الوخز، فلم أفعل هذا خشية أن يغلبني النوم وكل ما أتمناه أن لايكون هذا البعوض حاملاً لمرض الملاريا أو الحمى الصفراء.

ربما خرجت الآن من طريق العفن مؤقتاً. وعندما بدأت السير فيه كان لي من العمر خمس وعشرون سنة. كان ذلك عام ١٩٣١ ونحن الآن في العام ١٩٤١، أي عشر سنوات مضت وأنا في هذه الطريق العفن. وفي العام ١٩٣٢ استطاع براديل المدعي العام المجرد من الضمير أن يرمي بي شاباً قوياً، وبتحقيق خال من الرحمة والإنسانية رمى بي في شر الإدارة التأديبية في حفرة مليئة بالسائل اللازب لأذوب فيه، وأخيراً هذا هو الجزء الأول من الهروب، لقد خرجت من البئر وهاأنذا على حافتها، ويجب أن استخدم ذكائي وكل إمكاناتي لأربح الجولة الثانية. مضى الليل بطيئاً ولم أنم ولم أتخل عن البندقية ولقد ظللت يقظاً بفضل الحروق ولسع البعوض فلم يسقط السلاح من يدي مرة واحدة.

لقد أكون راضياً عن نفسي، فلم أغامر بحريتي تحت وطأة التعب. الروح أقوى من

(١) ليلاً

(٢) التعب

الماوة، وهنأت نفسي عندما سمعت زقزقات العصافير الأولى معلنة قرب شروق جديد. هذا الشروق المبكر قبل غيره يشبه التمهيد الموسيقي الذي لايلبث أن ينتهي. صحا الأسود، ثم تمطى بكل جسمه وأخذ يدلك قدميه.

ـ عم صباحاً. ألم تنم؟

ـ لا.

ـ هذا غباء. لقد أكدت لك بأنه لاخوف مني. لقد عزمت على مساعدتك، لكي تنجح في مسعاك.

ـ شكراً لك يا جان. هل يتأخر النور في الدخول إلى الغابة؟

ـ بعد ساعة. فالحيوانات وحدها تحس مقدماً وقبل غيرها بقرب طلوع النهار. وسوف ترى الأشياء في وضوح بعد ساعة. أعرني مديتك يا بابيون.

قدمتها له بدون تردد. فخطا خطوتين أو ثلاثاً، وقطع غصناً من نبات غليظ، وأعطاني قطعة، واحتفظ بالباقي وقال:

ـ اشرب من مائها، وادهن به. ففعلت ما أوصاني به. لقد طلع الصباح فرد لي جان مديتي فأشعلت سيجارة، وكذلك دخن سيجارة. هيا إلى الطريق. وعندما انتصف النهار بعد أن توحلنا مراراً في برك من الطين وعرة المسالك. وصلنا إلى ضواحي لانتيق دون أي لقاء، أشراً كان أم خيراً.

لقد اقتربنا من طريق حقيقية للدخول إلى المعسكر، ورأيت خطاً ضيقاً للسكة الحديدية يمتد على طول هذا المكان الفسيح المستصلح للزراعة. قال لي:

ـ هذا الطريق لايمر به إلا عربات يدفعها صينيون.

وهذه العربات تحدث جلبة مزعجة تسمع من بعيد، وشهدنا مرور إحداها وعليها مقعد يجلس عليه حفيران، وخلفها صينيان ومعهما قضيبان حديدية لكبح العربة ويتطاير الشرر من دواليبها، وشرح لي جان بأن في العصي قطعة من الفولاذ تنفع في الدفع أو في الكبح.

إن الطريق مطروقة جداً، يمر بها صينيون يحملون لفائف كبيرة من العرائش، وآخرون يحملون خنزيراً برياً وآخرون أيضاً يحملون حزماً من أوراق جوز الهند وهؤلاء جميعاً متجهون نحو المعسكر. قال لي جان:

ـ هناك أسباب عدة للخروج إلى الغابة: القنص، وجلب العرائش إذ يصنعون منها بعض أنواع الأثاث، وأوراق جوز الهند لصنع الحصائر التي تحمي الخضار في الحدائق من حدة الشمس، وهناك من يصطاد الفراش أو الذباب أو الأفاعي... الخ وبعض الصينيين يسمح لهم بعد الانتهاء من المهمات التي تفرض عليهم من قبل الإدارة، بالذهاب إلى الغابة لبضع ساعات وعليهم جميعاً أن يعودوا قبل الساعة الخامسة مساء.

ـ إليك يا جان خمس المئة فرنك وبندقيتك (وكنت أفرغت شحنتها من قبل). معي سيفي ومديتي تستطيع الآن الذهاب، وشكراً. وجزاؤك عند ربك أكبر لأنك ساعدتني

وأنت لي وفياً. وشكراً لك مرة أخرى. وآمل عندما تحدث أولادك بهذه القصة أن تقول لهم: هذا السجين تبدو عليه إمارات الطيبة ولست نادماً على مساعدتي له.

ـ يا مسيو بابيون لقد تأخر الوقت ولن أستطيع السير طويلاً قبل حلول الظلام. احتفظ بالبندقية وسوف أبقى معك حتى صباح الغد وأريد، إذا شئت، أن استوقف الصيني الذي تختاره لإعلام كويك ـ كويك، وسوف يكون أقل رعباً إذا رأى رجلاً أبيض فاراً. دعني أخرج إلى الطريق ، إذ لايوجد أي حارس، فإذا جاء أحدهم بغتة لم يجد في عبوري شيئاً غير مألوف، وسوف أقول له جئت لوضع علامات للأخشاب لمتعهدات الخشب «سمعوريانا» صدقني.

ـ إذن خذ بندقيتك قد يرون من الغرابة أن يخرج رجل من الغابة بغير سلاح.

ـ هذا صحيح.

انتصب جان في الطريق واتفقت معه على أن أصدر صفيراً خفيفاً عندما يظهر صيني ارتاح إليه.

قال رجل عجوز صيني: «بونجو موتشه» أي صباح الخير عزيزي. وكان يحمل على كتفه جذع شجرة جوز، وملفوفة للنبتة المأكل، فصفرت، لأن هذا العجوز المهذب الذي بدا بتحية جان قد أعجبني.

ـ بونجو شين! قف أنا يكلم أنت.

فتوقف وقال: ما شأنك؟

وتخاطبا فترة خمس دقائق، ولم أسمع تحاورهما، ومر صينيان يحملان وعلاً كبيراً مربوطاً بقضيب، ومعلقاً من عراقيبه، ورأسه يصطدم بالأرض، مرا دون أن يسلما على الأسود، بل قالا شيئاً باللغة الصينية، فرد الصيني بكلمتين أو ثلاث.

أدخل جان العجوز إلى الغابة حتى وصلا إلي وعند اقترابه مني مد لي يده..

ـ هل أنت فروفرو (هارب)؟

ـ نعم.

ـ من أين؟

ـ من جزيرة الشيطان.

ـ حسن (ونظر إلي بعينيه المتجعدتين) حسن. وكيف أنت اسمك؟

ـ بابيون.

ـ أنا لا أعرفك.

ـ أنا صديق شانغ كانغ فوكيان شقيق كويك ـ كويك.

ـ آه! يا... حسن.

ومد لي يده من جديد وقال وماذا أنت يريده؟

ـ أريد إشعار كويك كويك بأني انتظره هنا.

ـ مستحيل.

ـ لماذا؟

ـ لأن كويك كويك سرق أربعين بقرة من رئيس المعسكر، وهو يروم قتله، وكويك الآن هارب.

ـ منذ متى؟

ـ منذ شهرين.

ـ هل ذهب بحراً؟

ـ لا أدري. أنا ذاهب إلى المعسكر لأكلم أحد أصدقائه المخلصين، وهو يقرر، وأنت لا تتحرك من هنا فأنا عائد إليك هذه الليلة.

ـ في أية ساعة؟

ـ لا أعلم. وسوف أحضر لك معي طعاماً وسجائر، ولكن لاتشعل ناراً هنا، وأنا أصفر لك لحن المادلونا[1] وإذا سمعتني فاخرج إلى الطريق مفهوم؟

ـ مفهوم.

وانصرف.

ـ ما رأيك يا جان؟

ـ لم تخسر شيئاً. فإذا شئت أن تعود على أعقابك نحو كورو فسوف أعطيك زورقاً وشراعاً وأغذية لتركب البحر.

ـ يا جان أني ذاهب بعيداً، ومن المستحيل أن أذهب وحدي. أشكر لك سخاءك، وربما قبلت لو ساءت الأحوال.

أكلنا قطعة النخل الكرمي، فهي غضة لذيذة ولها طعم الجوز المتميز. سيسهر جان فقد وثقت به. ودهنت وجهي ويدي بعصارة التبغ لأن البعوض بدأ يهاجمني.

أيقظني جان وقال: بابيون أسمع صفير «المادلونا».

ـ كم الساعة الآن؟

ـ ليس الوقت متأخراً، ربما كانت الساعة التاسعة.

خرجنا إلى الطريق والليل مدلهم واقترب الصافر مني وأحسست به ولكنني لا أراه واستمر الصفير بالتبادل حتى التقينا. كانوا ثلاثة ولامس كل واحد منهم يدي. وسوف يبزغ القمر عما قريب. قال أحدهم بلغة فرنسية سليمة.

ـ لنجلس على حافة الطريق. ففي الظل لايمكن أن يرى أحدنا الآخر.

وأقبل جان للقائنا، وقال فصيح العصبة: كل أولاً ثم تكلم. فأكلنا أنا وجان حساء بالخضار حاراً. وشعرنا بالدفء وعزمنا على الاحتفاظ بالباقي لوقت متأخر، وشربنا شاياً حاراً محلى بالسكر، وفيه طعم النعناع وما كان أطيبه.

ـ هل أنت صديق حميم لشانغ؟

---

(1) نشيد وطني.

ـ أجل، وقد طلب مني البحث عن كويك كويك للهروب معاً، وقد سبق لي أن هربت بعيداً جداً إلى كولومبيا، وأنا بحار جيد لذلك كان يريد شانغ أن أصحب أخاه وهو يثق بي.

ـ جيد جداً. ولكن ما الوشم الذي كان لشانغ؟

ـ كان على صدره وشم التنين، وثلاث نقط على يده اليسرى، وقد قال بأن هذه النقط علامة على أنه كان أحد زعماء ثورة بولوكوندور، وصديقه المفضل زعيم آخر للثورة يدعى فان هوه وهو مبتور الذراع. قال المفكر: وهو أنا. أنت حقاً صديق شانغ. إذن أنت صديقنا. اسمعني جيداً. كويك كويك لم يستطع ركوب البحر بعد، لأنه لايعرف قيادة سفينة، ثم إنه وحده وهو الآن في الغابة على بعد عشرة كيلو مترات من هنا. يصنع فحماً من الخشب واصدقاؤه يبيعون الفحم ويأتونه بالثمن، وعندما يكون له ما يكفي من المال سيشتري المركب ويبحث عن أحدهم ليهرب معه عبر البحر. ومن موضعه لايخاف ولايستطيع أحد الوصول في موقعه الذي يشبه الجزيرة وهو محاط بالرمل المتحرك. وكل من غامر في الذهاب إليه سوف يبتلعه الوحل، إذا كان جاهلاً بالمنطقة. سآتيك عند طلوع النهار لآخذك إلى كويك ـ كويك. تعال معنا.

وسلكنا حافة الطريق إذ طلع البدر علينا وأضاء بنوره وصرنا نميز الأشياء على بعد خمسين متراً، ولما وصلنا إلى أحد جسور الأجمة قال لي:

ـ انزل تحت الجسر لتنام هنا. وأنا سأحضر غداً صباحاً.

وتصافحنا وانصرفوا، ومشوا جهاراً، وإذا صادفهم أحد ادعوا أنهم وضعوا فخاخاً في الغابة نهاراً وجاؤوا الآن يتفقدونها. قال لي جان:

ـ بابيون لاتنم هنا. أنت تنام في الغابة وأنام أنا مكانك فإن جاء ناديتك.

ـ فليكن ذلك.

دخلت الأجمة ونمت سعيداً بعد أن دخنت عدداً من السجائر، وقد ملأت بطني حساء. وصل فان هوه في الموعد المحدد أي قبل طلوع النهار وذلك لكسب الوقت، ومشينا على الطريق إلى أن انشق عصا الصبح وسرنا حثيثاً ما يزيد على اربعين دقيقة، وبغتة سمعنا من بعيد صوت عربة قادمة على السكة الحديدية. فولجنا تحت غطاء الغابة.

ـ وداعاً يا جان وشكراً لك. أرجو لك التوفيق وبارك الله فيك وفي أسرتك.

وقد ألححت عليه حتى يرضى بأن يأخذ خمس المئة فرنك. ثم أوضح لي، في حال إخفاقي كيفية الاقتراب من قريته، والخروج إلى الشعب الذي لاقيته فيه. فهو يمر من هناك مرتين في الأسبوع، وصافحت هذا الأسود النبيل ـ وأصله من غويانا ـ ثم قفز إلى الطريق.

قال فان هوه إلى الأمام. ودخلنا الغابة وأخذ الجماعة بدون تردد وتقدمنا مهطعين،

لأن الغابة ليست مستعصية على الدخول، وكان يتحاشى قطع الأغصان والعرائش التي تعيقه بمنجله، بل كان يكتفي بإزاحة ما بينها.

كويك كويك

وفي أقل من ثلاث ساعات كنا أمام مستنقع للوحل، وفوقه أزهار النيلوفر وأوراقه. تبعنا حافة المستنقع فتعثرت، فقال لي فان هوه محذراً:

ـ انتبه من خطر الانزلاق وإلا تواريت ولن يكون لك أمل في الصعود.

أمامنا جزيرة صغيرة على بعد مئة وخمسين متراً والدخان يتصاعد من وسطها، وهو مكان تصنيع الفحم. اكتشفت تمساحاً صغيراً في الوحل لا تظهر منه سوى عينيه وتساءلت مم يتغذى هذا التمساح في الوحل؟

وبعد أن سرنا أكثر من كيلو متر على طرف هذا المستنقع توقف فان هوه وبدأ يغني بأعلى صوته غناء صينياً، فتقدم شخص من حافة الجزيرة، قصير القامة لا يرتدي سوى بنطال قصير وخاطب الصينيان، وطال بينهما الكلام حتى فرغ صبري، وأخيراً توقفا. وقال فان هوه: تعال من هنا، فتبعته ورجعنا على أعقابنا كل شيء وفق هوانا. فهذا صديق كويك، وقد أخبر بأن كويك قد ذهب إلى الصيد ولن يتأخر في العودة. ويجب أن ننتظره هنا، فجلسنا. وبعد أقل من ساعة وصل كويك، وهو رجل قصير نحيل أصفر البشرة أنامي، ذو أسنان مصطبغة بلون أسود لامع وعينين تشعان ذكاء وصراحة.

ـ أأنت صديق أخي شانغ؟

ـ نعم.

ـ تستطيع الذهاب يا فان هوه، فأجاب: شكراً.

ـ خذ معك هذا الحبل، لا. شكراً. فصافحني وانصرف.

كان كويك يقود أمامه خنزيراً وكنت أتبعه.

ـ احذر يا بابيون فأية زلة قدم أو خطأ وتختفي من الوجود. وإذا حصل حادث فلن يستطيع أحد أن يغيث آخر. إذ يتوارى الاثنان معاً لا واحد، والطريق الذي نجتازه ليس ثابتاً لأن الوحل يتحرك. أما الخنزير فهو الذي يجد الممر الآمن وفي إحدى المرات اضطررت ، لكي أمر، إلى الانتظار يومين.

وبالفعل كان الخنزير الأسود يشم ثم يخوض الوحل والصيني يكلمه بلغته، وكنت

مدهوشاً من رؤية هذا الحيوان الصغير يطيع كالكلب. كويك يراقب وأنا أتسع حدقتاي ذهولاً إذ عبر الخنزير من الجهة الأخرى دون أن يغوص مقدار سنتمتر واحد. وفي سرعة خاض صديقي الجديد بدوره وقال:

ـ ضع قدميك على آثار قدمي، ويجب الإسراع لأن الثقوب التي تركتها قوائم الخنزير تمحي على الفور. وعبرنا بغير مشقة ولم يصبني الوحل أكثر من ارتفاع الربلتين وذلك عند نهاية المسافة فقط. كان الخنزير يطيع كلاتين طويلتين مما اضطرنا أن نمشي على هذه القشرة الصلبة مسافة مئتي متر، وسال العرق من جميع أعضائي. ولا أستطيع القول بأني كنت خائفاً فقط بل كنت في الحقيقة في رعب، وفي القسم الأول من الطريق كنت أتساءل هل يكتب لي القدر ميتة كميتة سيلفان؟ كنت أتذكر المسكين في لحظاته الأخيرة، وكنت في تمام اليقظة وأنا أتصور جسمه وربما لم تكن ملامحه تختلف عن ملامحي. ما أشد الانطباع الذي تركه هذا العبور في نفسي، ولا إخال أني سأنساه.

ـ هات يدك. وهذا الرجل القصير لم يبق على جسمه سوى الجلد والعظم، يساعدني على تسلق الجرف.

ـ حسناً يا صديقي. ليس هنا بحث عن القناصة.

ـ آه. من هذه الناحية كن مطمئناً.

دخلنا الجزيرة الصغيرة وكانت تفوح منها رائحة غاز الفحم، فأخذ بخناقي، فشرعت أقح من دخان مفحمتين تحترقان، لذا لا أخشى وجود البعوض هنا. وهناك كوخ صغير سقفه من ورق الشجر، وكذلك جدرانه من الورق المجدول حصائر وله باب، وكان أمام الباب ذلك الرجل المنثني ـ الصيني، الذي رأيته من قبل، فقال لي: وبونجور موشيه أي صباح الخير عزيزي.

ـ كلمه بالفرنسية لا باللهجة المحلية، إنه صديق أخي.

تفحصني الصيني ـ وهو نصف قطعة من رجل ـ من رأسي إلى أخمص قدمي، وبعد أن اكتفى من التدقيق مد لي يده مبتسماً عن فم أدرد[1].

ـ أدخل واجلس.

وكان هذا المطبخ الفريد نظيفاً، وهناك شيء يطهى على النار في قدر كبيرة، وليس في الكوخ سوى سرير واحد مصنوع من أغصان الأشجار يرتفع عن الأرض مقدار متر على الأقل.

ـ ساعدني لنهيء له مكاناً للنوم هذه الليلة.

وانتهينا من صنع مضجعي في أقل من نصف ساعة. ووضعنا مائدة فأكلنا حساء لذيذاً ثم أرزاً أبيض مع اللحم بالبصل.

(١) أسنانه مقلعة أو متكسرة.

هذا الشخص صديق كويك كويك هو الذي يبيع له فحم الخشب، ولابيت في الجزيرة، لذا ما إن هبط الليل حتى بقينا وحدنا أنا وكويك كويك.

ـ أجل لقد سرقت كل ما عند رئيس المعسكر من البط، وبسبب ذلك أنا هارب.

ويستضيء وجهانا بين لحظة وأخرى بضوء نار صغيرة. وقد جلس أحدنا مقابل الآخر، وكنا نتجاذب أطراف الحديث، وكل منا يحاول معرفة الآخر وفهمه.

وجه كويك لم يبق أصفر بل تحول بفعل الشمس إلى اللون البرونزي. أجفانه متجعدة وعيناه سوداوان لامعتان تحدقان جيداً عندما يتكلم، يدخن سيجاراً طويلاً يصنعه بنفسه من ورق التبغ الأسود. وتابعت تدخين سجائري التي كنت ألفها بورق الرز الذي جاء به ذلك الأبتر. قال:

ـ أنا مضطر إذن إلى الفرار، لأن رئيس المعسكر صاحب البط يقصد قتلي، وقد مضى على ذلك ثلاثة أشهر. والقضية أني خسرت في الميسر لاثمن البط وحده، وإنما ثمن الفحم أيضاً.

ـ أين تلعب؟

ـ في الغابة. يجري اللعب كل ليلة بين الصينيين في معسكر اينيني والمطلق سراحهم الذين يأتون من الشلال.

ـ هل أنت عازم على ركوب البحر؟

ـ لا أبغي سوى ذلك، وعندما أبيع فحمي أفكر في شراء مركب. أوجد لي من يستطيع قيادته ويرغب في الهروب معي، ولكن سيكون ذلك بعد ثلاثة أسابيع أي بعد أن أبيع الفحم لنتمكن من شراء المركب ونبحر ما دمت تعرف القيادة.

ـ عندي المال يا كويك، وليس علينا أن ننتظر بيع الفحم وشراء المركب.

ـ إذن هذا أمر حسن، فهناك زورق جيد للبيع بألف وخمس مئة فرنك لرجل أسود يعمل حطاباً.

ـ حسن. هل رأيته؟

ـ نعم.

ـ وأنا أريد أن أراه.

ـ وسأذهب غداً لرؤية شوكولا، كما أسميه. حدثني عن هروبك بابيون. أتصور أنه من المستحيل الهروب من جزيرة الشيطان. لم لم يأت أخي شانغ؟

فرويت له حكاية الهروب والموجة الكبيرة لبزيت وموت سيلفان.

ـ أفهم أن شانغ لم يشأ الذهاب معك لأنها حقاً مغامرة، إنك رجل ذو حظ عظيم، لذا وصلت حياً إلى هنا، وأنا مسرور بذلك. تحاورنا ثلاث ساعات. ثم نمنا مبكرين لأنه ينوي الذهاب مع الفجر ليرى شوكولا، وقد وضع في النار حطبة كبيرة لتبقى النار متقدة في الليل. هيج الدخان سعالي، وأخذ بخناقي، ولكن النفعة كانت في طرد البعوض. أغمضت عيني وأنا متمدد فوق مهجعي، وفوقي غطاء جيد وفر لي الحرارة، فلم

أستطع نوماً، فأنا مهتاج جداً. فالهروب يجري بصورة حسنة، فإذا كان المركب في حالة حسنة فسأبحر قبل أن تنقضي ثمانية أيام.

كويك ـ كويك نحيل وقصير، وربما كان يتمتع بقوة خارقة وجلد على كل تجربة، ومن المؤكد أنه مخلص ومستقيم مع أصدقائه، ولكنه شديد جداً على أعدائه. ومن العسير قراءة وجه آسيوي فهو لايعبر عن شيء، ومع ذلك فإن عينيه تنطقان بكرمه.

أغفيت، وحلمت ببحر تملؤه أشعة الشمس والمركب يمخر عبابه نحو طريق الحرية وهو يثب طرباً.

ـ أترغب في الشاي أم في القهوة؟

ـ ماذا تشرب أنت؟

ـ أشرب شاياً.

ـ إذن أعطني شاياً.

انبلج الصبح والنار لاتزال تستعر منذ أمس، والماء يغلي في وعائه، والديك يصيح بصوت مطرب وليس حولنا أصوات للطيور، وربما طردها دخان الفحمة، والخنزير الأسود نائم فوق سرير كويك كويك، ويظهر أنه خامل بعد النوم، والكعك المصنوع من الطحين والرز يشوى على الجمر وبعد أن سكبت لنفسي الشاي قطع صديقي كعكة نصفين، ودهنها بالسمن وقدم لي نصفاً وأفطرنا حتى الامتلاء، فقد أكلت ثلاث كعكات ناضجة جداً.

ـ أنا ذاهب، فإن صاح أحد أو صفر فلا تجب، ولا تغامر في شيء إذ لايستطيع أحد القدوم إلى هنا، ولكنك إذا ظهرت على شاطئ الحماة أمكن قتلك برصاصة من بندقية.

نهض الخنزير على صراخ معلمه، فأكل وشرب، ثم خرج وتبعه، فاتجه رأساً نحو الوحل، ونزل من مكان بعيد عن المكان الذي وصلنا أمس منه، وبعد أن خطا عشرة أمتار، تراجع فلم يعجبه الممر، ولم يمر إلا بعد ثلاث محاولات. وعبر كويك مباشرة إلى الأرض الصلبة بدون وحل. ولن يعود كويك كويك قبل المساء. فأكلت وحدي الحساء الساخن وضعه على النار. جمعت من الدجاجة ثماني بيضات، فقليت ثلاثاً بالسمن النباتي.

تغيرت الريح اتجاهها، والدخان المتصاعد من الفحمتين القابلتين اتجه إلى الكوخ. ونزل المطر بعد الظهر فأويت إلى مضجعي الخشبي، ولم أكن مرتاحاً بسبب غاز الفحم.

في الصباح قمت بجولة في الجزيرة، وفي وسطها تقريباً بقعة جرداء واسعة ومفتوحة. أشجار ساقطة وخشب مقطوع تدلني على أن كويك يأخذ الحطب منها لصناعة الفحم. ورأيت أيضاً حفرة من الصلصال الأبيض الذي منه يستخرج حتماً التراب اللازم لتغطية الحطب ليحترق دون لهب، والطلق الدجاج يرتاد هذه البقعة الجرداء.

رأيت جرذاً ضخماً فاراً من بين قدمي، وعلى بضعة أمتار وجدت أفعى ميتة طولها متران ولاريب أن الجرذ هو الذي قتلها.

كل هذا النهار الذي قضيته وحدي في الجزيرة كان سلسلة من الاكتشافات. مثال ذلك أنني وجدت أسرة من النمال: الأم وثلاثة من صغارها، وعشاً كبيراً للنحل كان ثائراً حولها. ورأيت عشرة من القرود الصغيرة تقفز من شجرة إلى أخرى، ولدى وصولي أطلقت هذه الشياطين تصرخ حتى كادت أكبادها تنشق.

عاد كويك كويك مساء.

ـ لم ألتق بشوكولا، ولم أر مركبه. فربما ذهب لإحضار أغذية من قرية كاسكاد، حيث له منزل هناك. هل أكلت جيداً؟

ـ نعم.

ـ هل تريد مزيداً من الطعام؟

ـ لا.

ـ لقد أحضرت لك ربطتين من التبغ الرمادي لم أجد خيراً منها.

ـ شكراً. لافرق عندي. عندما يرحل شوكولا كم يطول غيابه في القرية؟

ـ يومين أو ثلاثة، ومع ذلك سأذهب غداً وكل يوم، لأنني أجهل وقت مغادرته.

وفي الغداة هطل المطر مدراراً. وهذا لم يمنع كويك من أن يرحل عارياً. فتأبط أمتعته مغلفة بقماش مشمع، فلم أرافقه. قال لي:

ـ ليس ضرورياً أن تبلل ثيابك.

أقلعت السماء، والشمس تشير إلى أن الساعة بين العاشرة والحادية عشرة. انهارت إحدى المفحمتين تحت سيل المطر الغزير. دنوت لأرى النكبة. لم يقو الطوفان على إطفاء الحطب كله فالدخان لايزال يتصاعد من الكومة المشوهة. وبغتة دعكت عيني قبل إعادة النظر إذ أن ما رأيته لايتوقع: خمسة أحذية تبرز من المفحمة، ويلاحظ أنها وضعت عمودية على كعوبها، وفي كل حذاء قدم وساق. إذن هناك ثلاثة رجال قيد التفحم في المفحمة. ولاداعي لتصوير رد الفعل الأول في نفسي: لقد شعرت بالبرودة تسري في ظهري. انحنيت ودفعت بقدمي بعض الفحم الذي لم يكتمل احتراقه فاكتشفت القدم السادسة لقد أسرف كويك في الضربة. وأحال هؤلاء الأشخاص بالجملة إلى رماد. وكنت في غاية التأثر. فنأيت عن المفحمة، وذهبت حتى وسط الغابة لأتعرض للشمس. فأنا في حاجة إلى الحرارة، وكنت في حرارة الشمس الخانقة أحس بالبرد، وبالحاجة إلى شمس استوائية، ولعل القارئ يرى أن هذا غير معقول، إذ كان يجب أن أعرق في مثل هذا الموقف بدلاً من الشعور بالبرد. والواقع لا. لقد اجتاح البرد المجمد كياني النفسي والجسدي وبعد ساعة تقريباً بدأت قطرات العرق تتساقط من جبيني. وكلما فكرت بعد أن أخبرته بما في حوزتي من مال، قلت في نفسي: بأية أعجوبة لازلت على قيد الحياة؟ ألا يكون قد احتفظ بي ليضعني في قاعدة مفحمة ثالثة؟

وتذكرت أن أخاه قد روى لي بأنه حكم عليه بالقرصنة والقتل على متن سفينة

شراعية، فهم عندما يهاجمون سفينة سلبها يقتلون كل من عليها بحجة أسباب سياسية. فهم إذن رجال قتل جماعي. ومن ناحية أخرى، إنني هنا مرتهن وأجد نفسي في موقع حرج. لتجر الحساب: إذا قتلت كويك في الجزيرة، ووضعته بدوره في المفحمة، فلن يسمع أحد ولن يعلم أحد. ولكن هذا الخنزير الشائس، لن يطيعني وهو لايفهم الفرنسية. إذن لاسبيل إلى الخروج من الجزيرة، وإذا هددت الصيني فسوف يخضع ويخرجني من الجزيرة وهناك على الأرض الصلبة أقتله وأرمي به في الحمأة ويختفي. ولكن ما الذي جعله يحرق هؤلاء الرجال ولم يلق بهم في الوحلة؟ وهذا أسهل. أنا لا أكترث بالحراس، ولكن أصدقاءه الصينيين إذا اكتشفوا أنني قتلته فسوف يصبحون جميعاً من القناصة مضافاً إلى ذلك خبرتهم بالغابة، فإذا تعقبوا أثار إنسان فلن يكون الأمر سهلاً كأكل الحلوى. كويك لايملك إلا بندقية ذات فوهة واحدة، تلك من أعلاها دكاً، وهي لاتفارقه، حتى حين يصنع الحساء، وينام وهو يعانقها ويحملها إذا ابتعد عن الكوخ لقضاء حاجة. لذا ينبغي أن تكون عيناي مفتوحة دوماً، ولكن يجب أن أنام أيضاً. حسناً لقد اخترته ليكون لي شريكاً في رحلة الهروب.

ما ذقت الطعام طيلة اليوم، ولم أكن قد اتخذت قراراً حينما سمعت غناء، هذا كويك قد عاد. اختبأت خلف الأغصان فرأيته قادماً يحمل فوق رأسه ربطة، في توازن تام، وعندما دنا كثيراً من الحافة أظهرت نفسي، وقدم الطرد ملفوفاً بكيس طحين وهو يبتسم، ثم تسلق من جهتي، وأسرع نحو الكوخ، فلحقت به:

ـ بشرى سارة يا بابيون، لقد عاد شوكولا، ولما يبع المركب بعد، وقال أن حمولته أكثر من خمس مئة كيلو غرام دون أن يخطر. وما تحمله هي أكياس طحين لصنع الشراع والقلع الثالث. وهذه هي الربطة الأولى، وغداً سنحضر غيرها إذ ستذهب معي لترى المركب إذا كان يناسبك.

كان يقول هذا الكلام كله دون أن يلتفت، فمشينا مترادفين. أولاً الخنزير ثم هو وأخيراً أنا، ولايبدو أنه يريد أن يرمي بي في المفحمة ما دام سيأخذني معه غداً لأرى المركب، وقد شرع في صرف بعض النفقات للهروب، فقد اشترى أكياس الطحين.

ـ اسمع، انهارت مفحمة بفعل وابل من الأمطار ولاشك، وهذا لم يدهشني.

فلم يذهب إلى المفحمة بل دخل فوراً إلى الكوخ، فارتج[1] علي، ولم اتخذ قراراً في شيء. وإذا تجاهلت أنني رأيت شيئاً فهذا مقبول، وقد يبدو غريباً أنني لم أقترب من المفحمة طيلة النهار، وهي لاتبعد خمسة وعشرين متراً عن البيت. قال:

ـ أتركت النار تنطفئ؟

ـ أجل ودون انتباه مني.

ـ ولم تأكل؟

---

(١) استعصى علي القول.

ـ لا. لست جائعاً.
ـ ألنت مريض؟
ـ لا.
ـ إذن لم تحتس الحساء؟
ـ كويك! اجلس. لدي ما أقوله لك.
ـ دعني أشعل النار.
ـ لا. أرغب في الحديث معك قبل أن يحل الظلام.
ـ ما وراءك؟
ـ ورائي أنه عندما انهارت الفحمة ظهر منها ثلاثة رجال نضجوا فيها. أعطني تفسيراً لهذا.
ـ آه. لهذا السبب أراك غريب الأطوار.
ونظر إلي في وجهي بغير انفعال على الاطلاق. ثم أردف:
وبعد هذا الاكتشاف لم تكن طبيعياً وأنا أيضاً عطوّلة إذ لم تسدد لي طعنة في ظهري. اسمعني يا بابيون. هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا قناصة، فمنذ أسبوع أو بالأحرى منذ عشرة أيام بعث كمية وافرة من الفحم لشوكولا. والصبي الذي رأيته يساعدني في إخراج الأكياس إلى الجزيرة. إنها حكاية معقدة... كنا نسحب بحبل طوله مئتا متر، سلاسل من الأكياس التي تنزلق على الوحل. وباختصار، ابتداء من هنا وإلى مسيل الماء حيث كان زورق شوكولا ينتظرنا، تركنا خلفنا آثاراً، إذ تسرب من بعض الأكياس غير المحكمة قطع من الفحم، وحينئذ بدأ الرجل الأول بتمشيط المنطقة. ومن أصوات الحيوانات عرفت أن هناك أحداً في الغابة فرأيته دون أن يراني، فعبرت من مكان مقابل لمكان وجوده، ودرت نصف دورة ولم يكن صعباً علي أن أفاجئه من خلف فمات دون أن يرى الذي قتله. وكنت قد لاحظت أن الحمأة تلفظ الجثث التي غاصت فيها أولاً ثم تطفو على السطح بعد بضعة أيام، لذا حملته ووضعته في الفحمة.
ـ والآخران؟
ـ كان ذلك قبل وصولك بثلاثة أيام: في ليلة ليلاء ساكنة ـ وهذا قل أن يحدث في الغابة ـ كان هذان الرجلان حول المستنقع منذ غروب الشمس، وكانت أحدهما تنتابه نوبات من السعال. وخلاصة القول إنني ذبحت القناص الأول فلم يند عنه صوت، أما الآخر وهو مسلح ببندقية صيد، فقد أخطأ في كشف نفسه، وكان منهمكاً في تحري حرج الجزيرة ليرى ما يجري فيها فأرديته بطلقة نار من بندقيتي. فلم يمت فأجهزت عليه بطعنة سكين في قلبه. هؤلاء هم الرجال الثلاثة يابابيون الذين اكتشفتهم في الفحمة وهم عريانان وفرنسي، وكان عبور الرحلة (وأحدهم فوق كتفي) أمراً عسراً. وعبرت كرتين، لأنهما من الوزن الثقيل وأخيراً تمكنت من وضعهما في الفحمة.
ـ هل هذا هو الذي حصل؟

ـ نعم يا بابيون وأقسم لك.
ـ لم لم تلق بهم في الوحل؟
ـ إن الحمأة تلفظ الجثث، كما أسلفت القول، وتقع أحياناً وحول كثيرة فتطفو بعد أسبوع وتفوح رائحتها إلى أن تفترسها الطيور الجارحة فصراخها وطيرانها يسترعيان الانتباه. بابيون! من حالتي لاتخش شيئاً، أقسم لك ولكي تكون مطمئناً خذ البندقية إذا شئت.
وكانت بي خفة جامحة لأخذ السلاح، ولكنني سيطرت على نفسي وقلت وأنا على سجيتي قدر المستطاع:
ـ لا ياكويك! إن وجودي هنا يشعرني بأنني مع صديقي في أمان. وغداً يجب أن تعيد إحراق القناصة، إذ ما يدريك، ما قد يحصل عندما نغادر هذا المكان؟ لا أريد أن أتهم ولو غيابياً بثلاث جرائم.
ـ نعم سأحرقها غداً، ولكن كن مطمئناً أن أحداً لن يطأ هذه الجزيرة، من المستحيل أن يمر دون أن يغوص.
ـ وإذا استعملوا عوامة مطاطية؟
ـ لم أفكر بهذا.
ـ وإذا جيء برجال الشرطة إلى هنا وأصروا على المجيء إلى الجزيرة؟ صدقني أنهم سيعبرون بعوامة. لهذا ينبغي التعجيل بالرحيل، قدر المستطاع.
ـ اتفقنا. غداً سأعيد إشعال النار في الفحمة، وهي أصلاً لم تنطفىء، وما علي إلا أن أقيم مدخنتين للتهوية.
ـ نعم مساء يا كويك.
ـ طابت ليلتك بابيون. وأعيد عليك: نم جيداً وفي وسعك الوثوق بي.
تغطيت بغطائي إلى ذقني، واستمتعت بالدفء الذي أحدثه، ولشملت الغفلة وفي أقل من عشر دقائق كان كويك يشخر، وخنزيره إلى جانبه يتنفس في قوة. وتوقف لهيب النار ولكن جذع الشجرة الذي تحول إلى جمر كان يحمر عندما يتسرب النسيم فيعطي انطباعاً من الدعة والصفاء، فاستعذبت هذه الرفاهية، فنمت وفي رأسي فكرة خطية: إما أن استيقظ غداً وتجري الأمور على طبيعتها بيني وبين كويك، وإما أن الصيني قتل فلان أكثر من ساشافيتري إذ روى هذه الحكايات ليخفي نواياه، وحينئذ لن أرى الشمس أبداً، لأنني عرفت الكثير عنه فربما يضايقه ذلك.
أيقظني المختص بالقتل الجماعي، وبيده قدح القهوة، وكأن شيئاً لم يكن، حياني تحية الصباح بابتسامة نابعة من القلب. لقد أسفر الصبح.
ـ أشرب قهوتك وتناول كعكة بالسمن.
وبعد أن أكلت وشربت، اغتسلت خارجاً، من ماء البرميل الذي لايفرغ.
ـ هل لك في مساعدتي بابيون.

أجبته بنعم دون أن أعرف السبب. سحبنا معاً أقدام الجثث التي لم يكتمل احتراقها. ولاحظت في صمت أن بطونها مبقورة. فالعصبي الرقيق لابد أنه كان يبحث في المعي عن الأنابيب التي تخبأ فيها الأموال. هل هم حقاً من القناصة؟ لم لا يكونون من صيادي الفراش أو الطرائد؟ أقتلهم دفاعاً عن نفسه أم ليسرقهم؟ باختصار فكر بهذا.

أعيد وضعهم في حفرة من الفحمة مغطاة جيداً بالحطب والصلصال. وفتحت مدخنتان للتهوية وعادت الفحمة إلى أداء عملها المزدوج: تحويل الحطب إلى فحم والجثث إلى رماد.

ـ هلم بنا إلى الطريق بابيون.

وجد الخنزير طريقه في قليل من الوقت، وعبرنا الحمأة متبعين ذيله. كنت أحس بغم شديد ساعة المخاطرة بالمرور فوق الوحل. إن غوص سيلفان ترك في نفسي أثراً عميقاً، بحيث لا أستطيع القيام بهذه المغامرة بدون كدر. وأخيراً خطوت خلف كويك كويك وأنا أتعرق عرقاً بارداً، وكنت أضع كل قدم مكان انطباع قدمه وبدون تفكير. يجب أن أمر حيثما يمر.

وبعد ساعتين من السير وصلنا إلى موضع شوكولا حيث كان يحطب. لم نصادف أحداً في الغابة، لذا لم نكن مضطرين إلى التواري عن الأنظار.

ـ بونجو موشه

ـ بونجور كويك كويك

ـ كيف الحال؟

ـ على خير ما يرام.

ـ دع صديقي يرى المركب.

المركب قوي جداً، وهو من النوع المعد للنقل. وهو بالتالي ثقيل ولكنه قصير وعريض. غرست مديتي في كل مكان فلم تدخل في أي مكان أكثر من نصف سنتمتر، فالخشب الذي صنع منه من النخب الأول.

ـ بكم تبيعه؟

ـ بألفين وخمس مئة فرنك.

ـ أدفع لك ألفين.

ـ سعر مقبول.

ـ أليس لهذا المركب حيزوم؟[1] إني أدفع لك خمس مئة فرنك إضافية إذا ركبت له حيزوماً وسكاناً وصارياً طوله ثلاثة أمتار من الخشب الخفيف المرن. فمتى تنتهي؟

ـ بعد ثمانية أيام.

(1) الحيزوم: الصدر، وحيزوم السفينة الخشبة التي تكون بمنزلة العمود الفقري لها.

ـ هاتان ورقتان من فئة الألف كل منهما، والثالثة من فئة خمس المئة سأقطعها جميعاً نصفين أعطيك النصف الآخر عند التسليم. احتفظ بثلاثة أنصاف عندك. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

ـ أريد كمية من «البيرمنغنات» وبرميل ماء وسجائر وأعواد ثقاب وأغذية تكفي لأربعين رجلاً لمدة شهر كامل، من طحين وزيت وقهوة وسكر. وسأدفع لك ثمن هذه المؤونة على حدة، وتسلمني كل هذا على النهر في كورو.

ـ موشه! لا أستطيع مرافقتكم إلى مصب النهر.

ـ لم أسألك هذا. قلت لك أريد تسليم هذا المركب على النهر في ذلك الخليج الصغير. هذه هي أكياس الطحين والحبل والإبر وخيطان الشراع. وعدنا أنا وكويك إلى مخبئنا قبل حلول الظلام بدون مضايقات، وفي طريق عودتنا حمل الخنزير على كتفيه لأنه متعب.

أنا اليوم وحدي أيضاً مشغول بخياطة الشراع. سمعت صيحات فاختبأت في الغابة،! واقتربت من الحمأة، ونظرت إلى الضفة الثانية. كان كويك يجادل المفكر ويقوم بحركات بيديه وأظنه يريد العبور إلى الجزيرة وكويك يعارضه. وفي يد كل منهما منجل،، والأبتر أشدهما اهتياجاً. وخفت أن يقتلني كويك، فقررت الظهور فصفرت، فاستدار نحوي.

ـ ماذا يجري يا كويك؟

قال الآخر: أريد التحدث معك يا بابيون. كويك كويك لايدعني أمر.

وبعد نقاش باللغة الصينية دام عشر دقائق تقدم الخنزير ووصل الاثنان إلى الجزيرة. جلسنا في الكوخ، وتناول كل منا قدحاً من الشاي، وأنا أنتظر أن يعزما على الكلام قال كويك: إنه يريد الذهاب معنا بأي ثمن. وأنا أفهمته أني لاأملك شيئاً في هذا الأمر، وأنك أنت الذي تدفع وتتصرف في كل شيء، ولايريد أن يصدقني.

ـ بابيون! إن كويك ملزم بأن يأخذني معه.

ـ لماذا؟

ـ هو الذي بتر لي ذراعي منذ سنتين في معركة، في قضية لعب بالميسر، واستحلفني أن لا أقتله، فحلفت له بشرط واحد، وهو أن يؤمن لي قوتي ما دام حياً، وعلى الأقل بمقدار حاجتي. والآن إذا رحل فلن أراه أبداً، وهو إما أن يتركك ترحل وحدك وإما أن يصحبني معه.

ـ اسمع . أنا أقبل باصطحابك، فالمركب متسع وجيد، ونستطيع أن نذهب أكثر من هذا العدد إذا شئنا، وإذا وافق كويك ـ كويك، فسوف أحملك معي.

ـ شكراً.

ـ ما رأيك يا كويك؟

ـ موافق إذا شئت أنت.

ـ هناك شيء هام. هل تستطيع الخروج من المعسكر دون أن يحس أحد باختفائك حتى لايفتشوا عنك على أنك هارب، وهل تقدر على أن تكون عند النهر ليلاً؟

ـ ليس في هذا أي عائق. أستطيع الخروج منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وفي أقل من ساعتين سأكون على ضفاف النهر.

ـ كويك ـ كويك، هل تجد المكان لِئلاّ تحمل صديقك في المركب بدون إضاعة الوقت؟

ـ أجل بدون شك.

ـ تعال بعد أسبوع لمعرفة يوم الرحيل.

ورجع الأبتر مجبوراً بعد أن صافحني. رأيتهما عندما افترقا عند الجرف الثاني وقد تلامسا بالأيدي.

تجري الرياح بما تشتهي. وما أرى إلى البيت بادرته بالقول:

ـ إنك عقدت عقداً غريباً مع خصمك، فكيف ترضى أن تغلبه طول الحياة؟ إنه أمر غريب غير عادي. ولماذا قطعت له ذراعه؟

ـ خصومة بسبب اللعب.

ـ الأحسن لو قتلته.

ـ لا. إنه أمر صديق. في المجلس الحربي حيث مثلت من أجل هذا دافع عني بحرارة قائلاً بأنه هو الذي هاجني، وإنني كنت في حالة دفاع شرعي. وأنا قبلت بالعقد دون إكراه، ويجب أن أحافظ على العهد بشرف. والشيء الوحيد الذي جعلني لا أجرؤ على مفاتحتك بموضوعه، هو أنك أنت الممول لهذا الهروب.

ـ لندع هذا الموضوع. وإذا وفقنا الله وتحررت إن شاء الله، لك أن تفعل ما يطيب لك.

ـ سأظل صادقاً لعهدي معه.

ـ ماذا تنوي أن تفعل إذا غدوت حراً؟

ـ سأفتتح مطعماً، فأنا طباخ ماهر، وهو مختص بأكلة (شوماين) وهو نوع من السباكيتي الصينية.

تركتني هذه الحادثة مستأنساً. وهذه الحكاية غريبة ومضحكة إلى درجة أنني لم أستطع منع نفسي من تنكيد كويك كويك.

وفى شوكولا بوعده، فبعد خمسة أيام كان كل شيء جاهزاً، فذهبنا إلى رؤية المركب تحت وابل من المطر، فلا مجال للكلام، فالصاري والسكان والحيزوم كانت جميعاً قد ركبت أحسن تركيب بمواد من الدرجة الأولى، والمركب ينتظرنا عند منعطف نهري وعليه الغذاء والماء، وبقي إشعار الأبتر.

تكفل شوكولا بالذهاب إلى المعسكر وإخباره، وتفادياً من خطر الاقتراب من الضفة فإنه سيأتي بنفسه لملاقاته في المنحنى. نخرج نحن كورو معروفة بمنارتيه العسكريتين. فإذا

أمطرت نستطيع الخروج دون أية مجازفة في وسط النهر بالضبط وبدون رفع الشراع طبعاً، لئلا تنكشف.

أعطانا شوكولا صباغاً أسود وريشة لنرسم على الشراع (ك) كبيرة والرقم ٢١. هذه العلامة: كـ ـ ٢١ هي علامة مركب صيد يخرج أحياناً في الليل. وحينما ننشر الشراع عند الخروج إلى البحر، نلقي في روعهم أن مركبنا هو المركب الآخر.

الموعد غداً في الساعة التاسعة عشرة، أي بعد الغروب بساعة واحدة أكد لي كويك كويك بأنه سيتعرف على الطريق وهو واثق من أنه سيقودني رأساً إلى الملتجأ. سنغادر الجزيرة غداً في الساعة الخامسة، لنمشي في ضوء النهار ساعة، وعدنا إلى الكوخ مرحين. وكان كويك كويك يحمل الخنزير على كتفه ولايكف عن الكلام وهو لايلتفت إلي، إذ كنت خلفه:

ـ أخيراً سأترك السجن وبفضلك وفضل أخي شابغ سأصبح حراً. وفي اليوم الذي يتم فيه جلاء فرنسا عن الهند الصينية[1] أستطيع الرجوع إلى وطني.

والخلاصة أنه يثق بي، وحين لاحظ أن المركب قد أعجبني فرح واستبشر.

إنها ليلتي الأخيرة في الجزيرة وأرجو أن تكون الأخيرة أيضاً في غويان. إذا خرجت من النهر وسلكت البحر أكون قد حلقت في جو الحرية بالتأكيد. والخطر الوحيد هو الغرق، إذ منذ نشوب الحرب، والبلدان الأخرى لاتسلم الفارين إلى حكوماتهم. فمن هذه الناحية على الأقل استفدنا من الحرب بعض الفائدة. وإذا سخر منا القدر فإننا سنواجه حكماً بالإعدام، هذا صحيح ولكن يجب أن يسبق ذلك توقيفنا.

فكرت في سيلفان، كان يجب أن يكون معي وبالقرب مني، لو لم يقترف هذه الرعونة. أغمضت عيني وأنا أشيء هذه الرقية: «سيدي الذهبي العام برافيل، انتصرت وإلى الأبد على طريق العفن الذي رميتني فيه، وقد استغرق ذلك تسع سنوات». كانت الشمس لاتزال ساطعة عندما أيقظني كويك كويك داعياً إياي إلى الشاي والكعكة. العلب منثورة هنا وهناك، ورأيت قفصين من الخيزران.

ـ ماذا تريد أن تفعل بهذين القفصين؟

ـ أريد أن أضع فيهما الدجاج لنأكله في الطريق.

ـ هل أنت مجنون يا كويك؟ لن نأخذ معنا دجاجاً.

ـ بل سنأخذها.

ـ هل غدوت مريضاً؟ لو اتفق خروجنا مع الصبح بسبب الجزر ماذا نفعل لو صاحت الديكة وقوقأت الدجاجات أو غنت، فوق النهر، فهل تقدر الخطر؟

ـ أنا لا أرمي بالدجاجات.

ـ اطبخها وضعها في الشحم والزيت لحفظها، وفي الأيام الثلاثة الأولى سنأكلها.

(١) صار اسمها اليوم فيتنام. المترجم

افتتح كويك، وراح يجمع الدجاجات، ولكن صراخ الأربع الأوليات أنذرت الأخريات، فلم يستطع القبض على واحدة وأوت كلها إلى الغابة. سر من أسرار الحيوانات التي تتنبأ بالخطر ولا أدري كيف يتم ذلك؟

عبرنا الحماة عجلين كالبغال، خلف الخنزير. وكان قد رجاني أن نحمل الخنزير معنا في السفينة.

ـ أتعاهدني على أن هذا الحيوان لن يصرخ؟

ـ أقسم على أنه لن يفعل. إنه يسكت عندما آمره. وقد حدث أن طاردنا النمر مرتين أو ثلاثاً، وكان يدور ليفاجئنا، فزجرت الخنزير فلم يصدر عنه صوت، رغم أن وبر جلده كان منتصباً من شدة الرعب.

اقتنعت بقوله وقبلت باصطحاب الخنزير العزيز، وعندما وصلنا إلى الملتجأ كان الظلام مخيِّماً، وكان شوكولا هناك ومعه الأبتر. والمصباحان الكهربائيان أتاحا لي التحقق من كل شيء. فكل شيء تام. فحلقات الشراع داخلة في الصاري، والقلع في موضعه ومهيأ للنشر. قام كويك كويك بالعمل الذي حددته له مرتين أو ثلاثاً، وقد تعلم، في سرعة، ما أريده منه؛ ودفعت للأسود، وقد كان مستقيماً، وسلاحاً حتى أنه أحضر معه الورق اللاصق، وأنصاف الأوراق النقدية، وقد قالت له أنه في إمكاني استرداد المال. والناس الذين لايسيئون الظن بالآخرين هم أنفسهم الطيبون والمستقيمون.

كان شوكولا رجلاً جريئاً وشريفاً، وبعد أن رأى معاملة السجناء لم يؤنبه ضميره على مساعدته ثلاثة رجال على الهروب من هذا الجحيم.

ـ وداعاً شوكولا! أتمنى لك ولأسرتك حظاً سعيداً.

ـ شكراً جزيلاً.

وداع السجن

هروب الصينيين

صعدت على ظهر مركب أخيراً ودفعني شوكولا. تقدم المركب نحو النهر بدون مجاديف وقد كان معنا ما يشبه المجاديف، أمسكت أنا بواحد منها، وكويك كويك بآخر. وعبرنا النهر في أقل من ساعتين. المطر يهطل منذ أكثر من ساعة، وكان معنا ثلاثة أكياس مدهونة فاستعضنا بها عن المشمع. جريان النهر سريع وفي مائه دوّارات، ورغم شدة التيار أصبحنا في وسط مجرى النهر وقد ساعدنا الجزر فمررنا بين المنارتين، فأدركت أن البحر بات قريباً، لأنهما كانتا في نهاية طرفي المصب. رفعنا الشراع والقلع في الهواء وخرجنا من نهر كورو دون مضايقات، وهاجمتنا الريح من جانبنا في شدة، اضطررت معها إلى توجيه الشراع بحيث تنزلق عليه الريح، فدخلنا البحر في عنف واجتزنا عنق الميناء كالسهم، ونأينا عن الشاطىء، وأمامنا على بعد أربعين كيلو متراً منارة رويال تدلنا على الطريق. فمنذ ثلاثة عشر يوماً كنت خلف المنارة في جزيرة الشيطان. هذا الخروج الليلي إلى البحر، وهذا الانفكاك السريع عن الأرض الكبرى لم يستقبلها رفيقاي الصينيان بالابتهاج أو بالتحية. أولاد السماء هؤلاء ليسوا مثلنا في التعبير عن مشاعرهم، ولما خرجنا إلى البحر اكتفى كويك كويك بالقول بصوت عادي:

ولقد أحسنا الخروج أيها إحسان، وأضاف الأبتر: فنعم عبرنا إلى البحر في غير صعوبة تذكر.

ـ كويك! أنا ظمآن، قدم لي كأساً من الخمر.

ثم شربنا جرعة من الروم. لقد خرجت بغير بوصلة، ولكن رحلتي الأولى علمتني كيف أتجه حسب الشمس والقمر والنجوم والريح. وبدون تردد، والصاري موجه نحو النجم القطبي اندفعت نحو عرض البحر. كان المركب في حالة جيدة، يصعد الموجة في مرونة، وكانت الريح عاتية. وفي الصباح كنا بعيدين جداً عن الساحل وعن الجزر، ولولا

عشية المجازفة لدنوت من جزيرة الشيطان أتأملها جيداً من عرض البحر كما يحلو لي وأنا أتجاوزها.

قضينا ستة أيام في جو مكفهر وبدون مطر ولا عواصف، وقوة الريح دفعتنا في سرعة نحو الغرب. كويك كويك وفان هوو رفيقان رائعان، لا يشكوان من سوء الطقس ولا من الشمس ولا البرد ولا الليل. غير أن هناك شيئاً واحداً يزعجني وهو أنهما لا يرضيان بالقيادة ولو لساعات لأستطيع نوماً. يأكلان في النهار ثلاث أو أربع أكلات. الديوك والدجاجات لم يبق منها الأثر. وبالأمس قلت لكويك مازحاً ومتى نأكل الخنزير؟ فأقام الدنيا وأقعدها، وقال:

ــ هذا الحيوان صديقي وقبل قتله لتأكله يجب قتلي أنا.

رفيقاي ينشغلان بالقرب مني وهما لا يدخنان، ليوفرا لي التدخين حين أشاء، وعندي شاي حار باستمرار، يفعلان كل شيء دون أن أطلب منهما شيئاً.

مضى على إقلاعنا سبعة أيام حتى عجزت عن الاحتمال، فالشمس تلفحني بلهيبها، حتى الصبيان نهكتهما أشعتها، وأريد أن أنام. ربطت مقبض السكان وتركت جزءاً قليلاً من الشراع منشوراً، وجرى المركب رخياً.

ثمَّ وقضيت مغلقة مدة أربع ساعات، استيقظت بعدها مذعوراً بهزة شديدة وحين أردت أن أغسل وجهي، فوجئت مفاجأة مقبولة، إذ لاحظت أن كويك قد حلق لحيتي وأنا نائم ولم أشعر، ووضع على وجهي نظرية بكل عناية.

منذ أمس أخذت اتجاه الغرب الجنوبي إذ حسبت أنني نزلت كثيراً نحو الجنوب. هذا المركب الثقيل بالإضافة إلى كونه يقاوم البحر، فإنه لا ينحرف بسهولة، إذ أنني قدرت وجود انحراف، وقد لا يكون هنا أي انحراف.

هذا منطاد مسيّر! ولأول مرة في حياتي أرى مثله. ولا يبدو أنه أتى نحونا وهو بعيد جداً لا نستطيع تقدير حجمه.

إن الشمس التي تنعكس أشعتها على معدن الألومنيوم في المنطاد، بانعكاسات فضية لامعة، لا يستطيع البصر الثبات أمامها. لقد غير اتجاهه وكأنه يأتي نحونا، وهو في الواقع يزداد حجمه من سرعته وفي أقل من عشرين دقيقة كان أمامنا. ذهل كويك والأبتر من رؤية هذه الآلة، ولم يكفا عن الثرثرة باللغة الصينية.

قلت: تكلما باللغة الفرنسية، اسم الله، لكي أفهم ما تقولان.

قال كويك: إنه منطاد إنكليزي.

ــ لا بل هو منطاد مسيّر.

أصبحنا نرى الآن هذه الآلة الضخمة بكل تفاصيلها على علو منخفض، وأخذت

تحوم فوقنا في دوائر صغيرة، وظهرت رايات، وأخذت تعطي إشارات، ولم نستطع الرد لأننا لا نفهم هذه اللغة. والمنطاد المسيّر يلح فيقترب منا أكثر حتى جاءت فحامت فوقنا مراراً، فهاج البحر حولنا، واشتدت الريح فجأة، والأفق مصبح من كل صوب ولا خطر من نزول المطر.

قال الأبتر بانطواء:

ــ أين؟

ــ هناك. هذه النقطة التي قد تكون الأرض وقد تكون هذه النقطة مركباً.

ــ كيف عرفت ذلك؟

ــ إني أفترض هذا، والأول من المحتمل أن تكون طرّادة سريعة.

ــ لماذا؟

ــ لأنها لا تخرج دخاناً.

وبالفعل لمحنا بعد ساعة سفينة حربية رمادية، تبدو متجهة نحونا ويزداد حجمها بالتدريج وهذا يدل على سرعتها الشديدة، مقدمتها في اتجاهنا حتى خفت أن تلامسنا عن كثب، وفي هذا خطر كبير، لأن البحر هائج، فإذا مرت معاكسة للموج أغرقتنا، إنها نسافة حب. استطعنا قراءة كلمة (تاربون). عندما دارت نصف دورة ظهرت لنا بطوطها كله تحمل العلم البريطاني، وهي عائمة الصدر، ثم أقبلت علينا متئدة من جهتها الخلفية وتوقفت في روية عند مستوانا وفي نفس سرعتنا ووقف معظم طاقمها على ظهرها، يرتدون الأزرق البحري الانكليزي وظهر ضابط بلباسه الأبيض وبيده مضخم للصوت قريب من فمه وهو ينادي بالانكليزية: قفوا... أنتم... قفوا قلت لكويك: وأنزل الشراع وفي أقل من دقيقتين طوي الشراع والقلع، وبدونهما أوشك المركب على التوقف، والأمواج وحدها تقلنا. ولا يمكن البقاء طويلاً على هذه الحال دون أن نتعرض للخطر، فالمركب الذي ليس له قوة دفع خاصة كالمحرك أو الريح لا يتجاوب مع السكان والأخطر من ذلك حين يكون الموج عالياً.

جمعت كفي مثل مكبر الصوت وصحت: كابتن! هل تتكلم الفرنسية؟

تناول ضابط آخر مجسم الصوت من الضابط الأول وقال: «نعم كابتن أتكلم الفرنسية»

ــ ماذا تريدون؟

ــ ارفع مركبك إلى ظهر باخرتنا.

ــ لا. إن في هذا خطراً، ولا أريد أن يتحطم مركبي.

ــ باخرتنا حربية تراقب البحر وعليكم الطاعة.

ــ لا أكترث لأننا لا نحارب.

ــ ألستم من الغرقى من سفينة نسافة؟

ـ لا. نحن هاربون من سجن مياه فرنسي.
ـ ماذا تعني كلمة سجن مياه؟
ـ حبس، تأديب، وفي الانجليزية هاردلابر.
ـ نعم. نعم. لقد فهمت. أتون من كايين؟
ـ نعم من كايين.
ـ إلى أين تذهبون؟
ـ إلى هندوراس البريطانية.
ـ مستحيل. كان يجب أن تتجهوا جنوب ـ غرب، وتذهبوا إلى جورج تاون. أطيعوا فهذا أمر.
ـ حسناً (أو. كه).

طلبت من كوبك رفع الشراع وسرنا بالاتجاه الذي دلنا عليه السافلة. سمعنا صوت محرك خلفنا. إنه زورق بخاري انفصل عن الباخرة ولحق بنا مسرعاً. وكان أحد البحارة واقفاً عند صدر الزورق، وعلى كتفه بندقية بنجادها[1]. أقبل الزورق من الجهة اليمنى ولامسنا تقريباً، دون أن يتوقف أو يطلب إلينا التوقف، وبقفزة واحدة وثب البحار إلى مركبنا، وتابع الزورق سيره لاحقاً بالسافلة.

قال البحار بالانجليزية: نهاركم سعيد. ثم تقدم نحوي وجلس إلى جانبي ثم أمسك بالمقود ووجه المركب نحو الجنوب قليلاً. فتركت له مهمة القيادة، وأنا أراقب طريقة عمله إنه يجيد هذا العمل ولا ريب. وبقيت مكاني رغم كل شيء ونحن لا نعلم شيئاً.

ـ سجائر؟ وأخرج ثلاث علب سجائر انجليزية وأعطى كلاً منا واحدة.
قال كوبك: لعمري لقد أعطوه علب السجائر قبل أن ينزل إلينا، وإلا فليس ممكناً أن ينزل وهو يحمل ثلاث علب.

ضحكت من تفكير كوبك ثم انشغلت بالبحار الانجليزي الذي يحسن قيادة هذا المركب خيراً مني. وقد وجدت فراغاً للتفكير: لقد نجح الهروب هذه المرة إلى الأبد، فأنا رجل حر، حر، وصعدت الحرارة إلى حلقي، وأظن أن الدموع تداعب عيني. حقاً إنني حر، وبصورة نهائية حيث أنه منذ بداية الحرب لم يسلم هارب إلى بلده، وقبل أن تضع الحرب أوزارها سأجد متسعاً من الوقت لأرد اعتباري وسوف أعرف في أي بلد سوف أستقر.

والعائق الوحيد، ربما كان في عدم القدرة على اختيار البلد الذي أرغب في البقاء فيه، في ظروف الحرب.

---

(١) نجاد السيف أو البندقية: حمالتها.

لا ضير في ذلك، لا يهم أين أعيش، وفي زمن غير بعيد سأستعيد اعتباري وثقة الجمهور والسلطات بسلوكي في الحياة، السلوك الذي يجب أن يظل بعيداً عن العيب والنقصان أو بالأحرى يجب أن يكون مثالياً. إن الإحساس بالانتصار أخيراً على طريق العفن يستوجب أن لا أفكر في شيء آخر. وأخيراً لقد ظفرت يا بابيون بعد تسع سنوات. إنك ظافر حقاً. شكراً يا إلهي، وكنت قادراً على ذلك من قبل ولكن سبلك محوطة بالأسرار، فأنا راض عنك، فبفضل عونك لا زلت شاباً معافى وأصبحت حراً. بينما كنت أفكر في الطريق التي قطعتها خلال تسع سنوات في سجن المياه، يضاف إليها سنتان قضيتهما في فرنسا، وكان المجموع أحد عشر عاماً. أشار إلي البحار بيده وقال: «الأرض» وفي الساعة السادسة بعد أن تجاوزنا منارة مطفأة، دخلنا نهراً عظيماً هو نهر ديميرارا. وظهر لنا الزورق من جديد ومسلمني البحار القيادة وذهب يحتل مركزاً في المقدمة، وتلقى في الهواء حبلاً مشدوداً ربطه بالمقعد الأمامي. وأنزل بنفسه الأشرعة، وجرنا الزورق ببطء، وعاكسنا مجرى هذا النهر الأصفر مسافة عشرين كيلو متراً، وتبعنا السافلة على بعد مئتي متر. وبعد منعطف برزت لنا مدينة كبيرة فصاح البحار الانجليزي: جورج تاون.

ولقد دخلنا عاصمة غويان الانجليزية، يقطرنا الزورق. ما أكثر سفن البضائع ومراكز المراقبة والسفن الحربية. وعلى ضفاف النهر انتصبت المدافع في الأبراج فكأننا في ترسانة للوحدات البحرية كما للوحدات البرية. إنها الحرب منذ سنتين والعالم في حالة حرب وأنا لا أحس بها.

جورج تاون عاصمة غويان الانجليزية، وهي مرفأ هام. وهي على أعتاب الحرب لا مناص وقد أثارت هذه المدينة المسلحة عجبي.

وما كدنا نحاذي حتى تفريغ البضاعة حتى اقترب السافل الذي تبعنا، وألقى مراسيه. صعدنا إلى الرصيف، وكوبك يحمل خنزيره وفاند هوه يحمل صرة بيمناه وأنا لا أحمل شيئاً. لم يكن في هذا الممر المخصص للبحارة أي رجل مدني. ليس فيه سوى البحارة والعسكريين. وصل ضابط سرعان ما عرفته، إنه الذي خاطبني باللغة الفرنسية من على السافلة. مد لي يده وقال هل أنت في صحة جيدة؟
ـ نعم يا كابتن.
ـ جيد جداً ومع ذلك لا بد من المرور على المركز الصحي لإجراء بعض الحقن لك ولصديقيك.

جورج تاون

الحياة في جورج تاون

بعد الظهر أجريت مختلف الطعوم، ثم نقلنا إلى مقر شرطة المدينة وهو مركز مفوضية كبير وضخم حيث مئات من رجال الشرطة في غدو ورواح دون انقطاع.

استقبلنا المدير الأعلى لشرطة جورج تاون المسؤول الأول عن أمن هذا المرفأ. استقبلنا مباشرة في مكتبه وحوله ضباط انجليز يرتدون الكاكي والبنطال القصير والجوارب البيض وأشار إلينا القدم أن اجلسوا أمامي، وقال بلغة فرنسية سليمة:

– من أين كان مقدمكم حين عثر عليكم في البحر.

– من سجن غويان الفرنسية.

– تفضل بذكر النقط التي فررتم منها بالضبط.

– أنا من جزيرة الشيطان، والآخران من معسكر نصفه سياسي في إنيني قرب كورو من غويان الفرنسية.

– ما الأحكام التي كنتم تقضونها؟

– مؤبداً.

– السبب: جريمة

– والصينيان؟

– جريمة قتل أيضاً

– الحكم؟

– مؤبداً

– المهنة؟

– كهربائي.

– والآخران؟

– طباخان.

– أأنتم مع ديغول أم مع بيتان؟

– لا نعلم عن ذلك شيئاً، نحن كنا سجناء ونبحث الآن من جديد عن الحرية والعيش الشريف.

– سوف نخصص لكم زنزانة تبقى مفتوحة طول النهار وطول الليل، وسوف نطلق سراحكم بعد تمحيص أقوالكم. فإن قلتم الحقيقة فلا تخشوا شيئاً. وأنتم تعلمون أننا في ظروف حرب، ونحن مضطرون إلى اتخاذ احتياطات لا نتخذها عادة أيام السلم.

وبعد ثمانية أيام أطلق سراحنا، واستفدنا من وجودنا في هذه الأيام الثمانية في مركز الشرطة للحصول على أمتعة جديدة. وفي الساعة التاسعة صباحاً كنا في الشارع في أحسن هندام ومعنا بطاقات شخصية وعليها صورنا.

تعداد سكان المدينة مئتان وخمسون ألفاً، وكلها تقريباً مبنية من الخشب على الطريقة الانجليزية. الطابق الأرضي من الإسمنت والبقية من الخشب. الطرقات والشوارع تعج بالناس من كل جنس: الأبيض والأسمر والأسود والهندي والخلاسي، والبحارة الانجليز والاميريكيين الشماليين.

كنا مفتونين بهذه الجماهير المبرقشة، وقلوبنا طافحة بالفرحة التي تنم عنها وجوهنا حتى على وجهي الصينيين، وكان كثير من الناس ينظرون إلينا ويبسمون بإيناس. قال كويك: أين نذهب؟

– معي عنوان تقريبي، فقد أعطاني شرطي أسود عنوان رجلين فرنسيين في نهر النوبة. والمعلومات تقول إنه في هذا الحي يعيش هنود فقط.

توجهت إلى شرطي يرتدي ملابس بيضاً نقية، فأطلعته على العنوان. وقبل أن يجيبنا، طلب منا البطاقة الشخصية فقدمتها له بافتخار.

– جيد جداً وشكراً.

وجشم نفسه مهمة إيصالنا إلى قطار كهربائي وحدث السائق بشأننا وهكذا خرجنا من مركز المدينة، وبعد عشرين دقيقة أنزلنا السائق، ويظهر أن هذا المكان هو المقصود. وفي الطريق سألنا وفرنش ماذه أي فرنسي فأشار شاب أن اتبعوني، وساقني على خط مستقيم إلى بيت صغير متواضع، وما كدت اقترب حتى خرج ثلاثة رجال من البيت فاستقبلونا في حفاوة.

– كيف وصلت إلى هنا يابي؟

وقال أكبرهم سناً وهو أشيب وغير محكن. أدخل إلى بيتي، هل الصينيان معك؟

– أجل.

– ادخلوا مرحباً بكم.

– يدعى هذا المحكوم العجوز غيتو أوغست والمعروف باسم غيتو فقط. وهو

مرسيلي أصيل، وقد كان معي في نفس القافلة على الباخرة مارتينيز في العام ١٩٣٣. وها نحن نلتقي بعد تسع سنوات، وبعد هروب حافل بالشقاء. تحرر من عقوبته الرئيسية ثم هرب منذ ثلاث سنوات، حسبما روى لي. والآخران هما: بوبي لويس من آرلس، وجولو التولوني. وهما أيضاً غادرا بعد انتهاء عقوبتهما، ولكن فرضت عليهما الإقامة الجبرية في غويان الفرنسية مدة تساوي مدة العقوبة. أي عشر سنوات أو خمس عشرة (هذه العقوبة الثانية تسمى دوبلاج).

في المنزل أربع غرف: حجرتان وصالة، ومطبخ للطعام، ومشغل. إنهم يصنعون أحذية من المطاط الطبيعي المجموع من الغابة والذي يمكن صنعه وتكييفه بصورة جيدة جداً بعد تعريضه للماء الحار. غير أن عيبه أنه إذا تعرض لحرارة الشمس الشديدة يذوب إذا لم يدخل الكبريت في تصنيعه، ويعالج هذا العيب، بإدخال قماش النوال بين طبقات المطاط.

استقبلنا غيتو استقبالاً بقلب نبيل هذبته المآسي. ورتب لنا نحن الثلاثة ودون تردد، غرفة نثوي فيها. وبقيت مشكلة الخنزير، وادعى كويك بأنه لن يدنس البيت وأنه سيخرج لقضاء حاجته خارج البيت وهو واثق من ذلك.

قال غيتو: حسناً سوف نرى، احتفظ به الآن معك، وهيأنا فراشاً على الأرض مؤقتاً من أغطية عسكرية قديمة. جلسنا نحن الستة أمام الباب ندخن ورحت أسرد على مسمع غيتو مغامراتي كلها منذ تسع سنوات. وكانوا جميعاً يسمعون بإصغاء شديد وكأنهم يعيشون هذه المغامرات لأنهم يحسونها في تجاربهم الخاصة. اثنان منهم عرفا سليفان، وتحسرا بإخلاص على موته الرهيب.

كان الناس أمامنا من كل الأجناس يغدون ويروحون، ومن حين إلى آخر يدخل أحدهم ليشتري حذاء أو مكنسة لأن غيتو وصاحبيه يصنعون أيضاً المكانس، ليكسبوا قوت يومهم. وعلمت منهم أن من بين من كانوا سجناء ثلاثين هارباً في جورج تاون يتلاقون ليلاً في مشرب في مركز المدينة، حيث يتعاطون شرب الروم أو الجعة وكلهم يشتغلون في سبيل لقمة العيش. وبينما كنا نتنسم الهواء العليل أمام الباب في الظل مر صيني فناداه كويك وذهب معه دون أن يقول شيئاً، ثم تبعه الأبتر فالخنزير. وعاد كويك بعد ساعتين ومعه حمار يجر عربة صغيرة. فأوقف الحمار متباهياً وصار يحدثه باللغة الصينية، ويبدو أن الحمار يفهم هذه اللغة. وفي العربة ثلاثة أسرّة حديدية قابلة للتركيب وثلاثة فرش ووسائد وثلاث حقائب، والحقيبة التي قدمها لي كانت مترعة بالقمصان والسراويل، وملابس جلدية وزوجان من الأحذية وربطات للعنق... الخ.

– أين وجدت هذا يا كويك؟

– أعطانا إياها بعض مواطنينا، وسوف نزورهم غداً. فهل لك في أن تصحبنا؟

– حاضر.

وانتظرنا أن يرجع كويك بالحمار والعربة ولكن شيئاً من هذا لم يحصل، إنما فك الحمار وربطه في الفناء وقال:

– وأعطوني كذلك الحمار والعربة، وقالوا لي إنني أستطيع أن أكسب عيشي بهذا، وغداً سيأتي أحد مواطني ليعلمني كيفية ذلك.

وسارع الصينيان إلى الانصراف. وقبل غيتو بوجود العربة والحمار في الفناء بصورة مؤقتة. وهكذا تجري الأمور على خير وجه.

في هذا اليوم الأول من الحرية وفي هذا المساء تحلقنا نحن الستة حول المائدة نأكل حساء بالخضار من صنع جولو وطبقاً من السباغتي.

قال غيتو: كل واحد منا يقوم بدوره في غسل الصحون وتنظيف البيت. هذا الطعام المشترك رمز للتعاون المليء بالحماسة. وهذا الشعور بمعرفة التعاون في الخطوة الأولى من الحياة يشد من عزائمنا. وكنت أنا وكويك والأبتر في منتهى السعادة. لقد وجدنا السقف والسرير والأصدقاء الكرماء الذين بلغوا في مساعدتنا غاية النبل على ما هم عليه من خصاصة فماذا نرجو أفضل من هذا؟

قال غيتو ماذا تنوي أن تفعل هذه الليلة يابيونا! هل ترغب في النزول إلى مركز المدينة إلى ذلك المشرب (البار) حيث يلتقي الهاربون جميعاً.

– أوثر البقاء هنا هذه الليلة. انزل إذا شئت ولاتزعج نفسك من أجلي.

– سأنزل للقاء أحدهم.

– سأبقى هنا مع كويك والأبتر.

ارتدى غيتو وبوبي لويس ثيابهما ووضعا ربطة العنق وانصرفا إلى المدينة. وبقي جولو وحده يبني بعض الأحذية، قمت أنا وصديقاي بجولة في الطرقات المجاورة للتعرف على الحي. كل شيء هنا هندي وهناك قليل من الزنوج، وتكاد لا ترى رجلاً أبيضاً. وفي الحي بعض المطاعم الصينية.

اسم الحي «نهر التوبة» هو ركن من الهند أو جاوة. الشابات رائعات الجمال، والشيوخ يرتدون أثواباً بيضاً سابغات[1] ومنهم من يمشي حافياً. إنه حي فقير ولكن ملابس الجميع نظيفة، والطرقات سيئة الإضاءة، والمشارب حيث يأكلون ويشربون، تغص بالرواد، والموسيقا الهندية يتردد صداها في كل مكان. استوقفني رجل أسود في ثياب بيض ويضع ربطة عنق وقال:

– أأنت فرنسي يا سيدي؟

– نعم.

(١) ضافية تصل إلى القدمين.

ـ يسرني أن أصادف مواطناً لي. هل لك في كأس؟
ـ إذا شئت ولكن معي صديقاي.
ـ لا بأس، هل يتكلمان الفرنسية؟
ـ نعم.
ـ ها نحن أولاء جالسون على خوان يشرف على رصيف أحد المشارب. هذا المارتينيكي يتكلم الفرنسية أكثر انتقاء من لغتنا. قال: ويجب علينا أن نحذر الانجليز السود لأنهم جميعاً كاذبون وليسوا مثلنا نحن الفرنسيين. نحن كلمتنا كلمة شرف أما هم فلا.

وضحكت في سري من قول هذا الأسود «نحن الفرنسيين» ثم اضطربت فعلاً. لأن هذا السيد فرنسي تماماً بل هو أكثر أصالة مني لأنه يتحمس لجنسيته بحرارة وإيمان إنه قادر على التضحية بنفسه من أجل فرنسا أما أنا فلا. إذن هو فرنسي أكثر مني. لذا تابعت الحوار فقلت:
ـ إنه لما يسرني أن أقابل مواطناً لي وأن أتحدث معه بلغتي لأنني لا أحسن التكلم بالانجليزية.
ـ أنا أستطيع التعبير بالانجليزية الدارجة وبحسب قواعد اللغة فإذا احتجت إلى شيء وجدتني رهن إشارتك. هل أنت هنا في جورج تاون منذ زمن طويل؟
ـ منذ ثمانية أيام لا أكثر.
ـ من أين أنت آت؟
ـ من غويان الفرنسية.
ـ مستحيل. هل أنت هارب؟ أم حارس سجن تريد الالتحاق بديغول؟
ـ لا. أنا هارب.
ـ وصديقاك؟
ـ هما أيضاً مثلي.
ـ يا سيد هنري لا أرغب في معرفة ماضيك، فنحن في هذا الظرف نريد مساعدة فرنسا والبذل من أجلها. أنا مع ديغول، وأنتظر الإبحار إلى انجلترا. تعال للقائي غداً في نادي مارتيز، وإليك العنوان ويسعدني أن تنضم إلينا.
ـ ما اسمك؟
ـ هومير.
ـ يا سيد هومير، لا أستطيع اتخاذ قرار حاسم. يجب أولاً أن أتقصى أخبار أهلي، وكذلك، قبل اتخاذ قرار خطير، يجب تحليله. وأنت ترى يا سيد هومير أن فرنسا عذبتني كثيراً، وعاملتني بصورة لا إنسانية.
حاول المارتينيكي إقناعي بحمية وحرارة نابعتين من قلبه. إنه لمن المؤثر حقاً أن يسمع المرء حجج هذا الرجل لمصلحة فرنسا الجريحة.

عدنا إلى البيت متأخرين جداً وقت وأنا أفكر في كل كلمة قالها هذا الفرنسي العظيم. ويجب أن أفكر جدياً فيما عرضه. إن رجال الشرطة والقضاة والإدارة التأديبية ليسوا هم فرنسا، وأحسست في ضميري أنني لا زلت أحبها، ويكفي القول بأن الألمان في فرنسا كلها. يا إلهي ما أكثر عذاب أقربائي وأي عار لحق بالفرنسيين جميعاً. عندما استيقظت كان كويك قد ذهب بحماره وخنزيره وصاحبه الأبتر.
ـ سألني غيتو وصاحباه: هل نمت جيداً.
ـ نعم وشكراً.
ـ أيهما تفضل القهوة السوداء مع الحليب أم الشاي؟ أم أنك ترغب في القهوة وشرائح الخبز مع الزبدة؟
ـ شكراً.

أكلت وأنا أنظر إليهم يشتغلون. جولو يحضر كتلة المطاط كلما احتاج إلى ذلك يضع قطعاً قاسية في الماء الحار فيمزجها بكتلة رخوة. بولي لويس يحضر قطع القماش وغيتو يصنع الحذاء.
ـ أتستعون كثيراً؟
ـ نحن نشتغل فنكسب عشرين دولاراً، خمسة منها للمسكن والغذاء وتبقى خمسة لكل واحد منا لمصاريفه الخاصة واللباس والاستحمام.
ـ هل تبيعون كل شيء؟
ـ لا. يذهب أحدنا أحياناً ليبيع الأحذية والمكانس في شوارع جورج تاون. إن البيع مشياً على الأقدام، وفي القيظ، لشيء عسر.
ـ إذا لزم الأمر قمت أنا بهذا العمل. لا أريد أن أكون عالة عليكم، يجب أيضاً أن أساهم في كسب لقمة العيش.
ـ حسناً يا بابي.

كنت أطوف سحابة نهاري في الحي الهندي في جورج تاون. رأيت إعلاناً كبيراً لإحدى دور السينما. انتابتني رغبة جامحة في رؤية وسماع فيلم ناطق وبالألوان لأول مرة في حياتي، وسأطلب من غيتو أن يصحبني هذا المساء. وتجولت في طرقات نهر التوبة طول النهار. وقد راق لي تهذيب هؤلاء الناس للغاية. إنهم يتسمون بسمتين: النظافة والتهذيب. هذا النهار الذي أمضيته وحدي في طرقات هذا الحي في جورج تاون، هو أعظم في نظري من وصولي إلى ترينيداد منذ تسع سنوات. في ترينيداد وفي وسط هذه المشاعر الرائعة بسبب الاختلاط مع الناس، كان يتردد في ضميري سؤال ثابت: سيأتي يوم بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر وأغادر فيه عائداً إلى البحر، فأي بلد سيقبلني؟ وهل هناك دولة تعطيني حق اللجوء؟ وما عسى أن يكون المستقبل

أما هنا فالأمر مختلف جداً. فأنا حر بصورة حاسمة، وأستطيع إن أردت، السفر إلى

بريطانيا، وأنضم إلى القوات الفرنسية الحرة. ماذا أفعل؟ لو أنني عزمت على الالتحاق بديغول ألا يقولون إني ذهبت إليه لأنني لم أجد لنفسي مستقراً؟ وفي وسط أناس سليمين ألا يعاملونني معاملة سجين لم يجد ملتجأ. فهو يهمهم هذا السبب؟

قيل إن فرنسا انقسمت شطرين: مع بيتان أو مع ديغول. كيف لا يعرف مارشال فرنسا أين شرف فرنسا وأين مصلحتها؟ ولو انتسبت يوماً ما إلى القوات الحرة، ألا أكون مضطراً فيما بعد أن أطلق النار على فرنسيين؟ وعندئذ سيكون قاسياً وقاسياً جداً اتخاذ موقف مرضٍ.

غيتو وجولو وبولي لويس هم أبعد الناس عن الغباء، فهم يشتغلون مقابل خمسة دولارات في اليوم. يجب أولاً أن أعتاد عيش الحرية، فمنذ العام ١٩٣١ ـ ونحن الآن في العام ١٩٤٢ ـ وأنا سجين، وليس في وسعي منذ اليوم الأول من إطلاق سراحي أن أحل كل هذه المجاهيل، بل لا أعرف المشاكل الأولى التي تنطرح على رجل ليجد مكاناً له في الحياة. لم أشتغل قط في عمل يدوي إلا ما ندر من أعمال الكهرباء، وأي عامل كهربائي يفهم في الكهرباء أكثر مني. يجب أن أعاهد نفسي على شيء واحد: أن أعيش نظيفاً.

كانت الساعة السادسة عندما عدت إلى البيت.

ـ إيه بابي! أليس جميلاً أن يتذوق المرء طعم الحرية؟ ويستنشق نسيمها؟ هل تجولت جيداً؟

ـ أجل يا غيتو لقد طفت طرقات هذه المدينة كثيراً.

ـ هل رأيت صاحبيك الصينيين؟

ـ لا.

ـ إنهما في الفناء. فهما شيطان ومدبران، لقد كسبا أربعين دولاراً. وبذلا ما في وسعهما لإعطائي عشرين دولاراً، فرفضت طبعاً. اذهب إليهما.

كان كويك مشغولاً بتقطيع ملفوفة لخنزيره والآخر يغسل الخضار المتسلم وهو سعيد.

ـ أأنت في خير يا بابيون؟

ـ نعم وأنتما؟

ـ نحن مسروران جداً. فقد كسبنا أربعين دولاراً.

ـ ماذا فعلتما؟

ـ لقد ذهبنا منذ الساعة الثالثة صباحاً إلى الريف، يصحبنا أحد مواطنينا ليطلعنا على العمل وأحضر معه مئتي دولار. اشترينا بها بندورة وخساً وباذنجاناً، وباختصار من كل أنواع الخضار الطازجة. واشترينا بعض الدجاج وبيضاً وحليب ماعز، ثم ذهبنا إلى

السوق القريب من مرفأ المدينة، وبعنا أولاً أهالي البلد، ثم بعنا قليلاً للبحارة الأمريكيين وكانوا مسرورين جداً من أسعارنا. وغداً لن ندخل السوق، لأنهم طلبوا مني أن انتظرهم عند باب المرفأ، وسوف يشترون مني كل شيء. خذ هذا هو المال. فأنت دوماً رئيسنا الذي ينبغي أن يحفظ المال.

ـ أنت تعلم يا كويك أنني أملك المال ولست في حاجة إلى هذا.

ـ احتفظ بهذا المال وإلا توقفنا عن العمل.

ـ اسمع. إن هؤلاء الفرنسيين يعيشون تقريباً بخمسة دولارات. ونحن سنأخذ كل منا خمسة دولارات، وندفع خمسة للمسكن والمأكل، وما تبقى ندخره لكي نرد مئتي الدولار التي اقترضتها.

ـ اتفقنا.

ـ وغداً أريد الحضور معكما.

ـ لا. أنت ابق نائماً، وإذا شئت ستلقانا في الساعة السابعة أمام بوابة المرفأ.

ـ حسناً.

كان الجميع سعداء. أولاً نحن، إذ عرفنا أننا سوف نتمكن من كسب عيشنا، ولن نكون عالة على أصدقائنا، وبالتالي فإن غيتو والآخرين رغم سلامة طويتهم لسوف يتساءلون: متى نصبح قادرين على كسب رزقنا.

ـ لكي نحتفل بعمل صديقيك البطولي سأصنع ليترين من شراب الياستي.

ذهب جولو ثم عاد ومعه كحول أبيض مصنوع من السكر، ومواد أخرى، وبعد ساعتين شربنا الياستي على نحو ما يفعلون في مرسيليا. فارتفعت الأصوات، بتأثير الكحول، وتعالت ضحكات الفرح بالحياة، على غير المعتاد، وكان هناك جيران هنود، فسمعوا بأن الفرنسيين يحتفلون فأتوا من غير كلفة، وحضر ثلاثة من الرجال وفتاتان دون دعوة من أحد، وأحضروا معهم لحماً مشوياً، ودجاجاً ولحم خنزير كثير التوابل. وكانت الفتاتان تتمتعان بجمال أخاذ، وهما حافيتان، وتتزينان بالخلاخيل الفضية في القدم اليسرى. قال لي غيتو: احترس إنهما فتاتان حقاً، احذر الاسترسال في الكلام الجريء، وخاصة أن لباسهما يشف عن النهدين قليلاً، وهذا عندهم أمر عادي. أما أنا فقد جاوزت سن الشباب، ولكن جولو وبولي لويس حاولا في بداية عهدنا بهذا السكن، فأثارتا ضجة وظلتا زمناً محجمتين عن الحضور.

كانت هاتان الفتاتان رائعتي الجمال، وفي وسط الجبين نقطة وشم تسمها بطابع غريب. تحدثنا معاً في دماثة، وبالقليل مما أعرفه من اللغة الانجليزية فهمت أنهما ترحبان بنا في جورج تاون.

ذهبت هذه الليلة أنا وغيتو إلى مركز المدينة وكأنه عالم آخر يختلف عن المكان الذي

لقيم فيه، هذه المدينة تغص بالناس البيض والسود والصين والهنود والجنود والبحارة من مدنيين وعسكريين.

وفي المدينة عدد كبير من المشارب والمطاعم والحانات والعلب الليلية التي تضيء الشوارع بأنوارها المبهرة فتحيل الليل نهاراً.

وبعد السهرة التي حضرتها لأول مرة في حياتي بمشاهدة فيلم ملون وناطق. وكنت مفتوناً بهذه التجربة الجديدة.

تبعت فيتو الذي ساقني إلى مشرب كبير حيث كان عشرون فرنسياً يحتلون ركناً من القاعة وشرابهم الكحول مع الكوكا كولا. وكل هؤلاء هاربون من السجن وبعضهم هرب بعد إطلاق سراحهم وقد أنهوا مدة عقوبتهم، وكان عليهم أن يقضوا مدة تساويها في الإقامة الجبرية (دوبلاج)، لأنهم كانوا يتضورون جوعاً هناك ولا عمل لهم وكانوا محتقرين في نظر المجتمع الرسمي والشعبي الغوياني. بسبب هذا كله آثروا الرحيل إلى بلد يظنون أنهم يعيشون فيه عيشة أفضل. ولكن في هذا منتهى القسوة كما قالوا لي:

ـ أنا اقتطع الحطب من الغابة مقابل دولارين ونصف في اليوم، عند جون فرناندس. وأنزل كل شهر إلى جورج تاون لأقضي أسبوعاً. وأنا بائس.

ـ وأنت؟

ـ أجمع مجموعات من الفراشات أصطادها من الغابة، وعندما تصبح عندي كمية من الفراش، أرتبها في علبة غطاؤها من الزجاج وأبيع المجموعة.

وآخرون يعملون في المرفأ في تنزيل البضائع. كلهم يشتغلون ولكنهم لا يكسبون أكثر من كفاف يومهم، وقالوا إن الحياة قاسية ولكنها تهون مع الحرية، فما أحلى الحرية! جاء هذا المساء أحد المعدنين واسمه فوسار ودفع ثمن المشروب عن الجميع. كان على متن باخرة كندية محملة بالبوكسيت[1] وكانت قد أصيبت لدى خروجها من نهر ديميرارا، وبقي حياً ونال تعويضاً لأنه تعرض للغرق على حين معظم طاقم السفينة قد غرق، أما هو فقد أسعفه الحظ إذ قارب النجاة؛ وروى أن الغواصة الألمانية قد عامت على السطح وخاطبتهم وطلبت منهم معرفة عدد السفن المتواجدة في الميناء والتي تنتظر الخروج محملة بالبوكسيت. فأجابوا بأنهم لا يعلمون. والرجل السائل أغرق في الضحك وقال: بالأمس كنت في دار السينما واسمها كذا في جورج تاون، وها هو ذا النصف الثاني من تذكرة الدخول. وفتح سترته وقال: هذا اللباس من جورج تاون، ولكن الجاحدين صاحوا: هذه خدعة. وأصر فوسار وهذه حقيقة بالتأكيد.

(١) أكسيد مهدرج من الألومين والحديد: المترجم.

وأنذرتهم الغواصة بأن المركب الفلاني سيأتي لإنقاذهم، وبالفعل تم إنقاذهم بوساطة المركب المشار إليه.

وكان كل واحد يسرد حكاية وأنا جالس مع فيتو إلى جانب باريسي كهل من الهال. قال لنا بأن يوتي لويس من شارع لومبارد.

ـ يا عزيزي بابيون! أنا دبرت وسيلة للرزق دون أن أقوم بعمل، وخلاصة ذلك: عندما أطالع في الصحف خبراً يقول: مات أحد الفرنسيين في سبيل الملك والملكة، كنت أذهب إلى أحد محال رخام القبور وأرسم على رخامة اسم الباخرة وتاريخ غرقها واسم الفرنسي ثم أصور هذه اللوحة الرخامية وأطوف بها على ذوات[1] الأغنياء الانجليز وأطلب إليهم المساهمة في شراء نصب تذكاري للفرنسي الذي ضحى بنفسه في سبيل فرنسا وبريطانيا، حتى يبقى ذكرى له في المقبرة، واستمر هذا حتى الأسبوع الثالث إذ ظهر فرنسي بروتوني كلب كان اسمه قد ذكر في القتلى ظهر على الملأ حياً في مجتمع بصحة جيدة. وقام بزيارة لبعض النساء اللاتي أخذت من كل واحدة منهن خمسة دولارات من أجل هذا الميت، الذي أخذ يثرثر في كل مكان بأنه في صحة جيدة، وبأني لم أشتر قط من النحات قبراً. لذا وجب أن أبحث عن عمل لأعيش. وأنا لا أقوى على شيء في سني هذا.

وقد ساعد الكوبيون الأحرار على إشاعة أخبار ملفقة، ظناً منهم أننا وحدنا نفهم اللغة الفرنسية.

وقال آخر: وأنا أصنع اللعب من المطاط، وقبضات الدراجات. ولسوء الحظ عندما ينسى الأطفال دماهم في الحديقة تحت أشعة الشمس فإنها تذوب أو تتشوه وتكون الفضيحة عندما أنسى أنني بعت بضاعتي في شارع ما، ومنذ شهر وأنا لا أستطيع المرور نهاراً في نصف شوارع المدينة، وحال الدراجات ليست بأفضل فمن تركها في الشمس وعاد ليمسك بها التصقت مقابضها ـ التي بعتها ـ في راحتيه. وقال آخر: وأما أنا فقد كنت أصنع سياطاً أثقل مقابضها رؤوس زنجيات وكنت أقول للبحارة بأنني أحد الذين نجوا من المحيط الكبير، وعليهم أن يشتروا من هذه السياط، وليس من شيمهم أني بقيت على قيد الحياة. وهكذا كان معظمهم يشترون مني.

هذه الساعة العصرية للأعاجيب كانت تسليني، وكانت في الوقت نفسه تريني أن اللقمة ليست سهلة التناول.

(١) فيلات

فتح أحدهم الراديو فسمعنا نداء من ديغول، وكان الجميع يصغون إلى هذا الصوت الفرنسي من لندن وهو يستحث فرنسيي المستعمرات وما وراء البحار. وكان النداء مؤثراً فلم ينطق أحد بكلمة. وفجأة نهض أحدهم وقد لعبت برأسه الخمرة فقال: «أيها القذرون، أيها الأصدقاء لا بأس في هذا لقد تعلمت الانجليزية دفعة واحدة وفهمت كل ما قاله تشرشل» فضج الحضور بالضحك ولم يكلف أحد نفسه إعادته إلى الصحو من سكرته.

أجل ينبغي أن أقوم بالمحاولات الأولى لكسب الرزق، وهو أمر، أراه من خلال الآخرين صعباً. ولست قلقاً البتة، فمن العام ١٩٣٩ وإلى العام ١٩٤٢ خسرت الشعور بالتبعة وفقدت حس التصرف دون الاستعانة بالآخرين. إنسان عاش في السجن طويلاً دون أن يهتم بشيء من أكله أو مسكنه أو ملبسه. إنسان حركوه وأداروه وعودوه أن لا يفعل شيئاً بنفسه وعلى أن ينفذ بانقياد تام أوامرهم الغبابية دون أن يحللها. هذا الإنسان الذي ألفى نفسه فجأة في مدينة كبيرة وعليه أن يتعلم من جديد كيف يمشي على الرصيف دون أن يصدم أحداً، أو أن يجتاز الشارع دون أن يعرض نفسه للدهس، وأن يقدم له الطعام والشراب حسب أوامره ثم لا يجد في ذلك شيئاً غير عادي. هذا الإنسان يجب أن يتعلم من جديد كيف يعيش. فهناك مثلاً ردود أفعال غير متوقعة.

بين هؤلاء المحكومين المتحررين أو المبعدين الهاربين الذين يمزجون بلغتهم لكنة انجليزية أوإسبانية، كنت أصغي بكل جوارحي إلى قصصهم.

وفجأة في هذا الركن من المشرب (البار) الانجليزي أحس بحاجة إلى الذهاب إلى المراحيض. حسناً. ولكن حدث شيء لا يمكن تصوره، ففي مدة لا تتجاوز ربع الثانية بحثت عن المراقب لأستأذنه قبل الذهاب. وكانت فكرة خاطفة ولكنها لو تحققت لكانت مهزلة. وقلت لنفسي: بابيون! ليس عليك الآن أن تستأذن أحداً إن ذهبت إلى المرحاض أو أردت أن تفعل أي شيء آخر.

وكذلك في السينما حيث كانت المضيفة تبحث لنا عن أمكنتنا للجلوس، فمر بخاطري مرور البرق هذا القول: أرجوك لا ترهقي نفسك من أجلي فما أنا سوى من ذوي السوابق لا أستحق أي التفات.

وفي طريقي من السينما إلى المشرب كنت ألتفت مراراً فقال لي غيتو وهو يعرف هذا الميل عندي: لم تكثر من الالتفات إلى خلفك؟ هل تتوقع أن يتبعك حارس؟ لا حراس هنا يا عزيزي بابيون، لقد تركتهم في السجن.

في لغة السجون المعبرة يقولون: يجب التعري من ثياب السجناء، بل يجب الذهاب إلى

أبعد من ذلك لأن ملابس السجين ليست سوى رمز. إذن لا ينبغي أن ينزع المحكوم رداءه وحسب إنما يجب أن يستأصل من عقله وروحه نقطة العار الموسومة بالنار. دخلت إلى المشرب دورية من الشرطة الانجليز السود، وشرعوا يتنقلون من خوان إلى خوان ويتثبتون من هويات الموجودين. وعندما وصلوا إلى الركن الذي نحن فيه نظر رئيسهم إلى الوجوه بإمعان فرأى وجهاً لا يعرفه، هو وجهي، فقال:

– بطاقتك الشخصية، إذا سمحت، يا سيد.

فقدمتها إليه، فألقى عليها نظرة وأضاف: معذرة، فأنا لا أعرفك. أهلاً بك في جورج تاون، ثم انسحب، وبعد ذهابه قال بول السافواني:

– هؤلاء الانجليز رائعون. إن الغرباء الوحيدين الذين يثقون بهم ثقة تامة هم السجناء الهاربون. وحين تثبت للسلطات الانجليزية أنك هارب تحصل على حريتك فوراً.

رغم أننا تأخرنا في العودة إلى المنزل، فقد كنت في اليوم التالي في الساعة السابعة صباحاً أمام بوابة الرفا الرئيسية. وبعد أقل من نصف ساعة وصل كويك والأبتر ومعهما العربة محملة بالخضار الغضة المقطوفة في نفس ذلك الصباح، ومعهم كذلك دجاج وبيض، وكانا وحدهما فسألتهما عن مواطنيا الذي عليه مهمة تدريبهما فأجاب كويك:

– لقد أرشدنا بالأمس وهذا يكفي ولسنا اليوم في حاجة إلى أحد.

– أجئت بكل هذا من بعيد؟

– أجل، من بعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة. غادرنا الساعة الثالثة صباحاً فوصلنا لتونا.

واستطاع كويك أن يجد بائع الشاي والكعك.

جلسنا على الرصيف قرب العربة نأكل ونشرب بانتظار الزبن.

– هل تعتقد بأن أبريكيي الأمس سيأتون؟

– آمل ذلك، وإن لم يفعلوا سأبيع للآخرين.

– والأسعار ماذا تفعل من أجلها؟

– الأفضل أن لا أحدد سعراً بل أقول كم تدفع؟

– ولكنك لا تعرف اللغة الانجليزية

– هذا صحيح. ولكنني أستطيع تحريك أصابعي ويدي وهذا سهل.

– نعم ولكن أريد أن أراك كيف تفعل.

ولم يمض وقت طويل حتى أقبلت سيارة جيب كبيرة، سائقها معاون ضابط، ومعه بحاران أدنى مرتبة. صعد معاون الضابط فوق العربة وتفحص كل شيء: الخس والباذنجان الخ وفتش كل حزمة وجس الدجاج.

– بكم الجميع؟

وبدأت المساومة. كان البحار الأمريكي يتكلم من أنفه فلم أفهم منه شيئاً، وكويك يهجم بلغته وبالفرنسية. ولما رأيت أنهما لم يتوصلا إلى التفهم، ناديت كويك جانباً وقلت:

ـ كم دفعت ثمن البضاعة كلها؟

فتش جيوبه فوجد سبعة عشر دولاراً، فقال لي: دفعت مئة وثلاثة وثمانين دولاراً.

ـ وكم يدفع لك؟

ـ أقل مئتين وعشرة، وهذا قليل.

تقدمت نحو الضابط فسألني إن كنت أتكلم اللغة الانجليزية فقلت قليلاً، وطلبت منه أن يتكلم ببطء فقال:

ـ (أو ـ كم) اتفقنا.

ـ كم تدفع؟ لا. مئتين وعشرة غير ممكن. نبيع بمئتين وأربعين.

فلم يرض، وتظاهر بأنه ذاهب، ثم عاد وصعد إلى سيارة الجيب، وأحسست أنه يقوم بتمثيلية وفي اللحظة التي نزل فيها من السيارة مجدداً، وصلت الجارتان الهنديتان وهما في نصف حجاب ولا شك أنهما شاهدتا المشهد، فتجاهلتا معرفتنا، فصعدت إحداهما إلى العربة وتفحصت البضاعة وتوجهت إلينا بالخطاب.

ـ بكم الجميع؟

ـ بمئتين وأربعين دولاراً.

ـ حسناً.

ولكن الأمريكي أخرج المبلغ وقدمه لكويك قائلاً للهنديتين بأنه اشترى. ولم تنصرف الفتاتان بل كانتا تنظران إلى الأمركيين وهم يفرغون العربة من البضاعة ليضعوها في السيارة الجيب. وفي اللحظة الأخيرة أخذ أحد البحارة الخنزير ظناً منه أنه مع الصفقة المتفق عليها، وطبيعي أن كويك لا يريد أن يتركهم يحملون الخنزير، وبدأ نقاش لم نتوصل فيه إلى شرح ملابسات العملية، وحاولت إفهام الهنديتين، فتعذر ذلك، وهما أيضاً لم تفهما والبحارة الأميركيون لا يريدون ترك الخنزير، وكويك لا يريد أن يرد المال. فنجم شجار وبلبلة، وأمسك الأبتر بخشبة من العربة حين مرت سيارة جيب تابع للشرطة العسكرية الأميركية، فصفر الضابط المعاون، فاقتربوا منا، وطلبت من كويك أن يرد المال فلم يقبل، والامريكيون، ومعهم الخنزير، لا يريدون كذلك أن يردوه، وتسمر كويك أمام الجيب لمنعهم من الذهاب وتجمعت جمهرة من الفضوليين حول هذا المشهد الصاخب ورأت الشرطة الأميركية أن الحق بجانب الأميركيين ومن جهة أخرى هم أنفسهم لم يفهموا شيئاً من خصوماتنا، وظنوا مخلصين بأننا أردنا خداع البحارة.

وحرت في أمري، ثم تذكرت أن معي رقم هاتف النادي المارتينيكي واسم الرجل، فأعطيته لضابط الشرطة وقلت له ترجم. فأخذني إلى مكان فيه هاتف فاتصلت. ومن حسن الحظ وجدت صديقي الديغولي، فطلبت منه أن يترجم للشرطة بأن الخنزير ليس

داخل في الصفقة، وأنه أليف مربى كالكلاب، وقد نسينا أن نقول هذا للبحارة. ثم سلمت السماعة للشرطي ففهم كل شيء في ثلاث دقائق، فذهب من تلقاء نفسه وأخذ الخنزير وأعاده لكويك الذي سر به غاية السرور، فضمه بين ذراعيه ووضعه عاجلاً في العربة، وانتهت الحادثة وضحك الأميركيون كالأطفال. وتفرق القوم وانتهى كل شيء بسلام.

وفي المساء شكرنا للهنديتين، اللتين ضحكتا كثيراً مما حصل.

انقضت ثلاثة أشهر على وجودنا في جورجتاون، واليوم سكنا في بيت الهنود. أخذنا غرفتين واسعتين مضيئتين، وغرفة للطعام، ومطبخ على الفحم والحطب، وفناء فسيح، مع ركن مسقوف بصفائح الحديد يغني عن الحظيرة. وهكذا كان للعربة وللحمار ملجأ. سأنام وحدي على سرير اشتريته مع فراشه في عرض مخفض للأسعار (أوكازيون) وفي الغرفة المجاورة كان لكل واحد من صديقي الصينيين سرير. وكان عندنا منضدة وستة كراسي، وفوق ذلك أربعة كراسي صغيرة مستديرة. وكان في المطبخ كل ما يلزم من أدوات للطبخ، وكنا شكرنا لغيتو ورفيقيه حسن وفادتهم.

قال كويك: أصبح في حوزتنا بيت.

وكان أمام نافذة غرفة الطعام، وهي مشرفة على الشارع، أريكة من خشب هندي، هدية من الهنديتين، وعلى منضدة غرفة الطعام أصيص فيه أزهار قطفت حديثاً جاء بها كويك. هذا الانطباع عن مسكني الأول المتواضع النظيف، وهذه الدار المشرقة النقية التي تحيط بي، وهي إحدى ثمار عمل ثلاثة أشهر مع الآخرين منحني الثقة بالنفس وبالمستقبل.

غداً الأحد، لا بيع ولا شراء. إذن نحن أحرار طيلة النهار. لذا قررنا نحن الثلاثة دعوة غيتو وصاحبيه إلى طعام عندنا في البيت، وكذلك دعونا الهنديتين وأخويهما، وضيف الشرف سيكون ذلك الصيني الذي قدم لكويك والأبتر العربة والحمار وأقرضنا مئتي دولار لنبدأ أولى خطواتنا التجارية، وسوف يجد في صحنه مغلفاً يحتوي على مئتي دولار، وكلمة شكر باللغة الصينية.

بعد الخنزير الذي يحبه كويك حب عبادة، آتي أنا كأعز صديق، فهو لا ينفك يعيرني التفاتاً. فأنا أحسن الثلاثة لباساً، وهو غالباً ما يأتي إلى البيت ومعه قميص وربطة عنق (كرافات) أو بنطال من أجلي. يشتري كل هذا مما اقتناه.

كويك لا يدخن ولا يشرب إلا نادراً، ولكن عيبه الوحيد هو الميسر. لا يحلم في سوى جمع المال ليذهب إلى نادي الصينيين ويقامر به.

ما كنا نجد في بيع ما اشتريناه صعوبة تذكر، فقد غدوت أتكلم من الانجليزية ما يكفيني لعملية البيع والشراء، وكنا نربح كل يوم ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين

دولاراً تتقاسمها نحن الثلاثة، وهذا قليل ولكننا راضون، لأننا وجدنا سبيلاً للرزق بمثل هذه السرعة، وما كنت أذهب دوماً معهم للشراء علماً بأني قد أحصل على أسعار أفضل من أسعارهم، ولكنني أقوم الآن بعملية البيع.

كان الكثير من البحارة الأميركيين والانجليز الذين يترلون إلى اليابسة ليشتروا لزاكيهم يعرفونني. وكنا نساوم بلطف فلا نبلغ بالمساومة حد الإغضاب.

هناك رجل شيطان كبير يعمل في مجمع لإطعام الضباط الأميركيين وهو إيطالي أميركي وهو يخاطبني دوماً باللغة الإيطالية، وهو سعيد جداً بأن أرد عليه بهذه اللغة، ولا يساوم إلا قليلاً، لأنه في النهاية يشتري بالسعر الذي طلبته أولاً.

نكون في مترلنا في الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة صباحاً، فينام كويك والأبتر بعد الإفطار الخفيف. وأذهب أنا لزيارة غيتو أو تأتي الجارتان وليس لدي عمل مترلي أقوم به، فالكنس وغسل الملابس وترتيب الأسرّة والمحافظة على نظافة البيت تقوم به الأختان مقابل دولارين في اليوم. إني أقدر كل التقدير قيمة الحرية الحالية من هم التفكير في المستقبل.

أسرتي الهندية

إن أكثر وسائل المواصلات شيوعاً في هذه المدينة هي الدراجة. لذا اشتريت واحدة للذهاب إلى أي مكان دون مشقة. وبما أن المدينة تقوم على أرض مستوية وكذلك الضواحي، فيمكن قطع المسافات طويلة دون مجهود. وعلى الدراجة حاملتان للأغراض، قويتان جداً. إحداهما في الأمام والأخرى في الخلف. أستطيع إذن، كما يفعل الكثير من السذج، أن أحمل شخصين في سهولة. كنت أقوم ورفيقتاي الهنديتان، بترهتين في الأسبوع على الأقل لمدة ساعة أو ساعتين، وهما في غاية الفرح وبدأت أفهم أن إحداهما، وهي الصغرى، واقعة في غرامي. وجاء أبوها بالأمس ولم أكن رأيته من قبل وهو يسكن غير بعيد عنا، ولكنه لم يأت قط لرؤيتنا ولا أعرف سوى إخوتها. إنه شيخ كبير ذو لحية طويلة بيضاء كالثلج، وشعره أيضاً فضي ويكشف عن جبين ذكي ونبيل، ولا يتكلم غير الهندية، وابنته تترجم له. ووعدته بزيارة قريبة. وبعد أن أكلنا الحلوى وشربنا الشاي انصرف دون أن ألاحظ أنه كان يتفحص أدق التفاصيل في البيت، والأميرة الصغيرة كانت مبتهجة برؤية أبيها وهو راض عن زيارته وعنا.

عمري الآن ست وثلاثون سنة، وأنا في صحة جيدة، ولا أزال أشعر بأني فتى وكل الناس يرونني كذلك، ولا أبدو أنني تجاوزت الثلاثين، كما يقول أصحابي جميعهم، وهذه الفتاة الصغرى عمرها تسعة عشر عاماً. جمال أصيل ووقار وتفكير قدري. إنها هبة من السماء أن أحب هذه الفتاة وتحبني.

عندما كنا نخرج نحن الثلاثة كانت تركب أمامي وهي على بينة من أنها حينما تكون متمكنة من جلستها وجذعها قائم، وأنني حين أشد على (الدواسات) لا بد أن أحني رأسي قليلاً فأكون قريباً من وجهها فإن أمالت رأسها نحو الوراء رأيت جمال صدرها العاري تحت الغلالة، وهو بهذه الغلالة أروع. وعيناها النجلاوان السوداوان تتقدان بهذه الالتماعات الخفيفة. وفمها الأحمر الألمى[1] على بشرة بلون الشاي، يفترّ عن رغبة في التقبيل وعن شنب[2] ساحر لامع يزين هذا الفم العجيب. ولها طريقة عجيبة في لفظ بعض الكلمات وذلك بأن يخرج طرف لسانها الوردي من ثغرها المتفتح قليلاً والذي يجعل أقسى القديسين الذين علموا الديانة الكاثوليكية، فاسقاً.

علينا أن نذهب إلى السينما هذا المساء وحدنا. لأن أختها مصابة على ما يبدو بمرض الشقيقة، وهو مرض أظنه مصطنعاً لتتركنا وحدنا.

وصلت لابسة ثوباً ضافياً من الموصلين الأبيض، يصل إلى كعبيها، فإذا حطت ظهر كعباها عاريين محاطين بثلاثة خلاخيل من الفضة، تحتذي نعلاً يلتف زمامه الذهبي حول الإبهام وأسبغ على قدميها أناقة، وقد أدخلت في أنفها الأيمن صدفة ذهبية، وغلالة الموصلين التي علت رأسها قصيرة جداً حتى أنها تراخت إلى ما دون كتفيها، وحول الرأس شريط ذهبي، وفي وسط الجبين يتدلى من هذا الشريط ثلاثة خيوط مزدانة بحجارة من كل الألوان، إذا تأرجحت لاح الوشم الأزرق في جبينها.

كان كل من في البيت من الهنود أو أصحابي كويك والأبتر يروننا ذاهبين والبهجة تغمر وجهينا ويرون الفرحة تشع من أعماقنا وكأنهم يعرفون أننا سنعود من السينما خطيبين. كانت جالسة على الدراجة أمامي فوق وسادة صغيرة وجرينا نحو المدينة وأطلقنا للمحاليق العنان. وفي طريق معتم تقريباً لامست هذه الفتاة الرائعة فمي بقبلة خفية خفيفة لم يسمع لها همس، وبهذه المبادرة منها وقعت من الدراجة بدون سبب.

جلسنا في صدر صالة السينما وقد تشابكت يدانا، وكلمتها بلغة الأصابع وبنفس اللغة كانت تجيب. كان هذا الحب الأول المتبادل في السينما حباً أنكم لم تروا شيئاً من مشاهد الفيلم المعروض. كانت أناملها، وأظافرها الطويلة المصبغة والمعتنى بها جيداً،

---

(١) اللمى: سمرة شديدة في الشفتين
(٢) شدة بياض الأسنان

وشد راحتيها على راحتي، كل ذلك كان غناء يتسرب إلى نفسي حباً أبلغ من الكلام، ويعبر عن رغبتها في أن تكون لي، ومالت برأسها على كتفي مما أتاح لي أن أطبع قبلات على وجهها النقي.

وسوف يتحول هذا الحب الخجول والذي استغرق زمناً إلى هوى شامل. وقد أوضحت لها قبل أن تصبح حبيبتي بأنني لا أستطيع الزواج منها، لأنني متزوج من فرنسية، وقد كاد يغيظها ذلك.

بقيت في إحدى الليالي عندي وقالت لي بأنها تفضل الذهاب إلى دار أبيها بسبب إخوتها وبعض الجيران. فقبلت وأقمت عند أبيها الذي يعيش وحيداً مع هندية صغيرة ذات مقربة بعيدة وكانت تقوم على خدمته وتصرف له شؤون البيت. لم أكن بعيداً عن كويك، فهو لا يبعد عني أكثر من خمس مئة متر تقريباً. لذا كان صديقاي يأتيان كل يوم لرؤيتي مساء ويقضيان معنا ساعة طيبة. وغالباً ما يأكلان في البيت. وتابعنا تجارتنا بالحضار عند المرفأ. كنت أغدو في الساعة السادسة والنصف وتصحبني الهندية وتحمل ترمس الشاي وشيئاً من الرز والخبز المخصص في كيس كبير من الجلد، وننتظر كويك والآنز لنشرب الشاي معاً، وهي تحضر هذا الإفطار بنفسها والتزمت هذه القاعدة وهي أن نتناول طعام الفطور نحن الأربعة. في هذا الكيس كل ما يلزم من غطاء منضدة مطرز تضعه على الرصيف بطريقة احتفالية، بعد أن تكون قد كنست بفرشاة، وفيه أربعة أقداح للشاي مع صحونها. ونجلس على الرصيف نفطر جادين. من المضحك أن يقعد المرء على الرصيف ليشرب الشاي كما لو أنه كان في قاعة، ولكنها تجد ذلك طبيعياً. وكذلك الحال مع كويك، فهما لا يكترثان من ناحية أخرى بالمارين، ويجدان ما يفعلانه هكذا عادياً. وأنا لا أريد أن أغيظها وهي مسرورة جداً بأن تقوم على خدمتنا فتمد الزبد على خبز (التوست)، وإذا أنا رفضت بدا عليها الكدر.

حصل في يوم السبت المنصرم حادث أعطاني مفتاح سر.

قد مر على صلتنا هذه شهران. ومن وقت إلى آخر كانت تعطيني كمية قليلة من الذهب وهي من حلي مكسرة: نصف قرط ذهبي، أو قرطاً ذهبياً واحداً، أو قطعة من سلسلة، أو ربع أو نصف وسام. وبما أنني لم أكن في حاجة إليها لبيعها من أجل العيش فقد حفظتها في علبة، وعندي الآن ما يقرب من أربع مئة غرام.

وعندما أسألها عن مصدرها كانت تحرجني وتعانقني أو تضحك ولا تعطي تفسيراً. طلبت مني الهندية يوم السبت أن أحمل أباها على الدراجة ولا أعلم قصد السبيل. قالت: سوف يدلك بابا على الطريق وأنا أبقى هنا لأكوي الملابس. ظننت، وأنا مخدوع، بأنه يريد أن يقوم بزيارة بعيدة، وقبلت بنفس راضية أن أقوده إلى هناك.

جلس أمامي دون أن يتكلم لأنه لا يتكلم إلا لغته، وكنت أسير حسب الاتجاه

الذي يشير إليه بذراعه. المكان بعيد وهاأنذا أقود منذ ساعة. وصلنا إلى حي غني على شاطئ البحر، ليس فيه إلا الدارات الجميلة، وتوقفت بإشارة من «عمي» ثم ترقبت. أخرج من قميصه حجراً أبيض مستديراً، وركع على درجة أحد البيوت، ودحرج الحجر على الدرجة وغنى. وبعد دقائق خرجت من الفيلا سيدة في لباس هندي واقتربت منه وأعطته شيئاً دون أن يتفوه بكلمة وكان يكرر هذا المشهد عند كل بيت. طالت الحكاية ولم أفهم شيئاً. وعند الدارة الأخيرة كان رجل يرتدي لباساً أبيض فأنهضه من ركعته ووضع ذراعه تحت ذراعه وقاده إلى البيت فمكث فيه ربع ساعة ثم خرج وهو لا يزال في صحبة ذلك الرجل الذي قبله في جبينه أو بالأحرى من شعره الأشيب، قبل أن يغادر.

عدنا إلى البيت وكنت أسوق مستعجلاً لأن الساعة قاربت الرابعة والنصف، فوصلنا لحسن الحظ إلى البيت قبل الغروب. رافقت الهندية أندارا أباها أولاً ثم وثبت تعانقني وأشبعتني لثماً وتقبيلاً، ثم أخذتني إلى الحمام، فاستحممت، وكانت الملابس البيضاء النظيفة بانتظاري، فغيرت ملابسي وحلقت لحيتي ثم جلست إلى المائدة، فخدمتني بنفسها كالمعتاد. رغبت في سؤالها ولكنها كانت تلف وتدور متشاغلة لتتحاشى أكبر قدر من الوقت، الإجابة عن أسئلتي. وكنت أتحرق للمعرفة. وكنت أعلم أنه لا ينبغي إكراه هندي أو صيني على القول. وهناك فترة للاعتبار قبل الاستجواب. وحينئذ يتكلمون من تلقاء أنفسهم، ويحسون ويعلمون أنك تنتظر منهم مسارة، فإذا آنسوا أنك جدير بها ساروك.

وهذا ما حصل مع أندارا. فبعد أن اضطجعنا ومارسنا الحب طويلاً، وارتوت عروقها وضعت وجنتها التي لا زالت ملتهبة في تجويف إبطي العاري، وكلمتني ولم تنظر إلي:

– أتعلم يا عزيزي؟ إن أبي حين يذهب لإحضار الذهب فإنه لا يسيء إلى أحد، والعكس هو الصحيح، فهو يحضر الأرواح لحفظ البيوت التي يدحرج عليها حجره، وتعبيراً عن شكرهم له، يعطونه قطعاً ذهبية. وهذه عادة قديمة جداً في بلدنا جاوا.

هذا ما روته لي أميرتي. وفي أحد الأيام تحدثت معي في السوق إحدى رفيقاتها: في ذلك الصباح لم تكن هي قد وصلت ولا الصينيان، وقصت علي الفتاة الجاوية الجميلة حكاية أخرى.

– لماذا تشتغل وأنت تعيش مع ابنة الساحر؟ ألا تخجل من نفسها حين تدعك تستيقظ في ساعة مبكرة حتى أثناء نزول المطر؟ وأنت تستطيع بما يكسب أبوها من الذهب أن تعيش دون أن تشتغل، فهي لا تعرف كيف تحبك. لأنها لا ينبغي لها أن تدعك تصحو باكراً جداً.

ـ وماذا يشتغل أبوها؟ اشرحي لي فأنا لا أعرف شيئاً.

ـ أبوها ساحر من جاوا. فإن شاء استدعى الميت عليك أو على أسرتك. والوسيلة الوحيدة للإفلات من أضرار السحر الذي يسببها لك بحجره هي أن تعطيه من الذهب ما يكفي ليجعله يتدحرج في الاتجاه المعاكس، فهو إذن يبطل فعل الرُّقى[1] وبالعكس فإنه يدعو بالصحة والحياة لك ولأقربائك الذين يعيشون معك في البيت.

ليس هذا مطابقاً كل المطابقة مع ما روته لي أندارا. نويت أن أجري تحقيقاً لأعرف من منهما على حق.

منذ أيام كنت مع عمي ذي اللحية البيضاء الطويلة على ضفة جدول يجتاز «مير التوبة» ويصب في «بيورا». وكشفت لي ملامح الصيادين ما كان فيه الكفاية، وكان كل واحد منهم يقدم له سمكة ويسرع في الابتعاد عن الجرف. ففهمت كل شيء ولم أبق في حاجة إلى أن أسأل أحداً.

وبالنسبة إلي، عمي الساحر لا يضايقني في شيء، لا يكلمني إلا باللغة الهندية، ويفترض أنني أفهم شيئاً ما. ولا أتوصل إلى فهم ما يريد وهذا الأمر جانب إيجابي وهو أننا لن نختلف. لقد أوجد لي عملاً، كنت أصنع وشماً على جباه الفتيات الصغيرات اللاتي تتراوح أعمارهن بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. وأحياناً يكشفن عن نهودهن فأرسم عليها وشماً يمثل أوراقاً أو تويجات أزهار بالألوان، باللون الأخضر أو الوردي، أو الأزرق تاركاً قمة الحلمة تبرز كالمدقة في الزهرة. إنهن شجاعات لأن هذا العمل مؤلم حقاً وقد تركن لي وشم الدائرة السوداء المحيطة بالحلمة باللون الأصفر الكناري، والبعض منهن وهذا نادر جداً طلبن وشم الحلمة ذاتها بالأصفر.

وقد وضع أمام البيت لائحة كتب عليها باللغة الهندية، أعلن فيها ـ على ما أعتقد ـ وشّام فنان ـ أسعار معتدلة ـ عمل مضمون.

هذا العمل در علي المال وكنت بذلك راضياً من ناحيتين، أولاً أرنو صبابة إلى أثداء الحلوبات الجميلة، ثانياً أكسب المال.

وجد كويك قرب المرفأ مطعماً للبيع. جاءني بهذا الخبر فخوراً، وعرض علي أن نشتريه والثمن بالتحديد هو ثمان مئة دولار. فإذا بعت ذهب الساحر بالإضافة إلى ما وفرناه نستطيع شراء المطعم. ذهبت لأراه. إنه في شارع صغير، ولكنه قريب جداً من المرفأ إنه يعج بالناس في كل ساعة. له صالة كبيرة مبلطة بالأسود والأبيض، وفيه ثماني مناضد على اليمين، وثمان على اليسار، وفي الوسط منضدة مستديرة يمكن أن يعرض عليها الفاكهة والمقبلات. المطبخ كبير واسع ومضيء، وفيه فرنان كبيران ومشاو واسعة.

(1) جمع رقية أي تميمة أو حجاب.

وقت الصفقة، باعت أندارا بنفسها كل ما تملكه من ذهب. وكان الأب مدهوشاً لأنني لم ألمس القطع الذهبية التي أعطاها لابنته ولي. قال:

ـ أعطيتكما إياها لتستفيدا منها كلاكما، وليس عليكما أن تطلبا مني، إذا كنتما تحسنان التصرف. افعلا ما بدا لكما.

وليس أخبث منه وعمي الساحر هذا. أما هي فشيء آخر. عشيقة كانت أم زوجة أم صديقة، فلا خوف من حدوث شقاق بيني وبينها، لأنها تجيب دوماً بنعم عن كل ما أقول، ولكنها متخائفة فقط من وشم الصغيرات من أهل بلدها.

هأنذا صاحب مطعم فيكتوري في واترستريت في وسط ميناء مدينة جورج تاون. يقوم كويك بتحضير الطعام، وهذا ما يستهويه، فالطبخ مهنته. والأمر سيقوم بالتسويق وصنع شارومابن وهو نوع من السباغيتي الصيني. ويصنع بالطريقة الآتية: تمزج زهرة الطحين مع صفار البيض، ويمكن لهذه الكتلة أن تتماسك ولو بدون ماء ولكن في صعوبة وتحتاج إلى وقت طويل، هذه العجينة قاسية جداً عند المزج حتى أنه يستعين بالقفز عليها أثناء الجبل وفخذه على طرف عصا مصقولة جيداً تتوسط نهايتها مركز المنضدة، ويتكىء بفخذه على العصا ممسكاً بها بيده الوحيدة ويدور حول المنضدة. وهكذا تصبح العجينة المصنوعة بهذه القوة خفيفة ولذيذة وبإضافة قليل من الزبدة تكتسب طعماً شهياً.

هذا المطعم الصغير سرعان ما اكتسب شهرة عظيمة، وكانت أندارا تقدم الطعام للزبون، تساعدها في ذلك هندية رائعة الجمال اسمها دايا، فكانوا يسارعون إلينا ليتذوقوا الطعام الصيني، وكان يتردد علينا جميع الفارين من السجن فمن كان معه مال دفع ومن ليس عنده مال أكل مجاناً.

قال كويك: إن هذا المطعم يحمل السعادة إلى قلوب الجائعين.

ولكن هناك عائقاً واحداً، وهو جاذبية المضيفتين ـ إحداهما أندارا ـ فإنهما تظهران جسميهما العاريين تحت غلالة ثوبيهما المشقوقين من جانب، من الكعب إلى أعلى الساق وبالحركة ينكشف الساق وأعلى الفخذ، فالبحارة الأميركيون والانكليز، والسويديون، والكنديون، والنروجيون يأكلون أحياناً مرتين في اليوم ليستمتعوا بهذا المشهد، ويسمي أصدقائي مطعمي مطعم المتفرجين.

أنا أمثل المعلم وفي نظر الجميع أنا الرئيس إذ لا يوجد صندوق مسجل. فالخدم يأتوني بالمال فأضعه في جيبي وأرد الباقي عند اللزوم.

يفتح المطعم أبوابه في الساعة الثامنة مساء وحتى الخامسة أو السادسة صباحاً. وغني عن القول إن جميع فتيات الليل يأتين حوالي الساعة الثالثة صباحاً بعد أن يكن قد امضين ساعات طيبة، فيأكلن في مطعمنا، مع عاشق أو زبون، دجاجة أو سلطة حبوب الفاصولياء ويشربون الجعة وبخاصة الانجليزية، أو الويسكي، أو الروم المستخلص من قصب السكر، وهو لذيذ جداً مع الصودا أو الكوكا كولا.

أما وقد أصبح المطعم ملتقى الفرنسيين الفارين فقد غدوت ملاذاً لهم وناصحاً وقاضياً، والمؤتمن عند كل هؤلاء الهاربين والمنفيين، وكان هذا يسبب لي أحياناً بعض المتاعب. شرح لي أحد هواة جمع الفراشات طريقته في الصيد في الغابة. كان يقص الورق المقوى على شكل فراشة ثم يلصق فوقها جناح فراشة من النوع الذي يريد صيده. وهذه الورقة ملصقة على طرف عصا طولها متر واحد. وعندما يصطاد يمسك بالعصا بيده اليمنى ويحركها بحيث تبدو الفراشة المزيفة وكأنها تطير، ويتخذ مواضعه في الغابة في أماكن تنفذ إليها الشمس ويعرف أوقات تفريخ كل نوع. فهناك أنواع لا تعيش أكثر من ثمان وأربعين ساعة إذن عندما تغمر الشمس مكاناً ما تسرع الفراشات التي أفرخت باحثة عن التلقيح في أقرب وقت ممكن، فعندما ترى الطعم تأتي من بعيد جداً مسرعة نحوه. فإذا كانت الفراشة المزيفة ذكراً يأتيه ذكر يقاتله، وتكون الشبكة باليد اليسرى فيلتقطها في سرعة. وجو الغابة المحصور يجعل الصياد يستمر في التقاط الفراشات دون خوف من هروب الأخريات. أما إذا كان الطعم مصنوعاً من جناح أنثى فإن الذكور تأتي لتقبيلها، والنتيجة واحدة. وأجمل الفراشات فراشات الليل. وبما أن الفراشة تصطدم دوماً بالحواجز فمن العسير أن تعثر على واحدة سليمة الأجنحة. فأجنحتهن جميعاً تقريباً فيها خدوش، وللحصول على هذه الفراشات الليلية يتسلق الصيادشجرة كبيرة ويضع إطاراً من القماش الأبيض يضيئه من الخلف بمصباح فحمي ما بين طرفي جناحي الفراشة الليلية يتراوح طوله بين خمسة عشر وعشرين سنتمتراً. تأتي هذه الفراشات لتلتصق بالقماش الأبيض ولا يبقى سوى خنقها بضغط سريع وقوي على صدرها ولكن دون سحقها. ويجب أن لاتتخرب وإلا فسدت أجنحتها أو قلت قيمتها.

كان عندي في خزانة زجاجية مجموعات صغيرة من الفراشات، والذباب، والأفاعي الصغيرة والخفافيش الكبيرة ولكل نوع زبن. لذلك فالأسعار مرتفعة.

دلني أحد الأمريكيين على فراشة جناحاها الخلفيان بلون أزرق رمادي،والعلويان بلون أزرق صاف. وقد عرض خمس مئة دولار ثمناً لفراشة من هذا النوع إن وجد، بشرط أن تكون خنثى. فأخبرت الصيادبالأمرفقال له: إنه وقعت بين يديه فراشة من هذا النوع ودفعوا له خمسين دولاراً، ثم علم فيما بعد من أحد المصنفين أنها تساوي ألفي دولار، ثم أردفت قائلاً:

ـ يريد أن يسخر منك هذا الأميركي ويرى فيك الرجل الأحمق، حتى ولو كانت القطعة النادرة تساوي ألفاً وخمس مئة فإنه يستغل جهلك.

ـ أنت على حق، وإنه القذر. وإذا نحن لعبنا به؟

ـ كيف ذلك؟

ـ يجب أن نثبت فراشة أنثى ونركب لها أجنحة ذكر أو العكس بالعكس، والصعب إيجاد الوسيلة لتثبيتها دون أن تكتشف لأحد.

وبعد محاولات عدة توصلنا إلى إلصاق جناحي ذكر على جسم بديع لأنثى، إلصاقاً تاماً لا يلفت النظر، وقد أدخلنا الحواف في شق صغير، وألصقناها بالصمغ المطاطي، وهذا يمسكها جيداً في حال رفعها من الجناحين.

وضعنا الفراشة مع مجموعة ما تحت الزجاج بسعر عشرين دولاراً، كما لو أنني لم أرها، فأصبنا الهدف، وما أن رآها الأمريكي حتى تجاسر وتقدم وبيده ورقة من فئة عشرين دولاراً ليشتري المجموعة فقلت له: قد وعدت بها رجلاً سويدياً.

وفي غضون يومين أمسك الأمريكي بالعلبة عشر مرات وأخيراً لم يطق صبراً فناداني

ـ أنا أشتري الفراشة التي في الوسط وحدها بعشرين دولاراً وأترك لك الباقي.

ـ وما العجب بهذه الفراشة؟

وأخذت أتفحصها ثم صحت: إنها الخنثى!!

ـ ماذا تقول؟ نعم، حقاً هذا صحيح. ولم أكن متأكداً من قبل فإنها لا ترى من خلال الزجاج، هل تسمح؟ وتفحص الفراشة من جميع النواحي وقال:

ـ كم تريد ثمناً لها؟

ـ ألم تقل لي يوماً بأن نظيرتها تساوي خمس مئة دولار؟ وعدت هذا على مسمع عدد من الصيادين، وأنا لا أريد أن أستغل جهل من اصطادها. إذن خمس مئة دولار أو لا شيء.

ـ اشتريتها، احتفظ لي بها خذ ستين دولاراً عربوناً لها، وأعطني إيصالاً وأحضر لك الباقي غداً. وأخرجها من هذه العلبة.

ـ حسناً سأحتفظ بها في مكان آخر وإليك الإيصال.

وفي ساعة افتتاح المطعم كان هذا النازل من المركب هناك في الموعد المحدد وفحص الفراشة مرة أخرى ولكن من خلال العدسة. وشعرت بالخوف عندما قلبها على ظهرها، فكان راضياً ودفع لي ووضع الفراشة في علبة أحضرها معه وانصرف.

وبعد مضي شهرين ألفيت نفسي محاطاً بالشرطة، فساقوني إلى المخفر، وكان هناك معاون مدير الشرطة الأعلى الذي شرح لي بالفرنسية بأنني موقوف ومتهم باختلاس أمريكي. قال المفوض:

ـ الموضوع يتعلق بفراشة ألصقت بها أجنحة، وبالغش والخداع بعتها بخمس مئة دولار.

وبعد ساعتين كان كويك وأندارا في المخفر ومعهما المحامي، وهو يجيد الفرنسية فأفهمته بأني لا أفقه شيئاً في الفراشات، فلا أنا أصطادها ولا أصنفها وأنا أبيع المجموعات خدمة لصياديها الذين هم زبني. وأن الأميركي هو الذي عرض خمس مئة دولار، لا أنا. ولو كان قانونياً كما يظن لكان هو المختلس لأن الفراشة التي يبحث عنها تساوي ألفي دولار.

مثلت بعد يومين أمام المحكمة وكان المحامي أيضاً ترجماناً لي، فأعدت شرح قضيتي، وكان مع المحامي لائحة بأسعار الفراشات وقال إن فراشة من هذا النوع كما هو مبين في البيان تساوي ألفاً وخمس مئة دولار. فدفع الأميركي نفقات الدعوى، وأتعاب المحامي وفوق هذا دفع مئتي دولار.

احتفل الغاريون والهنود بإطلاق سراحي بشراب بيق.

وكان جميع أفراد أسرة أندارا قد حضروا إلى المحكمة وهم فخورون بأن في أسرتهم رجلاً عظيماً، لأنهم هم ليسوا محتالين، ويشكرون لي أني ألصقت الأجنحة.

اضطررنا إلى بيع المطعم وكان لا بد أن يحصل هذا. وذلك أن أندارا ودايا كانتا رائعتي الجمال، وطريقة لباسهما تفضح مفاتن جسديهما ولكن دون مبالغة، ومع ذلك فقد كانتا تثيران هؤلاء البحارة المتلئة عروقهم بالدماء أكثر مما لو كانتا عاريتين عرياً تاماً، وقد لاحظت، أنه كلما كان الجسد منهما عارياً ومغطى بغلالة زادت أعطيات البحارة. وبعد هذا العرض الجسماني المحسوب بدقة كانت عينا البحار تجحظان من شدة التدقيق في النظر ثم كانتا تنتصبان وتقولان وأنا؟ أين نصيبي من «البقشيش»؟ وما كان أكرم هؤلاء الرجال وهؤلاء العشاق الملتهبين دون أن يبلغوا مأرباً. ويحاورون أين يطمحون رؤوسهم؟ وفي أحد الأيام حصل ما كنت أتوقعه. كان رجل من هؤلاء، أحمر الشعر ثمل، بالنمش، لم يكتف بالنظر إلى الفخذ المكشوف وبالنظرة الخاطفة إلى سروال المرأة، بل مد يده وأصابعه الوقحة، إلى أبعد من ذلك ثم أمسك بالجاوية وعصرها وكأنها بين فكي ملزمة وكانت تحمل بيدها إبريق ماء فكسرته على رأسه في سرعة وتحت تأثير الضربة وقع وانتزع في سقوطه سروالها، وبادرت إلى رفعه عن الأرض، غير أن أصدقاءه ظنوا أني ذاهب لضربه. وقبل أن أنبس بكلمة تلقيت في عيني لكمة. ربما أراد هذا البحار الملاكم أن يدافع عن صديقه وربما قصد أن يسدد ضربة شديدة لزوج الهندية الحسناء الذي بسببه لم يستطع أحد الوصول إليها. على كل حال تلقيت ضربة مستقيمة في عيني. واستند على انتصاره وتهيأ للملاكمة ووقف قبالتي وصاح: هيا إلى الملاكمة فرفت في (أعضائه) بقدمي وأتبعت ذلك بضربة من رأسي، فطاح الملاكم على طوله. وعمت الفوضى، فخرج الأبتر من المطبخ لنجدتي، وصار يوزع الضربات من عصاه التي يحرك بها الساطور، ووصل

كويك وبيده مذراة ذات سنين وصار يخز بها الناس.

وقام باريسي داهر متقاعد من مراقص شارع المواخير واتخذ الكرسي أداة للضرب. أما أندارا فقد أربكها ضياع سروالها فانسحبت من الهرج والمرج.

والحصيلة كانت خمسة جرحى من الأميركيين أصيبوا في رؤوسهم، وآخرون، كان في مواضع مختلفة من أجسامهم ثقباك من مذراة كويك، والدم لطخ كل مكان. جاء، لحسن الحظ، شرطي أسود برازافيلي. ووقف عند الباب لئلا يخرج أحد. ثم قدمت سيارة جيب للشرطة العسكرية وفي كل قدم من أقدامهم زان[1] أبيض، وفي أيديهم عصي مرفوعة ويريدون الدخول بالقوة بعد أن رأوا رفاقهم مضرجين بدمائهم وفي نيتهم الانتقام. وكان الشرطي الأسود يدفعهم ثم وضع يده وعصاه معترضاً بها الباب، وقال: شرطة جلالتها.

وعندما وصلت الشرطة الانجليزية أخرجونا وأركبونا في سيارة سجن وقادونا إلى الفوضية أنا وحدي كانت عيني متورمة، والآخرون ليس فيهم جروح، وهذا ما جعلهم لا يصدقون أننا كنا في حالة دفاع مشروع عن النفس.

وبعد ثمانية أيام قبل رئيس المحكمة قضيتنا ما عدا كويك الذي نال عقوبة سجن ثلاثة أشهر بسبب الضربات والجروح التي ألحقها بالأمريكيين. وقد حاروا في تفسير منشأ الثقبين اللذين تكرر انطباعهما في جسومهم بكثرة.

وبعد ذلك حدث في أقل من أسبوعين ست مشاجرات، فوجدنا أن الاستمرار غير ممكن. فالبحارة قرروا أن لا يعتبروا هذه الحادثة منتهية. وكانت تفد وجوه جديدة ولكن كيف تعرف الصديق من العدو؟ لذلك فقد بعنا المطعم ولم نحصل على المبلغ الذي دفعناه. صحيح أن المطعم نال شهرة غير أن الذين اشتروه لم يزيدوا في الثمن.

ـ ماذا نفعل أيها الأبتر؟

ـ لنستريح ريثما يخرج كويك من السجن، ولن نستطيع استرجاع العربة والحمار لأنها بيعا مع الزبن. الأفضل أن لا نفعل شيئاً سوى أن نستريح وسوف نرى فيما بعد.

خرج كويك من الحبس وقال إنه عومل معاملة حسنة والشيء الوحيد الذي ضايقه هو أنه كان قريباً من رجلين كانا محكومين بالإعدام. ولدى الإنجليز عادة سيئة وذلك أنهم يعلمون المحكوم بأنه سوف يشنق في يوم كذا، قبل تنفيذ الحكم بخمسة وأربعين يوماً يوم رفضت الملكة العفو.

وفي كل صباح كان أحدهما ينادي الآخر ويقول له: مضى يوم يا جوني ولم يبق إلا

(١) الزان كالخف أي أنه لا قدم له وهو أطول من الخف: القاموس المحيط (قبار).

القليل من أيامنا. والآخر لا يكف عن شتم شريكه في الجرم طيلة الضحى، وفيما عدا هذا كان كويك هادئاً ومبجلاً.

كوخ الخيزران

نزل باسكال فوسكو من مناجم البوكسيت، وهو أحد الرجال الذين حاولوا مهاجمة دورية في مرسيليا بالسلاح، أعدم رفيقه بالمقصلة.

باسكال خبرنا جميعاً. ميكانيكي جيد، ولا يكسب أكثر من أربعة دولارات في اليوم، ومع ذلك فإنه لا يعدم وسيلة في تغذية محكومين أو ثلاثة من المعسرين.

هذا المنجم الأرضي للألمنيوم متقدم جداً في الغابة. وقد نشأت حول المعسكر قرية صغيرة يعيش فيها العمال والمهندسون. وفي الميناء يحمّل محصول المنجم دون انقطاع في مراكب خاصة. توارَدت إلى ذهني خاطرة. لماذا لا نفتح (كباريه) في هذه القرية الضائعة في الأجمة فلا بد أن يكون الناس فيها في سأم محقق، وخاصة في الليل.

قال فوسكو: هذا صحيح، لا توجد تسلية ولا أي شيء آخر، وبعد بضعة أيام كنا أنا والقدارا وكويك والأبتر في طريقنا إلى ما كنزي وهو اسم المنجم فوصلنا بعد يومين من ركوبنا في مركب فوق مياه النهر.

معسكر المهندسين والرؤساء والعمال المختصين، نظيف، ومساكنه مريحة وكلها مجهزة بمناخل معدنية على النوافذ، وقاية من البعوض. أما القرية نفسها فتبعث على الاشمئزاز. ولا يوجد بيت واحد من القرميد أو الحجر أو الاسمنت، وليس هناك سوى أكواخ مصنوعة من تراب فخاري وقصب الخيزران، والسقوف من ورق النخيل البري، أو صفائح القصدير، وهناك أيضاً أربعة مشارب ـ مطاعم مقززة تغص بالزبن، ويتضارب البحارة في سبيل الحصول على جعة غير مبردة إذ لا توجد ثلاجات. وكان باسكال محقاً فهناك مجال لعمل شيء في هذه البلدة. وأنا بعد كل هذا معدود من الفارين، وإنما لمغامرة، ولا أستطيع أن أعيش عيشاً سوياً مثل رفاقي. والشغل لا يجني كثيراً، في سبيل لقمة العيش. وبما أن الطرقات لزجة بالوحل وخاصة عند الأمطار، اخترت مكاناً متطرفاً عن مركز القرية في موضع مرتفع، حتى إذا أمطرت السماء لا تنحدر المياه إلى داخل البناء الذي أنوي إقامته وبنيناه، في عشرة أيام، قاعة مستطيلة طولها عشرون متراً وعرضها ثمانية.

وقد ساعدنا في هذا العمل نجارون زنوج يعملون في المنجم. وكذلك أعددنا ثلاثين خواناً، كل خوان لأربعة أشخاص، وتتسع جميعها لمئة وعشرين شخصاً يجلسون في راحة تامة. وأقمنا منصة يمر عليها الفانوس، ومشرباً على عرض القاعة وأمامه اثنا عشر مقعداً مستدير الكرسي.

وبجانب الملهى بناء آخر ذو ثماني غرف، يستطيع العيش فيها ستة عشر شخصاً في ارتياح تام. عندما نزلت إلى جورج تاون لشراء الأدوات: كراسي، مناضد الخ استأجرت أربعاً من الفتيات السود الجميلات للقيام على خدمة الزبن. ودايا التي لا تزال تعمل في المطعم، قررت المجيء معنا، كما استأجرت خلاسية لتعزف على البيانة. وبقي التعاقد مع شخصيات المسرح. وبعد نقاش توصلت إلى إقناع جاويتين، وبرتغالية، وصينية، وسمراوات، على ترك عمل البغاء ليشتغلن بعرض جسماني. اشترينا ستاراً يقفلنا عند العرض. وسافرت نهراً مع هذه المجموعة في رحلة خاصة قام بها صياد صيني في زورقه. وقدم لي محل لبيع الخمور كل أنواع المشروبات وبالدين، وله بي ثقة، وسأدفع له شهرياً ثمن كل ما بعت في بيان تفصيلي. وشيئاً بعد شيء صار يعطيني المشروبات الضرورية.

والموسيقى سنؤمنها بوساطة الحاكي[1] القديم وبعض الأسطوانات المستعملة عندما تتوقف العازفة عن تعذيب البيانة.

اشتريت من محل هندي كل أنواع الأثواب والتنانير والجوارب السود والملونة، وحاملات الصدر[2] وهي لا تزال في حالة جيدة، وقد اخترتها لألوانها الباهرة من مخلفات أحد المسارح المتنقلة، واشتريت أيضاً مستلزمات النوم، واشترى كويك المواد الخشبية، واشترت أندارا الأقداح وما يلزم للمشرب، واشتريت أنا المشروبات وانصرفت إلى موضوع الفنانات. ولتغطية هذا الموضوع في أسبوع كامل وجب الإسراع وبذل الهمم.

وأخيراً تم كل شيء وصار الجميع فوق المركب ووصلنا إلى البلدة بعد يومين.

إنها لثورة حقيقية سوف تحدثها الفتيات العشر في هذه القرية الضائعة وسط الأجمة.

وصعد كل واحد منا وعلى ظهره حقيبة إلى «الكوخ الخيزراني» وهو الاسم الذي أطلقناه على ملهانا الليلي. وبدأت التدريبات. ولم يكن سهلاً تعليم هؤلاء الفتيات طريقة التعري. أولاً لأنني لا أحسن التكلّم باللغة الانجليزية وما أشرحه لم يكن مفهوماً. ثانياً لأنهن تعودن سرعة التعري لصرف الزبون في أسرع وقت. أما الآن فعلى العكس، فكلما أبطأن برعن في الإثارة، ولكل واحدة منهن طريقة مختلفة يجب أن تنسجم أيضاً مع نوع الملابس التي ترتديها: المركيزة في الشد الوردي، وثوب السهرة، والسطال المخرّم الأبيض،

(١) الفونوغراف أو البيك أب.

(٢) السوتيان.

تعرى متوارية خلف ستارة وأمام مرآة. وفي المرآة يتأمل الجمهور قطع اللحم التي تتكشف شيئاً فشيئاً.

ثم يأتي دور رابيده الفتاة ذات البطن الأملس السمراء بلون القهوة مع الحليب، وهي ذات بشرة صافية، مثال لاختلاط الدم بين أبيض وسوداء، ولونها الذي يشبه حب القهوة الذهبية المعرضة للنار، يبرز مفاتنها المتناسقة، وشعرها الأسود المتموج يتساقط بصورة طبيعية على كتفيها المستديرين. نهداها ممتلئان وعاليان ومتغطرسان رغم ثقلهما، ويرشقان حلمتين رائعتين أشد سواداً من البشرة. هذه هي رابيده. كل قطع ملابسها تفتح بسحابات. تتقدم بنطال راعي البقر (كاوبوي) وعلى رأسها قبعة واسعة، وترتدي قميصاً أبيض أكمامه تنتهي بأهداب جلدية. تظهر على المسرح على صوت نشيد عسكري وتخلع نعلاً وتقذف به في الهواء ثم تتبعه بالنعل الآخر. يتفتح البنطال من جانبي الساقين ويقع فجأة على قدميها. وينفتح لباس الصدر إلى قسمين بسحاب على كل ذراع.

وبالنسبة إلى الجمهور فإن المنظر مثير جداً. لأن شيئاً واحداً ظل مستتراً فترة من الزمن فبعد أن تعرى الصدر والأفخاذ فإنها تباعد ما بين ساقيها ويداها على وركيها تنظر إلى الجمهور في مواجهتها، وترفع قبعتها وتلقي بها على إحدى المناضد في المقدمة والقريبة من المسرح. ورابيد هذه لا تقوم بحركات خجولة لتنزع ما بقي على جسدها بل تفك العرى من الجانبين وتظهر كيوم خلقها والزؤبر[1] يعلو عانتها. وتظهر فتاة أخرى فتقدم لها مروحة من الريش الأبيض مفتوحة فتستتر بها.

الكوخ الخيزراني. كان يوم الافتتاح غاصاً جداً بالناس.

أركان المنجم كانوا حاضرين عن بكرة أبيهم. وانتهى الليل بالرقص ورحل آخر زبون مع طلوع الفجر. وكان النجاح باهراً، ولا يمكن أن نحلم بما هو أفضل، ولئن كانت النفقات عالية، غير أن الأسعار كانت مرتفعة أيضاً وتعوضها.

سيكون هذا الملهى في وسط الغابة ليال وسوف يكثر زبنه بمقدار ما تتسع أرضه. والمضيفات الأربع السود تعذر عليهن تقديم الطلبات لشدة الزحام، وكن لابسات الملابس القصيرة جداً، كواشف عن نحورهن، وعلى رؤوسهن غطاء أحمر اللون، وهن أيضاً تركن أثراً جيداً في النفوس. وكانت كل من دايا وأندارا تراقب قسماً من القاعة. وكان كويك والأبتر على البار يقدمان الطلبات، وأنا أطوف في كل مكان، أصحح ما كان مختلاً أو أساعد من كان في ارتباك.

وعندما تواجدت الساقيات والفتانات والمعلم في القاعة وحدهم قال كويك هذا هو النجاح الأكيد.

---

(1) الشعر الخفيف.

أكلنا جميعاً كأسرة واحدة. المعلم والمستخدمون متعبون ولكنهم سعداء بهذه النتيجة. ثم ذهب الجميع للنوم.

- حسناً بابيون، ألا تريد أن تصحو؟
- كم الساعة الآن؟
- الساعة السادسة مساء، وقد ساعدتنا أميرتك، فقد استفاقت منذ الساعة الثانية، وصار كل شيء مرتباً ومهياً لاستقبال ليلة جديدة.

وصلت أندارا ومعها ابريق حار فاغتسلت وحلقت ذقني وبدوت نضير الوجه نشيطاً فهصرت خصرها بذراعي ودخلنا الكوخ الخيزراني فاستقبلوني بآلاف الأسئلة.

- هل هذا هو الرئيس؟
- هل أحسنت التعري؟ وأين الأخذ في نظرك؟
- هل غنيت غناء جيداً؟ حقاً إن الجمهور ليس صعباً.

إن هذا الجهاز الجديد لطيف ورقيق حقاً، وهؤلاء المومسات اللاتي تحولن إلى فنانات يقمن بأدوارهن خير قيام وعليهن علائم السعادة بترك مهنتهن السابقة. وهناك عثرة واحدة وهي كثرة الرجال كثرة عارمة وقلة النساء. وكل الزبن يريدون مصاحبة إحدى الفتيات إن لم يكن طول الليل، فلأطول وقت ممكن، وخاصة مع الفنانات. وهذا ما أثار الغيرة والحسد. وإذا اتفق وجود امرأتين على مائدة واحدة احتج باقي الزبن، والسوداوات الصغيرات أكثر رواجاً لأنهن جميلات من جهة ولعدم وجود نساء في الغابة من جهة أخرى. وتخرج دايا أحياناً من خلف الشرب لتقديم الطلبات وتؤنس الجميع، ويستمتع حوالي عشرين رجلاً بوجود الهندية ذات الجمال النادر حقاً.

وتفادياً للحسد وطلبات الزبن لمصاحبة فتاة على منضدتهم ألغت يانصيباً بعد كل وصلة - في التعري أو الغناء. جعلت دولاباً كبيراً يحمل اثنين وثلاثين رقماً: الرقمان ٣١ - ٣٢ من نصيب البار والأرقام الثلاثون من حق الجمهور. وهكذا يقرر أين تذهب الفتاة، ويجب شراء تذكرة يعادل ثمنها ثمن زجاجة ويسكي أو شمبانيا، وأظن أن هذه الفكرة فائدتين: أولاً التخلص من كل طالب للفتاة والرابح هو الذي يستمتع بمسامرتها ساعة على المائدة بسعر الزجاجة التي تقدم له على الطريقة الآتية: عندما تعرى الأرليت وتحتجب بالمروحة العريضة يجري السحب ولدى ظهور الرقم تقف الأرليت على خشبة كبيرة مدهونة بلون فضي، ويحملها أربعة من الأشداء إلى المنضدة الرابحة السعيدة. وهي بنفسها تفتح زجاجة الشمبانيا وتملأ كوباً وهي لا تزال عارية ثم تعتذر وتعود بعد خمس دقائق وقد ارتدت ملابسها.

وسار كل شيء سيراً حسناً مدة ستة أشهر. وإذ مضى موسم الأمطار جاء زبن جدد، إنهم من الباحثين عن الذهب والماس الذين يقيمون في حرية في الغابة، هذه الأرض

الغنية بالطمي، ليأتوا بالذهب والماس بوسائل مفرطة في القسوة. وغالباً ما يسرق أو يقتل رجال المناجم بعضهم بعضاً، ولهذا السبب كان أكثرهم مسلحاً. وعندما يمتلكون صرة صغيرة من الذهب أو حفنة من الماس، فإنهم لا يقاومون إغراء البلد الجنوني. والفتيات ينلن نسبة مئوية من ثمن كل زجاجة، وبينما يعانقن الزبون يسكبن قسماً من زجاجة الويسكي أو الشمبانيا في دلو الثلج. وفريق من الزبن يلاحظون ذلك رغم ما شربوا من الكحول، ويكون ردة الفعل شرسة. فاضطررت إلى تثبيت المناضد والكراسي. مع هذه المجموعة الجديدة من الزبن، ما كان يجب أن يحصل قد حصل.

كانت تدعى زهرة القرفة وبالفعل، لون بشرتها يحاكي الدارصيني (القرفة). هذه الفتاة التي انتشلتها من الحضيض في جورج تاون تثير الجنون بطريقتها في التعري، وهذا دورها. أحضرت لها على المسرح أريكة من الساتان الأبيض، ولم تتعر كالدودة بأسلوب فاسق غريب فحسب، بل راحت مرة تتمدد على الأريكة وتداعب نفسها بنفسها، وكانت أصابعها الطويلة الدقيقة، تنزلق على كل جسمها العاري من مفرق شعرها إلى أخمص قدمها دون أن يفلت شيء من لسانها. ولا جدوى من الحديث عن رد الفعل عند رجال الغابة الخشنين الشملين.

ودفعها الطمع أن الحث على اللاعبين أن يدفعوا في اليانصيب ثمن زجاجتين من الشمبانيا لا واحدة كالأخريات. حاول رجل منجم شديد المراس ذو لحية سوداء كثيفة أن يلعب على حظ زهرة القرفة، فلم يفلح في الحصول عليها، فعندما قامت زوجتي الهندية لبيع التذاكر فما كان منه إلا أن اشترى أرقام الصالة جميعاً ولم يبق سوى رقمي البار وكان واثقاً في الربح بعد أن دفع ثمن ستين زجاجة شامبانيا.

وكان هذا الملتحي ينتظر التعري الأخير من زهرة القرفة وسحب اليانصيب، وكانت زهرة القرفة مهتاجة جداً لكثرة ما شربت تلك الليلة، وبلغت الساعة الرابعة عندما بدأت عرضها الأخير، وأصبحت أكثر إثارة وجنسية وقد ساعدت الخمرة على ذلك وغدت حركاتها أكثر جرأة من المعتاد.

وتحرك دولاب الحظ (الروليت) الذي سيعطي الرقم الرابح، وكان لعاب الملتحي يسيل شهوة بعد أن رأى عرض الصبية، فهو يترقب واثقاً من أنها ستقدم له عارية على الصينية الفضية، وهي تغطي موضع العفة بمروحة الريش الأبيض، وبين فخذيها الرائعين زجاجتا الشمبانيا.

يا للكارثة. لقد خسر الرجل الذي اشترى ثلاثين رقماً، وكان الرقم الرابح هو الواحد والثلاثين أي رقم البار. فأخرج مسدسه وأطلق ثلاث عيارات نارية ولم يستغرق ذلك سوى ثلاث ثوان. لقد ماتت فلور دوكانيل (زهرة القرفة) بين ذراعيّ، احتضنتها بعد أن ضربت ذلك الوحش على أم رأسه. والذي أخر تدخلي هو أني تعثرت بخادمة تحمل

صينيتها وبالتالي نسي هذا الشرس أن يرتكب عمله الجنوني. والنتيجة أن الشرطة أغلقت الملهى. وعدنا إلى جورج تاون. وها نحن أولاء من جديد في البيت. أندارا كهندية حقيقية قدرية لم تغير شيئاً من سحنتها. وهذا الدمار بالنسبة إليها ليس مهماً. والصبيان لها مشابهان. ولم يتغير شيء في جمعتنا المنسجمة. ولم يلمني أحد منهم على فكرتي بإجراء سحب على الفتيات. تلك الفكرة التي كانت السبب في هذا الانهيار.

وها وفرنا، بعد سداد الديون، لخطيبا أم زهرة القرفة، مبلغاً من المال.

لم نقلق ولم نضطرب بل كنا نذهب كل مساء إلى المشرب الذي يجتمع فيه أصحاب السوابق، وكنا نمضي أمسيات حلوة. ولكن مدينة جورج تاون أخذت تعطيني بمظاهر التضييق، والتفتيش الحربي وبالإضافة إلى ذلك أن أميرتي لم تكن قط غيورة وكنت دوماً أتمتع بحريتي. أما الآن فهي لا تفارقني لحظة، وتبقى جالسة إلى جانبي ساعات في أي مكان كنت فيه. وفرص القيام بعمل تجاري في جورج تاون تنعقد.

لذا أحسست في يوم من الأيام برغبة جامحة في الرحيل عن غويان الانجليزية إلى بلد آخر وليس في ذلك مغامرة، بسبب حالة الحرب، وما من بلد يرفضنا وهذا ما افترضه على الأقل.

الهروب من جورج تاون

والفتى غيتو على الهروب. وهو أيضاً يعتقد بأن هناك بلاداً أفضل والحياة فيها أيسر من غويان الانجليزية، وبدأنا في إعداد الهروب. والواقع أن الخروج من غويان الانجليزية جريمة كبرى، فنحن في زمن حرب وليس مع أحدنا جواز سفر. شاتال الذي فر من كايين هو هنا منذ ثلاثة أشهر، يشتغل مقابل دولار ونصف الدولار في اليوم وذلك في صناعة المثلجات في مطعم حلويات صيني. وهو أيضاً يود الرحيل عن جورج تاون ومحكوم آخر من ديجود واسمه ديلاتك، ورجل من بوردو، وهما الآخران راغبان في الهروب. كويك والأبتر يؤثران البقاء ويجدان أنفسهما هنا في خير.

وبما أن المخرج من ديميرارا مراقب مراقبة شديدة تحت نيران الرشاشات وقذائف السفافات والمدافع، كان لزاماً علينا أن نقلد مركباً للصيد مسجلاً في جورج تاون، وسوف نخرج على متنه على أنه هو. وسوف ألوم نفسي على جحودي نحو أندارا وعلى عدم

استجابتي لحبها الحب الذي تستحق، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً وهي كثيرة الالتصاق بي وبدأ هذا يغضبني. والمخلوقات الساذجة النقية لا يتحفظون في رغباتهم ولا ينتظرون من محبوبهم حتى يلتمسوا منهم الحب. وهذه الهندية تتصرف تماماً كما كانت تفعل الأختان الهنديتان من قبيلة الكاجيرا، ففي اللحظة التي كانت تفصح فيها مشاعرهما تتقدمان، وإذا لم أحتضنهما كان ذلك خطراً، ويستثيرني ما تعانيا من ألم دفين في نفسيهما. ولا أريد جرح شعور أنداراء، ومن واجبي أن أضمها بين ذراعي أكبر متعة.

شهدت بالأمس شيئاً من أجمل ما يمكن أن يراه المرء من الفن الإيمائي للتعبير عن الأحاسيس:

في غويان الانجليزية نوع من أنواع العبودية العصرية. يأتي الجاويون للعمل في مزارع القطن وقصب السكر أو الكاكاو بعقود تتراوح مدتها بين خمس وعشر سنوات. فالزوج والزوجة مكرهان على الخروج إلى العمل كل يوم إلا إذا كان أحدهما أو كلاهما مريضاً وإذا لم يعترف الطبيب بمرضهما فعليهما أن يقضيا أجلاً إضافياً إلى مدة العقد مقداره شهر عقوبة لها، وتتبعه شهور أخرى لهفوات صغيرة، وبما أنهم مقامرون فإنهم يستدينون بالمقابل من المزرعة، ولكي يدفعوا لدائنيهم يوقعون عقداً بتجديد العمل سنة أو سنوات أخرى في سبيل الحصول على مبلغ.

عملياً لا يتخلصون أبداً وهم قادرون على المقامرة بعمل نسائهم، وهم يحافظون على شرف الكلمة. والشيء المقدس عندهم هو الأولاد. يفعلون أي شيء لحمايتهم من العبودية ويتحملون أقصى العقوبات، وأقسى أنواع الحرمان ولا يدعون واحداً من أبنائهم يوقع عقداً مع المزرعة.

واليوم هو موعد زواج هندية، والجميع في ملابس ضافية، فالنساء يرتدين أثواباً بيضاً والرجال أيضاً يلبسون قمصاناً بيضاء طويلة تصل إلى الكعبين، وهناك كثير من أزهار البرتقال.

وبعد القيام بعدة شعائر دينية، يبدأ المشهد في اللحظة التي يأخذ فيها العروس عروسه. فالمدعوون يصطفون على يمين باب الدار ويساره. والرجال من جهة والنساء من جهة أخرى. ويجلس الأبوان على عتبة الدار والباب مفتوح. العروسان يقبلان أفراد الأسرة ويمران من بين الصفين الطويلين الممتدين إلى بضعة أمتار، وتهرب العروس من ذراع عريسها بغتة، وتعدو إلى أمها والأم تغطي عينيها بيد وترد فتاتها إلى الزوج باليد الأخرى، والزوج يمد يديه منادياً، والعروس تقوم بحركات تدل على حيرتها، وأمها هي التي منحتها الحياة، حسناً، لذا فهي تظهر شيئاً تخرجه من بطنها والأم تعرض عليها ثديها. فهل تنسى كل هذا لتلحق بالرجل الذي أحبت؟ ربما. وتقول، بالإيماء لزوجها: لا تستعجل، وتريث قليلاً بعد. دعني أتأمل هذين الأبوين الطيبين جداً اللذين هما سبب وجودي حتى

الساعة التي قابلتك فيها. وهو بدوره يقوم بحركات إيمائية يفهمها بأن الحياة تقضي بأن تكون زوجة وأماً.

يجري هذا كله على أنغام الأناشيد التي تغنيها البنات، ويرد عليهن الفتيان. وفي النهاية وبعد أن تقبل والديها تقوم بعدة خطوات جرياً، وترتمي بين ذراعي زوجها الذي يحملها مسرعاً إلى عربة تنتظرها، وهي مزدانة بالأزهار.

نحن نعد للهروب بدقة. لقد أعددنا مركباً طويلاً وعريضاً، وشراعاً جيداً وقلعاً وسكاناً ممتازاً وقد اتخذنا كل احتياط لئلا نلفت نظر رجال الشرطة. وقد خبأنا المركب في نهر الثورة، النهر الصغير الذي يصب في النهر الكبير المسمى دميرارا، مقابل جيتا. وهو مصبوغ ومرقم بدقة كأي مركب صيد صيني مسجل في جورج تاون. فإذا تسلط عليه ضوء المنارة فطاقم السفينة هو وحده المغاير، وينبغي للتمويه أن لا نكون واقفين لأن الصينيين في المركب الذي نسخنا عنه صورة مركبنا قصيرة قاماتهم، ناحلة أجسامهم، أما نحن فطوال أشداء.

كل شيء يجري في أمان. وخرجنا من دميرارا، متلهفين، إلى عرض البحر، وعلى الرغم من نشوة الفرحة. بالخروج دون تعرض لخطر الافتضاح، شيء واحد منعني من الاستمتاع بهذا النجاح، وهو أنني رحلت كاللص دون أن أشعر أميرتي الهندية. ولم أكن راضياً عن نفسي. هي وأبوها وقومها لم يفعلوا معي إلا الخير وبالمقابل فقد أسأت الجزاء. لا أحاول إيجاد مسوغات لسلوكي هذا ورأيت أن ما فعلته بعيد عن الذوق، وما أنا براض عن نفسي أبداً. لقد تركت على المنضدة جهازاً بست مئة دولار، ولكن المال لا يساوي ما لاقيت منهم.

عناصر الهروب خمسة رجال: غيتو، وشاتار، وبارير، ورجل من بوردو، وديويلاك، وهو من ديجون وأنا. بابيون هو القبطان المسؤول عن الملاحة. بعد أن قطعنا ثلاثين ساعة في البحر وقعنا في عاصفة هوجاء وتبعها نوع من الإعصار. برق ورعد، مطر وأمواج ضخام مضطربة، ورياح عاصفة تدور فوق البحر تحملنا ولا نستطيع مقاومتها في شوط مجنون مأساوي فوق سطح البحر، لم أر ولم أتصور مثله.

لأول مرة وفيما مر بي من تجارب أرى الرياح تدور وتغير اتجاهها في اللحظة التي تمحي فيها رياح الأليزة تماماً، على حين أن الإعصار يرقصنا في اتجاه معاكس، وإذا دام هذا ثمانية أيام فإنه سيقودنا إلى السجن.

هذا الإعصار جدير بأن لا ينسى. عرفت فيما بعد في ترينيداد من ألفونسي القنصل الفرنسي أنه قطع له أكثر من ستة آلاف جوزة هند في مزرعته. هذا الإعصار الحلزوني نشر أشجار النارجيل نشراً على ارتفاع إنسان، وبيوت اجتثت من أساسها وتطايرت في الهواء بعيداً وسقطت على الأرض أو في البحر.

لقد خسرنا كل شيء: المؤونة والأمتعة وبراميل الماء، وانكسر الصاري، والأخطر من هذا كله انكسار السكان، وألقد شابار بمعجزة مجدافاً صغيراً. وبه حاولت أن أقود المركب وفوق هذا كله. فقد تعرينا جميعاً لنصنع من ملابسنا نوعاً من الشراع واستخدمنا كل شيء: السترات والبنطالات والقمصان وبقينا نحن الخمسة عراة إلا من السروال.

هذا الشراع المصنوع من ملابسنا خيط بسلك معدني كان معنا في المركب أتاح لنا الإبحار بهذا الصاري المقطوع. وهبّت رياح الأليزة من جديد، استغللتها في محاولة الاتجاه نحو الجنوب للوصول إلى أية أرض حتى ولو عدنا إلى غويان الانجليزية.

الحكم الذي ينتظرنا هناك هو الترحيب. لقد سلك رفاقي سلوكاً جديراً بالإعجاب أثناء العاصفة وبعدها، أو بالأحرى بعد الطوفان والإعصار. وبعد ستة أيام اثنان منها كانا هادئين. ها قد رأينا اليابسة.

وبقطعة الشراع هذه التي اقتلعتها الريح رغم ما فيها من ثقوب لم نستطع الإبحار كما نشتهي. والمجداف الصغير كذلك لم يكن كافياً للتوجيه الحازم الموثوق.

وبسبب عرينا أصبنا بحروق شديدة في أجسامنا مما أضعف قوانا في مصارعتنا للبحر. وانسلخت بشرة أنافنا جميعاً، والشفاه والأقدام. وظاهر الأفخاذ وبطونها كلها لحومها الحية الظاهرة والعطش يعذبنا حتى ان ديلاك وشابار قد شربا من ماء البحر فازدادوا ألماً. ولكن رغم الظمأ والجوع فإن أحداً منا لم يتشك، ولم يقدم أحد منا لغيره نصيحة. فمن أراد أن يشرب من ماء البحر أن يرش منه على جسده قائلاً بأن هذا يرطبه فسوف يعرف من تلقاء نفسه بأن الماء المالح سيزيد قروحه، ويحرقه وبخاصة عند التبخر.

وأنا وحدي عيني مفتوحة تماماً وسليمة على حين أن رفاقي قد تقيحت أجفانهم وتلاصقت، لأن العيون تتطلب الغسيل مهما كلفتنا من ألم، لأننا في حاجة إلى فتح العينين والنظر الجيد.

وأصابت حروقنا شمس حادة إلى درجة يصعب احتمالها، وكاد ديلانك يجن، ويتحدث عن إلقاء نفسه في الماء.

منذ ساعة وأنا أتصور أنني أرى اليابسة في الأفق. وتوجهت نحوها طبعاً. لم أقل شيئاً لأنني غير مستوثق. وصلت إلينا طيور وبدأت تحوم حولنا إذن لم أكن مخطئاً، وأنذرت بأصواتها رفاقي الذين تمددوا في المركب من اللغوب من حرارة الشمس يحمون وجوههم منها بأذرعهم. مضمض غيتو فمه ليستطيع التكلم فقال:

– أترى الأرض يا بابي؟

– نعم.

– بعد كم من الوقت تعتقد أننا بالغوها؟

– بعد خمس أو سبع ساعات. اسمعوا يا أصدقائي. لم يبق لي صبر ولا جلد، ربي فوق ما بكم من حروق، زيدوا على ذلك أن جلد اليتي تسلخ من شدة الاحتكاك على خشب المقعد وبماء البحر.

ليست الريح شديدة ولا نتقدم إلا ببطء، وذراعاي تتقلصان باستمرار وكذلك يداي المتعبتان من شدة القبض منذ زمن على المجداف الذي استخدمه بدلاً من السكان.

– هل تطيلون شيئاً؟ ننزل الشراع وننشره فوق المركب كالسقف يحمينا من نار الشمس حتى الليل. فالمركب يذهب وحده مع المد نحو الأرض، وعلى أحدكم بأن يقبل بأن يأخذ مكاني على السكان اتخذت هذا القرار حوالي الساعة الثالثة عشرة. وتحت أشعة الشمس تنهدت بارتياح حيواني في قاع المركب وتحت الظل أخيراً. وخصص لي أصدقائي خير مكان حتى أستطيع استنشاق الهواء من الأمام. وحتى من كان مكلفاً الحراسة جلس تحت ظل الشراع ثم نمنا جميعاً من شدة الإنهاك مستمتعين بهذا الظل الذي أتاح لنا ملجأ من شمس لا ترحم. سمعنا صوت صفارة فأيقظتنا دفعة واحدة، أزحت الشراع، وكان الليل مخيماً في الخارج. كم يمكن تقدير الساعة؟ وعندما جلست إلى السكان هب نسيم عليل أنعش جسمي السكين المسلوخ، وعلى الفور أحسست بالبرد، كما أحسست براحة مما كنت أقاسيه من الحروق.

رفعت الشراع بعد أن نظفت عيني بماء البحر، ولم أشعر لحسن الحظ بحرارة في سوى واحدة منها، وهي المتقيحة، ورأينا الأرض بوضوح على يميني وعلى يساري أين نحن؟ وإلى أي الجهتين أنحاز؟ وسمعنا زعقة الصفارة مرة أخرى وأدركت أن الإشارة من الجهة اليمنى. ماذا يقولون لنا؟

قال شابار: أين نحن في اعتقادك يا بابي؟

– بصراحة.. لا أدري. إذا لم تكن هذه الأرض معزولة، وإذا كنا في خليج، فنحن عند رأس غويان الانجليزية. الجزر ينتهي في أوره نوك وهو نهر كبير في فنزويلا، وهو بشكل حداً من الحدود. وأما إذا كانت أرض اليمين مشغولة بمساحة كبيرة من أرض اليسار فشبه الجزيرة حينئذ هي ترينيداد.

على اليسار فنزويلا، إذن فنحن في خليج باريا. وذكرياتي عن الخرائط البحرية التي سنحت لي الفرصة أن أدرسها، حددت لي ضرورة الاختيار. فإن كانت ترينيداد على اليمين وفنزويلا على اليسار فماذا نختار؟ وهذا الاختيار يضع مصيرنا في كف القدر. ولم يبق صبراً، بهذه الريح اللينة أن نتجه نحو الساحل، ولكن في هذه اللحظة لن نتوجه إلى هذه أو تلك. فالانجليز في ترينيداد، السلطة نفسها في غويان الانجليزية. قال غيتو:

– من المؤكد أنهم سوف يحسنون معاملتنا.

ــ نعم ولكن أي قرار سيتخذون بسبب مغادرتنا في زمن الحرب أرضهم دون رخصة وبصورة غير مشروعة؟

ــ وفنزويلا؟

قال ديلانك: لا ندري كيف تكون الأحوال، ففي عهد الرئيس غومز كان السجناء مجبرين على العمل في الطرقات في شروط قاسية جداً ثم يردون إلى فرنسا.

ــ نعم. أما الآن فليس الأمر مشابهاً فنحن في أيام حرب.

ــ وهم حسبما سمعت في جورج تاون ليسوا في حالة حرب. إنهم حياديون.

ــ هل هذا أكيد؟

ــ نعم هذا مؤكد.

ــ إذن في هذا خطر علينا.

رأينا على اليابسة يميناً أضواء، وكذلك على يسارنا. مرة أخرى أطلقت الصافرة ثلاث صفرات متتاليات. وجاءتنا إشارات ضوئية من الساحل الأيمن، وبدأ القمر بالظهور. إنه بعيد عنا ولكنه على خط مسارنا. والفيت أمامنا صخرتين عملاقتين مدببتين وسوداوين. تبرزان عالياً في البحر، وربما كان هذا هو السبب في صفير الصافرة، ولعلهم يحذروننا من الخطر. وهذه علامات طافيات على سطح الماء وهي تدل على الطريق أو تمنع سير السفن وقد انتظمت مثل خرزات السبحة. لم لا ننتظر طلوع الصبح متعلقين بواحدة منها؟ اخفض الشراع يا شابار! فنزع على الفور هذه القطع من البنطالات والقمصان التي أسميها تجاوزاً شراعاً. ألجمت المركب بالمجداف الذي يشبه الرفش ووجهت مقدمته نحو إحدى الطافيات، ولحسن الحظ إنه ما زالت لدينا رمة حبل معلقة في حلقة لم يستطع الإعصار اقتلاعها. لقد وقفنا وعلقنا الحبل بالعلامة الطافية، لا. ليس مباشرة بها إذ ليس فيها ما يمسك الحبل، وإنما بالحبل الذي يربط طافية بأخرى. اضطجعنا كلنا في قاع المركب دون أن نهتم بالصفير المستمر الذي يأتينا من جهة اليمين، وقد تغطينا بالشراع وقاية من الريح. أحسست بدفء عذب يجتاح جسمي الذي أرعدته الريح والبرد في الليل. وربما كنت أول من شخر وعندما أفقت كان النهار مصحياً وصافياً، وكانت الشمس قد بزغت، والبحر هائج قليلاً. ولونه الأزرق المخضر يدل أن القاع مرجاني.

قال شابار: ماذا نفعل لنقرر الذهاب إلى اليابسة، يكاد يقتلني الجوع والعطش. (وهذه أول مرة يشتكي فيها منذ بدء الصيام وبالضبط منذ سبعة أيام).

نحن قريبون جداً من البر وليس هناك خطأ كبير يمكن أن نقع فيه. وعندما اتخذت مكاني رأيت أمامي على المدى البعيد منعرج الأرض بعد الصخرتين الضخمتين اللتين تبرزان من البحر. إذن ترينيداد على اليمين وفنزويلا على اليسار ونحن بلا ريب في خليج باريا وإذا كان الماء أزرق غير مصفر يطمي نهر الأورينوك فذلك لأننا في التيار الذي يمر بين البلدين متوجهاً نحو عرض البحر.

ــ ما العمل؟ عليكم أن تقترعوا إذ ليس سهلاً أن اتخذ منفرداً قراراً حاسماً فعلى اليمين جزيرة ترينيداد الانجليزية وعلى اليسار فنزويلا فأين تقصدون؟ ونظراً لحال المركب وأوضاعنا الجسدية يجب الإسراع في الذهاب إلى البر. فلدينا اثنان متحرران غيتو وباروين. أما نحن الثلاثة: شاربار وديلانك وأنا، فحالتنا أخطر. ولذا نحن أن نقرر فما رأيكم؟ الذهاب إلى ترينيداد أكثر حكمة ففنزويلا بلد مجهول.

قال ديلانك: لا ضرورة لاتخاذ قرار. فهذا المركب الآتي هو الذي يتخذ قراركم. وبالفعل كان يتقدم نحونا مركب مراقبة سريع، وها هو يتوقف على بعد خمسين متراً ورجل يحمل مكبراً للصوت، ولمحت علماً ليس هو العلم البريطاني، مليء بالنجوم وجميل، ولم أر هذا العلم في حياتي، فلا بد أن يكون فنزويلياً، وهو العلم الذي سيصبح علمي في وطني الجديد، وهو الرمز الأشد تأثيراً في نفسي، وهو الذي جمع في رقعة من القماش أنبل الصفات لأعظم شعب هو شعبي.

ــ كيين سون فوستروس (من أنتم؟)

ــ نحن فرنسيون.

ــ استان لوكوس (هل أنتم مجانين؟)

ــ لماذا؟

ــ بوركه سون أمباروبوس أمباس (لأنكم ربطتم أنفسكم بالألغام)

ــ ألهذا السبب لم تقتربوا؟

ــ نعم. انفصلوا عنها.

ــ حسناً.

وصل شابار الحبل في ثلاث ثوان إذ لم نكن متعلقين إلا بسلسلة من الألغام العائمة لا أكثر ولا أقل. وأوضح لي قائد المركب الذي يقطرنا بأن عدم نسفنا بلغم كان معجزة، ودون أن نصعد إلى ظهر مركبهم كانوا يناولوننا القهوة والحليب الساخن والسجائر.

ــ هيا إلى فنزويلا وستلقون أحسن معاملة نؤكد لكم ذلك. ولا نستطيع أن نقطركم إلى البر لأننا في عجلة من أمرنا لإحضار جريح حالته خطرة، عند منارة بارغاس ولا تحاولوا الصعود إلى ترينيداد لأن فرص اصطدامكم بالألغام ستكون بنسبة تسعين بالمئة وحينئذ...

وبعد عبارة آديوس بيونا سويرتا (إلى اللقاء وحظ سعيد) رحل مركب المراقبة وقد تركوا لنا لترين من الحليب. صلحنا الشراع، وفي الساعة العاشرة صباحاً كانت معدتي في طريق الانفتاح من بعد طول انضغاط، وذلك بفضل القهوة والحليب ووضعت بين شفتي السيجارة، ولم ألبث أن رسوت دون اتخاذ احتياطات ما على شاطئ ناعم الرمل حيث تجمع خمسون إنساناً ينتظرون رؤية القادمين على هذا المركب الغريب: الصاري مكسور، والشراع مصنوع من البنطالات والسترات.

فنزويلا

صيادو إيرابا

اكتشفت عالماً وأناساً وحضارة غريبة عني كلياً . وهذه الدقائق الأولى على الأرض الفنزويلية كانت بالغة التأثير بحيث كانت تحتاج إلى قريحة سامية تستطيع أن تصوره، بالقليل الذي أعرفه، أصدق تصوير هذا الجو الترحيبي الحار الذي استقبلنا به هذا الشعب الأريحي.

هؤلاء الرجال فيهم الأبيض وفيهم الأسود، ولكن غالبيتهم من ذوي اللون الصافي: غريب من اللون الأبيض تعرض للشمس بضعة أيام. بنطالاتهم مشمورة إلى ركبهم.

قالوا: يا لهؤلاء الرجال المساكين! في أية حال أنتم؟

قرية الصيادين التي وصلنا إليها تسمى إيرابا، وهي نوع من التعاونية لدولة تسمى (سكن) الشابات جميلات ومن أقرب إلى القصر، وما ألطفهن. والطاعنات في السن ككل العجائز يتحولن بدون استثناء إلى ممرضات أو أخوات محسنات أو أمهات حانية. جمعونا في سقيفة بيت حيث علقوا خمسة أسرة أرجوحية من الصوف ووضعوا خوانا وكراسي، ودهنوا أجسامنا بزبدة الكاكاو من رؤوسنا إلى أقدامنا، ولم يدعوا موضعاً صغيراً منقشراً دون أن يدهنوه. كنا على وشك الموت من لغوب وسغبة[1]. وصيامنا الطويل أحدث فينا نوعاً من التجفاف. ورجال الساحل يعرفون بأننا في حاجة إلى النوم، وإلى الأكل بكميات قليلة، وكان كل واحد منا مستلقياً في سريره يتلقى اللقيمات من إحدى الممرضات.

لقد كنت منهوك القوى في اللحظة التي مددوني فيها على السرير، وجروحي الثلاث بسبب زبدة الكاكاو. كنت أنام وآكل وأشرب ولا أحس بما يجري حولي، إن اللاحق

(١) اللغوب: التعب، السغبة: الجوع.

الأول من شراب يشبه شراب الشيوكا عندنا لم تتقبلها معدتي. وقد تقيأنا جميعاً بعض أو كل ما كانت تضعه هذه الممرضات في أفواهنا.

إن ناس هذه القرية فقراء فقراً مدقعاً، ومع ذلك كان كل واحد منهم بغير استثناء يساهم في مساعدتنا. وبعد ثلاثة أيام وبفضل عناية هذه المجموعة وبفضل شبابنا أوشكنا على الوقوف على أقدامنا. كنا ننهض ساعات طويلة ونجلس تحت هذه السقيفة المصنوعة من ورق النارجيل التي تهبنا ظلاً ظليلاً. كنا نتحدث أنا وصحبي مع هؤلاء الناس. لم يكن عندهم ما يكفي لإلباسنا دفعة واحدة، وتألفت لجان، فهذه تهتم بقميص، وأخرى ببنطلون الخ ويبلغ عدد الذين يهتمون بشأني حوالي اثني عشر شخصاً.

في الأيام الأولى ألبسونا أمتعة مستعملة ولكنها نظيفة جداً. والآن فإنهم يشترون لنا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فتارة قميصاً جديداً أو بنطالاً وتارة حزاماً أو نعلاً. من جملة النساء اللاتي يعتنين بي فتاتان شابتان واحدة منهن من طراز هندي هجينة بدم إسباني أو برتغالي. إحداهن تدعى تيزاي والأخرى نينتا. اشترتا لي قميصاً وبنطالاً وخفاً. إنه نعل من الجلد بدون كعب، ويغطي الرجل بقماش مضفور. وسخ القدم مغطى، والإبهامان عاريان ويصل القماش إلى الكعب.

ــ لا حاجة لأن نسألكم من أين أنتم قادمون. فالوشم ينبئنا بأنكم هاربون من السجن الفرنسي.

وقد أثارني هذا إثارة كبيرة. كيف تسنى لهم أن يعرفوا أننا محكومون بجرائم خطرة وهاربون من سجن، يعرفون عن طريق الكتب أو المقالات، كل ما فيه من عنف وقسوة. وهؤلاء الناس المتواضعون يجدون في إنقاذنا ومساعدتنا أمراً طبيعياً.

إن إكساء الغني أحداً، أو إطعام ابن السبيل الجائع حين لاينقص هذا شيئاً من البيت عن الأسرة، إن هذا ليحمل ابهات الخير كله. ولما اقتطاع نصف رغيف من خبز الذرة، أو نصف فطيرة في وقت لايكاد الزاد يكفي صاحبه، أو لايكفيه مع ذويه، واقتسام الوجبة المقترة التي هي أدنى من الراتب الغذائي مع رجل غريب، زد على ذلك أنه رجل هارب من العدالة، فهذا أمر رائع.

كان الناس في هذا الصباح نساء ورجالاً واجمين ويبدو عليهم القلق، فماذا يجري؟ تيزاي وأنيتا على مقربة مني وكنت قد استطعت حلاقة لحيتي بعد خمسة عشر يوماً من إرسالها. وها نحن وسط هؤلاء القوم منذ ثمانية أيام وهم يحملون قلوبهم بأيديهم. حلقت لحيتي مجازفاً بعد أن تشكلت بشرة رقيقة على قروحي، وبسبب لحيتي لم يكن عند النساء إلا فكرة غامضة عن عمري وقلن لي في سذاجة بأنهن مدهوشات بأن يرينني شاباً، ومع ذلك عمري خمس وثلاثون سنة على حين لايبدو علي أكثر من ثمان وعشرين أو ثلاثين.

نعم كل هؤلاء النساء والرجال المضيافين قلقون من أجلنا. هذا ما أشعر به.

ـ ماذا يمكن أن يحصل تكلمي يا تيبزاي. ماذا يجري؟

ـ نتوقع قدوم السلطات من غيريا القرية المجاورة لإيرابا. لايوجد هنا رئيس مدني (مفوض) ولاندري كيف علمت الشرطة بوجودكم؟ وسوف يأتون.

أقبلت نحوي فتاة سوداء طويلة وجميلة وفي صحتها في عاري الجذع ترتدي بنطالاً أبيض مطوياً طيات إلى ركبتيه. جسمه حسن التناسق كأجسام مصارعي اليونان القدامى. نيجريتا (أي الزنجية) وهو اسم الدلال المستعمل في نداء الملونات في فنزويلا، حيث لاتمييز عنصري عندهم، ولاتفرقة دينية. قالت لي:

ـ سنيور أنريكو، (أي يا سيد هنري) إن الشرطة قادمة ولا أدري أشراً يريدون بكم أم خيراً. هل ترغب في الاختفاء لفترة من الزمن في الجبل؟ يستطيع أخي أن يقودك إلى بيت صغير حيث لايستطيع أحد العثور عليك والأمر يبقى سراً بيني وبين تيبزاي وبيننا، وسوف توافيك كل يوم بالطعام وتزودك بالأخبار.

كنت في غاية التأثر حتى أنني أردت تقبيل يد هذه الفتاة النبيلة ولكنها سحبت يدها، وبلطف وصفاء سريرة تركتني أقبل وجنتيها.

أقبل فرسان تعدو بهم الخيل وكلهم يحملون مناجل خاصة بقطع قصب السكر، تتدلى على أيسارهم كالسيوف ويتمنطقون بحزام صف فيه الرصاص صفاً وتتعلق على أوراكهم مسدسات كبيرة في أغمادها. ترجلوا ثم تقدم نحونا رجل منغولي السحنة أخوص[2] نحاسي البشرة، طويل ونحيل يبلغ من العمر قرابة الأربعين عاماً ويغطي رأسه بقبعة من قش الرز واسعة. قال:

ـ صباح الخير. أنا الرئيس المدني مدير الشرطة.

ـ صباح الخير ياسيدي.

ـ لم لم تنذر بأنكم خمسة من الهاربين من كايين، ولقد قيل لي إنكم هنا منذ ثمانية أيام. أجب.

ـ كنا ننتظر أن يبرؤوا من حروقهم، وأن يصبحوا قادرين على السير.

ـ جئنا نبحث عنهم لنأخذهم إلى غيريا وستأتي بعد قليل شاحنة لنقلهم.

ـ هل لك في قهوة؟

ـ أجل وشكراً.

جلسنا جميعاً في حلقة نحتسي القهوة، وكنت أنظر إلى مدير الشرطة ورجاله، ولايبدو عليهم الشر، ولوحوا إلى أن أطيع أوامر عليا.

ـ هل أنتم هاربون من جزيرة الشيطان؟

ـ لا نحن آتون من جورج تاون من غويان الانجليزية.

---

(1) الهجين من كان من أبوين ليسا من جنس واحد.

(2) الأخوص غائر العينين.

ـ لم غادرتموها؟

ـ كسب العيش هناك صعب. فقال مبتسماً:

ـ وهل تعتقدون أنكم ستكونون هنا أفضل مما كنتم عليه مع الانجليز؟

ـ نعم لأننا لاتيليون مثلكم.

تقدمت منا جماعة قوامها سبعة أو ثمانية رجال وعلى رأسهم رجل في الخمسين من عمره أشيب الشعر يزيد طوله على مئة وخمسة وسبعين سنتمتراً. لون جلده بلون الشوكولا الصافي. وعيناه الواسعتان السوداوان تنمان عن ذكاء لماح وشكيمة قوية نادرين. بيده اليمنى على مقبض منجله المتدلي على طول فخذه.

ـ أيها المدير ماذا أنت فاعل بهؤلاء الرجال؟

ـ سأقودهم إلى سجن غيريا.

ـ لم لاتدعهم يعيشون معنا بين أسرنا. كل واحد منا يأخذ واحداً.

ـ هذا غير ممكن إنه أمر من الحاكم.

ـ ولكنهم لم يرتكبوا إثماً على الأرض الفنزويلية.

ـ أعرف ذلك، ورغم هذا كله، فهم رجال خطرون، فكونهم محكومين بسجن المنفى الفرنسي فهذا يعني أنهم ارتكبوا جرائم خطرة. زد على ذلك أنهم هاربون وليس معهم بطاقات شخصية. وسوف تطلبهم شرطة بلادهم بالتأكيد حينما يعلمون بوجودهم في فنزويلا.

ـ نريد الاحتفاظ بهم معنا.

ـ هذا مستحيل فالأمر صادر عن الحاكم.

ـ كل شيء ممكن وماذا يعرف الحاكم عن رجال بؤساء؟ فالرجل لايضيع. فمهما ارتكب في فترة من حياته، فلابد من فرصة تسنح لإرجاعه إلى المجتمع ويكون رجلاً صالحاً ونافعاً، ما رأي الآخرين؟

فرد الجميع بصوت واحد رجالاً ونساءً

ـ نعم دعوهم لنا وسوف نساعدهم على ابتناء حياة جديدة. ففي مدة ثمانية أيام عرفناهم على حقيقتهم. فهم بالتأكيد رجال طيبون.

قال المدير:

هناك أناس أكثر حضارة منا وضعوهم في غياهب السجن ليمنعوا أذاهم.

فسألته: ماذا تعني الحضارة أيها المدير؟ هل تعتقد لأننا نملك مصاعد كهربائية وطيارات وقطاراً تحت الأرض، هل في هذا برهان على أن الفرنسيين هم أكثر حضارة من أناس استقبلونا وبذلوا لنا العناية؟ وفي رأيي المتواضع أن الحضارة الإنسانية هي بمقدار السمو الروحي وفهم كل مخلوق في هذا المجتمع الذي يعيش في سذاجة في هذه الطبيعة ولو لم يستكمل ـ وهذه حقيقة ـ أسباب الحضارة الصناعية وحسناتها. فإذا لم تتوفر لهم منجزات التقدم فلم يحرموا من عاطفة محبة الله المسيحية التي هي أسمى من كل ادعاءات

الحضارات في العالم فأنا أفضل ألبياً في هذه الضيعة على المجاز في الآداب من السوربون في باريس الذي تقمص يوماً ما روح المدعي العام وحكم علي. فالأول هو دوماً إنسان، والآخر نسي أنه إنسان.

ـ أنا أفهمك، ولكني لست مع ذلك سوى أداة. هاهي الشاحنة آتية وأرجوكم ساعدوني على أن تجري الأمور بغير حوادث.

وأخذت كل فئة من النساء تقبل الرجل الذي أولته عنايتها. بكت نيزاي وتينا وتيجريتا بدموع حارة وهن يقبلنني. وصافحنا كل رجل معبراً بذلك عن شديد ألمه لرؤيتنا ذاهبين إلى السجن.

إلى اللقاء يا أهل إيرابا يا ذوي الأصل النبيل الذين تجرأتم على التصدي لسلطات بلدكم ولومهم من أجل الدفاع عن شياطين مساكين، كانوا بالنسبة إليكم حتى الأمس نكرات. إن الخبز الذي أكلته عندكم، هذا الخبز الذي قسرتم أنفسكم على انتزاعه من أفواهكم لتقدموه لنا ، هذا الخبز الذي هو رمز للأخوة الانسانية ، كان بالنسبة إلي المثل الأسمى من العصور الغابرة : لن تقتل أبداً ، وسوف تفعل الخير مع من يتألمون حتى ولو كلفك هذا شيئاً من الحرمان. وساعد دوماً من هو أتعس منك.

وإذا كتبت لي الحرية يوماً فسوف أساعد الآخرين كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً كما علمني هؤلاء الرجال الأوائل الذين لاقيتهم في فنزويلا وسوف الاقي آخرين فيما بعد.

سجن إلدورادو

وصلنا بعد ساعتين إلى قرية كبيرة على شاطىء البحر وهي تحاول أن تأخذ مظهر المدينة إنها غويريا.

الرئيس المدني (وهو نوع من المديرين عندنا) قدمنا بنفسه إلى المقدم في شرطة البلد. في هذه الفوضية عوملنا معاملة بين الحسنة والسيئة، وخضعنا لاستجواب واستعلام، وقليل العقل لايريد أن يصدق بأننا آتون من غويانا الانجليزية حيث كنا أحراراً. وفوق هذا كله طلب أن نفسر له سبب وصولنا إلى فنزويلا في هذه الحالة من الإملاق[1] والإعياء بعد رحلة قصيرة جداً من جورج تاون إلى خليج باريا. يقول بأننا نسخر منه بسرد حكاية

(١) الفقر.

الإعصار هذه: تحللتان ضخمتان قد بادتا مع أحماقها في هذا الإعصار الشديد، ومركب عمل بالبوكسيت قد غرق مع طاقمه، وأنتم بهذا القارب الذي لايتجاوز طوله خمسة أمتار وهو مكشوف في هذا الجو المتقلب ثم كنتم من الناجين؟

من يصدق هذه الحكاية؟ حتى ولا الولد المتسول يمكن أن يصدقكم، إن أنتم إلا تكذبون ولابد من وجود شيء مريب فيما تقصون.

ـ ما عليكم إلا الاستعلام من جورج تاون.

ـ لا أريد أن يلهو الانجليز بالتحقيق.

إن هذا السكرتير المحقق، الأبله والعنيد، المتشكك والدعي، لا أدري أي تقرير رفع ولا الجهة التي رفعه إليها. وعلى كل حال أيقظونا في الساعة الخامسة صباحاً، ووجهونا مكبلين نحو مصير مجهول.

مررنا غويريا في خليج باريا، وهو كما ذكرت يواجه ترينيداد. ويشهد من دخول نهر عظيم عظمة الأمازون وهو نهر أورينوك. كنا خمسة مكبلين ومعنا عشرة من الشرطة في شاحنة تهوي بنا نحو سيوداد بوليفار عاصمة دولة بوليفار. والسفرة على طريق ترابية أتعبتنا كثيراً. أشراطاً وسجناء كنا نرتج ونتقلب مثل أكياس الجوز على أرض الشاحنة التي تهتز في كل لحظة أسوأ مما لو كنا نركب زلاقة. ودامت الرحلة خمسة أيام ننام كل ليلة في الشاحنة وفي الصباح نستأنف السير في سباق جنوني، نحو قدر غير معلوم.

على بعد أكثر من ألف كيلو متر من البحر، وفي غابة عذراء تقطعها طريق ترابية تبدأ من سيوداد بوليفار إلى إلدورادو، أخيراً انتهت هذه الرحلة المضنية.

كنا، جنوداً وسجناء، في حالة يرثى لها حينما وصلنا قرية إلدورادو. ولكن ما إلدورادو؟ كانت أولاً أمل الأفاقين الإسبان الذين رأوا الهنود الآتين من هذه المنطقة يحملون الذهب فاعتقدوا جازمين بأنه يوجد جبل من ذهب، أو على الأقل نصفه ذهب ونصفه تراب.

وجملة القول إن إلدورادو قبل كل شيء قرية على شاطىء وحل يكثر فيه بعض أنواع الحيوانات. والأسماك المفترسة التي تفترس إنساناً أو دابة في بضع دقائق، وفيه أسماك كهربائية كالرقاد، والتي تدور حول فريستها إنساناً كان أم رقاداً وتكهربه في سرعة وبالتالي تمتص ضحيتها بتغذيتها.

وفي وسط النهر جزيرة، وعلى هذه الجزيرة معسكر حقيقي، هو السجن الفنزويلي. هذه المستعمرة للاشغال الشاقة أقسى ما رأيت في حياتي وأشد وحشية، وأكثرها بعداً عن الإنسانية، بسبب جلد السجناء. إنه مربع ضلعه مئة وخمسون متراً في الهواء الطلق محاط بأسلاك شائكة. ما يقرب من أربع مئة رجل ينامون خارجاً معرضين إلى طقس قلب إذ لايوجد سوى بضع ألواح من التوتياء للاستظلال بها حول المعسكر.

دون انتظار كلمة تفسير منا وبدون تحقق من هذا القرار أدخلونا في سجن إلدورادو في

الساعة الثالثة من بعد الظهر لدى وصولنا ونحن على وشك الهلاك من التعب الذي لاقيناه في هذه الرحلة المضنية، مصفدين في هذه الشاحنة.

وفي الساعة الثالثة والنصف ودون أن يسجلوا أسماءنا نادونا وأعطوا اثنين منا مجرفة ولكل من الثلاثة الآخرين رفشاً. أحاط بنا خمسة جنود، بأيديهم البنادق والسياط، ورئيسهم يصدر الأوامر. أجبرونا تحت طائلة الجلد، على التوجه نحو مكان الشغل، وفهمنا على الفور بأن هذا نوع من استعراض العضلات، أرادته إدارة المعسكر التأديبي. ومن الخطر الفادح أن تعصي في الوقت الحاضر على الأقل. وسترى فيما بعد. وصلنا إلى المكان الذي يشتغل فيه السجناء. وقد خصصوا لنا جانباً من الطريق لفتحه، وكانوا يشقونه في وسط الغابة العذراء فأطعنا ولم نتفوه بكلمة، كل واحد حسب قدرته دون أن نرفع رأساً، ولم يمنعنا شيء من سماع الشتائم والضرب ينزل بالسجناء دون توقف. ولكن واحداً منا لم ينل ضربة سوط. هذا المشهد من الشغل لدى وصولنا كان يقصد منه أن نرى كيف يعامل السجناء.

في يوم السبت وبعد شغل جاهد سال معه عرقنا وغطانا الغبار أدخلونا إلى معسكر السجناء دون إجراءات قانونية. قال رئيسهم:

الخمسة القادمون من كايين من هنا. إنه خلاصي يبلغ طوله مئة وتسعين سنتمتراً، وبيده سوط. هذا الدنس الشرس مسؤول عن النظام داخل المعسكر فقط. علونا على المكان الذي نضع فيه أسرّتنا الأرجوحية قرب باب مدخل المعسكر في الهواء الطلق. إنما هنا توجد ألواح من القصدير، فعلى الأقل سنكون في حمى من القطر والشمس. غالبية السجناء من كولومبيا، والباقون من فنزويلا.

ليس هناك معسكر تأديبي يمكن مقارنته بفظاعة هذه المستعمرة للأشغال. إن الحمار ليموت من سوء معاملة هؤلاء الرجال، ومع ذلك كلهم يتمتعون بصحة جيدة لأن الغذاء متوفر جداً وشهي. شكلنا مجلساً حربياً صغيراً وقررنا أنه إذا امتدت إلينا يد جندي بالضرب، فخير ما نفعله الإضراب عن العمل وأن نستلقي على الأرض، ومهما تكن المعاملة فلن ننهض. وسوف يأتي رقيب يمكن أن نسأله: كيف ولماذا نحن في سجن الأشغال الشاقة دون أن نقترف شيئاً؟

فيتو والآخر المتحرران سيطلبان إعادتهما إلى فرنسا، ثم قررنا استدعاء الكابو يريد أي الرئيس وعلي أن أكلمه، ويلقب بنيجرو-بلانكو (الأسود-الأبيض). وعلى فيتو أن يلعب لإحضاره. وصل هذا الجلاد والسوط لايفارقه فأحطنا به نحن الخمسة قال: ماذا تريدون مني؟ فأخذت أنا الكلام فقلت: نريد أن نقول لك شيئاً واحداً: نحن لم نقترف أية غلطة تخالف النظام لذلك ليس لديك سبب لضرب أحد منا. ولما لاحظنا أنك تضرب أيا كان وبدون داع في بعض الأحيان ناديناك لنقول لك إذا ضربت في يوم من الأيام واحداً منا قتلت هالك. هل فهمت؟

ـ نعم.

ـ وهناك شيء آخر. فقال بصوت أخرس.

ـ ما هو؟

ـ إذا أردت أن تكرر ما قلته لك فليكن على مسمع من أحد الضباط لا على مسمع من جندي.

قال: سمعاً. وانصرف. حدث هذا المشهد يوم الأحد حيث لايذهب السجناء إلى الشغل. وصل عسكري ذو شارة فقال:

ـ ما اسمك؟

ـ بابيون.

ـ أأنت رئيس القادمين من كايين؟

ـ نحن خمسة وكلهم رؤساء.

ـ ولم تصدرت الكلام أمام الرئيس؟

ـ لأني أحسن اللغة الاسبانية أكثر منهم.

إن محدثي من رتبة نقيب في الحرس الوطني، وقد قال إنه ليس مقدماً فهناك ضابطان أرفع منه شأناً ولكنهما غائبان. ومنذ وصولنا هو الذي يصدر الأوامر. وسوف يحضر الضابطان يوم الثلاثاء.

ـ أنت هددت باسمك واسم زملائك الرئيس بالقتل إذا ضرب أحدكم فهل هذا صحيح؟

ـ نعم. والتهديد جدي جداً والآن أقول بأننا لم نعط أي داع لعقوبة جسدية. وأنت تعلم أيها النقيب بأن المحاكمة ما أدانتنا، ولم نرتكب جرماً في فنزويلا.

ـ لا أعلم لقد وصلتم إلى المعسكر بدون أوراق، إلا إشعاراً من المدير الموجود في القرية يقول: شغلوا هؤلاء الرجال حال وصولهم.

ـ حسناً أيها النقيب كن منصفاً وعادلاً بصفتك عسكرياً، أوعز إلى جنودك بأن يعاملونا معاملة تختلف عن السجناء الآخرين بانتظار عودة رؤسائك. وأؤكد لك بأننا لسنا محكومين ولايمكن أن نكون كذلك ما دمنا لم نرتكب ذنباً في فنزويلا.

ـ حسناً سأعطي الأوامر بهذا المعنى وآمل أن لاتكونوا قد خدعتموني.

تسنى لي أن أدرس السجناء ما بعد ظهر أول يوم أحد. وأول ما أدهشني أن الجميع يتمتعون جسدياً بصحة جيدة. ثانياً: إن الجلد مادة يومية تعودوا على احتمالها إلى درجة أنه في يوم الراحة ـ الأحد ـ حيث يمكن تفاديها في يسر إنهم يحتملونها وكأنهم يجدون متعة سادية في اللعب بالنار. ولايكفون عن فعل شيء محظور كاللعب بقمع الخياطة[1] أو تقبيل فتى، أو سرقة زميل أو التلفظ بكلام بذيء أمام النساء اللاتي يأتين من القرية حاملات الحلوى والسجائر للسجناء، ويجرين معهم المقايضة: سلة مضفورة أو شيء منحوت مقابل

(١) الكشتبان.

مال أو علب سجائر. وهناك سجناء يجدون الوسيلة لأخذ ما تقدمه النساء من خلال الأسلاك الشائكة والركض بها دون أن يعطوهن ما اتفقوا عليه ثم يختبئون في زحمة الآخرين – وينتج عن ذلك عقوبات جسدية تطبق بحقهم لأي سبب والسوط يشبع جلودهم. والرعب يسيطر على هذا المعسكر دون مردود يعود على المجتمع أو على النظام، ولايصلح من حال هؤلاء التعساء شيئاً. ولكن السجن الانفرادي في صمته أشد رهبة من هذا. الرهبة هنا مؤقتة والكلام ممكن ليلاً وخارج ساعات العمل ويوم الأحد. وكذلك فإن الغذاء هنا غني ووفير يساعد الرجل على إنجاز عقوبته التي لاتتجاوز في أية حال خمس سنوات.

أمضينا يوم الأحد في التدخين وشرب القهوة والتحدث فيما بيننا. اقترب منا بعض الكولوميين، فأبعدناهم بلطف ولكن بحزم إذ ينبغي أن نعد أنفسنا سجناء منزوين ولا سخروا منا. وفي اليوم التالي، الاثنين، وفي الساعة السادسة أفطرنا فطوراً وفيراً ثم سلكنا طريقنا نحو العمل مع الآخرين.

وطريقة الاندماج في العمل على النحو التالي: يقف صفان من الرجال وجهاً لوجه، خمسون سجيناً يقابلهم خمسون جندياً. وبين الصفين خمسون أداة من المعاول والمجارف والفؤوس.. الصفان من الرجال يتلاحظان. وصف السجناء في هياج[1] والجنود متوترو الأعصاب وساديون. يصيح العريف: فلان إلى المعول، ويسرع التعس، وفي اللحظة التي يلتقط فيها المعول ليلقي به على كتفه ويذهب إلى الشغل، يصيح العريف: الرقم المقابل للجندي الأول، الثاني.. الخ والجندي يدع[2] السجين من خلفه دعاً ويجلده بالسوط. هذا المشهد الفظيع يتكرر كل يوم مرتين. وفي فناء المعسكر في مكان العمل يستطيع المرء أن يتصور أن هؤلاء الخراس هاربون يقودون حميرهم ويقرعونهم وهم يجرون خلفهم. تجمدنا في أماكننا من خوف منهم ونحن ننتظر دورنا. ولكن لحسن الحظ كان الأمر مغايراً.

– أيها الفرنسيون تعالوا من هنا، للشبان منكم هذه المعاول، وللكهلين المجارف.

توجهنا نحو مكان الشغل بدون جري، ولكن بخطوات صيان، يحرسنا أربعة خفراء وساعد. كان هذا النهار أكثر طولاً وأدعى إلى اليأس من سابقه. رجال منهوكون ومستهدفون يصيحون كالمجانين ويتضرعون راكعين أن يتوقفوا عن ضربهم. وكان عليهم أن يحرزوا كومة كبيرة من الحطب سيء الاحتراق، من أصل العديد من هذه الأكداس. وآخرون عليهم تنظيف المخلفات، ويمانون أو مئة حزمة حطب كانت على وشك التلف. وقد تبقى في وسط المعسكر فقط مقدار كبير من الجمر. وكان كل جندي يجلد سجينه ليجمع النفايات ويحملها وهو راكض إلى وسط المعسكر. وهذا السلق الشيطاني عند البعض يدل على أزمة جنونية، ويلتقطون أحياناً، وهم في عجلة من أمرهم، أغصاناً

(١) في شديد.
(٢) يدع: يدفع من الخلف.

لاتزال محترقة فتحترق أيديهم المجلودة بوحشية، ويمشون حفاة على الجمر أو على غصن في حالة احتراق. ويدوم هذا المشهد الخيالي ثلاث ساعات.

لم يدع أحد منا لتنظيف المعسكر المستصلح حديثاً وهذا من حسن الحظ. لأننا كنا قررنا ونحن نتكلم بعبارات مقتضبة، وبدون أن نرفع رؤوسنا، وأيدينا تعمل، قررنا الوثوب على الجنود الخمسة وعلى رئيسهم معهم وأن نجردهم من سلاحهم وأن نطلق النار على هؤلاء الوحوش.

اليوم هو يوم الثلاثاء. ولم نخرج إلى العمل، واستدعينا إلى مكتب القدمين في الحرس الوطني. وقد أثار دهشتهما، وجودنا في إلدورادو بدون وثائق تثبت بأن محكمة ما قد أرسلتنا إلى هنا. وعلى كل حال فقد وعدنا بطلب تفسير من مدير العقوبات ولم يطل ذلك. فهذان المقدمان قائدا حراسة المعسكر التأديبي قاسيان جداً ويمكن القول إنهما يبالغان في الردع، ولكنهما مستقيمان، لأنهما طلبا حضور مدير المستعمرة شخصياً لتقديم الإيضاحات. وها هوذا أمامنا ومعه صهره ورئيسان، وضابطان من الحرس الوطني.

– أيها الفرنسيون؟ أنا مدير مستعمرة إلدورادو، وترغبون في التحدث معي فماذا ترومون؟

– أولاً. أية محكمة حكمت علينا بعقوبة الأشغال الشاقة في هذه المستعمرة دون سماع دفاعنا؟ ما مدة العقوبة؟ ولأي ذنب حكمت؟ لقد وصلنا بحراً إلى إيرابا ولم نقترف ذنباً، إذن فماذا نفعل هنا؟ وبماذا تبرر إجبارنا على الشغل هنا؟

– نحن في حالة حرب وعلينا إذن أن نعرف بالضبط من أنتم.

– حسن جداً. ولكن هذا لايسوغ إدخالنا إلى السجن.

– أنتم هاربون من العدالة الفرنسية. فلذا يجب أن نعرف إن كنتم مطلوبين من قبلها.

– أقبل بهذا ولا زلت ألح: لماذا نعامل كما لو كنا نخضع لعقوبة ما.

– في الوقت الحاضر أنتم هنا بموجب قانون الإيداع على ذمة التحقيق.

وكان لهذا النقاش أن يطول كثيراً لولا أن أحد الضابطين قطع كل شيء بإبداء رأيه:

– أيها المدير؛ بدافع من الشرف لانستطيع أن نعامل هؤلاء الرجال معاملة السجناء الآخرين فأنا أقترح أن نجد لهم عملاً غير الشغل في تعبيد الطرق، ريثما يطلع كاراكاس على هذه الحالة الخاصة.

– إنهم رجال خطرون، فقد هددوا رئيس الحرس بالقتل لو ضربهم. أليس هذا صحيحاً؟

– لم نهدده فحسب يا سيدي المدير، بل لو أن أي واحد تسول بضربنا لقتلناه.

– وإذا كان جندياً؟

– الشيء نفسه. لم نفعل شيئاً لكي نتحمل نظاماً كهذا، وربما كانت شرائعنا

ونظمنا التأديبية أقطع من قوانينكم وأقل إنسانية. أما أن يضرب أحدنا كالدابة، فهذا ما لاتقبل به أبداً.

التفت المدير نحو الضابطين الفاتلة الظافر وقال:

– الا ترون أن هؤلاء الرجال خطرون جداً؟

تردد الضابط الأكبر سناً مقدار ثانيتين، ووسط دهشة الجميع انتهى إلى النتيجة التالية:

– هؤلاء الهاربون الفرنسيون على حق، فليس في فنزويلا ما يسوّغ إجبارهم على احتمال عقوبة ما أو الرضوخ لقوانين هذه المستعمرة، فأنا أعطيهم الحق. وكذلك هناك شيئان أيها المدير، إما أن تجد لهم عملاً منعزلاً عن الآخرين أو أن لاتجبرهم إلى العمل إطلاقاً. ولكن وجودهم مع أولئك الناس جميعاً سوف يعرضهم للضرب يوماً ما من قبل جندي.

– سوف ننظر في هذا وندعهم في الوقت الحاضر في المعسكر وسأخبرك غداً بما ينبغي عمله.

وانسحب المدير مصحوباً بصهره. فشكرت الضابطين فقدما لنا السجائر، وسمحا لنا بقراءة تقرير المساء الذي يوصي الضابط والجنود بعدم ضربنا مهما كانت الأسباب، مضى على وجودنا هنا ثمانية أيام ولا نشتغل.

أمس الأحد حدث شيء رهيب. لقد أجرى الكولومبيون سحباً بالاقتراع على من يقتل الرئيس النيجرو-بلانكو (أي الأسود-الأبيض)، والخاسر كان رجلاً في الثلاثين من عمره، وجهزوه بملعقة حديدية شحذ مقبضها على الإسمنت حتى غدت مدببة كحربة الرمح وحادة على الطرفين. وقبل الرجل بشجاعة تنفيذ الاتفاق الذي تم مع أصدقائه فطعن النيجرو-بلانكو ثلاث طعنات قرب قلبه فنقل إلى المستشفى في حالة إسعاف مستعجل. أما القاتل فقد ربط إلى عمود في وسط المعسكر، وانطلق الجنود كالمجانين يبحثون عن أسلحة أخرى، وانهالت الضربات من كل صوب، وفي احتدام غضبهم، جلدني أحدهم سوطاً في فخذي، فما كان من كوربيير رفيقي إلا أن أمسك بمقعد ورفعه ثم هوى به على رأس الجندي، فطعنه جندي آخر بالحربة في ذراعه. وأنا ركلت الجندي ركلة في بطنه فطرحته على الأرض. وأمسكت البندقية التي وقعت على الأرض عندما ارتفع صوت قوي آمر وصل إلى مسمع الجميع:

– توقفوا جميعاً، ولاتمسوا الفرنسيين. وأنت يا فرنسي دع البندقية.

إنه النقيب فلورنس الذي استقبلنا في اليوم الأول، هو الذي زمجر بهذه الأوامر.

جاء تدخله في اللحظة التي كنت أنوي فيها إطلاق النار في المجموعة، ولولاه لقتلت واحداً أو اثنين، ولكان من المؤكد أن نودع الحياة التي أوشكنا أن نضيعها بغباوة

على طرف فنزويلا على طرف العالم في هذا السجن حيث لانستطيع أن نفعل شيئاً. بفضل تدخله الفعّال تراجع الجنود عن قتلنا، وذهبوا إلى موضع آخر يشبعون نهمهم في التذبيح. وحينئذ شهدنا أحط وأنزل ما يمكن تصوره: الرجل المشدود إلى العمود وسط المعسكر يعذب بالجلد دون توقف ثلاثة رجال جنديان ورئيسهما. وقد دام هذا من الساعة الخامسة بعد الظهر وحتى السادسة صباحاً عند طلوع النهار. وهذا زمن طويل لقتل إنسان. الوقفات القصيرة جداً في هذا التعذيب كان لسؤاله عن شركائه الذين أعطوه الملعقة والذين شحذوها والرجل لايبوح رغم أنهم وعدوه بوقف التعذيب إن هو تكلم، حتى أنه فقد صوابه مراراً تحت وطأة التعذيب وكانوا ينعشونه بإلقاء دلاء الماء عليه. وبلغ السيل الزبى عندما رأوا أن جلده لم يعد يتأثر بالضرب وحين لم تبق لعضلاته تقلصات توقف الجلادون. قال الضابط: هل مات؟ قالوا لاندري. قال: فكوه وضعوه على أطرافه الأربعة. فأنزله أربعة من الرجال وأثناء ذلك سدد له أحد الجلادين جلدة من سوطه في الخط الفاصل بين أليتيه، ورأس السوط قد ذهب حتماً إلى مكان أبعد. وضربة المعلم هذه انتزعت من المسكين صرخة ألم حادة. قال الضابط: تابعوا إنه لم يمت، وظل الضرب ينهال عليه إلى رابعة النهار. وهذه العملية الجديرة بالعصور الوسطى والتي يمكن أن تقتل جواداً لم تتوصل بعد إلى إزهاق روح هذا الرجل، وبعد أن تركوه ساعة من غير ضرب، وبعد أن رووا جسده بعدة دلاء من الماء استطاع النهوض بمساعدة الجنود، جاء الممرض وبيده كأس. فقال الضابط للرجل بلهجة الأمر. تناول هذا المسهل فلعلك تتحسن. فتردد قليلاً ثم شرب الدواء جرعة واحدة، وبينما كان في حالة النزع خرجت من فمه عبارة واحدة يخاطب بها نفسه: «أيها الأحمق لقد دسوا لك سمّاً». ولاجدوى من القول إن أحداً من السجناء لم يتحرك، حتى نحن لم نتزحزح قيد أنملة. وكان الجميع دون استثناء في حالة رعب. وهذه هي المرة الثانية في حياتي أخشى فيها الموت. وفي خلال دقائق كانت بندقية أحد الجنود تغريني بخطفها وهو غير بعيد عني. والذي جعلني أتمالك وأتماسك قليلاً هي فكرة إمكانية قتلي قبل أن يتسع لي الوقت للاستيلاء على البندقية والضرب بها ضرباً صائباً.

وبعد مضي شهر عاد النيجرو-بلانكو من جديد وعاد معه الإرهاب أكثر من ذي قبل. ومع ذلك كان قدره في الموت في إلدورادو مكتوباً. ففي إحدى الليالي صوب أحد الحراس البندقية نحوه وقال له: اركع، فركع

– صل صلاتك فإنك ميت.

وتركه يصلي صلاة قصيرة ثم جندله بثلاث رصاصات من بندقيته. ويقول السجناء بأن الجندي قد قتله لأن قلبه قد امتلأ شفقة عندما رأى هذا الجلاد وهو يضرب كالوحش هؤلاء السجناء المساكين، وآخرون يقولون بأن النيجرو-بلانكو، قد وشى بهذا الجندي إلى رؤسائه مدعياً بأنه يعرفه في كراكاس وأنه قبل الخدمة العسكرية كان لصاً.

كل هذه الحوادث حالت دون اتخاذ قرار بشأننا، ومن ناحية أخرى ظل السجناء الآخرون لايخرجون إلى العمل مدة أسبوعين، وكان أحد أطباء القرية يعتني بذراع باريزو الذي أصيب بطعنة حربة. نحن حالياً مبجلون. تعب شابار بصفة طباخ إلى القرية عند المدير. غيتو وباريزو أطلق سراحهما، إذ جاءت التعليمات من فرنسا بشأننا جميعاً، وقد أخرجا بعد أن تبين أنهما أمضيا مدة عقوبتهما. وأنا كنت أعطيت اسماً إيطالياً، فجاء اسمي الحقيقي مع البصمات، وقرار الحكم المؤبد ، وورد أن ديبلانك محكوم بعشرين سنة وكذلك شابار. قدم لنا المدير الخبر الذي تلقاه من فرنسا فخوراً فقال:

ومع ذلك لم تفعلوا شيئاً يسيء إلى فنزويلا ولسوف نحتفظ بكم بعض الوقت ثم نطلق سراحكم ومن أجل ذلك يجب أن تشتغلوا جيداً وتسلكوا سلوكاً حسناً فأنتم في فترة اختبار وملاحظة.

وفي حديث كان لي مع الضابطين سمعت منهما شكوى تتعلق بصعوبة الحصول على خضار طازجة من القرية، وللمستعمرة حقل زراعي وليس فيه خضار، إنما إنتاجه من الرز والشعير والفاصولياء السوداء وحسب. فعرضت عليهما إعداد حديقة إذا قدما لي بذوراً، فقبلا. والفائدة الأولى أنني وديبلانك نخرج من المعسكر، ثم انضم إلينا سجينان موقوفان في سيوداد بوليفار أحدهما باريسي –توتو– والآخر كورسيكي وقد أنشأوا لنا بيتين من الخشب وأوراق النخيل. أحدهما لي ولديبلانك والآخر لرفيقينا. أنا وتوتو بنينا مناضد عالية قوائمها موضوعة في علب مليئة بالبترول حتى لاتأكل النمال الحبوب، وسرعان ما حصلنا على غرسات للبندورة والباذنجان والشمّام والفاصولياء الخضراء.

وبدأنا بنقل الغرسات على ألواح خشبية لأن النباتات أصبحت قوية وقادرة على مقاومة النمل وقد حفرنا حولها حفرة من نوع خاص لتكون مملوءة بالماء وكذلك لزراعة البندورة ولحفظها رطبة، ولمنع الطفيليات العديدة في هذه الأرض العذراء من الوصول إلى غراسنا.

قال توتو: ما هذا ؟ انظر إلى هذه الحصاة ما أشد لمعانها، اغسلها وناولني إياها إنها قطعة من الكريستال بحجم حبة الحمص المشوية – وبعد الغسل زاد لمعانها من الجهة التي انكسر فيها غلافها، لأنها محاطة بنوع من القشرة الرملية الصلبة.

– ألا تكون هذه ماسة؟

– صه يا توتو. فإن كانت ماسة فليس الآن أوان التبجح، أرى أنه قد يكون لنا حظ العثور على منجم ماس. خبيء هذه ولننتظر حتى المساء.

كنت في المساء أعطي دروساً في الرياضيات لعريف (هو اليوم عميد) كان يحضر نفسه لمسابقة ينقل بنتيجتها إلى صف الضباط، وهذا الرجل نبيل المحتد ومستقيم عند كل تجربة. (لقد برهن لي على ذلك خلال خمس وعشرين سنة من الصداقة). وهو اليوم العميد فرنسيسكو بولانيو أوتريرا. قلت له:

– فرنسيسكو! ما هذه؟ هل هي كريستال صخري؟

تفحصها بدقة وقال:

– لا إنها ماسة. لاتُرها لأحد. أين وجدتها؟

– تحت غرسات البندورة.

– هذا غريب ألا تكون قد جرفتها مع الماء من النهر؟ هل جرفت الدلو وأخذت الماء مع شيء من الرمل؟

– نعم إن هذا قد حصل.

– إذن هذا هو. قد أخرجت ماستك من ماء النهر، نهر ريو كاروني. ويمكنك أن تبحث، وخذ حذرك فقد تكون جلبت ماسات أخرى. وليس ممكناً إيجاد حجر كريم واحد. فحيثما وجد حجر واحد فثمة بالضرورة أحجار أخرى.

انصرف توتو إلى العمل ولم يشتغل في حياته إلى هذه الدرجة، حتى أن رفيقينا اللذين لم نخبرهما بشيء كانا يقولان:

– كفاك شغلاً يا توتو. لقد أضنيت نفسك بحمل دلاء الماء من النهر وعلاوة على ذلك فإنك تحمل معه الرمل.

– ذلك لأجعل الأرض أكثر خفة يا صديقي، فبخلط التراب بالرمل، تصبح أكثر ترشيحاً للماء.

ورغم مزاحنا جميعاً تابع توتو حمل الدلاء دون انقطاع.

وفي أحد الأيام، عند الظهيرة، جلس أمامنا في الظل، وبرزت من بين الرمل المهدور ماسة كبيرة بحجم حبتين من الحمص الشوي (القضامة) وقد انكسر غلافها ولا خفيت عن الأنظار، وأخطأ في التقاطها مستعجلاً. قال ديبلانك:

– أليست هذه ماسة؟ لقد قال لي بعض الجنود بأن في النهر ماساً وذهباً.

– لهذا أحمل كثيراً من الماء وترون أنني لست غبياً إلى هذه الدرجة.

هذا ما قاله توتو أخيراً راضياً عن تفسيره لشغله الكثير. وباختصار، في نهاية ستة أشهر آلت الحكاية إلى أن توتو غدا مالكاً لسبع قراريط من الماس. وأنا أملك اثني عشر، بالإضافة إلى ثلاثين من الحجارة الصغيرة.

وفي أحد الأيام وجدت ماسة ذات ست قراريط، صقلت في كراكاس فأعطت أربعة قراريط تقريباً. أحملها ليل نهار في أصبعي. ديبلانك وأنترناغليا هما أيضاً جمعا بعض الأحجار الكريمة. لازال عندي الأنبوب الذي كنت استعمله في السجن فوضعت ماساتي داخله. وهم صنعوا من أطراف قرون الثور نوعاً من الأنابيب تنفعهم في الاحتفاظ بهذه الكنوز الصغيرة.

لا أحد يعرف شيئاً سوى هذا الذي سيكون عميداً في المستقبل، العريف فرنسيسكو بولانيو. تبتت البندورة والخضار الأخرى. كان الضباط يدفعون لنا بدقة ثمن خضارنا التي كنا نحملها كل يوم إلى قاعة الطعام.

كنا أحراراً، نسبياً، نشتغل دون حراسة، وننام في منازلنا ولانذهب إلى المعسكر

أبداً. لقد صانوا كرامتنا وأحسنوا معاملتنا. وطبيعي أننا نلح على المدير كلما استطعنا، لكي يطلقوا سراحنا، وفي كل مرة كان يجيب: قريباً. حتى مضت ثمانية أشهر ولم يحصل شيء من هذا. وبدأت أتكلم وتوتو لايريد أن يعرف شيئاً. وكذلك الآخرون.

ولكني أقوس النهر استعرت خيطاً للصيد وشصاً. وهكذا بدأت بيع الأسماك وخصوصاً الكاريبي الشهير وهو من النوع المفترس الذي يصل وزنه إلى كلغ وأسنانه مصفوفة كأسنان سمك القرش، وهي رهيبة مثلها.

حدثت اليوم بلبلة. غاستون دوراتون، والمدعو تورطو (الملتوي) هرب حاملاً معه سبعين ألف بوليفار من صندوق المدير. هذا المحكوم بالأشغال له قصة طريفة:

كان في الاصلاحية وهو صغير، في جزيرة أوليرون، وكان يعمل حذّاء في المعمل، وفي أحد الأيام انقطع السير الجلدي الذي كان يمر فوق الركبة فصار وركه مشوهاً ولم يجد العناية الكافية والتحم وركه التحاماً خاطئاً. وظل بقية طفولته وجزءاً من شبابه، ملتوياً في وركه، وكان منظره وهو يمشي يحز في النفس. هذا الفتى النحيل المعوج الذي كان لايقوى على المشي إلا أن يجر ساقه التي كانت لاتطاوعه، أتي به إلى السجن في الخامسة والعشرين من عمره، وليس هناك ما يثير الاستغراب، فبعد تدريبات طويلة في الاصلاحية خرج منها لصاً. كل الناس كانوا يدعونه بالملتوي. ولا يكاد أحد يعرف اسمه الحقيقي غاستون دوراتون إنه ملتو وينادونه بالملتوي. وفي السجن رغم التوائه هرب حتى وصل إلى فنزويلا، كان هذا في عهد الدكتاتور غوميز وقبل من السجناء من نجا من زجره وباستثناءات نادرة، وبخاصة الدكتور بوغرات لأنه أنقذ كل سكان جزيرة اللؤلؤ، مارغريتا حيث كان وباء الحمى الصفراء منتشراً.

أوقف الملتوي من قبل شرطة غوميز الخاصة المسماة سالغرادا (أي المقدسة) ثم بعث به إلى السجن للشغل في الطرقات. كان السجناء الفرنسيون والفنزويليون، مقيدين بسلاسل وكرات حديدية، حفر عليها رسم زهرة زنبق طولون. فحين يحتج الرجال يقال لهم: هذه السلاسل والأصفاد والكرات إنما هي من بلدكم انظروا إلى زهرة الزنبق.

باختصار هرب الملتوي من المعسكر الذي يعمل فيه في أعمال الطرق، ثم قبض عليه بعد عدة أيام، وأعادوه إلى هذا النوع من المعسكر المتنقل، فبطحوه أرضاً على وجهه وهو عار وحكموا عليه بمئة جلدة.

ومن النادر جداً أن يقاوم رجل أكثر من ثمانين جلدة، ولكنه كان محظوظاً لأنه نحيل وقد أكبوه على وجهه، فالضربات لاتصيب كبده في هذه الحالة، لأن الكبد قد تنفجر من شدة الضرب. ومن المألوف أنهم بعد الضرب حيث تتمزق الأليتان يضعون ملحاً على الجرح ويتركون المجلود في الشمس ويغطون رأسه بورق نبات شحمي، والمعقول أن يموت من الضرب لا من ضربة الشمس. خرج الملتوي حياً من هذا التعذيب الذي ترجع أساليبه إلى العصور الوسطى وعندما نهض لأول مرة كانت المفاجأة. فلم يبق ملتوياً، فالضربات كسرت الالتحام الذي تم خطأ وأعادت الورك إلى مكانه الطبيعي

بالضبط. وأذهلت المعجزة السجناء والجنود على حد سواء، ولم يفهم أحد شيئاً. وفي هذا البلد يعتقدون بالأوهام. فقد ظنوا بأن الله هو الذي أراد أن يكافئه لأنه قاوم التعذيب.

ومنذ ذلك اليوم نزعوا عنه الحديد والكرة الحديدية. وصار محمياً. وأخذ يحمل موزعاً للماء على السجناء أثناء الشغل. ولقد تطور في سرعة وصار يأكل كثيراً، وطالت قامته، وأصبح جسمه متناسقاً كأجسام قدامى اليونان.

علمت فرنسا بأن السجناء يشتغلون في تعبيد الطرق في فنزويلا. ففكرت بأن هذه الطاقات يحسن استخدامها في غويان الفرنسية. فجاء المارشال فرانشه وسبري في بعثة إلى الدكتاتور ليطلب منه التكرم بتسليم هؤلاء الرجال، وهو سعيد بهذي الأيدي العاملة المجانية. وقبل غوميز بذلك. ووصل إلى ميناء بويرتو كابيلو، مركب لأخذهم.

حدث موقف مضحك إذ أن رجالاً من مجموعات عمل في الطرقات من أماكن أخرى لايعرفون حكاية الملتوي.

ـ مارسل كيف حالك؟

ـ من أنت؟

ـ الملتوي.

فأجاب الجميع من الحاضرين وهم يرون هذا الشهم الجميل المنتصب على ساقين مستقيمتين:

ـ أنت تمزح أم تسخر منا؟

والملتوي الذي كان فتياً ومزاحاً لم يكف عن مناداة من يعرفهم وهم لايصدقون أن الملتوي قد استقام. ولدى عودتنا إلى السجن، سمعت هذه القصة من فمه ومن أفواه السجناء في رويال.

ولما هرب من جديد في العام ١٩٤٣ اختفى في إلدورادو. وبما أنه عاش في فنزويلا بدون أن يقول حتى بأنه كان سجيناً فقد استخدموه طاهياً مكان شاپار الذي تحول إلى السنة.

كان في القرية عند المدير صندوق حديدي فيه أموال المستعمرة. وفي ذلك اليوم سرق ستين ألف بوليفار وهذا ما يساوي في ذلك الوقت عشرين ألف دولار. ومن هنا كانت تلك البلبلة في حديقتنا. المدير يريد إرجاعنا إلى المعسكر، والضابطان يرفضان ويدافعان عنا، وعن مؤونتهم من الخضار!..

وتوصلنا أخيراً إلى إقناع المدير بأن ليس لدينا أية معلومات ندلي بها إليه، وبأننا لو كنا نعلم شيئاً لذهبنا مع الملتوي. وبأن هدفنا نحن أن نتحرر في فنزويلا لا في غويان الانجليزية وهي المنطقة الوحيدة التي يمكنه أن يتوجه إليها.

وجد الملتوي ميتاً على بعد سبعين كيلو متراً في غابة قريبة جداً من الحدود الانجليزية وذلك لأن الأدلاء القذرين قد قتلوه. وأولى الروايات وأسهلها هي أن الهنود هم الذين قتلوه. وبعد فترة من الزمن أوقف رجل في سيوداد بوليفار كان يصرف أوراقاً

من فئة خمس مئة بوليفار وكانت جديدة جداً، والمصرف الذي كان قد أرسلها إلى مدير مستعمرة إلدورادو عنده الأرقام المسلسلة وأفاد بأنها من الأوراق المسروقة فاعترف الرجل، ووشى بالاثنين الآخرين لم يتم إلقاء القبض عليهما البتة. هذه هي حياة ونهاية صديقي العطيب فاستون دورانتون الملقب بالملتوي.

كلف بعض الضباط بعضاً من السجناء بالتنقيب عن الذهب والماس في ريو كاروني، وكان ذلك عقبة وخلافاً للأنظمة. وكانت النتائج إيجابية، بغير اكتشافات خيالية إنما كانت كافية لإغراء الباحثين وشحذ عزائمهم.

في عمق بستاني يشتغل رجلان طول النهار بالرفش ويحملان لبعة صينية مقلوبة، مقدمتها منحدرة نحو الأسفل وأطرافها عالية، يملآنها بالتراب ويغسلانه، وبما أن الماس أثقل من غيره فإنه يترسب في قاع اللبعة. مات أحدهما وقد كان يسرق معلمه. وهذه الفضيحة الصغيرة أدت إلى إيقاف هذا المنجم الخفي.

في المعسكر رجل موشوم الصدر، وقد وشم على رقبته أيضاً (الحلاق قذر). وهو مشلول الذراع الأيمن وفمه الملتوي ولسانه المتدلي غالباً ما يسيل منها اللعاب وهما يدلان في وضوح على أنه مصاب بفالج شقي. أين أصيب؟ لا أحد يعلم. لقد كان هنا قبلنا. من أين أتى؟ لا مراء في أنه سجين أو منفي هارب، إن الوشم (بات-داف) على صدره، بالإضافة إلى وشم (الحلاق قذر) على قذاله، يشيران بالتأكيد إلى أنه محكوم. يدعوه الحراس والسجناء بيكوليتو. يعامل معاملة حسنة، ويقدم له الطعام بانتظام ثلاث مرات في اليوم، ويعطى السجائر. عيناه الزرقاوان تعيشان في حدة، ونظرته ليست حزينة دائماً، عندما يرى إنساناً يحبه تلتمع حدقتاه بالفرح. يفهم كل ما يقال له ولايستطيع الكلام ولا الكتابة نظراً لشلل يده اليمنى، ويده اليسرى ينقصها الإبهام وأصبعان. هذا الحطام يبقى ساعات ملازماً للأسلاك الشائكة منتظراً مروري وأنا أحمل الخضار لأن هذا هو طريقي الذي أسلكه في الذهاب إلى مطعم الضباط. فكل صباح، عندما أحمل خضاري أتوقف لأتكلم مع بيكوليتو. ينظر إلي وهو متكئ على السلك الشائك بعينيه الجميلتين المختلجتين بالحياة في جسم شبه ميت. وكنت أسمعه كلاماً لطيفاً وكان يفهمني بأنه فهم كل شيء بإيماءة من رأسه أو بحركة من جفنيه. ووجهه المشلول يضيء لحظة وعيناه تبرقان مبتغياً التعبير عن أشياء كثيرة.

كنت أحضر له دوماً بعض الطيبات: سلطة بندورة وخساً أو خياراً، وكل شيء محضر من الصلصة المخللة، أو بطيخ الشمام، أو سمكة مشوية على الجمر. لم يجع أبداً لأن الغذاء متوفر في السجن الفنزويلي، ولكن هذا يختلف عن لائحة الطعام الرسمية، وبعض السجائر تكمل هداياي الصغيرة. وقد صار هذا مني دأباً حتى أن الحراس والسجناء أطلقوا عليه اسم (ابن بابيون).

شيء رائع. إن الفنزويليين يأخذون بمجامع القلوب ويأسرونها حتى أنني أزمعت الوثوق بهم ولن أهرب. لقد ارتضيت هذا الوضع الشاذ في السجن مؤملاً أن أصبح يوماً ما منهم. وقد يبدو أن في هذا تناقضاً. إن الطريقة الوحشية التي يعاملون بها السجناء لا تشجع على العيش فيهم. وأدركت أنهم يرون العقوبات الجسدية شيئاً عادياً لدى السجناء والجنود، فإذا أخطأ الجندي هو أيضاً ينال عقوبة الجلد وبعد أيام تراه يتحدث مع رئيسه أو العريف أو الضابط الذي جلده وكأن شيئاً لم يحدث.

هذا الأسلوب البربري انتقل إليهم من الدكتاتور غوفز الذي قادهم على هذا النحو سنين طوالاً. إلى درجة أن رئيساً مدنياً قد عاقب السكان التابعين لسلطته بهذه الطريقة طريقة الضرب بالسوط. وبسبب ثورة حدثت وجدت نفسي في إحدى الليالي حراً إذ حصل انقلاب عسكري ـ مدني أطاح برئيس الجمهورية عن كرسي الرئاسة، وهو الجنرال انكاريتا مدينا. أحد كبار الأحرار الذين عرفتهم فنزويلا. كان طيباً ديمقراطياً حتى أنه لم يعرف أو لم يشأ إراقة دماء الفنزويليين ليبقى هو محتفظاً بمنصب. وبالتأكيد إن هذا العسكري الكبير الديمقراطي جداً لم يكن يعلم بما يجري في إلدورادو. وعلى كل حال بعد مضي شهر على الثورة تبدل جميع الضباط وفتح تحقيق بموت ذلك الشخص بالمسهل. واختفى المدير وصهره وحل محلهما محام سياسي قديم.

ـ نعم بابيون سأطلق سراحك غداً ولكن سأعهد إليك باصطحاب بيكوليتو الذي ترعاه وليس معه بطاقة شخصية وسوف أعطيه واحدة. وبالنسبة إليك خونك هذه البطاقة الشخصية النظامية باسمك الحقيقي والشروط كما يلي:

يجب أن تعيش في مدينة صغيرة مدة عام قبل أن تستطيع الإقامة في مدينة كبيرة وفي هذا نوع من الحرية غير المراقبة ولكن هناك من يراك كيف تعيش ويتبه لطريقتك في الدفاع عن نفسك في الحياة فإذا أعطاك الرئيس المدني شهادة بحسن السلوك ـ وهذا ما أعتقده ـ فهو نفسه سيضع حداً لإقامتك الجبرية. وأتصور أن كرالاس ستكون بالنسبة إليك المدينة المثالية. إن ماضيك لا شأن لنا به وعليك أن تبرهن على أنك جدير بالموافقة على أن تكون رجلاً ذا اعتبار. وآمل أن تصبح قبل مرور خمس سنوات مواطناً بجنسية تخول لك وطناً جديداً. في رعاية الله. وشكراً لك على اهتمامك بهذا الحطام بيكوليتو ولا أستطيع أن أطلق سراحه إلا إذا وقع أحدهم على كفالته ونرجو أن يجد المرء في أحد المستشفيات.

غداً صباحاً سأخرج إلى الحرية الحقيقية وفي صحبتي بيكوليتو وقلبي فرحة عامرة، لقد انتصرت أخيراً على طريق العفن وإلى الأبد.

نحن في شهر آب (أغسطس) ١٩٤٤ وأنا أنتظر هذا اليوم منذ ثلاث عشرة سنة رجعت إلى بيتي الصغير في البستان، واعتذرت من أصدقائي مستأذناً في الانسحاب لأني في حاجة إلى الوحدة. كان انفعالي أكبر وأجل من أن أظهره أمام شهود. جلست أقلب مراراً هويتي التي أعطانيها المدير. حوزتي في أعلى الزاوية اليسرى والرقم ١٧٢٨٦٢٩، أعطيت بتاريخ الثالث من تموز (يوليه) العام١٩٤٤. وفي وسطها الجميل اسمي، ولقبه لقبي. وفي الخلف تاريخ الولادة في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) العام ١٩٠٦. بطاقة الهوية قانونية تماماً فهي موقعة ومهورة بتوقيع وخاتم مدير الأحوال المدنية. الوضع في فنزويلا: مقيم. ما أعظمها من كلمة «مقيم» فهذا يعني أنني ساكن في فنزويلا. وخفق قلبي خفقاناً سريعاً. وددت لو ركعت مصلياً لله وشاكراً. ولكنني لا أعرف كيف أصلي ولست معمداً. إلى رب من أتوجه؟ ما دمت لا أنتسب إلى أي دين. إلى إله الكاثوليك؟ أم البروتستانت؟ أم اليهود؟ أم المسلمين؟ إلى من أختار لأصلي له؟ حيث أنني مضطر إلى اختراع مقتطفات إذ إني لا أعرف صلاة كاملة. إنني أبحث اليوم عن الإله الذي أولي وجهي نحوه، ألم أفكر به عندما كنت أدعوه في حياتي. الإله الابن يسوع في سلته ومن حوله الحمار والثور؟ هلا زلت أحتفظ في ضميري بالحقد على الأخوات في كولومبيا؟ ولماذا لا أفكر براهب كوراساو السامي العظيم إيرنيه دوبروين؟ وقبله الراهب الطيب في سجن التوقيف؟

سأكون غداً حراً حرية كاملة، وبعد خمس سنوات سأكون فنزويلي الجنسية، فأنا واثق من أنني لن أعمل هفوة على هذه الأرض التي أوتني ووثقت بي، فينبغي أن أكون أكثر العاملين شرفاً وفي الحقيقة إنني بريء من جريمة قتل، أودى بي من أجلها إلى الأشغال الشاقة مدع عام وشرطة ومحلفون.

وما كان هذا أن يحدث لو لم أكن متشرداً عاطلاً عن العمل وذلك لأني كنت مغامراً حقاً فاستطاعوا أن ينسجوا بسهولة حول شخصي مجموعة أكاذيب وأوهام متشابكة. فتح صناديق الآخرين ليس حرفة فاضلة وللمجتمع حق وواجب الدفاع عن النفس فإذا ألقيت في طريق العفن فإن الشرف يقتضي أن أعترف بأني كنت مؤهلاً دوماً للوقوع فيه يوماً ما.

وإذا كانت عقوبتي لا تليق بشعب كالشعب الفرنسي، وإذا كان للمجتمع الحق في الدفاع عن نفسه لا في الانتقام على هذا الدرك من الانحطاط، فهذا كله شيء آخر.

فماضيّ لا يُمحى بجرة استنجة، فواجب علي أن أرجع إلى ما كنت عليه من الاعتبار في نظر نفسي أولاً ثم في أعين الآخرين ثانياً. إذن عليك أن تشكر إله الكاثوليك يا بابي وتعاهده على شيء مهم. إلهي اغفر لي ان كنت أجهل كيف أصلي ولكن أنظر إلى سري، لتعلم أنني لا أملك ما يكفي من القول لأعبر عن جزيل امتناني على ما أوصلتني إليه. وقد

كان الكفاح مراً. إذ تجاوز المحنة التي أذاقني عذابها أولئك الرجال لم يكن يسيراً، وإذا تيقنت لي أن أتخطى العقبات وأن تستمر حياتي في صحة جيدة إلى هذا اليوم المبارك، فذلك لأن يدك فوق يدي، وكنت لي عوناً وسنداً. فما عساني أن أفعل لأقدم الدليل على أنني من الشاكرين على إحسانك؟

ـ اعدل عن فكرة الانتقام.

هل سمعت هذه العبارة حقاً أم توهمتها؟ لا أدري ولكنها صفعتني في وجهي صفعاً حتى لكأنني سمعتها حقاً.

ـ لا. لا تطلب مني هذا. هؤلاء الناس قد أذاقوني الويل، كيف تريدني أن أغفر لرجال الشرطة الكاذبين، ولشاهد الزور بولاند؟ هذا غير ممكن. أنت تطلب مني فوق ما أستطيع إني أسف على معصية هذا الأمر، ولكنني لن أتخلى بأي ثمن.

خرجت وأنا خائف من أن أضعف لا أريد العدول.

خطوت في البستان بضع خطوات. كالتوتو يرتب سوق الفاصولياء المتسلقة لكي تلتف على الأعواد. اقترب مني الثلاثة توتو والباريسي المؤمل بالأماكن المنحطة في حي الموسات والترتاكليا اللص المولود في كورسيكا ولكنه كان يسلب الباريسيين محافظ نقودهم وحيلاتك، وهو من ديجون، وكان قد قتل قواداً مثله.

نظروا إلي ووجوههم تطفح بالبشر لرؤيتي حراً وهيا قريب سيأتي دورهم ولا شك.

ـ ألم تحضر معك من القرية زجاجة خمر للاحتفال برحيلك.

ـ اعذروني فقد كنت في غاية الانفعال فلم أفكر في هذا. اغفروا لي هذا النسيان. قال توتو:

ـ ليس لنا أن نسامحك أريد أن أصنع لكم جميعاً قهوة طيبة.

ـ هل أنت مسرور يا بابي، لأنك أخيراً تحررت نهائياً، بعد سنين طويلة من الكفاح نحن سعداء من أجلك، سيأتي دوركم قريباً. أمل ذلك.

ـ هذا أكيد فقد أخبرني النقيب بأنه في كل أسبوعين سيفرج عن واحد منا.

ـ وماذا تنوي أن تفعل بعد أن تتحرر؟

ترددت دقيقة ثم أجبت في جرأة رغم الخوف من أكون مضحكاً أمام هذا اللص وذينك المحكومين: ما الذي سأفعله؟ حسناً ليس الأمر معقداً، سأشتغل وسأكون شريفاً، سأخجل من ارتكاب ذنب في هذا البلد الذي أولاني ثقته.

وبدلاً من أن أسمع جواباً ساخراً فوجئت بالثلاثة يعترفون في وقت واحد إذ يقولون:

ـ أنا أيضاً قررت العيش مستقيماً، أنت على حق يا بابيون. إن هذا يشق علينا ولكن الموضوع يستأهل ذلك وهؤلاء الفنزويليون يستحقون أن نحلهم ذلك الإجلال.

لم أصدق أذني. توتو، والداعر في الأماكن المنحطة من الباستيل له مثل هذه

الأفكار؟ إن هذا لشيء يحير العقل. وانترناكليا الذي قضى حياته كلها في نبش جيوب الناس يتصرف مثل هذا التصرف؟ شيء عجيب. وميلانك القواد المحترف ليس في ذهنه أن يجد امرأة يستغلها؟ وهذا أيضاً مدهش. وأغرق الجميع في الضحك.

– لو أنك عدت غداً إلى الساحة البيضاء في مونتمارتر ورويت هذا الكلام فلن يصدقك أحد. وهذا شيء يوازي الذهب.

– الرجال من وسطنا سيصدقون لأنهم يفهمون ويدركون أما الذين لا يريدون أن يصدقوا فهم المحظوظون. الغالبية العظمى من الفرنسيين لا يؤمنون بأن رجلاً له ماضينا يستطيع أن يصبح رجلاً خيّراً في أية حال من الأحوال. هذا هو الفرق بين شعبنا والشعب الفنزويلي، ولقد حدثتكم عن قضية رجل إيربا الصياد المسكين الذي شرح للمفوض بأن الرجل لا يمكن أن يخسره المجتمع إذا أعطي الفرصة لكي يصبح إنساناً شريفاً.

هؤلاء الصيادون في خليج باريا والذين يكافحون ألا يكونوا أميين والضائعون في هذا الخليج الواسع من أوره توك، لديهم فلسفة إنسانية لا تجدها عند الكثير من مواطنينا.

إن التقدم تقدم ميكانيكي، والحياة حياة مضطربة، والمجتمع ليس له مثل أعلى إلا الابتكارات الميكانيكية الحديثة، وحياة أفضل وأيسر. إن التنعم بالاكتشافات العلمية كمن يلعق الغبراء لا تزيده إلا تعطشاً لرخاء أفضل وصراعاً دائماً للوصول إليه. كل هذه الأمور تقتل الروح، وقوة الإدراك والرأفة والنبل، ولا تبقي مجالاً للاهتمام بالآخرين، والاهتمام بأصحاب السوابق أقل بطبيعة الحال.

حتى سلطات هذا البلد تختلف عن سلطات بلدنا لأنهم مسؤولون أيضاً عن الأمن العام ورغم كل شيء فإنهم يغامرون ويقعون في المتاعب. ولكنهم على قناعة بأن ما فعلوه يوازي المخاطرة وخاصة إذا كان في ذلك إنقاذ إنسان، وهذا شيء رائع.

اقتنيت لباساً بحرياً أزرق قدمه لي تلميذي – والذي هو اليوم برتبة عميد – لقد ذهب إلى مدرسة الضباط منذ شهر تقريباً بعد أن دخلها بمسابقة وكان من الأوائل الثلاثة. وكنت سعيداً بمساهمتي في نجاحه إذ علمته دروساً في الرياضيات. وقبل ارتحالي قدم لي أمتعة جديدة تليق بي كثيراً. فخرجت، بفضله في أحسن هندام. فرنسيسكو بولانجو هذا رئيس الحرس الوطني متزوج ورب أسرة.

هذا الضابط وهو حالياً عميد في الحرس الوطني قد شرفني بصداقته النبيلة بقدر ما هي ثابتة خلال ست وعشرين سنة. إنه يمثل حقاً الاستقامة والنبل وأسمى ما يملكه رجل من مشاعر. ورغم مركزه في الرتب العسكرية لم يأل جهداً في إظهار صداقته ووفائه، وتقديم المساعدة أياً كانت. فأنا مدين بالشيء الكثير للعميد فرنسيسكو بولانجو أوتريرا.

نعم سأحاول قدر المستطاع أن أكون وأن أبقى شريفاً. والعائق الوحيد أنني لم

أشتغل قط، ولا أحسن شيئاً وعلي أن أقوم بأي شيء لأكسب رزقي وليس هذا هيناً. إنما سأبلغ مرادي. هذا مؤكد. وغداً سأكون رجلاً كالآخرين. لقد خسرت الرهان أيها المدعي العام فلقد خرجت من طريق العفن نهائياً.

كنت أهتز في سريري الأرجوحي بتوتر عصبي ففي هذه الليلة سأخرج من ملحمة سجني. نهضت ومشيت في بستاني الذي اعتنيت به خلال الأشهر السابقة. واستحال ضوء القمر إلى نهار، وماء النهر يجري خافتاً إلى المصب، والعصافير نائمة لا تزقزق، والسماء مزدانة بالنجوم ولكن ضياء القمر يحجبها فلا تبدو إذا أدار المرء ظهره نحو القمر. الغابة أمامي وفي وسطها بقعة جرداء تقوم عليها قرية إلدورادو. وهذا السكون العميق في الطبيعة أراحني وبدأ اضطرابي يهدأ شيئاً فشيئاً، وصفاء اللحظة هيأ لي سكوناً كنت أتوخاه، وأخذت أتصور في وضوح المكان الذي سيطؤه قدمي بعد النزول من المركب على أرض سيمون بوليفار، الرجل الذي حرر هذا البلد من النير الإسباني والذي أورث أبناءه المشاعر الإنسانية والمفاهيم التي بفضلها استطعت اليوم أن أعود إلى الحياة. عمري الآن سبع وثلاثون سنة ولا زلت شاباً، وحالتي الجسدية جيدة، ولم أمرض مرضاً يستحق الذكر وقواي العقلية حسبما أرى كاملة وطبيعية، ولم يترك طريق العفن في نفسي آثاراً مهينة. في الأسابيع الأولى من الإفراج عني لا ينبغي السعي وراء الرزق وحسب، ولكن علي أيضاً أن أجد العيش لهذا المسكين بيكو ليتو، إنها تبعة كبرى على عاتقي. ومع ذلك فرغم أنه سيكون عبئاً ثقيلاً على فسوف أصون العهد الذي قطعته على نفسي للمدير بأن لا أدع هذا التعس إلا حين أضعه في مستشفى بين أيد مختصة.

هل علي أن أعلم والدي بأني تحررت؟ فهو لا يعرف عني شيئاً منذ سنوات ترى أين هو؟ والأخبار الوحيدة التي تزود بها عني هي زيارات الشرطة له بمناسبة هروبي. يجب أن لا أستعجل الأمور ولا يحق لي أن أنكأ جرحاً ربما كان مندملاً. سأكتب عندما يتحسن وضعي، عندما أكون في وضع مستقر بدون متاعب، وحين أستطيع أن أقول له:

يا أبي الصغير! إن ابنك صار طليقاً وأصبح رجلاً طيباً وشريفاً ويعيش بهذه الصورة أو تلك، ولا تخفض رأسك بعد الآن بسببه، لهذا أكتب لك معلناً أنني أحبك وأجلك دوماً.

إنها الحرب. وما يدريني إذا كان الألمان يقيمون في قريتي الصغيرة؟ الأرديش ليس جزءاً مهماً من فرنسا ولا يكون الاحتلال فيها كاملاً. عم يبحثون قرب أشجار الكستناء؟ أجل عندما أغدو فقط في حالة جيدة وجديراً بذلك سأكتب أو بالأحرى سأحاول أن أكتب إلى أهلي.

أين أذهب الآن؟ سأبقى قرب مناجم الذهب في قرية تدعى كالّو، وهناك سأقضي السنة التي فرضت علي الإقامة فيها في مجتمع صغير. وماذا أصنع؟ الله أعلم. قلت

لنفسي: لا تبدأ بوضع العوائق مقدماً، عليك أن تحفر الأرض لتبلغ قوت يومك وينتهي كل شيء. يجب أولاً أن أتعلم كيف أعيش حراً. ولن يكون ذلك علي هيّناً. منذ ثلاثة عشر عاماً، ما عدا بضعة أشهر في جورج تاون لم أفكر في تأمين لقمة العيش ومع ذلك لم أعجز عن الدفاع عن نفسي، فالمغامرة لا تزال مستمرة وعلي أن أخترع وسائل للعيش دون أن ألحق الأذى بأحد. سأرى. إذن غداً إلى كالّو. الساعة السابعة صباحاً، أشرقت شمس استوائية جميلة، وسماء صافية لا غيوم فيها، والعصافير تزقزق مشقشقة فرحتها بالحياة. لقد تجمع أصحابي أمام باب حديقتنا. بيكوليو يرتدي ملابس نظيفة وقد حلق لحيته. كل شيء يستنشق الفرحة بحريق: الطبيعة والحيوانات والناس، وفيهم ملازم ثان سيأتي مع أصدقائي إلى إلدورادو.

قال توتو: لنتعانق ثم انصرف هذا أفضل للجميع.

- وداعاً يا أصدقائي الأعزاء، إذا مررتم بكالّو مروا علي وإذا كان لي بيت هناك فهو بيتكم.

- وداعاً بابي ونرجو لك حظاً سعيداً، وسرعان ما وصلنا إلى محطة الركوب وصعدنا إلى قارب مسطح. مشى بيكوليو مشياً حسناً لأنه مشلول فقط من أعلى وأما ساقاه فسليمتان واجتزنا النهر في أقل من خمس عشرة دقيقة. ها هي ذي أوراق بيكوليو وحظكم سعيد، فأنتما حران منذ هذه اللحظة. وداعاً.

وليس أشق من هذا. ترك السلاسل التي كنا نجرها منذ ثلاث عشرة سنة «أنتما حران منذ هذه اللحظة» وأداروا لنا ظهورهم متخلين بهذا عن حراستنا وهذا كل شيء. وصعدنا الطريق الحصوية التي تبدأ من النهر، وليس معنا إلا حزمة صغيرة فيها ثلاثة قمصان وبنطال احتياطي. وكنت أرتدي البذلة البحرية الزرقاء وقميصاً أبيض وربطة عنق مناسبة للبذلة وكتابتك. لأن العيش من جديد ليس مثل إعادة تركيب زر مقطوع. وإذا مر اليوم خمس وعشرون سنة على تلك الحادثة، وأنا متزوج سعيد في كراكاس بصفة مواطن فنزويلي، فذلك بعد أن مررت بمغامرات أخرى ومواقف ناجحة وشهرة، ولكن كرجل حر ومواطن مستقيم، وربما سردتها يوماً ما، وحكايات أخرى ليست بذات شأن كبير لم أجد في هذا الكتاب مكاناً لها.

الفراشة

ملحمة إنسانية تضج بالبهاء.. بكل ما هو خارق وواقعي.. حكاية إنسان يجترح المستحيل من أجل الحرية.. حريته في حياة عادية ينالها جميع الناس بدون استثناء ويتجرعونها حتى السأم يوماً بيوم.. حريته في النوم بأمان، في المشي والضحك.. والانتقام أيضاً.

عفوية حتى الجرح.. تنساب بعلوية صريحة تروي في كل عبارة موقفاً له علاقة وشيجة بمكنونات النفس البشرية التي تخبىء في أعماقها أدنأ وأخس ما يمكن لنا أن نتصوره عن الرداءة الانسانية التي تصل حتى القتل تقطيعاً.. حتى ازدراد اللحم البشري بشهية وإلقاء كائن بشري طعاماً للنمل اللاحم.. لكنها وفي الوقت ذاته تمسح غباراً كثيفاً عن مواقف في غاية النبل وعفوية صارمة تشمخ بلا تكلف أو ادعاء.

في هذا العالم السفلي الذي يصل أصحابه والمبتلون به إلى التآلف مع كل ما هو مرفوض علانية بين المتحضرين، إلى اقتراف أبشع المنكرات دون أن تهتز شعرة في بدن بسبب أمور تافهة وأحياناً بلا سبب.. ولكنهم ــ وفي الوقت الذي يعانون فيه موتاً يومياً حاداً ــ يأتلفون يداً واحدة حول مطاليبهم الصغيرة والعادلة ثم لايتراجعو ن عن أية تضحية بما فيها حياتهم في سبيل انقاذ صديق أو إغاثة جار أو تهيىء الفرصة لملهوف تحرقه نار الهروب للعودة إلى حياته بأي ثمن وربما لن يصل..

إنها تجربة فذة تتسرب في الأعماق كزجاج مطحون.. لاتهضم لكنها لاتنسى.

بابيون... إنها معركة إنسان لايلين في سبيل الحرية.. بالضبط.. هي الحرية.

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب: ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان.

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص. ب: ٥٨٠٣٠ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

الثمن ٣٠ ل.ل. أو ما يعادلها